مدن نسكنها
ومدن تسكننا

سالم صالح محمد

الكتاب: مدن نسكنها .. ومدن تسكننا

الكاتب: سالم صالح محمد

الطبعة: **2018**

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)



5 ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة

جمهورية مصر العربية

هاتف : 35825293 – 35867576 – 35867575

فاكس : 35878373

http://www.apatop.com E-mail: news@apatop.com

دار الكتب المصرية

فهرسة إثناء النشر

صالح محمد ، سالم

مدن نسكنها .. ومدن تسكننا / سالم صالح محمد

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

722 ص، **18** سم.

الترقيم الدولى: **978 –977 –446 – 714 – 0**

أ – العنوان رقم الإيداع : **5674 / 2018**

مدن نسكنها
ومدن تسكننا



توطئة

لولا مساعدة وتشجيع شقيقي وصديقي علي صالح محمد، والعم العزيز عمر عبد الله الأصبحي، رحمه الله، والأخ أحمد محمد حسين الضباعي (شوقي)، والإخوة الزملاء: محسن بن محسن ديان، ومندعي عبد ربه ديان، والدكتور علي صالح الخلاقي، والأستاذ صادق ناشر، وصبر ودعم صلاح وبدر وخلدون وميرفت وخلود وأم صلاح، لما رأى هذا الكتاب بجزأيه النور.

لهم جميعاً، ولكل من ساعدني في إخراج هذا الكتاب، الشكر والتقدير والمحبة.

مقدمة

بعد سنوات من الجهد، أضع بين يدي القارئ الكريم هذا الكتاب، المتضمن ذكرياتي عن أهم الشخصيات التي تعرفت إليها، والمدن العربية والعالمية التي زرتها، تلك التي ظلت في وجداني وثنايا ذاكرتي، فدونت ما دونت هنا عنها.

فكرة هذا الكتاب نابعة من تنقلي الدائم بين مدن الدنيا، وتعرُّفي فيها إلى الكثير من الشخصيات، خاصة خلال عملي في الفترة من **1973-1975**م، سكرتيراً عاماً للمجلس اليمني للسلم والتضامن والصداقة مع الشعوب.

وفي الفترة **1975-1979**م، سكرتيراً للعلاقات الدولية (الخارجية) للتنظيم السياسي الموحد الجبهة القومية، ثم وزيراً للخارجية في الأعوام الممتدة بين **1979 - 1982**م، فخلال هذه الفترة وبعدها، زرت **182** عاصمة ومدينة، ابتداء من جزر «الهاواي» في المحيط الهادئ غرباً، حتى كوريا الشمالية شرقاً، وقابلت أثناء ذلك كثيراً من الأشخاص، والقادة والزعماء، كما أنني قد قضيت مدة تقارب الثمانية أعوام (**1994 - 2001**م) خارج الوطن، متنقلاً بين كثير من البلدان، بالإضافة إلى زياراتي ومشاركاتي الرسمية في وفود خارجية، بعد عودتي إلى اليمن، وعملي مستشاراً لرئيس الجمهورية اليمني.

كل هذا الكم من الانطباعات والذكريات عن المدن والشخصيات، حدا بي إلى أن أدونه كعمل، من باب هواياتي للكتابة، ومن رؤية التسجيل التاريخي لما صاحب ذلك من أحداث هامة، وأود أن أبين هنا، أن المدن والشخصيات العربية والعالمية التي رأيتها وتعرفت إليها أثناء رحلاتي وأسفاري، كثيرة، إلى حد يصعب حصرها جميعاً، لذا، فليست جميعها واردة في الكتاب، لأن الهدف من وضع هذا الكتاب، ليس توثيق تلك الأسفار والرحلات كلها، وإنما تدوين

أهمها، وأهم الشخصيات والانطباعات والذكريات والحقائق والأحداث التي كانت سائدة أيامها.

لعل الأسلوب الذي اتبعته في هذا الكتاب مناسب، كونه يحتوي – أيضاً – في كل مدينة، على وصف لها وأحوال الناس فيها بقدر الإمكان، وكذا، أحداث وطرائف وذكريات عن أشخاص من الطراز العالمي، وأناس عاديين يستحقون الذكر، لذا، فكل قسم خاص بمدينة ما في هذا الكتاب، أشبه بباقة زهور وورود متعددة الألوان والأشكال والروائح العطرة، وأرجو من الله عز وجل، أن أكون قد وُفّقت في تقديمها للقارئ الكريم بالشكل والمضمون اللذين يستحقان رضاه.

في القسم الأول من الكتاب، والذي خصص لرحلات السفر في اليمن وانطباعي عن الشخصيات التي قابلتها خلال هذه المدة الطويلة التي ظلت تجول في الذاكرة، أود أن أبيّن أنها كانت كثيرة، وما علق بذاكرتي سوى قليل منها، بسبب الأجواء المخيّمة، أو لأسباب شخصية برزت حينها، أو لكون أحداث جسام جرت في هذه المدينة أو تلك، واستحوذت على انتباهي أثناء زيارتها، فحلت أحياناً محل تفاصيل كان يجب أن أتذكرها الآن، عند وضع هذا الكتاب.

هناك أسباب أخرى قد تكون حالت دون إيراد الذكريات عن بعض المدن، منها أن مكوثي في تلك المدن لا يحمل جديداً أقدمه للقارئ، سواء من حيث الأحداث التي جرت في المدينة المعنية وتاريخها وشخوصها، أو من حيث ذكرياتي الشخصية الخاصة بها، وكذلك الحال بالنسبة للأشخاص؛ فإيراد أسماء أشخاص هنا وهناك، لا يعني أنني قد شملت الجميع، وإنما أوردت من هم في الذاكرة، أو من هم كأمثلة لمجموعات شاركت في صنع متغيرات، أو نماذج لأبناء

مدينة أو منطقة، وأحياناً اهتممت بشخصيات رأيت أن لها فعل الأثر التاريخي، الذي يفرض نفسه من بين شخصيات كثيرة جداً قد تكون صنعت الحدث.

في جميع الحالات المذكورة آنفاً، والتي هي معبرة عن حالات عديدة أخرى مماثلة، أستميح القارئ العزيز عذراً، إن نسيت مدينة أو لم أورد شخصاً، فالهدف من هذا الكتاب ليس تسجيل مذكرات شخصية متكاملة، وإنما تدوين بعض الذكريات عن المدن التي زرتها وعشت فيها، وما جرى فيها من أحداث ووقائع، ومَنْ قابلتهم أو عايشتهم فيها، فقد كان لديَّ الوقت لأن أكتب مثل هذا العمل، الذي يجمع بين الحديث عن مدن وشخوص، وسرد منعطفات هامة من تاريخ اليمن جرت في تلك المدن، وكذا التحدث عن طبيعتها وأهلها، ومشاعري عند المكوث فيها أو زيارتها، وأيضاً ما عرفته ورأيته أو قرأته عن تاريخها وجذورها التاريخية.

وقد اتبعت هذا الأسلوب، لأنه لم يتوفر الوقت الكافي لديَّ بعد لكتابة مذكراتي الشخصية، التي تحتاج إلى وقت طويل، وتمحيص دقيق لتدوين التفاصيل.

سالم صالح محمد
دبي - 2016

ضيئان.. مسقط الرأس

إذا كنت سأبدأ السفر في ذكريات عن المدن والشخصيات اليمنية، فمن أين لي أن أبدأ في هذا الوطن الواسع، الذي مخرت فيه سبعة عقود من الزمن – هي عمري حتى الآن – جُلت فيه وتنقلت، ولم أرَ سوى بعضه القليل، لن أبدأ من عدن، أعز المدن وأقربها إلى قلبي، ولن أبدأ من صنعاء، حيث يسطر قلمي هذه الذكريات، لكن سأبدأ من حيث رأيت نور الدنيا لأول مرة.

ولدت في قرية (ذي غان)، التي تحوّر اسمها مع الزمن لينطق بالضاد والهمزة، بدل الغين والذال، وكانت قرية مكونة من عدة بيوت حجرية، أشبه بالقلاع، تقع على ارتفاع **2156** متراً عن سطح البحر، في الهضبة الواقعة بين جبلي (ثمر وحبه) الشهيرين في يافع، وتطل من الناحية الجنوبية على وادي صَدْر، الذي تنحدر مياهه إلى ذي ناخب وسباح، وتصب في وادي حسان، ومن الناحية الشمالية، تطل على وادي حطيب وخطهه، اللذين تنحدر مياههما إلى وادي بنا، ويصب في سد باتيس محافظة أبين، وتكسوها مدرجات زراعية خضراء ربيعاً وصيفاً، وتصبح سمراء اللون خريفاً وشتاءً، لاعتمادها على مياه الأمطار الشحيحة التي تهطل في مواسم الصيف والخريف.

والمنطقة عموماً جبلية وعرة شديدة المنحدرات، وترتبط القرية من الناحية الجنوبية بوادي صدر وبلبعوس من خلال (نقيل صدر) ونقيل (الزنادي)، ومن الناحية الشمالية، ترتبط بحطيب وبني بكر ومنطقة الحد عموماً (بنقيل ذبوب)، والنقيل جمعها (نِقوَل)، هو الطريق الذي يربط الهضاب بالوديان، وبُنِيتْ قديماً من الحجارة المرصوصة بعناية، لتسهيل حركة السكان في

المنطقة، وكطريق للقوافل القديمة القادمة من عدن، الميناء التجاري، والمتجهة إلى مناطق اليمن شمالاً والعكس، ومن النقول الأخرى، أذكر نقيل الطف ونقيل الخلاء، اللذين يربطان هضبة لبعوس جنوباً بيهر منها بردفان المؤدي إلى لحج وعدن عبر نقيل الربوة. ومن الشمال، هناك نقيل بني بكر، ثم نقيل حمرة، الذي يربط المنطقة بالحد وبرداع، وبعدها يأتي نقيل يسلح المؤدي إلى صنعاء، ومثلما كانت القافلة تمر بهذه القرية قديماً، أصبح الطريق الأسفلتي الذي يربط مناطق الشمال بالجنوب، يمر اليوم بنفس القرية، وهي إحدى قرى ربع (الثلثي)، المكوِّن الرابع لمكتب الحضارم، أحد مكاتب يافع العشرة، حسب التقسيم القبلي التاريخي ليافع العليا والسفلى، إلى جانب مكاتب البعسي والمفلحي والضبي والموسطي واليهري والناخبي واليزيدي والسعدي والكلدي.

وُلِدتُ في أسرة فلاحية، مثلها مثل كل الأسر في المنطقة التي تعتمد على زراعة الأرض الشحيحة وتربية الماشية، وتلبي **90%** من متطلباتها من خيرات وطبيعة الأرض المحدودة المساحة في الجبال المرتفعة والوعرة، التي لم تعد اليوم قادرة على تلبية احتياجات السكان المتنامية.

ورغم قساوة الطبيعة ومشقة الحياة وصعوبتها، لشُح المياه وضيق مساحة الأرض الزراعية، ترى عظمة عمل الإنسان وجهده في صنع الحياة، وبسبب الظروف المعيشية الصعبة في المنطقة كانت، الهجرة بحثاً عن الرزق والمعيشة في مناطق أخرى، خياراً تاريخياً للتوجه باتجاه عدن ويافع الساحل (دلتا أبين) ولحج وحضرموت، وغيرها من مناطق اليمن، وكذلك الهجرة إلى الخارج باتجاهات عدة إلى بلدان قريبة وبعيدة، وكان من نصيب أسرتنا، أن ينتقل والدي وعمي «علي» للعمل في عدن. وقد عرف أبناء المنطقة بالجد والجدية في العمل، والصدق والأمانة، وتلك الصفات كانت متوارثة جيلاً بعد جيل، اكتسبوها من واقع العلاقة بالطبيعة القاسية، وكما يقولون، فكل بلد يكون أهله أشد منه.

في النصف الثاني من أربعينيات القرن الماضي – زمن مولدي – كانت الصورة بائسة ليافع مسقط رأسي، التي كانت تستعر ناراً. ففي حين كانت الحرب العالمية الثانية تضع أوزارها، كان الصراع والقتال القبلي يحتدم هنا وهناك بين قرى ومكاتب وقبائل يافع، يحرق الأخضر واليابس، يجدب الأرض ويهجر الرجال، ويضع على كاهل المرأة مهمات الفلاحة وجلب الحطب وسقي الماء من الآبار البعيدة تحت الخطر.

وكان الحال جحيماً لا يطاق، عندما يدور الاقتتال أحياناً في نطاق القرية الواحدة بين بيوت أو عائلات وأخرى من نفس القرية، بسبب ما تفرضه قواعد وأعراف الثأر القبلية، التي تتحكم بواقع الحال المفروض بين القبائل المتنازعة، هذا إضافة إلى العزلة المفروضة، وغياب التعليم، وانتشار الجهل والأمراض، والحصار المضروب من قبل الإنجليز ودولة الإمام على المنطقة.

ولا غرابة إن قلنا إنه حتى عام 1967م، لم تدخل في قاموس اللغة في يافع بعض الكلمات والمفاهيم، كالمدرسة أو المدرس أو الطبيب أو المستشفى أو العيادة، بل ولم تعرف طرق السيارات، وغيرها الكثير، الأمر الذي يؤكد مدى صعوبة الحال آنذاك.

كل تلك الأسباب، جعلت الآباء يفكرون بترحيل الأبناء بعيداً عن المعاناة والمخاطر التي تولدها أتون النزاعات والصراعات القبلية والواقع الصعب، خوفاً عليهم من جهة، وللبحث عن فرص العيش الأفضل أو تحصيل شيء من التعليم المحدود في المستعمرة عدن من جهة أخرى. علاوة على ذلك، فقد كان الاحتلال البريطاني حريصاً كل الحرص على إبقاء (يافع) تعاني من العزلة، وفريسة تنهشها مخالب الفقر والتخلف والصراع القبلي الفتاك، مثلها مثل غيرها من مناطق ريف الجنوب (المحميات). فكل محمية أو منطقة، كانت معرضة لبطش وقسوة بريطانيا العظمى، ما لم تذعن لطاعتها العمياء، ذلك أن

مناطق يافع – باستثناء جزء من سلطنة يافع الساحل (خنفر ودلتا أبين) – لم تذعن للاحتلال البريطاني، ولم تقبل وجوده فيها، بالرغم من قيام عدة مشيخات ومكاتب فيها بتوقيع معاهدات حماية مع بريطانيا، لا كخضوع لها، بل كالتزامات من قبل السلاطين والمشايخ بعدم خلق علاقة مع المملكة المتوكلية اليمنية آنذاك.

اسمي سالم صالح محمد علي عبد الله علي حيدرة بن سعيد عبد الله حيدرة الجبري الحضرمي اليافعي.. هذا هو أنا، من حيث النسب والانتماء، كما تعلمنا منذ الطفولة أن نحفظ اسمنا واسم الجد وجد الجد، لنعرف هويتنا ومن نحن، في إطار الفخيذة والقبيلة والمنطقة. كنا أطفالاً وشباباً، علينا معرفة النظام والأعراف والعادات القبلية منذ الصغر. وكان السعيد والمحظوظ منا، من يخترق ذلك الستار الحديدي وينفذ من غياهب الجهل والظلام الدامس، ويسافر إلى عدن ليلتحق بمدرسة خصصت لأبناء موظفي الحكومة البريطانية أو لمن ولدوا فيها، أو التوجه إلى إحدى عواصم السلطنات، ليجرب حظه في أن ينال فرصة الدراسة في مدرسة خصصت لأبناء الأمراء وأسر المشيخات. أو السفر إلى قعطبة للدراسة في مدرسة خاصة أنشأها الإمام، استجابة لطلب الشيخ أحمد أبوبكر النقيب (شيخ الموسطة– يافع).

في ظل تلك الظروف القاسية والأوضاع الصعبة (فتنة وقتال وتخلف) في الأرجاء اليافعية وفي الوطن قاطبة، باستثناء (مستعمرة عدن)، قرر والدي المقيم في عدن، استدعائي للالتحاق به، عسى أن يوفقه الله ويتمكن من إدخالي مدرسة، لقناعته أن ما تلقيته في كُتّاب القرية (المعلامة) لا يشكل شيئاً، بعد أن رأى التعليم الذي يتعلمه الطلاب في عدن، ولا يمكن أن أنسى هنا الدور الشخصي الذي لعبه الوالد الفاضل عمر عبد الله الأصبحي، رحمه الله، لإقناع والدي بأهمية التعليم، وكان له فضل كبير في إقناع العديد من الآباء لإلحاق

أبنائهم بالمدارس، ومن نتائج ذلك، أن تخرج من عائلته أكثر من أربعين فرداً في مختلف التخصصات، منهم عشرون طبيباً وطبيبة، وبفضل دعمه ومساعدته، وصل منا أربعة إلى سدة الوزارة، منهم الشهيد محمد صالح مطيع، والمرحوم محمد أحمد سلمان، وأنا، والقبطان سعيد عبد الله يافعي، والسفير محمد عبد القوي السلفي.

ومن أمثاله، نذكر كلاً من الوالد الفاضل محمد زين العمري، الذي ربطته بالعم عمر زمالة عمل طويلة في مطار عدن، وهما من الكفاءات القيادية المتمرسة والمؤهلة، وكانا يمثلان ثنائياً متميزاً في الحكمة والعلم والاهتمام بتعليم أبناء المنطقة، وهناك أيضاً الشيخ أحمد سيف المفلحي، أطال الله عمره، الذي كان له دور مميز وفضل كبير في دعم تعليم أبناء المفلحي خاصة، ويافع عامة، ووصل إلى سدة الوزارة من يافع بني قاصد، فضل محسن عبد الله ومحمد جرهوم وخالد شيخ والشيخ فضل بن محمد العفيفي ومحمد السعدي وعلي اليزيدي، وعشرات من القادة العسكريين والسياسيين. وكذا، الوالد المرحوم ناصر علي الداعري، والد نصر وفاروق ومحمد ناصر يافعي، الذين تخرجوا في جامعات مصرية وبريطانية، وشغلوا مناصب رفيعة، بما في ذلك الوزارة، وكذا أختهم العزيزة، نبيهة ناصر يافعي، التي تعتبر أول فتاة يافعية تتخرج في الجامعة، وشغلت وكيل وزارة المعارف قبل الاستقلال، وها هو فاروق يافعي وابنه فراس يافعي، يواصلان مسيرة الآباء باقتدار وشموخ.

في عام 1957م، كان عمري حينذاك عشر سنوات، عندما غادرت قريتي ضيئان (ذي غان) منطلقاً في الرحلة الأولى في حياتي، وهي الرحلة التي لا تنسى صور قسوتها، ولا يمكن أن تمحى من الذاكرة، كصور مؤلمة ومؤثرة في مشاعري الغضة، مشاعر الطفولة، ذلك لأنني ما كنت متوقعاً ولا جاهزاً لعملية فقدان الحنان الطبيعي الذي كنت أنعم به في ظل رعاية أمي، ولم يدر بخلدي

أنني سأترك ذلك العالم الجميل، من متع اللعب واللهو مع أقراني في القرية، وأنني سأنتقل بعيداً عن زملائي في معلامة سيدي (أحمد عبد الله العبادي)، أستاذي (الفقيه) الذي علمني مبادئ القراءة والكتابة، وحفظني آيات المصحف الكريم في قرية الشبر القريبة من قريتنا، وقد كان، رحمه الله، نشيطاً في عمله وقوياً في الرقابة على تلاميذه، فذكريات عصاه وهي تحوم فوق رؤوسنا ما زالت في ذهني حتى الآن، بعد هذا العمر الطويل.

ما كنت يومها أصدق أنني سأفتقد أريج الحشائش والأشجار الخضراء، ومنظر الفراشات الطائرة بألوانها الزاهية، ما كنت يومها أصدق أنني سأفتقد تلك الصباحات الندية التي تفوح في أجوائها روائح الأدخنة المنطلقة مع خيوط الشفق من مطابخ البيوت والديام (جمع ديمة، وهي غرف صغيرة ملحقة في سطوح المنازل)، ما كنت يومها أتخيل أنني قادر على البعد عن هذه الأجواء التي تجتذبني، البعد عن تنفس عبق الأرض حين تمطر السماء وتسيل الشعاب بسيولها الهادرة، لتروي الأرض العطشى، لتدب وتنتعش الحياة في الناس وفي كل شيء، وتراهم غادين ذاهبين إلى الأرض لبذرها وزراعتها، وحين يأتي الخريف يكبر الفرح في النفوس أكثر وأكثر، لطول موسم المطر وقرب موسم الحصاد وأيام البرياش والجهيش وأكل المضار والتفاخر ببيارق الجهيش من عناقيد السبول التي تصنع من خيرة ما أنتجته الأرض من محصول الذرة، الذي لا تضاهيه أي حبوب، وبالذات في طباخة العصيد، كأهم وجبة لكل المزارعين في المنطقة. الكل يعيش موسم الفرح والابتهاج، بما في ذلك الحيوانات والدواب والطيور.

مشاعر توديع وترك هذه الصور ومفارقة الأجواء التي ألفتها الروح والبصر، ولم تعتد على غيرها، كان يثقل نفسي بمشاعر الفراق الصعبة، ويمنحني الإحساس بأنني أغادر إلى مصير مجهول، لا أدرك عنه شيئاً، أغادر إلى البعيدة،

إلى عدن، وها أنا أنزل من تلك الجبال الشاهقة والوديان العميقة، تائه الروح والعقل، ومشدوداً إليها، كمن انتزع من حضن أمه، وخصوصاً حين اقتربت لحظات الوداع الذي استمر لعدة أسابيع، منذ أن وصلت رسالة أبي في طلبي من عدن، كان وداعاً يومياً تقريباً، وفي كل يوم كانت الدموع تسبقني للإفصاح عن عدم رغبتي في ترك أمي، باعتباري أكبر أبنائها، وكنت ألجأ لكل وسائل الإقناع، لكنه، وبالرغم من دموعها التي كانت تعمد إلى إخفائها حتى لا تجد طريقها إلى نفسي والتأثير في معنوياتي، كانت تتعمد شحذ همتي وتشجيعي على السفر، بكوني لم أعُد طفلاً، بل أصبحت رجلاً يؤمل عليه لمساعدة الأسرة من خلال التعلم، لأصبح رجلاً ناجحاً، وباعتباري أول شخص من القرية ينزل للتعلم، كما كانت تكرر القول والدموع تنهمر من مآقيها بشدة ولوعة، كما كانت تكرر القول.

وفي لحظات المغادرة، نظرت نظرة وداع إلى أمي وإلى أصدقائي وإلى قريتي، نظرة يعتصرها الألم وحرقة الفراق المر، بعينين تفيضان دمعاً كبحر هائج، بكبرياء صنعته صفات القبيلة، أبت السقوط من الأجفان.

بدت أمي وهي تحبس دموعها أيضاً، لتمنحني الثقة، وتشعرني بأنني أصبحت في سن ينبغي أن يعتمد على نفسه، فالسفر أول علامات الرجولة، هنا، أخذت تردد الكلمة التي يقولها كل أب وأم يافعية أثناء الوداع: ودعتك الله.. ودعتك الله.. وفي تلك اللحظة، أدركت أنني سأنتقل إلى عالم جديد، وأنني ودعت عالم الطفولة البريئة الجميلة، وأنني سأبتعد كثيراً عن حضن أمي الدافئ والحنون.

في معمعة الوداع ولحظات المكابدة، كنت أخفي نزول دموعي المحتقنة كلما اختلست النظر إلى الوراء، وحينها كان عمي عبد الله يلوح بيديه نحوي،

مشيراً إلى خط الطريق، أحسست بأن عمي عبد الله بدا كطود شامخ، لا تفله عبرة أو شهجة والسفر برباطة جاش، مثله مثل كل الرجال.

بدأنا التحرك سيراً على الأقدام، وأمامنا رتل من الحمير والبغال التي كانت وسيلة النقل الوحيدة في هذه المنطقة والمناطق الوسطى في اليمن. فالسيارات لم تصلها بعد، ولم نكن قد رأيناها في حياتنا. وكلما ابتعدت المسافة، كنت أختلس الرؤية إلى الخلف مجدداً، وأتساءل في قرارة نفسي (أما زالت القرية (ضيئان) التي أحببتها، ظاهرة للعيان، أم أنها قد اختفت؟).. كنت أراها تختفي شيئاً فشيئاً، وكأنها تغوص في لج بحر من الجبال، وعندما بدأنا نسير نزولاً في أحد المنعطفات باتجاه جبل (حبه)، رأيتها تتلاشى تماماً، ولكيلا أفقدها، رسمت صورتها بفؤادي، وحفرت معالم هيئتها بذاكرتي إلى الأبد. ما إن نزلنا من الطرف الشرقي لجبل العر، واصلنا السير ساعات، حتى ابتعدنا كثيراً عن يافع واقتربنا من (الزاهر)، وعندها بدأت أنظر إلى الأمام فقط، تارة أرى الطريق، وتارة أخرى كان يرتسم أمامي سؤال كبير، ما الذي ينتظرني؟ وأي عالم أنا ذاهب إليه؟.

كان المساء قد حل بظلامه، فقضينا ليلتنا في الزاهر في منزل الأخ حسين مسود والحجة شمس. وعند خيوط الصباح الأولى، واصلنا الرحلة سيراً عبر وادي الزاهر، الذي تكسوه الخضرة هنا وهناك، وصولاً إلى (البيضاء)، بدا لي وكأنني قد فقدت يافع كلياً، إذ لم يعد بمقدوري رؤية أي جزء منها، فقد ابتعدنا كثيراً عنها. ومن البيضاء واصلنا رحلتنا إلى (مكيراس)، لنقضي فيها ليلة أخرى، وفي اليوم التالي، اتجهنا إلى مطار مكيراس الترابي المتواضع، وحين هممت بركوب الطائرة ذات المحركين، ودعت ضيئان في قلبي، وعيني مليئة بالدموع، وقيل لنا إننا سنغادر إلى عدن بالطائرة، وحين رأيت الطائرة، تشكلت لدي أول مشاعر الاندهاش لرؤية شيء غير مألوف أراه لأول مرة، وأخذت أسأل نفسي:

هل يا ترى ستعوضني عدن عن مشاعر الفراق التي كنت أعيشها لحظتها؟، وحين حلقت الطائرة محاذية للسحاب، شرعت أتخيل: كيف هي عدن، هل حقاً ستكون أجمل من ضيئان، كما قالت أمي.

لم أصدق طوال السفر أنني في داخل جسم يطير بالجو، وكانت هذه أولى المفاجآت التي أذهلتني، ولم أكن أصدق أننا في ظرف ساعة زمن سنصل عدن، مع أن رحلتنا من يافع إلى مكيراس استمرت يومين.

إن الذهاب أو الإياب عبر سيلة وطن الطويلة المتعبة والمكسوة بالحصى والأحجار، ثم إلى وادي يهر، وصعوداً عبر نقيل الخلاء، أكبر العقبات الشاهقة، وصولاً إلى لبعوس، ثم إلى ضيئان. كل هذا العناء ومشقة السفر من عدن إلى مسقط الرأس، يهونان ويضيعان حينما ترى الأهل والأقرباء والأصدقاء، وتنتعش بالهواء العليل، وتسر بمنظر الجبال والوديان الخلاب. بل وتنساهما بفعل متعة العيش ونمط المعيشة اليافعية، التي ظللت متعلقاً بها ومعجباً بها حتى اليوم.

لم أنسَ مسقط رأسي يوماً، وقمت بزيارته عدة مرات قبل عام **1967**م، رغم صعوبة الوصول، إذ كان لزاماً علينا السفر عبر مكيراس والبيضاء ثم الزاهر، متنقلين عبر وسائل النقل التي كانت تصل فقط أيامها إلى الزاهر، وخلال تلك الفترة، ارتبط بالذاكرة حدثان مهمان في حياتي، الأول مفرح، وكان ذلك في عام **1962**م، حيث أقدمت على الزواج من شريكة عمري وأم أبنائي الوفية (أم صلاح وبدر وخلدون وميرفت وخلود)، والحدث الآخر مؤلم في عام **1965**م، حينما ذهبت لإتمام عرس أختي، الذي لم يتم حينها، لأن المقادير لم تمهل والدنا، حيث توفي في عدن في نفس يوم سفري عبر مكيراس ووصولي إلى القرية، وذلك إثر مرض عضال في القلب.

بعد عام **1967**م، أمكن شق طرق ترابية إلى المنطقة عبر السيلة البيضاء، وبعدها عبر يهر لتصل إلى لبعوس، وبعدها تم شق نقيل الخلاء، الذي

كان عقبة كأداء تفصل جبال لبعوس عن وادي يهر، وبهذا توفرت الإمكانية للسفر إليها بالسيارة.

وكانت بداية شق النقيل المذكور عام **1968**م، أثناء عملي مأموراً للمديرية الغربية، التي كانت تشتمل (مناطق يافع كلها)، ثم افتتح في أغسطس عام **1974**م، وقبل ذلك كانت الحمير تقوم بحمل الأفراد والبضائع من أسفل وادي يهر العميق إلى أعلى جبل الخلاء العالي، الذي يمثل مدخلاً إلى مناطق لبعوس وجبل اليزيدي. ومن طرائف الحدث يومها، أنه تم إقامة حفل خطابي بهذه المناسبة المهمة، ألقيت فيه الكلمات من قبل المسؤولين، الذين أشار أحدهم في خطابه إلى (إن شق طريق نقيل الخلاء ضربة للرجعية والإمبريالية)؛ فما كان من أحد مالكي الحمير (وهو من منطقة السلفي)، التي تقوم بالنقل من أسفل الوادي إلى أعلى قمة النقيل، إلا أن صرخ: (شق طريق نقيل الخلاء – في الحقيقة – ضربة موجعة لحمار عمك حسين).

رغم سهولة الوصول إلى ضيئان، مسقط الرأس، منذ الثمانينيات من القرن الماضي، والتي ازدادت يسراً مع مرور السنوات، أما بعد أن تم سفلتة الطريق، فيتم قطع المسافة بين عدن ولبعوس خلال ساعات، ولم يعد السفر إلى مسقط الرأس بذي بال، ومع ذلك، فإن الأشواق إلى هذا المكان لم تزل في نفس وتيرتها وقوتها، منذ أن غادرت المنطقة وحتى اليوم، وأتخيل أن الجميع يحملون نفس المشاعر تجاه مسقط الرأس.. وهنا، تحضرني أبيات للشاعر الخالد يحيى عمر اليافعي (أبو معجب)، والذي تنقل في بلدان كثيرة، مثل البحرين وعمان والهند وغيرها من البلدان الجميلة، ومع ذلك ظل شوقه وحنينه إلى مسقط الرأس يافع، حيث تراه يصف هذا الحنين بهذه الأبيات:

ذكَرت واشتاق قلبي لا جبل يافع

مُشتاق للأهل والأحباب والخلاَّن

للأرض ذي حلَّهَا كَم مِن نمر شاجع

لضيفها نور أمـا للعِدا نيـران

أهل النِّصَلْ والسَّلب باروتهم والع

لا اهتانت الأرض ما من يافعي يهتان

وبعد بلّغ سلامي يا قمر طالع

على الجبال العوالـي وانزل الوديـان

ترى مناظر يعانقها الهواء ساقع

سقاها الله هَطْل الغيث من لمـزان

ولو ترى الـواد زارع والجبل زارع

ترقُص غصونه على شُبَّابة الرعيـان

سلام من قلب عاشق مبتلي طامع

لكل غاني موَلَّع سَمْهَلي فتَّان

سلام يِمْلاَ البلَدْ ذي حدَّها واسـع

من لحج لا أبين ومن ردفان لا ردمان

وقـل لهـم مـا فؤادي منّهُم قانـع

راجع إليهم بعونه ذي سُمي رحمَـان

ظلت قرية ضيئان ذات مكانة مميزة في نفسي طوال حياتي الماضية، وهي كذلك الآن، وستكون كذلك فيما هو آتٍ، فهي تعني بالنسبة لي الانتماء والارتباط بجمال الحياة البرية والطبيعة الرائعة، وعادات وتقاليد تجعلك تعرف معاني الحياة الحقيقية، وراحة البال وصفاء الذهن والعودة إلى أيام الصبا. وكذلك الشعور بالعيش الهادئ الخالي من صخب المدينة ومنغصات السياسة والتوهان في دوامة تتجاذبك فيها أمور كثيرة في هذا العالم الواسع، تجد في

النهاية أن لا معنى لها. وفي كل عوامل التجاذب، كانت أمنيتي أن أبني منزلاً جديداً في القرية، بدلاً من المنزل القديم المهترئ، حتى تحقق لي ذلك في عام 1988م، وما زلت حتى اليوم أتردد على مسقط رأسي بنفس الشغف، وأعيش بين ثناياها بنفس الزخم من المشاعر والأحاسيس التي لا يمكن للكلمات أن تعبر عنها وتصفها، التي كبرت وتوسعت سكاناً وعمراناً، رعاها الله وحفظها.

يافـــع

(يافع) منطقة شاسعة المساحة، تقع في الشمال الشرقي لعدن، وتبعد عنها من جهة يافع الساحل (أبين) بنحو خمسين كيلو متراً، وإلى جهة العسكرية (لحج) بنحو تسعين كيلو متراً. وتمتد يافع من تخوم ردفان والشعيب غرباً،

حتى السيلة البيضاء شرقاً، ومن دلتا أبين – خنفر جنوباً، حتى حدود الزاهر والبيضاء وجبن ورداع شمالاً. ويعتبر هذا الوضع الذي آلت إليه كمسمى للمنطقة في التاريخ المعاصر، أما ما كانت عليه قديماً، فقد شملت مناطق أوسع، لا نجد أهمية لذكرها الآن.

وكإحدى المناطق اليمنية المعروفة تاريخياً، كانت يافع تسمى بسرو حمير، وأسماها السبئيون (حموم)، وتعني الشعب المتحالف، ووصفهم المؤرخ اليمني الكبير الهمداني (بأنهم قبيل ضخم مرهوب الجانب). وهي من مناطق الحميريين قديماً، التي نشأت بمحاذاة وادي بنا الذي يخترق الهضبة الجنوبية من اليمن، ممتداً من مناطق إب وحتى دلتا أبين. وبنو حمير كان لهم دولتهم ونظامهم المتقدم في الزراعة والري والحروب والبناء والتجارة، وبرزوا كقوة كبيرة في القرن الأول بعد الميلاد، ودخلوا في حروب طويلة استمرت نحو قرنين ونصف القرن مع دولة سبأ، حتى انتصروا ووحدوا مناطق اليمن كلها، في نطاق أشبه بما هو عليه اليوم، وكانوا حينها يطلقون على ملوكهم (ملوك سبأ وذو ريدان)، وذو ريدان هي حمير.

والحميريون من أوائل من نصر الإسلام، ونشروه وحملوا رايته في الأقطار الأفريقية والآسيوية وغيرها. ومن أشهر العلماء من أبناء يافع: قاضي قضاة اليمن أبو بكر بن عبد الله بن محمد اليافعي الجندي، المتوفى سنة **552** هجرية.

وقد ولي قضاء صنعاء وعدن معاً. والعالم عبد الله بن أسعد بن علي اليافعي، المتوفى في مكة المكرمة سنة 768 هجرية. وصدرت له مؤلفات مشهورة عديدة.

ويافع تحتل مكانة محبوبة، ليس في عقول ونفوس أبنائها فحسب، بل ولدى كثير ممن يزورونها، لما تتميز به من طبيعة خلابة وعمران مميز، فهي منطقة جبلية شاهقة، والمساحات الزراعية فيها عبارة عن مدرجات زراعية بديعة، بنتها يد الإنسان ببراعة. ولها نظام خاص للري، يدل على الرقي. وتعتبر العادات والتقاليد الشعبية والحياة الاجتماعية فيها أصيلة ومترسخة، تعكس الأصالة وتصورها بأحسن الصور التي لم تتأثر بالتبدلات والتغيرات، خاصة السلبية منها، التي أدخلت في القرنين الماضيين، وقبلت في المناطق اليمنية الأخرى خلال فترة حكم النظام الإمامي الطويل، أو خلال الحكم الأنجلو ـ بريطاني، لما يقرب من قرن ونصف القرن من الزمن.

إن طبيعة المنطقة وناسها وعاداتها وتقاليدها ونمط حياتها الاجتماعية، تحمل سمات وخصائص خاصة بها، وهذا ما جعلها دائماً مثار إعجاب الكثير من أبناء مناطق اليمن الأخرى، وكثير من الأشقاء العرب والأصدقاء من مختلف أنحاء العالم، أولئك الذين زاروها زيارات شخصية أو زيارات عملية، ومن هؤلاء من كتب عنها بإعجاب، أمثال: فواز طرابلسي، فيتالي ناؤومكين، الشاعر سعدي يوسف، الدكتورة سلمى الدملوجي، الباحث الأمريكي فلاج ميلر، والمؤلف الروسي الدكتور ميخائيل سوفروف، والأستاذ الفرنسي فرانسوا بورجا، والباحث الفرنسي لوران بونافييه. وغيرهم كثيرون، لا تسعفني الذاكرة لذكرهم. أما الفرق العلمية الأجنبية التي اهتمت بالمنطقة حديثاً، وبآثارها وثقافتها وعاداتها، فهي مجموعات علماء من روسيا وألمانيا والسودان وفرنسا وأمريكا.

وفي التاريخ الحديث، كان تأثير يافع خارج مناطقها، أكثر بكثير مما كانت تفعله في مناطقها، فقد كانت كقبيلة تؤثر في مجرى الأحداث على مستوى اليمن بكاملها. فقد كانت ضمن عدن وحضرموت والإمارات الجنوبية، التي تمردت على دولة الأئمة، بعد خروج العثمانيين من اليمن في بداية القرن السابع عشر، ولكنها عادت فساندت الإمام المتوكل إسماعيل بن القاسم لإعادة تلك الإمارات إلى الحكم الإمامي في النصف الثاني من القرن المذكور. وقد لبت نداء عدن، الذي كان يأتي إليها بشكل نار تشعل على جبل (التعكر) وجبل (الخضراء)، وهبت لمقاومة محاولات الغزوات الاستعمارية البرتغالية والبريطانية، كما كانت القبائل الهائجة هناك في حضرموت، عندما حدثت مثل تلك المحاولات.

وبما أننا هنا لا نؤرخ ليافع، ولكن نعطي للقارئ الكريم صورة عن أدوارها القديمة التاريخية. فإنني أختصر الحديث عن هذا الجانب، وأورد هنا أبياتاً جاءت في قصيدة للشاعر الخالد الأمير أحمد فضل القمندان، بعث بها إلى خاله في (المحجبة) بيافع العليا، وقد أخذتها من كتاب (المختار من الشعر الشعبي والأمثال)، الذي أعده وجمعه الأستاذ صالح عمر بن غالب. وقد وردت القصيدة في ديوان القمندان، ونقلها عنه الدكتور علي صالح الخلاقي في كتابه (أعلام الشعر الشعبي في يافع)، مع جواب السلطان أحمد بن صالح حسين هرهرة. وبما أن نص القصيدة طويل إلى حد ما، فإننا نورد منها الأبيات التالية فقط، وبحسب سياق الحديث عن دور يافع خارج مناطقها قديماً:

سلام الفين بالشقر المحمحم
ويافع ذي سلفهم من تقدم
وذي سَرَّوا على كَمَّنْ مُلَجَّمْ
وناصر دَوَّخْ المشرق وقسَّم

وخُو محسن عَجِبْ والقلب مهتم

وبُوبَكْ لَيْه ساكت ما تكلم

وبَنْ عاطف عسى يدري ويعلم

وعاد المفلحي يا خير وأكرم

وفي الشحر القعيطي كم ويا كم

وفي ردفان منهم آل لخرم

عسى با يصلحوا والشور ينضم

لصنوي فضل قلبي ما نسيه

خذوا قلعة عدن لما الطرية

وحطوا في تعز والأشرفيه

يُفاعَهْ في البلاد الحضرميه

على يافع والأشوار الرَّديه

عقيد أهل النقيب المَوسطيه

تقع له في الضبي كلمه بَتِيِّهْ

ويافع كلها يا خير فتيه

طوارف لا جُبَنْ للعامريه

ويافع لحج رايه عبدليه

وبا تخفق بيارق يافعيه

وعلى صعيد الوطن اليمني، وفي السنوات الأولى من القرن الثامن عشر، قادت يافع الحرب لطرد الحكام الأئمة من حضرموت وعدن وأبين ولحج، والتي دامت نحو ثلاثين عاماً، وبالمناسبة، البعض لا يحب التعرض لتاريخ دور يافع في مقارعة حكم الأئمة الكهنوتي، وذلك يبعث على التعجب والعجب، لأن الشعب اليمني كله من عدن إلى صعدة، ومن المهرة إلى

الحديدة، كان في تلك العهود يقارع الحكم الإمامي الاستبدادي الكهنوتي، خاصة بعد الغزو العثماني الأول، وحتى قيام ثورة 26 سبتمبر 1963م، لتنقذه منه، وتنهي حكم الإمامة إلى الأبد؛ فهل محاربة ما حاربته ثورة 26 سبتمبر عيب؟.

في التاريخ المعاصر، كانت هذه المنطقة، كغيرها من المناطق التي كانت تسمى بالمحميات الغربية، وهي آخر من وقع اتفاقيات الرعاية والحماية البريطانية (1903م مكتب الحضرمي، و1918م السلطان القعيطي في ساحل حضرموت)، وإن كان الإنجليز لم يدخلوها، لرفض أبناء المنطقة دخول الأجنبي، رغم المحاولات البريطانية المستمرة، وظلت يافع، حتى في ظل الاحتلال البريطاني، تعيش تخلفاً رهيباً، ففي مناطقها كلها، لم نعرف هناك مدرسة واحدة، باستثناء المدارس التي أنشئت في يافع الساحل ـ جعار، وكذلك لا توجد مصحة طبية أو طريق للسيارات على الإطلاق، وأذكر في طفولتي، أننا كنا نستخدم الزيت (الدهن) من أجل الإنارة، ثم تطورنا بعد ذلك لنستخدم النوارة والفانوس، اللذين يعتمدان على الجاز (الكيروسين)، حيث لم يكن في المنطقة أي وجود للكهرباء، باستثناء محطة كهرباء صغيرة جداً في مدينة جعار تسير بالديزل.. هذه الحال لم تتصف بها يافع وحدها، بل كان الوضع القائم حينها في معظم أجزاء جنوبي اليمن وشماليه أيضاً.

طوال العهود القديمة، كانت يافع تقوم على نظام قوي، يتحكم في كل أمور وأحوال الحياة، وعند وصول الدعوة الإسلامية إلى مناطق اليمن، استجابت لها القبائل بسرعة، وانخرط الناس في الدين النبوي الحنيف، الذي حمل قيماً كبيرة وعظيمة للعدالة والمساواة والإنسانية، جعلتهم مثل غيرهم من أبناء اليمن، يخرجون من حياة الفوضى والجهالة وظلام الحياة، ويسرعون في أداء الواجب المقدس بنشر راية الإسلام في الجزيرة العربية ومصر والشام، وبقاع

أخرى من الأرض، ولكن القبيلة بقيت كشكل اجتماعي تأقلم وأعاد تنظيم نفسه، بما يتلاءم وأحكام الشريعة الإسلامية والسنة النبوية، وهي الأحكام والشرائع التي أدت إلى انتقال هذه المناطق ـ مثل غيرها من مناطق اليمن ـ إلى حالة أفضل وحياة أفضل، قلّت فيها التناحرات والصراعات الاجتماعية والاقتتال القبلي.

وبسبب الظروف السياسية في اليمن منذ بداية القرن السابع عشر، المتمثلة بتوسع النزاعات والحروب بين المراكز المتعددة للحكام الإماميين وبين السلطنات والمشيخات المحلية في جميع أنحاء اليمن، وكذا الصراع اليمني ـ العثماني، ودخول الإنجليز إلى عدن، كمستعمرين، ونشوب النزاع الإمامي ـ البريطاني، الذي استخدم القبائل والمشيخات في المناطق الوسطى والمناطق الجنوبية تحديداً، كوقود للجانبين، وكوسائل لهما لإضعاف وضرب كل منهما. فلم يتوسع الاقتتال القبلي فقط، بل وظهرت أشكال جديدة منه، زادت من عزلة القبائل عن بعضها، ومنها ظاهرة التقطع والجباية في أرض القبيلة. وهناك أبيات قالها العم محسن العبادي عن هذا السلوك، وهو يسدد بندقيته على قطاع طرق حاولوا سلبه ونهبه:

ولا جيت باتأخر أرى أنه دخل سمق
ولا فائدة وقت الصدف والموافقة
وشوف الجميل أسلاف والجيد من سبق
ومن سلف الجعما تخلص مذلقة

(هوامش: السمق: الطمع ـ الجعما: الرصاصة القديمة المدورة ـ تخلص: أخذ مقابل ـ مذلقة: الرصاصة الجديدة المسن طرفها).

ومع أن يافع منطقة طاردة للسكان منذ قديم الزمان، لقلة المساحة وتكاثر السكان، وكذا صعوبة الحياة فيها. إلا أنه، ونتيجة للظروف السياسية

المذكورة آنفاً، ومع تطور الأسلحة وتوسع تأثيرات الصراع البريطاني – الإمامي في يافع تحديداً، ازدادت عوامل الطرد، نتيجة للاقتتال القبلي في جميع مناطقها، الذي وصل إلى مستويات مخيفة، لم يصل إليها من قبل، ما أدى إلى مزيد من الخراب والهجرة إلى خارج المنطقة. ويمكن التعبير عن حال العيش في ظل انتشار الفتن القبلية، بالأبيات المشهورة التي قالها الشاعر صالح عبد الله البادع، مخاطباً أبناء المنطقة، والتي تقول:

1- يا ابن الوطن يافع كفى من قاح قاح[1]

2- دائم حياتك ما تحصلت السكون

3- البيت محجر وأنته خليته مباح

4- تمسي بحاله مثل ذي هم خائفون

5- البئر مدقوقه وطينك بالنجاح

6- ناضل وكافح مثل ذي بيناضلون

أيضاً، كانت حياة الإنسان في يافع قديماً جميلة في الغالب، إذا ما استثنينا الاقتتال القبلي.. فإلى جانب الطبيعة الخلابة للمنطقة وطقسها الجميل، وبيوتها الحسنة للعيش، ومنتجاتها الزراعية والحيوانية العالية الجودة والمذاق، ونسق العمل والتنقل بها، اللذين يولدان الصحة الجسدية والقوة، فإن العادات الاجتماعية فيها تزيد الحياة جمالاً. فحياة الناس هنا تحظى بارتباطهم الوثيق بالعادات والتقاليد المتوارثة الخاصة بموروثهم الثقافي المنتقل من جيل إلى جيل، فعادات الأسرة والضيافة والزواج والأعياد، وغيرها من العادات والتقاليد الشعبية، تجعل الحياة اليومية منعشة ومسرة، ومليئة بالأفراح والسعادة. ويطول

[1] قاح قاح: أصوات نيران البنادق ـ محجر: غير مباح ـ مدقوقه: مهدمة ـ بالنجاح: بحالة سيئة جداً.

توضيح هذا الجانب وشرحه. كما أن الحكايات والشعر والرقص مكملات ضرورية للحياة اليافعية العذبة. فالحكايات تبدأ هنا بالأخبار المتناقلة والمحزاة، وتمر بالأسطورة والقصة التاريخية، وتنتهي بالنكت الضاحكة والأمثال. أما الشعر، فكان وسيلة المراسلة الفضلى بين أبناء المنطقة، ومع أهلهم ومعارفهم خارجها، سواء بالقصائد أو بالزوامل، أو بقليل من الأبيات. وكان الشعر السجل التاريخي آنذاك. ويوجد في يافع عشرات، بل مئات الشعراء، بحيث يصعب تحديد أسمائهم جميعاً، ولكن من الشعراء الشعبيين المعاصرين: راجح هيثم بن سبعة، وعبد الله ناصر بن هرهره، وشايف محمد الخالدي وسعيد يحيى المحبوش، وأحمد علي عز الدين البكري، وثابت عوض، ومحمد سالم الكهالي، وأحمد حسين بن عسكر، ومحمد عبد الله بن شيهون، وفضل النقيب، وزين محمد القعيطي، والشيخ الشاعر فاروق المفلحي، وهؤلاء مجرد نماذج، فكم سنعدد ونحصي، وكم سنعتذر لمن لم نورد أسماءهم.

أما الرقص في المنطقة، الذي يتم على إيقاعات محلية مميزة، وأدوات محلية أيضاً (الطبل والطاسة والمزمار)، فيبدأ برقصة البرع اليافعي، وهي رقصة رجالية خالصة، تدل حركاتها المصحوبة برفع الجنابي باليد اليمنى، وإسناد البندقية باليد الأخرى على الكتف، تدل على الرجولة والسرعة والقوة، مروراً بالسمرة الهادئة، كانسياب مياه النهر في قاع الوادي المنبسط، والتي يمكن أن تكون رجالية أو نسائية أو مشتركة. فقد كان الرقص المشترك للرجل والمرأة مسموح به في يافع، وباحتشام شديد، وفقاً للقواعد الخاصة بهذا الجانب، لأن الرقصات اليافعية التي يزيد عددها عن ست عشرة رقصة، لم تكن تؤدى إلا في تجمعات وحلقات كثيرة العدد، وما زالت كذلك.

ولعل ما زاد يافع ومنح الحياة فيها بهجة وسروراً إلى عهد قريب، هو دور المرأة اليافعية الهام في الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والتربوية،

ووصل بها الأمر إلى أن تصبح قائمة بالدور الريادي والرئيس، في الجانب الاقتصادي تحديداً، حيث تنهض المرأة فجراً، وتذهب إلى أقصى الجبال والوديان، لتعود محملة بالحطب، ثم تقوم بطباخة الفطور عند الفجر (الفال)، بينما تتوجه الفتيات لرعي الأغنام. وبعدها ترعى البقرة بجانب المنزل، أو تتوجه إلى أعمال الفلاحة في الأرض، ذاهبة بالفطور الثاني (الشارقية)، إلى من يقومون بالفلاحة، والذي يكون ما بين الساعة التاسعة والعاشرة صباحاً، وفي الظهيرة، تقوم بإعداد وجبة الغداء التي كانت تقدم ـ في الغالب ـ بعد صلاة العصر، وعند العصرية، تتزين أو تذهب لزيارة الجيران والأقارب، وعند غروب الشمس، ترعى البقرة والماشية والدواب. وفي المساء، تعد وجبة العشاء، كوجبة رئيسة. وبعدها يتسامر أفراد الأسرة بالأحاديث، ثم يذهبون إلى النوم مبكراً، وخاصة النساء، من أجل أن تصحو كل منهن مبكراً، باحثة مع زميلاتها عن أنسب مواقع جمع الحطب.. وهكذا تمضي الأيام.

الأهم في هذا الدور الكبير الذي تلعبه المرأة في الحياة اليافعية، هو أنها تقوم بأعمال الفلاحة والإنتاج الزراعي، إلى جانب الأعمال المنزلية، ما جعلها فئة اجتماعية ذات أهمية اقتصادية أرفع من الرجل، بل إنها أحياناً كانت تشارك في أعمال البناء والتشييد، وهي المهنة الوحيدة التي حصرت بالرجل، وكذلك الحال بالنسبة لمهنة القتال، التي كانت مهنة رائجة آنذاك، ومع ذلك كله، فإن الرجل اليافعي هو السيد الآمر تماماً بما تقوم به من خدمة متكاملة ودائمة له بدون أي رفض، والمرأة اليافعية مطيعة وشديدة الحياء بطبيعتها، وبالبيئة التي تعيشها، والتي تحرم عليها مثلاً مضغ القات أو الضحك أمام الرجال. فهناك وجدت قواعد كثيرة لهذا الوضع، منها مثلاً، لا يحق للمرأة أن تذكر أوصافاً جميلة لأي رجل كان، وأن تسير المرأة وراء زوجها، ولا يحق لها السير بجانبه، وأن تتنحى جانباً لمن يسير بعدها، حتى يمر ثم تواصل السير بعده، كما أن

عليها أن تباشر من تقابله من الرجال في الطريق العام بالتحية، وإذا قامت بوضع الطعام أمام الضيف، فعليها أن تعود وهي مواجهة له، ولا يحق لها أن تولي وخلفها إليه، وما شابه ذلك كثيراً، ولكن تلك القواعد المستمدة ضمناً من الدين الإسلامي، جعلت المرأة لا تعرف النقاب أبداً، حيث إن النسوة اليافعيات كُنَ سافرات الوجه، ويمتعن بشخصية قوية، رأى الرجال ضرورة تمتعهن بها كحق، ومن أجل تربية الأولاد تربية جيدة وصادقة وقوية.

وعند التطرق إلى الحياة في يافع وروعتها وجمالها، فلا يمكن نسيان ثلاثة جوانب أخرى، تجعلك لا تنسى يافع، أولها: الوجبات اليافعية اللذيذة، التي تعتمد على مكونات محلية مئة في المئة، والتي لا يوجد لها نظير أو مثيل في مناطق أخرى.

وثانيها: طراز البناء اليافعي الحجري المتين، الذي يمتاز بالجودة الحربية، كحصون دفاعية قوية، وكبناء ملائم للطقس الحار صيفاً والبارد شتاءً. وهو طراز يميل إلى الاهتمام بالمظهر الخارجي للمباني، ويعطي أهمية أكبر للتفصيل الداخلي ومظهره وألوانه وديكوره المبسط الرائع.

وثالثها: الأزياء والملابس وأدوات الزينة المتعددة، والتي تمتاز بالألوان الباهية والأشكال المتقنة، التي تعكس اهتمام أبناء المنطقة بحب الجمال والإبداع، وكانت كل تلك الملابس والأقمشة وأدوات ومواد الزينة، تنتج محلياً في المنطقة، ومن أكبر مراكز صناعتها في المنطقة، ما وجد في قرية (الجربة) في منطقة المفلحي. وقد حاولت تلك المنتجات، وما زالت، تحاول الاحتفاظ بمميزاتها الخاصة وجمالها، رغم تطور الحياة وطغيان ما هو مستورد على كل ما هو محلي.

وحتى قبيل الاستقلال الوطني عام **1967**م، لم تحظَ المنطقة بأي شيء يذكر في مجالات تنمية الحياة والمعيشة وتحديثها، برغم أنها وحضرموت كانتا

أكثر المناطق الجنوبية سكاناً حينها. وقد تجاوز سكانها المليون في أواخر الستينيات من القرن العشرين الماضي. أضف إلى ذلك، أن لأبناء يافع وجود تاريخي مكثف في عدن وأبين ولحج وحضرموت، كما أن لهم وجوداً مكثفاً في حيدر عباد (الهند) وماليزيا وإندونيسيا، وفي دول الخليج العربي ودول القرن الأفريقي وبريطانيا وأمريكا، وغيرها. وكان من هؤلاء علماء سبق لنا ذكر بعضهم، وقادة عسكريون كبار، مثل القعيطي، وكان أحد قادة جيوش إمارة حيدر أباد (الهند). بيد أن معظمهم اليوم متخصصون وتجار ورجال أعمال، أمثال أولاد الشيخ عمر قاسم العيسائي، رحمه الله، عبد الله وسعيد ومحمد، والشيخ علي عبد الله العيسائي، والشيخ صالح أحمد العيسائي، وعيدروس حسن العيسائي، ومحمد منصر العيسائي، والشيخ قاسم عبد الرحمن الشرفي، وآل بن شيهون، وآل الحريبي، والصانبي، والسيلاني، وغيرهم كثيرون، فهناك مثلاً رجال أعمال كبار في كل من أمريكا وبريطانيا. وكم لنا أن نذكر من أسماء هؤلاء المعاصرين أو المهاجرين القدماء، فقد لا تكفي الكتب، ونذكر منهم المؤرخ الأستاذ صلاح البكري (إندونيسيا)، والشاعر يحيى عمر اليافعي، الأشهر صيتاً، فما زال صيته يعلو، رغم أنه قبل أكثر من **300** عام. وقد ضمن قصائده الحب والسفر والشوق، بإبداع جعله خالداً في هذا المجال، وهذه أبيات من أشعاره الكثيرة، التي جسدت مشاعر المهاجرين وتشوقهم للوطن:

يحيى عمر قال ليت الهند في يافع
ما كان أنا شي من أهلي والبلد ضايع
وكم وَنَا بالمراكب نازلاً طالع
ما شي لبحر المحبَّه والهوى رادع
به هِمْتْ من صُغر سنّي خط لي جازع
والليله انضقت وأمسى نومها فازع

ذكَرت واشتاق قلبي لا جبل يافع

أو ليتكم بأرض يافع يا اهل هندستان

وانْ سِبْتُكُم قال لي ذا القلب عُود الآن

تلعب بي أمواج بحر اللُّول والمرجان

لو هاج يسري به العاشق عجب ولهان

بالحُب رحَّال ما بالحُب شي نُكران

كيف الخبر كيف يا ذا الهندي النعسان

مُشتاق للأهل والأحباب والخلاَّن

إن أوضاع منطقة يافع القبلية المليئة بالفتن والحروب، التي سبق شرحها، وطبيعتها الطاردة، بسبب معدلات نمو السكان وقلة الأرض الزراعية. كل ذلك أدى إلى هجرة داخلية إلى مناطق كثيرة، أهمها المناطق الساحلية: أبين ولحج، وهما من المناطق المكملة ليافع، بل إن يافع ممتدة بينهما، وهي في الحقيقة مكملة لهما. وكذا، فهاتان المنطقتان محيطتان بعدن، التي تعد بحكم قربها، قبلة لأبناء يافع الناشدين للعلم والتجارة والعمل، ووجود أبناء يافع فيها بكثافة منذ القدم، وبها من أبنائها صفوة من المتعلمين والمثقفين والمناضلين والثوريين من أبناء يافع. ومع أننا كنا كذلك في نهاية الخمسينيات، إلا أنه قد سبقنا أشخاص آخرون في النضال من أجل التحرر، كانوا في المنطقة ذاتها، فقد حدثت انتفاضات مسلحة كثيرة في مناطق عدة من يافع منذ دخول الإنجليز عدن، ثم جاء تمرد الثائر السلطان محمد بن عيدروس العفيفي ومجموعته ضد بريطانيا، والشيخ أحمد أبوبكر النقيب، وصالح عبد اللاه البادع، ومحمد صالح المصلي، وصالح عبد القوي (المحجبة)، ولجأ أولئك القادة إلى شخاريف الجبال العالية، لبدء الانطلاقة المسلحة ضد الوجود الإنجليزي في عام **1957**م. وكانت هذه الحركات المسلحة بمثابة البذرة الأولى، أو النواة الأولى التي أكدت إمكانية

انطلاق ثورة مسلحة، حتى جاءت انطلاقة ثورة **14** أكتوبر عام **1963**م في ما بعد من قمم جبال ردفان الشماء، المتاخمة ليافع.

ظلت روابطنا بمنطقة يافع قوية، رغم أن وسائل الاتصال بينها وبين عدن اقتصرت حينها على المسافرين، وما يحملونه من رسائل. ففي بداية النشاط التحرري في عدن، ومن خلال تنظيمنا الجديد ـ منظمة جنوب اليمن الثورية – الذي تأسس عام **1961**م، كان أساسه أبناء يافع المثقفين في عدن، قمنا بالاتصال بقادة الانتفاضة اليافعية المسلحة ضد الاستعمار البريطاني، والتي انطلقت من قاعدتها في حطاط (كلد) في يافع بني قاصد، ومن الموسطة في يافع بني مالك، وأنشأت ما سميت (المحطة) في الحد، كقاعدة انطلاق لها، بأن رتب مندوبونا في مدينة تعز: المرحوم أحمد محمد حاجب، والأخ أحمد حسين الرشيدي، لقاءً في تعز، جمع ممثلينا: الشهيد محمد صالح مطيع، والأخ فضل محسن عبد الله، للتفاهم مع السلطان الثائر محمد عيدروس العفيفي، وإقناعه بأهمية توحيد العمل العسكري والسياسي ضد الإنجليز، وانطلاقه من يافع، وبمشاركة كل الخيرين والمناضلين.

كان ذلك قبيل ثورة **26** سبتمبر سنة **1962**م، إلا أننا لم نحقق النجاح في إقناع السلطان بالمقترح، لأسباب معروفة، أهمها إصرار السلطان على هيمنته على السلطنة، وعدم استعداد الإمام لقبول أي تحرك فعلي ضد الإنجليز من أراضيه (تعز، حيث مكث فيها السلاطين والمشايخ الثائرون)، ولذا، اقترح السلطان بأن يعمل كل منا على طريقته ومنهجه، مع إبقاء سبل الاتصال والتفاهم في ما بيننا، كما تمت اتصالات مع قادة الثوار الآخرين، ومنهم محمد صالح المصلي، وصالح محمد عبد الصمد، وصالح عبد اللاه البادع، وصالح عبد القوي، وأبدوا كثيراً من التفهم والاستعداد للتنسيق.

أحس الإنجليز يومها بخطورة الموقف، وبدأت استخباراتهم تعمل بشكل حثيث للحيلولة دون الاتحاد بين الفصائل الكفاحية، فعملوا على إنهاء التحالف القبلي في يافع، وبدت السلطات البريطانية غير راضية عما يقوم به شيخ (الموسطة)، أحمد أبو بكر النقيب، والسلطان العفيفي، ضدها، فعمدت إلى تدبير اغتيال الشيخ أحمد أبو بكر النقيب بطرق ملتوية، بدت أول الأمر وكأنها خلاف شخصي، ثم استخدمت السلاح الجوي في قصف مواقع المتحالفين الآخرين في المناطق اليافعية، لإجهاض المقاومة ووأدها في المهد. وخاصة تدمير منزل الشيخ صالح عبد اللاه البادع، في قرية ذي صراء، ومنزل محمد صالح المصلي، الذي أخطأته في أول قصف للطائرات، فنزلت القذائف على منزل بن عبادي في قرية ذي صراء.

عند انطلاق ثورة الرابع عشر من أكتوبر عام 1963م، وقفت يافع إلى جانب ردفان، حين تعرضت لقصف وحشي متواصل من سلاح الجو البريطاني، شمل معظم قراها ومزارعها، ما جعل أبناء ردفان يلجؤون إلى مناطق يافع، مثل: اليهري وكلد والمفلحي ومشألة والسعدي وغيرها، كما هب رجال من المنطقة للاشتراك في القتال في ردفان، وشكلت لجنة من قبل الجبهة القومية لهذا الغرض، ولتدريب المقاتلين وتنظيمهم، برئاسة الأخ محمد ناصر جابر، وسالم عبد الله عبد ربه.

كانت الفرق المشاركة من أولئك الفدائيين كثيرة، لا تحضرني الذاكرة لذكر قادة آخرين لها. وبمناسبة الحديث عن المشاركات في الكفاح المسلح، أذكر هنا امرأة جليلة مناضلة، شاركت كفدائية في تلك المرحلة، وهي العمة حليمة بنت محمد (أخت الوالد)، وقد كانت نعم المناضلة والأم.

وقبل ذلك، كانت قد تشكلت في يافع (لبعوس) جبهة الإصلاح اليافعية في شهر أبريل 1963م، من قبل مجموعة من المناضلين، على رأسهم:

محمد ناصر جابر وسالم عبد الله عبد ربه، ومحمد عبد الرب بن جبر، والحاج عبد الله حسين المسعدي، وعمر أحمد المطري، ومحمد قاسم عبد أحمد، وغرامه صالح، وعبد الرحمن محمد عبد الله، وآخرون، ولقد أدت جبهة الإصلاح دورها في العمل الإصلاحي، بإنهاء بعض الفتن القبلية، وإنشاء سوق أسبوعي وما شابهه. وكذا، قامت بعمل السياسي وتشكيل الخلايا السرية، وقامت بعد تفجر ثورة 14 أكتوبر 1963م، بالمشاركة في نقل الأسلحة من شمالي الوطن إلى جبهة ردفان، وساندتها بالمقاتلين.

كنا في (منظمة جنوب اليمن الثورية) في عدن، قد ساندنا جبهة الإصلاح في كل أعمالها ما استطعنا، من خلال تبادل الخبرات والمعلومات والشورى. وعندما كنت أزور الأسرة في منطقة لبعوس، كنت أتواصل مع قياداتها وأعضائها، وحضرت اجتماعات عدة لها، وأهمها سلسلة اجتماعات شهر أبريل 1965م. بعد قيامها بعام تقريباً. وكانت نتائج تلك الاجتماعات هامة، كونها أدت إلى أن جمعت جبهة الإصلاح بين شكلين أو أسلوبين، هما العمل العلني الإصلاحي بين القبائل، والعمل السري الثوري ضد الاستعمار البريطاني.

وفي سياق دور المنطقة في مرحلة الكفاح المسلح، فقد عقدت قيادة الجبهة القومية في تعز، العزم على فتح جبهة قتال أخرى في يافع الساحل من منطقة (باتيس)، بقيادة علي محضار للتخفيف من الضغط على جبهة ردفان. وكنت في البداية أحد المكلفين بالمشاركة بها، إلا أن القيادة العامة رأت بعد ذلك أن من الأفضل لي، لصغر سني، أن أكمل دراستي في تعز. وبالفعل، فتحت تلك الجبهة، ولكنها أخفقت بالمواصلة، فقد تم اعتقال معظم المقاتلين من أعضائها، وتم إيداعهم سجن (البحرين) بجعار.

وبعد فشل فتح تلك الجبهة، وصلت القيادة العامة للجبهة القومية لتحرير الجنوب اليمني المحتل، إلى ضرورة تقوية المجموعات والخلايا السرية التابعة لها في كل منطقة من مناطق يافع على حدة (مثلاً: جعار، لبعوس، القارة)، وبعد مدة عادت مجدداً، لتبدأ توحيد قيادات المنطقة في منتصف عام **1966**م، إذ كانت توجد نية لإسقاط مناطق يافع، التي ليس فيها وجود بريطاني قبل غيرها من المناطق، لكن تشبث السلاطين بالمنطقة كان قوياً. ولذا، لم يستكمل توحيد قيادة مناطق يافع، إلا في أبريل **1967**م، ونتيجة للعمل السياسي المكثف في الأشهر التالية، وبدعم من جميع المناضلين من أبناء المنطقة، أقيمت أول سلطة للجبهة القومية في يافع في مدينة لبعوس، بتاريخ **31** يوليو **1967**م. وتم ذلك بصورة سلمية خالية من العنف. وشكلت حينها قيادة موحدة لتنظيم الجبهة القومية، مكونة من الإخوة: أحمد محمد حاجب، سالم عبد الرب جحاف، فضل محسن عبد الله، علي محضار، سالم عبد الله عبد ربه، عبد الرب علي مصطفى، الشيخ يحيى عبد الله قحطان، محمد عبد اللاه البشع، محمد عبد الرب بن جبر، قاسم محمد سليمان، قاسم صالح علي، محمد علي القيرحي، أحمد غالب سيف، قاسم عوض مقبل.

وتبع هذا الحدث الكبير في المنطقة، إقامة سلطة مماثلة في منطقة المفلحي، بتاريخ **12** أغسطس، كما جرت انتفاضة فيما كان يسمى سلطنة يافع الساحل (جعار وخنفر)، في نهاية شهر أغسطس، أفضت إلى تسلم السلطة للجبهة القومية هناك.

لكن إقامة سلطة الجبهة القومية في سلطنة، ما كان يسمى بني قاصد – يافع الحيد، تأخرت حتى بعد إعلان الاستقلال الوطني في الثلاثين من نوفمبر **1967**م، بسبب مقاومة السلطان محمد عيدروس العفيفي هناك. وبعد ثلاث

مواجهات مسلحة، ارتفع علم الجبهة القومية من مدينة القارة الحصينة، وكان ذلك في بداية شهر يناير **1968**م.

بعد الاستقلال الوطني مباشرة، كان الهم في مناطق يافع، مثل غيرها، هو الانهماك في كيفية إدارة المناطق التي تعد مناطق محررة، والمشكلة الكبرى كانت آنذاك، أن قيادة الدولة الوليدة نفسها، لم تكن لديها رؤية موحدة عن كيفية إدارتها، وإلى أي اتجاه سياسي تتجه، وبالذات الساحل (جعار خنفر)، فقد كانت مسرحاً للصراعات، حيث أعلن منها تمرد الجناح اليساري على السلطة، وبها دارت معركة **14** مايو **1968**م، التي أدت إلى هروب قادة اليسار، وقسم من تشكيلاتهم إلى يافع الحيد (القارة)، فصارت حصناً منيعاً لهم، الأمر الذي جر بقية مناطق يافع للاهتمام بهم تارة، والبحث عن حل للخلافات القائمة مع الجناح الحاكم في عدن.

أثناء كل هذه الأحداث، وبعدها، لم يكن الجانب التاريخي والقبلي يهم الثوار الجدد، سواء قبل أو بعد خطوة **22** يونيو **1969**م، وبدأ هذا الأمر بشكل أوضح، بعد الخطوة التصحيحية بسنوات، وكان المعيار الطبقي هو القاعدة المحببة للتعامل مع المناطق والقبائل، حتى وإن كان تطبيقه ضعيفاً وصعباً، ولّد أخطاء كبيرة. ومحاولة العمل بهذه النظرة في واقع متخلف، لم يكن فيه تقسيم طبقي حقيقي، كانت من الأخطاء السياسية والنظرية التي دفع الجميع ثمنها غالياً، وانعكس هذا في يافع، على سبيل المثال، بتركيز اهتمام القيادة على الجوانب السياسية، أكثر بكثير من الجوانب الاقتصادية والمعيشية، التي كانت شبه مهملة. ولكن الانعكاس الأخطر، كان أن تم أثناء انتفاضات إقامة سلطة الجبهة القومية وبعدها، اعتقال جميع السلاطين والمشايخ تقريباً في مناطق يافع، وتبع ذلك، القيام بتصفيات جسدية لعدد من أبنائها المناضلين، أهمهم سالم محمد الناخبي، الذي استشهد في عدن.

وفي نهاية عام 1968م، جرت مذبحة (السيلة البيضاء)، بتصفية ما يزيد على الثلاثين من مشايخ وسلاطين يافع، وفي عام 1972م، جرى اختطاف وسجن عدد مقارب لسابقه منهم في يافع الساحل (جعار)، وتمت تصفيتهم جسدياً بعد ذلك في السجون، بدون محاكمات، ودون أن يعلم أحد بذلك. وجاءت هذه الأفعال الطائشة، في إطار أسلوب العنف الثوري، الذي ولده مفهوم ونهج الصراع الطبقي السائد بقوة في تلك الأيام، والذي لم يكن لأحد، مهما كان، أن يجاهر بمعارضته له.

والحقيقة هنا، أن مشايخ يافع وسلاطينها، لم يكونوا بالمستوى الذي يجعلهم على درجة من الخطورة تستدعي ما حدث لهم من تصفيات، فقد كانوا أناساً على نياتهم، وبمستوى واقعهم المتواضع. وهنا، تحضرني واقعة كمثل، ذكرها أحد الكتاب الإنجليز، حدثت في عدن، فأثناء الحرب العالمية الثانية، أقام والي عدن (السير جون هاثورن هول)، مأدبة لسلاطين ومشايخ المحميات، وكان ضمن المدعوين شيخ الظبي اليافعي، الشيخ صالح بن عاطف جابر، وعندما كان الوالي يجول مصافحاً ضيوفه واحداً بعد الآخر، وعندما وصل عند الشيخ الظبي اليافعي ليصافحه، وجّه الشيخ الظبي أسئلة إلى والي عدن عن أخبار الحرب العالمية، ثم أبدى حزنه لما يقوم به الألمان وطائراتهم من تدمير للندن عاصمة بريطانيا. وقال لوالي عدن أيضاً، إن ما يزيد من حزنه وألمه، أن سلاح الجو البريطاني يكتفي برمي المنشورات على برلين عاصمة ألمانيا (وكان يقصد المنشورات التي يرميها الإنجليز تحذيراً لمواطني المدينة الألمانية قبل القصف، الذي كان يتم لاحقاً أو كتحدٍ عام).. ثم أنهى حديثه قائلاً للوالي البريطاني: (ما هكذا ينتقم الرجال). إذ إن الشيخ سمع من الإذاعة بخبر إلقاء منشورات التحذير، ولم يسمع بالقصف بعد ذلك، فاعتقد أن الإنجليز يكتفون بالتهديد

عبر المنشورات، ولا يفعلون شيئاً حربياً. وقد قرأت هذه الواقعة في كتاب (معارك حاسمة من تاريخ اليمن)، لمؤلفه الأستاذ حمزة علي لقمان.

كنت قد عُينت مأموراً ليافع . المديرية الغربية بالمحافظة الثالثة، وعاصمتها جعار، قبيل خطوة 22 يونيو 1969م. ضمن الترتيبات الخاصة بمن جرى تغييبهم أثناء الصراع، بين من أطلق عليهم التيار اليميني والتيار اليساري في تنظيم الجبهة القومية، وضمن المصالحة بينهما. ولا أخفي أن قرار تعييني كان قد حاز على رضاي يومذاك، لأنني عدت إلى مسقط رأسي، مع أنني كنت أخاف تلك المسؤولية، لأن يافع بجميع مناطقها الكثيرة والبعيدة والمحرومة، تأتي في نطاق هذه المديرية. ولكنني أحسست بالرضا للتعيين، عملاً بما جاء على لسان الشاعر فضل النقيب:

وعدنا بعد ذلك في سلام
إلى الجبل المنيف على الجبال
نواصل أهلنا في كل حين
ونرفدهم بأنواع الغلال
فإن شدت رياح الدهر جدبا
عقدنا العزم في سود الليالي
فأسرينا أسود الغاب تسري
تزمجر في الطريق إلى النزال

كانت المهمة الأولى الكبيرة التي فكرت بها، كمأمور لتلك المديرية المترامية الأطراف، هي، كيف نجذب المواطنين إلى التفاعل مع السلطة المحلية في بدء حركة تنمية في مجالات التعليم والصحة وأمن وأمان المواطن؟، وهذا تطلب شرطاً هاماً، لعب كل عضو في الجبهة القومية ومعظم مواطني المنطقة، دوراً فيه، وهو تطويع القبيلة مع التوجه الجديد نحو البناء والحياة الأفضل، وكسب الولاء

من قبل أفرادها، وأتذكر أن النشاط بهذا الاتجاه، قد لقي استجابة فعلية ومناسبة، بفعل ما أرسته النشاطات الوطنية والثورية التي تواصلت منذ أواخر الخمسينيات من القرن الماضي، وكان لها فعلها الإيجابي في عقول الناس، انطلاقاً من وعي وطني. وبما أنه قد تحقق نجاح في تلك المهمة الأولى، التي حددتها لنفسي، وجدت أن الانتماء إلى هذه المنطقة/ القبيلة، امتزج مع الواقع بأفقه الجديد وطنياً، وشعرت بفخر هذا الانتماء. وهنا أتذكر بيتين شعريين للشاعر الشعبي الكبير شايف محمد الخالدي، عبرت عما كانت تجيش به نفسي من مشاعر فخر في تلك المرحلة، تجاه ما كان يبذله المواطنون من جهود وأعمال متفانية، رفعت رأسي كمسؤول في المنطقة:

عزي بيافع مسقط الرأس الأبي
أفخر بأنه وكر أشبال النمار
مالك وقاصد جزء من واحد جسد
ذا جنبي الأيمن وذا جنبي اليسار

لقد قمنا في جميع أنحاء المديرية (جميع مناطق يافع)، بتثبيت عمليات الصلح القبلي التي تمت في الأعوام السابقة، وخاصة ما تم منها على نطاق واسع عند إقامة سلطة الجبهة القومية في مناطق الأرياف قبيل الاستقلال الوطني وبعده، كما قمنا بإجراء عمليات صلح جديدة وتوقيف ما تبقى من فتن ونزاعات قبلية، مستخدمين أحياناً سلطة الدولة وقوتها، كلما استدعى ذلك طبيعة الصراع القبلي أو الفتنة، وبذلك أنهينا الصراعات القبلية، وأوقفنا الثأر إلى الأبد. وكذلك أشركنا كل الناس في المبادرات الجماهيرية التي قامت في جميع المناطق والقرى والوديان والجبال، من أجل شق الطرق، وبمجهودات بشرية فقط، كانت عبارة عن مآثر تاريخية سطرها المواطنون.

وإضافة إلى ذلك، بدأنا حينها (عند عملي كأول مأمور لمناطق يافع)، بشق الطرقات الكبيرة، تلك التي وجدت مقاطع منها، أو التي وجدت بشكل بدائي، مثل السيلة البيضاء – طريق سباح – طريق ذي ناخب. وهي في الأصل طريق واحد، وكانت الوحيدة التي تسلكها السيارات إلى يافع، كما بدأنا بشق الطرق التي كانت غير موجودة أصلاً حتى يوم الاستقلال، مثل: لبعوس – طريق سيلة وطن، يهر، نقيل الخلا – لبعوس، الحد – طريق سلب حمه، رصد – طريق معربان، كما أن المواطنين شقوا عشرات الطرق الفرعية بين القرى والوديان، مسطرين ملحمة لا تنسى من ملاحم البناء الذي تقوم به الجماهير أساساً، بينما تقوم الدولة بدور المساعد. ولا ننسى هنا الدور الذي لعبه أبناء هذه المناطق من المغتربين في دول الخليج وبريطانيا وأمريكا وغيرها. والذين كانوا يعملون بأنفسهم إذا ما وُجِدوا في عطلهم، أو يتبرعون بمبالغ يرسلونها من بلدان اغترابهم، من أجل شق الطرق أو بناء المدارس أو حفر آبار مياه الشرب، وغيرها من متطلبات المواطن في أرياف المنطقة.

كما تم بناء ثمانين مدرسة ابتدائية موزعة على عموم المراكز، ابتداء من مدينة باتيس وانتهاء بالحد. وبدأ النظام الإداري للسلطة أو الدولة يأخذ مجراه، حيث لم تعرف مناطق يافع أياً من الأشكال الأولية لوجود الدولة، باستثناء ما وجد في قسم بسيط منها في يافع الساحل (جعار والحصن وباتيس وما حولها)، وهذا العمل جاء أيضاً كبديل للقيادات المحلية للتنظيم، التي كانت تسير كل أمور المناطق في البداية. وفي هذا السياق، بنيت المقرات الإدارية للسلطة المحلية، وعكست وجود الدولة لأول مرة في أنحاء سرو حمير.

عموماً تحسنت أوضاع منطقة يافع بعد نيل الاستقلال الوطني عام 1967م. ليس في مجال توفير الخدمات الأساسية، مثل الطرق والتعليم والصحة وغيرها، بل وعلى صعيد ضمان أمن المواطن والأمن العام. وقد بدأ

ذلك بالإصلاح القبلي، فعلى سبيل المثال، كان أول قرار اتخذته حكومة الثورة أو الحكومة الوطنية الجديدة، هو قرار منع الثأر، حيث شكلت لجان شعبية لهذا الغرض، وتم أخذ صلح عام بين القبائل المتحاربة والمتنازعة. وكان هذا الجهد إنجازاً تاريخياً، لأن الاقتتال القبلي والفتن القبلية كانت منتشرة في مناطق الجنوب، ومنها يافع قبل الاستقلال الوطني، وبعد خروج الإنجليز، وفي ظل الدولة الوطنية الوليدة، تم الالتزام بهذا القرار، ولم يفكر الناس بخرقه، ولم يعودوا إلى هذا المسلك (الثأر) إلا فيما ندر.

وبالرغم من أن النظام الجديد في عدن، الذي قام بعد الاستقلال، قد منع الألقاب المناطقية، وحتى إنه سمى المحافظات والمديريات بالأرقام بدلاً من أسمائها، إلا أن الواقع السياسي، سواء في جنوبي اليمن، أو بعد قيام الوحدة اليمنية عام 1990م. يفرض على أي شخصية قيادية، الانتماء إلى منطقته. لذا، فقد كنت دائماً محسوباً في مثل هذه الحالات والأوضاع على منطقتي يافع، وهذا لا يعني أنني كنت أمثل يافع في السلطة، بل إن المنطقة تزخر بالكثير من الشخصيات القيادية العليا. وإنما أنا أتحدث هنا عن الحسابات السياسية التي تربط الشخص بمنطقته، والتي خفت أحياناً وارتفعت أحياناً أخرى طوال العقود الأربعة الماضية.

واجهت يافع بجميع مناطقها متطلبات التنمية بحماس طوال أكثر من أربعة عقود من الزمن، منذ النصف الثاني من ستينيات القرن الماضي وحتى اليوم. وواكبت التطور (المحلي والخارجي)، وما زال لديها الكثير من الهموم، وخاصة مشكلة انعدام وشح المياه، التي تعد المشكلة الأولى. أما الآن، فقد أنجز مشروع مياه لبعوس، كبداية لحل هذه المشكلة، وإذا ما حلت فستتحول المنطقة إلى إحدى المناطق السياحية الواعدة، ليس في اليمن، بل وفي الشرق الأوسط. اليوم ترى يافع أخرى كمناطق حضرية، وتراها وقد أصبحت مدناً

تزدان بالمباني والقصور التي تذهل الزائرين. تراها معماراً ومجتمعاً، وقد دخلتها الحداثة بجميع مجالاتها ومن جميع الأبواب، لم تعد فيها أي مدينة أو عدة قرى متقاربة، إلا وبها مدرسة، وأنشئت في لبعوس أول كلية جامعية، ويجري الآن إنشاء معهد للتدريب المهني في المفلحي، ولم تعد فيها الآن مدينة وقرية إلا وبها كهرباء، وإن كانت معظمها كهرباء محلية صغيرة. وتوجد في مناطق يافع المستشفيات العامة والخاصة، ولكنها بحاجة إلى تطوير نوعي.

وأصبح في مناطق يافع التي تقع في ثماني مديريات، أربع منها في محافظة لحج، والأربع الأخرى في محافظة أبين. أصبح فيها شبكة من الطرق إلى كل وادٍ وجبل، استكملت أجزاء منها وأجزاء أخرى يجري العمل بها. هذه الشبكة، وإن كانت في معظمها ترابية وبعضها حجرية، إلا أن هناك معلماً تم إنجازه، وهو طريق العسكرية – لبعوس – البيضاء، وهو الطريق الرئيس المعبد الحديث، الذي تم افتتاحه عام **2005**م، وهناك طرق كبيرة يتم أنشاؤها الآن، وأهمها طريق باتيس – رصد – وادي معربان الرئيس، الذي يتم تشييده الآن بتمويل من دولة قطر الشقيقة. وكذا طريق لبعوس – المفلحي – وادي بنا، الذي يشيد هو الآخر الآن. وهناك مشاريع طرق متوسطة أخرى. وتتوجه المنطقة – أيضاً – إلى تحسين الطرق الترابية الحالية وتعبيدها، ويعد هذا التوجه هاماً لوصول الزائرين والسياح إلى هذه المنطقة، التي يتوقع لها أن تكون سياحية، لما تتمتع به من سمات وصفات، بينّا هنا بعضها، وبإيجاز.

وفي المجال الثقافي والإبداعي، فقد بذل كثيرون من أبناء المنطقة وباحثون وكتاب من خارجها (بما فيهم أو معظمهم من الأجانب)، جهوداً طيبة في البحث عن تراث المنطقة الثقافي والإبداعي. حيث صدرت الكثير من الكتب التاريخية والتراثية والعلمية عن المنطقة. وفي ذلك يحتل الشعر الشعبي مكانة، فإلى جانب اهتمام المبدعين والمؤلفين به، تم إنشاء منتدى يحيى عمر

الثقافي في عام **1991**م (لبعوس)، والذي يقوم بإسهاماته في هذا الجانب. كما يجب ألا ننسى هنا ما تقوم به كلية التربية ـ يافع من دور مباشر وغير مباشر في تطوير الثقافة في المنطقة. هذا بالإضافة إلى ما يقوم به آلاف المغتربين من أبناء المنطقة في الخارج، من إسهام ثقافي وتاريخي وشعري وفني لا يستهان به.

أنا فخور بأنني من يافع، لأنها مسقط رأسي وبيئة أهلي وعشيرتي الكبيرة، التي يتداخل حبها مع حب الوطن الكبير، ولا يتعارض معه، وهذا ما حاولت دائماً التمسك به. ففي كل مرة أزور فيها يافع، أجد الحب يحيطني من كل جانب، حيث ألقى كل محبة من أبناء المنطقة، وأنال تقديرهم. إنهم يحيطونك بالألفة والطمأنينة، ويعبرون لك عن محبتهم. وكان مثل هذا الشعور عظيماً حين عدت إلى وطني اليمن، بعد غياب دام ثمانية أعوام، بفعل حرب **94**م ونتائجها المدمرة، عندما استقبلني أبناء يافع بترحاب كبير وابتهاج واسع عام **2002**م، في احتفالات ومهرجانات شعبية لا تنسى، وما زالت تتردد في ذاكرتي بعض الزوامل الشعبية، وأبيات القصائد التي قيلت يومها عند عودتي، والتي عبرت وتعبر عن مدى صلتي القوية بالمنطقة وناسها، وكمثال، أذكر منها أبياتاً جاء فيها:

قال يافع هلا بالضيف من كل مكتب
قال يافع يرحب فيه عرضه وطوله
مرحباً ما برق بارق وما الرعد ثبب
ما هطل ماطرة وأمست مدفر سيوله
يا هلا سالم الصمصوم بو القرن لصلب
سالم الشهم ذي شرف وطنا وصوله
رحبت له صقور الجو في كل موكب
شرف العاصمة وأسعد يمنا دخوله

وأبيات أخرى تقول:

هذه تجارب عندنا متورخه

لا الليل نوري يعقبه يومه نوير

حيا بسالم صالح أنه صاحبي

وأخي وبن عمي وفي بيته أمير

قد له ثمان أعوام ذي هوه مغترب

لا ساق سيارة ولا ساق البعير

واليوم وليته أمور المزرعة

يحرس على بنٌي وبري والشعير

بالميه هي الغرة بأول خامسه

موسم وسط لا تحسبه موسم أخير

يافع تكبر بها، وتكبر بك حين تكون أحد أبنائها، ولكن حذاري الخروج عن القاعدة التي أسسها الأجداد الأشداء (غنِ ليافع والحذر تسمين حد)، وهو مثل معروف في يافع بشكل مخاطبة لإحدى النسوة اللاتي يغنين في أحد الأعراس، وهو يخاطبها بأن تغني ليافع كلها كمنطقة أو كقبيلة، ولكن إياها أن تربطها باسم أحد الأشخاص أو شخص معين، والمثل لا يخاطب تلك المرأة بلهجة التنبيه، بل بلهجة التحذير، لأن النظام القبلي القائم في يافع، يقوم على الشورى، وفق المثل القائل: (يا شيخ ما شيخوك إلا الرجال)، ولا يقوم هذا النظام على البابوية. حيث يحتكم الناس (أفراد القبيلة) على قاعدة (المخصم والمغرم)، أي الحق والواجب الذي يجعل من هؤلاء متساوين. وقد كان النظام القبلي موحداً في جميع مكاتب يافع (تقسيم مناطقها) قديماً، وفي الماضي القريب. وقد طرأت على هذا النظام تغيرات جوهرية طوال العقود الأربعة الماضية، بفعل وجود الدولة ومجمل التغيرات التي حدثت في المجتمع. وبفعل

التطور والتحديث والتناغم مع مطلب الحرية والكرامة والآدمية، لهذا، تجد تعبيرات مختلفة غير المقاومة والتصدي لهذه الحرب، بما ابتدع به الكتاب والمفكرون، ومنهم الدكتور علي صالح الخلاقي، ود. سالم عبد الرب السلفي، والشيخ مندعي ديان، والشيخ صالح محمد بن غالب، وزين القعيطي وغيرهم، من نشر مخزون هائل من خزائن (يافع سرو حمير).

شهدت يافع، كما شهدت مناطق الجنوب منذ عام **2007**م، حراكاً سلمياً، أدى إلى إعلان التمرد، وإعلان الثورة على نظام صنعاء، وهو ما ترافق مع ثورة الشباب عام **2011**م، وأدى إلى خروج الرئيس علي عبد الله صالح من السلطة، واستلام عبد ربه منصور هادي للرئاسة (كرئيس توافقي).

وما زالت حتى طباعة الكتاب، تتحرك الأحداث، وبشدة، من أجل تقرير المصير!!

الزاهر والبيضاء

الزاهر والبيضاء من المناطق المحاذية ليافع، حيث تبعد الأولى عن لبعوس يافع بنحو خمسة عشر كيلو متراً، فيما تبعد البيضاء عنها بحوالي ستين كيلو متراً. وتعتبر العلاقة بين هاتين المنطقتين ومناطق يافع (خاصة لبعوس والحد وذي ناخب)، علاقة خاصة متميزة،

بحكم الصلات الاقتصادية والتبادلات التجارية والعلاقات المتبادلة بين القبائل والعشائر والفخائذ والبيوت، وقد أدى هذا إلى كسر الحدود السياسية والأمنية بين المملكة المتوكلية الهاشمية، ومحميات عدن الغربية الخاضعة للحماية البريطانية، حيث إنه لم يكن هناك حدود فعلية بين يافع وهاتين المنطقتين في عهد التشطير.

وكانت مناطق الزاهر والبيضاء، هي أولى المناطق التي تعرفت عليها في صباي، حين اتخذ والدي قراراً بسفري إلى عدن، طلباً للعلم ولقمة العيش. غادرنا (ضيئان) ومنطقة (لبعوس ـ يافع)، وبعد نهار من السير على الأقدام بدت لنا بلدة الزاهر، موطن قبيلة الحميقاني ـ قبيلة الشيخ سالم عبد القوي الحميقاني، ببيوتها المتناثرة على جانبي الوادي الأخضر. كانت الزاهر بواديها الأخضر الممتد باتجاه البيضاء ومكيراس، منفذاً مهماً لأبناء يافع باتجاه شمالي اليمن، وعدن أيضاً، لأن السفر بالطائرة إليها كان يتم من مكيراس.

كان أول ما يقابلنا في الزاهر ـ في ذلك الوقت ـ وجه العمة (شمس)، عمة اليوافع البهية الطلعة. والتي كانت تستقبل المسافرين القادمين والعائدين من وإلى يافع، فهي خير مضياف، تخفف عنهم وطأة وعناء السفر، ولا تقصر في واجب الأكل والمشرب، وتقدم الماء والقهوة والطعام لهم ببشاشتها ولطفها

المعهودين.. أعدت لنا القهوة و(العصيدة)، فتعشينا ثم مكثنا نريح الأجساد المنهكة من عناء السفر، وخلدنا للنوم حتى صلاة الفجر، مع أن البعوض والقمل أخذ منا مأخذه، بالرغم من الاحتياطات الشديدة المتخذة من قبلنا. وفي الصباح الباكر، وقبل بزوغ الشمس، ودعنا عمتي (أم حسين)، التي استيقظت قبلنا وأنضجت لنا القهوة، وأعدت لنا شيئاً من الخبز.

انطلقت قافلتنا مواصلة الرحلة الشاقة في صباح اليوم التالي، بالسير مشياً على الأقدام حتى البيضاء، حيث إن السيارة لم تصل بعد إلى الزاهر في ذلك الزمن، وفي البيضاء، مكثنا ليلة في أحد المنازل التي ينزل بها أبناء يافع، وفي الصباح الباكر واصلنا الرحلة، اقتربنا من نقطة فاصلة بين حدود الدولة المتوكلية (مدينة البيضاء التي أخذها الإمام من سلطانها أحمد حسين الرصاص، مقابل تنازل الإمام للإنجليز عن صحراء شبوة)، والواقعة على حدود المحمية البريطانية سلطنة العواذل السابقة.

مررنا بنقطة (الجمرك) للجيش الإمامي، التي أقامتها المملكة المتوكلية الهاشمية لجمركة البضائع القادمة من عدن عبر مكيراس، ولكنهم سمحوا لقافلتنا بالمغادرة والخروج من نقطة الحدود بدون جمارك، بموجب الاتفاقية المبرمة بين مشايخ قبائل يافع وحكومة الإمام.

وكان نهار آخر قطعناه حتى وصلنا إلى (مكيراس)، والشمس عمودية في كبد السماء. تجرعنا حرارتها الشديدة، على الرغم من اعتدال جو مكيراس المائل إلى البرودة. وكانت مكيراس أول محطة نحط رحالنا بها، التي كانت تتبع سلطنة العواذل، وفيها المطار العسكري والقاعدة العسكرية التي يوجد بها جيش من الإنجليز وجيش (الليوي) العربي.

إن مكيراس ببنائها المتواضع والمتداخل بالثكنة العسكرية للجنود البريطانيين والمطار، وحصن السلطان (جعبل) وبنجلة (عمارة) جواد حسن

علي، وتميزت هذه القرية المدينة في كونها قاعدة متقدمة للإنجليز، تطل على البيضاء، وعرفت بسوقها الشعبي الذي يوفر الخضراوات والفواكه لمدينة عدن.. وعندما دخلنا البلدة، التمست أشياء غير مألوفة، رأيت السيارة الجيب ذات السقف المكشوف، ورأيت الطائرة ذات المحركات المروحية، وهي جاثمة بالمطار الترابي، ورأيت المطاعم ودكاكين مملؤة بالبضائع. كنت لا أدرك شيئاً من مستحدثات العصر، ولم يسبق أن ركبت سيارة أو طائرة، بل لم ترها عيني إلا مرة واحدة، حينما رأيت طائرة عسكرية تحلق في السماء، وكأنها تنهش بسرعتها سماء يافع الصافية، وكانت تلك الطائرة تبحث عن طائرة عسكرية أخرى مفقودة، أسقطها الثوار فيما سمّي بالمحطة، وحدث هذا في منتصف الخمسينيات من القرن الماضي.

صعدنا سلم الطائرة، وعندما غادرنا أجواء مكيراس، وفي داخل الطائرة عانقت السماء، ووجدت نفسي أحلق وكأنني طيراً مد جناحيه فوق السحاب، بل كنت في حلم لا يصدق. استغرقت الرحلة إلى عدن ما يقارب نصف ساعة، كنت أنظر من النوافذ هنا وهناك إلى الجبال والوديان والسهول الممتدة تحت السماء، علّي أتمكن من رؤية قرية ضيئان، مسقط رأسي، وحيث تمكث أمي، لكن نوافذ الطائرة لم تحقق رغبتي، والقرية لم تقترب، ولم تظهر، وكأنها حنقة مني. وعندما مضى جل وقت الرحلة (أقل من نصف الساعة)، إذا بي أرى البحر لأول مرة، وعرفت أنه بحر عدن، وأيقنت أنه الفراق المر لحبيبتي ـ عالمي الصغير (ضيئان).

الزاهر والبيضاء محاذية لمنطقتي، ولكنها لا تتقارب معها جغرافياً فقط، بل وفي نمط المعيشة والعادات والتقاليد الاجتماعية، كما أن العلاقات بين القبائل تاريخية، وكثير من أهلنا يعيشون فيها بين إخوانهم وأهلهم، وارتبطت الزاهر ويافع، بأن كان الحكام يحاولون استمالة يافع إليهم باستخدام حسن

العلاقة معهم، التي يتمتع بها آل حميقان. ولكن الغالب في العلاقة لم يكن سياسياً، بل اجتماعياً وتجارياً، فالتبادلات التجارية بين الجانبين، كانت تتم على نطاق واسع، سواء بالمقايضة بالسلع والبضائع، أو باستخدام عملتي الريال الفرنصة (الفرنسي) والبقش، وقد قال لي أحد الأصدقاء، إن أبناء الزاهر كانوا آنذاك أشطر في التجارة من أبناء يافع، ولما سألته عن كيفية معرفة ذلك، أخبرني أن والده اشترى في ذلك الزمان البعيد قنبلتين يدويتين عاديتين، لا يتعدى سعرهما الآن ألف ريال يمني، مقابل جنبية يافعية، قد تصل قيمتها الآن إلى نصف مليون ريال. ضحكت، وعرفت أن تجارة السلاح بين الجانبين، وبالذات في الجانب الآخر، ساعدت على كسر الحدود الشطرية القائمة آنذاك، بل إنها أدت إلى عدم وجودها.

والزاهر والبيضاء (الزاهر بالذات)، كانت أيضاً ملاذاً لكل الأحرار من أبناء يافع، فالشيخ أحمد أبو بكر النقيب، الذي كان قائداً لانتفاضة عام **1958**م. لجأ إليها مراراً، فقد جُرح بعد معارك خاضها لفترة طويلة، وأُسعف إلى الزاهر ثم إلى البيضاء. وكذلك السلطان محمد بن عيدروس العفيفي ومن معه عندما انسحبوا من يافع، تحت قصف الطائرات البريطانية لمنازلهم في يافع (القارة).

زرت الزاهر والبيضاء ـ مرة أخرى ـ بعد الوحدة في عام **1992**م، وعلى مداخل الأولى (البيضاء)، رأيت الأسوار والدروب المحصنة الحديثة البناء، وقلت ها هي الدولة قد وصلت هنا. ووجدت مدينة البيضاء مختلفة عماً رأيته لأول مرة قبل عقدين ونصف من الزمن، اختلافاً كلياً، من حيث حجم المدينة ومظهرها وأسواقها وعدد السكان. وحرصت أثناء الرحلة على زيارة الزاهر، والاستمتاع عبر الطريق الترابي بمناظر واديها الخصب، والآن، صرت أشاهد البيضاء والزاهر بين وقت وآخر، كلما هممت بالسفر براً من صنعاء إلى مسقط

رأسي، عبر الطريق المعبد الممتد من العاصمة إلى البيضاء، والذي يصل طوله إلى ما يزيد على **270** كيلومتراً؛ فطريق الرحلة يمتد من صنعاء إلى ذمار فرداع ثم البيضاء والزاهر، وقد شُقت طرق واسعة ومعبدة ومسفلتة من البيضاء، مروراً بالزاهر حتى تصل إلى مرفد، وتواصل السفر المريح إلى لبعوس. وهذا الطريق الذي يصل إلى العسكرية أقصى تخوم يافع مع ردفان، كان حلماً بالنسبة لأبناء يافع، تابعنا جميعاً مشروعه طوال عشرين عاماً، بدأت في عام **1985**م، أثناء الحكم الشطري، وافتتح الطريق في عام **2005**م، في عهد الوحدة.

ولقد ربطتني شخصياً علاقات حميمة بأبناء الزاهر وآل حميقان، وفي مقدمهم، الشيخ سالم عبد القوي الحميقاني . شيخ آل حميقان . رحمه الله. والشيخ عبد القوي بن حسين، والشيخ عبد الله سالم عبد القوي، وغيرهم. وكنا نتبادل الزيارات، ولنا ذكريات كثيرة عن كل ما كان يدور في المنطقة والوطن، خاصة بعد تحقيق الوحدة اليمنية، وقيام الجمهورية اليمنية عام **1990**م، ولقد تقوت هذه الصِلات بمثابرة مشايخ وأعيان آل حميقان على حضور المهرجانات السنوية للعادات والتقاليد والموروث الشعبي اليافعي، التي تقام سنوياً في لبعوس والقدمة والمفلحي، عقب عيد الأضحى المبارك من كل عام. إذ إنهم حريصون على المشاركة ومشاهدة البرع اليافعي، الذي يزخر بالإيقاع المنتظم السريع، ويثير النخوة والشجاعة في النفوس، وكذا سماع الزوامل والقصائد اليافعية، التي عادة ما تكون مليئة بالمحاجحة والبدع والجواب وعناد الشعراء وتنافسهم الشديد.

عـــدن

إذا كانت (يافع) مسقط رأسي ومهد طفولتي، فإن (عدن) طفولتي ويفاعتي وشبابي، وكل محيط حبي وحياتي. هي دنياي الحقيقية التي عانقتها، ولم أتعدَّ من العمر حينها سوى عشر سنوات، فبهرتني منذ اللحظة الأولى، وكان الحب لها من النظرة الأولى.

بعد ثلاثين دقيقة من الطيران من مكيراس، وعند اقتراب الطائرة من أجواء عدن، رأيت البحر أول مرة، وعرفت أنني في أجواء عدن حين رأيته، فالبحر وعدن صنوان لا ينفصلان. كان البحر هائلاً، أكبر مما سمعت عنه، وأول شيء لفت نظري، حجمه المترامي البعيد، ولونه الأزرق الجميل، ومكثت وقتاً أحدق به من خلف زجاج النافذة قبل الهبوط، لعلي أدرك أو أفهم كنهه، ذلك الحجم الهائل من الماء، الذي حدثونا عنه كثيراً في القرية، ولا نفهم مما يقولون شيئاً سوى الخيال، وها هو خيالي يصطدم برؤية الواقع، وهو في حالة ذهول.

توقفت الطائرة، نزلت السلم، كان والدي وعمي علي ينتظراني في المطار، وأخذاني بالأحضان، فأنسياني متاعب السفر وعناءه. استقللنا السيارة التي شرعت عابرة في مدينة خور مكسر، كنت أرى المنازل والعمارات وكأنها ناطحات سحاب، وتملكني الذهول من كم السيارات العابرة ذهاباً وإياباً في الشوارع الفسيحة، التي تبدو لنظافتها، وكأنها قاع أحد المنازل، هذه عدن، يا لها من عالم كبير. ثم مررنا ما بين البحر والجبل، فرأيت أمواج البحر متلاطمة، وخفت أن تنقض علينا وتلتهمنا، وما إن وصلنا مدينة (كريتر)، حتى ازداد ذهولي وتعاظمت دهشتي من عدد السيارات والبشر هنا وهناك، إن عدن عالم صاخب وعملاق. والغريب أننا حين توغلنا في شوارعها الضيقة، شممت نسائم

تحمل روائح نفاذةً من احتراق البنزين والغاز والتوابل، وروائح شتى متنوعة من المطاعم المنتشرة على حافات الشوارع، تلك الروائح لم تفارق حاسة شمي، روائح عوادم السيارات، وتفاعل البهارات في مطاعم المدينة، تداخلت لتشكل مزيجاً، وهي ميزة عرفت بها عدن حينها، والتي كان بها غالبية من السكان الهنود، جعلوا السكان الآخرين في محمية عدن، وبالذات في كريتر، حيث سمح لهم الإنجليز بالإقامة لخدمتهم إدارياً بالمستعمرة، ومن ثم، سيطروا على مطاعمها وأسواقها التجارية ووكالاتها البحرية، وغيرها.

كانت رحلة السفر من أرياف جنوبي اليمن، وصولاً إلى عدن، أمراً بالغ الصعوبة، لمشقة الطرق البدائية، لكن المرء ينسى تلك المشقة بمجرد رؤية عدن كعالم جديد متقدم، به آلاف السيارات والباصات، وبه الشوارع المنتظمة والحركة الدائبة في المحال التجارية، وبه الكهرباء التي لم يألفها القادم من الريف، حيث يرى هنا أن الليل قد تحول بفعلها إلى نهار، وخاصة عندما ترى الأشعة الصادرة عن أعمدة الكهرباء، وكأنها نجوم مضيئة، تمنح الشوارع والمواقع ضياءً، وتزينها بحلة جميلة، تبقى في الذاكرة إلى الأبد. إذ بدت (كريتر) لي كعالم آخر، وكأنها خلية نحل تضج بالحركة، وتمتلئ بأعداد من البشر من كل جنس ونوع، لم أرَ مثل أعدادهم من قبل. كل شيء مختلف هنا، طبيعة ساحلية مكونة من عدة أشباه جزر، تتناثر بها عدة جبال محاطة ببحر جميل وجذاب للنظر من كل جانب.. الشيء الذي لم أعجب به، هو حرارة الجو الشديدة في عدن، التي تجعل ثيابك تبتل من العرق، وذلك مبعث ضجر منها، ولكن المرء يبدأ بحبها عندما يحس بالتأقلم والتعود على الطقس الحار الشديد صيفاً، والمعتدل شتاءً، الذي ما كان ليلائم القادمين من معظم مناطق الريف، مثل منطقة يافع المعتدلة صيفاً والباردة شتاءً.

سكن والدي في عدن في حي الخساف مدينة (كريتر)، أكثر أحياء عدن ازدحاماً وصخباً، حيث انتقل إلى هنا منذ بداية الأربعينيات. أما عمي علي، فكان يسكن في مدينة المعلا، وفيها ميناء عدن، الذي تمتد مدينته طولاً بين رصيف الميناء وجبل شمسان. وقد سكنت أنا عند وصولي، ولعدة سنوات، عند العم عوض صالح البري، لأن والدي كان يسكن في مسكن متواضع، مكون من غرفة واحدة (جاراج)، أضف إلى ذلك أنه عازب، لأن أمي كانت في قرية ضيئان تقوم على فلاحة الأرض وخدمة جدتي المسنة، ومع أنني كنت أسكن مع أحد الأقرباء وعائلته في منزل فسيح، إلا أنني كنت أتردد كثيراً على منزل عمي علي أثناء ذلك، لأنه شخص ودود، كما أن الأخ محمد صالح مطيع، سكن عنده لفترة، وقد ربطتني به صداقة قوية، ما جعلني أتردد على منزل عمي أكثر.

كان والدي يعمل بائعاً وسائقاً لدى أحد التجار الهنود. أما عمي علي، فقد عمل مشرفاً في بلدية عدن، التي كانت من أنشط الإدارات وأكثرها انضباطاً. ولقد تعلمت منهما حب العمل والشجاعة وعدم الخوف. وعدم الخوف هنا، لأنه كانت تنتشر في حواري عدن عصابات العراك (المضرابة – باللغة الشعبية)، التي يغلب عليها أو على تشكيلاتها الطابع المناطقي.

وكانت أسوأ وأعنف تلك العصابات من ذوي الأصول الصومالية، وفي نطاق تلك الأجواء الخاصة التي كانت سائدة في تلك الأيام، كان صيت عمي علي يملأ شوارع عدن، الذي عرف بـ (أبو شنب)، باعتباره من أقوى وأشجع فتوة أبناء يافع في عدن، وأكثرهم فتكاً في العراك الذي كان ـ وفقاً للتقاليد الشوارعية المتبعة آنذاك – لا يتعدى استعمال العصي وقوارير الزجاجات الفارغة في أقصى حالات العداء. وقد دفع عمي علي، الذي ظلت باكورته (عصاه المحلية صنعاً واسماً)، ثمن تلك الشجاعة والشهرة وإظهار القوة المفرطة

لمدة ست سنوات في السجن في بداية الخمسينيات. ثم تحول من حماس جماعات الحواري، إلى الحماس الوطني، فدخل السجن مرةً أخرى لستة أشهر، بسبب مشاركته الشجاعة في انتفاضة عام 1958م، التي قام بها السلطان محمد بن عيدروس، حيث وجهت إليه تهمة القيام بتفجيرات في مدينة عدن – كريتر.

تحققت رغبة والدي وأعمامي في إدخالي المدرسة، وكان ذلك فتحاً مؤزراً، لأن الإقبال على المدارس الأهلية كبير، والفرص أقل. أما المدارس الحكومية التي تشرف عليها الحكومة البريطانية وإدارتها في عدن وتمولها، فهي بحاجة إلى وثيقة اسمها (المخلقة)، وهي شهادة الميلاد التي تثبت أنك من مواليد عدن. وهذا كان يعني حرمان كل أبناء مناطق المحميات وأبناء مناطق شمالي اليمن من الدراسة في المدارس الحكومية.

هكذا، في حالتي، كان لزاماً عليّ أن أدرس في إحدى المدارس الأهلية، حيث استطاع والدي أن يلحقني بمدرسة الإنقاذ الكائنة بحافة (حارة حسين) بمدينة كريتر، وكان مديرها الشيخ العلامة عبد الهادي العجيل، ثم واصلت الدراسة بمدرسة بازرعة الخيرية سنة 1960م، وفي سنة 1962م، التحقت بالمعهد الإسلامي، والذي شيده الشيخ محمد سالم البيحاني، بدعم من المملكة العربية السعودية، وكان برئاسة الأستاذ محمد أحمد علي (حالياً يشغل رئيس البنك الإسلامي)، وهو سوداني الأصل، وكان ممن درست على يديه بعد ذلك، عدد كبير من الشخصيات الذكية والمثقفة مبكراً، والمعروفة اجتماعياً، أذكر منهم: الأستاذ علي أحمد السلامي، وهو من قادة ثورة 14 أكتوبر، سالم زين محمد، جعفر علي عوض، محمد مرشد، علي فخري، عبد الرحمن الفخري، صالح حسن محمد، نور الدين قاسم، وغيرهم من أبناء جنوبي الوطن. ومنهم من أبناء شمالي الوطن: الأستاذ القاضي قاسم غالب أحمد، والأستاذ أحمد حسين المروني، والأستاذ محسن العيني، والأستاذ محمد عبده، وجميعهم تقلدوا مناصب

وزارية في ما بعد، كما أن أسماء كثيرة من طلبة هذا المعهد، قد لمعت في عالم السياسية والفكر والعسكرة منذ السبعينيات وحتى الآن، من أمثال: الراحل عبد العزيز عبد الولي ناشر، أخو الدكتور الجراح اليمني اللامع عبد الله عبد الولي ناشر، والذي شغل وزيراً للصحة في الحكومة اليمنية، والشاعر الكاتب فضل النقيب، والعسكري اللواء عبد الله علي عليوه (شغل وزيراً للدفاع)، والمحافظ السابق لعدن ناجي عثمان أحمد، ورجل الأعمال المعروف عيدروس العيسائي، والأخوان قاسم ومحمد مانع العيسائي، والفنان أيوب طارش العبسي، وغيرهم.

حين بدأت حياتي طفلاً وشاباً في عدن، كنت مثل غيري من الأطفال أو الشبان القادمين من القرى شبه المعزولة، لا أفقه من السياسة شيئاً، ظننت آنذاك أن عدن مستعمرة تخص الإنجليز وحدهم. وما نحن، حسب اعتقادي حينها، سوى رعايا أغراب لتلك الدولة الإنجليزية، لكنني، ومع سنين النمو ونضوج الشباب، أيقنت أن عدن لنا، وأنها قلب الوطن الذي سلبه الإنجليز من أهله، وأخضعوه لمصالح الإمبراطورية العظمى، التي كانت تهيمن بقوة على حوالي ثلث العالم كله، هكذا ببساطة، فهمت وجود الإمبراطورية التي لا تغيب عنها الشمس في عدن ومحيطها، ولم نكن حينها، كشباب، نفهم أبعاد هذا الواقع، السياسية والاقتصادية. ومع بدء الإدراك، تفتح وعينا، فالتحقنا بالعمل السياسي التحرري المنظم في الساحة، ثم جاء بعد ذلك الالتزام بخط الكفاح المسلح ضد الاحتلال البريطاني.

كانت الأوضاع السياسية مضطربة، رغم ازدهار عدن والمحميات، بحكم دعم الإنجليز للاتحاد الفيدرالي، المكون من محميات عدن الغربية، ومستعمرة عدن، لمواجهة المد الوطني المدعوم من الثورة الناصرية وحركة التحرر الوطني والمعسكر الشرقي. وباتت المدارس، مثلها مثل النقابات، هي بؤرة النشاط

الوطني، تقوم بالإضرابات والمظاهرات والاعتصام، وبالأخص، المدارس الأهلية، التي كانت رأس حربة هذا النشاط، مع مشاركة غير واضحة وجريئة من المدارس الحكومية الأخرى، وبالذات كلية عدن وكلية الاتحاد وكلية البنات في خور مكسر. وهذه المدارس تخرج فيها العديد من الوزراء والشعراء والمهندسين، وكانت منها أسماء لامعة، مثل: الشاعر الوطني المخضرم لطفي جعفر نعمان، والدكتور محمد عبده غانم، وعبد الرحيم لقمان وإبراهيم لقمان، والأستاذ صالح الزوقري، وهؤلاء أصبحوا يدرسون فيها، إلى جانب المدرسين الإنجليز والهنود والسودانيين، وقد رفدت مدارس عدن، أحزاب الحركة الوطنية بقيادات مشهورة، ولكن الاضطرابات فيها دفعت آباءنا أحياناً إلى نقلنا إلى مدارس أخرى آمنة، مثل المعهد التجاري العدني، الذي كان يديره الأستاذ القدير مصطفى بازرعة، وهو أيضاً من العناصر الوطنية المعروفة.

لم تكن المدارس وحدها في عدن، هي مصدر التعلم والتعليم، ولكن وجدت أشكال أخرى متعددة، كحضور جلسات علماء وفقهاء الدين في المساجد، من أمثال الشيخ الفاضل الجيلاني في مسجد (أبان)، والواعظ الديني والسياسي الشيخ محمد سالم البيحاني في مسجد (العسقلاني)، الذي أصبح بعد سنوات أهم شخصية دينية في عدن. وكذا الاشتراك في مكتبة (ليك)، أعرق مكتبات عدن، والتي سميت مكتبة المسواط لاحقاً. وأيضاً الاشتراك في حلقات تثقيف الأحزاب، وندوات النوادي الثقافية والجمعيات الخيرية، وعمل كل هذه الأشكال الوطنية، كان له أثره الكبير في تشكيل وعي جيلنا، كمصادر مهمة للتثقيف السياسي والفكري.

كما لم تكن عدن المدينة الوحيدة الحديثة في الجزيرة العربية، وثاني ميناء في العالم بعد نيويورك، ومدينة التجارة الحرة وقاعدة الإنجليز وقيادتهم للشرق الأوسط فحسب، وإنما كانت أيضاً مدينة عالمية، من حيث ثقافتها، تكتسب

صفة العالمية، لأنه تعايشت فيها مختلف القوميات، والتقت فيها ثقافات وديانات عدة: المسجد والكنيسة ومعبد اليهود والمعبد البوذي والفارسي، كلها تعايشت على مدى عقود من الزمن في المدينة، وعكست نفسها على مسلك وثقافة سكانها، ما جعلها منارة للثقافة والعلم والصحافة والفكر، ليس لليمن وحدها، وإنما شمل تأثيرها الخليج والجزيرة العربية والقرن الأفريقي والسودان ومصر، ومنها تعلم الكثيرون الحرية والنضال، من أحرار يمنيين وعرب، وغيرهم.

ما من شك، أن عدن كانت مدينة أخرى مختلفة، مدينة متطورة بنظامها وعلمها وعلاقتها مع العالم. ولكنها كانت تعيش حالة اضطراب، تنعكس في حياتها، بسبب تجاذبها من قبل الإنجليز من جهة، ومن قبل محميات جنوبي اليمن من جهة أخرى. وبرغم هذا التناقض الذي عاشته عدن، إلا أنها كانت مدينة مختلفة عن سائر مدن اليمن، مختلفة أيضاً بمبانيها وطرقها وحركتها التجارية ونظامها وإدارتها. وكذلك بعنفوان ثقافتها وحياتها السياسية، إنها مدينة متحررة، مقارنة بعواصم المحميات الرتيبة الحركة، والكسولة في كل أمورها وشؤونها. كنت فرحاً لعدن، كل ما أراه فيها من تميز وفرادة وجوانب مشرقة. ولكن شيئاً واحداً في عدن كان يزعجني، كلما أرى لمحة منه أو فعلاً بسيطاً يشير إليه، إنه التقليل من حقوق أبناء المناطق الجبلية في عدن. حيث كان يمارس التمييز ضدهم من سلطات الاحتلال البريطاني والإدارة البريطانية في عدن. على الرغم من أن البريطانيين كانوا أذكى من أن يمارسوه بصورة سياسة عنصرية واضحة، ولكن في الواقع المعاش، كان هذا الشبح الذي يزعجني ملموساً وموجوداً.

زخرت عدن، أيضاً، بالمشاعر الوطنية والمشاعر القومية، تفاعلت المدينة بتفاعل مفرط وبإيجابية عالية مع النهوض القومي والتحرري للمنطقة العربية، ومع المد التحرري وثورة مصر وجمال عبد الناصر، الكل هنا كان متفاعلاً مع هذا الاتجاه. وأذكر هنا حكاية بسيطة ومعبرة. كنت أتردد على بيت عمي وأنا

طالب في سن المراهقة، لم أعرف الحب بعد بمعناه، وكنت، أيامها، أجمع صوراً صغيرة، وأودع ما يعجبني منها لديه، وكان عمي علي شخصية وطنية وعربية، متحمساً للثورة المصرية، ولجمال عبد الناصر، وللثورة الجزائرية، مثله مثل كل أبناء عدن.

وذات مرة، قام عمي بوضع صورتي وصورة (جميلة بو حريد) المناضلة الجزائرية المعروفة، جنباً إلى جنب، أمام بنت الجيران التي يقارب سنها سني في ذلك الوقت، لتنظر فيهما، ثم أخذ يسألها، ويكرر القول لها: أيهما أجمل، هذه الصورة، أم هذه الصورة؟ أي أيهما أجمل صورة، جميلة بو حريد، أم صورتي أنا؟، وإذا بها ترد عليه، وبشكل تلقائي: صورة جميلة بو حريد أجمل. فقال لها: لماذا صورة هذه الجزائرية أجمل؟ فأجابت: هذه مناضلة جزائرية، سالم ماذا فعل؟!

بعد تلك الواقعة، قال لي عمي: شوف الفتاة التي تحبها ومركّز بالك أنك ستتزوج بها، رأت صورتك وصورة جميلة بو حريد، وقالت إن جميلة بو حريد أفضل وأجمل منك، لأنها مناضلة كبيرة، أما أنت فماذا فعلت؟. بالطبع حنقت مما قاله، وأجبته قائلاً، أنا سوف أؤكد لها أنني سأكون مناضلاً كبيراً، وأقول لها، إن شاء الله، سأكون أفضل من جميلة بو حريد في نضالي هنا في عدن.

كنا في ذلك العهد، ننتقل من الطفولة إلى الرجولة مباشرة، فقد كان عمري لم يتعدَ الأربعة عشر عاماً، حين بدأت عملياً المساهمة والمشاركة في النضال ضد المستعمر البريطاني، عبر انضمامي إلى منظمة جنوبي اليمن الثورية. وأصبح عمري ستة عشر عاماً، حين التحقت بحركة القوميين العرب، والجبهة القومية لتحرير جنوب اليمن المحتل، ولكن بداية طريق النضال، جاءت أولاً من

التجمعات الشبابية المناطقية، بفعل حداثة التجربة، ولما تتمتع به مثل تلك التجمعات من أجواء صداقات يومية وحميمة بين مجموعة الشباب.

عندما لحّن فنان عدن المحبوب، أحمد بن أحمد قاسم، أغنية:

عدن – عدن، يا ليت عدن مسير يوم

شاسير به ليلة، ماشا أرقد النوم

كانت عدن حينها مدينة منفتحة، توفر كل شيء للشخص، وكانت تسمح بتداول كل شيء، باستثناء مقاومة الإنجليز ومعارضة وجودهم العسكري في عدن والمحميات، وبخلهم الظاهر في عدم تطوير ما هو خارج معسكراتهم وثكناتهم. وهذا مثّل دافعاً لكل وطني لإيمانه بتغيير هذا الوضع.

كانت البداية بالنسبة لنا، في مستهل الستينيات في مدينة (كريتر)، وفي تأسيس (رابطة أبناء يافع)، التي شكلها مجموعة من الطلبة الذين مثلوا حالة متقدمة في التعامل مع ما هو وطني، ومنهم: فضل النقيب، سالم عبد الله ياسين، محمد صالح مطيع، محمد مانع العيسائي، عوض عثمان أحمد. وجاء اسم الرابطة تيمناً برابطة أبناء الجنوب العربي، التي كان لها وجودها ودورها في انتفاضة **1958**م. وبرزت في قيادتها هامات وطنية، مثل محمد علي الجفري، السلطان علي عبد الكريم العبدلي، الشيخ محمد أبوبكر بن فريد، والشيخ محمد بن عجرومة، وشيخان الحبشي، وقحطان الشعبي، الذي انسحب منها في ما بعد، مع مجموعة من الشباب، وأسسوا فرع حركة القوميين العرب في اليمن، ومنهم أيضاً الأستاذ عبد الله عبد الرزاق باذيب، الذي شكّل، بعد ذلك، اتحاد الشعب الديمقراطي ومنظمة الشبيبة، وكان مبرز (باسنيد)، مقراً لتناول القات في شارع الزعفران بكريتر، هو ملتقى هؤلاء الشباب بأفكارهم الجديدة والمتنوعة المشارب.

ولم يكن تأثر نمو المشاعر الوطنية والتحررية في نفسي، محصوراً على ما يحدث في عدن، بل تعداه إلى يافع، حيث كان لانتفاضة يافع المسلحة في عامي 1957–1958م، أثراً كبيراً في نفسي، كما هو الأثر في نفوس الشباب المثقفين من أبناء المنطقة في عدن، وكذلك الحال في موقفنا جميعاً تجاه ما يحدث حينها في بقية مناطق جنوبي اليمن، من عمل مسلح مقاوم في حطيب العوالق، بقيادة الشيخ سالم الأعور، وكذا، تمردات القطن ولحج والعوالق العليا، وهي الشرارات الأولى التي أشعلت فتيل الانتفاضات الشعبية والكفاح المسلح ضد المحتلين الإنجليز. ما جعلنا، نحن الشباب، في عدن، نستلهم آنذاك أسباب تلك الانتفاضات، وخاصة انتفاضة عام 1958م، التي كنا نتوق لإبقائها مشتعلة.

بيد أن المحيط الذي نعيشه في عدن، هو صاحب القرار، فقد جعلتنا الضربات التي وجهت إلى رابطة أبناء الجنوب، وظهور المد القومي العربي، وعزمنا على التواصل لإنجاح الانتفاضات التي تحدث في يافع ضمن الإطار الوطني.

كل ذلك جعلنا نتخلى عن العمل الأول (رابطة أبناء يافع)، وعن الفكرة والتسمية لها، اللتين تدوران في نطاق منطقة واحدة، يعود أصل بعضنا إليها، وأتى البعض الآخر منها، وأن نتجه صوب فكرة أوسع من نطاق المنطقة، وشاملة لعدن أولاً، والجنوب ثانياً. لذا، شرعنا نفكر في إقامة تنظيم سياسي وطني عسكري، أسميناه (منظمة جنوب اليمن الثورية)، وكخطوة جاءت أفضل من سابقتها، كونها بأبعاد وطنية وقومية واسعة.

جاء تأسيس هذه المنظمة (منظمة جنوب اليمن الثورية)، التي عدل اسمها لاحقاً إلى (المنظمة الثورية لتحرير جنوب اليمن المحتل) عام 1961م، في اجتماع سري، دعا إليه الأخ سعيد مثنى الحوثري، بمقره في عيادة الأسنان بشارع الاتحاد بمدينة كريتر، وحضره أكثر من خمسة وعشرين فرداً من الشباب

المشحوذين بالحماس الوطني، والذين كان معظمهم قد بدأوا نشاطهم السياسي في حركة القوميين العرب، أبرزهم: محمد ناجي شجاع السيلاني، محمد صالح مطيع، فضل محسن عبد الله، محمد علي الربوي، علي محمد الكبدي، عبد الله مطلق صالح، سالم عمر علي، عبد الرب مصطفى، محمد صالح الوالي. وعلى هامش بدايات نشاط المنظمة الحديثة، أسسنا في الأشهر اللاحقة، الجمعيات الخيرية والرياضية، لتكون رافداً استقطابياً يجذب الشباب المتحمس للعمل الاجتماعي والعمل الوطني.

وكان نادي (الصاروخ) الرياضي بكريتر، لبنة من لبنات النوادي الرياضية الكبيرة، مثل نادي الشباب الرياضي، ونادي الأحرار، والحسيني، والجزيرة، والواي، وهي الأندية التي أصبحت تسمى فيما بعد الاستقلال، بالتلال وشمسان والميناء والوحدة، وتلك الأندية، كانت أثناء مرحلة التحرر، تقوم، بالإضافة إلى النشاط الرياضي، بنشر الوعي التحرري، ثم توجهت جهود المنظمة بعدها نحو التواصل مع الحركة العمالية في مصافي عدن (البريقة)، وتشكيل جمعية أبناء يافع الخيرية، وعدد من الجمعيات المناطقية الأخرى، كواجهة للعمل العلني.

هكذا، تنوعت أشكال العمل، وتضافرت الجهود، توحدت الفصائل والجمعيات والمنظمات، على طريق الأخذ بالعمل السياسي، ثم بالعمل العسكري لاحقاً، والذي كان عمقه الشعبي يتمثل عملياً بالنقابات النشطة، واتحادات الطلاب والنساء والمنظمات الخيرية الاجتماعية للمناطق، مثل: الجمعية الحضرمية، جمعية أبناء الضالع، جمعية أبناء العواذل، جمعية أبناء يافع وغيرها.

وشهدت الفترة **1962–1963**م، أحداثاً هامة، شكلت منعطفاً للنضال الوطني التحرري الإنساني في عدن وجنوبي الجزيرة العربية، فقبل قيام

ثورة **26** سبتمبر **1963**م وانتصارها بيومين، نظم المؤتمر العمالي، الذي كان يقوده الأستاذ عبد الله عبد المجيد الأصنج، ومحمد سالم علي، وعبده خليل سليمان، وآخرون، يوم **24** سبتمبر **1963**، مظاهرة صاخبة، اشتركنا فيها جميعاً، ودفع بالقطاعين الطلابي والعمالي للزحف على المجلس التشريعي.

ثم ارتأينا، ضمن صفوف من المناضلين والناشدين للحرية في عدن، وعبر النقاشات والحوارات الدائرة أيامها في جميع مناطق عدن، ضرورة السعي إلى إقامة تشكيل موحد لكل أبناء جنوبي اليمن المحتل، ينظم جهودهم في اتباع الكفاح المسلح والمقاومة السرية ضد الاستعمار البريطاني على طول وعرض أرض الجنوب. وكانت هناك كثير من المنظمات النقابية والطلابية والنسائية والجماهيرية في عدن، تدعم قيام هذا الإطار الموحد، وكانت تريد له أن يكون منطلقاً من عدن.

والحقيقة أن هذه الأفكار والمنطلقات، احتاج تطبيقها وتنفيذها إلى تنسيق واسع على مستوى البلاد، كما أن الاستخبارات البريطانية كانت قوية جداً في المدينة. وبالتالي، وبعد محاولات كثيرة ومتواصلة، توصل ذلك إلى وجود تواصل وعلاقات أولية بين أعضاء سبعة فصائل، هي: جبهة الإصلاح اليافعية، الجبهة الوطنية، تشكيل القبائل، الجبهة الناصرية، المنظمة الثورية لتحرير جنوب اليمن المحتل، التنظيم السري للضباط والجنود الأحرار، حركة القوميين العرب.

والفصائل المذكورة، هي الفصائل التي تشكلت منها الجبهة القومية لتحرير جنوبي اليمن المحتل لاحقاً، وتحديداً، في اجتماع في صنعاء منتصف عام **1963**م، ترأسه قحطان محمد الشعبي، الذي كان يمثل حركة القوميين العرب. كما وجد، آنذاك، التواصل أيضاً من قبل التشكيلات الثورية المتنوعة مع قيادات النقابات، وهيئات ومنظمات الطلاب والنساء، وعدد من الهيئات والمنظمات الجماهيرية الأخرى.

التنظيمات والحركات المذكورة وقيادتها، يعود لها فضل التهيئة وإحداث الإرهاصات الأولى الهامة في مسار النضال الوطني، فهي لعبت دوراً رئيساً في إعادة تنظيم الصف الوطني القومي، الذي كان هدفه إقامة الجبهة القومية. ووضعت قيادات تلك التنظيمات المذكورة منذ وقت مبكر، نفس الأهداف والشروط التنظيمية الداخلية، والضوابط والاتجاهات تقريباً، تلك التي قامت عليها (الجبهة القومية لتحرير جنوب اليمن المحتل) لاحقاً، بعد ما يقارب عامين.

وكان هذا العمل عاملاً نوعياً تاريخياً رئيساً، حيث إن الفصائل السبع المذكورة، استطاعت، ليس فقط تأسيس إطار واحد، هو الجبهة القومية لتحرير جنوب اليمن المحتل، بل والتوحد بداخله، وقد أدى تسارع الأحداث والتطورات، إلى بقاء معظم قيادات تلك التنظيمات التي وقعت على ميثاق قيام الجبهة القومية في قيادتها، بينما بعضهم اكتفوا بأن يكونوا أعضاء عاديين، بسبب أن الجبهة القومية تشكلت بعيداً في صنعاء.

جميع قادة التنظيمات المذكورة آنفاً، والذين من الصعب إيراد أسمائهم لكثرتهم، أشخاص اندفعوا للعمل الوطني، وأدركوا أهمية العمل السياسي الجماعي المنظم، وكانوا صناعاً حقيقيين لأحداث تاريخية هامة، يجب أن يعطى لهم حقهم في تدوين تاريخ الثورة، كقادة وطنيين أوائل، لأن تاريخهم لم يلقَ عناية كافية بعد حتى الآن. أما مجموعة القادة الأخرى (الثانية)، التي لها فضل ومساهمات مشهودة في تأسيس الجبهة القومية وانطلاقها بقوة في فترة وجيزة، فهم القادة السياسيون من عالمنا العربي، فقد كانت الجبهة القومية في الأيام الأولى لتشكيلها، مرتبطة ارتباطاً تنظيمياً بحركة القوميين العرب، التي كانت في بيروت ودمشق والقاهرة، وكان أمينها العام، جورج حبش، ومن أعضائها، محسن إبراهيم ونايف حواتمة والهندي ووديع الحداد، ومجموعة كبيرة من القادة الفلسطينيين والعرب، الذين شكلوا هذا التنظيم بعد نكبة **1948**م. وهؤلاء

أشخاص قياديون، سخروا حياتهم كاملة في تلك الأيام، لنشر القومية العربية، وكانوا يعتبرون أن من مهامهم الأساسية، أن يصبح أعضاء حركة القوميين العرب، هم من يقود النضال ضد الأنظمة الاستعمارية والأنظمة الملكية في كل بلد عربي.

أما مجموعة القادة الثالثة، التي ساهمت في انتصار ثورة جنوبي اليمن المحتل ضد الاستعمار، فكانوا الأشخاص الذين ساهموا في تشكيل الجبهة القومية، ودعم الثورة في جنوبي اليمن، من إخواننا في قيادة النظام الجمهوري في شمالي الوطن، والذين تطرقنا لبعض أسمائهم، عند تناولنا لمدينتي صنعاء وتعز. وهم شخصيات وحدوية، تعاملت مع من قدِموا من أبناء الجنوب اليمني المحتل، برؤية أخوية متكاملة، وكانوا همزة الوصل بين قيادة الجبهة القومية وقيادة الجمهورية العربية اليمنية، حتى أصبح، فيما بعد، رئيس الجبهة القومية، قحطان الشعبي، يتعامل مباشرة مع الرئيس السلال، رئيس الجمهورية.

وعودة إلى عدن، وإلى تجربتي النضالية، فقد كانت قيادة (منظمة جنوب اليمن المحتل الثورية)، عند تأسيسها عام **1961**م. بدأت تستلم إفرازات الحركة الكفاحية المسلحة التي تواصلت حينها في يافع، وتدرس بإمعان تجربتها، فتعلمنا كيف نستفيد من الثغرات والأخطاء التي وقع فيها إخواننا أوائل المناضلين في المنطقة، فكان أول عمل قمنا به، أن وحدنا أنفسنا في المنطقة، ثم اتجهنا نحو توحيد الفصائل الكفاحية، تحت مسمى «الجبهة القومية»، قابلين بامتدادها الوطني أولاً على مستوى جنوبي اليمن واليمن كله، وامتدادها القومي التحرري العربي ثانياً، من خلال ارتباط الجبهة القومية لتحرير جنوب اليمن المحتل، بحركة القوميين العرب، وبجمال عبد الناصر، ودعمها واستلهامها للثورة الجزائرية، وبقية الحركات التحررية العربية في عدد من البلدان العربية.

وفي أكتوبر 1963م، قامت الثورة المسلحة من قمم جبال ردفان، ما سارع في نهوض العمل السياسي والفدائي في مدينة عدن وبقية محميات الجنوب، من المهرة شرقاً حتى بيحان والصبيحة غرباً، وكان الاتحاد اليافعي، الذي تشكل بعد تكليف عبد الله مطلق صالح (رئيس جبهة أبناء يافع)، بفتح جبهة حالمين، لمساندة جبهة ردفان والضالع والشعيب، قد أسهم في تأطير جهود الشباب ومشاركتهم في جبهات الكفاح المسلح المختلفة. وبرغم أن معظم قيادته كانوا مؤطرين سرياً ضمن إطار الجبهة القومية، إلا أن قيادات وطنية برزت من خلال هذا التشكيل، ليس لها علاقة تنظيمية مباشرة بالجبهة القومية، وإنما هم شخصيات وطنية واجتماعية مؤثرة، ومنهم: العم عمر عبد الله الأصبحي، صالح علي قاسم، علي صالح سعيد، محمد يوسف قحطان، محمد زين، وآخرون.

مارست نشاطي في إطار الجبهة القومية في القطاع الطلابي في عدن، وبعدها تحملت مسؤولية الخلايا الطلابية في كل من مدن كريتر والمعلا والتواهي. ووصلت إلى قيادة العمل التنظيمي في (عدن)، وكذا مسؤولية القطاع الطلابي، وعندما بدأت الجبهة القومية تفعل فعلها في ساحة النضال التحرري، وبعد سنوات من البقاء في عدن، جمعت فيها بين الدراسة والعمل السياسي، سواء في منظمة جنوب اليمن الثورية، أو في القطاع الطلابي التابع للجبهة، أصبحت الدراسة في عدن وجنوبي اليمن متوقفة، في ظل تصاعد الكفاح المسلح في جبهات ردفان والضالع وعدن، واشتداد معارك العمل السياسي والجماهيري في عدن، ما أرغمني وآخرين على المغادرة في بداية السنة الدراسية لعام 1964م إلى تعز، لكي أستكمل الدراسة المتوسطة والثانوية هناك. وكنت أعتقد أن وجودي للدراسة هناك، سوف يقلل من نشاطاتي الوطنية التحررية، ولكن ما

حدث كان عكس توقعاتي، لأن مدينة تعز كانت مقر وموقع الثورة التحررية المتقدم.

يومها، كنت مهيأً للانتقال إلى تعز، لأن عدن علمتني حب الوحدة اليمنية، منذ وقت مبكر، سواء من ناحية معايشتي لكثير من أبناء المناطق الشمالية في عدن عن قرب، أو عن طريق الأجواء العامة في عدن، التي كانت وحدوية حقاً. فعندما انتصرت ثورة 26 سبتمبر، عبّرت عدن، ولفترة شهر أو أكثر، عن مشاعرها الفعلية تجاه الشطر الآخر من الوطن اليمني، خلت شوارعها، وأغلقت المحال، وتوقفت الأعمال، واتجه كثيرون إلى شمالي الوطن، ابتهاجاً وفرحة، مستبشرين بما حدث، وحين بدأت المتاعب تواجه الثورة السبتمبرية، انخرط أبناء عدن والجنوب كله في (الحرس الوطني)، وجبهات الدفاع عن الثورة.

تفاعل المناضلون في جنوبي اليمن، مع ثورة 26 سبتمبر، لأنهم وجدوا في انتصار الثورة في شمالي الوطن، عاملاً مهماً، يدعم توجهاتهم في الكفاح المسلح، وأدى تفاعل عدن مع الثورة في صنعاء خلال تلك الفترة، إلى إنماء الكفاح ضد الاستعمار، نتيجة لوجود أبناء الجنوب المشاركين، دفاعاً عن النظام الجمهوري في صنعاء، ومع تفاعل أبناء عدن والمحميات مع قيام الجمهورية العربية اليمنية، أخذ المناضلون في جنوبي اليمن، يسرعون الخطى نحو عمل تغيير ثوري في الوضع في الجنوب، وبالتالي، طرد الاستعمار البريطاني.

عدن مدرسة نضالية كبيرة وشامخة، لها بصمات هامة، تشرّبنا فيها معاني الوطنية. مدرسة علمتني، مثل كثيرين غيري، النضال والكفاح، فالمعاناة أولاً، والإيمان ثانياً، وعدن ثالثاً، كانت وراء التحاقي بالحركة السياسية اليمنية والعربية. كانت البداية، الاشتراك في تأسيس الجمعيات الأهلية والطلابية، فمنظمة جنوب اليمن الثورية. ويعود تبوّئي للمناصب القيادية العديدة في سياق

المسيرة النضالية المذكورة، إلى حرصي الدائم والشديد على التعلم وتنمية ثقافتي، باعتبار ثقافة الشخص تنعكس على سلوكه النضالي، وتعامله مع مختلف المسائل والقضايا، فقد كنت في عدن كثير القراءة، رغم مشاغلي مسؤولياتي الكثيرة.

وإذا ما أخذت سياق رحلتي مع الحياة ومحطاتها ومنعطفاتها الحادة في مرحلة الشباب، ففي البداية، تأثرت بأساتذة كبار، كانوا يحملون رسالة جهادية وطنية وقومية كبرى. وبعدها، التحقت بالمدرسة القومية العربية (التي سأتحدث عنها لاحقاً)، والتي ألزمتنا بقراءة منهجية، وبرنامج معين يميل إلى فكرها السياسي، الذي اتسم بكتب النهوض العربي الحديث والوحدة العربية والناصرية والتحرر العربي والبعث، وغيرها. ويطل الفكر القومي العربي على الآخرين من باب القدرة على المحاججة، وطبعاً هذه مسألة نسبية، لكنها في وقتها كانت ملزمة. وهكذا، كان شأن المدرسة الأممية في مرحلة لاحقة من حياتي السياسية، والتي لا ننكر أنها أثرت الفكر والمدرسة السياسية العربية، من خلال قراءات أبرز المفكرين، من أمثال جوركي وديستوفسكي، ولكن الأيديولوجيا أطبقت على كل شيء، في انحيازها الكامل لنظام الدولة، وما سمي (بديكتاتورية البروليتاريا)، لا شك أن كتب مثل (كيف سقينا الفولاذ)، (والحرب والسلم) لديستوفسكي، و(الأم) لجوركي، هي من الكتب التي تأثرت بها كثيراً.

وعدن مدرسة نضالية، شارك أبناؤها وسكانها في مقارعة الاستعمار البريطاني بكل فئاتهم ومنابعهم، ولم تقتصر المشاركة على التحاق أعداد كبيرة منهم بالعمل الفدائي فيها كجبهة ثانية بعد ردفان، بل وفي مساهمتهم الواسعة في المظاهرات والمسيرات الجماهيرية التي ألهبت العالم حماساً في مناصرة ثورة جنوبي اليمن ضد الاحتلال. وكان هؤلاء بأعداد كبيرة في العمل التعبوي والإعلامي التحرري، الذي لم يقل أهمية عن القتال حينها، وإلى جانب تفرد

عدن، باعتبارها مقراً لكل التنظيمات والأحزاب التحررية، مثل البعث وحركة القوميين العرب، وغيرها من فصائل الحركة الوطنية، فقد وجدت بها حركة قوية فاعلة للنضال التحرري السلمي، قادها المناضل الجسور عبد الله عبد الرزاق باذيب.

أما التفرد الثالث لعدن، فكان اشتراك العديد من المناضلات في النضال التحرري، أمثال نجوى مكاوي، عائدة يافعي، نجيبة محمد عبد الله، فوزية جعفر، شفيقة مرشد، شفيقة علي صالح، وغيرهن كثيرات، بجدارة، في النضال الوطني ضد الاحتلال البريطاني. وما زالت العديد من الصور لواقع هذا النضال في الذاكرة، التي تتصدرها صورة المناضلة الأخت نجوى مكاوي، التي عرفت بالشجاعة والإقدام، وهي تقف متحدية بسيارتها من طراز (فولكس واجن)، الدبابة البريطانية في أحد شوارع مدينة الشيخ عثمان بعدن.

في سنة **1965**م، وصلت في سلم العمل السياسي إلى قيادة القطاع الطلابي للجبهة القومية، وشاركني في تلك القيادة جاعم صالح، عبد الله شرف سعيد، محمد عوض السعدي، وجميل خليفة. وكان القطاع الطلابي من أنشط القطاعات الجماهيرية التي تقودها وتحركها الجبهة القومية، وتعتمد عليها الثورة. وهذا ما أهلني لحضور المؤتمر الأول والثاني للجبهة القومية، الذي انعقد في مدينة (جبلة) بشمالي الوطن في حزيران **1966**م، وعلى أساس التوجهات التي حددها المؤتمر للاهتمام بهذا القطاع الهام، تشكل اتحاد طلبة الجنوب اليمني المحتل، برئاسة عادل صالح، ابن مدينة المنصورة المشهور. وأصبح النشاط الطلابي أحد الأنشطة الأساسية الفعالة، كالنشاط النقابي، والنشاط النسائي، النشاط الشعبي، النشاط الفدائي. وحدد لكل من تلك النشاطات – القطاعات، قيادات، بعضها متفرغ، وكل قطاع تديره قيادات سميت بروابط العمل التنظيمي، التي تقودها شعبة المنطقة، وهي القيادة اليومية التي تشرف

وتسيير هذه النشاطات ـ القطاعات، وليس لها علاقة بالعمل الفدائي، الذي أطرت حلقاته، وكانت منفصلة تماماً عن هذه الأنشطة الحزبية المرتبطة بالنشاط الجماهيري.

كان التدرج في العمل الحزبي السري الداخلي للجبهة القومية، يخضع للمركزية الشديدة، تحت مبدأ (نفذ ثم ناقش)، والدخول إلى عضوية الجبهة، يتطلب الانتظار سنة كاملة (للنصير)، يلحقه دخول العضو في الحلقة بعد اجتياز اختبارات المحافظة على السرية والاستعداد لتنفيذ المهام، والتأكد من السلوك الأخلاقي العالي، والتطوير الذاتي من خلال القراءة الأسبوعية لكتاب مختار من قبل القيادة التنظيمية، التي كان لديها برنامج متكامل من مجموعة كتب فلسفية وتاريخية وسياسية، كلها أخذت من البرنامج المركزي لحركة القوميين العرب الخاص بالتثقيف الذاتي، والذي تتصدره كتب (ساطع الحصري)، ويأتي المقال الأسبوعي لصحيفة الحرية اللبنانية، كتعميم ملزم القراءة.

وكانت أسماء، محسن إبراهيم، محمد كشلي، بلال الحسن، نايف حواتمة، فواز طرابلسي، من الأسماء اللامعة التي كانت تستحوذ على الاهتمام والمناقشة، هذا بخلاف ذلك الكم الهائل من الكتابات أو الخطابات السياسية الحماسية للإذاعات والصحف العربية، وخاصة إذاعة (صوت العرب)، التي كان لها تأثيرها دون شك في تحريك العواطف والحماسة العربية (وليس العقول العربية). كما أن التعميم الداخلي، وهو توجيه نظري تنظيمي أسبوعي، كان يضاف إلى التكليفات النضالية، أضف إلى ذلك، أن بند النقد والنقد الذاتي، هو أيضاً بند ثابت في الجدول الأسبوعي، ليس في اجتماع الحلقات التي هي أول بناء/ إطار في التنظيم، وعدد أعضائها لا يتجاوز الخمسة الأعضاء، وإنما في الحلقات العليا. وكان يتم اختيار أفضل العناصر من أعضاء هذه الحلقات،

لترفيعهم إلى الخلية، ثم الخلية القيادية، فروابط العمل، وهكذا، حتى القيادة العامة، التي يختارها أو ينتخبها المؤتمر العام.

كان نشاطي في عدن في العمل الحزبي السري، وفي القطاع الطلابي للجبهة القومية، الذي له نشاطات عدة، أهمها العمل بين صفوف الطلاب، وتوعيتهم وطنياً، وتحريضهم على المسيرات والتظاهرات، ومنها تكليفات بتوزيع صحيفة (الأيام)، التي كانت تتصدر عناوينها أخبار (الجبهة القومية)، وللحقيقة والتاريخ، أنني لم أكن ضمن حلقات العمل العسكري الفدائي، ولكن كانت لي علاقات شخصية تنظيمية وسياسية مع كثير من قيادات وأعضاء القطاع الفدائي في عدن. وكانت لي مساهمات بسيطة، منها أن أولى العمليات الفدائية في عدن، انطلقت من المسكن الذي يسكنه والدي (جاراج وغرفة)، في حي الخساف، وهذا المكان شهد العديد من الاجتماعات، التي أسست عدداً من الجمعيات والمنظمات.

كانت لي آنذاك علاقات شخصية قوية مع مَنْ هم في القطاع الفدائي من أبناء يافع، أمثال: محمد صالح مطيع، محمد ناجي بن شجاع، عبد الرب علي محمد (مصطفى)، سالم عمر علي، محمد ناصر عبد أحمد الميسري، محمد أحمد سلمان، أحمد محمد شوقي، فضل محسن عبد الله، سالم عبد الله ياسين، صالح سعيد الحكومة، محسن عبده، محمد حسين البري، وآخرين لا تسعفني ذاكرتي لإيرادهم، أما مَنْ تعرفت إليهم من القيادات والكوادر اليمنية في القطاع الفدائي آنذاك، فلا أنسى زمالتي لعبد العزيز عبد الولي، ومحمد سعيد (محسن)، وعثمان المهدي، وسعيد الإبي، وعدد آخر من أبناء مناطق الجنوب المحتل.

وفي الأشهر الأولى بعيد الاستقلال الوطني، كانت لي معرفة شخصية بالإخوة: عبد الفتاح إسماعيل، سالم ربيع علي، علي ناصر محمد، محمد علي

هيثم، علي عنتر، صالح مصلح، علي شائع، سعيد صالح، علي سالم البيض، حيدر العطاس، محمود عشيش، عبد الكافي، ياسين سعيد نعمان. وكثيرين آخرين.

عدن مدينتي، نشأت وترعرعت وقضيت بها أجمل سنيّ الشباب، عملاً واجتهاداً، أذهلتني بازدهار حياتها، وبجمالها الخلاب، وشواطئها من أجمل شواطئ العالم، إلى جانب الجبال المتعرجة العالية، المشرفة بحنان وإبداع الخالق على البحر، الذي تصدح أمواجه بأروع الموسيقى، عدن مزجت عنفوان الحياة وجمال الجبال، على امتداد الشواطئ التي تحيط بها، بتعايش أهلها مع قوميات وديانات وثقافات عديدة ومتنوعة، ولقد تعلمت كثيراً من تنوع أبناء عدن، وتعلمت منذ ذلك الوقت، أنني عدني، وأن عدن منطقة أكبر من جميع ساكنيها، فهي ليست لأحد، ولا يدّعي أحد أنها ملكيته. عدن ليست فقط قبلة لجميع أبناء جنوبي اليمن، بل لأبناء اليمن كلهم، ومن الناحية الاقتصادية والمستقبلية، فعدن أيضاً للعرب، وللمنطقة الإقليمية، وأيضاً للعالم، كميناء وممر بحري عالمي.

وعدن، هي مرآة الوطن اليمني كله، وكانت مرآة جنوبي اليمن وحضنه وحاضرته منذ جلاء الإنجليز عام **1967**م، حتى تحقيق الوحدة اليمنية عام **1990**م، وقد عشت فيها طوال هذه الفترة من عمري، بين العمل والسياسة والحياة الطيبة، على الرغم مما حدث أحياناً من ارباكات عاشت فيها عدن، بحيث صارت الذكريات عن هذه المدينة الحبيبة، خليطاً من الأفراح والأحزان معاً، ولكن الأفراح أكبر من وجهة نظري. وكانت أكبر الأفراح على الإطلاق في عدن، الأفراح برحيل المستعمرين الأجانب، وحصول جنوبي اليمن على استقلاله الوطني.

لم أشهد طوال خمسة عقود من الزمن عشتها في عدن، فرحة كتلك الفرحة التي غمرت الأحياء والجبال والشواطئ، ولفت ببهجتها ومسرتها جموع الناس في كل شارع وحارة ومنزل في عدن، في الأشهر التالية لنيل الاستقلال الوطني في الثلاثين من نوفمبر **1967**م، وكان ذلك واضحاً، بالرغم من الحرب الأهلية التي شهدتها شوارع أحياء الشيخ عثمان والمنصورة قبيل يوم الاستقلال ببضعة أشهر.

يصعب كثيراً وصف المشاعر والأحاسيس التي انتابت الناس في تلك الأيام وفرحتهم، ولا أدري كيف تتبادر إلى ذهني كلمات الشاعر لطفي جعفر أمان، كلما ذكرت يوم الاستقلال، تلك الأبيات الرائعة المعبرة، التي تقول:

على أرضنا.. بعد طول الكفاح
تجلى الصباح.. لأول مرة
وطار الفضاء طليقاً رحيباً
بأجنحة النور ينساب ثره
وقبلت الشمس سمر الجباه
وقد عقدوا العزم من بعد ثورة
وغنى لنا مهرجان الزمان
بأعياد وحدتنا المستقرة
وأقبل يزهو ربيع الخلود
وموكب ثورتنا الضخم إثره
تزين إكليله ألف زهره
وينشر من دمنا الحر عطره
ويرسم فوق اللواء الخفوق
حروفاً تضيء.. لأول مره

شخصياً، لم أنعم بحضور احتفالات الاستقلال يوم الثلاثين من شهر نوفمبر **1967**م، وإعلانه في مهرجان حضره أبناء الوطن من كل حدب وصوب من خارج عدن ومن داخلها، لينعموا بهجة وسروراً في (مدينة الاتحاد سابقاً)، وهو احتفال تناقلت وسائل الإعلام العالمية خبره، وما جاء فيه جميعها تقريباً، وبدون استثناء، فقد داهمني المرض قبل أيام قليلة من ذلك اليوم العظيم، ولم تتوفر آنذاك الإمكانية لعلاجي في مستشفيات عدن، ما استدعى نقلي إلى مدينة أسمرا الإثيوبية آنذاك، والتي كانت وجهة لعلاج المرضى ممن يستعصي علاجهم في عدن.

تطلبت العملية الجراحية لإزالة حصوات من كُلاي في (أسمرا)، ثم الاستجمام بعدها مدة حوالي عشرين يوماً. هناك شفيت فيها تماماً، وبعدها عدت إلى عدن، اتضح لي أن تطورات كثيرة وسريعة حدثت في البلاد، حيث عينت حينها مع مجموعة من قيادات الجبهة القومية كمدرسين. ولكن بعد أن تفاقمت تلك التطورات وجرت محاولة انقلاب **20** مارس **1968**م، وجدت نفسي بدون عمل رسمي في الدولة (وكانت عناصر من الجيش العربي معظمها من كبار الضباط، الذي كان يسمى سابقاً جيش الليوي)، والذي ناصر الجبهة القومية لتحرير جنوبي اليمن المحتل، قبل عدة أشهر على الإمساك بالسلطة عند جلاء الإنجليز، هي التي قامت بذلك الانقلاب، ولولا الوجود المكثف بين أوساط صغار الضباط وصف ضباط وجنود هذا الجيش، بالإضافة إلى وجود جيش التحرير الذي تشكل حديثاً وجماعات الفدائيين، ولولا اليقظة العالية بين أوساط الناس، لنجح الانقلاب.. وكان قد بدأ منذ أسابيع قبل الانقلاب، أو محاولة الانقلاب، الاختلاف بين رفاق الأمس، بأن ظهر فريقان بدلاً من الفريق الواحد الذين كانوا يشكلونه أثناء النضال التحرري، حيث تبين أن كل فريق له

رؤى مختلفة تماماً تم طرحها عند انعقاد المؤتمر الرابع للجبهة القومية في مدينة زنجبار، عاصمة المحافظة الثالثة (أبين).

كان قحطان الشعبي رئيس الجمهورية، وكل من فيصل عبد اللطيف الشعبي وسيف الضالعي، يقفون على رأس التيار الأول. وهو التيار المعتدل، الذي يمثل موقفه التوجه القومي، العربي وتقوية العلاقات مع الدول العربية، وعدم إجراء التأميمات للمساكن والأراضي الزراعية.. إلخ. ويقف عبد الفتاح إسماعيل وسالم ربيع علي ومحمد علي هيثم وعلي ناصر محمد وعلي سالم البيض ومحمد صالح مطيع وعلي عنتر، وأغلبية القيادة العامة، في صف التيار الثاني، الذي كان يميل إلى تغييرات واسعة في القيادات العسكرية، وإلى الاتجاه الأممي، وتقوية العلاقات مع بلدان المعسكر الاشتراكي، وإجراءات التأميمات الواسعة، وغيرها. وقد سمي التيار الأول لاحقاً بالتيار اليميني، بينما سمي التيار الثاني بالتيار اليساري.

جاء الانشقاق بين رفاق الأمس سريعاً وممتداً من الأعلى إلى الأسفل، حتى إنه أثّر في مجمل أعضاء الجبهة القومية، الذين كانوا ينظرون إلى الصراع الدائر بين الجبهة القومية وقسم من قيادتها، كتحالف مع كبار الضباط السابقين. ومن تأثيرات الصراع المذكور، أن تم طرد أحد عشر قيادياً من عملهم كمدرسين، وكنت أحدهم، كنا نقوم بتدريس الجنود في معسكر النصر (معسكر شامبيون سابقاً)، الواقع في مدينة خور مكسر. وقامت الجهات الحكومية بهذا الأجراء، على اعتبار أننا محسوبون على تيار الجبهة القومية، ما اضطرني للالتحاق بالعمل الخاص في مطار عدن، مديراً لسوق المطار الحرة (محال بيع في مبنى المطار)، وتنقلت بين هذا العمل ومنطقة يافع (مع الثوار)، حتى قيام الخطوة التصحيحية **22** يونيو **1969**م.

وفي 14 مايو 1968م، وقع الانقسام العسكري، حين أفصح الفريق الثاني من مدينة جعار، بإعلانه الكفاح المسلح ضد رئيس الجمهورية، الذي بدوره أمر الجيش باعتقال هذه العناصر المتمردة عليه. ووقعت معارك عسكرية في منطقة المطلَع وشقرة وزنجبار، وكان أكبرها ما جرى في مدينة جعار، وعلى إثرها لجأ قادة ما يسمى باليسار إلى جبال يافع، وعدد قليل منهم لجأ إلى الضالع، ومن ثم إلى تعز وإب في الجمهورية العربية اليمنية، وكان ما جرى أول شرخ حقيقي في جسم الثورة والدولة الوليدة.

وفي شهر أغسطس من نفس العام، قامت التنظيمات التي أزاحتها الجبهة القومية قبيل نيل الاستقلال الوطني، وفي الأشهر التي تلته، مثل جبهة التحرير ورابطة أبناء الجنوب، وغيرهما من منظمات وأشخاص تضرروا من سلطة الجبهة القومية، قاموا بإرسال ما تبقى لديهم من فرق وأشخاص للقيام بانتفاضات وهجمات مسلحة في ردفان والعوالق وأنحاء من يافع، وأدت تلك الانتفاضات والهجمات المسلحة، إلى عودة من كانوا في جبل يافع من قادة التيار اليساري مع جماعاتهم المقاتلة، باتفاق مع السلطة في عدن، للمشاركة معها في إخماد هذا الهجوم المسلح للقوى المنافسة أثناء الحرب التحررية ضد الإنجليز. وتم ذلك عبر مصالحة بين الطرفين (التيار الأول الحاكم والتيار الثاني العائد)، استمرت حتى قيام حركة 22 يونيو 1969م، التي سميت بالخطوة التصحيحية، لإطاحتها سلمياً بالرئيس قحطان الشعبي، وبرز فيها تحالف جديد للسلطة، لمعت فيه نجوم جديدة للحكم، هم: سالم ربيع علي رئيس مجلس الرئاسة، وعبد الفتاح إسماعيل، أمين عام تنظيم الجبهة القومية، وعلي ناصر محمد رئيس مجلس الوزراء.

وفي شهر أبريل 1969م، اضطررت إلى الابتعاد قليلاً عن عدن، بسبب التعيين الحكومي، حيث عُينت مأموراً للمديرية الغربية ـ المحافظة الثالثة (محافظة

أبين)، وكانت المديرية الغربية واسعة جداً، إذ تشمل جميع مديريات يافع الثماني الحالية، وأصبحت مدينة جعار، التي كانت عاصمة لسلطنة يافع الساحل، عاصمة للمديرية الغربية حينها. وتبعد جعار نحو خمسين كيلو متراً عن عدن، تقطعها السيارة مارة على ساحل البحر بدون أي طريق. كنت خلال عملي مأموراً للمديرية الغربية لعامين، مشتت البال بين جعار، بهموم المديرية الواسعة جداً، وبين عدن، وما يدور فيها من الصراعات السياسية التي بدأت تظهر في قمة الهرم السياسي للجمهورية الوليدة، منذ مطلع عام **1968**م.

ولكنني عدت مجدداً للاستقرار في عدن، حين تم تعييني **1970**م مديراً عاماً لإدارة التعاون والإصلاح الزراعي، وهي إدارة مختصة بالإصلاحات الزراعية ورعاية التعاونيات الزراعية والاستهلاكية، التي بدأت حينها بالانتشار، وكان مقر الإدارة في مدينة خور مكسر، بجانب مستشفى الجمهورية (مستشفى الملكة إليزابيث سابقاً). ومع أن عمل هذه الإدارة شامل لجميع مناطق الجمهورية، ويعتبر عملاً إدارياً فنياً وسياسياً إلى حد ما، إلا أنه بعد فترة أكثر من عام ونصف، تحملت مسؤوليات أخرى ذات طابع سياسي في نفس المجال: الزراعة والإصلاح الزراعي في نهاية عام **1970**م، حيث تم تعييني سكرتيراً للجنة الزراعة والإصلاح الزراعي، التي كان يرأسها الرئيس سالم ربيع علي شخصياً، ويعد التعيين في هذا المنصب، ترفيعاً كبيراً في تلك الأيام. وقد مكنني هذا العمل من التجوال في كثير من مناطق البلاد الزراعية، والإلمام بأوضاع الجمهورية المترامية الأطراف.

في عام **1973**م، وبالإضافة إلى عملي المذكور سابقاً، عينت سكرتيراً عاماً للمجلس اليمني للسلم والتضامن والصداقة مع الشعوب، وهو أول منصب لي في مجال العلاقات الخارجية السياسية والدبلوماسية، وقد سعيت

جاهداً – وقتها – للتوفيق بين مهام المنصبين، فقد كان لزاماً علينا في تلك المرحلة، أن نقوم بجهد كبير من أجل التأهيل الذاتي لتلبية متطلبات العمل.

والحقيقة أنني أثناء تأديتي لمهامي في المنصبين، لم أكن في هذه الفترة منشغلاً بواجبات العمل فقط، بل وكنت أيضاً (مثلي مثل غيري من أمثالي)، منشغلاً بما يعتمل وسط دوامة الصراعات السياسية بين رفاق السلاح، الذين أصبحوا حكاماً. ومع ذلك، فإنني وأمثالي من القيادات الشابة في السلطة في الصف الثاني أو الصفوف الخلفية، كنا نحاول الابتعاد عن مركز تلك الدوامة، مفضلين أن نراقب كل شيء بحذر، ونتابعه عن بُعد . إن صح التعبير . لكيلا تصل دوامة الصراعات الفوقية إلينا، ولكيلا نفاجأ بنارها وقد داهمتنا فجأة.

الوضع الشخصي المذكور أعلاه، والمتمثل بالقلق والتوجس للحالة السياسية في عدن، لم يكن مقصوراً علينا، بل إنه شمل معظم أبناء عدن آنذاك، وما زالوا يتذكرونه حتى الآن. ذلك أن عدداً ليس بالقليل من الناس، يقولون إن عدن عاشت حزناً وألماً عنيفين في الفترة من عام **1967** وحتى عام **1989**م، نتيجة للصراعات التي شهدتها طوال هذه المدة، ولكنني بفحص كم الذكريات الشخصية الكبير والواسع والعميق عن مدينتي، مدينة عدن، أرى أن جهود الرفاق والشباب وكل المواطنين، تشتت بين بناء دولة قوية تؤمن مصالح الفئات الواسعة، وبين ترميم ما كانت تخلفه صراعات الرفاق القادة من خسائر مادية ونفسية. وأقول أيضاً: أجل، إن عدن عاشت عنفاً ودماراً بين فترة وأخرى، ولكنها عاشت أيضاً الأفراح والسعادة والاستقرار لفترات طويلة، كانت تقطعها نوبات الهستيريا السياسية الدموية. إنها مدينة ممجدة وعظيمة، ومدينة تمسح الدمع وتنسى وتضحك.

في هذا السياق، وعندما هممت بالبدء بكتابة هذا الكتاب وأنا خارج الوطن قبل نحو اثني عشر عاماً، كانت عدن تستحوذ على الكم الأكبر من

تفكيري وتأملي من بين جميع المدن التي تناولتها. وكلما فكرت بها، سرعان ما أصبح سؤال مهم يجابهني، بل ويطاردني كلما فكرت في مسألة تناول عدن في الكتاب. والسؤال هو: هل ستتطرق إلى ما عاشته عدن من مآسٍ وصراعات سياسية دموية خلال مرحلة وجود (جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية)، أم أنك ستترك هذه المسألة وتتحاشاها، لأن في الموضوع ما يثير الذكريات الأليمة؟، وهل سيسمح لك القارئ بذلك؟، كيف ستنسى تأثير كل ما حدث في المدينة الحبيبة وناسها وسكانها؟، أليس من حق عدن أن تطلب منك، ولو أن تذكر قليلاً من تلك الأحداث الكبيرة التي شهدتها؟.

لطالما حاصرتني هذه التساؤلات والهواجس. فأنا واحد من الناس، واحد من أبناء عدن، وقد كان لتلك الصراعات السياسية الدموية، تأثير في حياة الناس وأوضاعهم، وتأثير في المدينة وحالها، وهو الأمر الذي خلق لديّ التساؤل لسنوات، عما إذا كنت سأتناول ما شهدته عدن من صراعات ومآسٍ أم سأتركها، لأنني قد تناولتها في مناسبات سابقة، كما أن الحيز وحجم الكتاب لن يتسع، ولكنني قلت لنفسي في الأخير، خير الأمور أوسطها.

عشت مثلي مثل كل أبناء عدن تلك الأحداث، وأفهم جيداً ما عاناه هؤلاء، بل ربما عانى القياديون في الدولة أكثر من غيرهم، وهذا ما حدث لي منذ الصراع المبكر على السلطة، ليترك في قلبي جرحاً دامياً لا ينسى. كانت تلك الحادثة في الفترة قبل إحداث **14** مايو **1968**م، بل عند بدء إرهاصاتها. كان عُمر ابنتي (نضال) حوالي ستة أشهر، وكانت مريضة، في الوقت التي كنت في جعار عاصمة المديرية التي كنت مأموراً لها، وبسبب انشغالاتي، وبسبب متابعتي لما يدور في السلطة الفوقية، لم أتمكن من زيارتها وأخذها إلى المستشفى للعلاج، وهكذا ماتت دون أن أودعها، بل من المحزن، أنني لم أحضر جنازتها.

كانت دوامة الصراعات السياسية تسلبنا عقولنا وأسرنا، وتفقدنا التركيز على حياتنا، خاصة أثناء تفاعل واحتدام الصراعات السياسية، وحين حدوثها، والأمثلة كثيرة.

كان من خيبات عدن فينا، فشلنا في منع اللجوء إلى العنف عند الخلاف، وتمثله في معارك مسلحة بين رؤوس السلطة، وخاصة في أحداث الرئيس سالم ربيع علي عام 1978م، وأحداث 13 يناير عام 1986م. وذلك كان مسؤولية تاريخية يتحملها من أوجدوا تلك الصراعات الدموية وأججوها، ودفعوا بها، وليس كل من وجدوا في القيادة آنذاك. ورغم حدوث خيبة الأمل هذه، والآلام التي خلفتها الأحداث الدامية بين وقت وآخر، إلا أنني كنت أحدث نفسي حينها بأن علينا العودة دائماً إلى الأمل، وأقول في اللحظات الصعبة، الشعور بالأمل هو الخيط الذي يربط الإنسان بالحياة، فما أصعب العيش لولا فسحة الأمل.

خسرت عدن كثيراً. كانت كل محنة تهدر طاقاتها وتضيع نشوتها، وتشوه جمالها وبهجتها، وتجعلها تخسر الكثير، وبرغم ذلك كله، إذا بك تراها تنهض واقفة، وقد ضمدت جراحها وتناست أوجاعها، وكأنها ولدت من جديد، معتمرة البناء مسلكاً، والسعادة منهجاً. البعض يقولون إنها تعوّدت على ذلك، ومن يعرفونها – وأنا واحد منهم – يرون أنها مدينة فذة، تمنح الأمل بعد الجراح، وماذا عساها أن تفعل لك غير ذلك، فبعض المدن إذا انجرحت قليلاً، لا تقوم لها قائمة إلا بعد سنوات طويلة، لذا، فإن الله سبحانه وتعالى، قد منح عدن السرعة والقدرة على النهوض من ركام الأزمات، ومن سكن عدن فهو سعيد، رغم كل شيء، فهي مدينة ترفض الحزن والألم، مهما فُرض عليها، مدينة تحملك نحو المستقبل، رغم آلام الماضي ومشاكل اليوم، هذا ما ميزها عن سائر المدن.

وأفراح عدن كثيرة، هذه حقيقة ساطعة، بدأت أفراحها، بأن أصبحت بعد الاستقلال الوطني عاصمة الجمهورية الوليدة. هذا، على الرغم من أن النظام السياسي الوليد، واجه صعوبات كثيرة ومشاكل جمة منذ الوهلة الأولى. ففي الوقت الذي ضعف فيه ميناء عدن، إلا أن المدينة كمركز للبلاد كلها، وكقلب نابض ومتحرك للنظام الوطني الحديث، قد وفر لها نمواً سريعاً، بفعل نشوء كثير من هيئات الدولة ومرافق الحكومة ومؤسسات القطاع العام، وكعاصمة، شهدت توسعاً هائلاً في جميع المجالات، السكنية والإدارية والخدمية وفي البنى التحتية، وتضاعف عدد السكان خلال سنوات عدة.

وإذا كانت إجراءات السلطة الوطنية الحديثة العهد، قد نفّرت عدداً من أبناء الجاليات غير اليمنية في عدن، فلا يستطيع أياً ما كان، أن يقول إن الحرية والحياة الكريمة لم تصبح بمتناول أبناء عدن وأبناء المناطق الجنوبية الأخرى، وتجسدت الحياة الكريمة في العدالة والمساواة بين المواطنين، والأمن والأمان في كل مكان، وهذه الميزة الأخيرة، كانت مكسباً معترفاً به، فقد كانت عدن من أأمَن العواصم العربية. وكذا في توفير حق العمل للجميع، فمن كان في عدن عاطلاً عن العمل، كان الجميع يعملون، وليسوا قلقين من أن يطالهم فقر أو تشرد أو اضطهاد معيشي أو عرقي أو مناطقي، وفي هذا السياق، دخلت المرأة مجال العمل في جميع القطاعات، وكانت نسبة النساء العاملات الأرفع عربياً. وعلى نفس المنوال، كانت عدن عاصمة دولة من ضمن أفضل ثلاث دول عربية تعليمياً، ومن ضمن أفضل سبع دول عربية صحياً.

أجل، كانت لعدن أحزانها، ولكن كان لها في نفس الوقت أفراح كثيرة وكثيرة. لقد كان دخل الفرد متناسباً مع كلفة المعيشة، إذ قام القطاع العام بتثبيت الأسعار، وخاصة للمواد الغذائية والاستهلاكية الأساسية. كان دخل

الفرد جيداً، وإن كان لا يستطيع المواطن الادخار ليصبح برجوازياً، كما كانوا يقولون.

وفي عدن، وفرت مجانية التعليم في جميع مراحله للجميع، ووفرت التطبيب والأدوية مجانياً لكل المواطنين، وكان حتى هَمُّ السكن وهَمُّ الأطفال على عاتق الدولة، ومن أهم أفراح عدن وأبنائها في تلك المرحلة، أن وفر التأهيل الخارجي على نطاق واسع إلى جميع الدول، وبالذات الاشتراكية المتقدمة حينها، وفي جميع المجالات، وبأعداد كبيرة، حتى إنه، وفي بعض الأحيان، لم تتوفر الأعداد الكافية المطلوبة للمبتعثين إلى الخارج، سواء للدراسة الجامعية أو للتأهيل لمدد قصيرة، والذي شمل جميع التخصصات تقريباً.

إن الحقائق التاريخية التي ستبقى إلى الأبد، تقول إن للنظام السياسي الذي وجد بعد الاستقلال الوطني إيجابيات وسلبياته، وستقول إن لعدن في تلك المرحلة أفراحها الكثيرة، وأحزانها التي تجسدت تحديداً في بعض التصفيات الدموية المحدودة لأجنحة السلطة، التي تكررت كل عدة أعوام، وتحديداً، تكررت ثلاث مرات في **14** مايو **1968**م، و**26** يونيو **1978**م، و**13** يناير **1986**م. وهذه الحقيقة تنطلق من ثبوت أن لكل مدينة أفراحها وأحزانها، والاعتراف بذلك لا يعني أننا راضون أو مقتنعون بما حدث من سلبيات في عدن الحبيبة.

وقد يطلب القارئ الكريم مني أن أُبَيِّن هنا: ما الأخطاء التي ارتكبت وأدت إلى الأحزان التي عانت منها عدن؟. تصعب الإجابة كاملة في هذا الحيز المحدود، ولكنني أرى أن الانتقال السريع من النضال التحرري الوطني إلى النضال الطبقي في المجتمع المتحرر لتوه من الاستعمار الأجنبي، كان كارثة علينا جميعاً، وفي مقدّمنا عدن. بل إن انتهاج الصراع الطبقي كخط سياسي ومنهجي لدولة فقيرة شحيحة الإمكانات، ويعيش فيها مجتمع ليس فيه طبقات متباينة

كثيراً، بل ربما لا توجد طبقات فيه أصلاً. كل هذا المعبر العام، كان الكارثة القصوى والطامة الكبرى، بما أوجده من تنظيم سلطة ونظام حكم لم يكن بقادر على تجنب العنف والقوة والتعسف، كأسلوب للصراع الطبقي في إدارة السلطة وتنظيم شؤونها. وما زاد الكوارث والطامات ثقلاً وهولاً، هو نزوع قيادات البلد بعد سنوات إلى العنف، كأسلوب لإخضاع المعارضين أولاً، ونزوعهم إليه لحسم الخلافات والصراعات فيما بينهم ثانياً، وهُنا، طُبق هذا الأسلوب بقسوة أشد وعنف أقوى. حتى كان هذا ما دمر تجربة البناء.. أجل، كان سفك الدماء سبباً في استمرار الصراعات، وتدمير تجربة البناء هذه، ثم الانهيار.

ولكن السؤال المهم الذي تكرر في تلك المراحل، والذي يطرحه من تبقى من قيادات تلك المرحلة، الذين لم يطالهم الموت والقتل، هو: هل كان هذا النهج السياسي خياراً للقادة؟، أم أنه كان واقعاً يعيشه العالم في تلك المرحلة، وفرض نفسه عليهم؟، لا تبتعد الإجابة كثيراً عن نسق الإجابة عن السؤال الأول: (ما الأخطاء التي ارتُكِبت وأدّت إلى الأحزان التي عانت منها عدن؟). ربما كان ما حدث كتبعية دولة صغيرة للوضع العالمي السائد آنذاك، كتبعية عمياء لأحد الطرفين المهيمنين على كل بلدان العالم. ربما كان السبب، هو الوضع العالمي، ولكنني أرى أن الإجابة عن السؤال المذكور أكبر، وتشتمل على أسباب عدة رئيسة، فهي مقرونة . أساساً . بتقييم ربع قرن من الزمن، سبق لنا تناوله في الكتب السابقة، وسنتناولها في الكتب اللاحقة أيضاً. والتقييم المطلوب هنا، هو ما جعلني أيضاً أفرد حيزاً مهماً من القسم الخاص بمدينة عدن في هذا الكتاب، لتناول أفراح عدن وأحزانها، على حد سواء.

كانت هناك أهداف نبيلة للنظام الجديد (جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية)، الذي قام على أفكار ورؤى النهوض العربي والقومية العربية. ثم بدأ سريعاً الصراع بين الاعتدال والتطرف في النهج السياسي، فحدث تغيير سلمي

في أول تبدُّل أو تبديل لرئيس الجمهورية. وفي المرة التالية، كان هناك صراع بين التطرف الواقعي (إن صح التعبير)، وبين التطرف الثوري الجموح. ونقصد هنا، بين فكرة قيام (حزب ثوري ديمقراطي)، وفكرة قيام (حزب اشتراكي)، ولكن الجموح الثوري والقفز على الواقع انتصر. وكان يمكن أن يكون مثل هذا الانتصار عادياً في عالم السياسة، وفي بلد له توجه اشتراكي، ولكن التغيير في قمة السلطة، حدث هذه المرة بقوة السلاح، وبدماء الرفاق، وعن طريق حرب صغيرة، ثم سقط تيار الجموح الثوري بسرعة، ليأتي تيار وسطي (إلى حد ما). ولكن الوسطية في السياسة لم تعنِ لذلك التيار وسطية في التعامل مع الإخوة الرفاق في الحزب الحاكم وقمة الدولة، بل عنت التطرف في التعامل مع الإخوة الرفاق في الحزب الحاكم وقمة الدولة عن طريق الإزاحة والإطاحة والإبعاد والسجن والقتل أحياناً. وهذا ما أذكى دوامة الصراعات الفوقية في البلد بقوة، وحسمها بأسلوب العنف، بأن أقبلت علينا بحرب أهلية قاسية دامية.

كانت بيننا (قيادات الحزب والدولة في جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية) جميعاً، صداقات وعلاقات بعيدة عن التطرف والقسوة أو الكراهية الشديدة فيما بيننا. كنا إخواناً وأصدقاء وزملاء، ولكن في مراحل لاحقة من الصراع بين أجنحة السلطة السابق الذكر (الذي حدث، سواء لأسباب داخلية أو عوامل دفع خارجية)، كنا نصل إلى نقطة معينة، يتم فيها الفرز فيما بيننا، بحيث لم يتضح الوضع حينها لأحد منا أن يقف على الحياد، لنجد بعضنا، كرفاق وأصدقاء، في مواقع متضادة متنافرة، تصبح متجابهة، ثم متعادية، ثم متقاتلة عند تفجر الصراع، ومحاولة كل طرف في السعي لحسمه لصالحه. وبعد حدوث الصراع، عندما ينتهي كل شيء، نكتشف جميعنا (منتصرون ومهزومون)، في داخلنا، ركاماً هائلاً من مشاعر الأسف والألم والأسى على هشاشة الأسباب التي تصارعنا وتقاتلنا بسببها، وكذا، حجم الأخطاء التي

ارتكبت تحت مسميات فارغة المضمون، وعناوين بعيدة عن الواقع. وبعد هذا كله، سرعان ما يجعلنا ذلك الركام الهائل من الأسف والألم والأسى، بحاجة إلى تضميد الجراحات والعذابات التي نتجت عن الصراع الذي كان يمكن تجاوزه وعدم حدوثه، عن طريق الاعتراف بالآخر، وسيادة روح الحوار فيما بيننا.

وعن الشخوص القيادية التي عاشت في عدن في تلك الفترة. فقد ربطتني بهم جميعاً، أو معظمهم، علاقات شخصية جيدة، وكان من أبرز من عايشتهم، رفيق مرحلة الشباب ودرب النضال، محمد صالح مطيع، الذي يعد استشهاده عام **1981**م، خسارة كبيرة للوطن، مثله مثل كل القيادات التي صُفّيت جسدياً. ولأنه كان ينتظره مستقبل زاهر في عالم القيادة والسياسة، فقد تمتع بشخصية قوية، وذكاء مبكر، وحنكة قيادية وسياسية عاليتين، وخاصة في العمل الدبلوماسي، وكنا نسميه رجل المهمات الصعبة، وتلك المهمات الصعبة التي قام بها، بتكليف من القيادة، استُغلَّت ضده ممن كانوا لا يحبون الشخصيات القوية الفاعلة، فاستخدموها ذريعة لتودي به. وبتصفيته (مطيع)، بدأ الصراع بين القيادات يأخذ منحى أشمل، لأن هذا الفعل عمّق مشاعر الفرقة بين القيادات، التي أزيح عدد منها واستشهد آخرون، ما ولَّد موجة جديدة من الصراع الدموي الحاد في السلطة، وليس من خارجها.

كانت لي صداقات كثيرة مع القيادات الأخرى، لا أستطيع ذكرهم جميعاً، ولكني أتذكر هنا بعضاً ممن أفتقدهم، وهم كثر. ومنهم الشهيد علي أحمد ناصر عنتر، والأخ سعيد صالح، وهما شخصيتان تاريخيتان اتسمتا بالتواضع، وكانا على درجة عالية من النبل والصفات الشخصية المحبوبة، وقادة كبار بالفطرة، ولا يعرف قيمتهما الحقيقية، إلا من عايشها في المراحل الصعبة التي شهدناها.

وكانت لنا صداقات مع كثيرين، قائمة على المُثل والمبادئ، كمثال الصداقة مع عبد الفتاح إسماعيل، وأذكر أنني تعرفت عليه بعد تأسيس الجبهة القومية مباشرة في منزله بالمنصورة، قبيل اختفائه بعد ملاحقة الإنجليز له، ونشر صوره كمطلوب للاعتقال، وقد ظل عبد الفتاح إلى أن مات، ذلك القائد المثقف المطلع، والشاعر والإنسان، وكذا الشهيد صالح مصلح وعلي شائع وحسين قماطة وثابت عبد ومحمد علي هيثم وأحمد صالح الشاعر ومحمد صالح عولقي ومحمود عشيش وغيرهم.

وأكرر أن من ذكرتهم، ما هم إلا عدد من جموع كثيرة جداً من قادة تلك المرحلة، وجميعهم شخصيات تتصف بكل معاني الإنسانية والقيادة النبيلة، مثل حب الشعب، وهذه هي الحقيقة. أما ما كُتب أحياناً عنهم أو عن بعضهم بسلبية شديدة، تصل إلى حد التشويه الكامل لأعمالهم وأدوارهم، فهو في حالات من باب العداء للنهج السياسي والفكري الذي حكم في عدن. ومثل ذلك العداء للشخصيات القيادية التي وجدت في عدن، جاء من باب التهويل، ما جعل البعض يصورهم بصور وأوصاف هي من المخيلة، ولم يكن لها وجود في الواقع. وقد يبدو العداء المذكور – في كثير من الحالات – عادياً، بسبب الاتجاه العام لتناول القادة في اليمن، لأن الشخص عندما يتبوأ منصباً في هرم السلطة، وخاصة في اليمن، يكون له من الأعداء أكثر مما يحصل عليه من مناصرين، ولذا، يطاله من النقد السلبي والتجريح أكثر بكثير مما يناله من المحبة والود، وفي بعض الأحيان، يعد النقد الجارح للقادة في اليمن، بحسب المثل القائل (لا تُرمَ بالحجارة إلا الشجرة المثمرة). لذا، عند تناولنا لتاريخ اليمن التحرري والوطني، علينا احترام من صنعوا الحرية وضحوا من أجلها بالغالي والنفيس، وروَوا بالدماء الزكية تربة الوطن التي كانت عطشى للحرية والكرامة. وإنه لمن الصعب ربط كل المناضلين والقادة الذين وُجدوا في تلك المرحلة في

عدن، بما حدث من سلبيات الصراعات، فهم مناضلون صنعوا التاريخ، وللتاريخ سلبياته وإيجابياته، وأود أن أُبيِّن عدداً من الحقائق هنا عن هذه المسألة، ليس دفاعاً عن أحد، وإنما إنصافاً للتاريخ.

إن هؤلاء القادة كانوا ضمن كوكبة من القيادات الشابة التي قاتلت الإمبراطورية البريطانية وهزمتها، وكانوا امتداداً لروح الثورة العربية، التي بدأت في مطلع القرن العشرين ضد الحكم التركي، فالبريطاني. إنهم من صُنّاع حرية شعوبنا.

إن سلوكيات عدد من هؤلاء الرجال/ القادة، كانت متأثرة بأهم أسباب ومسببات ما حدث من مآسٍ وصراعات آنذاك، بسبب الحرب الباردة بين المعسكرين الرأسمالي والاشتراكي، وتوابعها في المنطقة، ومحاولة كل معسكر منهما دخول هذه المنطقة أو تلك، من خلال الوسائل والطرق والأفكار التي يمتلكها، مهما كلفت البلد المعنيّ، ومنها تحالفه مع هذا النظام أو ذاك القائد، وجعله يضرب معارضيه ورفاقه، وحتى أقرب الناس إليه، كما أن هذا العامل الرئيس، أدى إلى ظاهرة التطرف اليساري التي شهدها اليمن وعدد من البلدان، وهي تنم عن عقلية سياسية متطرفة مستوردة من بعض الاتجاهات المتطرفة في البلدان الاشتراكية في ذلك الوقت.

– هؤلاء الرجال/ القادة، هم (من الوزن الثقيل)، كما وصفهم المفاوض البريطاني وزير المستعمرات البريطانية حينها، أثناء مفاوضات الاستقلال الوطني للجنوب اليمني في جنيف، لأنهم تمثلوا مصالح وتطلعات شعبهم الذي كان رازحاً تحت احتلال أجنبي دام مئة وتسعة وعشرين عاماً، لم يقدم شيئاً لشعبنا.

هؤلاء الرجال الذين ماتوا وتركوا الحياة، كانوا ضحية الحلول غير الواقعية التي انتهجتها قمة النظام السياسي. وقد رحلوا، ولم يخلفوا من متاع الدنيا شيئاً غير هذه الأعمال. أجل، حدثت سلبيات، وحقيقة لم يكونوا وحدهم

هم السبب فيها، ولكن أهم الأسباب، كانت تلك الظروف والعوامل الموضوعية والذاتية السائدة آنذاك في بلد فقير ومترامي الأطراف، يفتقر إلى حد أدنى من الإمكانات، وكذا، حد أدنى من الخبرة في الحكم.

إن هؤلاء الرجال المناضلين، عاشوا وحكموا في مرحلة تاريخية، كانت فيها أوضاع الدولة وطرق الحكم وإدارة السلطة متخلفة، بينما الأسس السياسية للتعامل معها كانت متقدمة جداً عن واقع البلد (اليمن وسائر البلدان العربية والنامية آنذاك)، وكان الصراع على السلطة، ومن أجل استقرارها في تلك المرحلة، سائداً في جميع البلدان المشابهة تقريباً (بما فيها شمالي الوطن)، سواء بشكل يومي أو متقطع، أو بشكل دوري كل عدة سنوات، أضف إلى ذلك أن الدولة في عدن، كانت تهيمن على كل شيء، وتمتلك كل شيء تقريباً، ما أذكى الصراعات التي حدثت وجعلها حادة، إذ كانت السلطة تعني، إلى حد ما، سيطرة على المال والجاه والقوة.

في هذا السياق، لا بد من الإشارة إلى أن عدن بدأت بالانكماش الاقتصادي بعد الاستقلال، فنتيجة للمراهقة السياسية والفكرية لدى بعض القيادات، ونتيجة للتطرف اليساري لدى عدد من قيادات حركة القوميين العرب المؤثرة في قيادات في عدن، تم الضغط على قيادة السلطة ودفعها نحو التطرف في عدد من المسائل والقضايا، وخاصة الجانب الاقتصادي، وبعد طرد الطيارين والخبراء البريطانيين، قطعت بريطانيا الإعانة التي التزمت بها في اتفاقية جنيف، وهو ما سبب العجز في الموازنة، وأدى إلى إجراءات التقشف وما شابهها، مثل القيام بتأميم شركات القطاع الخاص الوطني والأجنبي، للبحث عن مصادر تمويل لموازنة الدولة الجديدة، وهكذا تدهور ميناء عدن، وقل نشاطه وجمد الاستثمار في المدينة والجنوب عموماً. وساعد على ذلك إغلاق قناة

السويس، إثر حرب 1967م بين إسرائيل والعرب، والذي دام لسنوات. ومع ذلك كله، فالحياة استمرت ولم تَمُت، وواصلت التجربة سيرها بصعوبة.

إن الإجراءات الاقتصادية اليسارية في تلك المرحلة، والمتطرفة بنظر اليوم، كان لها آنذاك عوامل من جملة عوامل معاداة النظام المسبقة، ما جعلها تبدو ـ يومذاك ـ وكأنها مبررة، ومنها، مثلاً، المقاطعة والعزلة التي فُرضت على النظام الوليد في عدن، من قِبل عدد من دول المنطقة، كالسعودية مثلاً، ومن قِبل عدد من دول العالم، كبريطانيا وأمريكا مثلاً، وكذا عدم توفر دعم إقليمي أو دولي، بل ودخول النظام الجديد في نزاعات حدودية مسلحة مع شمالي الوطن والسعودية وعمان، منذ أشهر وجوده الأولى.

إجمالاً، للحديث عن الصراعات التي حدثت، ومن منظار اليوم، فقد كان التعايش مع الجميع أمراً ممكناً، ليس بين قحطان الشعبي ورفاقه في الحكم فقط، ولكن أيضاً مع جبهة تحرير الجنوب اليمني المحتل، وعبد القوي مكاوي، ومع الرابطة ومحمد علي الجفري، ومع السلطان علي عبد الكريم، والسلطان الثائر محمد عيدروس، والسلطان أحمد بن عبد الله الفضلي، وغيرهم من الشخصيات والقوى الوطنية، سواء التي أسست أطراً وطنية أولية، أو من قارعت الوجود الاستعماري بشكل أو بآخر، أو تلك التي كانت لها اعتراضات على بعض السياسات اليسارية المتشددة بعد الاستقلال.

ولكن ما ذُكر أعلاه من منطق إيجابي لم يحدث حينها، نظراً لقوة ونفوذ القيادات الشابة اليسارية التي كانت تتمتع بالقوة والحماسة والاندفاع في الداخل أثناء مرحلة النضال التحرري، والتي حسمت الخلاف مع الرئيس قحطان الشعبي – الشخصية الوطنية الناضجة وطنياً وسياسياً والمجربة حياتياً – بسلام، أودع الرئيس قحطان الشعبي تحت الإقامة الجبرية في منزل مجاور لدار الرئاسة، لكن الشيء الخطير الذي حصل آنذاك، كان مقتل القائد الفذ فيصل

عبد اللطيف الشعبي، الشخصية القيادية الجذابة والمؤثرة، الذي يعُد مخطط الثورة وعقلها المفكر، وهذا ما جعل دمه فاتحة لصراع الدم المتلاحق في معالجة قضايا السلطة والخلافات بين القادة.. وهنا، أقول إن البعض الآخر يرى أن ما جرى لاحقاً من صراعات الدم في عدن، هو ما قام به النظام آنذاك من تصفيات لعدد من المعارضين السياسيين من فصائل الكفاح التحرري الأخرى، التي حُرمت من السلطة عند الاستقلال، وعدد من المشايخ والأعيان والسلاطين، هو العدد الأكبر، وكان من مختلف مناطق الجمهورية الوليدة حديثاً.

وبالمناسبة، أقول هنا، إن قحطان الشعبي وفيصل عبد اللطيف وعدداً آخر من القادة، كانوا ينتمون أصلاً إلى أسر مشايخية؛ فقد كان والد الشهيد والقائد فيصل، هو الشيخ عبد اللطيف الشعبي، شيخ وادي شعب بالصبيحة، وهو في نفس الوقت عم الرئيس قحطان (أبو زوجته)، ولكنه كان ذا علم وثقافة، حيث عاش لمدة طويلة في عدن، وقد اغتيل في منتصف الثلاثينيات من قبل إحدى قبائل الصبيحة، وأدى مقتله إلى احتجاجات واسعة في الصبيحة ولحج وعدن، لأنه كان يتمتع بمكانة رفيعة لدى كل الناس.

أما الرئيس سالم ربيع علي (سالمين)، الذي تمتع بشخصية قيادية متواضعة ومُهابة، فهو الرجل القائد الذي أحب الفقراء حتى الثُمالة، وأفقدته تلك الثمالة قيادة الدفة وتحديد المسار، نتيجة للخلط بين متطلبات الدولة وحب الفقراء/ الكادحين، ولكن وُجدت ظروف عامة أدت إلى نهاية حكمه، ففي بداية سنوات حكمه التسع، شهدت اليمن بشطريها تطرفاً يسارياً واضحاً، وليس الشطر الجنوبي فقط. وتمثل ذلك التطرف في عدن بالإجراءات التأميمية والانتفاضات الفلاحية والعمالية، ودعم الحركات المسلحة في المناطق الوسطى (الشمال اليمني) وعمان، وانتهاك حقوق الإنسان، من خلال اختفاء بعض الشخصيات وقتلها في ظروف غامضة، ومن دون محاكمات.

في ظل كل ما ذكر، لم يستطع الرئيس سالم ربيع علي فعل شيء، رغم أنه حَدَّ مما جرى حينها، وما يحسب له، هو نزاهته ونضوجه عُمراً، مقارنة ببقية القيادة، وإدخال فئات واسعة من الكادحين في المساهمة في الحياة السياسية والاقتصادية والثقافية، وإنشاء شبكة التعليم الشعبي، وبالذات تعليم أبناء البدو الرُحّل، وفتح صفوف محو الأمية، ووصلت عدن تعليمياً إلى مرتبة الأردن آنذاك، كما يُحسب لسالمين في السنوات الأخيرة من حكمه، أنه بدأ التوجه نحو الاعتدال، حين أقام العلاقات الدبلوماسية مع المملكة العربية السعودية، وعمل على تحسين العلاقات مع مصر ودول القرن الأفريقي وغيرها، ولكن مقتل الرئيس إبراهيم الحمدي، وبعدها الرئيس الغشمي، عجّل بانتهاء حكمه في يونيو **1978**م، قبل أن يرسخ سياسات الاعتدال، وكانت تلك الأحداث أقل ضرراً على مدينة عدن، كونها انحصرت في مدينة التواهي ـ مقر الرئاسة، وأنحاء قليلة من أبين.

ثم جاء عهد عبد الفتاح إسماعيل، وهو قائد تمتع بثقافة عالية، وكان رجل الفكرة والحس النظري، الذي أعطاه أولوية في سلوكه وحياته، ولهذا، لم يوجد أثناء عهد حكمه توازن بين التخطيط النظري والعمل التنفيذي الفعلي للسلطة؛ فعلى سبيل المثال، كان مهتماً بتمثيل الاتجاه الأول بخصوص الموقف من إقامة الحزب الاشتراكي اليمني، الذي يرى ضرورة تأسيس الحزب لتأمين مسار التجربة، فيما مثل سالمين، الاتجاه الثاني، الذي كان يرى أنه بتطوير التنظيم السياسي الموحد، الجبهة القومية، إلى حزب ثوري ديمقراطي، مع إبقاء حزب الوحدة الشعبية فرع الشمال، خارج إطار هذا الحزب، الذي يقود النظام في الجنوب، باعتبار الواقع الداخلي والخارجي لا يتحمل إعلان حزب كهذا.

تحول الخلاف المذكور إلى معركة حربية وحسم مسلح، أطاح الرئيس سالم ربيع علي، أثّر لاحقاً في عبد الفتاح إسماعيل نفسه، وأدى – إلى جانب عوامل

أخرى – إلى عزله عن السلطة في أول تغيير سلمي في رأس الدولة، التي لم تستطع قياداتها التوفيق بين واقع جنوب اليمن المتخلف، والنظريات الاشتراكية المتقدمة عنه بكثير، ذلك أن تأسيس حزب اشتراكي في هذه المنطقة، كان مغامرة كبيرة لحالمين ثوريين، حتى إن الأحزاب الشيوعية، وبالذات الحزب الشيوعي السوفييتي، لم توافق حينها على القرار اليمني بهذا الشأن، وظلوا يتعاملون مع الحزب الاشتراكي اليمني كحزب ثوري ديمقراطي.

يسجل لعبد الفتاح إسماعيل، أنه الرئيس اليمني الوحيد الذي رفض اللجوء إلى العنف، وقد طلب من كل أعضاء الحزب، الالتزام بقرارات القيادة الجديدة، التي اختارت علي ناصر محمد أميناً عاماً للحزب، ورئيساً لمجلس الرئاسة، ورئيساً للوزراء، إلى أن جاءت أحداث يناير **1986**م المعروفة.

أما الرئيس علي ناصر محمد، وهو الأقل حدة في اتخاذ المواقف من الرؤساء الذين سبقوه، والذي تمتع بقدرة على التعامل مع جميع القيادات، وخبرة عملية مرنة في إدارة السلطة؛ فقد اتسم عهده بالوسطية الثورية، ولكنه اتسم أيضاً فيما بعد بتصفية المنافسين أو الرفاق الأقوياء في قمة السلطة، بأشكال عدة متنوعة. وكان له ذلك في البداية، لأنه كان محل ترحيب إقليمي، بخاصة أنه صُوِّر بكونه سياسياً ورئيساً معتدلاً، يميل إلى التصالح مع الجيران، وبالذات اليمن الشمالي والسعودية وبقية دول الخليج، وهو النهج الذي بدأه الرئيس سالمين، والشهيد محمد صالح مطيع من قبله، بيد أن استمرار ميل الأخ علي ناصر محمد – حينها – إلى الاستئثار بالسلطة في الدولة والحزب الحاكم، على اعتبار أنها الوسيلة الفاعلة لوقف الصراعات المستمرة السابقة في قمة هرم القيادة (من وجهة نظره)، قاده إلى إزاحة رموز معارضيه بوسائل وطرق شتى قمعية، ابتداءً من النفي، وانتهاءً بالتصفية الجسدية.

وهذا السلوك تعارض مع شخصيته، التي كانت تمثل في السابق، عامل توازن وإجماع، الأمر الذي سَرَّع في أن يصبح طرفاً في الصراع الجديد، على غير ما كان منتظراً منه، كما أن سلوك علي ناصر محمد هذا، كان يتناقض مع الدور الأساسي للعمل الجماعي الذي يقوم عليه النظام الأساسي ككل، وكان أي خروج على الهيئات الجماعية، يؤدي حتماً وفي النهاية، إلى وقوف الأكثرية ضد التسلط الفردي للقائد أو الرئيس، وهذا ما وصل إليه عهد الرئيس علي ناصر محمد، ودفعه إلى أحداث **13** يناير **1986**م، في محاولة لتحاشي العزل، وبالطبع، فإن الأحداث الدامية المذكورة، أفضت إلى انتصار الهيئات الجماعية.

وبرأيي فإن الصراع على السلطة وبين أجنحتها، كان أبرز الأسباب التي أدت إلى انفجار الوضع في **13** يناير **1986**م، وكان يمكن بقليل من التنازل، تجنب ما حدث، وتجنيب مدينة عدن ما لحق بها من دمار كبير لم تشهده من قبل، وما لحق بأبنائها وساكنيها من قتل وإزهاق للأرواح. فقد دُمرت المدينة، وحدث تصدع هائل في بنية الدولة الأمنية والعسكرية، وسقط في تلك الأحداث الدامية أكثر من **12** ألف قتيل وجريح، واستخدم الطرفان كل الأسلحة التي كانت تحت أيديهم، بما فيها الطيران والصواريخ، وفقدت البلاد قيادات وكوادر مدنية وعسكرية وإعلامية مهمة. وباختصار، كانت أحداث **13** يناير بداية نهاية فعلية للنظام والدولة، كانت كارثة وطنية بكل المعاني، وأحدثت ضرراً بالغاً بالجنوب والشمال معاً، باعتبار ضحاياها يمثلون ساحة اليمن كلها، وقد مثلت تداعيات هذه الأحداث، مقدمة لما جرى بعد قيام الوحدة اليمنية، وما زلنا نعيش بعض آثارها حتى اليوم.

بعد كل هذا الدمار الذي نتج عن أحداث **13** يناير، جاء الأمين العام للحزب علي سالم البيض، وحيدر العطاس رئيس الوزراء، وبعده رئيس هيئة رئاسة مجلس الشعب الأعلى، وأعتقد أنه قد ترسخ في الذهن والعقل لديهما

ولدى قيادات أخرى، أن يجنبوا عدن وجنوبي اليمن، أي ويلات مماثلة، وبحكم خبرتهما في الدولة، استطاعا تحقيق هذا الهدف إلى حد ما، من خلال:

أولاً: برعايتهما (ومعهما قيادات أخرى)، أعلنت السلطة عن برنامجها في الإصلاح السياسي والاقتصادي عام **1987**م، وكان ذلك الموقف من أشجع المواقف التي اتخذتها القيادة الجماعية، خاصة إقرار الديمقراطية، في إطار الحزب الاشتراكي اليمني، وإقرار التعددية الحزبية، كمبدأ للحياة السياسية القادمة، وإعطاء القطاع الخاص حقه بالمشاركة الاقتصادية، بعد سنوات طويلة من التأميم والتقييد والمنع، وبمجرد الإعلان عن ذلك في برنامج الإصلاح الذي أقره الحزب الحاكم، تحركت الأوضاع، وبالذات على الصعيد الاقتصادي، وبشكل إيجابي. ولكن هذا البرنامج لم يأخذ مداه الزمني في التنفيذ، إذ استحوذت مسألة تحقيق الوحدة اليمنية يومها، على اهتمام الحزب الحاكم في عدن.

ثانياً: باندفاعهما نحو تقريب موعد تحقيق الوحدة اليمنية، وقيام الجمهورية اليمنية في عام **1990**م، وخاصة الرئيس علي سالم البيض. وأعتقد أنه لم يتوقع حدوث حرب مثل حرب **1994**م، وأقصى ما توقعه، هو حصول خلافات سيتم حلها بالتفاوض بين شركاء الوحدة، ولذا، لم يتمكن من تحاشيها عندما حدثت فعلاً. وربما كان هذا سبب إعلانه، أثناء الحرب، جمهورية اليمن الديمقراطي، وقد كانت تلك الحرب أشد قسوة وأوسع فتكاً ودماراً بمدينة عدن، مقارنة بجميع الأحداث الدموية مجتمعة، تلك التي شهدتها من قبل خلال الحكم الشطري.

نتساءل بين فينة وأخرى: هل كان بالإمكان تجنيب عدن كل هذه الحروب والأحداث الدموية؟، والإجابة قطعاً: أجل، كان بالإمكان تجنيبها ذلك، فكل ما حدث لم تكن له بواعث ومسببات قوية فعلية، وسيسجله

التاريخ ضمن مدونة الصراع على السلطة بين أجنحتها، مهما لحق بالوطن من مآسٍ ودمار، والتأكيد على هذه الحقيقة، هو ما حصل في التجربة في البداية، فالرئيس سالمين، بتحالفه مع عبد الفتاح إسماعيل وعلي ناصر محمد، حكموا البلاد ثماني سنوات، سادها الاستقرار الداخلي، رغم الخلافات التي كانت دائرة بين الطرفين، وكانت تُحل عادة بالحوار والتفاهم الأخوي.

ولعل الصراعات التي نشبت في عدن منذ **1969**م، لم تكن بمعزل عن قضية الوحدة اليمنية، أو بمعزل عن الصراع بين القوى التقليدية من جهة، وقوى التغيير والتحديث في اليمن عموماً، من جهة أخرى.

ويمكنني القول إن مسألة الوحدة اليمنية والموقف منها، ربما شكلت المحرك الخلفي لكل أو معظم الصراعات والتصفيات التي شهدها كل من جنوبي اليمن وشماله أيضاً، وإن الفرز الذي تم بين أطراف هذا الصراع أو ذاك، وإن اتخذ منحى الصراع على السلطة كتيارات، أو كصراع قبلي أو صراع مناطقي، وتحت مظلة الحزب أو اتجاه سياسي معين، فقد كان ذلك الصراع في جوهره، أو في أحد جوانبه الأساسية، صراع تقوية لمشروع الوحدة أو إضعافه، أو تسريعه أو إبطائه، أو إعطائه معنى معيناً دون سواه، أي أنه كان صراعاً في إطار الصراع العام بين القوى التقليدية والقوى التحديثية في اليمن.

وهذا الاستنتاج، هو ما أكدته حرب صيف **1994**م، ونتائجها المدمرة، التي قضت على المشروع الوحدوي الوطني الكبير، بما خلفته من فوضى واسعة، أدت إلى ظهور دعوات التمرد والتمزق، ومحاولات العودة إلى الحكم الإمامي في الشمال والسلاطيني في الجنوب.

توضيحاً لما ورد آنفاً، وإضافة له؛ فبعد عدة سنوات من قيام النظام الوطني في جنوب اليمن عدن، بدأ صراع بين كل من النظامين في شمال اليمن وجنوبه، ظاهراً أو مبطناً، ولعبت القوى الدولية (أمريكا وبريطانيا من جهة،

والاتحاد السوفييتي من جهة أخرى)، ودول عربية متحالفة معها (المملكة العربية السعودية خاصة)، دور الدافع لهذا الصراع المعلن والخفي في آن واحد، حيث بدأ كل نظام من النظامين، بمحاولات تعددت أساليبها وتنوعت أشكالها، في أن يصدر أفكاره ونهج ثورته ورؤاه إلى النظام الآخر، وينشرها ويروج لها في الشطر الآخر، ومن عجائب السياسة، أن هذا كان يحدث في وقت تتبنى فيه قيادتا الشطرين، موقفاً وحدوياً معلناً على الصعيد الرسمي والإعلامي الرسمي، الداخلي والخارجي.

في السياق ذاته، المبيّن آنفاً وجدت ظاهرة (سيادة مشروع الوحدة اليمنية)، على هاجس قسم ليس بقليل من القوى السياسية في الساحة اليمنية – أي منحه مكانة تسيّد على بقية الأهداف الهامة الأخرى؛ فجانب من تلك القوى، كان يرى في سيادة مشروع الوحدة، مدخلاً لتحرير اليمن الشمالي، وفرض النهج اليساري فيه كهدف استراتيجي لا يمكن بدونه أن يتحقق شيء في (الجمهورية العربية اليمنية). وكذا، ساد مشروع سيادة الوحدة اليمنية على هواجس قوى سياسية ليست بقليلة، في ضرورة إسقاط النظام اليساري في عدن، وإلحاقه بالنظام في صنعاء.

وتفاقم الصراع بين الاتجاهين المذكورين، حتى أصبحت الوحدة ومسألة الموقف منها، مبرراً للصراعات التي نشبت حينها هنا وهناك، وفي أكثر الحالات، اتخذت هذه الإدارة طابع التستر وعدم الظهور على السطح، وفي إطار ذلك مثلاً، تم استغلال التناقضات في صفوف القوى الجنوبية اليمنية منذ ما قبل الاستقلال (الخلاف بين جبهة التحرير والجبهة القومية، والوقوف مع الأولى أخيراً)، وتضاعف ذلك الاستغلال بعد الاستقلال الوطني، في إذكاء الخلافات والصراعات والتناقضات بين القيادات العليا وتكتلاتها، التي حققت الاستقلال لجنوب اليمن. وكذا بين القيادات الميدانية والشابة في عدن، والتي

كانت أحياناً هي التي تُرغم القيادات العليا على الدخول في أتون صراعات حادة.

ومما زاد طين الصراعات بلةً، أن حققت مآرب أصحاب (سيادة مشروع الوحدة اليمنية)، من خلال تكريسهم للتطرف لدى السلطة في كل من الشطرين. فلقد أدى الدفع بالتطرف اليساري في عدن، إلى المساعدة في حدة يسارية الإجراءات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، ما أثمر هجرة العقول والفئات القادرة إلى شمال اليمن ودول الخليج وغيرها؛ في حين أدى الدفع بالتطرف اليميني في صنعاء، إلى خنق الديمقراطية وتكريس القمع، ما جعل الكثيرين يهاجرون إلى جنوب اليمن، بمبرر الذهاب للبدء بالنضال من هناك، وكان هذا التشوق للنضال، يعني واقعياً، المزيد من التطرف في عدن، والمزيد من سيادة مشروع الوحدة اليمنية، بل والدخول مباشرة في وسط هيجان الصراعات السياسية الدموية التي حدثت في عدن وخلقت أحزانها.

وهكذا، ففي حين كانت قوى سياسية نافذة في عدن، تحاول تصدير النهج اليساري إلى الطرف الآخر، عن طريق العمل الثوري، كانت قوى سياسية نافذه أخرى في صنعاء، تعمل على زعزعة الأوضاع السياسية في قمة سلطة جنوبيّ اليمن، من خلال إذكاء الصراعات الدموية بين الإخوة الرفاق قادة الدولة والحزب الحاكم. ولهذا تآكل أولئك الإخوة الرفاق من القيادات الجنوبية شيئاً فشيئاً، تارة بالإقصاء وتارة أخرى في أتون المعارك المسلحة، وتحت مسميات أيديولوجية متعددة، كلها كاذبة، لا تعبر عن واقع الحال، وإنما صنعت وجلبت لتبرير ما حدث وما يحدث لدى الرفاق السوفييت، والرفاق الاشتراكيين الآخرين.

وباختصار، فقد كان الصراع في اليمن منذ عام **1971**م أو معظمه، يحمل سماته وبصماته كصراعٍ بين نظامين شطريين، وهذا الصراع الثنائي، انعكس

داخل كل شطر، وفقاً لمحاولات كل شطر الإطاحة بالشطر الآخر والحاقه به كاستراتيجية. وكما سبق وأشرت، فإن المصيبة هنا، أن الاتصالات الرسمية بين الدولتين والحكومتين اليمنيتين، كانت تتم وتجري، وكأن شيئاً لم يكن، من تلك المؤامرات والدسائس التي تحاك بينهما بسرية في الخفاء؛ فعلى الصعيد الرسمي، تمت عدة اتفاقيات وحدوية عامة، أهمها: اتفاقية القاهرة **28** أكتوبر **1972**م، وقّعها كل من علي ناصر محمد ومحسن العيني، رئيسا مجلسي الوزراء في الشطرين، واتفاقية بيان طرابلس **28** نوفمبر **1972**م، الموقعة من قبل سالم ربيع علي رئيس جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية، والقاضي عبد الرحمن الإرياني رئيس الجمهورية العربية اليمنية، ولقاء الجزائر **4** سبتمبر **1973**م، الموقع من قبل الرئيسين المذكورين سابقاً أيضاً، ولقاء قعطبة **15** فبراير **1977**م، الموقع من قبل سالم ربيع علي رئيس جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية، والمقدم إبراهيم الحمدي رئيس الجمهورية العربية اليمنية. ولقاء قمة الكويت **30** مارس **1979**م، الموقع عليه من قبل عبد الفتاح إسماعيل رئيس هيئة رئاسة مجلس الشعب الأعلى بجمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية، والمقدم علي عبد الله صالح رئيس الجمهورية العربية اليمنية، وهناك لقاءات كثيرة رسمية، شملت اتفاقات جزئية، لكنها لم تكن اتفاقات وحدوية أساسية بين الدولتين الشطريتين.

إجمالاً، يمكن القول إن السعي الوحدوي في تلك المراحل، كان يعاني من حالة مرض انفصام الشخصية؛ فمع إبرام كل تلك الاتفاقات الوحدوية الرسمية الواضحة (والتي لم يُعمل بها)، كان أصحاب مشروع (سيادة مشروع الوحدة اليمنية)، يعملون على تدمير كل شطر من داخله، كما أن الصراع الخفي السري بين النظامين الشطريين، يظل مسايراً له في قنواته الخاصة به غير الرسمية، وهذا يعني في تلك المراحل، أنه كان لكل شطر قواه في الشطر الآخر، التي لم

تلعب قط دوراً إيجابياً، بل كان دورها إنهاك الشطر الآخر وزعزعة نظامه، حتى تحين الفرصة المناسبة للانقضاض عليه.

وفي هذا الصدد أو الاتجاه، حاول كل نظام شطري، الانقضاض على النظام الشطري الآخر للإجهاز عليه كاملاً؛ فالنظام السياسي في عدن، حاول الانقضاض على النظام اليميني في شمالي الوطن في حرب 1972م، وحرب 1979م، وكاد أن يلتهمه في المرة الثانية، لولا تدخل الدول العربية وجامعة الدول العربية للحيلولة دون حدوث ذلك.

أما النظام السياسي في صنعاء، فقد جاءت محاولاته للانقضاض المباشر على النظام اليساري في عدن متأخرة، ويرى كثيرون أنها جاءت كعملية انقضاض قاسية في حرب صيف عام 1994م، وليس من المؤسف فقط أن عملية الانقضاض هذه جاءت متأخرة، بل إنها جاءت بعد تحقيق الوحدة اليمنية، وبعد قيام الجمهورية اليمنية بأربعة أعوام، ويرجح كثيرون أن السبب كان الطمع والحروب والمؤامرات الشطرية السابقة، ولعل الحرب المذكورة، هي ما خلق أيضاً جواً ملائماً لمن في نفسه الطمع في التوجه نحو إمكانية العودة إلى العمل بالروح الشطرية، بعد أن كان التاريخ قد دفنها يوم 22 مايو 1990م.

وتجاه كل ما حصل من صراعات وحروب واقتتال في مدينة عدن، أجد نفسي هنا والآن، وبعد كل ما جرى، أمام سؤال: أين كنتُ من كل ما جرى؟ وأجيب الآن، وبلا تردد، أن الحقيقة هي أنني كنت في كل الأزمات والأحداث الدامية والحروب التي شهدتها عدن، أقف مع الأكثرية التي تنشد تحاشي الدماء، وتفضل الحوار وتسوية الخلافات، على قاعدة رفض العنف واتباع أسلوب التفاهم والتفاوض، والوصول إلى حلول ومعالجات مشتركة بين أبناء الوطن الواحد، بما لا يضر الوطن وأبناءه، وكنت أبذل الجهود في مثل هذه المواقف والأوضاع، التي تصل فيها الأزمات إلى قرب التفجر . من أجل عدم

اللجوء إلى العنف واستخدام القوة والسلاح في تلك الأحداث أو الحروب التي حدثت في عدن خلال الفترة 1978-1994م، وأنا واثق بأنني لم أؤيد أي مسلك للعنف أو استخدام السلاح، إلا فيما ندر، وفي حالات معينة قليلة، تعتمد على ما هو قائم في الواقع، كحق الدفاع عن النفس، ولم يشمل موقفي هذا، أو مواقفي هذه، مسلك العنف أو استخدام السلاح كضربات استباقية.

وإذا تجاوزنا دوامة الصراعات التي تطرقت لها آنفاً، والتي لم تتوقف يوماً، ورغماً عنها، فإنه يمكننا القول إن عدن مدينة وحدوية يمنية بدون منازع، ويشهد لها تاريخها الطويل في احتضان كل المناضلين والمثقفين اليمنيين الهاربين من ويل وظلم الحكم الإمامي، وهي التي حملت راية الوحدة اليمنية حقاً منذ اليوم الأول للاستقلال، وهي المدينة التي احتضنت عشرة أحزاب وتنظيمات من شمال الوطن. والمدينة التي استجابت للمتغيرات العالمية، وفي مقدمها انهيار المعسكر الاشتراكي، وقررت أن الفرصة لإعادة تحقيق الوحدة أصبحت سانحة فعلاً، وأذكر هنا، أن المكتب السياسي للحزب الاشتراكي اليمني، قد ناقش هذه المسألة بجدية في منتصف عام 1988م، وشكل لجنة برئاستي وعضوية كل من الإخوة: حيدر العطاس ومحمد حيدرة مسدوس والدكتور سيف صائل والشهيد جار الله عمر، وآخرين من أعضاء المكتب السياسي واللجنة المركزية، وقامت اللجنة بالفعل بوضع دراسة متكاملة سياسياً واقتصادياً واجتماعياً، لتصور الوحدة التي يمكن أن تنجز بين الشطرين، وكذلك هي المدينة التي تم فيها اتفاق قيادة الشطرين النهائي على الوحدة في نهاية شهر نوفمبر 1989م.

ولبيان الحقيقة هنا، أسجل أنه عندما كانت لجنة الحزب الاشتراكي اليمني المركزية يومها (1989/12/29م)، مجتمعة تناقش الخيارات المطروحة لأسلوب تحقيق الوحدة، والتي انحصرت بعد المناقشات الكثيرة بثلاثة خيارات، هي: الوحدة الاندماجية، الوحدة الفيدرالية، الوحدة الكونفدرالية، وأقرت

الوحدة الكونفدرالية كخيارٍ من بين الخيارات المذكورة، علمنا عند نهاية الاجتماع، بقدوم الرئيس علي عبد الله صالح إلى عدن، عن طريق منطقة كرش الحدودية، للقاء القيادة والأمين العام علي سالم البيض، وعندما تأخر الأخ علي سالم البيض في منزله، قرر الرئيس علي عبد الله صالح العودة إلى تعز ليلاً، وكان لا بد من التحرك من جانبي وجانب الأخ حيدر العطاس، وقمنا بعدد من الاتصالات، وبذلنا الجهود مع الأخ الرئيس علي عبد الله صالح، فاقتنع بها، وقرر البقاء لمواصلة الحوار مع الأخ علي سالم البيض.

وفي اليوم التالي، تشاور الرئيسان علي عبد الله صالح وعلي سالم البيض، وفي مساء تلك الليلة، وأثناء تجوالهما بالسيارة في أنحاء مدينة عدن، وتحديداً أثناء مرورهما في نفق (جولد مور)، اتخذ الرئيسان قراراً بأخذ الخيار الأول، الذي ينص عليه دستور الوحدة المتفق عليه، وهو قرار الوحدة الاندماجية الشاملة، وحين أبلغنا بهذا القرار، حصلت تلك الليلة واليوم التالي، نقاشات كثيرة وحوارات سريعة وانقسامات ما بين تأييد واعتراض من هنا وهناك. وقام الرئيسان باستدعاء بعض القيادات، وخاصة من الإخوة الذين كانوا في الحزب الاشتراكي من فرع الشمال، حيث حضر تلك اللقاءات الأخوان جار الله عمر ويحيى الشامي، وناقشوا الأمر بجدية، وسموا بعد ذلك اتفاق الرئيسين بـ «اتفاق النفق»، لأن الرئيسين كانا يقولان أثناء اللقاءات: لماذا كل هذه المشاريع (المقصود بها الخيارات العديدة المطروحة)، لنتركها جانباً، وندخل في تنفيذ مواد الدستور الذي هو موجود منذ سنوات، وتمت مناقشته على مدى سنوات طويلة، ونبدأ بتنفيذه، وبذلك تمت في مدينة عدن، الخطوة التاريخية التي لم يتوقع كثيرون أن تحدث بتلك السرعة، إذ تقرر التوقيع ليلتها (**30** نوفمبر **1989**م) في المعاشيق بمدينة كريتر، على إعادة وحدة اليمن بأخذ شكل وطريق الدستور ـ الوحدة الاندماجية.

منذ ذلك اليوم، تواصلت الجهود والأعمال الوحدوية على قدم وساق، ومنها انعقاد الاجتماع الثاني للجنة التنظيم السياسي لدولة الوحدة، التي كنت أرأسها، وحضره الإخوة: محمد حيدرة مسدوس والدكتور سيف صايل والدكتور سالم عمر بكير والدكتور حسين علي حسن وقاسم عبد الرب صالح وراشد محمد ثابت ود. صالح محسن الحاج والأستاذ أحمد الحبيشي عن الجانب الجنوبي، والإخوة الدكتور عبد الكريم الإرياني والدكتور أحمد الأصبحي وإسماعيل الوزير ويحيى حسين العرشي وعلي لطف الثور وأحمد علي المطري ومحمد ضيف الله ومحمد شاهر حسن عن الجانب الشمالي، والذي أُقر فيه اختيار البديل الثاني من بين مجمل المقترحات المطروحة، والذي يقر بقاء كل من الحزب الاشتراكي اليمني والمؤتمر الشعبي العام، مع ضمان حق جميع القوى والشخصيات السياسية والاجتماعية في اليمن، في تشكيل الأحزاب والتنظيمات السياسية التي تعبر عن آرائها وتوجهاتها ومصالحها.

وتوجت مدينة عدن وحدويتها التاريخية، بإعلان الوحدة اليمنية، وقيام الجمهورية فيها يوم **22** مايو **1990**م، عقب اجتماع مشترك لكل أعضاء قيادتي الشطرين/ الدولتين.

وفي اليوم التالي، غادر الرئيس علي عبد الله صالح ونائبه علي سالم البيض، عدن، معاً، متوجهين إلى صنعاء براً، بينما غادرنا أنا والأخ حيدر العطاس إليها جواً لنبدأ مرحلة جديدة، كانت سعيدة في بداياتها، ولكننا اكتشفنا أن الصراعات لم تكن سمة (عدنية)، ستنتهي عندما نترك عدن ونتوجه للسكن والاستقرار في صنعاء. فيومها، لم يتوقع أحد أن صنعاء ستشهد صراعات جديدة، ولكننا اكتشفنا لاحقاً، أن الصراعات سمة (يمنية).

أخيراً أود أن اختتم حديثي عن عدن بالتأكيد على أنها مدينتي التي تربيت وتعلمت وعشت فيها **42** عاماً متواصلة، وما تبقى من عمري الذي

عشته لم أفارقها كثيراً، ولم أمكث بعيداً عنها طويلاً، لم أنسها يوماً، ولم أهملها يوماً، حتى حين أمكث خارجها، فإذا أردت أن تحبك مدينة، فعليك أن تحبها أولاً، أو قل إنه الحب المتبادل بين طرفين.

كل الأيام والسنين في عدن، كانت من أجمل أيام عمري، بحلوها ومرها، كانت جميلة. هذا هو سحر عدن، الذي يجعل البعض ممن حالهم المعيشي عادياً، لا يغادرونها أبداً، ولو عرضت عليهم كنوز الدنيا، وأنا أعرف عدداً من هؤلاء شخصياً، وأغار منهم، لأنهم ـ على ما يبدو ـ يحبون عدن أكثر مني، فكيف يوجد حب لعدن أكثر من حبي لها؟، بيتي المتواضع الكائن في حي خور مكسر بجانب ساحة العروض، هو أروع الأمكنة في الدنيا، وأجمل من كل قصور العالم التي رأيتها، والتي لم أرها.

عدن حبيبتي، عشت فيها حب عواطفي الكبير الذي ما زال متدفقاً مع شريكة حياتي، التي لا تقل حباً لعدن عني، وحب أبنائي الذين ولدوا جميعاً في عدن، وهم يحنقون عندما أسألهم ما إذا كانوا يميلون إلى مدينة أخرى أكثر من ميلهم لعدن، ولقد تجسد في حبي لها، حبي لوطني الذي كان له في نفسي أولوية على الجاه والمناصب والمال ومتع الدنيا الزائفة.

عدن هي الكثير والكثير بالنسبة لي، ولن أنسى كل ما وهبتني إياه من حضن دافئ جميل، وما علمني إياه أهلها من تعايش إنساني وحياة حرة وتوق دائم إلى الأفضل.

اكتوت عدن مجدداً ودمرت تماماً، وشُرد أهلها إلى جيبوتي ودول الخارج بحرب ثانية، قامت بها صنعاء على عدن، وجاء هذه المرة الدعم العربي بقيادة المملكة العربية السعودية والإمارات العربية المتحدة لمساعدتها وإخراجها من محنتها، ولهذا الموضوع قصة أخرى، سنحكيها إن شاء الله.

أبين ـ خنفر

أطلق الناس على أبين (أرض الحاس والحسحاس والحر الشديد)، والحاس هو البعوض المنتشر فيها بكثرة، كونها مليئة بالأراضي الزراعية والحشرات والمستنقعات، والحسحاس هو تحسس الجلد وحكة من جراء لدغ الحشرات له.

وفي الواقع أن دلتا أبين (أكبر دلتا زراعية في المناطق الجنوبية)، كانت سلة الإنجليز الغذائية التي تمونهم إلى عدن، فإلى جانب زراعتها للموز وأنواع الخضراوات وبعض الفواكه، كانت تنتشر زراعة القطن على نطاق واسع فيها، فقد أدخل الإنجليز زراعة القطن طويل التيلة منذ بداية الأربعينيات من القرن العشرين الماضي، ليتم حلجه وتصديره لاستخدامه في مصانع الغزل والنسيج في مانشستر بإنجلترا، وغيرها.

كانت دلتا أبين أيضاً في الماضي، البؤرة والمحرك والموقع لصراعات عدة، أهمها ما كان في الماضي بين سلطنة العفيفي من جهة، وبين سلطنة الفضلي من جهة أخرى، وقد غزاها الإنجليز بعد سنوات من احتلالهم عدن، لأن بيئة الخلافات تلك، هي التي مكنتهم من الدخول المباشر إلى المنطقة، من أجل مصلحتهم الاستعمارية في زراعة القطن؛ ففي البداية، كانت سلطنة الفضلي تتخذ موقفاً وطنياً، تمثل في مقاومة دخول الإنجليز المنطقة، وبعد أن شجعت السلطات البريطانية آل حيدرة منصور والمراقشة على عدم الاعتراف بسلطنة الفضلي، قامت بقمعها، وبعد أن شجعت سلطنة العوالق على خلق مشاكل لسلطنة الفضلي، قامت عام 1880م بصد غزو السلطنة العولقية لمناطق

الفضلي. وكل ذلك من أجل دخول دلتا أبين وزراعة القطن وتصديره إلى مصانع بريطانيا، وقد تم ذلك بعد جهد جهيد.

ومع استصلاح الأراضي وبدء زراعة القطن على نطاق واسع في الدلتا، لم تهدأ المنطقة، إذ برزت الخلافات بين الإدارة البريطانية في «جعار – خنفر» وإدارة السلطنة اليافعية، التي لم تتوقف يوماً بسبب الخلاف على تقاسم الجبايات والضرائب وغيرها.

ولقد أدت تلك النزاعات ـ سواء مع الإنجليز أو مع السلطنة الفضلية – إلى تمرد السلطان العفيفي ضدهم، وانطلاق ثورة مسلحة ضد الاستعمار من المناطق الجبلية المحاذية، علاوة على ذلك، فقد كانت يافع الساحل – خنفر، هي الخط الفاصل بين امتداد النفوذ الإنجليزي وتوقفه عند مدينة باتيس، حيث لم يمتد إلى أبعد منها نحو جبال يافع الأبية، بدءاً بجبال كلد التي انطلقت منها انتفاضة يافع ضد الإنجليز في عام 1957م، والتي أدت إلى لجوء السلطان محمد عيدروس إلى يافع الحيد (القارة)، وتنصيب أخيه الأصغر الشاب محمود عيدروس كسلطان على يافع بني قاصد (الساحل)، بعد وفاة والده مسموماً في عدن.

أثناء وجودي في عدن للدراسة، زرت مدينة جعار عاصمة يافع الساحل مع والدي وعمي، لزيارة أقارب هناك، فيافع، أو قسم منها، جزء لا يتجزأ من أبين كمنطقة جغرافية أو إدارية أو تاريخية، تمتد حدوده إلى الشواطئ جنوباً، ومنطقة الحرور غرباً، و«دوفس» في الجنوب الغربي، وذلك بحسب اتفاقية بين السلطان الفضلي والسلطان العفيفي في نهاية النصف الأول من القرن العشرين المنصرم، لذا، كان كل أبناء مناطق يافع في عدن، يترددون على مدن جعار والحصن وباتيس، حيث يوجد أقارب وأصدقاء لهم هناك.

وفي فترة النشاط السياسي الطلابي، ترددت على «جعار» عدة مرات، حين أشرفت لمدة على نشاط الخلايا الطلابية هناك، كما أنني عملت لفترة قصيرة، عضواً في قيادة العمل التنظيمي في المدينة، التي تقع في قلب دلتا أبين الخضراء، وتحيط بها الأراضي من كل ناحية، ويطل عليها جبل خنفر الصغير من ناحية الشرق.

وقد تعرفت فيها – آنذاك – إلى عدد من الشباب المثقفين الوطنيين، والذين كانوا حينها يمثلون نخبة شباب المنطقة المتعلمين، منهم: قاسم عبد الرب صالح، محمد علي عبد القوي وأخوه حسن علي عبد القوي، صالح الشعملي، رشيد جرهوم، محمد أحمد جرهوم، محمد علي البعسي، الحاج ناصر عبد القوي السلفي، صالح النينو، صالح عبد الحبيب، سعيد النينو، ناصر عبد الحبيب، الدكتور علي علوي وأخوه حسين علوي، وغيرهم من جماعات الشباب في الدرجاج وجعار وباتيس والحصن، وعلى رأسهم: منصور جميع، وأحمد علي مليكان وأخوه عبد الله مليكان، ومحمد صداعي علي، وعلي منصور، وآخرون لا تسعفني الذاكرة لتذكرهم الآن.

هناك تداخل بين تعريف أبين ويافع، حيث تعتبر أبين من مناطق يافع، ويقصد بذلك يافع الساحل (مدن جعار والحصن وباتيس والقسم الأكبر من الدلتا، بحسب ما تم تقسيمه أيام السلطنات)، وفي نفس الوقت، تعتبر يافع قسماً من أبين، وهي كذلك، لأن جزءاً من سلطنة يافع بني قاصد بفرعيها (يافع الساحل)، يقع جغرافياً في أبين، وهذا ما بقي حتى الآن في التقسيم الإداري القائم، ويدعي أبناء يافع أن الحدود القديمة ليافع قبل دخول الإنجليز، تمتد إلى ساحل أبين، ويدعي بعضهم أن لديه وثائق أن ليافع مساحة سبع خطوات داخل مياه بحر العرب، وهناك كتب تاريخية تشير إلى أن ميناء شقرة

المهمل الآن، كان الميناء الرئيس ليافع، وكان هو عصب تعاملها التجاري الكبير مع حضرموت.

وعموماً، فإنه من المعروف تاريخياً، أن أبين تسكنها قبائل رئيسة، هي: الفضلي، يافع، العواذل، العوالق السفلى، وقبائل عدة صغيرة من سلطنة العبدلي بلحج. ولعل ذلك ما جعلها أشبه ببوتقة وطنية في العصر الحديث، وما أقصده من إيراد هذا الحديث عن قضايا طواها الزمن، وجعل أبناء الدلتا يداً واحدة، هو أن اليافعيين هم أبينيون، ولا غرابة في ذلك، لأنهم جميعاً حميريون، وتمتاز اللغة الحميرية القديمة بـ (ال) التعريف، التي تستبدل بـ (إم)، كأن تقول إم كتاب في الكتاب.. إلخ. وإم التعريف الحميرية الأصلية، ما زالت تستخدم اليوم في اللهجة الدارجة في مناطق أبين المختلفة، مثل مودية والوضيع وجزء من يافع الحد وغيرها.

ورغم أن أبين كانت تعني عملياً آنذاك بالنسبة لنا مدن زنجبار (عاصمة السلطنة الفضلية) – وجعار (عاصمة سلطنة يافع الساحل) – والحصن – وباتيس، والتي كانت مدناً فعلاً انتعشت مع استصلاح أراضي دلتا أبين، التي تمتد من باتيس شمالاً وحتى شواطئ بحر العرب جنوباً، إلا أن معظم التحركات والنشاطات كانت تتم أو تدار من مدينة جعار، وتبعد جعار نحو 50 كيلومتراً عن عدن، وكانت تقطعها السيارات مارةً على ساحل البحر بدون أي طريق، وهي مدينة حديثة، تتوسط دلتا أبين المشهورة بزراعة القطن، وتعد أخصب الأراضي الزراعية وأوسعها في جنوبي اليمن. وكانت مدن جعار والحصن وباتيس، أول مناطق يافع التي أنشئت فيها مدارس حديثة، بحيث توفرت فرص التعليم، ليس لأبنائها، وإنما أيضاً للقادمين من بقية أنحاء يافع.

شهدت مدن جعار والحصن وباتيس، التي تسمى قديماً وحديثاً بخنفر، انتفاضات فلاحية وسياسية مبكرة، كانت أقواها انتفاضة السلطان محمد بن

عيدروس العفيفي، ضد لجنة أبين، وسيطرة الوجود الإنجليزي على السياسات الزراعية في الدلتا عام 1957م، ما حدا بأبناء يافع في عدن أن يوسعوا نشاطهم باتجاه هذه المنطقة، التي كانت إلى جنب دورها الاقتصادي، تكتنز مقومات النضال السياسي الجيدة.

وفي عام 1965م، كلفنا في الهيئة الإدارية للاتحاد اليافعي (عدن)، بلقاء سلطان يافع السفلى (يافع بني قاصد ـ الساحل) محمود بن عيدروس، وحين قابلناه، وجدناه شاباً صغيراً، لأنه اعتلى كرسي السلطنة، بدلاً من أخيه الأكبر محمد، الذي تمرد على الإنجليز، وضم الوفد حينها كلاً من: المرحوم العم صالح علي قاسم الحضرمي، العم عمر عبد الله الأصبحي، علي صالح سعيد اليهري، فضل محسن عبد الله، سالم صالح محمد، وكان الهدف من تلك الزيارة، الحصول على ترخيص للاتحاد اليافعي، نستطيع من خلاله فتح فرع علني لنشاطنا الجماهيري، والوصول إلى أهلنا في هذه المناطق، وجذبهم للمساهمة في العمل الوطني.

تم استقبالنا في مدينة الحصن من قبل نائب السلطان الشيخ حيدرة منصور العطوي، الذي أكرم وفادتنا واستضافنا في داره، وأقام لنا حفل غداء لائقاً، حضرته شخصيات مرموقة في ذلك الوقت. وعند نقاش الموضوع الذي قدمنا من أجله، إذا بالرجل يضحك، وكأنه فهم ما نقصد، ولكنه مندهش منه، وخاطبنا قائلاً: تريدون تشكيل جمعية يافعية في منطقة يافعية؟، يبدو أن الغرض آخر، أليس كذلك؟.

اندهشنا بدورنا من فطنته وسرعة بديهته، وتركنا الرد للعم صالح علي الحضرمي، باعتباره الشخص المعروف لديهم بحكم الصهارة بينه وبين الشيخ عبد القوي بن غالب، شيخ مشايخ مكتب الحضرمي، أحد مكاتب يافع العشرة، كما أن العم صالح لم يكن له أي انتماء حزبي تنظيمي ضد الإنجليز،

وكان معروفاً بتواضعه وبكرمه الجم؛ فأجابه بأن الغرض من تشكيل جمعية لأبناء يافع في جعار، هو أن جعار مدينة يافعية، ولكنها مفتوحة أمام الجميع، لم يرد نائب السلطنة، ففهمنا من سؤاله السابق، ما كان ينطوي عليه الجواب الذي لم يفصح عنه، وهو أن السلطة المحلية والسلطة البريطانية في المنطقة، غير موافقة على منح الترخيص ومزاولة النشاط لهذه الجمعية القادمة من عدن، وفي منطقة ملتهبة.

لجأنا بعد فشل ذلك اللقاء إلى العمل السري المنظم في أبين . جعار والمناطق الساحلية، وكذا يافع الجبل وفي عام 1966م، فتحت الجبهة القومية جبهة مسلحة جديدة في المنطقة (يافع الساحل)، ولكن هذا العمل أخفق في المواصلة، حين تم اعتقال معظم المتقاتلين من أعضائها بالقرب من إحدى العيون المحاذية لباتيس، وتم إيداعهم سجن «البحرين» بجعار، وكان من أسباب إخفاق هذه الجبهة، أن مناطق جبل يافع المحاذية للدلتا، والتي تبدأ بجبل باتيس، لم تكن مأهولة بالسكان، ما يجعل التحرك فيها من قبل أي مجموعات فدائية، مكشوفاً، أضف إلى ذلك أنه تبدأ من مدينة باتيس وحبيل البرق الفسيح، وتلك الجبال الطريق إلى عمق جبال يافع الجنوبية (طريق حطاط)، التي تربط بين يافع الساحل ويافع الحيد، وهي طرق وعرة تمر بها قوافل الجمال والحمير المحملة بالبضائع والمسافرين، والحركة الدائبة في هذه الطريق وانتشار الجواسيس فيها، لم يكن يسمح بإنشاء قاعدة عسكرية للجبهة القومية، أو قيام جبهة مسلحة ضد السلطنة والإنجليز.

في عام 1967م، حينما بدأت مناطق الجنوب المحتل بالسقوط من أيدي سلطة السلاطين والمشايخ، طلبت مني قيادة الجبهة القومية، الذهاب إلى جعار، لمساعدة الانتفاضات النشطة هناك، والتي استولت بعد مدة وجيزة على

الأوضاع في جعار وأبين وغيرها، وإقامة سلطة الجبهة القومية هناك (جعار وزنجبار) بتاريخ **28** أغسطس عام **1967**م.

وضمن إقامة السلطة المحلية فيها، تم تكليفي بتنظيم الإدارة لها، وتنظيم الحرس الشعبي في خنفر، كقوة أمنية وعسكرية، حيث لم توجد في المدينة ونواحيها سوى عدد قليل من قوة الشرطة، وكانت مهمتي تقتصر على التنظيم، لأن إخوة من قيادات الجبهة القومية، كانوا يتولون المسؤولية عن الجوانب العسكرية، وهم: صالح فاضل الصلاحي، وحسين عبد الحبيب، عبد الله عبد الرحمن اليزيدي، حسين محمد حسين اليزيدي، محمود سبعة وآخرون. وكذلك الحال بالنسبة للجوانب الإدارية والمالية للسلطة الجديدة، حيث كانت هناك لجنة تنفيذية للإشراف عليها، مكونة من الإخوة: زيد سليمان، الحاج ناصر عبد القوي السلفي وفضل حسين وأحمد علي مليكان، وآخرين من مناضلي الجبهة القومية.

استتبت الأمور للجبهة القومية في أبين، في الوقت الذي كانت تدور فيه رحى المعارك في عدن والمنصورة، والشيخ عثمان، بين فصائل من الجبهة القومية وجبهة التحرير. وقبيل أيام من يوم الاستقلال الموعود (**30/ 11/ 1967**م)، داهمني المرض في الكلى من جراء حصوات تراكمت، ولأن إمكانية العلاج في مستشفيات عدن غير متوفرة، نقلت كحالة طارئة إلى مدينة أسمرا الإثيوبية ـ حينذاك ـ عاصمة إرتيريا حالياً.

وبعد عودتي من «أسمرا»، وبالرغم من أجواء الصراعات بين أجنحة التنظيم السياسي للجبهة القومية، التي بدأت تخيم على العاصمة «عدن»، إلا أنني ترددت على «جعار»، فكنت فيها أثناء قيام الجناح اليساري للجبهة القومية، بقيادة سالم ربيع علي، بالتمرد على رئاسة الجمهورية في عدن في

14مايو 1968م، ولم أعد إلى جعار إلا بعد ما يقارب العام، في ظروف جديدة عمت البلاد، بعد تغييرات سياسية كبيرة.

شاء القدر أن أعود إلى جعار مجدداً في بداية عام 1969م، حين عُينت مأموراً للمديرية الغربية – المحافظة الثالثة «محافظة أبين»، وكانت المديرية الغربية، وفقاً للتقسيم الإداري الأول، بعد إعلان جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية الوليدة، واسعة جداً، إذ تشمل مناطق يافع بني قاصد ومركز القارة عاصمة سلطنة آل عفيف، ويافع بني مالك ومركزها لبعوس، وكذلك سلطنة يافع الساحل ومركزها مدينة جعار، التي أصبحت بعد الاستقلال عاصمة للمديرية الغربية.

إثر التعيين، التحقت أسرتي بوضعي الجديد بجعار، وسكنّا بمنزل تابع لمشروع لجنة أبين خارج فللها الجميلة في جبل خنفر، وهو جبل صغير ووحيد، يقع على الطرف الشرقي من المدينة، ولجنة أبين أقامها الإنجليز والسلطنة، وكانت تقوم بتنظيم عمليات الري وزراعة القطن في دلتا أبين، وتقديم الخدمات للمزارعين وشراء منتجهم من القطن، بدعم وتمويل من الإدارة البريطانية في عدن، وقد أثبتت هذه الهيئة الزراعية نجاحها، وكم كانت الأماني، وما زالت، أن تستمر بنفس الدقة في العمل أو المعرفة في متطلبات المنطقة في هذا الوادي الزراعي الهام.

كانت المهمة الأولى لي في «جعار»، ومنطقة خنفر «باتيس والحصن»، التي تشكل قسماً من المديرية، هي العمل على تثبيت هيئات وأجهزة السلطة، كون هذه المدينة هي العاصمة، وقد ساعدني في ذلك وجود أعداد كبيرة من الشباب المناضلين المتعلمين القادرين على العمل الإداري، والذين سبق لي ذكر بعضهم آنفاً، والمهم أن وجود كوكبة من هؤلاء الشباب المتعلمين والمثقفين، ساعد كثيراً على سرعة تثبيت أجهزة المديرية وسلطاتها في جعار، لذا،

وللحقيقة، أنه أثناء عملي مأموراً للمديرية الغربية، كان الاهتمام مُنْصَباً، ليس على العاصمة جعار، وإنما على بقية مناطق يافع الأخرى، التي كانت محرومة من جميع الخدمات الأساسية تقريباً: الطرق والمدارس والمياه والكهرباء والمرافق الصحية، وغيرها.

أضف إلى ذلك، أنه كانت توجد في جعار بدايات للإدارة الحكومية أوجدتها كل من الجهات الثلاث: الإدارة البريطانية، ممثلة بالمندوب السياسي في المنطقة، ولجنة أبين الزراعية التي أنشئت في منتصف الأربعينيات، بسبب إدخال زراعة القطن في المنطقة – خنفر – دلتا أبين، ومجلس سلطنة يافع بني قاصد – يافع الساحل. حيث وجدت بالمدينة، قبل تعييني فيها، مستوى بسيطاً من خدمات تعليمية وصحية وبلدية وقضائية وأمنية أولية. أضف إلى ما ذلك، أن جعار كانت تمتاز عن بقية مناطق يافع (بقية مناطق المديرية الغربية آنذاك)، ليس بوجود إدارات ومرافق حكومية فقط، بل ووجود موظفين متعلمين وقيادات إدارية مؤهلة، وهذا ما سهل مهمتي بشأنها كمأمور.

ولذا، وبينما كانت مهمتي السياسية في جعار، تسيير وإدارة المرافق الخدمية للمواطنين، القائمة بالفعل (إلى حد ما)، فقد تطلب عملي هناك جهداً كبيراً من أجل بقية مناطق يافع المحرومة من تلك المرافق والخدمات الأساسية، والتي تعادل مساحتها مساحة محافظة من المحافظات القائمة آنذاك، ولكن نتيجة لجهل الكثيرين بها وعزلتها وصعوبة الوصول إلى جبالها الوعرة الشاهقة، أن وضعت على خريطة الجمهورية الوطنية الوليدة كمديرية واحدة، تمتد من محاذاة البيضاء شرقاً، إلى تخوم ردفان والضالع غرباً، ومن حمرة وإب شمالاً، إلى سواحل أبين جنوباً، ولوجود أسس جغرافية واقتصادية وسكانية وثقافية، في أن إعادة دمج مديريات يافع في أبين ولحج في محافظة واحدة، هو المطلوب في الوقت الراهن.

ختاماً، أود القول إنني تناولت في هذا الكتاب كلاً من «مودية» و«لودر»، كما أنني اختزلت الكتابة عن أبين بالحديث عن «جعار» و«خنفر» فقط، لأن تناول «زنجبار» و«شقرة» بالحديث صعب، وبالذات زنجبار، كونها المدينة العاصمة لمحافظة أبين، وعادة تختزل العاصمة كل سجايا وهموم المناطق التي تتبعها. لذا، فالحديث سيطول عنهما، أضف إلى ذلك، أن الحديث سيطول عن رفاق النضال الوطني، من سالم ربيع علي، إلى علي صالح عباد، صالح النينو، جاعم صالح، ومحمد صداعي، الفنان محمد محسن عطروش، والشهيد حسين عبد الله، ومحمد علي أحمد، صالح منصور، والدكتور عبد الله قديش، وأحمد الكازمي، ومحمد مفتاح، والعشرات غيرهم من تلك النجوم اللامعة التي ملأت سماء اليمن. ومنهم العديد من الشخصيات الاجتماعية، وكان آخرها من قابلناه في مدينة «جدة» السعودية، هو العم السلطان أحمد عبد الله الفضلي، تلك الشخصية التي لم تشِخ، وما زالت شابة. وأذكر هنا عتابه، الذي لن أنساه ما حييت، للقيادات السياسية فيما كان يُسمَّى «اليمن الديمقراطي»، وأنا كنت أحدهم، ولكل القيادات السياسية اليمنية حول «التسرع في تحقيق الوحدة»، وتأكيده على أهمية الحوار الذي كنا نحتاجه في الماضي، وكان سيقينا الكثير من المشاكل والصعوبات، وكذا حاجتنا إليه الآن ومستقبلاً.

لقد حصلت تطورات هامة بعد عام **2011**م، بتسليم مدينة جعار وزنجبار لعناصر القاعدة (أنصار الشريعة)، حكموا أبين لمدة سنة، وبعد مجيء الرئيس عبد ربه منصور هادي إلى سدة رئاسة الجمهورية في صنعاء، تم استرجاعها وطرد هذه العناصر منها، واللعبة ما زالت قائمة حتى الآن.

لـــودر

تقع لودر في الأجزاء الشمالية من محافظة أبين، وتبعد بنحو 80 ميلاً عن عدن، وكانت قديماً عاصمة لسلطنة العواذل، وكان سلاطينها من آل جعبل، معروفين برشاقتهم وحسن لباسهم وتمنطقهم بالسلاح،

وكانت العواذل تتكون من عدد من القبائل الأصلية والمتصفة بالشجاعة، وهي: آل دمان (ومنهم الأقفاع – شمروح – أمضحج)، وآل بجير، وآل غيل، وآل علي محمد – شرجان (ومنهم: المجعيملاني – مرزوق – دهبل – مصقع – منصور بن أحمد)، وآل امذروي، آل مشهور، آل بركان، آل مقطع، آل مبهش، آل منصور، آل النخعين، آل ضلاعة، آل ذييب (ومنهم: الزهري – الجهري)، آل قاسم (وهم عائلة السلطنة)، ولم يعد هذا التقسيم اليوم قائماً كمنطقة أو تقسيم رسمي، منذ أن أقام أبناء العواذل سلطتهم المحلية الوطنية بانتفاضة شعبية، أنهت حكم الاستعمار والسلاطين، وكان ذلك يوم 27 أغسطس من عام 1967م.

قدمت إلى لودر في أول زيارة، عندما كنت طالباً في مدينة عدن، في رحلة عودة لبدء عام دراسي جديد، يومها جئنا من مكيراس مشياً على الأقدام، بعد أن تعطلت السيارة التي كان يفترض أن تقلنا، لكنها واجهت تصدع الطريق وامتلاءه بالصخور والأتربة الناتج عن هطول الأمطار، ما جعلها تتوقف عن الحركة، وجعلتنا نقطع الطريق سيراً شاقاً، واليوم، أصبح الحال مختلفاً، فأنت تصل لودر قادماً من مكيراس عن طريق عقبة «ثره»، الذي شق فيها طريق معبد ضيق، يسمونه لشدة ضيقه بـ "الصراط"، ويتندرون بكثرة انحناءات

العقبة، فيقولون إن بها واحداً وخمسين انحناء «رون»، بنفس عدد ولايات الولايات المتحدة الأمريكية.

ما أن تنزل من «ثره»، حتى تواجهك مدينة لودر أسفل ذلك المنخفض، وهي قريبة المعنى من السهل المنخفض، بمبانيها الحديثة وشوارعها المنتظمة إلى حد ما، الزاخرة بالحركة والنشاط التجاري، حيث تعتمد لودر – كما كانت دائماً – على زراعة الخضراوات والفواكه والحبوب، وكانت في الماضي محل إقامة الضابط السياسي الإنجليزي المشرف على القاعدة البريطانية المتقدمة في مكيراس.

وهنا، أذكر أن أحد الضباط السياسيين الإنجليز الذين تعاقبوا عليها أيام زمان، قد زارها مجدداً (عام 2005م)، وخلال الزيارة، قال في تصريح نشرته الصحف المحلية: "إن الإنجليز حفروا بئراً ارتوازية في لودر، فماذا فعل الروس لها؟، إنهم لم يفعلوا شيئاً لهذه المنطقة"، بهذا القول، أراد الضابط السياسي (المستر ميلين)، أن يقول إن الاستعمار الإنجليزي الذي حاربتموه وأخرجتموه من بلادكم، كان أفضل لكم من أي نظام سياسي آخر اخترتموه. ومثل ذلك القول، عادة لازمت العقلية الاستعمارية، التي تتغاضى عن نتائج الاحتلال البريطاني للبلد الذي استمر 129 عاماً، لم يفعلوا شيئاً حتى يُحمدوا عليه خلال فترة الاحتلال، غير طريق ترابي ومدرسة ابتدائية فقط؛ في الوقت الذي تم من بعد الاستقلال، شق الطريق المعبدة، وبناء عشرات المدارس الابتدائية والإعدادية والثانوية، وتشييد ثلاث مزارع إنتاجية، بها أكثر من عشر آبار ارتوازية، ومحطات تأجير للآليات الزراعية التي قدمت الخدمات لهذه المديرية والمديريات الأخرى المجاورة، كما تم بناء محطة كهرباء حديثة، خدمت المديرية وما جاورها، فأين بئر مستر ميلين من كل هذا؟.

وعندما انطلقت الثورة التحررية ضد الوجود الاستعماري، قاتل أبناء العواذل الاستعمار حينها، وقدموا التضحيات بسخاء، فكانوا ضمن تشكيلات الثورة التي انطلقت من جبال ردفان في شهر أكتوبر 1963م، وكان في مقدمهم (أحمد صالح الشاعر)، أحد قادة النضال المسلح وجعبل الشعوي، وكانوا ضمن فدائيي القطاع الفدائي في عدن، وفي مقدمهم الشهيد عبد النبي مدرم، بل إن شباب أسر كاملة كانوا ضمن صفوف الفدائيين، أمثال أسرة آل مدرم وأسرة آل إمعبد، ثم توالت وجوه نضالية من أبناء المنطقة، مثل علي سالم لعور، الشهيد حامد مدرم وإخوانه، والشهيد عمر علي محمد، ومحمد حسين امذروي، وآخرين كانوا هامات شامخات، تمكنت من كسب أغلب أبناء قبيلة العواذل لصالح الاتجاه الوطني والكفاح المسلح ضد بريطانيا، ومضت هذه المشاركة الزاخرة ضمن قافلة الثورة، حتى تم نيل الاستقلال.

وهنالك من الأحياء من لم يزل باقياً يواصل نضاله الجديد، كالأخ المناضل محمد علي أحمد، والذي فقد العديد من إخوانه في ميادين القتال، وهو يتمثل بقول الشاعر جبران خليل جبران:

ليس من يكتب بالحبر
كمن يكتب بدم القلب

فالناس تكبر بمقدار التضحية التي يقدمونها لمصلحة الوطن والشعب، حيث إن هذا المناضل، وبالرغم من صغر سنه، ظل مقداماً في كفاحه، حتى بعد تعيينه محافظاً لمحافظة أبين بعد الاستقلال، وكان حينها أصغر محافظ سناً، لكنه تصدى لكل أعمال التخريب التي تعرضت لها المحافظة في تلك الفترة الصعبة؛ فعلى سبيل المثال، معركة وادي «بها»، التي حدثت في شهر فبراير عام 1971م، في منطقة آل بجير، والتي قادها شخصياً ضد مجموعات كبيرة من المرتزقة القادمين للتخريب في محافظة أبين، تعتبر وحدها ملحمة بطولية لهذا

القائد، حيث تم صد المرتزقة، واستشهد في المعركة ستة وعشرون شهيداً من رفاقه. وهذا يدل على مدى شجاعته شخصياً، وحجم التضحيات الكبيرة التي قدمها أبناء لودر والمناطق الوسطى.

كان السلاح أيام النضال التحرري، وفي مسالك الدفاع عن الجمهورية الوليدة فخراً وشرفاً، وهو عكس التمنطق بالسلاح والتظاهر به الآن، الذي يعد مظهراً من مظاهر موروثات الماضي القبلي والإمامي، يظل به من يحمله اليوم بظلاله، ويستنجد أحياناً لمواجهته قائلاً: أين العويله وأين عبد الله عمر؟، أين العويله ذي يشلون السلاح؟.

بنيل الحرية وقيام الدولة الوطنية، وبانتهاء عهد القبيلة، فقد ولى حمل السلاح بدون هدف، ولمجرد البحث عن حجة لاستخدامه، ويعتبر حمله خروجاً عن القانون، إذا ما أردنا بناء الدولة الحديثة التي ننشدها، ولذا، لا بد من حمل السلاح الجديد، سلاح القرن الحادي والعشرين والقرون القادمة، والأكثر فتكاً بالعدو الثلاثي: الفقر، المرض، الجهل، ألا وهو سلاح العلم، حتى لا يظل الإنسان مرهوناً بأوجاع أقدار يمكن التحكم بها، وحتى لا تظل القدرية التي يمكن للعقل التعامل معها، أن تهيمن علينا، ونبقى كما قال الشاعر الأمير ناصر بن محمد جعبل، في قصيدته التي صارت أغنية مشهورة بلحنها الساحر:

وانا بو محمد ما نطرفشي لحد　　　　إلا المقادير جابتني لبوكم هدية

وعموماً، فقد اكتسبت الحياة الجديدة بعد الاستقلال، نوعاً من الوعي، واختفت الثارات، وتلاشى التمنطق بالسلاح، ولم يتبقَ من الموروث القديم، سوى العادات الجميلة، ومنها ما كان يتصف به أبناء لودر من ود وحسن ضيافة وبشاشة، حيث قال الشاعر عن ذلك:

يـا أهل لـودر ما أكثر ســلاكم　　　　ليتنـي أعـيش وابقـى معـاكم

وقد تذكرت هذه الأبيات وأنا في مدينة جدة بالسعودية، حيث أقمت هناك بعد سنوات من حرب صيف عام 1994م، حين التقيت لأول مرة بالسلطان صالح بن حسين العوذلي، المقيم هناك منذ عام 1967م. وكنا نتذكر الوطن وأجواءه التي لها طعم خاص، وقد أصبحنا معاً خارج الوطن، وقد تكررت لقاءاتي به في منزل الشيخ عمر قاسم العيسائي، رحمه الله، فقد كان منزله هذا بمدينة جدة، مأوى وملتقى لكافة الأطياف اليمنية والسعودية والعربية والأجنبية، وحينها كان القنصل العام السفير محمد صالح القطيش من أبناء لودر الأشاوس، قنصلاً عاماً في جدة.

كم هو جميل تذكر لودر والحياة الاجتماعية فيها، التي تتمتع ببعض مظاهر الموروثات الجميلة، ومنها ما هو متعلق بالجلسات عند العصرية والمغرب، وفي الليالي المقمرة، التي تتم عادة في الخلاء. ولمثل هذه الجلسات ميزات طيبة ومحببة، لا لأنها تخلص الجسم من حرارة الجو وتنعشه بنسمات الهواء العليل، ولكنها في الأساس، أحد أشكال التواصل الاجتماعي، حيث تتم في حلقات من الرجال، يجلس فيها الرجل متداخل الأرجل قعوداً، مستخدماً الربطة البدوية (الحبية)، لإبقائه على هذا الوضع، وبعضهم يدخن التبغ بالمداعة المحلية الصنع القصيرة الطول (الرشبة).. جلسات شيقة، يتبادلون الأحاديث فيها عن حال الدنيا وأحداثها وأخبارها، وأحياناً يلقون الشعر لشعراء المنطقة والمناطق المجاورة على وجه الخصوص، أو ينظمونه ارتجالاً، واحداً تلو آخر، وهم يرشفون الشاي أو قهوة البن اليافعي، التي كانت سائدة حتى جاء الشاي في بداية الثلاثينيات لينافسها

وهناك مثل قديم يقول: (البن يزرع في يافع وريحته في لودر)، وقد اختار المثل اسم منطقة لودر، لأن مخارج أشهر وديان زراعة البن في يافع (وادي ذي

ناخب ووادي سباح، وكذا السيلة البيضاء) من الجبال، تنتهي بمناطق لودر وغيرها من مناطق العواذل.

دثينـــة

أسماها الحميريون (دثنت)، على وزن (يمنت)، كان لها دور بارز في الماضي القديم، وفي التاريخ الحديث، أرادت الوثب إلى الحداثة، فشكلت دولة دثينة، وأُطلق عليها اسم (جمهورية دثينة)، ووضع لها دستور وبرلمان، ومثل هذا الفعل المبكر، عكس وعي أهلها السياسي والتحرري ضد الاحتلال البريطاني للجنوب.

تبعد دثينة نحو مئة ميل عن عدن، فبعد أن تغادر منطقة الوضيع، التابعة قديماً لبلاد آل فضل، تصل إلى «أمعين»، وهي من مناطق دثينة، ثم تصل إلى العاصمة مودية، وبعد خفوت مشروع «جمهورية دثينة»، وفي تغيير مجرى الأحداث منذ منتصف القرن العشرين، أثناء زمن الاحتلال البريطاني لعدن والمحميات، تجند قسم كبير من أبنائها في لواء الجيش العربي (الليوي)، التابع لقيادة الجيش البريطاني، فاكتسب أبناؤها خبرة قتالية وقيادية وسياسية، استخدموها فيما بعد في النضال التحرري ضد الوجود البريطاني نفسه.

وقد أظهرت قبائل الحسني والميسري والسعدي، قدرات قتالية في مواجهة الاحتلال، وقدمت الكثير من رجالها قرباناً للحرية، أبرز هؤلاء، الشهداء، عباس وأحمد صالح حسني، وعند تفجر ثورة 14 أكتوبر، قررت قيادة الجبهة القومية، تخفيف الضغط على جبهة ردفان، بجر بريطانيا إلى المواجهة في منطقة أخرى، وذلك عن طريق فتح جبهة عسكرية نضالية تقاتلهم في هذه المنطقة، تنطلق من جبال (فحمان)، وبالفعل، فتحت الجبهة، وتوارد إليها عشرات الفدائيين المناضلين. وكانت «جبهة فحمان»، رابع جبهة تفتحها الجبهة القومية لتحرير جنوبي اليمن المحتل، بعد جبهات: ردفان، عدن،

الصبيحة، إلا أن الإنجليز كانوا من الذكاء والدهاء، بأن تجنبوا المواجهة التي رتبت لهم في الجبهة الجديدة، حيث لم ينساقوا إلى الانجرار إلى المنطقة الشرقية، التي انطلقت منها الجبهة المسلحة الرابعة الجديدة، بل ركزوا هجومهم على مناطق ردفان والضالع وجبهة عدن.

فشلت جبهة دثينة في جر الإنجليز، ولكنها واصلت النضال والمقاومة، ونجحت في نفس الوقت في بناء مدرسة سياسية، تخرج فيها الكثير من المقاتلين والمكافحين، الذين ذهبوا أولاً إلى شمال الوطن للاشتراك في معارك الدفاع عن الجمهورية والثورة السبتمبرية، والدفاع عن صنعاء المحاصرة، وبلغ عدد الشهداء من أبناء دثينة وبقية المناطق الوسطى الذين استشهدوا في تلك المعارك، ستة وثلاثين شهيداً.

ومن أفضل نتائج وجود جبهة دثينة (جبهة فحمان)، التي كان يرأسها المناضل ناصر علوي السقاف، وهو أحد مؤسسي الجبهة القومية لتحرير جنوب اليمن المحتل، أن تخرج فيها العديد من المناضلين والساسة والقادة العسكريين، أبرزهم: محمد علي هيثم رئيس الوزراء السابق، والرئيس علي ناصر محمد، وحسين محمد الجابري، ومحمد حيدرة مسدوس، ومحمد سليمان ناصر، ومحمد عبد الله البطاني، ومحمد حسين بن عرب، وسعيد وحسين عثمان عشال قائد الجيش العربي بعد الاستقلال، والعقيد علي عبد الله ميسري، ومحمد عبد الله المجعلي، وسليمان ناصر مسعود، وعلي شيخ ومحمد هيثم علي وعبد الرحمن خباره والخضر مسودي، ومحمد صلاح. وكل هؤلاء وغيرهم شغلوا مناصب عليا في النظام الجمهوري الجديد.

وأذكر هنا، أن كثيراً من أبناء دثينة كانوا مندفعين نحو التحرر والعمل من أجل الحرية، فحين انطلقت شرارة 14 أكتوبر من على قمم جبال ردفان الشماء، تحركت الكثير من العناصر المقاتلة إلى ردفان، من رموز الجبهة القومية

من مناطق شتى، بما فيها دثينة، ومن أبرزهم المناضل: محمد عبد الله المجعلي، مثلاً، أحد أبناء (دثينة)، الذي أصبح شخصية معروفة في جميع الجبهات، وتولى قيادة ردفان في فترة من فترات الكفاح المسلح. وكان يمثل نموذجاً للفصيل المخلص الذي اختلف مع الجبهة القومية بعد انفصالها من منظمة التحرير، التي كانت إطاراً لها ولجبهة التحرير، أصر المصريون على إقامته، وقد ظل محمد عبد الله المجعلي مناضلاً جسوراً حتى جلاء الإنجليز وخروجهم من عدن والمحميات، وبقي معارضاً لسلطة الجبهة القومية، واشترك في محاولات سيطرة جبهة التحرير على ردفان ويافع، أثناء الانشقاق الذي حدث بين الجناح اليميني والجناح اليساري في الجبهة القومية، ولجوء الأخير إلى جبال يافع، بعد فشل حركة **14** مايو **1968**م التي قام بها، وقد استشهد في حادث سيارة، أثناء قيادته لمجموعات مسلحة جلبها من المناطق الجنوبية لفك الحصار عن صنعاء عاصمة الجمهورية الوليدة من جهة نقيل «يسلح» عام **1970**م.

وعندما نتذكر المجعلي وأمثاله الشجعان، نعود إلى الوراء، ونقول: كم كان عظيماً، لو تم إنهاء الخلافات بين الجبهة القومية وجبهة التحرير، أو على الأقل، لو قامت الجبهة القومية عند إمساكها بالسلطة بكسب المناضلين الشرفاء من جبهة التحرير، أمثال المجعلي.

ودثينة، مثلها مثل غيرها من مناطق العوالق والعواذل ويافع وردفان والضالع والصبيحة، لم تتخلص كاملاً من نكبة موروث العقلية البدوية والقروية القبلية، التي ساقها إلى الصرعات القبلية الداخلية ما قبل الاستقلال، وبقيت آثارها السلوكية إلى ما بعده، أثناء الصراعات السياسية في عدن، والتي راح ضحيتها المئات من أفضل الرجال من أبناء المنطقة، كان يمكن حقن دمائهم الزكية، لو أن أجنحة السلطة العليا في الحزب والدولة، لجأت إلى الحوار، وليس إلى السلاح، لحَلّ الخلافات في ما بينها، تجاه المشاكل العالقة التي تثير

التناحرات، وكان بالإمكان القيام بذلك، والعمل على تجنيب هذه المنطقة وبقية مناطق جنوبيّ اليمن الأخرى، كوارث الاقتتال الداخلي الذي حدث بين أبناء المناطق المختلفة بصورة غير مباشرة، في إطار الصراعات السياسية.

لقد كانت الفتن في منطقة دثينة منتشرة بقوة، ولكن ما كان لهذه المنطقة أن تصيبها الأحوال دماً ونزيفاً، بعد نيل الحرية وخروج الإنجليز، وأعتقد هنا، أن المنطقة خسرت من الرجال الشُمّ بعد الاستقلال الوطني، أكثر مما خسرت قبل، والسؤال هنا هو: هل كانت السلطة هي السبب؟، وهل يا ترى حدث هذا بسبب أن السلطة أصبحت آنذاك أشبه بـ (لعنة شمعة)، المرأة العاشقة التي تركت زوجها لتلتحق بعشيقها، وتترك الطرفين يتحاربان ويدفعان عشرات القتلى لقاء (هذا العشق المجنون)، وهذا المثل الذي أوردناه، يشبه قصة مشهورة في هذه المنطقة، حدثت في بداية القرن العشرين الماضي، بين قبيلتين من قبائل المنطقة، وأصبحت حكاية شعبية متناقلة كمثل، وليتها لم تردّ على العبد الذي قال لها:

يا شمعة الليلة شعي شواعتك
ظلت عكفهم فوق عيدان النعوش
لو كان قرَّيتي بقرن امهيثمي
يصرف عليش الوعل عَدَّات القروش

وقد عنى ذلك «العبد» أن شواعة زواجها (المرافقين لوفد جلب العروس)، ظلت جثثهم (عكفهم) معلقة وملقاة على عيدان كنعوش لهم، ولو أنه من أبناء قرية من منطقة الهيثمي، لكان الوعل (الثعلب)، ينفق عليها نقوداً من الريال الفرنسي (قرش الملكة ماريا تريزا الفضي، الذي كان متداولاً في مناطق الجنوب اليمني المحتل)، وما كان من «شمعة» سوى الرد عليه بقسوة، أصبحت حكاية شعبية أشبه بلعنة دائمة في مناطقنا الحميرية من جنوب اليمن

(أبين ويافع)، وقد طالتنا وتابعتنا هذه اللعنة في عهدنا الجديد/ عشقنا الجديد بعد التحرر. وجاءت اللعنة المذكورة شعراً، عندما قالت «شمعة»:

يـالعبد يـا بن العـبد يا بن الجـارية
يـا مـا دول تقـتل ما تقـتل وحـوش
مـرَان بـايحرب وشـوعـه حـاربه
وأهل الكـراسي في مطـارحكم تهـوش

هوامش: (حاربة: محاربة – أهل الكراسي: المقصود هنا كرسي البندقية، الذي يوضع ملاصقاً للكتف – مطارحهم: أماكنهم – تهوش: تتخاطف الشيء بسرعة خاطفة).

واللعنة في الأبيات أعلاه، هي أن الجميع مستعدون للتقاتل، والجميع متحمسون له، والجميع مستعدون للموت أيضاً، ومن أجل ماذا، من أجل عشق متهور، أشبه ما يكون بعشق الحالمين بنيل سلطة الدولة، انتقل مثال «لعنة شمعة» من مجال العلاقات العاطفية إلى مجال السياسة والعلاقات بين القادة والزعماء في «اليمن الديمقراطي»، كم كلف ويكلف هذا «العشق» الممزوج بكبرياء الجهل وعمى القبيلة ووحشية السلطة. وإن تواصل مثل هذا العشق، وبهذه العقلية، هو ما كلف ويكلف العشاق الجدد ثمناً باهظاً للغاية، مدفوعاً بالاحتراب والدماء والمآسي والغربة على مدى العقود الماضية، وحتى الآن، ليصيب حتى أُناساً ليس لهم ناقة ولا جمل في الاستراتيجية العمياء للعشاق.

ومهما حدث من صراعات بين الإخوة الرفاق في عدن أثناء فترة الجهل السياسي والطيش المتهور نحو السلطة، فإن من خسرتهم دثينة، قد أسهموا في بناء حاضرنا المتقدم، وأول إسهاماتهم، كانت في إخراج جنوبيّ اليمن من غياهب القبيلة المتخلفة، وسلطة الاستعمار التي تقهر نفوس الحرية وتضعف القلوب، وهنا، تحضرني بعض أبيات قصيدة للشاعر أحمد عمر مكرش «أبو

حمحمة»، وهي بدع مرسل للسعيدي عن التغيرات التي حدثت بعد الاستقلال الوطني، يقول فيها:

قل له خذ الأبيات هذه وإقرَهَا من رأس شاعر كُبتَه مليانها من عيس
من قبل ذي أول زمانه ميسري بيضاء تعترف بالوانها
والجد قالوا إنه حزام الطارفة من «جابره» لد «الفج» لا«فحمانها»
حتى ولا هذه جريمة بينه لذكر زمان القبوله ذي كأنها
كانت عجوز الويل تحكم أرضنا راحت سفينتها مع ربانها
من رأس «كاهف» شعبنا درج بها اتكسرت أنيابها وأسنانها
اليوم قدنا تحت قانون البلد دستور قومي صلح لعوجانها
خلى النمر والذيب والنعجة سواء ذي كان يتسرب مع محياتها
حتى وعول الحيد حارت جنبها كانت بريطانيا تحكم أرضنا
بعد القرون المرجبه جمانها راحت سفينتها مع ربانها
واليوم يا راسي تذكر هاجسك ما أصبح يهوَك ذي من المخزانها

ومودية، مثل غيرها من مناطق الريف، في ما كان يسمى «اليمن الديمقراطي»، كانت في الماضي القريب (عهد الاستعمار)، ترزح في غياهب التخلف والفقر والصراع القبلي الدامي، ومع شق طريق الإسفلت إليها بعد الاستقلال الذي يسّر ربطها بعدن وشبوه وحضرموت، تحسنت الخدمات فيها، وانتعشت حياتها التجارية، كما حفرت آبار ارتوازية في بعض ودیانها – بعد الاستقلال الوطني مباشرة، ما أدى إلى تطوير الزراعة فيها، وتوسيع الرقعة الزراعية، وهو ما أدى إلى تحسين مستوى معيشة سكانها، وأدخلت إليها خدمات التعليم والصحة والبلديات وغيرها.

وخلال الأربعة العقود الماضية، شهدت مدينة دثينة ومناطقها المختلفة، طفرة تنموية، شملت جميع مناحي الحياة ومظاهرها، إلى حد تصعب معه المقارنة

بين ما تبقى في الذاكرة عنها من أيام السبعينيات، وما أصبحت عليه اليوم بعد سنوات عدة مرت من القرن الحالي – القرن الواحد والعشرين.

ما زالت ذاكرتي تخزن استضافة الأخ محمد سليمان ناصر، وزير الزراعة والإصلاح الزراعي، لنا في منزل والده بمودية، ونقاشات العم سليمان ناصر، وترحّمه على الزمن الغابر.

بعدها مضينا، كل واحد في طريق، ورحم الله الأموات ومنهم، زميلنا الوزير السابق محمد سليمان ناصر، ورعى الله مَنْ ما زال يجاهد في هذه الحياة.

تعــز

رغم الدمار والموت الذي لحق بها بعد عدن من جراء حرب عام 2015، إلا أن تعز تعتبر من أهم المدن اليمنية، بحكم موقعها المتوسط جغرافياً ومناخياً، وبحكم تاريخها الفاعل في حياة اليمن، وهي المدينة الثالثة بعد صنعاء وعدن، من حيث الأهمية الاقتصادية والكثافة السكانية، ولها خصوصية معينة، ميزتها بعد صنعاء عن سائر المدن الأخرى، فهي منذ أن تأسست، وجدت نفسها لتكون عاصمة مزدهرة لمملكة فتية، فأعطتها هذه البداية ازدهاراً وطموحاً.

ومنذ أن أصبحت عاصمة لملوك دولة بني رسول، بدأت تنافس صنعاء على نفوذها، وتحاول أن تكون البديل الشرعي لها. ففي حين كانت صنعاء بصفة عامة عاصمة للأئمة، كانت تعز عاصمة للملوك. وقد جاء هذا في كتاب «الأمير محمد لا ينسى» لمؤلفه زيد الوزير.

تعز من أجمل المدن اليمنية، ويعلم بهذه الحقيقة من مكث بتلك المدينة التي تتوسد جبل صبر المنيف، وتمتد منه منحدرة في مجموعة من التلال والوديان الصغيرة، أمطارها غزيرة، ومناخها معتدل صيفاً وشتاء، وأهلها طيبون ومنفتحون على أبناء اليمن والعرب منذ قديم الزمان، ولا غرابة أن وصلتها أول بعثة إسلامية، واستقر بها الصحابي معاذ بن جبل، فكان لها السبق، وكانت لها الشهرة أيام الدولة الإسلامية الأولى، بأن أصبحت مدينة علم ودين، أقيم على تخومها أكبر أوائل المساجد اليمنية في منطقة (الجند)، فكانت منذ ذلك العهد حلقة الوصل والربط في كل الأمور بين مناطق الجبل وأرض الساحل، أو كما

تعارف أهل اليمن على تسميته "حلقة وصل بين اليمن الأسفل واليمن الأعلى".

إنها المدينة التي استفادت من التغيرات الراديكالية على الساحة اليمنية، على الرغم من أن تلك التغيرات والأحداث كانت تطالها شراً أحياناً، وترجعها سنين إلى الخلف، في الستينيات كانت العاصمة الثانية للجمهورية، وقدمت آلاف الشهداء من أجل الدفاع عن النظام الجمهوري ضد فلول الملكية التي لفظها التاريخ، ولكنها لم تستسلم بسرعة، بل حاولت خنق الجمهورية، وفي مقدمة أبطال تعز، الشهيد عبد الرقيب عبد الوهاب، وكذا قدمت تعز عشرات القادة للثورة السبتمبرية، أمثال: علي محمد سعيد، وعبد الله عبد العالم، وقائد محمد سيف، وغيرهم، وكان لأبنائها أدوار كبيرة في بناء الدولة الجديدة، أمثال الأستاذ أحمد محمد نعمان، وغيره كثير، كما أن تعز كانت في ظل الحرب بين الجمهورية والملكية، قاعدة احتضان لقيادات المقاومة ضد الاستعمار البريطاني، تناضل بيد هنا ويد هناك.

إنه لمن الصعب أن نضع قوائم بالمناضلين والشهداء والقادة المدنيين والعسكريين من أبناء تعز، وما ذكرته سوى أسماء عابرة فقط، ذلك أن أبناء تعز كانوا وما زالوا وسيظلون حاضرين في كل معركة من أجل التطور، وفي كل موقعة من التقدم، وفي كل محفل نادى وينادي بالحرية والديمقراطية وكرامة الإنسان.

كانت تعز كبيت العرين، مأوى الأسود الكاسرة، حل بها قادة مقاومة حكم الأئمة والمناضلون ضد الحكم الكهنوتي على مر العصور. وكذا قادة مقاومة الاستعمار البريطاني من جميع مناطق الجنوب المتمردة، فمنذ الأربعينيات من القرن العشرين المنصرم، استقبلت المجاميع الثائرة ضد الوجود الاستعماري البريطاني، وأتذكر هنا أن تعز آوت محمد بن عيدروس العفيفي، بعد أن انسحب

إليها من يافع، تحت قصف الطائرات البريطانية، وكذلك الحال بالنسبة للشيخ أحمد أبوبكر النقيب، وهو شخص له تأثيره ودوره، وكان أحد الذين أنشأوا مدرسة قعطبة في ذلك الوقت، التي احتضنت مئات الطلبة من مناطق الجنوب المحتل، وخاصة من يافع والضالع وردفان وحالمين والشعيب، كانت حينها بمثابة أكاديمية تخرج فيها العديد من قادة الثورة من أبناء ـ الضالع ـ ويافع، وأصبح قسم كبير منهم من أبرز العناصر والقيادات الوطنية.

تعز وعدن.. قصة تلاحم وتفاعل بين مدينتين عظيمتين، لا تفصلهما مكاناً سوى ما يقارب 160 كيلومتراً، وتربطهما ببعضهما وشائج خاصة، اجتماعية ونضالية ونفسية، نتيجة لقربهما من بعضهما، ولتبادلهما الأبناء في ملحمة الهروب من الظلم والتعسف والاضطهاد من شطر إلى شطر.

وبالرغم من تبعية كل منهما لنظام شطري آخر قديماً، إلا أنهما على العكس، كانتا قويتي الصلات فيما بينهما، وهذا ما خلق وشائج قوية بين المدينتين، تتخطى الحدود والحواجز السياسية القائمة آنذاك، وتمثل حالة من المعبرات الواسعة والعميقة عن تلاحم أبناء اليمن ووحدة الشعب اليمني.

أصبحت عضو خلية قيادية في حركة القوميين العرب في عدن في بداية عام 1964م، وبعثت حينها إلى مدينة تعز، لتلقي التدريب والتأهيل للعمل السري لمدة عشرة أيام، ثم عدت إلى عدن، وكانت تلك الزيارة الأولى لي إلى تعز، وبعد أشهر قليلة عدت إليها مجدداً؛ فمع اشتداد المعارك المسلحة في جبهة ردفان والضالع وعدن، اشتدت أيضاً معركة العمل السياسي الجماهيري المدعوم من قبل الجمهورية الوليدة في صنعاء في سبتمبر 1963م، والتي تلاحقت انتصاراتها، أصبحت الدراسة في عدن والجنوب شبه متوقفة، ما أرغمني وآخرين على المغادرة في بداية السنة الدراسية 1964م إلى تعز، لكي أستكمل الدراسة المتوسطة والثانوية، وكان عددنا بالعشرات، أذكر من هؤلاء الزملاء:

الشهيد طيار حسين عوض صالح البريء، أحمد محمد المحضار، عمر عبد الصمد، عبد الرحمن السيلاني، عبد القوي بن شيهون، وآخرين.

ومَثّل وجودي في تعز، فرصة لي لأكون بالقرب من صانعي الأحداث الجديدة وقادتها، وخاصة أولئك الذين يخلقون زمن الثورة الملتهبة في جنوبي اليمن المحتل، كان لنشاطي في القطاع الطلابي التابع للجبهة القومية لتحرير جنوب اليمن المحتل في عدن وأبين وغيرها، وفي إطار قيادته كقطاع للجبهة القومية، أثره الجيد في تعزيز نشاطي السياسي في اتجاهين:

الأول: تعزيز نشاطي في القطاع الطلابي للجبهة القومية، وهذا ما مكنني لاحقاً من المشاركة في نشاطات عامة وهامة، منها حضوري المؤتمر الأول للجبهة الذي عقد في تعز في يونيو **1965**م، وهو المؤتمر الذي أُقرت فيه وثيقتان هامتان، هما الميثاق الوطني والنظام الداخلي للجبهة.

الثاني: أن ننال ورفاقي من القطاع الطلابي وزملائي من الطلبة قسطاً من الاهتمام والدعم في مدينه تعز من قبل قيادات النظام الجمهوري، وكذا قيادات الوجود المصري هناك. وذلك ما جعلنا لاحقاً نقابل الرئيس عبد الله السلال – رحمه الله – ونوضح له ما نقوم به من نشاط وطني وثوري، وبعدها تفقد مدرستنا، حيث سلمناه المطالب التعليمية للمدرسة وطلابها، ومنها مطالب نقابية وسياسية، وكان من ضمنها الحق السياسي في المشاركة الفعلية للاتحاد الطلابي، سواء في العمل الطلابي أو العمل الوطني.

ولا أنسى هنا أن الرئيس السلال قد استجاب أيضاً لطلب مجموعة من طلاب أبناء الجنوب اليمني المحتل، بأن وافق على منحنا ستة عشر ريالاً يمنياً لكل طالب من طلاب المرحلة الثانوية، واثني عشر ريالاً لطلاب المرحلة الإعدادية، وثمانية ريالات لطلاب المرحلة الابتدائية، كمساعدة شهرية من قبل الدولة ـ إدارة التعليم في تعز.

أثناء هذه الفترة من العيش في تعز، تعرفنا إلى قادة الثوار القادمين من عدن ومناطق جنوبيّ اليمن المختلفة، ومنهم: قحطان الشعبي، فيصل عبد اللطيف الشعبي، طه مقبل، سالم ربيع علي، محمد علي هيثم، علي ناصر محمد، علي سالم البيض، سيف الضالعي، ناصر السقاف، محمد سالم عكوش، عبد الله عبد المجيد الأصنج، محمد سالم باسندوة، السلطان أحمد عبد الله الفضلي.

كما تعرفت خلالها إلى بعض القيادات الميدانية، مثل: محمد البيشي، علي عنتر، صالح مصلح، علي محضار، محمد علي الصماتي، قاسم الزومحي، الذبياني وقادة آخرين من جبهات القتال الأخرى.

وفي تلك الفترة، تعرفت لأول مرة إلى الأخ الشهيد أحمد محمد حاجب، الذي كان يعمل في المكتب الأمني للجبهة القومية، وسالم عبد الرب جحاف، الذي كان يعمل في المكتب الإعلامي، وآخرين من أبناء يافع في تعز، الذين جاؤوا إليها للتدرب أو الالتحاق بصفوف الثوار، ومنهم الأخ عبد الحافظ عفيف العمري، كما تعرفنا إلى عدد من المناضلين الذين لم يكونوا في إطار الجبهة القومية، منهم الأخ المناضل محمد صالح المصلي.

كان الوضع التنظيمي للجبهة القومية حينها، مرتبطاً بتنظيم حركة القوميين العرب في الخارج ومشاربه الفكرية، وبما أنني كنت قد بدأت نشاطي في هذا الاتجاه في عدن، فقد التحقت آنذاك في تعز بخلية مشكلة من الإخوة: عمر محمد عبد الصمد، أحمد المحضار، حسين عوض، عبد الرحمن السيلاني، وفي هذه الفترة أيضاً، تشكل اتحاد طلاب اليمن لأول مرة في تعز، وبصورة علنية، وقد ترأسه الأخ عمر محمد عبد الصمد، وكنت أحد قياداته.

في عام 1965م، تم ترفيعي إلى عضو خلية قيادية، وشهد هذا الترفيع، الأخ المناضل المرحوم عبد القادر سعيد، وهو واحد من قادة حركة القوميين العرب والحركة السياسية اليمنية في ذلك الوقت، والذي كان لحضوره إلى

جانب الأخ الصديق أحمد محمد الحربي، أثره في نفسي وتفكيري حتى الآن، كما أنني تعرفت في تلك الفترة إلى شخص قيادي ثالث، كان له تأثير في توجهاتي في تلك المرحلة، وهو الأخ سلطان أحمد عمر، وهو بالمناسبة أحد أقرباء الأخ عبد القادر سعيد، وهو سياسي ومفكر يمني معروف، وواحد من قادة حركة القوميين العرب، وقد التحق بفرعها في جنوبي اليمن المحتل، ليمثل مع الإخوة: علي صالح عباد مقبل، عبد الله الخامري، عبد الله الأشطل، تيار التنظير نحو اليسار في ما بعد.

وكان سلطان أحمد عمر قيادياً ذكياً وسياسياً بارعاً، وأذكر هنا أنه عند اشتداد النعرات العشائرية أو المناطقية أو الطائفية بين الرفاق في القيادة، وفي إطار التنظيم الواحد، كان يكرر تساؤله التالي: فسروا لي يا أبناء حمير ومذحج، ماذا تعني هذه التسميات المتطابقة ما بين مناطق الحجرية ومناطق يافع:

في يافع:	وفي الحجرية
الموسطة	المواسط
الظبي	الظبيات
لبعوس	لعبوس
الحضارم	الحضارم
المفلحي	المفالح

الحقيقة أن الأسماء المتشابهة أو المتطابقة بين مناطق اليمن شمالاً وجنوباً كثيرة جداً، وتكثر أكبر عندما نقارن بين أسماء القبائل والعشائر، وهذا ما ينطبق على يافع وتعز قبل غيرهما، وتشكلت التطابقات والتقاربات بين أسماء مناطق وقبائل اليمن وعشائرها وفخائذها وبيوتها عبر تاريخ طويل ولقرون طويلة، بحيث يصعب علينا، أو حتى على الباحثين والدارسين، تتبع أصولها ومنابعها الأولى. وهذا ما أكده الأستاذ زيد الوزير، عند إشارته في كتابه (زورق الحلوى)، الذي

أورد فيه أن يحيى منصور بن نصر، قد ذكر في كتابه أن هنالك عرقاً سلالياً واحداً، يربط بين أغلب القبائل اليمنية، فقال، على سبيل المثال إن قبائل بني الشهاري والباشا من آل هرهرة في العدين هم من شهارة، وبني الجماعي الذين هم في العدين من (منار بعدان) والسدة من جماعة (صعدة)، وقبيلة (بنو زيد) من يافع، وبنو (المحيا) في صبر من يافع، كما أن أسرة آل النعمان الحجرية من (خبان)، وقبيلة شرجب الحجرية من أرحب، وبنو الدعيس بعدان من (حاشد)، وغير ذلك من أمثلة.

رحم الله سلطان أحمد عمر وغيره من المفكرين والمصلحين في اليمن والمنطقة العربية، الذين حاولوا استنهاض دور الأمة العربية التي هي من سلالة واحدة. لطالما تذكرت ما قاله سلطان أحمد عمر، والمقتطفات التي أوردتها تعليقاً عليها في مواقف كثيرة، حين يتكتل الرفاق والإخوة في جماعات ضيقة، خاصة عند حدوث صراعات الأجنحة السياسية، ولطالما قلت لنفسي ولهؤلاء وللجميع: لماذا الخلاف واللعب على المناطقية والقبلية والطائفية، والكل ينتمي إلى فرع واحد ولغة واحدة، وأرض واحدة ودين واحد؟، أليست لعبة الأمم هي التي مزقت الأمة وفق الأنظمة الجديدة؟، فلماذا لا نقوي ما يسهم في لحمة الناس، ونترك ما يفرقهم؟، ولعل الوشائج التاريخية الإيجابية (الفرع الواحد واللغة الواحدة، والأرض الواحدة والدين الواحد)، هي معاً سلاحنا من أجل التقارب الثقافي والاجتماعي والسياسي للسكان، كامتداد للخير، ولنترك لعبة الأمم ولعبة السياسة الملتوية والكاذبة التي تنشر بيننا التباعد والفرقة، أليس هذا وذاك كامتداد للصراع الدائم بين الخير والشر؟.

لقد أوصلني النشاط التنظيمي والطلابي في مدينة تعز، إلى درجة أن اقترحت القيادة للجبهة القومية معها إرسالي إلى مصر لاستكمال دراستي الجامعية هناك، والقاهرة هي محط الشوق والحلم العربي، لكن ذلك تعثر لسوء

العلاقة وتدهورها بين الجبهة القومية والأجهزة المصرية قبيل وبعد إعلان الدمج القسري في 17 يناير 1966م بين الجبهة القومية لتحرير جنوب اليمن المحتل، ومنظمة تحرير جنوب اليمن المحتل، التي كان يرأسها عبد القوي مكاوي، والذي رفضته بعض قيادات وقواعد الجبهة القومية رفضاً قاطعاً، ما أدى إلى القطيعة التامة بين الفصيلين.

ونتيجة لانعكاس أجواء هذه الخلافات والقطيعة التي حدثت بين أكبر فصيلين وبين أكبر فصيل والقيادة المصرية، التي كانت مخيمة بظلها على أجواء مدينة تعز، عُدت إلى عدن في نهاية العام الدراسي 1965م، وكان ذلك نهاية للزيارة الأولى لمدينة تعز الحبيبة.

وشاءت الأقدار أن عُدت إلى المدينة ثالثة، وبصفة رسمية في هذه المرة، ممثلاً للمقاومة الشعبية في عدن، التي أرسلت معونات من أجل المساهمة في فك الحصار عن صنعاء الأبية، الذي بدأ بعد حركة 5 نوفمبر 1967م، انتهى يوم 8 فبراير 1968م، ودام سبعين يوماً، وبعد إنهاء مهمتنا في صنعاء التي دامت 17 يوماً، كان على الوفد المكون مني والأخوين: عبد الرحمن أحمد عمر العبسي، وعلي عبد الرزاق الكازمي، القدوم إلى تعز لمقابلة الرئيس القاضي عبد الرحمن الإرياني ورئيس الوزراء حسن العمري، وتعرفت إلى المقدم إبراهيم الحمدي، الذي كان حينها مديراً لمكتب القائد العام حسن العمري، وتولى رئاسة الجمهورية لاحقاً، وتم ذلك كتتويج لزيارة ناجحة.

أما العودة الرابعة إلى تعز، فقد كانت عام 1980م، وكنت وقتئذ وزيراً للخارجية في عدن، ووجدت تعز مدينة أخرى تماماً، انتشر فيها العمران بشكل لا يصدق، وأصبحت مبانيها حديثة الطراز، وشوارعها منظمة ومسفلتة ونظيفة.

لقد جرى تطورٌ مذهل في المدينة التي كانت أثناء زيارتي السابقة لها قبل نحو خمسة عشر عاماً، إذ كانت مكونة من شارعين رئيسين مشهورين، كنت

أعرفهما، هما: شارع 26 سبتمبر وشارع الجحملية، اللذان غاصا الآن بين التوسع وانتشار العمران الحديث والمتسارع؛ فأدركت حينها أن عجلة التغيير هي الأقوى، وأن الحياة لا تتوقف، وكذلك أخفيت بداخلي الانطباع العميق المؤلم، وهو أن عجلة التغيير في عدن بطيئة، مقارنة بما حدث ويحدث هنا.

وفي سنة 1989م، جاءت العودة الخامسة إلى المدينة، وكانت هامة جداً، ليس في حياتي فقط، وإنما في حياة الشعب اليمني، إذ جئتها على رأس لجنة التنظيم السياسي المشكلة من قبل قيادة الشطرين، والتي عقدت اجتماعها الأول في مدينة تعز في أول شهر نوفمبر 1989م، وعندئذ بذرنا البذرة الأولى في نبتة الوحدة اليمنية، بأن تناولنا الأسس السياسية العامة التي ستقوم عليها دولة الوحدة، ومنها التعددية السياسية الحزبية، والديمقراطية النيابية، وغيرها من الأسس التي تم تناولها في مناسبات وكتابات كثيرة.

وأثناء الزيارة، قابلت وأعضاء اللجنة، الرئيس علي عبد الله صالح، إذ طلب منا الحديث حول جديتنا وخطواتنا باتجاه الوحدة. وتحدثنا مطولاً حول كافة الخطوات، ونقلنا أيضاً حديثه، وما يشجع قيادتنا على اتخاذ نفس الخطوات، وبذلك سادت أجواء الثقة بين القيادتين. وانعكس ذلك على نقاشات اللجنة التي رسمت خيارات العمل السياسي القادم. وتكونت اللجنة من: الدكتور عبد الكريم الإرياني والدكتور أحمد الأصبحي وإسماعيل الوزير ويحيى حسين العرشي وعلي لطف الثور وأحمد علي المطري ومحمد ضيف الله والدكتور سيف صائل والدكتور حسين علي حسن وراشد محمد ثابت والدكتور صالح محسن الحاج وأحمد محمد الحبيشي، وكان لهؤلاء الأعضاء دور مكن اللجنة من رسم هذه الخيارات.

ومن ضمن الأسس التاريخية التي أقرها لجنة التنظيم السياسي الموحد الوحدوية في اجتماعها التاريخي المذكور، الذي انعقد في مدينة تعز: التعددية

الحزبية والسياسية، التي تستند على مبادئ، أهمها نبذ العنف في العمل السياسي أو الدعوة إليه، وكذا، عدم استخدام الدين في تكفير الرأي السياسي المخالف، وحظر النشاط السياسي الذي يدعو لعودة الملكية أو النظام الاستعماري السلاطيني، وممارسة حرية العمل الحزبي أو السياسي على قاعدة الدستور، والتمسك بالممارسة الديمقراطية على أرضية الإيمان بمبادئ وأهداف ثورتي 26 سبتمبر، و14 أكتوبر، وكذا الالتزام بعدم تعريض أي مواطن لعقوبة ما، أو مضايقات في معيشته أو وظيفته، أو حتى في الترقية وفرص التأهيل، بسبب انتمائه لهذا الحزب أو ذاك. وكذا، تحديد أسس لمن هي هذه الأحزاب، وإصدارها في قانون.

كما تم الاتفاق على خطوات عملية ومدد معينة للتنفيذ، مثل: تحديد ستة أشهر كمدة أقصى منذ توقيع اتفاق قمة عدن، لإحالة مشروع الدستور إلى مجلسي الشعب والشورى في الشطرين وستة أشهر بعدها لإعداد الترتيبات لإجراء الاستفتاء الشعبي على الدستور، ومن ثم، إقرار قانون الانتخابات والدخول في الانتخابات العامة.

وعقدت لجنة التنظيم السياسي الموحد، اجتماعها الثالث في مدينة تعز أيضاً، في بداية شهر مايو 1990م. قبل ما يقارب ثلاثة أسابيع من ميلاد اليمن الموحد، وهذا الاجتماع ناقش جوانب عملية فعلاً، تخص المكونات السياسية لدولة الوحدة، حيث أقر فيه مشروعي قانون الانتخابات العامة، وقانون الأحزاب والتنظيمات السياسية وميثاق عملها، كما تم تحديد أسس التعاون التنظيمي المشترك بين الحزبين الحاكمين (المؤتمر الشعبي العام، والحزب الاشتراكي اليمني). وكذا، ناقش الاجتماع وضع المنظمات الجماهيرية في ظل دولة الوحدة، وحدد مبادئ وجودها وعملها.

عند الحديث عن تعز المدينة وأدوارها التاريخية، لا يمكن أن ننسى دورها الثقافي الفكري، ودورها الاقتصادي في التنمية؛ فالمدينة تعج بالمثقفين والمفكرين والكتاب والأدباء والفنانين والمبدعين، إلى درجة يصعب عليّ هنا أن أورد أسماء الجميع، فأنا أحتار فيمن أذكر ومن أترك، ومن أختار من بين أسماء لا نهاية لقائمتها، وينطبق الحال هذا على دور أبناء تعز في المجال الإعلامي، فلهم هنا إسهام، ربما كان أكبر من إسهاماتهم في المجالات الأخرى. ويصعب إيراد أسماء صحافيين وإعلاميين تعزيين، لكثرتهم وتنافس إبداعاتهم. أما إذا انتقلنا للفن والشعر اليمني ودور التعزيين فيهما، فيمكن لنا أن نقدم اسم الشاعر عبد الله عبد الوهاب الفضول على غيره من الشعراء، وأن نقدم اسم الفنان أيوب طارش على غيره من الفنانين.

أضف إلى ذلك، أن تعز تتنافس مع محافظة حضرموت في الحصول على صدارة عدد الحاصلين على الشهادات الأكاديمية العليا، والبعض من قصيري النظر، يعتبرون العلم والثقافة مجرد «ثرثرة»، وهنا أتساءل: أيعتبر مستوى الثقافة في تعز عيباً، أيعتبر المثقفون والمتعلمون من أبناء تعز مثرثرين؟، لا، لقد كان المجتمع اليمني إلى ما قبل عقدين من الزمن، يعتمد كلياً على الإمساك بالسلطة بالقوة والعنف، والتمنطق بسلاح القبيلة أو بسلاح الدولة أو السلاح الشخصي، كأسلوب لفرض الوجود على الآخرين، ومن لا يستطيع ذلك، فليس له حق في السلطة أو قيادة الدولة.

كان هذا في السابق، أما اليوم، ومنذ قيام الوحدة اليمنية على أسس الحرية والديمقراطية والمساواة، فقد ولّى ذلك الأسلوب، حتى وإن كان البعض يرى في حدوث حرب عام 1994م، ما يشير إلى عودته، لكن مهما جرى، فإنه أسلوب انتهى عهده وزمانه، وحتى وإن قامت حرب أخرى مثلها، فإنها تعد خطأً تاريخياً، ولا يمكن التأسيس عليه، وإنما يمكن التأسيس على الصواب وعلى

المبادئ التي يسير عليها عالمنا المعاصر والحديث، ألا وهي مبادئ العلوم في مختلف المجالات الديمقراطية في الحياة السياسية، وتداول السلطة السلمي، والعدالة والمساواة، وحقوق الإنسان وحريته وكرامته.

وفي سياق الحديث عن الريادة في اليمن، ففي تعز أيضاً، حدثت ريادة اقتصادية تجارية، سواء من خلال النهضة الصناعية، ونقصد هنا عدد وحجم المصانع التي أقيمت فيها منذ السبعينيات من القرن العشرين الماضي، مقارنة بما أنشئ في بقية محافظات الجمهورية اليمنية.

وكانت قد ظهرت مبكراً فئة تجارية استثمارية تعزية فاعلة، قامت بدورها الريادي في تطوير الاقتصاد اليمني وتنميته وتحديثه داخل تعز وخارجها، وخاصة في صنعاء. وتصدرت تلك الفئة الرائدة في الاقتصاد، أسماء نهضوية كبيرة، مثل مجموعة هائل سعيد أنعم، ومجموعة إخوان ثابت، وغيرهما كثير.

وإذا تحدثنا عن العمل السياسي في اليمن، فإن تعز رائدة في هذا المجال أيضاً، أو بالأصح، أبناؤها؛ فكم وكم سنذكر من القادة السياسيين من أبناء هذه المدينة ـ المنطقة، الذين ظهروا في شمال الوطن أو جنوبه، ممن كانوا سباقين في كل تنظيم وحزب ومنظمة سياسية تقريباً، وبحيث أصبحت تعز أرضية أكثر من غيرها من مناطق اليمن، لانطلاق ونشوء جملة من الأحزاب والتنظيمات السياسية الوطنية والقومية، ومن ثم، تصديرها أو نشرها إلى بقية مناطق اليمن الأخرى.

وإنه لمن الصعوبة بمكان، التحدث عن الأشخاص أو العائلات ممن أعرفهم جيداً من أبناء هذه المدينة ـ المحافظة لأنهم كثر، أكثر من أن يستوعبهم حيز هذا الكتاب كله، فكيف لي أن أعدد حتى أسماء الأسر التعزية التي عرفتها.

عايشت الكثير من أبناء تعز في عدن في المدرسة والحارة وكل أحياء المدينة، وأثناء فترة النضال التحرري، كانوا أصدقاء، ونِعْم الأصدقاء والرفاق منهم. وأخص هنا أبناء منطقة «الحجرية»، الذين كانوا معنا بكثرة في تلك المرحلة، وقد وصفوا منطقتهم بأنها مليئة بالوديان الخضراء والمدرجات الزراعية، وجوها المعتدل، ولكنني لم أزرها، بالرغم من أنها قريبة من تعز، ولا تبعد عنها سوى 75 كيلومتراً، حسبما قال هؤلاء، وأيضاً، تعرفت إلى الكثير من أبناء تعز أثناء مكوثي للدراسة في المدينة في النصف الأول من ستينات القرن الماضي، وبحيث أحتار فيمن أذكر هنا ومن أترك هناك.

إن أبناء تعز بجميع مناطقها، معروفون بحسن المعشر والذكاء والثقافة وسرعة البديهة، ومنذ الأربعينيات من القرن الماضي، كان لأبناء هذه المحافظة دورهم الكبير والبارز، وبصماتهم الواضحة في تطور اليمن الأسفل والأعلى، وفي تحرير اليمن ونضاله، وبناء حياته الجديدة ووحدته.

وفي سنوات التغيير، التي أطاحت الرئيس علي عبد الله صالح، كان لتعز وشبابها دور ريادي في الثورة التي لم تكتمل، وقدمت عشرات الشهداء، وفي مقدمهم أستاذي وزميلي في عضوية مجلس الرئاسة، الذي وحّد اليمن، الشهيد عبد العزيز عبد الغني، رحمه الله، ورحم الشهداء جميعاً.

لديّ قناعة ويقين أكيدان، أن ما لحق بتعز من حرب شرسة ومدمرة، التي نالت من المدينة وأهلها في حرب 2015، ستتجاوزه، وستدحر الطائفية البشعة، مثلما هزمت الإمامة والإنجليز، وقبلهم الأتراك.. إنها تعز العز يا هؤلاء.

الضالـع

جزء من العقل والوجدان، عرفتها كشجرة شامخة مثمرة تتأقلم مع الطقس، وتتطبع على هبوب العواصف العاتية، فما هزتها ريح وما أضعفتها عاصفة، ولا لان منها غصن رغم رياح الخريف أحياناً، فقد كانت الضالع نقطة الحواجز السياسية الملتهبة بين قوى التشطير، تعارك هذا وتقاوم ذاك، ولم تهُن عزيمتها يوماً أمام الظلم وقوته الباطشة.

قديماً هي خط تماس واحتكاك دائم بين الاحتلال البريطاني والاحتلال العثماني، ثم الاحتلال البريطاني والمتوكلي الهاشمي في ما بعد، رغم محاولات أميرها شعفل وضعها على الحياد، إلا أن الإنجليز أصابهم الجنون والفزع، كانت وكر الرجال البواسل، فها هو أحد أبنائها الأشاوس (الشيخ محمد عواس ـ شيخ قبيلة الأحمدي)، يردي المستشار السياسي البريطاني (ديفي) قتيلاً في في نهاية شهر أبريل من عام 1946م، في ساحة سوق المدينة، عندما حاول إهانته، ما هز كيان القاعدة البريطانية في الضالع وقواعدها في عدن، وعزز ثقة الجنوبيين بقدرتهم على طرد الاحتلال.

في تلك الحادثة التاريخية المشهودة، هاجت مشاعر الناس وتقرحت حلائل الشعر لديهم في المناطق الجنوبية المختلفة، ومنها قريحة الشاعر اليافعي المناضل، الشيخ راجح بن هيثم بن سبعة، شيخ مشايخ يهر، الذي أرسل قصيدة طويلة يهنئ بها الأزارق على الحادثة المشهودة، ومما جاء في القصيدة:

وتهناكم الجودة[2] ويهناكم المـدوح

رحم ذي قتل منكم وفي صيته اعتلى

وعواس ذي سيها وبرَّد بها الجـروح

عليكم سلام الله سلام الجزايلــي

أنجبت «الضالع» قوافل من الرجال الشجعان الآخرين، أمثال عواس، ففي 24 ديسمبر 1950م، قام السيد عبد الدائم بن محسن الجبيلي، بقتل المستر «سيجر» الضابط السياسي ورئيس إدارة المعتمد البريطاني بعدن، والذي حضر إلى الضالع خصيصاً لاعتقاله. ولقد أدى استشهاد السيد عبد الدائم وأحد أصدقائه يومها، إلى نشوب انتفاضة شعبية في الضالع والمناطق المجاورة لها، وتضامن معظم مناطق الجنوب المحتل معها.

واصلت الضالع إنجاب الرجال الأشاوس المقدامين، أثناء اشتداد المعارك من أجل الحرية وطرد المحتل، ومنهم على سبيل الذكر: سيف أحمد الضالعي، محمد أحمد البيشي، علي أحمد ناصر عنتر، علي شائع، قائد مثنى عمر، قائد صالح، ومئات من الرجال الأشداء أمثال أولئك كانوا أبطال حرب التحرير، وجاد المئات منهم بأرواحهم الزكية فداء لحرية الوطن، فقد كان أبناء الضالع في الصفوف الأمامية للقتال ضد الإنجليز طوال مرحلة حرب التحرير الشعبي في جنوبيّ اليمن، التي دامت لأكثر من أربعة أعوام.

لقد تجسد تاريخ الضالع الحديث، بالنضال المثابر مرة أخرى، عندما أصبحت أول المحميات الجنوبية التي تنهي حكم السلاطين والإنجليز، بأن أقيمت فيها سلطة الجبهة القومية بتاريخ 22 يونيو 1967م، وتلتها ردفان

---

[2] الجودة: الشجاعة والبسالة ـ الممدوح: المديح ـ الجزايلي: الجزيل.

والشعيب في نفس الطريق بعدة أيام، وبذلك، بدأ عهد جديد من حياتها، ركبت فيه التقدم نحو العصر الحديث. أن تذكر الضالع، يعني أن تذكر النضال والكفاح من أجل مستقبل أفضل، هكذا جرت العادة التي خلقها أبناء الضالع، بما فعلوه من مآثر، وما قدموه من تضحيات في تاريخنا الحديث، وأبرز أدوارهم تلك، أن ارتبطت جبهة الضالع اسماً وعملاً بجبهة ردفان «مدرسة النضال الردفانية».. فإلى جانب أن الضالع كانت بحد ذاتها جبهة، فإن موقعها القريب في الشمال الغربي من حالمين والشعيب وردفان، جعلها تشكل وحدة نضالية صلبة مع هذه المناطق طوال حرب التحرير.

كما أن أبناء الضالع شاركوا في الدفاع عن النظام الجمهوري الوليد في شمالي الوطن ضد قوى الرجعية الإمامية، منذ اليوم الأول لانطلاق الجمهورية، وأثناء حصار صنعاء وبعد ذلك، وأذكر هنا، أنه عقب عودتي من صنعاء عاصمة الجمهورية الواقعة تحت حصار القوات الملكية في شهر ديسمبر 1967م، وعلى ضوء نتائج الزيارة، كلفت قيادة الضالع التنظيمية من قبل الرئيس قحطان الشعبي، بتشكيل قيادة برئاسة كل من الإخوة: علي عنتر ومحمد البيشي وعلي شائع، بتقديم الدعم المادي والعسكري لصنعاء المحاصرة، بما في ذلك تجميع المتطوعين للقتال وإرسالهم إلى صنعاء. ولقد قاموا بالمهمة على أكمل وجه، كعادة أبناء الضالع دائماً، ليس لمصلحة شخصية أو مظاهر كاذبة، وإنما حفاظاً على ثورة سبتمبر وقلعتها المحاصرة «صنعاء».

لقد ظل أبناء الضالع المناضلون أوفياء للثورة، مستبسلين على طول خط التحرير والبناء، حتى بعد أن أصبحوا ضمن موظفي وكوادر وقيادات الدولة العليا، فقد كانوا من خيرة الشجعان والمناضلين في معارك تصويب مسار الثورة اليمنية من الانحراف.

تعتبر منطقة الضالع، ضمن مجموعة المناطق المتداخلة والمتقاربة: الضالع، ردفان، حالمين، يافع. وهذا التقارب والتداخل تاريخي. فمثلاً، كانت صلة يافع بالضالع في عهد الأجداد (حسب ما كنا نسمع ونحن أطفال)، أن الضالع سوقٌ للأنعام والماشية لكل المناطق المذكورة، كما أن العودة إلى التاريخ الأقدم، تبين أن انتقال الأشخاص والأسر بين المناطق المذكورة، كان حالة مستمرة، إذ تشير بعض التدوينات التاريخية، إلى انتقال بيوت من يافع إلى الضالع، وما أقصده من كل ما ورد، أنه بالرغم من قرب الضالع من (مسقط رأسي)، إلا أنني لم أزرها إلا بعد الاستقلال الوطني عام **1967**م.

زرت الضالع لأول مرة بعد الاستقلال الوطني، وتحديداً بعد حركة **14** مايو **1968**م، المتمردة على السلطة، التي قادتني مع جماعات التيار اليساري، بعد مغادرة جعار خنفر إلى يافع، وإلى التنقل بين أرياف البلاد، وأثناء ذلك، زرت الضالع عدة مرات، حيث تجمع الرفاق من الجناح المعارض في الجبهة القومية، ليبحثوا أحوال البلد، وما يمكن عمله من أجل الخروج من المأزق الذي وقعت به الجبهة القومية بعد تسلمها للسلطة بأشهر قليلة، كانت الضالع ـ حينها ـ مجموعة قرى متناثرة، وبدت لي بيوتها صغيرة الحجم، مقارنة بما كانت عليه بيوت يافع في ذاكرتي، كانت الضالع أكثر هدوءاً وأقل حركة مما توقعت، ولكنها كانت مفعمة بالحيوية بين جدران غرف النضال التحرري، ولا غرابة في ذلك، فقد كان معظمهم أعضاء في الخلايا السرية الثورية.

بعد ذلك، توالت زياراتي إلى الضالع، تارة كمرور إلى مناطق أخرى، أو للزيارة برفقة أحد الأصدقاء، وفي الفترة التي تلت خطوة **22** مايو التصحيحية عام **1969**م، تكررت زياراتي لها، لكن إحدى الزيارات كانت الأطول، حيث مكثنا بها ـ أنا ومجاميع قيادية ـ لأكثر من شهر، وكان ذلك في عام **1976**م، حين عقدت بالمدينة دورة تثقيفية رسمية للمكتب السياسي للتنظيم السياسي

الجبهة القومية – الحزب الحاكم في عدن آنذاك. وكانت الدورة ضمن برنامج من الدورات المماثلة التي حضرها أعضاء المكتب السياسي واللجنة المركزية ولجان المحافظات، وعقدت تلك الدورات الإنعاشية في الضالع وحضرموت ومحافظات أخرى.

وجاءت هذه الدورة مع بدء النقاشات، عن أهمية قيام حزب طليعي من طراز جديد، ومع بدء الإشاعات عن خلاف وجهات النظر تجاه هذه المسألة بين جناح الرئيس سالمين، وجناح عبد الفتاح إسماعيل. وكان من ضمن المشاركين فيها، الأخ علي ناصر محمد، وهو رئيس مجلس الوزراء في ذلك الوقت، ومحمد سعيد عبد الله (محسن)، وهو وزير أمن الدولة، وعلي صالح عباد، وهو رئيس الدائرة التنظيمية للحزب، وكان المحاضرون في الدورة من الرفاق السوفييت الذين جاؤوا خصيصاً لهذا الغرض.

كانت المحاضرات المُلقاة، والتي يدور حولها النقاش، عن النظرية الاشتراكية والفلسفية، والبناء الحزبي، وقضايا الدول المتحررة، وأذكر محاضرة في الفلسفة الميتافيزيقية، وأخرى في المادية التاريخية للبروفيسور د/ فيتالي ناؤومكين، وهو كاتب وصحافي ومحلل سياسي، يتكلم العربية بطلاقة، وله عدة كتب ومؤلفات عن تاريخ اليمن السياسي، وعن سقطرى ويافع، وتاريخ الثورة الوطنية اليمنية، وأذكر محاضرة ليوري الحداد، ومحاضرات أخرى عن العلاقات الدولية، بالإضافة إلى محاضرات في الاقتصاد وعلم النفس والاجتماع. وفيما بدا لي حينها أن تلك المحاضرات كانت تمهد لقيام الحزب الاشتراكي، على الرغم أن السوفييت يشيعون يومها أن اليمن الديمقراطي بلدٌ ديمقراطي ثوري ونامٍ، وأنه بعيد جداً عن أولى خطوات الاشتراكية.

كان برنامج الدورة التي انعقدت في مقر التنظيم السياسي بالمدينة، مكثفاً، يبدأ في الصباح الباكر، وينتهي مع قرب غروب الشمس، تتخلله

استراحات لتناول الغذاء وشرب الشاي، وأحياناً كانت تعقد المحاضرة بشكل جلسة للقات، خاصة في أيام الخميس والجمعة، ومع ذلك، سنح لنا الوقت خلال شهر من الزمن، من التعرف إلى أبناء الضالع وحياتهم اليومية البسيطة عن كثب، وقد تعرفت خلال الدورة على كثير من أبناء الضالع، وزاد إعجابي بصفاء نفوسهم ونصاعة قلوبهم وصدقهم في التعبير عن مشاعرهم ومواقفهم، فهم يحدثونك بكل صدق، ويبوحون لك بما يجول في خواطرهم، وكأنهم قد عايشوك لسنوات، وما جعلني أحب هؤلاء، هو محبتهم للآخرين، وتفانيهم في خدمة المصلحة العامة.

لم تخفت جذوة الضالع في العمل بعد الاستقلال الوطني عام 1967م؛ فبعد أن كان العمل في السنوات الأولى مُنصباً على تثبيت النظام الوطني توجه باتجاه البناء، إذ شهدت مجالات التعليم والصحة والزراعة والعمل التعاوني وشق الطرق، جهوداً حثيثة ومتواصلة، على الرغم من شح ما كان يرصد للمنطقة من أموال من قبل الدولة.

وتواصل مسار البناء هذا بعد قيام الجمهورية اليمنية وفي سياقه، وبعد عدة سنوات، أصبحت الضالع الطريق البري الرئيس بين عدن وصنعاء، عند استكمال شق الطريق الجديد، ما ساهم في نمو وتائرها الاقتصادية.

وقبل عدة أعوام، صارت مدينة الضالع عاصمة محافظة الضالع المستحدثة، وهذا بدوره، مثّل نهوضاً إضافياً للمدينة، التي زحفت مبانيها العصرية في جميع الاتجاهات نحو الجبال والمزارع، إنها مدينة طيبة، قدمت الكثير والكثير من التضحيات من أجل الوطن كله، وهي تستحق، ليس تحويلها إلى عاصمة لإحدى محافظات الجمهورية الاثنتين وعشرين فقط، وإنما تستحق الحصول على مزيد من الاهتمام والرعاية، أيضاً.

كما أن أبناء منطقة «الضالع» يستحقون كل رعاية واحترام، بمختلف فئاتهم، وأقول هنا، بمختلف فئاتهم، ذلك أنني تعرفت إلى كثير منهم في الفترة الماضية داخل الوطن، من مناضلين وقيادات ومواطنين، ولكننا نسينا بعض أبناء هذه المنطقة الطيبين، الذين اضطروا إلى مغادرتها في فترات تاريخية عصيبة، وقد تذكرت هذه الحقيقة أثناء إقامتي في المملكة العربية السعودية، بعد خروجنا من الوطن، إثر حرب عام 1994م، حيث تعرفت على الكثير من أبناء المناطق الجنوبية من اليمن، الذين هاجروا قبيل الاستقلال الوطني وبعده، ومنهم الشيخ عبد الهادي شائف، أحد أمراء «إمارة الضالع»، قبل الاستقلال وجلاء الإنجليز. وكان يعمل عند تعرفي إليه في جدة، مديراً للبنك الأهلي التجاري. وكم سررت بمقابلته والتعرف إليه، فهو يتمتع باللطافة واللياقة والأخلاق الجيدة، وهذه المعرفة الشخصية وما شابهها من حالات التعرف إلى أمراء وسلاطين من أبناء «جنوبي اليمن» المقيمين في الخارج، من المفارقات العجيبة التي عشناها في هذه الحياة.

شهدت محافظة الضالع، كغيرها من محافظات الجنوب، حراكاً سلمياً، بدأ منذُ عام 2006م، ضد نتائج حرب 1994م، التي قادها نظام صنعاء ضد الجنوب، وأصبحت المحافظة، كعادتها، قلعة حصينة من قلاع التحرر وحق تقرير المصير.

وواجهت الضالع حرب 2015، عكس ما واجهت حرب 1994، فكانت المفاجأة من الضالع، وكان الانتصار هذه المرة منها حتى العند وعدن، والأيام تدور وتدور.

المكلا (حضرموت)

«المكلا» مدينة جميلة، مبانيها يغلب عليها لون البياض،
وتتجمع شبه متلاصقة على شاطئ البحر تريد عناقه، والبحر
يلتف عليها، عله يلاقي صديقه الجبل، لكن الجبل حنق منه،
لأن الناس، رجالاً ونساء وأطفالاً،

لا يذهبون إليه، فلا ظل فيه ولا شجر، وهم يعشقون البحر، ويداعبون شواطئه التي تمتد من المكلا على طول بعد النظر يمنة ويسرة، ويحتضنون أمواجه السلسة التدفق، كيف لا يحدث هذا، وحرارة الشمس تلهب كل شيء: البحر والمدينة والناس. ذلك أن عمر الصيف هنا أكثر من نصف العام.

بحكمة فيصل عبد اللطيف الشعبي، الذي طلب من الاتحاد اليافعي بعدن، إرسال وفد من مقادمة يافع لإقناع يوافع حضرموت في الجيش وإدارة السلطنة القعيطية، بتأييد مسيرة الثورة التحريرية، قام وفد يوافع سرو حمير في 1967م، بالسفر إلى حضرموت الساحل، وإقناع إخوانهم قادة الجيش القعيطي في حضرموت، ومقادمة أبناء يافع هناك، بأهمية إنهاء الانتداب البريطاني، وتوحيد حضرموت مع إمارات الجنوب، والتأكيد أن الجميع يؤيدون الجبهة القومية التي جاءت من وسط أبنائهم، لتشكل جمهورية جديدة، احتوت في العهد البائد 23 سلطنة وإمارة ومشيخة، تمتد من المهرة وحتى باب المندب، وتنادي بأفكار الحرية والمساواة والوحدة اليمنية والعربية والإسلامية.

ولم يخالج أبناء حضرموت الساحل، بما فيهم ذوو الأصول اليافعية، شك فيما طرح عليهم، وشرح لهم من توجهات وأهداف خاصة في ما يخص حضرموت، كجزء لا يتجزأ من الجنوب اليمني، وكقسم مكون للأمة العربية الإسلامية، فروح الوحدة متصلة فيهم، فأجدادهم كانوا على رأس جيوش

التوحيد الإسلامية، وآمنوا بدعوتها وأخلصوا لها، وفيهم قال الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم: (رحم الله حمير، أفواههم سلام، وأيديهم طعام، وهم أهل أمن وإيمان)، ولم يؤخذ بالحديث الشريف في الدول الإسلامية اللاحقة، فبعد كل انتصار يذكونه بشجاعتهم ودمائهم، كانوا يتعرضون في معظم الأحيان للتقليل من أدوارهم، وللتهميش والإلغاء، وحدث هذا في القرن العشرين وحتى وقت قريب.

لم تظهر المكلا كمنطقة ذات أهمية في العصر الحديث، إلا في زمن الدولة الكسادية **1115** هـ، التي أضعفتها حربها المتواصلة مع الدويلة اليافعية الأخرى في الشحر (البريكية)، فارتبطت مع آل القعيطي بعلاقة تجارية وبحرية في موطنهم الثاني في حيدر آباد، أغنى إمارات الشرق آنذاك، وتحولت هذه العلاقة إلى مؤازرة ضد آل بريك، ثم تطورت إلى طرد الكسادي ونفيه، ليستقر في جزيرة «زنجبار» (تنزانيا)، وبذلك تأسست الدولة القعيطية سنة **1290** هـ. في المكلا، على الرغم من أن آل القعيطي كانوا قبل ذلك قد اشتروا نصف شبام في الوادي قبل خمسة عشر عاماً. والحقيقة أن أسلوب شراء المناطق، كان شائعاً في حضرموت منذ القرن السابع الهجري، وسار عليه كبار المهاجرين الأغنياء، مثل آل القعيطي الذين هم من أغنياء إمارة حيدر آباد، التي ألحقت بالهند قهراً في عام **1948**م، وآل عبدات الذين كانوا من أغنى العائلات في إندونيسيا، وهناك عدة أسر أخرى مماثلة.

والحقيقة أن الحضارم لا يتعاملون مع أبناء يافع على أنهم دخلاء، بل يعتبرونهم منهم، فعلى سبيل المثال، ما كان للسلطان الجمعدار عوض القعيطي، أن يستعيد الشحر التي احتلها آل كثير، بقيادة السلطان عبد الله بن محسن الكثيري في شهر رجب **1284** هـ، ولمدة ستة أيام، لولا المساندة القوية من قبائل آل تميم والمناهيل الحضرمية، فقد كان آل تميم وعدة قبائل حضرمية،

حلفاء دائمين للقعيطين ضد آل كثير. وقد قال الشاعر الحضرمي المشهور «المعلم عبد الحق» في ذلك مخاطباً عشيرته:

أنتم ويافع كل بادي نقله شله بشله في مجاري سوده
بدنه ولحمه في معاضد فصله من هو الذي يأكل لحم عضوده
لا تحسبوا ما قد تقدم قبله لي بينكم قووا عليه اربوده
ما قد سبق عيمان ذيك الوهله من له طلايب خلفوا موعوده
العار ياهل العار شوذا حله لا حد يبقى في الشنف مجهوده

كما أن كثيراً من المؤرخين يعزون توسيع السلطنة القعيطية في حضرموت الداخل، إلى اعتماد السلطان القعيطي – آنذاك – على وزيره الحضرمي حسين بن حامد المحضار، الذي عرف بدهائه وحكمته وقوة شخصيته، وتأثير مكانته الدينية.

وبحكم خبرة آل القعيطي في مهاجرهم، كانت السلطنة أفضل بكثير من سابقاتها، حيث قدمت الدولة القعيطية الأمن والأمان للناس، الذي ساعد وجود الاستقرار الاقتصادي ونشوء الإدارة والدوائر القانونية، وتحقق بالفعل ازدهار تنموي في زمن هذه الدولة، على الرغم من بعض المناوشات مع الدولة الكثيرية، التي كانت تحدث بين الحين والآخر، وفي مطلع الخمسينيات، وصلت السلطنة إلى أوج نشاطها، وكان آخر سلاطينها، السلطان الشاب المتعلم تعليماً رفيعاً والمثقف (غالب بن عوض القعيطي)، والذي تعرفت إليه أثناء إقامتي في مدينة جدة منذ عام 1994م، وربطتني به أواصر الصداقة والاحترام حتى اليوم، حيث توسعت فيها ملامح العصر من إدارات مدنية وبريد وهيئات قضاء، وبدأت تتوفر حاجات معيشة المواطنين، كالماء والكهرباء والمدارس والمرافق الصحية، وشيدت الطرق التي عبدت بالأحجار (الرصعة)، وكالعادة، لم

تهمل الدولة القعيطية، الحاجة الحضرمية للثقافة، فأقيمت دور الثقافة، وظهرت الصحافة والإذاعة والمسرح.

شهدت المكلا في عهدها القريب جيلين، الأول: جيل السلطنة القعيطية بسلاطينها ووزرائها من السادة، ومنهم آل المحضار وقادتها العسكريون منذ نهاية الستينيات، وحتى أواخر القرن الماضي. والثاني: جيل الثوار، ومنهم الإخوة: علي سالم البيض، حيدر العطاس، وفرج بن غانم، وصلاح منصر السيلي، وعبد الله صالح البار، وصلاح بن حسينون، وخالد باراس، والحاج صالح باقيس، وحسن باعوم، وآخرين قاموا وأمثالهم بقيادة النضال الوطني، ووحدوا حضرموت مع الجنوب، ثم وحدوا الجنوب مع الشمال في **22** مايو **1990**م، وهؤلاء الذين سيسطر التاريخ أسماءهم، جاءوا من بوابة المنطقة الشرقية من اليمن، مدينة المكلا عاصمة حضرموت وموانئها. كما فتحت مطارات ترابية في المكلا وبعض المدن والمناطق الحضرمية.

للمدينة ريادة سياسية أيضاً، فحتى على الصعيد السياسي، كانت حضرموت الساحل (المكلا)، أول عاصمة يمنية بعد عدن، في عهد السلاطين، تسمح بقيام الأحزاب والتنظيمات السياسية، وأعطتهم حرية مزاولة الأنشطة السياسية دونما تعسف. ولذا، فقد تخرج الكثير في مدارسها من علماء في التربية والدين، وفي التاريخ والجغرافيا والطب والثقافة، ومختلف فروع العلوم الأخرى، ومنهم: المؤرخ الأستاذ محمد عبد القادر بامطرف، وعلي بن عقيل، والأستاذ محمد عبد القادر بافقيه، والأستاذ المؤرخ عبد الله الناخبي، وشيخان الحبشي، وغيرهم كثير من هامات العلم والأدب والثقافة، وفي مقدمهم الأديب الكبير علي أحمد باكثير.

وقبيل ظهور الجبهة القومية لتحرير الجنوب اليمني المحتل، كانت هناك أنشطة سياسية في حضرموت، ووجدت أيضاً صحافة نشطة، في ظل وجود

هامش من حرية الرأي والنشاط، أنشئت منذ وقت مبكر، تنظيمات سياسية تحررية مناطقية، مثل: «تنظيم المهرة» و«حزب الرابطة»، الذي وُجد هناك، ثم ظهرت «الجبهة الوطنية الحضرمية» و«حزب الطليعة»، كانت الحركة السياسية في حضرموت نشطة ومزدهرة، ومعظمها كانت مشدودة إلى الجانب الوطني في جنوبي اليمن، وجاء إيقاع نضالها متزامناً مع إيقاع النضال العام لجميع مناطق جنوبي اليمن المحتل، ففي مجرى الانتفاضات الجماهيرية، التي شهدتها تلك المناطق لإقامة سلطة الشعب، وإنهاء الاحتلال البريطاني وحكم أعوانه، قامت سلطة محلية وطنية لحضرموت الساحل في 16 سبتمبر 1967م.

تطورت المكلا وحضرموت عامة بعد الاستقلال الوطني عام 1967م، وأقيمت فيها مطارات حديثة، وخاصة مطار وميناء المكلا، وعُبّدت طرقات ربطت بين حضرموت الداخل وحضرموت الساحل، وانتشرت المدارس والمستشفيات، وأقبلت الفتيات على التعليم، جنباً إلى جنب مع الفتيان، وأُهلت الكوادر في الداخل والخارج، وأقيمت التعاونيات الاستهلاكية والخدمية والزراعية والسمكية.

وكانت حضرموت وحدة لها علاقة بالمركز في عدن من باب السيادة، إذ لم ترسل عدن محافظاً لحضرموت من غير أبنائها سوى مرتين طوال 22 عاماً، المرة الأولى، بعد الاستقلال، حين عُيّن القائد العسكري من أصول يافعية، محافظاً لها، إرضاء ليافع، التي كانت تحكم المكلا وحوالي نصف حضرموت، والمرة الثانية، كانت تعيين محمود العراسي، الذي نقل من عدن إلى المكلا على أساس قرار توزيع الكادر الوطني، وهو من أبناء عدن، والثالثة، بعد الوحدة، تعيين الأخ أحمد عبد الله المجيدي محافظاً لها، وهو من أبناء محافظة لحج.

وبرغم بعض ما حدث من سلبيات أثناء عهد «اليمن الديمقراطي»، إلا أن حضرموت قد أثرت وتأثرت ببقية محافظات جمهورية اليمن الديمقراطية

الشعبية آنذاك. ولكنها حافظت على خصوصياتها وعاداتها الطيبة التي تعكس جوانب إيجابية، ظل الجميع يحبها ويقدرها، مثلاً، لم تمانع الدولة حينها تمسُّك المحافظة بعدم مضغ القات نهائياً، أو بمنع حمل السلاح نهائياً، أو باستمرار الجمعيات الأهلية الخيرية، أو بالدعم الذي يقدمه أبناء المحافظة في الخارج للتنمية خارج إشراف الدولة، وغيره (وهذا ما انهار بعد الوحدة للأسف الشديد!).

كانت محافظة حضرموت ـ التي سميت بعد الاستقلال بالمحافظة الخامسة ـ على الدوام، ترفد العاصمة عدن بالكوادر المؤهلة والإمكانات الطيبة التي تملكها دون سواها من المحافظات، وكان هؤلاء يلقون كل ترحيب، ولا يواجهون أي اعتراضات ظاهرة أو باطنية في تعييناتهم، وقد أصبحت أهم المحافظات على الإطلاق، مع اتساع الاستكشافات النفطية فيها وظهور النفط.

بدأت زيارتي إلى المكلا وحضرموت في بداية السبعينيات، عندما عينت مديراً عاماً للتعاون والإصلاح الزراعي، فجئتها للاطلاع عن كثب على كيفية معالجة الأوضاع الزراعية والسمكية، وللبدء بإقامة التعاونيات الزراعية والسمكية والخدمية، ولكن تلك الزيارة جاءت متأخرة، لأنه وقتها كان قد جرى تخريب للسياسات التعاونية في المحافظة، وكان ذلك بفعل نزق وتطرف بعض المسؤولين وميلهم نحو التصرفات اليسارية الصينية، ومن تلك التوجهات، هدم بوابة المكلا التاريخية، ومحاولة هدم مساجد بحجة إنهاء الشعوذة. وكانت تلك التصرفات ستتم، لولا تدخل العاصمة عدن حينها، ورفضها الحازم لمثل هذه الأفكار من الأساس، ولكن تمت تصرفات مماثلة، مثل تأميم مؤسسات بقرار فردي، ومنها دار السينما الوحيدة في المكلا، وقد قام الرئيس سالم ربيع علي، بإقالة عدد من المسؤولين في حضرموت، ونقل بعضهم إلى محافظات أخرى، ومع ذلك، فقد واصل هؤلاء تصرفاتهم الفوضوية، وارتبطت بأسمائهم

عدد من الأعمال المتطرفة، مثل التطبيق المشوه لتوجيهات العاصمة عدن، ومحاولة بناء الكومونة (كنسخ للتجربة الصينية)، وملاحقة علماء الدين، وما شابهها.

وأنا أورد الأمثلة الآنفة الذكر، كمثال على أن السلوكيات المتطرفة والتصرفات المتشددة لبعض القيادات التي حدثت في ذلك العهد، كان فيها تمادٍ وتطاول وشطحات شخصية من تلك القيادات، بعضها تحدث كأن تقول القيادة اعمل رطلاً، فيقوم هو بعمل عشرة أرطال، وبعضها الآخر تحدث، لأن من يفعلها بتطرف، يعتقد أنه بذلك ينال مزيداً من رضا القيادة عنه، أما الفريق الثالث من هؤلاء، فكان يقوم بتلك الممارسات، وهو بالفعل يعاني أشبه ما يكون مساً من الجنون، لأننا لم نعرف حينها شيئاً اسمه العلاج النفسي.

بالنسبة لزائر المدينة من أبناء يافع، فهو لن يشعر بالغرابة، فإن لم يكن قد تعرف إلى المدينة من الحكايات التي لطالما شرحها له الأجداد عن جمال العيش في المدينة، فلا شك أن له أقارب أو معارف من العشيرة من آل المرفدي والناخبي أو اليزيدي أو السعدي وآل بن غرامه وآل الخلاقي وآل البكري، وغيرهم كثر. عشرات العائلات اليافعية التي امتزجت بحضرموت عيشاً وعملاً وثقافة ومصاهرة، صارت ترتبط بها وبالمنطقة، مصيراً حاضراً وماضياً ومستقبلاً.

الحضارم ويافع انصهروا مع بعضهم عبر أكثر من **2000** عام، فاليوافع هنا والحضارم أحد مكاتب/ مناطق يافع العشر الأساسية، وأنا شخصياً أنتمي إلى هذا المكتب/ المنطقة، وفي يافع، يقال لي «حضرمي»، وكذا لكل من ينتمي إلى مكتب (الحضرمي/ أو الحضارم) في يافع. وعندما صادف وخضت انتخابات مجلس الشعب الأعلى في دورته الثانية عام **1979**م، جئت للانتخابات إلى حضرموت، وكُتب لي النجاح بعضوية المجلس في إحدى دوائرها، ولكن كنت والدكتور فرج بن غانم قد نلنا أصواتاً أقل من الأصوات التي

منحها الناخبون لملكي عبد الله حسن بن سبعة اليافعية (الزوجة الثانية للأخ علي سالم البيض)، والتي تنتمي إلى إحدى الأسر اليافعية في حضرموت، وكانت عندئذ عضوة في لجنة الحزب الحاكم المركزية، ومن أنشط العناصر النسائية العاملة في حضرموت وفي العاصمة عدن، ولم تغضبنا أنا والدكتور فرج نتائج فرز الأصوات، لأننا أولاً، نؤمن بحق المرأة ومشاركتها. وثانياً، هي ابنة المكلا، وأهل المكلا أدرى بشعابها. ولكني بيني وبين نفسي، قلت: آه منكم يا أهل حضرموت ـ حضارم ويوافع ـ أنتم تحبون اليافعي الحضرمي، ولا تحبون اليافعي العدني.

مدينة (المكلا) مبعث سعادة، ليس في العصر الحديث، بل ومنذ العهود القديمة؛ فمن هذا الميناء (المكلا) القديم، بل وميناء الشحر الشهير، انطلقت السفن الشراعية، لتحمل راية الرسالة المحمدية إلى بقاع الأرض، وخاصة إلى آسيا وأفريقيا والهند، وكان للحضارم الفضل الكبير في التبليغ بها، وهداية ملايين الناس إليها، وما زالت آثارهم باقية، ووجودهم ملحوظ في إندونيسيا، والهند، وماليزيا، وسنغافورة، وإثيوبيا، وكينيا، وتنزانيا وبلدان كثيرة، وما زالوا فيها باقين. ولأنهم أدخلوا الإسلام إلى تلك الأرض بحد الإقناع، وليس بحد السيف، فقد ظل الإسلام في تلك البلدان وازدهر ولم يتراجع، وحيثما دخل الإسلام ليس بحد السيف بقي، وخرج بحد السيف أيضاً أينما طالت الحروب، وخاصة في الأندلس.

ومن مميزات حضرموت، أنها والفن صنوان لا ينفصلان، فلا أحد يسمع هنا عن تحريم أو تجريم للغناء عبر التاريخ، وعندما غنى الفنان العربي فهد بلان الأغنية الحضرمية، التي لحنها الفنان الحضرمي محمد جمعة خان:

يا بنات المكلا.. يا دواء كل عله

وسقا الله.. رعى الله.. والمحبة بليه

كانت الأغنية الحضرمية قد انتشرت، ونالت من الرضا والإعجاب ما نالته، وأصبح الشاعر حسين أبو بكر المحضار، والفنان أبوبكر سالم بلفقيه، ثنائياً كبيراً، يتربعون في زمننا الحاضر على قمة نشر اللحن والشعر الحضرمي، هم والفنانون الحضارم الآخرون، أمثال الدكتور عبد الرب إدريس، ليس في جنوبي الجزيرة، وإنما في شرقيّها وشماليّها وغربيّها. وفي أرجاء الوطن العربي الكبير.

لو أن الأمر اقتصر على الفن والأدب والثقافة، أو حتى الاقتصاد، لاعتبرته عادياً، ولكن، للمكلا ولحضرموت دور لا يقل فعالية أو مكانة في السياسة عن سابقيه. عجيبة وجميلة هي المكلا وحضرموت، التي لا تحمل السلاح في مواجهة أحد، ولكنها منذ عهود التاريخ القديم وعهد الإسلام، وفي وقتنا الحاضر، تصنع السياسة وتقود البلدان.

عجيبة وجميلة المكلا وحضرموت، لأنها تحمل سلاح الفكرة الخلاقة، بتواضع أبنائها، والتواضع هو سمة من سمات العلماء والقادة، وهي لا تحمل الفكرة وتحولها إلى واقع ملموس فقط، بل وأول من تتجاوب مع الفكر والأفكار إذا كانت صائبة وسليمة، وعندما تتحول الفكرة إلى مستبد، يتقمّصه شيطان اللذة والاستمتاع بالسلطة، على حساب حرية الإنسان، تكون حضرموت أول من يتمرد عليها.. إذن، لا عجب أن أصدرت صحيفة "الشرارة" الصادرة عن تنظيم الجبهة القومية في المكلا، في أوائل عام **1968**م، إعلان التمرد الحزبي والفكري (وليس العسكري)، عن أول سلطة للجمهورية الجديدة في جنوبيّ اليمن. ولا عجب أن تسقط المكلا أيضاً أثناء حرب عام **1994**م قبل عدن، دون جاسوس أو متعاون يذكر.

أجل، لا عجب في أن المكلا التي صدر منها إعلان إعادة «جمهورية اليمن الديمقراطية» في **21** مايو **1994**م، وبعد أن تم دمجها وتوحيدها في إطار الوحدة الجديدة الجمهورية اليمنية في **22** مايو **1990**م، لم تساند أصحاب

الإعلان، كونها ضد الحرب والاقتتال وضد الإعلان. فالمكلا بقادتها الذين لهم فضل في توحيد حضرموت وإمارات الجنوب، ولهم فضل توحيد اليمن، الذي لا يمكن لأحد أن ينكره، وهذا ما هو محسوب لهم، وإن كان البعض يحاول أن يلقي عليهم عدداً من الأخطاء التاريخية، ما يمكن أن تلقي عليهم، لأنهم لا يقدمون على الأفعال إلا بعد تفكير وتمحيص شديدين، وعادة لا يسهمون في عالم السياسة بالسلاح أو ثقافة العنف، ولكن مساهمتهم مساهمة فكرية أو سياسية أو حلول نظرية سليمة، وهنا تكون الفكرة والكلمة أقوى فعلاً على التغيير والتقدم من أي فعل قد تحدثه رصاصة البندقية.

توالت زيارتي للمكلا بعد عودتي من الخارج، حيث شاركنا في الاحتفالات التي أقيمت في المدينة بمناسبة الذكرى الخامسة عشر لقيام الجمهورية اليمنية، وقبلها زرتها وزرت الطريق الجديد الذي يربطها بالمدن الساحلية الممتدة حتى «الغيضة»، عاصمة محافظة المهرة، شاهدت مدينة الشحر وغيل باوزير، وغيرها من مدن الساحل القريبة من المكلا، وقلت لنفسي: كم تغيرت الحياة كثيراً هنا وتقدمت، وأتمنى أن يحدث مزيد من التغيرات الإيجابية التي تخدم الإنسان وتقدمه.

في حرب **1994**، لجأ إليها نائب الرئيس علي سالم البيض، وبعض القيادات السياسية والعسكرية من عدن، وبعد انتصار «إرادة الشر»، غادروا منها إلى عمان ودولة الإمارات العربية المتحدة، أما في حرب مارس **2015**، فلم تنطلق منها رصاصة واحدة تحت مُسمّى أن الجيش الموجود فيها موالٍ للشرعية التي يدعمها التحالف العربي، وأن تنظيم «القاعدة» هو المسيطر على المدينة وضواحيها.

ألم نقل لكم، إنه العقل الحضرمي المثقف والمتواضع؟.

حضرموت الداخل (الوادي)

سيئون – شبام – تريم – القطن – حريضه – دوعن، أسماء لها وقع سيمفوني خاص، تتردد أصداؤه في فؤادي وقلبي، فأنتقل إليها عبر الزمان والمكان والتاريخ، لكي أسمعها تشدو بلحن الدان الحضرمي والموشحات الدينية،

والمساجلات الشعرية التي تطربني وتطرب وجداني، وكذا الأغاني العاطفية التي تنعش الروح بنسائم الحب العليل، وعندما تصبح فيها وبداخلها، تجد أنها ربوع لها وقع خاص في نفسك، فحتى مواسم الصيد في حضرموت، مغرية كمتعة، وممتعة كخلوة إلى الحدود، والهدوء والسكينة عند ممارسة القوس الحضرمية المتنوعة، مغريان أيضاً، وخاصة عند طقوس شرب الشاي الأحمر المقطر بالسماور البخاري.

إذا قدِمت إلى هذه المدن وسط وادي حضرموت، فهي ترجع بك حقباً إلى الوراء، فترى المآثر التاريخية ممثلة بتجسدات عديدة، بمئذنة مسجد المحضار، ومآذن وبنايات المساجد الأخرى بمدينة تريم، البالغ عددها نحو ثلاثمئة وستين مسجداً وجامعاً. ترى فيها حضارة الإسلام وفنه المعماري والزخرفي جلياً واضحاً، وتمتلئ المدينة بالمخطوطات التاريخية الهامة والنادرة، التي تعد مآثر موجودة في «مكتبة الأحقاف» بمدينة تريم، بشكل ورق جلدية وخشبية، وما حواه بيت آل الكاف ودل على حنكة الرجل الحضرمي على فنون النقش والزخرفة والبناء البديع، وما تراه العين في شبام من مبانٍ طينية تزيد أعمارها على 500 عام، وهي ناطحات السحاب في الصحراء، التي سبقت غيرها، والتي تعد أقدم وأجمل ناطحات سحاب طينية على وجه الأرض، ولكل هذه الآثار التي أبدعها الإنسان الحضرمي، أثر جميل معطر بعبق التاريخ، له فعل

السحر الواضح في الجذب السياحي لآلاف من عاشقي التراث والتاريخ، الذين يأتون من مختلف البلدان.

وكيف لا يأتي السياح إلى هنا، وقد ذهب الحضارمة إليهم في بلدانهم في مختلف أصقاع الأرض على سفن الزمان الشراعية، وبواخر التاريخ المحملة بعلوم الدين وقواعد التجارة والمعاملات والبخور والعطور، وروائع الإسلام من عدل ومساواة وتسامح وعطف وإنسانية؛ فما من أسرة هنا، إلا ولها صديق أو حبيب في بلد بعيد، ذهب إليه منذ سنوات، أو سافر إليه والدها منذ عقود من الزمن، أو هاجر إليه الأجداد منذ قرون بعيدة.

هي حضرموت، التي مارست الملاحة بإتقان قبل كريستوفر كولمبس، وتعلمت وعلّمت الآخرين فنون التجارة وأسرارها، قبل ظهور البورصة، ومارست الأممية بأن ربط الحضارم بين البلدان المتباعدة، قبل أن يفكر بها ماركس وإنجلز ولينين.

حضرموت مدرسة عالمية، لا يأتي إليها السياح من جميع أنحاء العالم فحسب، بل ويجيء إليها المهتمون والباحثون والعلماء من كل البلدان المتقدمة، ليتعلموا منها ومن الإنسان الحضرمي، كيف استطاع أن يؤثر في هذا العالم، وأن ينشر الإسلام بدون سيف أو بندقية أو مدفع، وبدون تلك الجرائم التي ارتكبها المستعمرون الهولنديون والفرنسيون والبرتغاليون والإنجليز والدنماركيون والإسبان، خلال تاريخهم الاستعماري الطويل الدامي.

في زيارة للقائد والمفكر العربي اللبناني كمال جنبلاط . وكان معه كل من الإخوة محسن إبراهيم، أحد زعماء حركة القوميين العرب وأمين منظمة العمل اللبناني، وتوفيق سلطان من الحزب التقدمي الاشتراكي لمدينة سيئون ومدن وادي حضرموت، وسيئون عاصمة الوادي، أو مديرية سيئون، تسمى أيضاً مديرية الأحقاف، وهذا الاسم الأخير له دلالة تاريخية عميقة، فأرض

الأحقاف، جاء ذكرها في القرآن الكريم. وحدد بعض العلماء العرب، الأحقاف، بأنها الثلث الأسفل من الربع الخالي، ووسطه صحراء، وثلثه الأعلى سموه بالدهناء، وعرّفوا الأحقاف بأنها (الأرض خضراء غير المغطاة بالرمال).

في تلك الزيارة التي تمت في مطلع السبعينيات – وكنت قد رافقته بها – أعجب الأستاذ كمال جنبلاط، يومها، بما شاهده في سيئون ووادي حضرموت كثيراً، إلى حد أنه خصص جزءاً من وقته للتأمل، لكي يتمتع بشاعرية المكان ورومانسية الوجود فيه، والمعروف عن القائد العربي كمال جنبلاط، الذي عرف بهدوئه وحكمته وحنكته، أنه كان يحب الانفراد بنفسه والتأمل بعمق، لكي يستمتع بما حوله، إذا كان يستحق التأمل، بحيث يبدو أحياناً كفيلسوف صامت جامد على الطريقة البوذية.

وفي «قصر العمودي» بسيئون، وعند مغيب الشمس وشروقها، كان يتأمل أشجار النخيل الباسقة، ويتلذذ بسكونها الحالم. وكان التأمل ليلاً مدهشاً، يربط الإنسان العاشق بجمال الوادي وبالكون والفضاء اللا متناهي، حتى تمتزج روعة المكان مع صفاء الروح، مثلما كان كمال جنبلاط في مثل تلك الأوقات والحالات بالوادي، يبلغ ذروة التأمل، ويتساءل حينها معنا بصوته الأجش: أين دمون امرؤ القيس؟!.. أين دمون امرؤ القيس؟ .

وعندما زار تريم وشبام (مدينة ناطحات السحاب) في الصحراء، واصل تأملاته العميقة الطويلة، وبعد إحداها، إذا به يقول لنا: لقد فهمت الآن، لماذا نزلت الأديان والرسالة المحمدية على صحراء الجزيرة العربية.

زرت وادي حضرموت عدة مرات، بعضها كان بالطائرة، وهنا، تصل إلى جمال وادي حضرموت وأنت مهيأ النفس لتقبل الإحساس بالجمال والعيش الحسن، أما الرحلات عبر البر من المكلا إلى سيئون، فهي المشقة بعينها، حيث لم يكن يوجد قديماً سوى طريق ترابي وعر وشاق، يتطلب السفر يوماً كاملاً

بالسيارة، إلا أن جمال الوديان في حضرموت وطراز عمرانها وسماحة أهلها الودودين، تجعلك تنسى ذلك التعب الذي تخلفه على كاهلك الطريق الترابية الوعرة، واهتزاز السيارة آلاف المرات خلال الطريق.

توجد حالياً نحو ثلاث طرق وأكثر تربط حضرموت الساحل، بحضرموت الداخل، والطريق الرئيسة تبدأ من المكلا، فالريان، إلى أقرب منطقة تسمى شعب الملح، ثم حوره، ثم شبام، فسيئون، وهناك طريق أخرى تبدأ من المكلا مباشرة، تلتقي مع الأولى قرب حوره، أما الطريق الثالثة، فتبدأ من الشحر، وعموماً، فإن شبكة الطرق صارت تغطي معظم أنحاء حضرموت، ويعود الفضل في مدها إلى الدولة، وجهود رجال الخير من أبناء حضرموت في الداخل والخارج.

وكما هو الحال في حضرموت الساحل، يوجد في أنحاء الوادي، الكثيرون من أبناء يافع، الذين تعود أصولهم إلى منطقة يافع بمحافظة لحج وأبين، وخاصة في القطن ودوعن (بالمناسبة الأخ صالح منصر السييلي عضو المكتب السياسي للحزب الاشتراكي واحد منهم)، ذلك أن تاريخ اختلاط الحضارم ويافع، يعود إلى ألفي عام مضت. وعلى سبيل المثال، فإن نصف العشر من ضريبة المحاصيل الزراعية في يافع بني قاصد، كلها (نصف يافع)، كانت تجمع سنوياً، وترسل إلى عينات هنا في الوادي، على الرغم من بعد المسافة ووعورة الطريق، وقد ظلت هذه العادة/ الواجب، تجاه (الولي مولى عينات)، متبعة حتى الاستقلال الوطني.

وتشير المدونات التاريخية، إلى أن اليوافع قدموا منذ أمد بعيد جداً إلى وادي حضرموت، ضمن انتقال السكان من منطقة إلى أخرى، الذي كان طبيعياً في تلك العهود القديمة، وفي كتب التاريخ المعاصر، ظهر اليوافع كجنود مع السلطنة الكثيرية، أو كحكام وعسكر مع السلطنة القعيطية، وهذا يخالف

ما يعتقده بعض ممن يجهلون التاريخ، والذين ينظرون إلى أن قدومهم إلى هنا، جاء بشكل غزوات عسكرية وحروب، بل إن السادة العلويين استخدموا اليوافع في الدفاع عن مناطق الوادي ضد الاعتداءات الداخلية والخارجية، فنجح هؤلاء حيناً، وفشلوا حيناً آخر. والأمثلة كثيرة على النجاح، ولكنني قرأت مثلاً سلبياً؛ فمن الأمثلة – هنا – ما يتندر به المؤرخون عن «دولة بني مقيص»، بحيث إنها صارت مثلاً شعبياً عن قصر العمر، إذ يقال في مثل هذه الحالة (مثل دولة بني مقيص)، والواقعة، أن السادة العلويين في الوادي، دفعوا المقدم اليافعي عمر بن عبد الله بن مقيص الأحمدي، إلى إنشاء دولة، اشتروا لها مقراً، هو «حصن مطهر»، وتم ذلك، لكن المقدم بن مقيص كان دائم التردد والاضطراب، حتى تمرد عليه رجاله، وبذلك لم تدم دولته سوى عامين من الزمن، ولكن التندر بهذا المثل، لا يعكس دور الجماعات اليافعية العسكرية، بل أخذ به لنشوزه؛ فقد كان اليوافع هم الذراع العسكرية للسادة الحضارم، حتى خارج حضرموت في بعض الأحيان، عند نشر الدعوة الإسلامية الحنيفة في كثير من البقاع، وخاصة في الهند وجنوب شرق آسيا، إذ إنهم برعوا في فنون القتال وأعمال الاستبسال، والأهم من ذلك، أنهم اندمجوا في المجتمع الحضرمي، وصاروا ضمن نسيجه الاجتماعي، كما نرى ذلك حتى الآن.

في هذا السياق؛ فإن الحقيقة هي أن مؤسس الدولة القعيطية، عمر بن عوض، وُلد في وادي حضرموت، في منطقة «لحروم»، وعاش لفترة في شبام، ثم هاجر إلى الهند، التي سبقه إليها أخواه عوض وعبد الله، وقد تزوج هناك (منطقة تاجفور)، امرأة هندية ثرية، وحصل على ثروة طائلة منها، وأنجب منها خمسة أبناء، ثم عاد إلى حضرموت، وبدأ توغل السلطنة القعيطية نحو داخل حضرموت (الوادي)، عندما اشترت الحوطة (الريضة) قرب القطن، ثم نصف شبام عام 1274 هـ، ودارت معارك وأحداث كثيرة حينها في الوادي، ما بين انتصارات

وهزائم، وتقدم وتراجع، حتى حاول القعيطيون التقدم نحو مدينة «سيئون»، إلا أن آل كثير ألحقوا بهم هزيمة قاسية في تلك الواقعة. وقد جاء في قصيدة للشاعر الحضرمي «المعلم عبد الحق»، عن تلك الهزيمة التي تكبدتها فيالق السلطنة القعيطية، ونورد منها الأبيات التالية:

رمتهم سهوم الدهر رشقاً فأصبحت ... منازلهم الغرى العداء يقسمونها
تشتت نظام اليافعي بعدما انقضت ... لياليه وافتكت غلايق رهونها
فآه على تلك الحصون الذي اعتلت ... واغلابها دون الثريا ترونها
وآه على تلك المصانع وحكمها ... فما تحسب أن الدهر أن يخونها
وآه على تلك الديار التي ابتنت ... ومن كل جانب غلمة يحرسونها
فما يقبل العقل أن أمراً يصيبها ... ولا ظننا أن العدى يملكونها
وفيها الرجال الصابرون على البلاء ... إذا ما انطلقت نار الفتن يرشرشونها
إذا هاج وهاج الوطاس ترى لهم ... همم عالية والمشكلة يدهمونها
فآه عليهم وينهم وين باسهم ... وآه على الحفات، لي يحكمونها
وأين البيارق والمرافع والطوس ... وأين الطبالات ذي يضربونها
وأين المسوح المحليات الذي زهت ... على أكتافهم صنعة حسن ينبلونها
بها يدحنون الخصم في كل هيجة ... وإكرامهم للخصم ما في بطونها
أين الجنابي ذي شطف رهف حدها ... أين النمش ذي دوب يسقلونها
وأين التلد والنوبة الآن أينهم ... وأين الشجاعة لي بهم يوصفونها
فما أرى الموزع خرب أصل ساسه ... واجتثت الشجرة ويبست غصونها

ولعلنا أوردنا الأبيات أعلاه، أولاً لروعة وصف أجواء الحروب السلاطينية، التي سادت في وادي حضرموت في تلك العهود الغابرة. وثانياً، لأهمية هزيمة آل كثير لآل القعيطي، تلك التاريخية، كونها مثلت بداية عهد

جديد للوادي، ولسائر حضرموت؛ فمنذ ذلك الوقت، وجدت سلطنتان/ دولتان في حضرموت: «السلطنة الكثيرية» في حضرموت الداخل، و«السلطنة القعيطية» في حضرموت الساحل. وقد استمر هذا الوضع قائماً حتى بعد توقيع السلطنتين لمعاهدات حماية مع الاستعمار الإنجليزي، وحتى جلائه من عدن وكل مناطق الجنوب التي يحتلها.

تطور وادي حضرموت كثيراً، بعد قيام السلطة المحلية الوطنية فيه في مطلع شهر أكتوبر 1967م ونيل جنوب اليمن استقلاله بعد حوالي شهرين من ذلك التاريخ، وقيام الجمهورية الوطنية، تغيرت أحوال الوادي، شقت شبكة من الطرق، وبعضها معبدة، أصبحت مدن الوادي أكبر بكثير مما كانت عليه بالأمس، من حيث شوارعها وطرقاتها ومستشفياتها ومدارسها ومطارها الحديث وتجاوزت محنة سلبيات الانتفاضات الزراعية، التي حدثت في السبعينيات، والتي أخذت طابع العنف في مصادرة الأراضي الخاصة بكبار الملاك بالقوة، وتوزيعها على الفلاحين بدون قانون، ورغم أنها قد فعلت تغيراً في الواقع الاجتماعي، وأنصفت فئات اجتماعية، إلا أنها فشلت في إحداث تنمية اقتصادية فاعلة، فبينما كانت العلاقات شبه الإقطاعية تحكم العملية الإنتاجية الزراعية قبل الانتفاضات، فقد أدخلتهم هذه في مجرى المشاركة السياسية والإنتاجية، ومع ذلك، فإن الأهداف والأحلام المرجوة لم تتحقق، وبات واضحاً أن لا شيء أفضل من التغيرات التي تتم بناء على قانون مستمد من دستور يقره المجتمع، ويُلجأ إليه عند الخلاف، بل والأفضل، إحداث تغييرات وفقاً لقانون التطور الطبيعي، أي أن تُجرى عملية التطور ذاتها، بلا تدخل أو تعسف لها.

وتطور الوادي أكثر عندما قامت الجمهورية اليمنية، خاصة أن الحقول الشرقية للنفط، تقع في نطاق الوادي الإداري، أو على مقربة منه، وكذلك حدث تسارع في نمو الوادي، حين فتحت الأبواب أمام المهاجرين من أبنائه

للمشاركة في جميع المجالات الاقتصادية، بعد الوحدة اليمنية، وفي اتجاه ثانٍ لعملية النهوض، استضافت سيئون بعد تحقيق الوحدة، الرئيس علي عبد الله صالح، ونائبه علي سالم البيض، وأعضاء مجلس الرئاسة لليمن الموحد (الجمهورية اليمنية)، وكنت أحدهم، وكذا، رئيس الوزراء ورئيس مجلس النواب، بمناسبة افتتاح حقول نفط المسيلة، التي ترفد اليمن بالنفط الخام.

وفي زيارتي الأخيرة لوادي حضرموت، جئنا مع الرئيس علي عبد الله صالح، وهذه المرة كان السفر إليها براً، من صنعاء ـ مأرب ـ الصحراء ـ سيئون. وكان ذلك قبل شق وسفلتة طريق الوحدة الصحراوي، الذي ربط صحراء الرملتين بوادي حضرموت الزراعي المشهور، صنعاء ـ مأرب ـ صحراء رملة السبعتين ـ العبر ـ حصن بن طويرق ـ حصن سنان ـ شبام ـ سيئون.

أصبح الوادي ورشة عمل لا تهدأ ولا تستكين، ويلعب القطاع الخاص دوراً ريادياً في تشغيل هذه الورشة وزيادة نتائج عملها، سواء في النمو العمراني أو الصناعي أو الزراعي، وما زاد من تكاتف هذه الجهود، هو ربط سيئون بالعاصمة بطريق حديث، وافتتاح مطارها الجديد قبل عامين، وعند زيارتك لسيئون وبقية مدن الوادي، ستشهد الجهود المبذولة والإنجازات المحققة، وسترى أن الوادي ينهض بسرعة وهمّة نحو التقدم، الذي عرف به أبناء حضرموت، أينما حلوا واستقروا.

العَبْـر

«العبر» موقع جبلي وسط الصحراء، يقع في أطراف شبوة إلى جهة حضرموت، تسكنه قبائل قليلة العدد، لوفرة المياه به، مقارنة بالأراضي الصحراوية المحيطة، وكان قديماً ممراً للقوافل المسافرة من حضرموت إلى أقصى شمالي اليمن ونجران وجيزان،

وأصبح في التاريخ الحديث من المناطق المتنازع عليها بين الإدارة البريطانية في عدن، والمملكة المتوكلية الهاشمية في شمال الوطن، حيث دخله الإنجليز لأول مرة في عام **1939**م، ما أثار احتجاجات حكم الإمامة في صنعاء آنذاك، باعتبار العبر منطقة يمنية، وقد أصبح بعد ذلك مركزاً حدودياً، كان يفصل حدود حكومة السلطنة القعيطية وحكومة الإمام الهاشمية، وهو يبعد عن منطقة الشروره بنحو **50** كيلومتراً.

وبعد قيام النظام الجمهوري في شمال الوطن، ثم في جنوبه، تحول موقع العبر إلى مركز للقوات المسلحة، وأصبح المدخل الرئيس إلى وادي حضرموت ومحافظة شبوة من جهة، مناطق مأرب والجوف، وهو أحد منافذ التواصل مع المملكة العربية السعودية، وفي أيام الحكم الشطري، كان هذا المعبر يدرّ من الدخل على عدن من جمارك وعوائد، ومن تجارة بيع السلاح الفردي أيضاً، أكثر من **100** مليون دولار سنوياً، ولعب دوراً هاماً في توفير العوائد للخزينة العامة في عدن، خاصة عندما شحت المساعدات العربية، وتناقصت تحويلات المغتربين.

وعندما قُتل الرئيس إبراهيم الحمدي، وقُتل بعده بأشهر قليلة الرئيس الغشمي، اشتد الصراع على السلطة في الجمهورية العربية اليمنية، فبعد تولي

الرئيس علي عبد الله صالح الحكم بوقت وجيز، قام الحزب الناصري (المؤيد للرئيس السابق إبراهيم الحمدي)، بحركة انقلاب فاشلة، يدعمه فيها عدد من القبائل، وبالذات قبائل بني سريح القريبة من صنعاء العاصمة، لكن الرئيس علي عبد الله صالح، تمكن من إحباط تلك الحركة الانقلابية وإفشالها، ما أدى إلى هرب الآلاف من قبائل بني سريح وعناصر من الحزب الناصري، التي دبرت الانقلاب أو أيدته، إلى منطقة العبر الحدودية بين الدولتين اليمنيتين الشطريتين، كما هرب إلى منطقة العبر، بعض ضباط الجيش، بما فيهم قائد الانقلاب، نصار حسين، وعندها فتحت السلطة في عدن الحدود لأولئك الهاربين، وتم تجميعهم وإيواؤهم بمركز العبر، وفي المناطق المحاذية له، وكلّفتُ من قبل المكتب السياسي للتنظيم السياسي الجبهة القومية، ومع الأخ علي أحمد ناصر عنتر، وزير الدفاع آنذاك، بالذهاب إلى العبر لهذا الغرض.

هناك التقينا بقادة القادمين الهاربين من شمال الوطن، وبعد القيام بمهمة التفاهم معهم، وترتيب أوضاعهم، عدنا إلى عدن، ومعنا عدد من قادتهم، الذين تم استدعاؤهم إلى عدن للجلوس مع قادة الحزب والدولة، وأذكر منهم الأخ الشيخ مجاهد القهالي، والأخ يحيى داحش، وعدداً من مشايخ بني سريح، وبعد أن أُعطيت لهم كميات من السلاح الشخصي، ودعم عيني، طُلب منهم العودة إلى مناطقهم في شماليّ الوطن، وقد شكل هؤلاء ومعهم آخرون، فيما بعد، تنظيم «الجبهة الوطنية»، التي كانت الفصيل الأقوى والمؤثر في المناطق الوسطى في شمال الوطن، وبقيت كتنظيم سياسي حتى قيام الوحدة اليمنية.

بعد تحقيق الوحدة اليمنية، قرر الرئيس علي عبد الله صالح، أن يقوم برحلته عبر تلك المناطق، التي كانت في يوم من أيام حكمه، مشتعلة ضد نظامه، وحدد الرحلة عبر الصحراء (رملة السبعتين) إلى حضرموت، مروراً بمأرب، ثم صافر، ومنها إلى العبر، التابع لمحافظة حضرموت، وشملت هذه الرحلة

. ضمن المناطق التي مررنا بها أو استرحنا بها قليلاً . زيارتي الثانية إلى العبر، فخلال تسع ساعات، وصلنا العبر بطريق الصحراء المفتوحة، ومن العبر وصلنا معسكر الخشعة، ووصلت بين مئات السيارات التي تشكل موكب رحلة الرئيس، خمس سيارات فقط، إحداها بقيادة الرئيس، وأخرى يقودها أحد البدو «دليل رحلتنا»، حتى وصلنا المعسكر، أما بقية سيارات الموكب، فقد تاهت في الصحراء، ووصل بعضها بعدنا بساعات، وبعضها الآخر وصل اليوم التالي.

عند وصولنا إلى المعسكر، سأل الأخ الرئيس، الرجل البدوي . دليل رحلتنا مازحاً، لأن الرجل البدوي لا يعرف من نحن، بأن قال له: إيش رأيك، هل أجيد السياقة بالصحراء؟؛ فرد عليه بتلقائية البدوي: والله يا هذا إنك تقود السيارة أفضل من المهربين؛ فضحك الرئيس وضحك الجميع، وبعدها عرّفه بنفسه، وصرف له مضخة مياه صغيرة، حسب طلبه.

اليوم، أصبح السفر إلى العبر ميسراً، بفضل طريق الوحدة الذي يربط مأرب بحضرموت، فبعد أن تصل إلى العبر، تشق طريقك إلى حصن بدر بن طويرق، ثم حصن سنان، ثم شبام، فسيئون، فقد عُبدت الطرقات وضاقت المسافات وقلَّت المشقات، إلا من تقطع عدد قليل من البدو أو تهريب الممنوعات . في بعض الأحيان . ليكتسبوا رزقهم بهذه الطريقة التي تخالف شرع الله والعادات والنخوة العربية الأصيلة في هذه المناطق، إن هذا السلوك يمثل بقايا القديم المتخلف، الذي يحاول العيش في ظل الجديد المتحضر، الذي يزحف عليه بقوة. حيث تكاد هذه الظاهرة أن تنتهي تماماً.

وقد اكتمل خروج تلك الصحراء المترامية الأطراف إلى المدنية، بشق طريق العبر – الوديعة، البالغ طوله ما يقارب الـ**100** كيلو متر، حيث تتواصل هناك في منفذ العبر – الوديعة، الذي تقوم فيه المنشآت على قدم وساق، بعد أن تم افتتاح المنفذ الحدودي الهام رسمياً في العام الماضي **2008**م. وتهدف تلك

المنشآت والأعمال المختلفة هناك، إلى أن يكون منفذ العبر ـ الوديعة، معبراً رئيساً بين اليمن والسعودية، ينافس المعبر الرئيس الحالي معبر «حرض» بمحافظة الحديدة، بل إن التوجيهات الرسمية للبلدين الشقيقين، تتجه نحو أن يكون منفذ العبر – الوديعة، منطقة تجارية بين البلدين، تتوفر فيه جميع الخدمات، من مبانٍ ومراكز إدارية وتعليمية وصحية، وغيرها، كما يُخطط لأن يكون لهذا المنفذ الجديد، ليس منفذاً برياً كبيراً وهاماً فحسب، بل ومنفذاً جوياً أيضاً.. فهنيئاً لتلك المنطقة من الصحراء، أن تكون جزءاً من المدنية والحداثة.

شبوه (عتـق)

«عتق» مدينة عريقة، كانت وسطاً للأحداث التاريخية الهامة منذ قديم الزمان، وفي عهود دول حضرموت وسبأ وحمير، وحتى الآن، وكانت حتى أربعة عقود من الزمن، تعتبر من أطراف البلاد، وحدّها الصحراوي البعيد قبل عام 1990م، وظلت بعيدة كذلك بعد العام المذكور، لأن الوصول إليها صعب جداً، وعدم السفر إليها أفضل – كما يقول المثل.

والآن، وبعد تشييد الطريق الموحدة التي تربط العبر/ مأرب، أصبحت هذه المدينة تتوسط المسافات، وخاصة وهي العاصمة لمحافظة شبوة، التي تتألف مما كان يسُمّى سلطنة العوالق العليا، وعاصمتها نصاب، ومشيخة العوالق العليا، وعاصمتها الصعيد، أما ما كان يسُمّى سلطنة العوالق السفلى، وعاصمتها أحور، فإن معظمها يتبع محافظة أبين حالياً.

ظلت عتق منطقة شبه عسكرية، وقاعدة خلفية تزداد نشاطاً تعبوياً إذا اشتدت الأوضاع وساءت ما بين الجزء الشمالي والجزء الجنوبي، أو بين الأخير والمملكة الشقيقة، أو حتى عندما يطرأ خلاف داخلي بين أجنحة السلطة في جنوبي اليمن أيام التشطير، إذ إنه عندما يعتمل أحد أسباب الشر تلك، يتحول مطارها العسكري المتواضع إلى ترسانة من الأسلحة الخفيفة وغير الخفيفة، ما جعل وزارة الحكم المحلي – آنذاك – تفكر في نقل مقر العاصمة منها إلى نصاب، وكانت الوزارة لا تفصح عن السبب الحقيقي جهاراً، بل تعلل طرح فكرة العاصمة البديلة للمحافظة، في أن عتق لم يكن بها من المرافق المدنية أي شيء يذكر، وكذلك لا تتوفر بها مرافق خدماتية للحكومة؛ ففي السبعينيات، كان ضيوف المنطقة من المسؤولين القادمين من العاصمة عدن وغيرهم، غالباً ما

ينزلون للسكن في مواقع الشركة الروسية للتنقيب عن النفط، لعدم وجود دار حكومية لإيوائهم في المدينة.

زرتها مرات عديدة منذ الاستقلال الوطني في عهد المحافظ فيصل العطاس، والمحافظ علي شايع هادي، والمحافظ أحمد مساعد حسين، والمحافظ محمد علي القيرحي، وغيرهم، وفي الفترة الأخيرة، وبعد ظهور النفط، تغيرت ملامح وجه المدينة، وحدثت بها طفرة انتعاش، خاصة حين صارت العاصمة لشبوة.

ولا شك أن الذكريات عن المدينة وحالها طوال الأربعة العقود الماضية، طيبة ومسرة للنفس، ذكريات تبدأ بوضعها عند خروج الإنجليز من عدن والمحميات، ثم تنمو هذه الذكريات وتتسع، ببناء أسس ومقومات الحياة الجديدة لأبناء المنطقة بعد ذلك، ومع ذلك، فإن المدينة تحمل أيضاً ذكرى أليمة، حين حيكت بها مؤامرة قتل الدبلوماسيين في الثلاثين من أبريل **1973**م. ففي ذلك المطار (مطار عتق)، شحنت في طائرة الدبلوماسيين التي امتلأت بخيرة القيادات في وزارة خارجية جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية، بالمتفجرات، وهؤلاء الذين كانوا على متن الطائرة، قادمين من عدن، ثم مغادرين إلى محافظة حضرموت، لم يكونوا مقتنعين بتوجهات القيادة، وعدد من قادة الدولة آنذاك، وهذا ما ظهر خلال «مؤتمر الدبلوماسيين»، الذي انعقد في عدن خلال الأيام القليلة الماضية، قبيل الحادث، والذي حدد ضمن برنامجه، القيام بجولة استطلاعية للمشاركين، نتيجة لوجودهم خارج الوطن منذ مدة، وكنت على موعد مع الموت في ذلك اليوم، نظراً لاشتراكي في مؤتمر الدبلوماسيين في عدن، إلا أنني نجوت بفعل غضب وزير الخارجية آنذاك، الأخ محمد صالح مطيع، من حضوري مؤتمراً يناقش السياسة الخارجية، كوني كنت أشغل منصب سكرتير اللجنة السياسية للزراعة والإصلاح الزراعي، التي يرأسها الرئيس سالمين، حينها، رفض مشاركتي

في الذهاب في هذه الجولة الاستطلاعية مع الدبلوماسيين، وكنت أود المشاركة فيها، خاصة أن عدداً من الدبلوماسيين أصروا على مرافقتهم، بحكم صداقتي معهم.

ضمن البرنامج الاستطلاعي، تحركت الطائرة من عتق، متوجهة إلى حضرموت، عصر يوم **30** أبريل، وكم كان تفجر الطائرة فاجعاً بعد مغادرتها لعتق بمدة قصيرة، فجميع من كانوا فيها من خيرة شباب الوطن، ومن خيرة شباب الثورة ومرحلة التحرير، جميعهم كانوا على قدر عالٍ من الثقافة والخبرة القيادية، وبعضهم أعزاء على قلبي كثيراً، وبالأخص، أحمد صالح الشاعر، سفيرنا في موسكو حينها، ومحمد ناجي شجاع، القنصل العام في إندونيسيا، عبد الباري قاسم، رحمهم الله جميعاً.

تفجرت الطائرة في الجو، وهوت أجزاؤها لتصطدم بالجبال، وتحول من بداخلها جميعاً إلى أشلاء وحطام متناثر، وسجل التاريخ عملية دموية شنيعة بحق إخوة ورفاق درب كفاح، من أجل الحرية والاستقلال، كان الشهداء في الحادثة المدبرة، أكبر عدد من أبناء الثورة القياديين، ممن تم التخلص منهم من قبل قيادة الدولة الوليدة دفعة واحدة، وذلك كان من أكبر الأخطاء التاريخية لتلك القيادة، التي رسخت بفعلها الشنيع هذا، أسلوب التصفيات الجسدية للمخالفين في الرأي، بدلاً من التفاهم والحوار والنقاش، والوصول إلى حلول تخدم الجميع والوطن كله.

كانوا نحو عشرين شهيداً، هم: محمد صالح عولقي ـ وزير الخارجية، سيف أحمد الضالعي ـ السفير في بغداد، عبد الله بن سلمان ـ السفير في لندن، عبد الباري قاسم ـ أحمد صالح الشاعر ـ السفير في الصومال، فضل أحمد السلامي ـ المندوب في الجامعة العربية، محمد ناجي شجاع ـ القنصل في إندونيسيا – القائم بالأعمال ببيروت، عبد الرحمن حسين – مستشار مجلس الوزراء، نور الدين

قاسم – مدير بوزارة الخارجية، سعيد شحبل – مدير بوزارة الخارجية، مهدي صالح جعفر – مدير بوزارة الخارجية، قاسم الكعبي – سكرتير ثالث بوزارة الخارجية، عبد القادر السلامي – سكرتير ثالث بالوزارة، عبد الكافي محمد عثمان – مدير بالوزارة، عبد الرزاق نعمان – سكرتير بالوزارة، محمد أحمد البيتي – مستشار الوزارة، أحمد فضل بن دحمان – مدير بالوزارة، محمد هيثم عبد الله – مدير بالوزارة، فيصل مشعبة – مدير بالوزارة، عبد الله خليل – مدير بالوزارة، إضافة إلى أربعة شهداء آخرين، هم: الأديب الكبير محمد عبد الولي، الطيار أحمد حسين، مساعد طيار أحمد حسين بيحاني، مهندس طيار إقبال علي أحمد.

ليلتها، كان البحث جارياً في جبال عتق، وفي اليوم الثاني «أول مايو»، أُعلن الخبر مساءً، عم الحزن في أرجاء جنوب اليمن وشماله، وبالذات في عدن، التي عاش وناضل فيها هؤلاء الشهداء، كانت عدن ليلتها ترفع الأعلام، وتضيء الشوارع بمناسبة عيد العمال، عيد الطبقة العاملة اليمنية، التي قيل إنها تحكم البلاد والعباد، بينما العمال كانوا لا يفقهون مما يجري شيئاً، كانوا يستمعون حينها إلى الموسيقى والأغاني الحماسية في حفل كبير في ساحة الاتحاد العام للعمال بمدينة المعلا، كان الجميع فرحين بالحفل الصاخب، الذي قدم إليه معشوق الجماهير الفنان السوداني محمد وردي، وإذا بالخبر الصاعق الأليم، يقع كالبرق العاصف على أجواء عدن، توقفت الموسيقى، وصمت الغناء، وإذا بجميع الناس والعمال الذين كانوا منذ لحظات سعداء يضحكون ويمرحون، قد أصبحوا في حال ذهول، يصرخون ويبكون.

وقد يسأل متسائل: من المسؤول عن موت هؤلاء؟، والإجابة هي أن المسؤولية تقع على المنفذين المباشرين للعملية، والقيادات العليا في الحزب والدولة، التي أعطتهم التوجيهات لتنفيذ ما جرى، ذلك لأن مثل هذه العملية لم

تناقش رسمياً في الهيئات الشرعية للتنظيم السياسي، الجبهة القومية، أو مجلس الوزراء، بل كانت تتم بمشاورات خاصة بين أشخاص من القيادات. وهذه العملية الإجرامية، كان سبب إقرارها من قبل مثل هؤلاء الأشخاص، هو الخوف من القيادات الدبلوماسية، التي كان لها ثقل واضح في الساحة الوطنية، والخوف مما يمكن أن تلعبه من دور في المستقبل، ولهذين السببين، لقي هؤلاء الرفاق الشهداء حتفهم في حادث سقوط الطائرة في الجبال القريبة من عتق.

أعود إلى مدينة عتق، وما عاشته في تلك المرحلة الصاخبة، فقد زرتها لفترة أطول ثانية في عام **1983**م، حين قام الرئيس علي ناصر محمد، بحشد الكثير من الاستعدادات العسكرية، لإجراء مناورة عسكرية في جزء من المنطقة الوسطى، وتحديداً في ناحية عتق، وكان هناك مدعوون عسكريون من الخارج لحضور تلك المناورة، وأعلاهم شأناً، النصير الاستراتيجي الإثيوبي الرئيس منجستو هيلا مريام، الذي كان صديقاً مقرباً للرئيس علي ناصر محمد، وحليفاً له.

وأذكر – يومها – أنه حين كنا نحن نشاهد المناورة العسكرية الكبيرة تلك، سألني أحد الإخوة في المنصة، لا تسعفني الذاكرة لذكر اسمه الآن: هل المناورة العسكرية رسالة إلى الخارج، ولمن؟، أم أنها رسالة إلى الخصوم المحتملين من الرفاق في قيادة الحزب والدولة؟، هكذا، كانت التصورات والنظرات إلى ما يدور في بعض الأحيان في دولة الجنوب الديمقراطية الشعبية، فهي في تلك المرحلة كانت تائهة بين المصلحة العامة، التي تستدعي تحسين معيشة المواطنين، من جهة، وما يستدعيه عدم الثقة بسبب الخلافات المتوقعة بين رفاق السلطة. حيث إن عدداً من قادة الحزب والدولة، لم يكونوا يهنؤون بنومهم، لأنهم خائفون من رفاق لهم في القيادة منافسين لهم، أو قد يكونون يتربصون بهم.

وأنا أورد مثل هذا الحديث، لأن هذه الحالة المُعاشة ـ حينها ـ كانت سبباً في حادثة/ جريمة طائرة الدبلوماسيين المشهورة.

بيحـــان

كان الشريف حسين أحمد الهبيلي، هو آخر من حكم هذه المنطقة الزراعية الصحراوية، وفي الحقيقة أنه لم يكن السلطان، بل كان نائباً للسلطان، فالسلطان هو ولده الشريف صالح بن حسين الهبيلي،

الذي تولى السلطنة وعمره سبع سنوات، بناء على طلب والده وموافقة جده على ذلك. وقد اغتيل الشريف حسين بعد ذلك بثمانية أعوام في المناطق المحاذية من شماليّ الوطن. وقد أصبح الشريف صالح بعد ذلك سلطاناً محنكاً، ووزيراً للداخلية في حكومة الاتحاد الفدرالي، لما سمّي باتحاد إمارات الجنوب العربي.

بيحان منطقة عُرفت بواديها الخصب، الذي قامت عليه قديماً مدينة «تمنع» عاصمة مملكة قتبان التاريخية القديمة، ويبدأ وادي بيحان من أطراف المناطق القريبة من البيضاء، ويتجه إلى الجنوب الغربي، مكوناً في امتداده أطول وديان محافظة شبوه، وأكثر مساحاتها خُضرة.

سياسياً، كانت بيحان واقعة في نهاية المناطق الجنوبية المواجهة لمدينتي حريب ومأرب، اللتين كانتا تتبعان شمال الوطن، وكانت هاتان المنطقتان متناقضتين في الاتجاه، فحريب بعد استقلال عدن، كانت قاعدة خلفية لانطلاقة الملكيين في حربهم مع الجمهوريين، أما بيحان، فقاعدة مهمة لانطلاقة الجمهوريين ضد الملكيين، وبالذات، عندما كانت الأوضاع في حدود المواجهة ودخول اليمن الجنوبي سنداً مهماً لدعم الجمهوريين.

ومع أن هذه الحقيقة من الحقائق التاريخية، إلا أن من المفارقات، أثناء وجود الحكم الاستعماري البريطاني، أنْ قامت قوة مسلحة من قوات الجمهورية

العربية اليمنية، بالهجوم على بيحان، والاستيلاء عليها بتاريخ 1963/1/29م، ما جعل القوات البريطانية تهاجم تلك القوة الجمهورية وتطردها من المنطقة في نهاية شهر فبراير من نفس العام.

لم تهدأ بيحان بعد أن أنهت حكم السلاطين وإقامة سلطة محلية وطنية جماهيرية، بدأت في 18 سبتمبر 1967م، وبعد أن نالت البلاد كلها استقلالها الوطني، بل إنها دُفعت دفعاً لتصبح في خضم الأحداث العاصفة، بدخول نطاق المعارك في البلق والبليق في مطلع سنة 1968م، حين تدفقت إليها عشرات الفرق من المليشيا الشعبية، التي كانت جيشاً شعبياً احتياطياً، وفصيلين من جيش جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية، وذلك للقيام بهجوم على مدينة حريب، التي كان بها فلول من الملكيين، حتى تم تحريرها وتقديمها هدية للجمهورية العربية اليمنية.

ولكي نكون منصفين مع أنفسنا، ومع المدينة وأهلها، فإنه، وبعد مغادرة الأشراف لها، وإحلال الآلة العسكرية فيها، وتحولها إلى أشبه ما يكون بقاعدة عسكرية أمامية باتجاه الحدود، لم تكن أحسن حالاً من أيام الأشراف، باستثناء شق الطريق إليها من مرخة، وحالياً شق طريق حريب – مأرب، أما المنجز الثاني، فكان بناء المدارس، وبالذات لأبناء البدو الرُحل، ولكن بيحان شهدت عدداً من المآسي أيضاً، ومنها قيام عدد من المسؤولين المحليين، العسكريين والمدنيين آنذاك، بتدبير قتل الشيخ الغادر والشيخ الهيال، وعدد كبير من مشايخ وأعيان خولان المرافقين لهما حينما جُمعوا داخل خيمة عسكرية واسعة، وضعت في كل من زواياها متفجرات الألغام وأصابع الديناميت الناسفة، ليتم بعد ذلك، وعند حضور الضيوف المذكورين، نسفها، ما أودى بحياة 60 شخصاً من الشيوخ والمرافقين لهم، ممن كانوا موجودين في الخيمة أثناء حدوث الانفجار، وتمت هذه العملية بخدعة خبيثة ومكيدة مدبرة لهؤلاء الشهداء، بينما

كانوا قادمين إلى بيحان في طريقهم إلى عدن، من أجل التفاهم هناك مع مسؤولي «اليمن الديمقراطي»، للقيام بتحرك جماهيري ضد نظام الرئيس عبد الرحمن الإرياني في صنعاء «الجمهورية العربية اليمنية».

لماذا تمت هذه العملية؟ وما الهدف منها؟ أكانت منسقة مع السلطة في شماليّ الوطن أو بعض أجنحتها؟ أم أنها كانت ضمن حملة هوجاء سادت في الأعوام القليلة التي تلت الاستقلال، وهدفت إلى تصفية الأخضر واليابس من المشايخ في الجنوب، وكانت فرحة المتعطشين للدماء، حين وجد مشايخ من شمالي الوطن، فسنحت فرصة إلحاقهم بأمثالهم من أبناء الجنوب؟ .

والحقيقة، أن مشايخ خولان الذين راحوا ضحايا الحادثة المذكورة المؤلمة، لم يتوقعوا قطعاً حدوث ما حدث، لأنهم قدموا بنيّة التعاون مع دولة الجنوب حينها. ولكن ثقتهم بالمدينة، قد تكون أعمتهم، فلبيحان تاريخ طويل من الأمان في لجوء القبائل اليمنية إليها، سواء من جنوبي الوطن أو شماله، بحكم موقعها على الحدود بين الشطرين، وأذكر هنا، أنني قرأت ذات مرة، أن الشاعر علي ناصر القردعي، قد زارها حاكماً ولاجئاً، ومنها مع عبد ربه الحميقاني وآل عواض طلعوا إلى يافع، طالبين النجدة في حربهم ضد الإمام، وهذه الواقعة قيلت عنها الأبيات التالية:

يا ذي الشوامخ ذي ظهرتي ماشي على الشارد ملامة

قولي ليحيى بن محمد با نلتقي يوم القيامة

لقد كان لجوء القبائل من منطقة إلى أخرى، تجنباً لوقع الظلم عليهم، خاصة عندما يكون من سلطة لا ترحم، أمراً مشروعاً، وهذا ما تقره القواعد القبلية السائدة في اليمن آنذاك، وكان الحظ الأوفر للهاربين من ظلم الدولة شمالاً والدولة جنوباً، بعد أن حلت الحكومات محل القبيلة لمناطق الحدود الشطرية حينها، وبيحان كانت واحدة منها.

زرت بيحان لأول مرة أثناء عملي مديراً عاماً للتعاون والإصلاح الزراعي، للتعرف إلى مدى إمكانية تطبيق قانون الإصلاح الزراعي في المنطقة، ورأيت فيها ما لم أتوقعه، وادياً خصباً ومزارع تزرع البرتقال، وكانت تصدره إلى المستعمرة (عدن)، وأثناء الزيارة، حملنا بجعبتنا وجهة نظر، فحواها تطبيق قانون الإصلاح الزراعي على طريقة مصر العربية أو سوريا حينها، ولكننا وجدنا وجهة نظر أخرى، بدأ العمل بها. وكانت وجهة نظر متطرفة، ذات ميول صينية حينها. وفحواها إقامة «كومونات» زراعية، وهي تجمعات يعيش فيها المزارعون، وينتجون ويتقاسمون كل شيء، وهو شكل أشبه من حيث الفكرة بالتجمعات الشيوعية أو اليهودية الجماعية. وتم ذلك، بأن قام بعض المسؤولين بجمع مجموعة ليس لها ارتباط بالعمل الزراعي، ويسمونهم (الشحذ)، وإعطاءهم السلاح والغذاء، وصرفت لهم الأدوات الزراعية، ثم أخذوا إلى مزرعة (النقوب) في بيحان، وهي من أجمل المزارع وأخصبها لإقامة أحد (الكومونات)، كما هو الحال في الصين، التي هي عكس البلدان الاشتراكية التي أقامت مزارع تعاونية تدريجية في البناء الزراعي ومزارع دولة.

مكث هؤلاء أسبوعين هناك، ينعمون بما وفر لهم، وبزيارات عدد من المسؤولين في المحافظة لهم وبعدها، ما كان من أولئك، وعلى رأسهم قائد المجموعة، إلا أن استأجروا سيارة شحن كبيرة، وحملوا ما استطاعوا من الغذاء وغيره، والتحقوا بجماعاتهم الأخرى الموجودة بمدينة لودر، وهم من نفس الفصيلة والوضع، تاركين تجربة وأفكار المسؤولين المحليين الذين تبنوها وراءهم تهوي على نفسها في بيحان، فلما علم الرئيس سالم ربيع علي بالأمر، صرخ وعاتب من ساندوا هذه التجربة، وأزاح بعضهم.

وفي تلك المدينة الوادعة «بيحان»، تعرفنا إلى بعض رجالاتها من آل فاطمة، وهم أصهار لأهل الوالي بيافع، وآل صالح القرعة، وعلى رأسهم زميل

النضال والعمل الطلابي، د. محمد صالح قرعة (عضو مجلس الشورى الحالي ومحافظ شبوة السابق)، ووجدنا هناك أسماء وأُسراً مشابهة لبعض الأسر في يافع، مثل علي بن علي، وعبد الله عمر العياشي. وغيرها كثير، يجعلك تفسر أسباب وجود صلات تاريخية في تنقل الأسر أو نزوحها من منطقة إلى أخرى، فيما بين المناطق اليمنية، لأسباب عديدة، من بينها الحروب والمطاحنات القبلية، والكوارث الطبيعية والجفاف، وغيرها من الأسباب.

كانت بيحان ونواحيها والصحارى المحيطة بها، على موعد مع ثروة النفط منذ نهاية السبعينيات، لكن مع تحديد كل موعد، كانت تحضر هي ولا تأتي بواكير تلك الثروة. وعند اكتشاف النفط في الصحارى الممتدة بمحيط المدينة، وبالذات في وادي (جنه) في نهاية الثمانينيات، صدق الوعد، ولكن ثماره، كالعادة، جاءت بطيئة بطيئة، ومن ثماره وصول الطريق الُمعبّد إليها، كإثبات أن المسؤولين في الدولة قد أدركوا أهميتها، وهذا الاهتمام المحلي والمركزي بالجوانب الاقتصادية من حياتها، تعدى إلى المجالات الجادة والحثيثة، ليصل إلى مجالات لم يهتم بها أحد من قبل، ومنها، على سبيل المثال، مجال الآثار، التي نهش منها الباحثون الإنجليز والهولنديون ما نهشوا في الأزمنة السابقة، ومع ذلك، فما زال في المدينة والمناطق المجاورة لها الكثير والكثير منها.

مرخـة

«مرخة» مجموعة قرى تقع بين وادي بيحان (شمالاً)، ووادي نصاب، وعاصمتها «الأوسط»، وتبعد عن عتق عاصمتها محافظة شبوة بنحو **150** كيلومتراً، كانت هذه المنطقة قبل الوحدة اليمنية وقيام الجمهورية اليمنية، مقسمة بين شمال اليمن وجنوبيه.

وتعد هذه المنطقة من المناطق الهامة في تاريخ اليمن القديم، إذ يعتقد بأنها كانت عاصمة لمملكة أوسان القديمة، ويستند هذا الاعتقاد إلى عدد من آثار الحصون والأسوار المنتشرة على جوانب الوادي، ويقدر طول امتداد وادي مرخة بمسافة تصل إلى ثمانين كيلومتراً، ولهذا، يقسم البعض المنطقة إلى مرخة العليا ومرخة السفلى، والوادي عموماً عبارة عن مجرى مائي، تصب مياهه في البحر العربي.

كلفت بزيارة مرخة سنة **1973**م، لمتابعة إنشاء مزارع في هذه المنطقة الخصبة، وهي وادٍ ممتد، تنتشر فيه مزارع الذرة وأشجار النخيل ومزارع تربية الماشية والنحل، وفيه حفرنا آباراً وأقمنا مزارع تجريبية، في محاولة لجذب السكان للعمل الزراعي والمنظم، وإبقائهم في مواقعهم السكنية القائمة، بدلاً من احتمالات الانتقال إلى مناطق أو مدن أخرى. لكن ذلك لم يكن ذا جدوى كاملة، بسبب زحف سكان مجموعة قرى مرخة إلى المدن التي تتوفر فيها فرص كثيرة للعمل والحياة. وهكذا، تم ترك أرياف المنطقة تتدهور، بفعل التدهور البطيء للزراعة، لقلة الفلاحين الذين يملكون الخبرة والدراية بأمور الزراعة، نتيجة لانتقال قسم منهم إلى المدن، وإلى المهجر أيضاً، وهذه قضية معقدة، وقائمة حتى اليوم في أرياف اليمن عموماً، نظراً لمغريات المدينة، من سهولة الحصول على الماء والكهرباء، والعمل المريح، والتعليم بكامل مراحله، ووسائل

العيش السهل الأخرى، هذا في الوقت الذي انعدمت فيه مثل هذه الوسائل في مناطق الريف.

وها هي قرى منطقة مرخة التي تتبع حالياً مديرية نصاب في السنوات الأخيرة، تنعم بما لم تحظَ به بعد الاستقلال الوطني عام 1967م مباشرة، وذلك أن شُقّت الطريق المعبدة الحديثة عبرها إلى بيحان/ نصاب، فأصبحت معبراً منتعشاً بالمحال التجارية والمحال التي توفر مجمل الخدمات، وممراً مليئاً بحركة المسافرين والعربات والسيارات القادمة والذاهبة.

تعرفت أثناء زياراتي العدة لمرخة في تلك المرحلة البعيدة، إلى عدد من الإخوة، خاصة من المسؤولين في إدارة الزراعة وإدارة المأمور، والذين لا تسعفني ذاكرتي الآن لتذكر أسمائهم، كما تعرفت إلى عدد من أبناء مرخة من آل الجنيد وآل النسي وغيرهم، وجميع بيوتها وعشائرها أصيلة النسب والتاريخ، وقد قدمت مرخة أبرز رجالها الذين قاموا بأدوار نضالية وسياسية في دعم النظام الجمهوري في شماليّ الوطن، وتحقيق الحرية في جنوبيّه على امتداد عقود من الزمن.

الحوطة (لحج)

تقع مدينة الحوطة على بعد حوالي **30** كيلومتراً شمال عدن، وهي عاصمة محافظة لحج، وتتوسط دلتا تبن الزراعية الخصبة، التي تزرع الخضار والفواكه ومختلف أنواع الحبوب، وتشتهر ببساتينها الغناء التي تجود بأرقى أنواع الفل والكاذي، وقد تغنى الشعراء كثيراً بجمال بساتينها،

ومنها: الحسيني البستان الخاص بشاعر الحب المخضرم الشاعر الأمير أحمد فضل القمندان، الذي صار مشهوراً، ليس في اليمن، بل وفي العالم العربي، لكثر ما تغنى به، بل إن طبيعة لحج الخضراء وبساتينها، قد انعكست في سلاسة شعر وعذوبة أبناء لحج، ومثال على ذلك، قول «القمندان»:

تُبت لا«الشيخ» با اسكنها ولا شا «المعلا»[3] بس توبه وبا احلا
ما اسكن إلا الحسيني قط ما اطلع «مشلا» ما نبا الدار تخلا
حيثما الضبي ينظرني بعينين كحلا والقمر قد تجلى
حيثما جاليات الهم بالكاس تجلى ثم أولى فأولى
قمري البان في البستان رفرف وعلا سيب القلب يصلى
يا عجيبي على الغصن الرطب فين ولى بالخريف المدلى
غصن في الروض والرمان به عر تدلى طعنة الطرف نجلا

عرفت لحج تاريخياً، عاصمة لسلطنة العبادل «السلطنة العبدلية»، التي ظهرت على مسرح الأحداث بقوة، بعد خروج الإمامة المتوكلية من (قلعة

[3] الشيخ والمعلا: مناطق في عدن – با احلا: سوف لن أكرر ثانية، سأتوب – مشلا: قرية بمنطقة العرائس في لحج – تخلا: تخلو – عر تدلى: أتحداك أن تقترب متليا مثل ثمر الشجر.

الرعارع) سنة 1114هـ. وحظيت هذه السلطنة بدعم سلطنتي يافع (القارة) و(المحجبة)، ذلك أن العبادل هم أنساب آل هرهرة وآل كلد، وبعض المصادر التاريخية، تشير إلى أن بيوتاً لحجية لها صلة بيافع، مثل آل السلامي وآل العزيبي، يعودون إلى مكتب كلد، وآل العبدلي إلى مكتب اليزيدي.

ولهذا ارتبطت لحج العبدلية عبر التاريخ بعلاقات المحالفة والتعاون والمساندة العسكرية، خاصة أثناء تعرض عدن، التي كانت تتبع السلطنة العبدلية، لمحاولات الغزو المستمرة، وقد اعترى السلطنة الضعف والوهن في بعض الحقب التاريخية، إلا أنها حافظت على نفوذها في لحج وعدن، إلى أن جاء الاحتلال البريطاني، الذي لم تعترف به السلطنة، رغم فشل مقاومة أهلها للكابتن (هنس) قائد الأسطول البريطاني، الذي احتل عدن عام 1839م، وبعد مقتل فضل العبدلي على أيدي آل بن عطية، بسبب خلافات بين القبيلتين، ولسوء العلاقة آنذاك مع يافع، ولبلوغ الصراعات بين السلطنات في المحميات الغربية إلى المدى الذي أدى إلى انفراد الاستعمار البريطاني بكل سلطنة منها على حدة، اضطرت السلطنة العبدلية إلى أن تعترف للإنجليز بوجودهم في عدن، نظير مبلغ من المال.

كانت بريطانيا تتعامل مع سلطنة لحج بتميز، وبطابع خاص، لتأمين مصالحها في عدن المستعمرة، لذا، شهدت لحج تنظيماً إدارياً وسياسياً متميزاً من بين كافة السلطنات آنذاك، مشابهاً إلى حد كبير، التنظيم الذي كان قائماً في حضرموت، وعلى وجه الخصوص، في السلطنة القعيطية ـ المكلا ـ واكتسبت سلطنة لحج أهميتها أيضاً، في كونها الحاجز بين الشمال والجنوب، الأمر الذي أضفى عليها أهمية استراتيجية، وأدخلها في دائرة الصراع الدولي على منطقة جنوب شبه الجزيرة العربية، ومدخل البحر الأحمر.

دلتا تبن الخضراء ونواحيها، موطن السلطنة العبدلية، أما آخر سلاطينها، فكان فضل بن علي العبدلي، الذي ولّاه الإنجليز السلطنة بدلاً من سلطانها الثائر علي عبد الكريم العبدلي، الذي فاجأه الإنجليز بدخول قوة مسلحة مكونة من أربعة آلاف جندي مدججين بالسلاح والعتاد والعربات المدرعة، وكان ذلك في عام 1958م حين قام الإنجليز باحتلال (الحوطة) عاصمة السلطنة اللحجية، ولم يستطع حرس السلطنة المتواضع مقاومتهم، ما برهن على أن الإنجليز لا يلتزمون بمعاهداتهم مع السلطنات، وكان قد سبق ذلك تأكيد آخر على هذه الحقيقة، حين هجم الأتراك على لحج عام 1915م واحتلوها، ولم يحرك الإنجليز ساكناً، بل آووا سلطانها في عدن لاجئاً سياسياً، إلى أن خرج الأتراك نتيجة لهزيمتهم في الحرب العالمية الثانية عام 1918م، ولعل مواقف الإنجليز المتخاذلة في لحج في العامين المذكورين، هي التي حدت بالسلاطين والمشايخ في جنوبي اليمن إلى دخول «رابطة أبناء الجنوب العربي».

لم يجار السلطان اللحجي الثائر الإنجليز بالموافقة على قيام الاتحاد الفيدرالي للمحميات، فما كان من بريطانيا إلا أن عزلته وسط نفوذه المستمد من روح المقاومة الوطنية، التي تجسدت آنذاك بوجود أحزاب سياسية، مثل حزب رابطة أبناء الجنوب العربي، الذي كان أحد قادته، كان تنظيم «رابطة أبناء الجنوب العربي»، يدعو لتحرير الجنوب، وله تأثيره الواضح في مناطق مثل يافع والعوالق ولحج، والتي قامت فيها انتفاضات مسلحة في أواخر الخمسينيات.

من جانب آخر، فقد كان لي شرف التعرف شخصياً إلى السلطان اللحجي الثائر «علي عبد الكريم»، أطال الله عمره، ولكن في زمن لاحق، أثناء إقامتي في (مدينة جدة) المملكة العربية السعودية، حيث التقينا في عدة مناسبات مختلفة، وأذكر أنه من ضمن النقاشات التي دارت بيننا، نقاش حول

رسالة الدكتوراه التي تحصل عليها الشيخ سلطان القاسمي، حاكم إمارة الشارقة، والتي كانت حول «عدن وسلطنة لحج»، وأذكر أن السلطان علي عبد الكريم، قال لي يومها: "كنت أتمنى على سمو الشيخ سلطان، الاتصال بي، لكي نقوم بتصحيح بعض الأخطاء التي وردت في الكتاب، في مجموعة أسماء أخذها من كتب ومصادر إنجليزية".

ازدهرت الحياة الثقافية في لحج في الفترة التاريخية المذكورة من حكم سلاطين لحج الأحرار، وعند الحديث عن رموز لحج الثقافية، يجب التطرق إلى رمزها الثقافي والغنائي، الشاعر العاشق أحمد فضل القمندان، الذي أرسى الدعائم الأولى لحركتها الثقافية والفنية، وأسس مدرسة الفن والشعر والغناء اللحجي، التي أضافت إلى الفن اليافعي والصنعاني والحضرمي، ألحاناً وإيقاعات جديدة، عززت بحق الغناء اليمني الأصيل المشهور، كما أن الفضل يعود للأمير أحمد فضل القمندان في مجالات أخرى، فهو الذي أدخل زراعة أصناف فواكه كثيرة أحضرها شخصياً من الهند ومصر وغيرهما، وعرفتها اليمن لأول مرة في تاريخ زراعتها، مثل المانجو والباباي والجوافة والليمون الحامض وغيرها. وأيضاً، فإن زراعة الخضراوات التي وجدت منذ أمد طويل، هي الأخرى أنعشت اقتصاد هذه المنطقة، مثلها مثل زراعة القطن التي أدخلت بالتعاون مع الإنجليز في منتصف الأربعينيات من القرن العشرين.

ولقد ازدهرت الحركة السياسية والوطنية في لحج، وبرزت على الساحة السياسية أسماء وهامات لامعة كثيرة من أبناء الحوطة والوهط، وبقية مناطق لحج، منهم: محمد علي الجفري، عمر الجاوي، وأستاذي سالم زين (كاتب وثيقة الميثاق الوطني للجبهة القومية)، والشهيد علي عبد العليم، علي أحمد السلامي، سيف العزيبي، مهدي عبد الله سعيد، أحمد سالم عبيد، أحمد المنتصر، الزميل حسن السلامي، والدكتور أبو بكر السقاف، والدكتور هشام السقاف.

وغيرهم ممن أصبحوا رموزاً للحركة الوطنية اليمنية، أو رموزاً ثقافية وطنية كبيرة، وهؤلاء وآخرون أيضاً، يصعب تعديد مناقبهم وأدوارهم، فهم أكبر من هذه المشاهدات، ولهم أدوار عظيمة تحتاج إلى سجلات من ذهب لتدوينها.

لحج مثلها مثل بقية مناطق الجنوب اليمني المحتل، قاومت الاحتلال البريطاني، أولاً، عن طريق سلاطينها الوطنيين، ومواطنيها من عاشقي الحرية والكرامة، ثم بقيادة عناصر الجبهة القومية، من أبنائها الذين شاركوا في مرحلة الكفاح المسلح ضد الاستعمار، سواء في صفوف الجبهة القومية أو صفوف جبهة التحرير، وتم ذلك حتى أقيمت السلطة المحلية الوطنية فيها بتاريخ 13 أغسطس 1967م.

وحين جاءت الحكومة الوطنية بعد الاستقلال، ركزت اهتمامها على الزراعة أيضاً، ومنحتها رعاية أكثر مما مُنح للقطاعات الأخرى، باعتبار المنطقة من أخصب الأراضي الزراعية في البلاد، وطورت المنتجات الزراعية، وفي مقدم ذلك، إنشاء مزارع إنتاج الموز الحديثة، وبنت الدولة بقروض روسية، سدوداً تحويلية في رأس الوادي الواقع شمالي مدينة الحوطة، ومدت قنوات شبكة ري، خدمت الزراعة في هذا الوادي الخصيب.

وقد شهدت شخصياً هذه النهضة الزراعية، التي تحدثت عنها من خلال ترددي دورياً على الحوطة ونواحيها أثناء شغلي منصب مدير عام التعاون والإصلاح الزراعي، كما كنت أتردد دائماً على مناطق لحج، حين أقيمت الكثير من التعاونيات الزراعية الخدمية والإنتاجية.

وللمكوث والعيش في لحج نسماته الخاصة المنعشة للأحاسيس، وله راحة نفسية ما بعدها راحة، فأنت لا تحس بالتعب أو الضجر، وأنت تجلس مع أبناء لحج الخضيرة، فهم طيبو الأنفس، مرحون، ويميلون إلى تبادل النكات والأحاديث اللطيفة، كما أنني لم أرَ لحجياً مَلّ من العمل أو تهرب منه، وكيف

لا يكونون هكذا، وهم بين البساتين الخضراء، والحقول التي تنشرح لها النفس، وبجوار أشجار الشقر والفل والكاذي.

سميت منطقة لحج بعد الاستقلال، بالمحافظة الثانية، وارتبطت بها مديريات الحوطة والصبيحة وردفان والضالع والشعيب، وبعد هدوء عواصف الانتفاضات الفلاحية التي كانت بمثابة رد فعل عنيف على جور العلاقات الزراعية السابقة، أعيدت تسمية المحافظة بلحج، بعد أن ضمت إليها أيضاً مديريات أخرى من مديريات يافع العليا (لبعوس . يافع . يهر– المفلحي . الحد)، التي تمثل امتداداً جغرافياً وتاريخياً لمناطقها.

وهكذا، اختلط اسم المنطقة باسم المحافظة، وتكرر ذلك مرة أخرى بعد قيام الجمهورية اليمنية، وإعادة التقسيم الإداري لعدة مرات، فخرجت منها الضالع، لتصبح عاصمة لمحافظة جديدة تحمل اسمها، وضمت إلى المحافظة لحج، مديريات جديدة من محافظة تعز، وهنا، ازداد الخلط المذكور كثيراً، كأن تقول: هذا الأخ/ قباطي لحجي، وما شابه، وأتمنى أن يستمر هذا الخلط الوطني بشفافية وعدالة، إذا استمرت الجهود الوطنية في وضع المخارج العملية لنتائج حرب **94**م الظالمة، التي اجتاحت الجنوب، ودمرت كافة الأسس الوطنية، وجاء الحراك السلمي الذي بدأ عام **2007**م، ومستمر حتى الآن، وثورة الشباب التي أطاحت بالنظام الذي يرأسه الجنرال صالح، كأحد الردود الشعبية الثورية تجاه هذا العبث، الذي حصل بفعل هذه الحرب الغاشمة.

آثار حرب **1994**، أضيفت إليها جرائم ووحشية حرب **2015** المدمرة للأرض والعمارة، والأفظع للإنسان الجنوبي، الذي احتضن الوحدة، وها هو يكرهها الآن، بعد حربين شنت ضده وضد مناطقه الأبية، ولديه كل الحق بعد معاناة واستبداد ونهب من قبل «المركز المقدس».

صنعاء

أبدأ باسمها، وهو عنوان جمالها، يقول بعض العلماء، إن تسميتها جاءت من حرفة الصنعة أو (الصناعة)، التي كانت تشتهر بها، كصناعة السيوف والخناجر والحلي والألبسة والعقيق، وغيره من الأحجار الكريمة، ويقول آخرون إنه وجد نقش قديم جداً،

دل على أن صنعاء كانت تسمى «صنعن»، وأن هذه التسمية كانت مستخدمة حتى عهد قريب بين أبنائها، كما أن للمدينة اسمين آخرين، هما: سام وآزال، وعرفت صنعاء بموقعها المميز، فهي قلعة حصينة، تسمى «بون صنعاء»، إذ تحيط بأرضها الفسيحة الخضراء الغنية بالمياه والزرع الجبال من كل جانب، إلا من جانب واحد، هو اتجاه الشرق، حيث تتصل بالسهول ووديان (رغوان)، ويتوسط حوض بون صنعاء المدينة القديمة، التي تعد متحفاً تاريخياً مفتوحاً بأسواره ومنازله الفريدة البناء، التي تعبر عن ولع ساكنيها على مر العصور، بالفن والجمال والمظهر الحسن وراحة الإنسان.

طقس صنعاء مميز أيضاً، معتدل صيفاً، وخالٍ من الحر والرطوبة، ويميل إلى البرودة في نهارات الشتاء، وقارس البرد في الليالي، إذ إنها ترتفع عن مستوى سطح البحر بنحو 2300 متر، وقيل إنها المدينة الوحيدة في العالم التي لا تحتاج فيها بشدة إلى المكيف، أو إلى الدفاية الكهربائية، وقد علق أحد الأطباء الإنجليز في لندن، عندما أخبرته بذلك، أثناء تلقي العلاج في نهاية شهر أبريل 1994م، بقوله: أجل، لا تحتاج في صنعاء إلى مكيف أو دفاية كهربائية، ولكنك تحتاج يومياً إلى بندقية.

كانت مدينة «سام»، موقعاً إدارياً دائماً لدويلات الأئمة المتعاقبة، تم تحصينه بسور ضخم، وسع كلما توسعت المدينة، ومُتّن كلما زادت المخاطر، وهو ما يعرف اليوم بسور صنعاء الكبير، الذي حددت له بوابات ومداخل رئيسة، يقال إن عددها استقر أخيراً بسبعة أبواب، منها وأشهرها: باب اليمن، باب شعوب، باب خزيمة، وغيرها، وقيل إن تلك الأبواب جاءت لتحدد لكل القبائل التي تحيط بصنعاء، الدخول من باب معين، تجنباً للاحتكاك بين القبائل القادمة، الذي يُثير تحسساً أو عراكاً أو فتنة قبلية، ولكن معظم الآراء تقول إن سور صنعاء وأبوابه، كانت عبر التاريخ، لاتقائها من شرور هجمات القبائل، وغزوات الدويلات اليمنية المتنافسة والمتناحرة.

ظلت صنعاء وأهلها، البالغ عددهم حتى أواخر الخمسينيات من القرن الماضي، حوالي ثلاثين ألف نسمة، تقبع خلف ذلك السور، حتى جاء يوم 26 سبتمبر 1963م، لتخرجها الثورة من عزلتها، بإعلان الجمهورية، والإطاحة بالإمام البدر في انقلاب عسكري، تزعّمه الرئيس عبد الله السلال، رحمه الله، ورفاقه الضباط الأحرار.

وصنعاء هي إحدى عواصم الممالك اليمنية القديمة، حيث تشير المعطيات التاريخية، إلى أنها صارت كذلك لأول مرة في عام 525 ق.م. وربما كان هذا هو ما وراء ترديد المثل الشائع «لا بد من صنعاء، وإن طال السفر»، والذي إذا أخذناه من منظور جيلنا الحالي، من منظور عصرنا وما عشناه، فإننا نقول: نعم، لقد طال السفر إلى صنعاء – عنوان اليمن كلها – بالنسبة لجيلنا من حملة أفكار الحركة الوطنية والقومية والإسلامية منذ الأربعينيات من القرن الماضي، كم من تضحيات قدمها الجيل السابق لنا، والجيل الذي ننتمي إليه؟، كم من التضحيات قدمتها كل جموع الشعب والأحزاب والتنظيمات التي تأسست من أجل بلوغ هذا الهدف؟، كم من التضحيات قدمتها القرى والمدن

والمناطق التي جئنا منها وغيرها؛ فهي جميعها تظاهرت وطالبت وقاتلت من أجل توحيد الأرض اليمنية، قاتلت الاستبداد الإمامي أولاً، وقاتلت الاحتلال البريطاني ثانياً، ثم قاتلت الاثنين معاً منذ الثلاثينيات.. كل هذا كان من أجل الوصول إلى صنعاء.

عبر التاريخ القديم، تم الوصول إلى صنعاء من قبل أجدادنا كمواطنين أو كحكام، وكان علي بن الفضل الخنفري، واحداً من الحكام الذين وصلوها في عهد ما بعد ظهور الإسلام الحنيف، وقبل ذلك، لا نعرف من وصلها قادماً من المناطق الجنوبية لليمن، ورغم تحقيقه هذا المنجز التاريخي، إلّا أن البعض اعتبره الحاكم الأقل شأناً، ومهما قيل عنه من قبل المتعصبين للمناطقية والمذهبية، ومن محرفي التاريخ، فقد وصلها كواحد من أبنائها، ومن موقع المواطنة المتساوية والتكافؤ بين مناطق اليمن وقبائلها، الذي كان سائداً في ذلك الزمان البعيد، وإلا لما كان حَكَمَ صنعاء يوماً واحداً، فقد حكم مناطق شاسعة من اليمن، لمدة واحد وثلاثين عاماً، وحل في صنعاء حاكماً لمدة سبعة عشر عاماً كاملة.

وفي التاريخ المعاصر والحديث، وعلى صعيد المنطقة التي وُلدت فيها (يافع)، فإن أجدادنا وصلوا صنعاء منذ أمد بعيد، وأكرمهم إخوانهم فيها، وقد قال لنا بعض الأجداد، إن وصولهم كان كثيفاً، إلى حد أن أحد أبوابها سمي باسم «باب يافع»، ولا نعلم هل كان هذا حقيقة؟، أو لماذا طمس الاسم؟، أو لماذا طمس الباب كله؟، حتى إن أجدادنا كانوا يتعاملون مع صنعاء كوطن، بل ووصلوا إلى أن يخاطبوا الإمام بكل صراحة وجرأة كمواطنين كرام من رعيته، فالمناضل الشاعر راجح بن هيثم بن سبعة ـ شيخ مشايخ يهر، والمناضل ضد الاستعمار في الثلث الأول من القرن العشرين، أرسل بقصيدة طويلة إلى مقام الأمام أحمد، اشترط فيها نزاهة الحكم وصدق المعاملة، كشرط لوحدة الأخوة القائمة آنذاك.. تقول أبيات قصيدته:

سلم على أحمد ومن ليهم قدم
وبلغ سلامي على سيف الإمام
هو كنزنا ليلة الباطل دهم
منا التحية والسلام
ولا يضيع حلاله بالحرام
من معدن العز ومثلي من كرم
والعز من يد لجواد الكرام
حلفت ما ساير الجنس الرذم
لو تكسف الشمس أو تبقى ظلام

وكان الشاعر راجح بن سبعة، قد بعث بالقصيدة أعلاه، من باب التحية والسلام من أخ لأخيه، وعبّر له فيها عن رأي اليوافع، والوقائع والمؤشرات كثيرة لمثل هذا الترابط والعلاقات بين المناطق الجنوبية، ونظام الإمامة في المناطق الشمالية، سواء بالشعر أو العلاقات الشخصية بين القبائل والمشايخ، أو العلاقات السياسية التي وجدت بكثافة، وانعكست في محاولات كل من الإدارة البريطانية في عدن، والحكم الإمامي ومركزه في صنعاء (والذي كان يتخذ من تعز والبيضاء مركزين إداريين لإدارة تلك العلاقات)، من أجل كسب ولاء المناطق والقبائل الجنوبية كلها، مع التركيز على المناطق والقبائل المحاذية، مثل: الصبيحة والضالع وردفان ويافع والعواذل والعوالق العليا، وغيرها، وكانت تلك الوسائل والأشكال للعلاقات المذكورة، إحدى القنوات الهامة لتواصل الشعب اليمني، وإحدى المعبرات الواضحة عن وحدة الشعب اليمني، وقد حاولت الدولتان الشطريتان، أيضاً، استخدامها لأغراض الشطرية الخاصة، لكنها فشلت في آخر المطاف.

وعندما توجت ثورة 26 سبتمبر بأكاليل النصر على الكهنوت، كان في طلائع مناضليها، خيرة الرجال الذين وجدوا حينها في صنعاء وتعز، وغيرها من مناطق شمالي الوطن، وكذلك قوافل المناضلين الذين جاؤوا من عدن ولحج وحضرموت والمهرة والضالع وردفان والعوالق ويافع والعواذل ودثينة والصبيحة، وأعطوا أولوية لصنعاء، مثل عدن التي كانت حينها رافعة شعار (الجنوب اليمني المستقل)، وعندما شرعت ثورة 14 أكتوبر ضد الاستعمار الأجنبي، ما كان ليتم لها دحر الاحتلال البريطاني، لو لم يساندها في ذلك أبناء الشعب اليمني في جميع المناطق: تعز والبيضاء وإب وصنعاء ومأرب والحديدة وغيرها، سواء كقاعدة خلفية، أو بمساهمة أبناء تلك المناطق الموجودين في عدن، في عمليات النضال من أجل الحرية.

بعدها، لم يأتِ اعتباطاً، التأكيد على شعار اليمن الموحد، من قبل التنظيم السياسي، الجبهة القومية، ثم الحزب الاشتراكي اليمني، وذلك كنهج للسلطة في عدن، التي جاءت بعد الاستقلال، وكان في قوام أول وزاراتها التي شملت اثني عشر وزيراً، وزيران من مواليد مناطق التماس بين الشطرين (عبد الفتاح إسماعيل ومحمود عشيش)، وعلى اعتبار أنهما من أبناء عدن.

ولقد واصلت هذه السلطة، العمل بنهج الوحدة، ووحدت الأحزاب اليمنية والقيادات اليمنية من مختلف مناطق اليمن، بما فيها الأحزاب والتنظيمات في ساحة شمالي الوطن. وكان أبناء مناطق التماس والعمق الحضاري من تعز والمناطق الوسطى في اليمن، هم نواة هذه التشكيلات، التي لم تعرف المناطقية أو القبلية، حيث كانت برامجها قائمة على أساس البعد الوطني والعربي والإنساني، ولقد وجدت التجاوب الكامل في عدن، وبدون أي تقصير.

أعود إلى ذكرياتي عن المدينة.. شخصياً، زرت صنعاء لأول مرة في نهاية عام 1964م، وأنا طالب في المرحلة الإعدادية بتعز، وكانت حينها أشبه بقرية

كبيرة، تعيش داخل سورها الترابي، بالإضافة إلى سور غير مرئي من التخلف والعزلة والجهل، وأذكر أن الزيارة تمت لتحقيق غرضين:

الأول: كان من المقرر التحاقي بالمجموعة المكلفة بفتح جبهة يافع الساحل (باتيس في خنفر أبين)، التي تم التخطيط لفتحها بقيادة علي محضار لمقاتلة الإنجليز، ولتخفيف الضغط على جبهة ردفان، التي بدأت آنذاك، ولصغر سني، رأى الأخ علي أحمد السلامي (وهو أستاذي في المعهد العلمي الإسلامي، وأحد المسؤولين عني في حركة القوميين العرب)، وطه مقبل عضو القيادة العامة للجبهة القومية لتحرير جنوب اليمن المحتل، بأن أواصل الدراسة في ثانوية تعز، حتى أكملها، ومن ثم أسافر إلى مصر للالتحاق بالدراسات العليا، إذا ما توفرت فرصة منحة دراسية.

أما الغرض الثاني من زيارة صنعاء، فكان بتكليف من الاتحاد الطلابي لأبناء الجنوب، لمقابلة وزير التربية والتعليم، الأستاذ العلامة قاسم غالب أحمد (وهو أحد أساتذتي في المعهد العلمي الإسلامي في عدن)، لغرض رفع حجم المنح الدراسية الممنوحة لأبناء الجنوب من قبل الوزارة.

رافقني في تلك الرحلة من تعز إلى صنعاء، الزميل أحمد محمد المحضار، والشهيد حسين عوض صالح (طيار ميج 17). وكانت الطريق غير معبدة، ولم يستكمل شقها كاملاً؛ فالمشروع الأمريكي القائم بشق الطريق وتشييدها، ما زال بجنزيراته (عربات الشق)، يدك أرض المواقع الصعبة في كل من سمارة ـ إب ـ ذمار، لذا، استغرقت الرحلة من تعز إلى صنعاء، يوماً كاملاً شاقاً، ولم يخفف من طول وقت السفر، سوى النظر من نافذة السيارة إلى اخضرار الجبال الذي يسلب النظر، وينسيك العناء، وخاصة المناظر الخلابة في جبال إب وسمارة ووادي جهران الزراعي المشهور.

عند وصولنا إلى صنعاء، لم نكلف أنفسنا بأن نتفحصها منذ اللحظات الأولى، فقد كنا منهكين تواقين إلى النوم، من جراء عناء طول السفر، فقمنا بالاستلقاء سريعاً على الفراش في غرفة صغيرة تسمى (سمسرة)، تملكها امرأة عجوز، دفعنا لها ثلاث (بقش)، كقدمة إيجار يوم واحد، لأننا سنبقى عدة أيام.

وفي اليوم التالي، نهضنا مبكرين، تعرفنا إلى المدينة، قديمها وجديدها، ببيوتها التاريخية الجميلة، الموسومة بنقوش خارجية بيضاء، ونوافذها وشرفاتها المزينة بالزخرفة والخشب المحفور، وأزقتها المتعرجة، وشوارعها الضيقة المليئة بالعابرين هنا وهناك، وأسواقها الكثيرة التي تعج بالبضائع من كل صنف ونوع، ولا أدري، لماذا تذكرت عدن حينها، فالحركة متشابهة، ولكن المظهر مختلف.

استمر هذا التلمس والاستطلاع لعدة أيام، لأن التجوال في المدينة كان مسموحاً في ساعات النهار فقط، أما عندما تغيب الشمس ويدنو الليل، فإن الوجود في أي مكان مفتوح، محظور رسمياً، فمنع التجوال سارٍ، بحسب أوامر (اليسك) ـ وهم حرس خاص بحراسة شوارع المدينة ـ وها هو (حظر التجوال) ما زال ساري المفعول، منذ أن أُقر في عهد حكم الإمام البائد، ورغم قيام الجمهورية.

أثناء حصار السبعين يوماً، الذي بدأ بسيطرة الملكيين على صعدة في 17 نوفمبر 1967م، وتقدمهم حتى حاصروا صنعاء، ابتداء من تاريخ 27 نوفمبر، جاءت زيارتي الثالثة لصنعاء، جئتها في الشهر التالي، قادماً إليها من عدن عبر الحديدة، أحمل مع رفاقي مساعدة الثوار الذين انتصروا على الاحتلال، وهم يقدمون ما لديهم من عون، كرد جميل وواجب أخوي تجاه صنعاء، التي أرادت أن تنطلق من ظلام الماضي، فوجدت نفسها محاطة بطوق أهمج منه، وجدتها هذه المرة، وقد تجاوزت الأسوار التي رأيتها في المرة السابقة، ولكنها تئن بألم وتصرخ بكبرياء، بسبب فرض سور كبير مسلح من الحصار

الملكي عليها، نحاول من زيارتنا المساهمة في التقليل من وطأة آلامه ونكباته.، وكنا قبلها في عدن، قد استطعنا خلال أسبوع، أن نجمع حمولة سفينة من العتاد والمؤن، جاءت بحراً إلى ـ الحديدة ـ بالإضافة إلى مبالغ نقدية جلبناها معنا، وكان الأخ/ عبد الرحمن العبسي يحملها، فهو شديد الحذر والانتباه أكثر منا.

تحركنا من الحديدة مع الوفد المرافق لنا، لنبدأ رحلتنا باتجاه صنعاء، من طريق يصل طوله إلى **230** كيلومتراً، وفي الطريق، شاهدت الشيخ أحمد عبد ربه العواضي، وهو في طريق الحديدة ـ صنعاء، بعد اختراقه الحصار على صنعاء من هذا الطريق، وعمله هذا عمل جبار، خفف كثيراً من وطأة الحصار على المقاومة وأهل صنعاء. وكان أحد العوامل التي أدت إلى إفشال الحصار، لأن خط الطريق المسيطر عليه من قبل الشيخ العواضي وقوات المظلات، يربط صنعاء بميناء الجمهورية الرئيس، ميناء الحديدة، الذي تأتي منه التموينات عادة.

وما إن وصلنا إلى مناخه، حتى استقبلنا وفد مكون من المقاومة الشعبية في صنعاء، من مجموعة العواضي، وأذكر أن من ضمن المستقبلين لوفدنا، الأخوان: مالك الإرياني والشاعر علي مهدي الشنواح، رحمه الله.

أخيراً، دخلنا إلى صنعاء ونزلنا في فندق المخا، الكائن بشارع علي عبد المغني، وكان الفندق الوحيد بصنعاء في ذلك الوقت، والذي لم يسلم هو أيضاً من القذائف الملكية، التي كانت تنهمر مستهدفة القصر الجمهوري والإذاعة، وغيرهما من المرافق في وسط صنعاء، عاصمة الجمهورية العربية اليمنية الوليدة.

شرعنا في تنفيذ مهمتنا، التي احتاجت إلى أكثر من نصف شهر لإنجازها، حينها، كان القصف ما زال مستمراً على القصر الجمهوري، والمعارك متواصلة بتقطع، نهاراً وليلاً، تسمع أصواتها في الأطراف هنا وهناك، أحياناً تقترب أصوات قذائف المدفعية ومدافع الهاون، وأحياناً أخرى تبتعد أصوات الرشاشات الكبيرة.

كانت معنويات أفراد الجيش والحرس الجمهوري والأفراد المدافعين عن صنعاء، الذين قدموا من جميع محافظات شمالي الوطن، عالية، تسندها المقاومة الشعبية من المؤيدين للجمهورية، الذين قطعوا مسافات طويلة من مختلف مناطق جنوبي الوطن، لمسنا تلك المعنويات العالية، من خلال نزولنا إلى المواقع العسكرية الأمامية لقوات الجمهورية المدافعة ببسالة عن المدينة، والتقينا أثناء الزيارة بالقائد العسكري عبد الرقيب عبد الوهاب رئيس هيئة الأركان العامة للقوات المسلحة، الشخص المرموق آنذاك، والذي كان قائد المظليين، الذين لعبوا دوراً بارزاً في القتال الجمهوري الملكي، شرح لنا مع نائبه، عبد الرقيب الحربي، ظروف الحصار، وطرق المقاومة المتبعة للدفاع عن صنعاء، وصد الهجمات التي تقوم بها القوات الملكية، ثم تقدم إلينا ببعض المطالب والاحتياجات العاجلة، كدعم من الإخوة في عدن، ووعدناه بإيصال تلك المطالب إلى الرئيس قحطان الشعبي.

أمضينا تقريباً 17 يوماً في صنعاء المحاصرة، بين التأكد من وصول المعونات والمؤن التي جلبناها من عدن، وزيارة المواقع القتالية العسكرية، ولقاءات مع قياداتها نهاراً، وكنا في المساء نعقد لقاءات مع قادة المقاومة الشعبية والجيش والشرطة، وأذكر منهم على سبيل المثال الأخ جار الله عمر، وأحمد علي السلامي، وعلي مهدي الشنواح، ومالك الإرياني، وعبد الوارث عبد الكريم، وغيرهم، كما التقينا أيضاً بعدد من الإخوة الذين جاؤوا من عدن إلى صنعاء، كمقاتلين أو كمساندين، ومنهم الأخ الشهيد عمر الجاوي، الذي جاء معنا من عدن إلى صنعاء، ولكنه كان لديه برنامجه الشعبي الخاص، الذي جعله يواصل البقاء بعد مغادرتنا إلى تعز، وعمر الجاوي، شخصية تمثل نموذجاً رئيساً للمثقفين من أبناء الجنوب اليمني، الذين سخروا حياتهم ووقتهم وجهدهم في عهد التشطير، من أجل الوحدة اليمنية، وقد ارتبط اسمه بالمبادئ الكبيرة

التي ظل يحملها ويجاهر بها ويضحي من أجلها، وفي مقدمها الوحدة اليمنية، فلا سيف السلطة الشطرية أدخل في نفسه الخوف، ولا ذهبها طوّعه لخدمتها، وحينها لم يكتفِ عمر الجاوي بزيارة صنعاء، بل وشارك فعلاً في معارك الدفاع عنها.

كانت تلك اللقاءات التي تعقد غالباً في أوقات المساء من بعد صلاة المغرب، لا تتطرق إلى القتال الدائر حول المدينة فقط، ولكن تتطرق أيضاً إلى الوضع الاقتصادي والاجتماعي، وكذا الوضع العربي والدولي، من منطلق الأحوال السائدة آنذاك، ومنطلقات تفكير تلك الأيام بثوريتها المتحمسة ورومانسيتها أيضاً.

حددت ضمن مهام الوفد أيضاً، مقابلة مع القاضي عبد الرحمن الإرياني رئيس الجمهورية العربية اليمنية، فأُجريت الاتصالات ورُتب الموعد، جهزت لنا طائرة نوع "داكوتا"، المخصصة للنقل العسكري، لتقوم بنقلنا من صنعاء إلى تعز، كي نقابل الرئيس القاضي عبد الرحمن الإرياني، ورئيس الوزراء اللواء حسن العمري، وكان الانتقال بالطائرة جواً من صنعاء إلى تعز، فيه نوع من المخاطرة والمغامرة يومها، ذلك لأن المرتفعات الجبلية ما زالت في قبضة القوات الملكية، التي تحاصر المدينة من كل ناحية، وعليها وضعت مضادات جوية، يمكنها إسقاط أي طائرة عابرة في السماء بكل يسر، ومن الطريف ذكره، أننا أثناء طلوعنا الطائرة الداكوتا، وجدناها بدون كراسٍ أو أحزمة أمان، وكانت موجودة فقط في كابينة القيادة، ورحم الله الأخ علي عبد الرزاق الكازمي، عضو الوفد، وهو أحد قيادات النقابات في عدن، ومثقف عدني رقيق المشاعر، الذي قال لنا حينها، إنه متزوج من عدنية من أصول هندية، ورفض الجلوس على أرضية الطائرة المكشوفة، لكننا أقنعناه بقبول الوضع الممكن للجلوس، لأن آل باكازم لو عرفوا برفضه الجلوس على أرض الطائرة، لحنقوا ولخلعوه من

القبيلة، وعندها ضحك وجلس مبتسماً، كما أننا قلنا له إنه إن لم نستقل الطائرة، فإن فدائيي عدن سيصفوننا بالجبن، ولا بأس من الشجاعة والمغامرة هنا والآن، لأن الوصول إلى تعز خلال ساعة عمل نضالي كبير، بدلاً من الانتظار لمدة أسابيع حتى يتحدد موعد آخر للقاء رئيس الجمهورية، كما أن السفر بالطائرة، بما فينا الأستاذ علي الذي يحن لرؤية زوجته الغالية، سيمكننا من رؤية عائلاتنا بعد يومين فقط، ولذا، فإن صعود الطائرة مغامرة تستحق العناء والمخاطرة.

بعدها اقتنع الجميع بإيجابية المخاطرة، توكلنا على الله، وكان الله حليفنا، فقد مررنا فوق جبال صنعاء دون أن تتعرض الطائرة لإطلاق نيران من قبل القوات الملكية المرابطة هناك، والتي تتحين الفرصة المناسبة للانقضاض على المدينة.

نزلنا في مطار تعز الترابي القديم، ثم نقلنا إلى مقر الرئيس القاضي الإرياني في الحال، وقابلناه لنستطلع منه رؤيته للأوضاع، ثم ما هي طبيعة الدعم المطلوب للمدافعين عن صنعاء من إخوتهم في الجنوب، فكان أن طلب بعض الأسلحة والذخيرة الإنجليزية المكدسة في مستودعات الجنوب بعد رحيل الإنجليز، والتي لم يعد يستخدمها جيش الدولة المستقلة الجديدة في عدن، لاختياره السلاح الشرقي. وفي هذه الزيارة، التقينا أيضاً باللواء حسن العمري رئيس الوزراء، ومدير مكتب القائد العام الرئيس، المرحوم إبراهيم الحمدي، والذي كان نصيراً لحركة القوميين العرب حينها.

عدنا من تعز إلى عدن، ناقلين رسائل القاضي عبد الرحمن الإرياني، واللواء حسن العمري، إلى الرئيس وإخوته في عدن. وما كان من الرئيس قحطان محمد الشعبي، إلا أن استجاب للمطالب التي أرفقناها له، مع تقرير عما قمنا به خلال الرحلة، بل زاد على ذلك بأن أمر قيادة الضالع، بقيادة

الأخوين علي عنتر وعلي شائع، بإرسال المقاتلين عبر إب، ونقل الأسلحة للمدافعين عن صنعاء عبر (تعز) جواً، وتعزيز جبهات الجمهوريين بإرسال المقاتلين من المتطوعين الجنوبيين أولاً بأول إلى هناك.

وبحسب التوجيهات، وفي الوقت ذاته، أثناء حصار صنعاء، تم الاستيلاء على منطقة (حريب) المحاذية للحدود، والتي يسيطر عليها الملكيون من قبل القوات المسلحة الجنوبية المرابطة في بيحان، للضغط على الملكيين الذين يحاصرون صنعاء، وإضعاف الخطوط الخلفية لهم، وتم ذلك بهجوم عسكري واسع، شن في كانون يناير 1968م.

أما الزيارة الثالثة، فكانت عام 1979م. بعد انتهاء حكم الرئيس الحمدي وتولي الرئيس علي عبد الله صالح زمام الأمور القيادية في البلاد، والغياب عن صنعاء لفترة تصل إلى عشرة أعوام، جعلني أرى صنعاء مدينة أخرى، رأيت بها مظاهر التغيير في العمران والشوارع والبنى التحتية، فمنطقة حدة والنهدين، التي كانت مدافع الملكيين في السبعينيات تدك مدينة صنعاء القديمة من فوقهما، أصبحتا الآن تضمان فندق حدة ومنطقة الرئاسة وميدان السبعين.

كان نمو صنعاء كبيراً، وانتعاشها لافتاً للنظر، وبدا لي أن الظروف السياسية في الجزيرة العربية وجنوبي الجزيرة، قد خدمت تطور وتوسع المدينة كثيراً، خلال عقد واحد من الزمن، وخاصة تطور علاقات الجمهورية العربية اليمنية مع المملكة العربية السعودية، وبقية دول الخليج، التي فتحت أبوابها لاستقبال العمالة اليمنية الوافدة بأعداد أكبر مما سبقها، والتي بدورها كانت ترسل تحويلاتها المالية إلى اليمن، للدفع بعجلة توسع اقتصاد السوق والتنمية المعمارية والتجارية والاجتماعية، وكذا، أسهمت المساعدات من قبل دول

الخليج الست لصنعاء، في هذا التطور، في وقت توترت فيه علاقة صنعاء بعدن منذ بداية السبعينيات، وظلت على حالها هذا.

عرفت الأخ الرئيس علي عبد الله صالح، لأول مرة، في عام **1979**م بعد ما تولى سدة الحكم، وذلك أثناء زيارة رسمية لصنعاء، كنت مع الأخ الرئيس علي ناصر محمد، ومحمد صالح مطيع، وعبد العزيز عبد الولي، وصالح مصلح قاسم، وكنت حينها وزيراً للخارجية، وقد لاحظت منذ الوهلة الأولى لتعرفي إليه، البساطة والتواضع والصراحة، والخروج عن قيود المراسيم التي يتقيد بها بعض الرؤساء لإضفاء الهيبة، وكانت تلك الزيارة وسط علاقات ساخنة قائمة بين الشطرين، لأن قيادتَي الشطرين حينها، كانت للتو خارجة من حرب حدثت ذلك العام، بل وحروب سابقة وظروف صعبة قائمة في المنطقة الوسطى (في الشمال)، والحديث لم ينتهِ بعد عن الانقلاب (الناصري)، الذي جرى في صنعاء، يضاف إلى ذلك، العوامل الخارجية المؤثرة في اليمن حينها، وعدم الثقة بين قيادتَي الشطرين، في ظل انشداد النظامين اليمنيين إلى معسكرين عالميين، بينهما حرب باردة قائمة.

في ظل ظروف عامة وخاصة كهذه، لاحظنا أن الرئيس يختلف عن الرؤساء الذين سبقوه، فله طريقة وأسلوب لم نعهدهما من قبل؛ فأثناء الزيارة، استضافنا في منزله المتواضع السابق، الواقع في حي شعوب، لتناول وجبة الغداء، جلسنا على مائدة الغداء، كعادة اليمنيين، على الأرض، ومن ثم جلسنا في مقيل القات اليمني المعتاد، كان في غاية المرح وبشاشة الوجه، ويسكب دشه الحار ودشه البارد على الجميع، وعلى نفسه أيضاً، في عادة من العادات الإنسانية الجميلة، وخرجنا جميعاً (الوفد)، نتحدث عن شخص الرئيس بشيء من الإعجاب.

ولقد تأكدت في السنوات التالية من صحة انطباعاتي عنه، التي حملتها في اللقاء الأول، من خلال سلوكه السياسي وتعامله مع عدد كثير من القضايا، على سبيل المثال: وضع حلول للاقتتال الذي كان دائراً في المناطق الوسطى، وبطرق ومعالجات إيجابية، واتسامه بالتسامح في مواقف وأحداث مؤلمة، وسموه فوق الأحقاد الشخصية والسياسية، وطريقته في إنهاء الخلافات والصراعات السياسية، كالانقلاب الفاشل الذي قام به الناصريون بعد توليه السلطة عام 1978م، أو في عمله على عودة رؤساء الجمهورية الذين سبقوه، مثل: السلال، الإرياني، والعمري، والنعمان، وغيرهم. وإعادة تاريخهم وأدوارهم، لا سيما أن هذا الموقف يحدث لأول مرة في اليمن والعالم العربي، وكذا، تعامله الإنساني مع الآخرين، وخاصة مع المختلف معهم سياسياً.

بعد أن تحملت مسؤولية وزارة الخارجية في عدن عام 1979م، تواصلت زياراتي إلى صنعاء والحديدة، وقابلت الرئيس علي عبد الله صالح خلالها، كنت أشعر أنني أقابل أخاً وزميلاً، لا أشعر بتكلف أمامه، ولا يعطي أي اهتمام للشكليات أو قيود المراسيم، وهذه القيود، إذا بالغ فيها المسؤول، لتحول إلى سجين لها، والمعروف أن الرئيس يتحدث قليلاً، ويرد مباشرة وبصراحة، وأحياناً يتعمد الصراحة الجارحة لإيصال الموقف، وكنت في كل لقاءاتي مع الرئيس، أو التي تمت معه في لجنة التنظيم السياسي، وما بعدها، أنقل إلى القيادة المسائل التي تقرب ولا تفرق.

وفي تلك الزيارات إلى صنعاء في الفترة 1979 ـ 1982م، قابلت مراراً الرئيس علي عبد الله صالح، والدكتور حسن مكي، والأخ علي لطف الثور، والآخران تحملا وزارة الخارجية في صنعاء في ذلك الوقت، ومن أبرز المواقف التي جمعتني بالأستاذ علي لطف الثور، وزير الخارجية آنذاك، سفرنا المشترك لحمل رسالة مشتركة من الرئيسين علي عبد الله صالح، وعلي ناصر محمد، إلى

الدول العربية في المغرب العربي، لتأييد مسار سوريا، وتعزيز صمودها وصمود الشعبين الفلسطيني واللبناني، ضد الهجمة الإسرائيلية واحتلال جنوبي لبنان.

أما الزيارة الأهم لصنعاء في حياتي، فهي التي كلفت بها في شهر رمضان عام 1989م، قبيل إقامة الوحدة بأشهر، وحملت خلالها أوراقاً حددت مصير الوحدة اليمنية، حيث كُلّفت من قبل المكتب السياسي، بمعرفة رد الرئيس علي عبد الله صالح والقيادة السياسية في شمال الوطن، على ترتيبات الفترة الانتقالية للوحدة اليمنية.

وتزامنت هذه الزيارة مع زيارة الأخ علي سالم البيض للعراق، بدعوة من الرئيس صدام حسين، الذي كان رافضاً الخروج إلى المطار لاستقبال البيض، نظراً للبروتوكول القائم الخاص بهذا الجانب. ولكنه أقنع من قبل صنعاء بأهمية خروجه لاستقبال البيض في المطار، ومعاملته كرئيس دولة، وليس فقط كأمين عام حزب حاكم، ويومها وافق الرئيس علي عبد الله صالح على كل ما طرحناه، وتجاوزنا تلك الصعاب التي كانت تعيق المضي بإجراءات الوحدة العملية، ومنها تحديد سعر العملة اليمنية الجديدة، وترتيبات الأمن السياسي، وتفاصيل الفترة الانتقالية، وقد تم إشعار القيادة السياسية في عدن، والأخ علي سالم البيض، فوراً، بما اتفق عليه أثناء الزيارة، وأشعر الأخ علي سالم البيض يومها، بالمجيء إلى صنعاء لتوقيع الاتفاقيات التي حددت موعد يوم الوحدة التاريخي.

وهكذا، سار السعي الوحدوي حثيثاً، وفي يوم 22 مايو 1990م. وبفضل جهود القيادة اليمنية، شمالاً وجنوباً، وبنياتهما الطيبة حينها، وبشراكتهما، تم دمج الجمهورية العربية اليمنية وجمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية، بالمسمى الجديد لأول جمهورية يمنية موحدة (الجمهورية اليمنية)، تحقق الحلم ذلك اليوم.

تمت الوحدة في يوم 22 مايو 1990م، بإعلانها في مدينة عدن في اجتماع مشترك، ضم قيادة الشطرين، وبهذا تم دمج الجمهورية العربية اليمنية وجمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية، بمسمى اتفق عليه يومها، هو «الجمهورية اليمنية»، وفي اليوم التالي، غادر الرئيس علي عبد الله صالح ونائبه علي سالم البيض عدن معاً إلى صنعاء براً، بينما غادرنا أنا والأخ حيدر العطاس إليها جواً.

وجرى في صنعاء خلال الأيام القليلة التالية، استكمال المقومات الأساسية للجمهورية الوليدة، بتعيين مجلس رئاسي جديد، مكون من الرئيس علي عبد الله صالح، ونائبه علي سالم البيض، والقاضي عبد الكريم العرشي وسالم صالح محمد وعبد العزيز عبد الغني، ومجلس وزراء جديد، برئاسة حيدر العطاس، ومجلس نواب موحد (بتوحيد مجلسي الشعب في عدن ومجلس الشورى في صنعاء)، برئاسة الدكتور ياسين سعيد نعمان، كما حُددت الوظائف القيادية بالمناصفة تقريباً. وباشرت الدولة اليمنية الموحدة عملها بسرعة وسهولة ويسر، وسط فرحة الجميع ورضاهم، على ضوء كل هذا، انتقل آلاف القياديين والكوادر وكبار الموظفين والعسكريين والأمنيين من عدن إلى صنعاء، وانتقلت أنا مثل غيري، فقد عينت ضمن الترتيبات الجديدة الوحدوية، عضواً في مجلس الرئاسة، المكون من خمسة أعضاء، بما فيهم رئيس الجمهورية.

حزمنا أمتعتنا وأخذنا أسرنا وانتقلنا بجيشنا وإداراتنا وأجهزتنا الأمنية وكوادرنا وقياداتنا الإدارية، إلى العاصمة السياسية لدولة الوحدة (صنعاء). انتقلنا إليها بنشوة الوحدة، وبهجة التوحد، وشموخ روح الوحدة العربية الكبرى. انتقلنا إليها من عدن الحبيبة، قلب الوطن النابض، الذي لم نستطع يوماً فراقه، ولكننا استطعنا اليوم، بعد أن تحقق الحلم الذي تمنينا تحقيقه طوال نضالنا من أجل التحرر والحرية وبناء الحياة الكريمة، وها هو الحلم وقد أصبح حقيقة، معمداً بتضحيات جديدة، إلى جانب التضحيات السابقة، حلم الوحدة اليمنية،

كان فينا يومها أجمل وأروع من كل شيء، وكل شيء يهون من أجله، تساندنا في ذلك، وتشاركنا فرحتنا وسعادتنا، جموع شعبنا الصادق الأمين الوفي لأهدافه النبيلة، وتشاركنا فرحتنا وسعادتنا أيضاً، شعوبنا العربية من محيط الوطن إلى خليجه، وقد بعثت آمالها، وخفقت قلوبها، ورفرفت أجنحة أفراحها في السماء، سعيدة بذلك اليوم، الذي جاء في زمن ملّت فيه الهزائم وفرقة الصف، وخفوت الهمم وضياع الانتصارات.

يوم الوحدة 22 مايو 1990م، والأيام التي تلته في حضن صنعاء، لا يمكن وصفها، كانت أياماً عظيمة وجميلة ومنعشة للروح، حتى إنها من وقعها فينا، أنستنا عدن التي لم نكن نطيق أن نفارقها، ولو لمدة قصيرة، وجعلتنا نتعلق بصنعاء التي كنا نجدها (قبل ذلك)، رتيبة الحياة وجامدة الروح، وأبناؤها لا يحبذون الاختلاط كثيراً مع القادمين إليها، ومع هذا كله، فإننا أيامها لم نجد صعوبة في الانتقال إليها، والعيش فيها، فقد بدا لنا أن أبناءها مسرورون بنا، وأن كل شيء فيها قد تبدل إلى الأفضل.

ذلك اليوم، لم يؤدِ فقط إلى شحذ الهمم وبعث الآمال الكبيرة وتقوية السعي حياة أفضل، بل وأنعش مختلف جوانب الحياة داخل اليمن وخارجه، في محيطه العربي أيضاً.

لكن الأحداث والمفاجآت تسارعت، إذ جاءت حرب الخليج الثانية باحتلال العراق لدولة الكويت الشقيقة، وكان هذا الزلزال، عودة إلى حالة اليأس والشقاق والفرقة التي يعاني منها الصف العربي، بما فيه اليمن، منذ أمد بعيد، كان احتلال الأخ لأخيه العربي، بعد أن رأينا توحد الإخوة في اليمن قبل أشهر عدة من ذلك، بمثابة طعنة غير مباشرة للوحدة اليمنية، ولكن الوحدة تماسكت من هزات الزلزال المذكور العنيفة، ولم تنهَر.

كانت حرب الخليج الثانية، أول امتحان صعب تواجهه القيادات اليمنية في دولة الوحدة «الجمهورية اليمنية»، حيث وُجد عندها من يؤيد ومن يعارض، ومن له وجهة نظر أخرى. كانت سبل المعالجة مختلفة فيما يخص التعامل مع الموقف من حرب الخليج الثانية. والمشكلة التي أضافت أعباء على موقف البلد، هي موقفنا في مجلس الأمن الدولي في تلك الفترة. فقد كان موقف مندوب الجمهورية اليمنية في المجلس، الأخ عبد الله الأشطل، رحمه الله، في غاية الحساسية، إذ إنه في الغالب بدا وكأنه يؤيد المعتدي، وهنا، بدأ عملنا العظيم الذي قمنا به في جنوبي الجزيرة العربية (الوحدة اليمنية)، يخفت، لأننا لم نحسن التعامل مع ما كان يدور حينها في بقية الجزيرة العربية والعالم العربي.

ومع ذلك، فيوم الوحدة، ظل بقيمته التاريخية المجيدة، لأن الآمال آنذاك كانت أقوى من كل شيء آخر، يومُ كنا فيه رجال تاريخ، وقادة ليس من صُناع الحكم، ولكن صُناع حُكم وتاريخ مشرق أيضاً. يومها قلنا للأجداد وكررنا: أجل وصلنا إلى صنعاء هذه المرة، ومن بعد طول سفر، ولكننا أطلنا فيها المقام، بعد أن حققنا فيها المرام، وبنينا وحدة يمنية على الدوام، وبالوفاء والتمام، بدءاً من يوم الثاني والعشرين من شهر مايو **1990**م.

أجل، أطلنا فيها المقام هذه المرة، سبعة وأربعون شهراً واثنا عشر يوماً، حتى نهاية أبريل عام **1994**م. لم نكن نعلم حقاً ما الذي يدور في قلوب قادة الوحدة، لم نكن نعلم حقاً ما تخفيه نفوسهم، وما تطويه نياتهم وقلوبهم بداخلها، وصلتنا تنبيهات مبكرة، أن بعض القلوب تُكِن الحقد والبغض، وأن هناك نية الكراهية وكيد الإخوة، لم نصدق لا هذا ولا ذاك. وهل يعقل هذا؟، كنا متوكلين على الله علام الغيوب، فهو وحده ـ جل وعلا ـ القادر على معرفة ما تكن الأنفس وما تخفيه القلوب.

وهنا، نتذكر الأبيات التي قالها الشاعر الكبير حسين أبو بكر المحضار في يوم **22** مايو **1990**م. وفيها وصف جميل للوحدة، ولكنها تتضمن أيضاً تحذيراً واضحاً من مخاطر المجهول:

الله الله من ثنتين من بعد غيبه تلاقين
وبواقع الحال يتشاكين ويطلقن كل معصوب
من فرحهن باللقاء يبكين ويودعن حرقة البين
بالبعد لي كان ما ودين ذا مقدر ومكتوب
ذا لي فهمته وما في القلوب يعلمه علام الغيوب
رفعن نحو السماء يدين باالخير واليمن يدعين
وحضرن جمعة والعيدين ويغفر الله لذنوب
ذا لي عرفته وما في القلوب يعلمه علام الغيوب
يوم اللقاء ما مثيله زين يحرسه ربي من العين
ومن التجافي وطول البين ومن مواعيد عرقوب
ذا لي سمعته وما في القلوب يعلمه علام الغيوب

كنا في وضع آمن نفسياً وعملياً، ولم نكن نتوقع مثل وضع التأزم ذاك، الذي وصلنا إليه عام **1993**م، لأن ما كان يدور أيامها كان خارج تصوراتنا وتوقعاتنا، فهو عبارة عن أمور وحوادث وتوقعات لا يمكن أن تصدقها بسهولة. توقعنا كل شيء، ولم نتوقع أن نصل مع شركائنا في قمة قيادة الجمهورية اليمنية، إلى حافة الهاوية: الصراع بين الطرفين.. كيف حصل هذا، ولنا تجربة طويلة وغنية خاصة في الصراعات بين أجنحة السلطة؟، لا أعرف كيف حل ذلك الحال، وكيف حدث ما حدث؟، ولكنني أذكر أن العديد (من أبناء

المناطق الجنوبية والمناطق الشمالية، على حد سواء) قد نبهَوا إلى وجود تيارات قوية في صنعاء مؤثرة في السلطة التي تمثل الشطر الشمالي، ظلت منذ اليوم الأول للوحدة وقبله، تطالب سراً بالتخلص من الشريك الآخر، بل وبدأت بعد قيام الوحدة اليمنية، تنادي سراً بالفتك الفعلي بالحزب الاشتراكي اليمني، حليف المؤتمر الشعبي العام في السلطة والوحدة، وهذا ما ظهر لاحقاً، بشكل اغتيالات فردية لقياداته، مصحوباً بنية واضحة للعمل في الاتجاه المذكور.

كانت صنعاء جميلة بجمال ربوع اليمن، وكبيرة بكبر مساحة جبال ووديان وصحارى وشواطئ الوطن، وحنونة بحنان الأم وعطفها المتدفق كالأنهار، لكننا لم نكن على علم أو يقين، من أن السل والجرب ينهشان في جسدها منذ البداية، وتحت أجنحة الظلام، ينهشان خلسة، وبخبث، سعادتنا وحبنا وأحلامنا البريئة، التي قادتنا إليها فرحين، ولا أستطيع الإضافة، سوى ترديد ما قاله الشاعر الكبير عبد الله البردوني:

ماذا أحدثك عن صنعاء يا أبتي		مليحة عاشقاها السل والجرب

كانت الوحدة عملاً رائعاً لتجاوز الماضي التشطيري، ولكن القلوب لم تكن جميعها صافية وبريئة، ولذا، وبعد حين، جاء الشر مظفراً هذه المرة، لابساً عباءة الحرب وتاج الدمار وسيف وحشية حب السلطة.

بدأت الأزمة، حين حاولت بعض الأطراف أن تدخل في أمور السلطة والقيادة، سواء من «جلباب أبي»، أو من خلال منافع شخصية فئوية، من وراء إزاحة الشركاء، أو باستغلال بعض أخطاء القيادة وبقايا الروح الشطرية التي تعاملت (ما قبل الوحدة)، بعداء، مع الطرف الآخر، الذي بات شريكاً الآن، وتمكنت تلك القوى الظلامية من ذلك، لانشغالنا بمهام الدولة الحديثة وهمومها، وكذا، بحرب الخليج الثانية وانعكاسها على الوضع الداخلي اليمني، بما فيها عودة المهاجرين والمغتربين اليمنيين بأعداد كبيرة من السعودية ودول الخليج،

كل هذه المؤثرات، ساعدت أولئك المتآمرين على البدء بإحداث شرخ في جدار الوحدة، وساعدت على أن نصل إلى وضع عام متأزم للبلد كله.

حاولنا في صنعاء أن نبدأ صفحة جديدة طوال أكثر من ثلاثة أعوام، ولكن المدينة العاصمة كانت حبلى بالأسرار والأحاديث والخطط الخفية القابعة وراء الكواليس، ليس لطرف معين، بل ربما لكل الأطراف الفاعلة في السلطة تقريباً.

وجاءت انتخابات عام 1993م العامة لانتخاب أعضاء مجلس النواب، لتفجر كل تلك الأفعال والأحاديث، وليبدأ مَنْ بدأ بتحويل الخطط إلى برنامج عمل، وأزيحت الستائر عن الكواليس، فإذا بها أزمة سياسية تعصف بالدولة التي لم يتم اكتمال بناء مقوماتها الأولى بعد، أزمة تنذر بصراع حاد على جميع المستويات بين شريكي الدولة والوحدة، وتضعهما على أبواب حرب أهلية، والخطأ الأكبر الذي حدث، حين تفاقمت تلك الأزمة من الجميع، هو أن كل طرف من الطرفين كان يفكر أين المخرج وأين الحل، بحسب مصلحته هو فقط، وليس بحسب مصلحة الشعب ومصلحة الوحدة.

وسارت الأحداث على النحو المذكور لعام تقريباً، ثم حدثت حرب عام 1994م، بدءاً من 1994/4/27م، وكذا، إعادة إعلان انفصال جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية بتاريخ 1994/5/21م، ثم كان انفراد طرف من أطراف التوحيد بالسلطة، وتشتيت المساهمين والمشاركين في صنع المشروع الوطني الكبير – الجمهورية اليمنية ـ إلى المخابئ، وإلى أرض الشتات.

حينها عدنا نردد من جديد: «لا بد من صنعاء، وإن طال السفر»، ولكن هذه المرة بعد أن وصلنا وخرجنا، يومها، بَدَوْنا كأننا لم نفعل شيئاً، ولم نحقق ذات يوم حلم الوحدة العظيم؛ فما من شعب على وجه الأرض، إلا وواجه في مسيرة حياته ونضاله من أجل الأفضل، مواقف تم خذله فيها من قبل

قيادته، وبالنسبة لي، كأحد القادة الذين ساهموا في صنع الوحدة اليمنية – وبالنسبة لأمثالي – فإن الخذلان الأعظم، هو فشلنا في تجنيب وطننا اليمني حرب عام 1994م، وتداعياتها، وتمثل هذا الفشل، في عدم الاستطاعة بإقناع قيادتنا في الجمهورية اليمنية بإنهاء الأزمة السياسية التي سادت حينها، وعدم التوجه نحو الاستعداد للمواجهة المسلحة، وعدم تفجير فتيل الحرب. كان الشعور بالفشل من أكبر الإحباطات السياسية التي عانيتها في حياتي، وأعتقد أن الحال كان كذلك بالنسبة لكثيرين مثلي من قيادات دولة الوحدة، الذين سعوا بثقة نحو الوحدة.

وفي الحقيقة، أنني شخصياً – حينها – قمت في وقت مبكر، بمحاولة متواضعة لتجنب الفشل المذكور، حين وجهت قبل الحرب بعشرة أشهر، رسالة إلى الرئيس علي عبد الله صالح، ونائبه علي سالم البيض، استشهدت فيها بما قلته للرئيس سالم ربيع علي، قبل أكثر من خمسة عشر عاماً، بعدم اللجوء إلى العنف والسلاح بين أطراف السلطة قبيل أحداث 26 يونيو عام 1978م. عند بدء تفجر الصراع بين جناح سالمين، وجناح عبد الفتاح إسماعيل، في الحزب الحاكم في عدن، إذ رد عليّ الرئيس سالمين يومها قائلاً: (سافر يابن صالح للعلاج، وكل شيء سيكون تمام)، وكان ما كان من فرقة وقتال بين الرفاق في عدن.

آنذاك ـ ولأنني كنت مضطراً للسفر للعلاج ـ ولأن حال البلد كله يحزّ في نفسي، فقد حرصت على توجيه الرسالة المذكورة إلى كل من الرئيس علي عبد الله صالح، ونائبه علي سالم البيض. كتبتها ووجهتها لهما وأنا في صنعاء، قبل مغادرتي لها بأيام، وكان لديّ أمل في أنه سيكون لها مفعول المخفف لما ظهر من بوادر صراع شديد.

وأورد هنا، أهم ما جاء فيها، لأهمية توضيح ما كنا نريده ونأمله للوطن، ولم يتحقق، وهو ما يلي:

(لقد تحققت الوحدة اليمنية، وهي أنبل وأعظم الأعمال التي نفتخر أننا ساهمنا بها معكم.. وبدأت تسير نحو نهج ديمقراطي يستحق الرعاية الكاملة، في ظل أوضاعنا المتخلفة.. لذا، المطلوب، جهداً أكبر وتعالياً عن الصغائر، وإنكاراً للذات، التي تتجسد بالأفعال الطيبة فقط.. فما هو المطلوب يا ترى؟ يا من كنتما في مقدم الصفوف، وكان لكما الدور الأول، وخصكما التاريخ بهذه المكانة الرفيعة؟، هل الحفاظ على هذه المنجزات هو همكم الأكبر أم ماذا؟.

هناك إمكانات كبيرة لإخراج الوضع من قوقعته الضيقة.. وإيجاد عدالة اجتماعية كاملة، ومواطنة متساوية، وحقوق وواجبات للجميع، وعلى الجميع.. فلماذا الخلاف على عدم تحقيق ذلك؟.

لماذا لا تبادرون بإزالة عوامل الخوف داخل المجتمع وخارج المجتمع اليمني، مع الجيران؟؟، لماذا لا تبادر القيادة للبحث والتقييم وصياغة أسس وطنية مشتركة، وهي كثيرة وعميقة الجذور، يمكن أن تتكفل بحل هذه المشاكل، ما دامت من عمق الروح الأخوية المتسامحة؟؟، والمهم هو قراءة الماضي قراءة عقلانية؟، كي نشرع في وضع خطوط سياسية الحاضر ومؤشرات المستقبل. وهذا يتطلب منكما الاستعانة بالقيادة الكفؤة، وبالعلماء والحكماء والمثقفين، وهم كثيرون داخل أحزابكم وخارجها، وأنا واثق أنهم سيكونون في حجم كلمة الحق وتحمل المسؤولية، دون خوف من أحد، غير الخوف من عقاب المولى عز وجل، ما الذي يضركما لو فتحتم الأبواب لأولئك الشرفاء، وأوصدتموها في وجه المنافقين ـ حتى لبعض الوقت ـ وما أكثرهم حوالينا؟.

نستحلفكم بالله، وبالوطن، وبكل المقدسات، أن تختاروا طريق الخير والتقدم والأخوة. وأن تجنبوا يمن الإيمان والمحبة، الشر والتمزق).

بعد توجيه الرسالة المذكورة لـ «العليين»، غادرت صنعاء إلى ألمانيا في نهاية شهر أكتوبر **1993**م لغرض العلاج، وأثناء وجودي ـ هناك ـ تصاعدت الأزمة على عكس ما توقعت، حدث الاعتكافان الثاني والثالث للأخ علي سالم البيض نائب رئيس الجمهورية اليمنية في عدن، وبدأت الأزمة السياسية التي تعاني منها اليمن تشتد وتتعمق وتتسع، وأصبح واقع الأزمة السياسية في قمة قيادة الجمهورية اليمنية، مخيماً على صنعاء وعدن وكل أرجاء اليمن، وتم سير الأمور باتجاه مزيد من التأزم، حتى تفجرت الحرب يوم **1994/4/27**م.

لكم تألمت صنعاء وعدن وكل مدن وقرى اليمن، من جراء تلك الحرب الملعونة، التي اعتبرها البعض نصراً للوحدة، لكنها في حقيقة الأمر هزة سلبية لأرضية الوحدة، خلقت لها مشكلات لا حصر لها، سنظل عشرات السنين نواجهها، وسنتعب كثيراً جداً في التخلص منها، ما الذي جرى؟، أبناء الوطن الواحد الذين توحدوا، صاروا يمطرون بعضهم ومدنهم وقراهم ووديانهم وجبالهم بالقنابل والمدافع والصواريخ والقذائف، ومختلف الأسلحة.

كنت أثناء الحرب في الخارج، وتنقلت في بلدان عدة، كان العالم يومها يضحك علينا ويهزأ بنا، ووسط كل الصخب والألم لما يعانيه أبناء الوطن، كنت أجلس حزيناً في المساءات الطويلة الرتيبة، أسال نفسي: هل سأعود إلى صنعاء مجدداً؟، هل سأرى الحبيبة عدن ثانية؟، هل ستبقى الوحدة الحبيبة التي طالما أحببناها منذ الصغر قائمة؟، بحر من التساؤلات يتلاطم بي من جانب إلى آخر، ويقذف بي من بحر إلى بحر أوسع منه وأكثر هيجاناً.

لماذا قامت الحرب بين شركاء الوحدة، هل كانت أمراً محتماً علينا لا يمكن تجنبه؟ هل كان المفتونون والانتهازيون ودعاة هيمنة شطر على شطر، أقوى وأذكى من قيادتَي الشطرين، التي تشاركت في عمل عظيم، من أعظم ما حققه العرب في العصر الحديث؟، هل وقع قادة الوحدة، وهم من خيرة قادة

ثورتي 26 سبتمبر و14 أكتوبر، في شرك المتلاعبين والمتلونين والمخادعين من حاشيتهم، وهم كثر؟ أم أن صنعاء لم تطق وجوهاً جديدة وقادة جدداً، إلى جانب من كانوا فيها، وهي كما قال شاعرها البردوني الكبير عنها (مليحة عاشقاها السل والجرب)؟، أم أن موروث العلاقات العبودية والإقطاعية التي خلفها حكم الأتراك والأئمة، ما زال حتى الآن يؤثر في الحاكم في صنعاء؟، أم أنه واقع التخلف والفقر والقروية والقبلية، وكتل المصالح الضيقة، التي تزداد حدتها كلما جفت منابع الخير؟، أم أن السبب اختلال الأمن والاستقرار وفقدان التوازن السياسي والاجتماعي والحقوقي بين أبناء اليمن؟، أم أن كل هذه العوامل السلبية تجمعت، لتوجد التعثر، ولتطعن الأحلام والآمال الجميلة؟.

أدت نتائج الحرب إلى بقائي خارج البلاد، كنت أعتقد أن ذلك الوضع سيستمر على الأكثر عاماً من الزمن، ولكن ما حصل فعلاً، كان أطول من التوقع كثيراً، بقيت في الخارج منذ خروجي من الوطن في نهاية عام 1993م، وعلى مدى ثمانية أعوام، تنقلت بين بلدان ومدن العالم أثناء الحرب وبعدها في ثماني سنوات من الغربة وعدم الاستقرار. ثماني سنوات لم تخفف وطأتها، سوى مواقف الرجال الذين يقدرون الصداقة ويحبون اليمن واليمنيين، وشهامة ونبل العروبة التي وجدناها في الإخوة في الدول العربية، ومؤازرة الإخوة المغتربين اليمنيين.

كانت آثار الحرب بالنسبة لقسم منا، خروجاً من الوطن، ولجوءاً سياسياً في بلدان عدة، ولكنها كانت بنتائج كارثية على القسم الأكبر الباقي داخل البلد، إذ عوُمل قسم من الشعب، وخاصة في مناطق الجنوب، على أنه ضد الوحدة، وعلى أنه انفصالي، وعلى أنه مهزوم، كانت هذه المعاملة/ الرؤية/ السلوك، هي الأكبر دماراً، الذي خلفته حرب صيف عام 1994م. كان هذا العامل، أكبر بكثير في سلبياته، من استشهاد الآلاف من المواطنين، وأكبر

بكثير من الدمار الذي أصاب المناطق الجنوبية، وبالذات مدينة عدن، التي لحق بها تدمير ونهب هائلان، وكأنها حرب تدور في عهد الشطرين البائدين.

أصبح الوحدويون من أبناء جنوبي اليمن، يرددون: وصلنا مظفرين إلى صنعاء، مكللين بأكاليل النصر في عام **1990**م. صانعين للوحدة، ومؤكدين على ما قام به الأجداد وأبناء شعبنا من تضحيات وأعمال، لم تتوقف يوماً للوصول إلى هذا الهدف، ولكن أصحاب المصالح الخاصة الضيقة والمتعصبين للانفصالية المبطنة ومحرفي التاريخ، شككوا في وصولنا وفي وحدويتنا، رغم أننا صنعنا الوحدة معاً، وبنينا الجمهورية اليمنية منذ اللبنة الأولى معاً، فإذا بنا في صيف عام **1994**م وبعده، نتحول إلى انفصاليين تجاه وحدتنا، ومعادين لجمهوريتنا الموحدة.. يا للعجب.

بهذا الصدد، تحضرني الأبيات التي قالها الشاعر شايف محمد الخالدي القعيطي، الذي شارك في معارك فك الحصار عن صنعاء، وزارها بعد حرب **1994**م، فعندما قابل الرئيس علي عبد الله صالح، على رأس مجموعة من أبناء يافع، ألقى أمامه قصيدة، منها الأبيات التالية:

قدنا من أول يوم آمنا با قلنا يمن واحد وأسرة واحدة
وابذلنا الواجب لتحقيق المرام لا ذاك من حاشد ولا ذا من شبام
واليوم بالوحدة أملنا والهدف باختارها مصدر حديثي والكلام
ماحد فرض رأيه علينا بالمجيء أو بيقول إنه بنا صلى إمام
اليافعي عارف طريق العاصمة وأبوابها السبعة وعارف قصر سام
وأخبار مغلوطة إذا ما جاتكم لا تسمعوها من خفافيش الظلام
ما تعطوا الفرصة لشلة حاقدة أو تقبلوا منها بضاعة خام رام

كانت الأوضاع تسوء في اليمن، وبالذات في المناطق الجنوبية والشرقية، ولم توجد نية أو جهد أو عمل لتصحيح ما حدث من خطأ كبير، لم توجد نية أو جهد أو عمل لتصحيح ما حدث من حرب أضعفت الوحدة، ودمرت مقومات الشراكة بين قيادتيَ شطري اليمن، اللتين حققتا الوحدة معاً، ولذا، طال بقائي شخصياً خارج الوطن، رغم أنه منذ عام 1997م، كان أمر عودتي إلى صنعاء مطروحاً بالفعل كفكرة وتوجه.

وهناك عامل آخر مهم، لم يمكنني من تنفيذ تلك الفكرة وذلك التوجه، وهو أنني منذ انتهاء الحرب، كنت أقوم بواجبي في مساعدة النازحين، حسب المستطاع والممكن، لتحمل عبء النزوح القهري والإجباري، وكانت هذه المسألة بالنسبة لي أخلاقية، إن لم تكن مسؤولية واجبة تجاه قيادات وشخصيات ارتبطنا بها عقوداً من الزمن، ولا يمكن التخلي عنها من دون ترتيب أوضاعها في الداخل، أو اقتناعها بالبقاء في الخارج، وظل قرار العودة قائماً، وتوقيتها مفتوحاً، وبعد عودة البعض، بقي حتى عام 2000م نحو 1200 كادر وقيادي سياسي وعسكري وإعلامي وأطباء ومهندسين وبحارة وقادة، ولكن معظمهم قرروا العودة، وكانوا بانتظار الوقت المناسب لذلك، ما جعلني أعود إلى صنعاء.

بعد كل هذا، عدت إلى صنعاء، لا يمكن التعبير بصورة كافية شافية ومنصفة عن سنوات العيش بعيداً عن الوطن طوال الفترة 1993– 2000م. فقد كتبت الكثير عن هذا الجانب في كتابي الذي أصدرته في صنعاء عام 2007م. بعنوان «الغربة.. ليست وطناً»، ولكنني ما زلت أرى أنه ليس كافياً، فالثمانية أعوام كانت مليئة بالمشاعر الفياضة، والتخيلات الخصبة، والأحاسيس المتماوجة، والأفكار المتلاطمة كالبحر وأمواجه. وكثير غير هذا،

والمهم أنني عدت إلى صنعاء بعدها بعزيمة قوية وإرادة صادقة، في أن أُسهم مخلصاً في تجاوز المحنة التي حدثت، والتخلص من آثارها الباقية.

وأترك بعض من الأبيات الشعرية المختارة التي قيلت بمناسبة العودة من قبل كثير من الشعراء، تعبر عن تلك المحبة، وذاك التقدير والاحترام الذي أحسست به:

رحبت ياء. ألف. فا.عين..في كل محور	والمكاتب ترحب لعشرة والعشائر
بعد فصلين ثالث فصل من دون مجهر	حول ما تقتضيه المرحلة والبوادر
عودة الأخ سالم عز فيها ومفخر	خاص لأبناء يافع واليمن سائر
بادرة من علي تحمل معاها مؤشر	للتسامح وفتح الحوار المباشر
اكمل العفو يا قائد يمنا المظفر	لا تبقي مواطن غصب عنه مهاجر
اغلقوا صفحة الماضي التعيس المشطر	وابدأوا صفحة بيضاء نقية وطاهر

***

يا حيد يافع ذي على الرفع ارتفع	وبالشوامخ ذي بيافع شامخة
للضيف حيا بالزوامل والبرع	برع الجنابي والسيوف القاطعة
عاداتنا عادت بسالم ذي رجع	واعيادنا فيها العوايد راجعة
با ترجع الافراح لو راح الوجع	ورجعته سالم ليافع نافعة

***

وآخر القول

حيا يا ابن صالح محمد نجم	زاهي بدى سعف النجوم العديدة
ذي تنور سماء يافع وبالصدق تسعد	يا طيور السرى غنيهم أجمل نشيده
رحب بهم يافع ومن معهم حضر	جبال يافع رحبت عبر الأثير

كل الرواسي عيدها بأحسن خبر لما رجع سالم مرافق للمشير

كم كانت سعادتي بالعودة إلى صنعاء. فالوحدة، الحلم الكبير، باقية كما هي، وصنعاء المدينة باقية وزاخرة بالحياة والبناء والناس الطيبين، وما زالت الآمال المفعمة بالخير للوطن، والسعادة للناس، والحياة الحرة الكريمة للمواطن اليمني، ماثلة وقائمة وقوية أيضاً.

مثلي مثل كثيرين، كانت تلك هي تطلعاتي الشخصية، التي كنت قد جئت بها في عام 1990م. وهي تمثل إيماني في أن مهمتنا كقادة وكأبناء وطن عظيم، ليست في تحقيق الوحدة اليمنية وصيانتها على الدوام فقط، بل وفي بناء دولة عصرية حديثة، تنعم بالقانون والنظام والتقدم الاقتصادي ورفاهية المواطن، وتتجلى فيها بصدق، قيم الحرية والمساواة وحقوق الإنسان والحياة السعيدة لكل فرد يعيش بين أحضانها. فهذا هو الضمان الحقيقي، ليس لقيام الوحدة، بل وضمان لاستمرارها وثباتها أمام العواصف والأعاصير.

صنعاء هي حقاً عاصمة الحلم، الحلم الذي أتمنى أن يستمر، أسكن الآن في صنعاء في «حي التلفزيون»، الذي سمي بهذا الاسم، لأنه على تلة يفصلها وادٍ عن التلة المقابلة، التي تقع عليها مباني التلفزيون الرسمي والفضائيات اليمنية. وهذا الحي بُني بعد قيام الوحدة اليمنية، بمساعدة ليبية، لم يكتمل دفع حصصها المالية الأخيرة، كالعادة، وقد خصص للقيادات القادمة من عدن، والمنزل مكون من طابقين، وأقوم الآن بإضافة طابق ثالث. والجميل فيه، أنه يطل على الوادي الذي تقاوم الخضرة فيه زحف المباني، وعلى التلة المقابلة، جزء من أحياء سكنية تقع في أقصى الأنحاء الشمالية من صنعاء، ولكن المشكلة أن هذا الموقع الجميل للمنزل، يصبح في الشتاء قارس البرد، لذا، أحاول أن أهرب من شدة البرودة إلى عدن في مثل هذا الموسم.

الحياة هادئة في صنعاء، وكذلك عملي مستشاراً لرئيس الجمهورية، الذي عينت به في شهر مايو 2003م، وعند عودتي إلى الوطن في عام 2000م، وجدت نفسي متأثراً أكثر بميلي إلى القراءة والكتابة والتأمل، وهو الاتجاه الذي أَلِفت عليه أثناء عيشي في عدن، وأثناء وجودي خارج الوطن خلال الفترة من 1993 . 2000م، كمراحل قضيت فيها قسماً من وقتي منشغلاً بالقراءة والكتابة، لتوفر وقت كافٍ لذلك.

وفي السنوات الأخيرة، أخذت أم صلاح . شريكة حياتي . تلح عليّ بكتابة ما هو أهم من الخواطر والكتابات السريعة، وأن أكتب للتاريخ والأجيال القادمة، ما شهدته في حياتي، وما عشته من أحداث، وما تعلمته من دروس. وعندما تذكرني بالكتابة، أقول لها: كل شيء سيأتي في وقته، مثله مثل الثمرة لا تنضج إلا في وقتها، لكن هذه المرأة العظيمة الوفية، التي شاركتني الحياة بمرها وحلوها، وبالطلوع وبالهبوط، وأثناء الانتصار ومرارة الفشل والاندحار، جعلتني أواصل توجهي وهوايتي هذه عند استقراري في الوطن، ما بين صنعاء وعدن، حيث أصدرت ثلاثة كتب، اثنان في عام 2004م. هما (ذكريات وأحاديث عن النضال الوطني والتحرري)، و(متى يبدأ التعافي العربي)، وكتاباً في عام 2007م، هو (الغربة ليست وطناً)، وهنا، أصدر هذا الكتاب الخامس لي، حيث قد قمت بإصدار أول كتاب لي عام 1985م، هو (حول بعض قضايا العمل الأيديولوجي). كما أقوم الآن بكتابة الكتاب السادس، بعنوان: (ذكريات مدن وشخصيات عربية وعالمية).

هل أنا سعيد الآن؟. أجيب بنعم، هل أنا حزين الآن؟، أجيب: قليلاً.. كيف تتولد السعادة والحزن معاً ويتعايشان في نفسي الآن؟، ذلك ما آلت إليه تجربتنا منذ الانتقال إلى صنعاء عام 1990م، حينها كان الفرح كبيراً، لكنه لم يدم سوى ثلاثة أعوام ونيف، ذلك أن الجرح الذي ولّدته حرب عام 1994م،

عميق وواسع، وحتى إذا حاولت أنا ذاتياً تجاوز الآثار النفسية والفكرية والمادية والسياسية التي أوجدتها تلك الحرب، فإنني لا أستطيع أن أتجاوز هذا الكم من الآثار الباقية حتى اليوم، والتي نراها في الواقع الُمعاش، في نفوس الناس المواطنين، ومنعكسة على جميع مجالات حياة المجتمع اليمني، ولعل الحراك السلمي الجنوبي، الذي لم يهدأ منذ بدئه عام 2007م، يعبر بوضوح عن هذه الحقيقة.

أنا سعيد حقاً بما تحقق في عام 1990م، وأعيشه الآن، فذلك حلم تحقق، وله إيجابياته كفعل تاريخي كبير، وله انعكاساته الخيرة الطيبة في حياتنا كأشخاص، ولكنني لا أريد أحداً من أبناء وطني أن يشكو من الوحدة أو يحملها سلبيات البشر وأمراضهم، أو أن يشكك بها وبصحتها، أو أن تصبح لصالح أبناء شطر على حساب مصالح شطر آخر، أو أن تكون على حساب مصالح أبناء مناطق، على حساب مصالح أبناء مناطق أخرى.

هذه التخوفات والمسائل تأخذ كثيراً من تفكيري وتأملاتي واهتماماتي، وتسلبني ساعات عديدة من وقتي كل يوم، لماذا؟ لا أدري، لكن ما أعرفه جيداً وأدركه من خلال تجربتي في العمل السياسي منذ خمسين عاماً، هو أن نفكر جيداً بما حدث، وأن نمعن جيداً في تجربتنا الوحدوية، وما حدث خلال الأربعة الأعوام الأولى منها، هذا إذا كنا نريد أن ننهي المصاعب القائمة، والتعارضات السياسية والاجتماعية الصعبة التي نواجهها الآن، والتي يجب ألا نهملها أو نتجاهلها.

قدمنا إلى صنعاء عام 1990م، لنبدأ مشوار الحياة الجديدة، وهذا هو عمر الوحدة، ويومها، كم كانت اللحظات التاريخية الجميلة عندما التقينا إخوة في صنعاء، وصرنا أسرة واحدة متلاحمة متحابة، أذكر أنني تعرفت في الثلاثة الأعوام الأولى من سكني في صنعاء، إلى أُناس وأصدقاء، بقدر عدد الناس

والأصدقاء الذين عرفتهم طوال حياتي السابقة، وأرى أن ذلك ما حدث للكثير مثلي، ممن انتقلوا حينها من عدن ومدن جنوبي اليمن الأخرى، للإقامة في صنعاء.

هذه إحدى الصور النبيلة للوحدة، فقد اتسع الوطن كثيراً، بعد أن كان محصوراً في جنوب اليمن أو شماله، مساحة وأشخاصاً وهموماً، وهذا الاتساع، له وقعه الخاص، ولذته الخاصة، ربما لا يدرك حقيقتهما ولا ينعم بهما سوى اليمنيين والألمان فقط. في صنعاء، توطدت علاقتنا الشخصية بمن كنا نتواصل معهم قبل الوحدة، من قادة ووزراء، وفي مقدمهم، الأخ الرئيس علي عبد الله صالح.

وتعززت علاقاتنا مع الأشخاص الذين عملنا معهم في اللجان الوحدوية، وفي مقدمهم المرحوم الدكتور عبد الكريم الإرياني، الرجل الذكي والسياسي المحنك الودود في جلساته وأحاديثه. وبدأت علاقات واسعة جديدة مع أشخاص طيبين في محيط العمل، ومع الجيران في السكن، ومع كثيرين قابلناهم وسمعنا عنهم، أو صادفناهم في المدينة العاصمة التي أصبحت متحركة وصاخبة.

وفي صنعاء، التقينا وعايشنا أناساً التقيناهم منذ زمن طويل، مثل الشيخ سنان أبو لحوم، وهو شخصية وطنية كبيرة، تحلت بالميل إلى الخير وإصلاح الأحوال، وكنا نعرفه منذ ما قبل الثورتين، عندما كنا طلاباً ندرس في «المعهد الإسلامي» في عدن، وكان حينها يزور الأساتذة الكرام: محسن العيني وأحمد حسين المروني، والمرحومين القاضيين: العلامة غالب وعلي محمد عبده، اللَّذَين كانا مدرسينا في المعهد، وأذكر هنا، أن الشيخ سنان أبو لحوم، ترأس الاجتماع المشترك لقيادتَي الشطرين، الذي عُقد يوم إعلان قيام الوحدة اليمنية والجمهورية اليمنية في عدن يوم **22** مايو **1990**م، بصفته الأكبر سناً بين الحاضرين، وكان البعض خائفين – على سبيل المزاح – من أن يعملها الشيخ ويبارزها – أي يأخذ رئاسة الجمهورية. كانت نِعم الأخوة وأنقى الصداقة وأبهى صور الوطنية.

التقينا عند الوحدة بكثير ممن قابلناهم قديماً في عدن أو في تعز أو إب، أو في مناطق أخرى، ثم انقطعنا عنهم طويلاً، حتى قابلناهم أخيراً في هذه المدينة/ العاصمة، وفي صنعاء، التقينا بأشخاص كثر، كنا نتمنى أن نتعرف إليهم، فتم ذلك، وتوطدت علاقتنا بهم، ومنهم، مثلاً، الشيخ: عبد الله بن حسين الأحمر، رحمه الله، وهو من وجوه الثورة وقادتها، تمتع بصواب الرأي والحكمة والحسم والاتزان، وقد التقيته حتى أثناء وجودي في الغربة، في دبي عام **1997**م، كما التقيته مرات عدة في قصر المؤتمرات بجدة، بحضور صديقه الحميم، الوالد الشيخ عمر قاسم العيسائي، رحمه الله.

يحتاج موضوع من تعرفنا إليهم وعايشناهم في صنعاء منذ الوحدة المباركة وذكرياتنا معهم، إلى حيز واسع، كأن يكون كتاباً مستقلاً، ولكنني أشرت هنا إلى أمثلة عن الحياة الجديدة التي نحياها في مدينة صنعاء، فالوحدة غيرت شكل حياتنا ومحيطنا، وقد نتناسى هذه التغيرات الطيبة، الواسعة والعميقة، نتيجة لتعودنا عليها، أو في خضم الانشغالات اليومية بأمور الدنيا، ولكن من المهم، القول هنا إن هناك فرقاً كبيراً جداً بين العيش في وطن مشطر صغير، والعيش في وطن موحد كبير، ولو أدرك العرب هذا الفرق، لتوحدوا دون تأخير، مع أن عدداً منهم ممن أخبرتهم بذلك، قالوا إنهم يميلون إليه كثيراً، عندما يتخيلون الوطن العربي كله واحداً، ولكن عدداً منهم قالوا لي مازحين، إنه إذا ما تحقق ذلك الحلم الكبير، فإنهم يخافون أن يحدث عندها لديهم ما حدث عندنا في الصيف عام **1994**م، و(يطلعون انفصاليين)، أي يصبحون انفصاليين، ويفقدون كل شيء، بما في ذلك أملهم بالوحدة، التي قضت عليها حرب **1994**م.

ولك أن تعرف أيضاً، أن سكان صنعاء حين استقررت بها عام **1990**م، كانوا في حدود **800** ألف نسمة، وقد أصبحوا اليوم يقاربون

مليونين ونصف المليون من البشر، وما زال التوسع مستمراً. توسعت المدينة بما يفوق التصور، كانت أطرافها الجنوبية، مثلاً، لا تتعدى جبل نقم، وقد ظهرت بعد تلك المنطقة مدن جديدة، مثل الأصبحي الجديد، وبيت بوس ومدينة الشباب، وغيرها. وفي الاتجاه الشمالي مثلاً، كانت الأحياء الشمالية للمدينة لا تتعدى مباني وزارة الداخلية قليلاً، أما اليوم، فتراها وقد تواصلت بتزاحم، حتى تعدت مطار صنعاء البعيد.

الوحدة جاءت خيراً ونمواً على صنعاء، وعلى كل المدن والقرى اليمنية، وشهدت البلاد تطوراً كبيراً ملحوظاً في جميع المجالات والقطاعات، جميع أفراد الشعب اليمني متوجهون نحو العمل والبناء وتلبية متطلبات المعيشة، ولكن المتاعب والمشاكل والمصاعب في دولة الوحدة، جاءت من السياسيين، وطبعاً معظم السياسيين اليمنيين يعيشون في مدينة صنعاء، لذا، فإن لها أهمية وأثراً كبيرين في مستقبل حياة الناس، وأنا أدعو لها بالطمأنينة وبالخير والسعادة.. إن شاء الله.

ملاحظة:

(كتبت هذه المادة عام **2008**م، ورأيت إبقاءها كما كتبتها في تلك الفترة، وعدم تغييرها بأي إضافات، لمواكبة ما حصل من تطورات هائلة خلال السنوات اللاحقة، مثل ثورة الحراك السلمي الجنوبي، وثورة الشباب عام **2011**م، ومجيء الرئيس عبد ربه منصور هادي رئيساً توافقياً، وخروجنا للعلاج والعيش في الخارج من جديد، وفي انتظار الجديد والجديد، من جديد، على صعيد صنعاء ـ العاصمة للدولة الاتحادية الجديدة ـ أو للأقاليم التي خرج بها مؤتمر الحوار الوطني).

حصلت حرب مارس **2015**، وهي حرب مدمرة، تدخلت فيها دول التحالف العربي، بقيادة المملكة العربية السعودية ودول الخليج العربي، لإعادة الشرعية، ولها حتى الآن تسعة أشهر.

دمرت الحرب عدن وتعز وصنعاء وصعدة ومأرب ولحج والضالع والجوف والحديدة والبيضاء، وانتصرت الشرعية في عدد من المناطق، وما زال المتمردون في صنعاء وصعدة حتى الآن.

إنها الحرب اللعينة الثانية، التي قصمت ظهورنا جميعاً هذه المرة، وأصبح الوطن على كف عفريت، وهذه المرة أخطأ علي عبد الله صالح في الحساب.

سقطرى

بعد زيارة لمحافظة المهرة في عام 1972م، ومن مطارها، توجهنا بالطائرة إلى جزيرة سقطرى، حينها كنت مديراً عاماً للتعاون والإصلاح الزراعي، وكنت من جملة وفد رفيع المستوى ضم الإخوة:

سالم ربيع علي رئيس مجلس الرئاسة، وعبد الفتاح إسماعيل الأمين العام للتنظيم السياسي الجبهة القومية، ووزير الخارجية محمد صالح عولقي، ووزير الزراعة محمد سليمان ناصر، ومحافظ حضرموت فيصل العطاس. وعدد من القيادات الأخرى، يومها كنت أتحرق شوقاً لرؤية سقطرى، جزيرة الجمال والعجائب، لما سمعته عنها من أحاديث كثيرة.

كانت الطائرة العسكرية التي تقلنا نحو الجزيرة من نوع «الداكوتا»، ومقاعدها يمكن القول إنها خشنة، خاصة مع طول الرحلة التي استمرت لنحو خمس ساعات، سعت خلالها الطائرة جاهدة لتمخر السماء وسط رياح قوية عاتية، وعندما وصلنا الجزيرة، رأيت أمواج البحر العاصفة تعلو مع علو أرض الجزيرة المحيطة بمطار حديبو، الذي هو مطار طبيعي من صنع الخالق، وأرضيته مستوية بالتراب المائل إلى الحمرة، وفي تلك الليلة، مكثنا في ثكنة عسكرية من بقايا الثكنات التي أقامها الإنجليز إبّان الحرب العالمية الثانية. كان صوت الأمواج صاخباً، ولكن وقعه على السمع بديع، وكأنها موسيقى، وكانت السماء صافية والنجوم متلألئة، والهواء الآتي مع هبوب الرياح من البحر إلى اليابسة منعشاً.

كان في استقبالنا يومها عدد من أبناء سقطرى الطيبين الودودين، وأذكر منهم الأخ سعيد باحقيبة ـ عضو مجلس النواب الحالي، والذي كان آنذاك

سكرتيراً للتنظيم، وقد شهد مجمل التحولات أيام حكم الجنوب وبعده في ظل الوحدة.

في اليوم التالي، تحركنا في طريق ترابي إلى العاصمة حديبو، عندها شعرت وكأنني انتقلت إلى عالم آخر، البحر هائج يرسم لوحة جميلة، والجبال منظرها يسرّ العين والسواحل ساحرة، والأشجار تتداخل معها وتداعبها. وحديبو قرية جميلة، توجد بها منازل من طابق واحد، أغلبها بُني من الأحجار البيضاء شبه الكروية الشكل، والتي استخرجت من قيعان الشواطئ، وترى القوارب الصغيرة على الشاطئ المتعرج، وأحياناً ترى الماعز والماشية تتجول على الشاطئ، ويمثل هذا التداخل أحد الأشياء الكثيرة التي تلفت النظر في سقطرى.

بعد أن تعرفنا على طبيعة سقطرى وإمكاناتها الزراعية الكبيرة، قرر الرئيس سالم ربيع علي، انتداب مناضل ومزارع مجرب من أبناء لودر . العواذل، الأخ (علي عبد اللاه عاطف)، وذلك من أجل بدء العمل لتأسيس أول مزرعة في سقطرى، ذلك أن ما كان ينقص أبناء الجزيرة، هو الخبرة الكافية في مجال الزراعة والري، لأن معظم الأشجار في الجزيرة لم تكن مثمرة، وإنما ثمينة، ولذا، سميت الجزيرة «جزيرة اللبان» و«جزيرة البخور» و«جزيرة دم الأخوين» وغيرها، كما أن خبرتهم تنحصر في صيد الأسماك وتربية الماشية، ومن العجيب الذي عرفناه حينها، أن أسعار لحوم الضأن في سقطرى، أرخص من أسعار السمك.

لم تكن جزيرة سقطرى أرضاً بكراً في طبيعتها الرائعة، وفي حياة العيش فيها في ذلك الوقت فحسب، بل كانت أرضاً بكراً حتى في واقعها السياسي؛ فعلى الرغم من أن السلطة المحلية للجبهة القومية قامت هنا في 1967/11/30م يوم الاستقلال الوطني، إلا أن التنظيم السياسي، الجبهة القومية، لم يكن قوياً فيها، لا توجد منظمات قاعدية، وأيضاً من واقع سقطرى

– آنذاك – لم توجد نقاشات سياسية كثيرة أو اجتماعات حزبية أو سياسية، إلا بما له علاقة بأمور الحياة اليومية، ويومها قال أحد أعضاء الوفد: هنا السياسة بلدي، أي أن السياسة تمارس هنا بالطريقة البلدية، بحسب وضع الجزيرة.

ترك السلطان بن عفرير، سقطرى عذراء (الجزيرة العذراء أحد الألقاب العالمية لجزيرة سقطرى)، وكان لباسه متواضعاً، يرتدي «الفوطة»، ويبقي نصفه العلوي متعرياً (إن صح التعبير)، إلا من سيفه الحميري اليافعي، الذي لا يبارحه لحظة. وأقول هذا، لأن الجزيرة حينها لم تعرف مدرسة، أو طريق، أو مستشفى، أو حتى وحدة صحية، أو كهرباء، أو أي من الخدمات الأساسية الأخرى.

تعد «جزيرة سقطرى»، أكبر جزيرة في العالم العربي، وتبلغ مساحتها **3500** كيلومتر مربع، وتقع في الطرف الشرقي من خليج عدن، قبالة مدينة المكلا تقريباً، وهي تبعد عن المهرة نحو **500** ميل وعدد سكانها حين زرناها كان يقارب **20** ألف نسمة، لكنْ هناك كثير من أبنائها مهاجرين خارج البلاد، وخاصة في دول الخليج العربي والسعودية.

ويعود أصل السقطريين إلى القبائل الحميرية اليمنية، التي جاءت من المهرة ومناطق أخرى من جنوبي اليمن، وهم حكامها لعدة قرون، حتى عشية الاستقلال الوطني، فقد ذكر المؤرخ البرتغالي «باروش»، أن قبيلة بن عفرار، انطلقت من مدينة قشن المهرية على الشاطئ الجنوبي من الجزيرة العربية، لتنشئ سوقاً في شرقي حديبو، وتحكم سقطرى، وكان ذلك في عام **1481**م، وقد احتلها البرتغاليون والإنجليز لفترات متقطعة، حتى احتلها الإنجليز بصورة مستقرة في عام **1954**م.

ويبلغ طول الجزيرة تقريباً **72** ميلاً؛ في حين يبلغ عرضها حوالي **22** ميلاً، وهذا الشكل البيضاوي هو ما أكسبها روعة خاصة، وأنها منخفضة عند

السواحل، وتبدأ بالارتفاع التدريجي حتى الوسط، الذي يصل ارتفاع الجبال فيه إلى حدود خمسة آلاف قدم، ولم نتمكن من زيادة تلك المرتفعات المسكونة، لأن السير إليها شاق جداً، ولا يمكن الوصول إليها بالسيارة، لأنه لا وجود لمساحات للمرور وسط الأشجار الكثيفة التي تغطي المرتفعات، وتجدر الإشارة هنا، إلى أنه يوجد في الجزيرة ما يقارب ستمئة نوع من الأشجار والنباتات النادرة عالمياً، وعدد منها لا نظير له في بقية العالم.

من الصعب على من رأى سقطرى، أن يصف كل ما رآه في أثناء تلك الزيارة، رأينا قرية قلنسية، التي تعانق البحر في حضن اليابسة بصورة بديعة أخاذة، وهي على شكل هلال أو نصف دائرة، تجمع في لوحة واحدة، الجبل والشاطئ وبيوت القرية الصغيرة والساحل الذهبي اللون وخضرة الأشجار في القرية والمرتفعات المحيطة بها، شاهدنا في «نوجد»، الكهوف الباردة، خلافاً للجو في الخارج، وتنزل المياه قطرات من أسقفها، تلك المناظر وغيرها الكثير، ما زالت في مخيلتي، على الرغم من مرور زمن طويل جداً، ولهذا، ولما تملكه الجزيرة من مقومات طبيعية فريدة، فقد أصبحت أحد معالم العالم البديعة، ولها عشاق كثر، ليس في اليمن والعالم العربي، بل وفي جميع أنحاء العالم، وهم الذين طالبوا منذ سنوات طوال، أن تتحول إلى محمية طبيعية، وهم الذين جعلوا الجزيرة ضمن سبعين معلماً عالمياً مرشحاً لأن يكون من ضمن عجائب الدنيا السبع.

أيضاً، شاهدنا أثناء الرحلة حياة الصيادين ليلاً، وهم يرقصون مع زوجاتهم في جماعات تحت أضواء الفوانيس، وعلى ضوء القمر يسامرون القمر والنجوم بصوت الطبل وإيقاع الحركة، ثم يذهبون إلى النوم، وفي الفجر، يبحرون بقواربهم للاصطياد.

ومما يلفت النظر، ملبس الرجال والنساء وهندامهم، الذي يستمد وجوده من الموروث الأصيل، حث تعد ملابس وأزياء وحلي النسوة في سقطرى، من أبدع ما يراه المرء من تصميم وجودة، وكأنها صممت في أكبر دور العروض العالمية، ولا تعرف الحياة الاجتماعية هنا العُقَد العثمانية التركية، التي جلبت إلى اليمن، فالمرأة لا تتحجب من أقربائها من الرجال أو أبناء قريتها، ولكن عدداً منهن يطلين وجوههن بتلك المساحيق العطرة السائلة، التي تميل ألوانها إلى الأخضر والأحمر والأزرق، وهي شبيهة بتلك المساحيق التي تضعها المرأة اليافعية على وجهها وبدنها، كما أن للمرأة السقطرية دورها جنباً إلى جنب مع شقيقها الرجل في تربية الماشية وصيد الأسماك، وهي القائمة على الأمور المنزلية، أما رجال سقطرى، فهم رجال أشداء وكرماء الخلق، ومتدينون ملتزمون بالفرائض والسنن، جميعهم ينتمون إلى قبائل أصيلة وشديدة البأس.

ومن ضمن الشواهد التاريخية خلال تلك الرحلة إلى سقطرى، أنني تعرفت إلى الرفاق السوفييت، الذين كانوا مهتمين بزيارة الوفد هذه، وعند نهايتها، كانوا حريصين على نقلنا إلى عدن على إحدى البوارج (إحدى سفن الأسطول البحري السوفييتي)، وقد استغرق الإبحار من الجزيرة إلى عدن يومين كاملين تقريباً، ومع أن الحياة في البارجة كانت شبه فارهة، بقياس تلك الأيام، فقد نقلتنا من أجواء الجزيرة الطبيعية، إلى أجواء العيش على البارجة، التي تقترب من أجواء العيش في مدينة حديثة، إلا أن ذلك لم يؤثر في الانطباعات العميقة والجميلة والنادرة عن سقطرى، وقد تناقلت وكالات الأنباء الغربية خبر نقل الرفاق السوفييت لنا، على اعتبار أن الوفد على البارجة كان رفيعاً، وظلت تردد (وسائل الإعلام الغربية)، أن البوارج الحربية الروسية/ السوفييتية قد احتلت جزيرة سقطرى، أو أن الروس/السوفييت، قد أقاموا قاعدة لهم هناك.

وما حدث أيضاً يومها، أنه عند وصولنا بالسفينة الحربية إلى عدن، كان الرفاق السوفييت قد أعدوا برنامجاً لقضاء ليلتين على ظهر السفينة، الليلة الأولى كانت بترتيب من سفارة الاتحاد السوفييتي في عدن، التي استضافت الوفد العائد من سقطرى في وليمة عشاء، أما الليلة الثانية، فكانت عبارة عن «دورة بحرية عسكرية» لأعضاء الوفد الذين تحولوا إلى ضباط تحت إمرة الرفاق، ولما كان الوفد متعباً من عناء الرحلات من عدن، إلى المهرة، إلى جزيرة سقطرى، ثم إلى عدن، فقد احتج العديد من أعضائه على تلك المعاملة، وعندما أفصح الأخ فيصل العطاس (محافظ حضرموت حينها)، عن احتجاجه لدى أحد كبار ضباط البارجة، إذا بالمترجم يقول له: أنت في بارجة عسكرية، ولست في السفارة السوفييتية.

والحقيقة أنني لم أفهم ذلك البرنامج الذي شمل إقامتنا ليلتين على البارجة الروسية، هل كان ذلك استعراض عضلات سوفييتية أمام قيادات جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية؟، أم كان برنامجاً معتاداً للسوفييت وكرم ضيافتهم مع قادة البلدان النامية الحليفة، أمثالنا؟ أم أن ما حدث كان رسالة للرئيس سالمين، الذي كان قد زار الصين الشعبية عام 1970م، زيارة حافلة؟، وهناك احتمال آخر، وهو أن كل ما جرى كان من أجل سقطرى، وإرسال رسائل إلى عدة دول غربية وعربية معادية للسوفييت.

كانت جزيرة سقطرى دائماً حلماً من أحلام توسع الدول الاستعمارية الكبرى، وخاصة الإنجليز والبرتغاليين والفرنسيين، ويبدو أن الروس انضموا يومها إلى القائمة، وأذكر هنا شواهد كثيرة في السياق، منها أن الفرنسيين عرضوا على الرئيس سالم ربيع علي خيارات عدة لاستئجار جزيرة سقطرى، أو اتفاقية لتطويرها، ولكنه رفض تلك العروض، كما عرض الرئيس العراقي الراحل صدام حسين في الثمانينيات، أثناء الحرب العراقية ـ الإيرانية، استئجار الجزيرة،

لكن طلبه لم يُقبل، ويقال إن الليبيين والسوفييت أيضاً، طلب كل منهم إقامة قاعدة عسكرية له في الجزيرة، ولكن طلبيهما كانا شفوياً، ولم تُقدم أو توجد وثائق تثبت ذلك. وحالياً، فإن تصاعد القرصنة البحرية في خليج عدن والبحر العربي والمحيط الهندي القريب من المنطقة، قد جعل مسألة إقامة قاعدة عسكرية في جزيرة سقطرى، تبحث عن حضور لها مجدداً، ولا أحد يعلم من هي الدول المسجلة في قائمة الانتظار.

إن ذكريات تلك الرحلة إلى سقطرى، لا تنسى، إلى درجة أنني أتمنى دائماً زيارتها مرة أخرى، لولا مشاغلي الكثيرة، التي تحول دون ذلك، إلا أنني أتابع أخبار سقطرى عن كثب؛ فقد تطورت الجزيرة كثيراً منذ الاستقلال الوطني عام 1967م، وقيام الجمهورية اليمنية عام 1990م في جميع المجالات، وأصبح عدد سكانها يتجاوز المئة ألف نسمة، وبني فيها مطار حديث ولسان بحري، وأقيمت فيها بعض الخدمات الأساسية، مثل التعليم والصحة والكهرباء، وبدأت تظهر فيها بعض المرافق السياحية، وصار أبناء الجزيرة يعملون في جميع قطاعات الحياة، وكذلك دخلت المرأة السقطرية مجالات العمل الأخرى في قطاعات التربية والصحة وغيرها. ففي الحياة الجديدة، احتلت موقعها، ودخلت حياة العصر الحديث.

إن سقطرى تنال الحب من الجميع بجمالها الذي يسلب الألباب، وطبيعتها الخلابة النادرة، وسجايا أبنائها الطيبين، فإلى جانب ما بذلته الحكومات اليمنية المتعاقبة على مدى أربعة عقود من الزمن، من أجل تحسين المعيشة في الجزيرة وتحديثها والعناية بها، فإن عدداً من الدول الشقيقة والصديقة قد ساهمت فيما تحقق من إنجازات ومكتسبات، سواء بصورة مباشرة، أو من خلال صندوق تطوير الجزيرة الذي استحدثته الدولة في السبعينيات. وتحضرني الذاكرة الآن، أن آخر تلك الجهود، هو قيام دولة الكويت الشقيقة الشهر

الماضي (يناير 2009م)، بوضع حجر الأساس لإقامة «كلية المجتمع» في سقطرى على نفقتها، وهذا المشروع أحد الدلائل على تطور التعليم في الجزيرة، جزى الله خيراً إخوتنا الكويتيين، وكذا الإخوة الإماراتيين، بما قدموه من مشاريع لهذه الجزيرة، أختتمها بمفارقة عجيبة، وهي تنم عن المتغيرات ودورة الزمن، إذ التقيت قبل أشهر، وفي مدينة دبي، بالشيخ عبد الله بن عفرير، ابن سلطان الجزيرة والمهرة، في لقاء الجنوبيين بممثل الأمين العام للأمم المتحدة، جمال بن عمر، وسألته من أين أصول آل عفرير؟، فأجاب من آل عفيف ـ من سرو حمير.

وأخيراً، في عهد الرئيس عبد ربه منصور هادي، أُعلنت سقطرى محافظة، ومحافظها ابنها البار سعيد باحبيقة.

حالمين والشعيب

ارتبطت حالمين في ذاكرتي بمكان وبشخص؛ فقد سمعت عنها لأول مرة في عدن، عبر الأخ المناضل عبد الله مطلق صالح، الذي كان يعمل في مصافي عدن بحي مدينة البريقة، وبدأ نضاله في الأطر النقابية في المصافي، التي كانت من قلاع العلم الوطني، تخرج فيها مناضلون أشداء من أجل التحرر الوطني، وطرد الاستعمار البريطاني.

وكان عبد الله مطلق أحد الـ 25 عضواً مؤسساً لمنظمة أحرار جنوب اليمن المحتل عام 1961م، والتي كان معظم مؤسسيها من أبناء منطقة يافع، ثم أصبح رئيساً لجمعية أبناء يافع في عدن، التي شمل نشاطها أيضاً مناطق يافع في أبين ولحج. وقد انتُخب رئيساً لـ «جمعية أبناء يافع»، بالرغم من أنه كان من «حالمين»، فقد كان الناس والشباب في تلك الأيام العظيمة والطاهرة، من أبناء المناطق المتقاربة: يافع، ردفان، حالمين، الشعيب، خنفر، الضالع، العواذل، لحج. يتعاملون ويعاملون بعضهم على أنهم من منطقة واحدة. فتجد هذا الشخص من منطقة معينة، ينخرط مع أبناء منطقة أخرى، وتجد ذاك الشخص يعيش مع مجموعة من منطقة أخرى. كانت النفوس منسجمة، والقلوب متآلفة خالية من المشاعر والأحاسيس المناطقية الضيقة أو القروية أو القبلية، والآن الطائفية المقيتة.

أجل، في تلك الأيام التاريخية، كانت نظرات الناس ومفاهيمهم أوسع بكثير مما هي عليه الآن؛ فمجموعة المناطق المتقاربة، كانت تمثل منطقة واحدة، بالرغم من أن النظام السائد كان نظاماً استعمارياً قبلياً، ولقد أذكى هذه

السلوكيات المتقدمة، الشعور الوطني المشترك، والموقف الموحد من النضال الوطني التحرري، بما مثله من وعي وثقافة ونهج لا مِرَاء فيه ولا تصَنُّع.

بعد سنوات، انشغل عبد الله مطلق بالنضال والكفاح المسلح في جبهة حالمين، التي كانت جبهة قتال نشطة، قامت قيادة الجبهة القومية بفتحها بعد أشهر قليلة من انطلاق ثورة 14 أكتوبر من جبال ردفان الشمَّاء، وذلك كونها منطقة لم تخضع للسيطرة البريطانية، وبإمكانها التخفيف من ضغط القوات البريطانية على ردفان، وشكلت حالمين بعد ذلك وحدة واحدة مع جبهات القتال الرئيسة في ردفان والضالع وغيرها. نتيجة لموقعها الجغرافي في وسط المنطقة كلها، حيث يحدها من الجنوب: حبيل الجبر والحبيلين. ومن الشمال: الشعيب. ومن الشرق: يافع. ومن الغرب: الضالع. وكان لها دورها الفعال في إسناد تلك الجبهات بالرجال المقاتلين، الذين كانوا قد بدأوا مقاومة الاستعمار البريطاني منذ منتصف الخمسينيات.

كانت قرى «جبل القضاة»، مركز قيادة جبهة حالمين، الذي كان من أبرز قادتها ومناضليها: عبد الله مطلق، الشيخ محمد مطلق، علي صالح مقبل، محمد سعيد الكرب، مطلق صالح، محمود مطلق، قاسم محمد علي، قاسم عسكر، وآخرون، وقد أدت فاعلية «حالمين» في الكفاح المسلح، إلى أن يحاول الإنجليز دخولها لأول مرة في عام 1965م، ولكنهم فشلوا، لأنها منطقة جبلية محصنة طبيعياً، كما أن جميع المناطق حولها، تعد مناطق ملتهبة.

وحالمين لا تختلف كثيراً عن المناطق المجاورة، فهي منطقة جبلية، تحتل المزارع والمدرجات الزراعية فيها نسبة قليلة، وبعد الاستقلال، كنا نتوقع أن ينال الأخ عبد الله مطلق أرفع الدرجات عن نضاله الطويل المخلص في صفوف الثورة، إلا أن خلافات عادية مع القيادة آنذاك، أدت إلى أن يُظلم المناضل الكبير، وأن يودع السجن، حيث بقي في السجن لمدة تقارب العشرة أعوام، ولم

يخرج منه إلا عام 1977م، ليعود من جديد نشيطاً مناضلاً، ورجلاً يحمل قيماً نبيلة يعمل على أساسها.

زرت «حالمين»، التي تبعد عن عدن بما يقارب 15 كيلومتراً، والقريبة من مناطق يافع، في الثمانينيات، وكنا مجموعة من الأصدقاء، منهم الشاعر شايف محمد الخالدي وآخرون. توجهنا كموكب من عدن، وكان في استقبالنا هناك الأخ عبد الله مطلق، والأخ علي عبد الله الغلابي، وهو واحد من مئات من أبناء حالمين والشعيب، الذين شاركوا ببسالة وتضحية، دفاعاً عن ثورة 26 سبتمبر، وكان ضابطاً في جيش الجمهورية العربية اليمنية. وله ديوان شعري، قرأت فيه قصيدة في وصف معركة بني حشيش، يقول فيها:

قال ابن غلاب تفكيري شرد وامسيت صاحي ولا جاني منام
والناس من جانبي محد رقد وانا تحرمت من نومي حرام
المعركة مثل راعد ما رعد من قمة اللوز إلى وادي رجام
شكل القذائف يسقط كالبرد والبرق من كل مدفع بانتظام
قاسم منصر من الخوف ارتعد هرب مستر مع جنح الظلام
عطف فراشه على ظهره وشد وقال ما فائدة كثر الكلام
الجيد من شل عمره وابتعد من بعد ما الجيش قادم للامام
ذي مَيلكوا ما أحد منهم صمد ولا نفعهم دعاء البدر الإمام
مخلوع بالجرف ما عنده سند وقال: لازم يريد الانتقام

والشاعر «الغلابي»، شاعر شعبي مشهور ومثقف، وقد ترأس «منتدى يحيى عمر الثقافي»، مع الأديب المرحوم أحمد بو مهدي عند إنشائه في عدن في مطلع التسعينيات، وكان لهذا المنتدى دور هام في إحياء تراث الشاعر الخالد «أبو معجب».

ومن بين نواحي حالمين، حبيل الريدة والرباط وجبل القضاة ولكمة الذيبة وغيرها، لا بد أن يجذبك وادي شرعة، فهو منطقة تاريخية، تشهد على تاريخها حصون أثرية باقية، وهو الآن مشهور في الغالب بـ «حمامات شرعة»، التي تعد من أبرز معالم حالمين، ومن أشهر مواقع الاستحمام والاستشفاء في اليمن، وكان هو في الأصل هدف الزيارة والموقع الذي اقترن بالذاكرة مع حالمين، وقد قضينا معظم وقت الزيارة تلك في أحواض شرعة الغنية بالمياه المعدنية والطبيعية، وعلى جوانبها نتبادل أطراف الحديث والذكريات، وتلاوة أبيات الشعر والتمتع بجمال الطبيعة حولنا.

إذا ما انتقلنا للحديث عن منطقة الشعيب، التي يتطلب الوصول إليها، السير في طريق وعرة جداً شمالاً من حالمين، فقد زرتها في عام 1983م، ولكن ليس عن طريق البر، وإنما بطائرة مروحية (هليكوبتر)، انطلقت من عدن في مهمة رسمية خاصة؛ فضمن الخلافات الكثيرة بين أفراد قيادة الدولة والحزب الحاكم التي شابت تلك السنوات، حدث خلاف بين الرئيس علي ناصر محمد، والأخ صالح مصلح قاسم – عضو المكتب السياسي، وأحد أبرز قادة البلاد، وأدى ذلك إلى أن غادر الأخ صالح مصلح قاسم عدن، وبقي في مدينة العوابل، عاصمة الشعيب، ولما طال اعتكافه هذا، استدعاني الرئيس علي ناصر محمد، وكلفني بالتوجه إلى الشعيب، والتوسط لحل خلافه مع أخيه صالح مصلح قاسم.

وصلنا إلى العوابل، التي لم تكن لتختلف عن مناطق حالمين وردفان والضالع ويافع، من حيث المناظر والخصائص العامة، لكنني أثناء تحليق الطائرة أخذت فرصة لأرى هذه المناطق من الجو في مناظر جميلة، جعلتني في نفس الوقت أتفحص مُجدداً طبيعة سلسلة جبال المنطقة الشديدة الانحدار، وكذا

كنت متحسراً، لأن ما أراه من السماء لا يوجد فيه سوى القليل القليل من اللون الأخضر، لون الأشجار والزراعة.

كان الأخ صالح مصلح قاسم في استقبالنا شخصياً، هو وعدد من الإخوة من أبناء الشعيب، لا تسعفني الذاكرة الآن لتذكر أسمائهم، استقبلنا بحفاوة، وتوجهنا إلى منزل الأخ صالح مصلح قاسم، الذي أكرمنا بضيافته وجلساته الشيقة وأحاديثه المنعشة ونكاته اللاذعة؛ فعندما تجلس وتتحدث مع صالح مصلح قاسم، تجد فيه الشخصية القيادية المحنكة والمجربة، ولِمَ لا، وصالح مصلح الذي بدأ نضاله مبكراً من بين صفوف الشرطة ضد النظام السلاطيني، ثم كان من أوائل المشاركين في القتال ضد الإنجليز، وبعدها، كان القائد الأول لجبهة الشعيب، مع الشهيد صالح حسين، أثناء مرحلة الكفاح المسلح ضد الاستعمار، التي شكلت أحد الروافد لجبهة ردفان الأساسية، واشترك في جبهة النضال كثير من أبناء الشعيب، لا تسعفني الذاكرة لذكرهم، وأذكر منهم الآن، الأخ محمد غالب أحمد، وهو شخصية معروفة، لها مكانتها، ليس في داخل البلد، وإنما في خارجها، نتيجة لاهتمامه بالمغتربين اليمنيين وقضاياهم في المهجر، وخاصة بريطانيا وأمريكا، حيث يوجد كثير من أبناء الشعيب في الدولتين المذكورتين.

ولقد أصبح القائد صالح مصلح قاسم، بعد نيل الاستقلال الوطني، قيادياً، ليس على مستوى منطقته، وإنما على مستوى الجمهورية الوليدة، ثم أثبت بعد الاستقلال قدراته كرجل عسكري وأمني، وكرجل دولة من الطراز الأول، حيث أُوكِلت له مهام صعبة في جهاز الدولة، أهمها عمله لفترة طويلة، وزيراً لوزارة الداخلية، وأيضاً أُوكلت له مسؤوليات قيادية هامة، أهمها مسؤوليته على عمل فروع الحزب في شمال الوطن.

بعد الأحاديث المتفرقة مع الأخ صالح مصلح قاسم في منزله بالعوابل، كان الحوار بشأن ما قَدِمنَا من أجله، وكعادته دائماً، أظهر براعته السياسية وصفاته في السمو فوق الخلافات بين الرفاق، إذ تم التفاهم بيننا، بما نقلته إليه، وما أجاب بشأن خلافه مع الرئيس علي ناصر محمد، وتم التوصل إلى حل للخلاف، وفي فترة وجيزة، واتفق على عودته إلى عدن، ولم تعد هناك أي مشكلة.

بعدها، ودعت الأخ صالح مصلح قاسم، ومن قابلتهم من أبناء العوابل، وتوجهت الطائرة المروحية بنا إلى يافع «لبعوس»، وكانت بالنسبة لي أقصر رحلة بالطائرة في حياتي، حيث لم تستغرق سوى عدة دقائق، حتى وجدت نفسي في موقع الهبوط المحدد في لبعوس، القريب من قرية «الهجر»، ومنها توجهت إلى قريتي – مسقط الرأس ضيئان، الواقعة في نفس المنطقة، وعلى مقربة منها. وبالمناسبة، كانت الرحلة من قرية «الهجر» إلى قرية ضيئان بالسيارة عبر الطريق الوعرة، أطول وقتاً من وقت الرحلة من الشعيب إلى يافع بالمروحية.

ردفان وعاصمتها الحبيلين

«الحبيلين» هي عاصمة ردفان، وهي من المناطق اليمنية المشهورة، وهما تقعان على الطريق الرئيسة بين عدن ولحج إلى يافع – منطقتي ومسقط رأسي – لذا، لا أستطيع أن أحصي كم هي المرات التي مررت بها، وردفان اسم منطقة معروفة عالمياً، اكتسبت شهرتها،

كونها منطلق ثورة الجنوب اليمني المحتل ضد الاستعمار البريطاني، إذ كانت تُردد اسمها كُل وسائل الأعلام العالمية على مدى أربع سنوات من **1963** ـ **1967**م. أما عاصمتها «الحبيلين»، التي تبعد عن ميناء عدن ما يقارب **135** ميلاً. فتعد ـ الآن ـ مدينة حديثة، اكتسبت نمواً كبيراً بسبب مرور طريق عدن ـ صنعاء عبرها، وكذا، باعتبارها محطة التموين الرئيسة للمسافرين في طريق العسكرية ـ لبعوس يافع، باتجاه محافظة البيضاء وما يليها من مناطق.

وشارع مدينة الحبيلين الرئيس، صار من أجمل وأطول شوارع محافظة لحج، وجاء هذا بفعل النهضة العمرانية للمدينة، التي كانت قبل عشرين عاماً قرية، وأصبحت اليوم مدينة، لا يقل عدد سكانها عن ثمانين ألف نسمة. والمدينة قريبة من مجرى وادي «بنا»، حيث شُيد على أطرافها أهم وأكبر جسور الوادي، الذي تبدأ منه الطريق نحو العسكرية، الملاح، ردفان، وكانت الحبيلين القاعدة المتقدمة للقوات البريطانية، التي تنطلق منها هجماتها البرية على وديان وجبال ردفان.

منذ بداية القرن العشرين، كانت مناطق ردفان، قد شهدت انتفاضات شعبية مسلحة مبكرة، ضد الوجود البريطاني في عدن، وما سمي بالمحميات الغربية، وذلك في الأعوام **1918**م ـ **1938**م –**1948**م –**1957**م، قامت

بها قبائل المنطقة، وأهم تلك القبائل: القطيبي، المحلائي، العبدلي، الداعري، الحجيلي، البكري، وغيرها، وكانت أهم تلك الانتفاضات العارمة، في الرابع عشر من شهر أكتوبر من عام **1963**م.

وشهدت مناطق ردفان أقوى المعارك في تاريخها في عام **1964**م. فمن جهة، استعد أبناء المنطقة بجلب الأسلحة والذخائر من شمالي الوطن، بالإضافة إلى أن قبائل ردفان وحدت صفوفها، حيث أجريت عمليات صلح قبلية في شهر ديسمبر **1963**م، استعداداً لمواجهة الإنجليز، وأهمها الصلح بين قبائل: العبدلي والبعطني، والداعري والمحلائي، وآل الشيخ وحالمين، والبكري والقطيبي، والضنبري، وغيرها، وكانت هذه الخطوة من أهم دروس ردفان في النضال الوطني.

وعلى الجانب الآخر، سعى الإنجليز إلى قمع ثورة **14** أكتوبر في مهدها، بحجة إنهاء تمرد ردفان على «دولة اتحاد الجنوب العربي»، وتركز اهتمام الإدارة البريطانية في عدن على هذا الهدف، منعاً لانتشار التمرد «الثورة» في بقية مناطق جنوبي اليمن المحتل الأخرى، وتقدمت القوات البريطانية إلى منطقة «الثمير»، الواقعة بعد منطقة الملاح، كما أن جميع عمليات سلاح الجو البريطاني وقواعده في عدن، تركزت منذ ذلك الحين على مناطق ردفان وحدها.

وهكذا، قامت القوات البريطانية البرية وسلاح الجو البريطاني، بأكبر المعارك لها في جنوبي اليمن المحتل على الإطلاق، ابتداء من أول شهر وحتى آخر شهر من العام المذكور، حيث قامت بأكبر خمس عمليات في المنطقة، مهاجمة وديان وجبال ردفان، مثل وادي تيم، ونجد الربوة، ووادي الذنبة، وغيرها، حتى لم يبقَ وادي أو قرية أو جبل في ردفان، إلا وطالته العمليات العسكرية الخمس الضخمة، التي شنت طوال العام من قبل الإنجليز، ومع كل إخفاق عسكري للعمليات الحربية، كانت طائرات سلاح الجو البريطاني، تقوم برمي القنابل على

البيوت وتحرق المنازل والمزروعات في الحقول، ما اضطر كثيراً من العائلات إلى مغادرة المنطقة، والتوجه إلى المناطق المجاورة، وبالذات، إلى مناطق يافع التي لا يوجد فيها وجود بريطاني، والتي تتميز بالجبال الشاهقة العصية.

وفي السنوات اللاحقة 1965 – 1967م، كان الأسلوب الفدائي، إضافة إلى العمل الشعبي الواسع، هو الأسلوب الذي اتبعه الثوار لمواجهة الاستعمار في عدن وجبهات أخرى، ولكن مناطق ردفان والضالع والشعيب، وجبهة ردفان الغربية، ابتدعت أساليب فدائية جديدة في الكفاح المسلح، اعتمدت على التنظيم المبسّط الفعال، وأساليب إقلاق وإنهاك العدو، والتنسيق الخلاق مع الجبهات الأخرى، المبني على تحقيق الأولويات، وضمان الخروج بالانتصار على القوات البريطانية في كل معركة.

ويطول ويعرض الحديث عن دور ردفان في النضال التحرري، ولكن يمكن الاختصار بالقول إنه لولا دور أبناء ردفان هذا، لما نال جنوب اليمن المحتل استقلاله، ولما تم جلاء الإنجليز من عدن، وقد أنشد الشاعر لطفي جعفر أمان أبيات لردفان، ضمن قصيدته المشهورة «بلادي حرة»، قال فيها بمعانٍ عميقة دالة:

لك المجد ردفان كم ثائر
قذفت به لهباً يهدر
يطير على صهوات المنى
وينتزع النصر.. لا يقهر
فأين القلاع مدوية
تصول.. وتردي.. وتستهر؟
وأين العروش مفخمة؟
وأين من الشعب مستعمر

جحافله.. بل شياطينه
كما قيل.. حمر.. الا فاسخروا
لقد هب ردفان في ثورة
يخلدها عيدنا الأكبر
وينشرها فوق كل الجنوب
ضياء سخيا.. لأول مرة
بلادي حرة

وعند تناول الدور التاريخي الثوري لردفان، ومجمل الإسهامات والأعمال العظيمة لـ «مدرسة ردفان النضالية»، فلا بد من ذكر قوافل المناضلين الذين قاموا بها، وقدموا كل غالٍ ونفيس من أجل الوطن وحريته؛ فقد كان هناك تنظيم وملاحم بطولية ورجال أفذاذ وأبطال، وفي مقدمهم قادة محنكون من أبناء ردفان، نذكر منهم أمثال: الشيخ غالب بن راجح لبوزة (أول شهيد للثورة)، سعيد صالح سالم، قاسم عبد الله الزومحي، الشيخ سيف مقبل القطيبي، الشيخ سيف حسن الأخرم، محمود ناصر داعري، عبد المجيد ناصر محلائي، عبد القوي ناصر محلائي، بالليل بن راجح لبوزة، صالح سيف مقبل، صالح محسن الواحدي، محمد صالح الضنبري، محمد ثابت الخبجي، علي سيف مقبل، قائد علي، حنش ثابت سفيان، صالح حسين الغزالي، فضل عبد الكريم الداعري، مثنى سالم عسكر، صالح مثنى عليب، محمود صالح أحمد، وغيرهم كثيرون.

ولا ننسى هنا دور المرأة الردفانية، التي حملت السلاح جنباً إلى جنب الرجل، وتحملت عناء وقصف الطيران البريطاني وحرق المنازل والمزارع وويلات التشرد. ومن المناضلات اللاتي يستحققن الذكر، المناضلة دعرة بنت سعيد،

التي بدأت حمل السلاح منذ المقاومة الشعبية في ردفان عام 1956م، وواصلت مشاركتها كفدائية أثناء فترة الكفاح المسلح.

وإلى جانب تمتع أبناء ردفان بالروح الكفاحية والاستعداد للتضحية، فإنهم يمتازون بالأخلاق العالية والخصال الكريمة، والصفات الحميدة والتواضع الجم وحب الآخرين، وعشق الحرية والكبرياء، وفوق هذا وذاك، منفتحون على أبناء المناطق والقبائل الأخرى أكثر من غيرهم، ولم تقف تضحياتهم عند حد تحقيق الاستقلال الوطني وجلاء الإنجليز، بل واستمرت جهودهم في بناء النظام الوطني. يقول الشاعر علي عبد الله الغلابي، في وصف ردفان وأبنائها، وتواصل نضالاتهم وتضحياتهم، ما يلي من أبيات:

أيام في دار أحبابي لها رغبة	معززة بالكرم والجود والترحاب
أهل الوفاء والشهامة دارهم رحبة	رجال أبطال تسكن في قرى لشعاب
في أرض ردفان هذه الصخرة الصلبة	ذي قاومت جيش لستعمار والأذناب
كم وجهت للعدو ضربة وراء ضربة	وكم شهيداً سقط فيها وكم مصطاب
سقط لبوزة بطل في أول الوثبة	وأعداد في القافلة كم من بطل مهتاب

وعلى الرغم من دور ردفان التاريخي العظيم في قيام الثورة وجلاء الإنجليز من جنوبي اليمن المحتل، إلا أن ما نالته مناطق ردفان منذ الاستقلال الوطني من العناية والاهتمام، نذر يسير جداً، وهذا هو الاستنتاج الذي أخرج به كلما نظرت إلى مناطق ردفان، وتأملت فيها أثناء مروري بها ذهاباً وإياباً إلى يافع؛ فمدن ردفان التي اتسعت، ما زالت تفتقر إلى كثير من الخدمات الأساسية، أما في القرى، فتلك الخدمات شبه منعدمة، وتعاني العديد من الأسر والعائلات من الفقر، نتيجة لشحة وعدم نمو الزراعة بالمستويات المطلوبة.

ولا يقصد هنا أن أبناء ردفان أو من عايشوا تلك المراحل كمناضلين وفدائيين، كانوا يفعلون دورهم التاريخي ذاك من أجل الحصول على مكاسب

معينة، ولكننا نقصد هنا، أن ردفان كمنطقة، لم تحظَ بالرعاية الكافية التي يجب تقديمها لها، بل يمكن القول إنها ظلت في المساواة مع مناطق أخرى، من حيث حجم المخصصات المخصصة لها من ميزانية الدولة، وربما أن المسؤولين في الدولة، قد نسوا المساواة بين المناطق، بل ونسوا شيئاً اسمه الثورة وتاريخ الثورة، وصاروا يتذكرون فقط الأهمية الاقتصادية لهذه المنطقة أو تلك، ومدى قدراتها وجرأتها في المطالبة بالحقوق وانتزاع ما يمكن انتزاعه من مخصصات التنمية ومخصصات المشاريع.

وفي ذكر ردفان، تحضرني واقعة جديدة، تُعطي معانيَ قيمة للدور الذي لعبه أبناء ردفان في النضال التحرري قديماً، أثناء انطلاق الثورة من هذه المنطقة الأبية، لم يأتِ اعتباطاً، بل جاء معبراً عن السجايا والخصال التي يتمتع بها أبناء ردفان، فهم بطبيعتهم صادقون في ما يؤمنون به، ومستعدون للتضحية بكل شيء من أجله، أي أنهم لا يعرفون المراوغة أو المجاملة أو ما نسميه اللف والدوران.

وفي عام **2005**م، عند زيارة وفد من قدامى الضباط السياسيين البريطاني، الذين كانوا يعملون في المحميات الغربية (جنوبي اليمن) قبل أربعة عقود، وجد المندوب السامي البريطاني، الذي عمل لفترة في ردفان، تطوراً حصل في مناطق ردفان في ثقافة وحياة أبنائها، وخطط لقياس ما طرأ هناك، بأن قال لنفسه، سأحضر معي إلى ردفان شيئين مختلفين، أقلاماً ودفاتر ورصاصاً، فإن أخذ أبناء ردفان الدفاتر والأقلام، فالأمور متقدمة ومتطورة، وإن أخذوا الرصاص، فالأمور باقية كما هي، والكره باقٍ لنا، ولكن ما حدث فعلاً أثناء زيارته، كان عكس توقعاته، فأبناء ردفان عندما عرض عليهم ما معه، لم يأبهوا ولم يأخذوا دفاتر وأقلام المستر ميلن ولا رصاصه، وهذا دليل على أن المواطنين

في المناطق الجنوبية التي كان الإنجليز يحتلونها، لم يعودوا يهتمون، كما كان عليه الحال في عهد الاستعمار.

إن الحديث عن ردفان، يتطلب العشرات من الكتب، وإني أهدي كتابتي هذه إلى زملائي ورفاقي وأصدقائي من أبناء ردفان، وفي مقدمهم الدكتور سيف صائل، وعبد الله ناصر مثنى، ومحمد هيثم، وحسان حسين، وهيثم طاهر، وأحمد ناصر علي، وأبناء الشهيد غالب بن راجح لبوزة، والدكتور الخبجي، وغيرهم الكثير ممن لا أتذكر أسماءهم الآن، أهديهم هذه الصفحات القليلة، لأحفزهم على كتابة تاريخ الثورة التي بدأت من هذه المنطقة الجبلية.. ردفان الأبية.

مـأرب

تبعد مأرب عن صنعاء بنحو 192 كيلومتراً، وقد عُرفت بحاضرة دولة سبأ، وتبين تاريخها من خلال الحفريات التي تعود إلى ثمانمئة سنة ما قبل الميلاد، حين كانت أكبر مدينة في الجزيرة العربية، وأحد المراكز التي تمر بها القوافل التجارية، إذ كانت عاصمة سبأ أول الدول اليمنية القديمة، وكانت دولة تجارية وزراعية من الدرجة الأولى، ولم تكن دولة فتوحات مسلحة تخوض الحروب الضروس.

وقد اشتهرت بسدها العظيم «سد مأرب»، الذي كان أشهر السدود الذائعة الصيت منذ إنشائه في القرن العاشر قبل الميلاد، ولكنه انهار مرتين: مرة في عهد (شرحبيل)، ومرة أخرى في عهد (أبرهة) عام 570م، ورُمم في الانهيار الأول، ونتيجة للحروب الدائرة بين السبئيين والحميريين، لم تتمكن دولة سبأ من ترميم الانهيار الثاني، فتداعت بقايا بناء السد، وأصبحت آثار من البناء الضخم باقية على المرتفعين الواقعين على جانبي الوادي، يذهب الناس لمشاهدته حتى اليوم.

وقد جاء في القرآن الكريم: }لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ{ صدق الله العظيم (سورة سبأ، آية 150)، وبهذه الآية الكريمة، ندرك ما كانت عليه الحضارة اليمنية القديمة من خير ورفاه، فقد بُني سد مأرب القديم في مضيق بين جبلي بلق، ثم امتد حاجزه إلى جهة اليمين، كيلا تندفع المياه من وادي ذنه باتجاه وادي السايلة، ونشأت الجنة الأولى ومدينة مأرب على الجانب الأيمن، فيما نشأت الجنة الأخرى وحرم بلقيس على الجانب الأيسر.

لكن هذه العظمة انهارت بانهيار السد الذي سبق لنا تناوله، وتحوله إلى آثار في مهب الريح، حيث ظل على حاله، حتى جاء الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان رئيس دولة الإمارات العربية المتحدة، في نهاية السبعينيات من القرن العشرين، فأعاد إلى مأرب إشراقة الحضارة السبأية المجيدة، بأن أقام سداً حديثاً يبلغ طوله عند القاعدة **230** متراً، وطوله في الأعلى **763** متراً، ويبلغ ارتفاعه **40** متراً، ويقع في نفس الوادي (وادي ذنه)، على بعد **3** كيلومترات من السد القديم، ويختزن السد الجديد، الذي بدأ بضخ المياه في منتصف عام **1986**م، ما يزيد على مئة وعشرين مليون متر مكعب من المياه، وما إن ترى المياه تتدفق منه، حتى تحس وكأن الحضارة قد تواصلت منذ حوالي **4000** عام وحتى اليوم.

هذه المدينة تبعد عن صنعاء **60** ميلاً شرقاً، وهي مدينة تحوي مواقع أثرية عديدة للحضارة السبأية الغابرة، ما زالت ماثلة أمام اليمنيين والسياح الذين يأتون من كل حدب وصوب، لتشهد على عظمة حضارة قديمة متقدمة مميزة عن الحضارات التي ظهرت في تلك العهود الغابرة، حضارة خلّدت منجزات بلدها وحكامها المتعاقبين، فيما باقٍ من آثار وأطلال قيّمة، تؤكد أن ما خلّفه أجدادنا من موروث، يرتقي إلى مصاف الحضارات العربية والعالمية القديمة، مثل حضارة بلاد الرافدين وغيرها.

لم يسبق لي أن زرت هذه المنطقة قبل تحقيق الوحدة اليمنية، مع أنني كنت آمل دائماً أن تتاح لي فرصة الوصول إليها لرؤية آثار مدينة صرواح التاريخية، التي تعد من أهم المدن التاريخية في اليمن، وبها كنوز من الآثار اليمنية، وهي تبعد نحو **35** كيلومتراً من مدينة مأرب، وقد كانت تنافسها في العهود القديمة على مركز الدولة السبئية، وكذا رؤية معبد المقه وأعمدة النصر (حرم بلقيس)، التي ما زالت تقف منصوبة، ككتاب عملاق، تروي صفحاته الصماء مآثر عظيمة وروايات خالدة لأجدادنا، ستبقى حية على مر العصور،

وكذا مشاهدة الآثار المتبقية من السد وآثار ما خلّفه انهياره، فترى وأنت في طريقك إلى السد الجديد، تلالاً مغطاة بأكوام بقايا القصور، وفي أمكنة أخرى، تقف لترى بنفسك أن أعلى منزل قد طمر جوف تربة الأرض، لكن هذا الحلم تحقق بتحقيق الوحدة اليمنية، وتحققت أمنية الوصول إلى كل مدن اليمن شرقيّها وغربيّها، شماليّها وجنوبيّها.

زرت مأرب مرات عديدة، وكم كانت سعادتي حين رأيت وتأملت تلك الآثار والمواقع الأثرية، بعد أن كنت أطالعها فقط في الكتب والنشرات السياحية والتلفزيون والصحف والمجلات، فالآثار هي الشيء الأكثر مدعاة، لأن تراه بعينيك مباشرة، حتى تشعر حقاً بتأثير التاريخ عليك، وهو تأثير يصعب وصفه.

وأهم الزيارات التي قمت بها إلى المنطقة، كانت برفقة الرئيس علي عبد الله صالح. وفي إحداها سافرنا من مأرب براً عبر الطريق الصحراوي، الذي يبدأ من «صافر»، ويمر بالصحراء و«العبر» حتى وادي حضرموت، وهو الطريق الذي تم شقه إلى حضرموت، وسُمّي بطريق الوحدة، ومن كان يصدق أن مثل هذا الطريق سيشق، ومن كان يصدق أنه سيغادر مأرب بالسيارة صباحاً، وسيصل إلى العبر في منتصف الظهر.

وصلنا إلى العبر في الواحدة ظهراً، وبعد توقف قصير، واصلنا الرحلة حتى وصلنا إلى مدينة سيئون في الساعة الخامسة والنصف من نفس اليوم، أي أننا قطعنا المسافة من مأرب إلى العبر، ثم إلى سيئون، بوقت في حدود تسع ساعات تقريباً، وكان الرئيس هو الذي يقود السيارة طوال الرحلة بسرعة خاطفة، وسط صحارى رملة السبعتين، ثاني أكبر صحارى اليمن.

إن مأرب اليوم تترقب استكمال تشييد القنوات الرئيسة والفرعية التابعة لتروي الأراضي من السد المقام، الذي يحتوي على مياه وافرة، إلا أن عدم

استكمال هذه القنوات لري الأراضي، يبطئ ويقلل من تطور الزراعة، ويبطئ ويقلل من جهود إنهاء عشوائية الري والزراعة لأراضٍ خصبة ومياه وافرة وإنسان محب للعمل، كما أن مأرب محظوظة وموعودة، فقد أصبحت خزاناً من البترول والغاز الطبيعي، اللذين يجريان بباطنها كثروة ثمينة، هي امتداد لحوض الجوف وحضرموت، ومأرب بجمعها بين الثروة الزراعية وثروة النفط والغاز، ستكون حتماً بلد الثراء والنعيم، كما كانت في العصور القديمة، وسيتم هذا عندما يعطي لها الاستقرار وحق العمل والحلم معاً.

في ختام حديثي عن مأرب، أتمنى على كل من يحب هذه الحضارة ويود الاطلاع عليها، قراءة كتاب «بلقيس.. امرأة الألغاز والجنس»، وهو عبارة عن رسالة دكتوراه من «جامعة برلين» الألمانية، تحصل عليها صاحبها الدكتور زياد مني؛ ففي هذا البحث الشيق عن غابر التاريخ، من الحكايات التي تبعث على التواصل مع حياة العصور القديمة والأساطير المثيرة للخيال، وكلها تمنحك نسمات عطرة من حضارة الأجداد.

في حرب **2015**، تصدرت مأرب القتال المستمر منذ شهر مارس وحتى نهاية العام الذي شهد طباعة الكتاب، مدعومة هذه المرة من قبل قوات التحالف العربي، بقيادة المملكة العربية السعودية والإمارات العربية المتحدة ودولة قطر والبحرين، للهجوم على صنعاء، التي تؤوي التمرد (الحوثي ـ صالح) ضد الشرعية الدستورية القائمة، برئاسة عبد ربه منصور هادي رئيس الجمهورية (المنتخب والتوافقي).

ولعل من عاش سيخبرنا بما آل إليه الوضع.

ميون وكمران

زرت جزيرة «ميون»، التي تبعد عن عدن بحوالي 100 ميل بحري في نهاية الثمانينيات من القرن العشرين الماضي، أثناء عملي وزيراً للخارجية، سافرنا إليها وعدنا بطائرة مروحية (هليكوبتر)، كانت زيارة استطلاعية قصيرة دامت عدة ساعات من النهار،

كنت أود رؤية الجزيرة التي تدور الأحاديث عنها، بصفتها ذات أهمية استراتيجية، كونها تقع تماماً في مضيق باب المندب، مدخل البحر الأحمر، وتقسمه إلى قسمين: القسم الواقع بين الجزيرة وسواحل عدن، والذي أذكر أن طوله في حدود ثمانية كيلومترات، والقسم الآخر الذي يقع بين الجزيرة وساحل جيبوتي، والذي يصل طوله تقريباً إلى 30 كيلومتراً، وفيه الممر الدولي للملاحة.

ومع أن ميون، التي يطلق عليها اسم «بريم»، تعد من الجزر المأهولة في البحر الأحمر، إلا أن عدد سكانها لم يتجاوز الألف نسمة، عندما زرتها يومها، ذلك أن الحياة فيها صعبة، وبيوتها القليلة من ألواح الزنك والخشب، والمياه منعدمة ومالحة، ويعتمد السكان على صيد الأسماك وأعمال تجارية بسيطة، ولا توجد في الجزيرة زراعة، إذ إن مساحتها لا تتعدى الخمسة كيلومترات.

لهذا كله، فإن ظروف الجزيرة كانت تدفع سكانها إلى الانتقال إلى خارجها، وهناك أسر وعائلات من ميون تعيش في عدن، أكثر من تلك التي تعيش في الجزيرة، وقد كان لأبناء ميون دور في النضال الوطني من أجل التحرر في عدن وفي بناء الدولة الوطنية، وأذكر منهم الأخ سعيد الميوني، الذي يقطن مدينة المعلا – عدن، والذي كان له دور في ربط أبناء الجزيرة بالحركة الوطنية،

ثم ببناء الدولة الوطنية الجديدة وغيره كثيرون من أبناء الجزيرة، الذين لعبوا مثل هذه المهام الخيرة.

إن موقع جزيرة ميون الجغرافي، المسيطر على الملاحة في باب المندب، الذي يتحكم بالملاحة في البحر الأحمر، جعلها ذات أهمية قصوى من الناحية الملاحية والعسكرية والاستراتيجية، ومع ذلك، فإن الإمكانات الضعيفة للدولة الوطنية التي قامت في عدن عام **1967**م، لم تمكنها من الاهتمام بالجزيرة وتطويرها، أضف إلى ذلك، أن تطوير الجزيرة يتطلب استثمارات هائلة، وقد ظهرت أهمية الجزيرة العسكرية والاستراتيجية واضحة في حرب أكتوبر عام **1973**م، بين العرب وإسرائيل، وتواصل الاهتمام العالمي بها، وأذكر هنا، أن المملكة المتحدة (بريطانيا)، طالبت عام **1975** م بتدويل الجزيرة، أي إنهاء تبعيتها لجمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية، وجعلها خاضعة لإدارة دولية، إلا أن تلك الدعوة ومثيلاتها، فشلت، لأن الملاحة في مضيق باب المندب، كانت دائماً آمنة، باستثناء ما حدث لفترة وجيزة أثناء الحرب العربية ـ الإسرائيلية المذكورة.

وبرغم الاهتمام المحلي والعالمي بجزيرة ميون، إلا أنها بقيت على حالها المهمل منذ الثمانينات من القرن الماضي، وحتى سنوات قليلة خلت، حين بدأ الحديث عن إنشاء لسان بحري حديث فيها، وأحاديث أخرى عن مشروع تأهيل فرنسي للجزيرة، لكن أكبر الأحاديث والنقاشات عن ميون في السنوات الأخيرة، هو ما دار ويدور عن نية رجل أعمال سعودي (سعودي يمني)، في بناء جسر بحري معلق، يربط الجزيرة بجيبوتي، وهو مشروع عملاق، لكن لم ينتقل إلى حيز الجدية والفعل بعد.

وإذا ما انتقلنا للحديث عن جزيرة كمران، التي كانت تتبع الجمهورية العربية اليمنية قديماً، فقد قمت بزيارة هذه الجزيرة – الواقعة في محافظة الحديدة

على مقربة من ميناء الصليف . بعد قيام الوحدة اليمنية، أي في بداية التسعينيات من القرن الماضي، وعندما وقفت على أرض الجزيرة، تذكرت رحلتي القديمة إلى جزيرة ميون، فالأحوال والأوضاع متشابهة، فلا منازل هنا ولا خدمات ولا مظهر حياة مدنية. أول ما لفت نظري فيها، على خلاف العادة، أن بها مواقع أثرية تاريخية، كما أن الجزيرة أكبر بكثير من جزيرة ميون، وقد عرفت أن مساحتها تصل إلى **60** كيلومتراً مربعاً، وهذا يعني أنها تفوق ميون بحوالي اثني عشر ضعفاً من حيث المساحة. وكنت أتوقع أن تكون كمران أكبر مما رأيته، بناء على ما سمعته في عدن من عدد من الأصدقاء من أبناء الجزيرة، وهم كثيرون في عدن، ومنهم متعلمون وقادة أيضاً، وأذكر من هؤلاء، الأخ عثمان كمراني، الذي شغل محافظاً لمحافظة عدن.

تتمتع كمران بشكل جميل، كون طولها يقارب الاثني عشر ميلاً، في حين يصل عرضها إلى ما يقل قليلاً عن خمسة أميال. وتوجد في الجزيرة آبار عدة، لكن مياهها مالحة المذاق، كما يوجد بها ميناء في الجهة الشرقية، وكذلك أقيم عليها فنار بحري قبل عدة سنوات من زيارتي إليها، كما سررنا حين وجدنا فيها عدداً من المولدات الكهربائية الصغيرة، ولكن الجزيرة عموماً لا تمتلك مقومات الخدمات السياحية بحدها الأدنى، وأقول هذا، لأن جزيرة كمران هي أيضاً مثل جزيرة ميون، الكلام الكثير جداً عنها، ولكن ما تشهده عملياً في الجانب السياحي والمشاريع السياحية قليل، حيث سمعنا عن مشاريع سياحية عديدة يومها (عند الزيارة).

وقد ظهرت مشروعات جديدة في السنوات القليلة الماضية، حين أعلنت كل من مجموعة هائل سعيد انعم، ومجموعة شركات "أوراسكوم" الاستثمارية المصرية، عن نيتها إقامة مشروع سياحي ضخم، ومواقع للغوص، كما أعربت

جهات رسمية عن النية لتحويل الجزيرة إلى منطقة تجارية حرة. وما زال الجميع بانتظار تحقيق مثل هذه الأحلام الطيبة.

كنت أثناء الزيارة لجزيرة كمران أتمنى أن أقوم بالغوص في أعماق مياه شواطئها، ولم أتمكن من ذلك، لأن معدات الغوص لم تكن متوفرة، وإذا توفرت المعدات يومها، فقد كان عليّ أن أمكث فترة أطول في الجزيرة، لأتعلم مبادئ الغوص البحري، أما لماذا راودتني هذه الأمنية وأنا في الجزيرة، فذلك بسبب كثرة ما سمعته من أقوال وشروحات ووصف عن جمال الشعب المرجانية والأحياء المائية الموجودة في محيط الجزيرة من قيعان البحر الأحمر؛ فقد أوضحوا لنا، وهذا ما قرأناه، أن المواقع المحيطة بكمران، تحتوي على أروع الشعب المرجانية أشكالاً، وأجمل الشعب المرجانية ألواناً، لذا، فتلك المواقع ستكون من أكثر مواقع الغوص في العالم جذباً للسياح، وخاصة من يَهوون الغوص منهم، أذكر أنني يومها سمعت في كمران، جواباً عن سبب تسمية البحر الأحمر بهذا الاسم، فقد قيل لي إن الشعاب المرجانية والطحالب بتداخل ألوانها المتعددة، قد جعلت لون البحر هناك بنياً مائلاً إلى الاحمرار، ولذا، سمي بالبحر الأحمر.

الغيضة (المهرة)

مدينة «الغيضة» عاصمة محافظة المهرة، عبرت العصر في السبعينيات من القرن العشرين، من عهود سابقة، كانت تمضي فيها من الزمان 100 عام، فتبقى الأحوال والدنيا والناس مثلما هي، وهم دون تغيير أو جديد.

عبرت إلى عصر حداثة متسارع الخطى وواسع التطورات، وأول مؤشرات عبورها هذا، أن جاء منها في تلك الحقبة الزمنية مناضلون جسورون، أمثال: محمد سالم عكوش، أحمد سالم مخبال، ومحمد سالم بادينار، وسالم حسن، محسن علي ياسر، سعيد عسكري، ومحمد سعيد عبد الكريم، وعشرات غيرهم من أبناء المهرة التواقين إلى العبور إلى الحرية، والمؤمنين بالتوجه الوطني والقومي للجبهة القومية، فللغيضة ولهم الفضل الأول في ربط أبناء المهرة بباقي أجزاء الجنوب، واليمن عموماً. والذي بدأ تنفيذه عندما اختار أبناء المهرة يوماً عزيزاً على قلب كل يمني، هو يوم 14 أكتوبر من عام 1967م، ليعلنوا انتهاء عهد الاستعمار والسلاطين، وبداية عهد الشعب، عهد الحكم الوطني.

تعرفت إلى عدد من أبناء المهرة قبل أن أراها، وهم الإخوة بادينار وعكوش وسعيد عسكري، وكان هؤلاء من طلائع أبنائها المتقدمة، الذين ذكرت بعضهم آنفاً، واليوم، صارت تلك الطلائع ضمن جموع متحضرة تسكن المحافظة. فالكثيرون من رجال المهرة أصبحوا يتصدرون أسماء رجال الأعمال والتجارة والاستثمار، وهم متعلمون، ومنهم الجامعيون والمتخصصون والشعراء باللغتين العربية والمهرية، وفي مقدمهم الشاعر البارز، الزميل محسن علي ياسر، وهو دبلوماسي له أدوار معروفه بالعمل السياسي والوطني والثقافي، ليس على صعيد المهرة، ولكن على صعيد اليمن كله.

عندما وصلنا إليها في أوائل 1971م. في طائرة داكوتا ـ د. سي. ثري ـ مرافقين للرئيس سالم ربيع علي، كانت اللغة العربية هي اللغة الثانية فيها، وكانت اللغة المهرية (يعود أصلها إلى اللغة الحميرية، ولكن أدخل عليها قليل من العربية)، هي السائدة في عموم محافظة المهرة، التي كان يحكمها وجزيرة سقطرى، السلطان (بن عفرير) أو (بن عفرار)، كما يطلق عليه العلماء والمؤرخون الغربيون، وآل عفرير من الأسر السلاطينية ذات الأصول الحميرية اليافعية، كما أشار إلى ذلك المؤرخ حمزة لقمان، في كتابه (معارك حاسمة من تاريخ اليمن)، وهي أسرة تمتعت بالوطنية ومقاومة الاحتلال البرتغالي، وغيره من محاولات احتلال المهرة أو سقطرى.

وأذكر– هنا مآثره، هي أن هذه الأسرة لم تفرط يوماً أو تهمل في ما كانت تملكه من وثائق خاصة بحدود السلطنة في المهرة أو سقطرى، وبالذات تجاه الدولة الوحيدة التي تحدها، وهي سلطنة عمان الشقيقة، حيث احتفظت بجميع الوثائق، حتى مجيء السلطة الوطنية بعد جلاء الإنجليز عام 1967م، وسلمت كل ما لديها من وثائق، وكان لتلك الوثائق أهمية قصوى عند المفاوضات، وترسيم الحدود مع سلطنة عمان، بعد قيام الجمهورية اليمنية.

وصلنا المهرة، وفي مطار الغيضة الترابي، وأمام غرفة وحيدة في المطار، اصطف المستقبلون من الأهالي وضباط الحامية صفاً واحداً، يحيون رئيسهم الجديد، حينها كانت الغيضة عاصمة المحافظة، عبارة عن قرية شبه ساحلية بسيطة، بدون أي خدمات، ويقطنها الصيادون والبدو الرحل في غرف من الألواح الخشبية، وترى فيها بعض منازل من دور واحد، مبنية بيوتها في المعظم من (اللبن)، وهو الطين الممزوج بـ (التبن)، وكانت تبدو حينها قصوراً خاصة بالمغتربين، الذين هاجروا من هذه المنطقة إلى الكويت ودول الخليج الأخرى.

وبما أنها أكبر قرية بهذه المحافظة الشرقية، فقد حددت كعاصمة لها، ورصدت لها بعض المخصصات المالية القليلة لتطويرها، كما أنها أصبحت محطة تموين، وقاعدة لثوار ظفار أثناء حربهم مع سلطنة عمان. فأثناء الصراع اليمني ـ العماني، عبر الجبهة الشعبية لتحرير عمان، بُني مطارها الجديد بواسطة شركة هندية، وبتموين من ليبيا، وتعثر تسديده كاملاً فيما بعد، كما هو الحال في بقية المساعدات الليبية لجمهورية اليمن الديمقراطية حينها، ولكن تحولها الحقيقي هذا نحو التنمية، كان حقاً بسبب كونها عاصمة، رُصدت لها اعتمادات طيبة، وفُتحت فيها المدارس الابتدائية، ووصل التعليم فيها إلى مرحلة الثانوية، وفُتح بها – أيضاً – مستشفى حديث لأول مرة في تاريخها.

أضف إلى ما ذكر، أن الغيضة أصبحت سوقاً مزدهراً للبضائع المهربة من دول الخليج عبر الصحاري، وفوق هذا وذاك، فقد جعلها وجود حاميات عسكرية كبيرة فيها، كدرع عسكرية، وكذلك كخلفية لدورها وموقعها في تصدير الثورة أيام التطرف اليساري إلى عمان الشقيق، وورشة عمل متحركة نابضة بالحياة، بعد أن كانت منطقة بدوية، وعندما طلبت سلطنة عمان تدخل شاه إيران عسكرياً في حربها، من أجل إضعاف «الجبهة الشعبية لتحرير عمان»، حاول الطيران الإيراني مهاجمة الحاميات والقواعد والمعسكرات اليمنية المذكورة، وأثناء إحدى طلعات سلاح الجو الإيراني في سماء المهرة، أسقطت القوات اليمنية طائرة فانتوم –15، فشعرت الطائرات الإيرانية بالخوف، وكانت تكتفي بعد ذلك بضرب تحركات الثوار في ظفار والمناطق المحاذية لحدود سلطنة عمان، لمدة قصيرة من الزمن، ثم تخلت عن هذه المهمة.

وكان من نتائج تربع السلطان قابوس بن سعيد على عرش السلطنة عمان، وما عرف به من حكمة وصبر وهدوء، أن تم حل مشكلات مقومات

العداء مع «اليمن الديمقراطي» في إجراء مصالحة مع قيادات الجبهة الشعبية لتحرير عمان، واحتواء قياداتها ضمن نسيج السلطنة.

وبعد قيام الجمهورية اليمنية، تم حل مشكلة الحدود مع عمان نهائياً، وظهرت حينها طفرة تقدم في مدينة الغيضة ومحافظة المهرة كاملة، حيث شقت منها وإليها طرق رئيسة معبدة من حدود عمان وحتى محافظة حضرموت، وأصبحت المهرة، المعبر التجاري للبضائع العمانية الداخلة إلى اليمن، ما خفف التهريب الذي كان واسعاً من قبل، وخاصة السيارات القادمة من دول الخليج، عن طريق الصحراء المفتوحة.

ومن الذكريات عن المدينة، أنها كانت خالية من مرافق الدولة، عندما حددت عاصمة للمحافظة، وعندما زارها الرئيس سالمين ومرافقوه، وكنت واحداً منهم في ذلك العام، نزلنا في منزل السيد محمد سعيد عبد الكريم، الذي كان سكرتيراً للمحافظ حينذاك، ويومها أخرج عائلته من المنزل لتذهب عند الأقارب، من أجل أن نمكث فيه لمدة أسبوع، قيادة الدولة، نظراً لانعدام وجود دار ضيافة أو فندق أو سكن مناسب لهذا الغرض حينها.

ولقد تذكرت هذه الواقعة، عندما زار الرئيس علي عبد الله صالح المدينة، وكنا برفقته عام **1992**م، ونزلنا بدار الضيافة التابع للدولة، والواقع على ربوة مطلة على بحر خليج القمر من بحر العرب، ومن هذا الموقع، يمكنك أن تشاهد ما حدث من تغير في المدينة ما بين عامي **1971 ـ 1992**م، ستشاهد اتساع المدينة وفنادقها ومنازلها الحديثة ومدارسها، وقسم من شوارعها، يدل على مدى تضاعف حجمها عدة مرات خلال العقود الأربعة الماضية.

وكان الرئيس سالم ربيع علي، هو أول من حاول جذب اهتمام أبناء المهرة/ المحافظة إلى الزراعة، التي لم تكن من تقاليد العمل المتعارف عليها لدى السكان، الذين يغلب على عملهم طابع الرعي والاصطياد، إلا في بعض

المناطق القليلة التي كانت مليئة بالأشجار، كما خلقها الله، حيث توجد مناطق عدة ذات زراعة طبيعية، أكبرها وأهمها، منطقة حوف الواقعة في شرقي المحافظة، بمحاذاة المناطق العمانية، وهي منطقة بديعة الجمال، تمتد بين البحر وسلسلة جبال القمر، وتتميز بغابات أشجارها الكثيفة، التي تغطي المرتفعات، وتعد من أجمل المناطق الطبيعية والسياحية في شرقي الجزيرة العربية.

كان الرئيس ربيع يهدف من تطوير الزراعة في المهرة، إلى تنويع مصادر العيش لأبناء المنطقة، والاستفادة من إمكاناتها الزراعية في عدد من المناطق، والتغلب على منابع الفقر في هذه المحافظة، ومع تلك الجهود التي لم تفلح كثيراً، والتي كان يقودها الرئيس شخصياً، توجهت الاهتمامات نحو مجال اصطياد الأسماك، وبالذات اصطياد سمك (الشروخ)، المعروف عالمياً، والمتوفر في مياه المهرة بوفرة، حيث تم بناء ميناء نشطون، بمرافقه المتعددة والواسعة، ومن ضمنها مصنع لتعليب الأسماك وتصديرها إلى الخارج.

رغم ما حدث من تطور مطّرد، إلاّ أن أبناء الغيضة ما زالوا يعيشون، حتى اليوم، على صيد الأسماك، والوظائف الحكومية الشحيحة، ومداخيل المهاجرين من أبناء المنطقة، الذين يعملون في دول الخليج الست (وخاصة دولة الكويت)، حيث كانوا يوجدون بكثافة، جعلت عدداً من الشوارع تعرف بأسمائهم، وكانت محال البيع مرخصة بأسمائهم، ولكن معظمهم تضرروا من حرب الخليج الثانية، مثلهم مثل معظم اليمنيين، الذين كانوا يعملون هناك، إذ اختفت أسماء الشوارع التي سميت بأبناء المهرة خصيصاً، ولم يعد باستطاعة واحد منهم أن يفتح محلاً تجارياً باسمه، بل عليه البحث عن مواطن خليجي من أبناء البلد، ليحصل له على ترخيص فتح المحل، بينما هو المالك الحقيقي، ولكن في الخفاء، من الباطن.

إن الغيضة، شأنها شأن المدن والقرى التي انعتقت في العهد الجمهوري، وطوى التاريخ علاقاتها السابقة، أكانت المشاعية أو العبودية أو حتى شبه الإقطاعية، ولكنها، بما تتميز به من عادات وتقاليد شعبية مختلفة في مظاهرها عن بقية مناطق الجنوب، كانت محط اهتمام خاص من قبل سلطة الدولة الوطنية، التي جاءت بعد نيل الاستقلال الوطني عام 1967م، والفاعلة في الحياة الاقتصادية، وروعة الملابس التي يرتديها أبناء المهرة، رجالاً ونساء.

وبشكل عام، تطور أبناء المهرة كثيراً، بعد أن حُرموا من التعليم قديماً، فاليوم هؤلاء الرجال متعلمون، ومنهم الجامعيون والمتخصصون، ومنهم من يتصدرون أسماء رجال الأعمال، وكذا منهم الأدباء والشعراء، باللغتين العربية والمهرية.

تتكون محافظة المهرة الآن، من ثماني أو تسع مديريات، في كل منها عدة مدن حديثة، تتجاذبها، إما التجارة أو الزراعة أو صيد الأسماك، وأصبحت «حوف» محمية طبيعية وسياحية، بما وهبها الله من خضرة ونضارة وجمال، وإذا ما زرت مدينة الغيضة الآن، فستجدها مدينة حديثة، تتمتع بمستوى لا بأس به من جميع الخدمات الأساسية، وتجدها تنمو وتتسع يوماً عن يوم، فهذه المدينة من أولى المدن اليمنية التي جنت ثمار تطور العلاقات اليمنية ـ العمانية؛ فقد أدى نمو التجارة بين البلدين، إلى أن تكون الغيضة ممراً لجميع البضائع القادمة براً من سلطنة عمان وبقية دول الخليج، وهذا الدور عاد عليها بمنافع كثيرة، تسهم في نموها وتطورها، خاصة مع ازدياد هذه الحركة التجارية، بفعل الطرق الحديثة مع سلطنة عمان، التي شيدت في السنوات الأخيرة.

وفي حديث مع أحد الأصدقاء من أبناء المهرة في «عدن» عن أحوال الغيضة الحالية، استعرض ما تحقق للمهرة من خير، بفعل التواصل مع سلطنة عمان، وكذا، التواصل مع دول الخليج عبرها، وما أثمرته جهود جلالة السلطان

قابوس بن سعيد، من استقرار في العلاقات مع اليمن، واحتواء الجبهة الشعبية لتحرير عمان، بحيث اختفت تماماً، قال لي ذلك الصديق الذي كان أيام السبعينات من القرن العشرين الماضي، متحمساً ومناصراً للجبهة الشعبية لتحرير عمان: «لو كنا في تلك الأيام نعرف أن المنافع كثيرة مع سلطنة عمان كما نراها اليوم، لأقنعنا الأخ عبد العزيز القاضي أمين عام الجبهة الشعبية، بالعودة إلى عمان، وقبول المصالحة بدون لوك.. وكنا من ذاك الزمان بنينا عمان والجنوب معاً».

صعدة

بنيت وعرفت مدينة صعدة منذ أكثر من ألف عام، وبرزت تاريخياً، عندما اتخذها الإمام الهادي (يحيى بن الحسين الرسى)، عاصمة لإمارته سنة **898** م، وهي أول دولة للأئمة الذين حكموا اليمن لمدة تزيد على ألف ومئة عام،

ثم أضحت المدينة موقعاً للمذهب الزيدي، ومعقلاً أساسياً للزيديين، يلجؤون إليه في حال ما تكون الأمور لغير صالحهم، ولقد ظلت هده العاصمة هدفاً يسعى إليه من يريدون دك معاقل الزيدية أثناء الحروب بين الدويلات الناشئة في اليمن على مر العصور القديمة والحديثة، وما زالت معالم ذلك التاريخ وشواهده قائمة أمام الناظرين، إذ ترى مدينة صعدة اليوم، محاطة بأسوارها وقلاعها القديمة الحصينة، التي تمثل عبقاً وجدانياً، يذكرك بتاريخها الطويل والهام. ويقال إن تلك الأسوار المتناثرة، كانت عبارة عن سور واحد له أبواب، كما هو الحال في صنعاء القديمة، ومن أشهر أبواب صعدة، باب اليمن، باب نجران، باب السلام.

يرجح عدد من المؤرخين، أسباب دور صعدة التاريخي الكبير، إلى كونها أول مدينة يقام فيها حكم إمامي، وكونها مركزاً دينياً وعلمياً رئيساً في اليمن مند مئات السنين، ولأنها بطقسها الجيد (تعلو سطح البحر بـ **1700** قدم)، وطبيعة تربتها عبارة عن سلة غذاء، فهي من أخصب أراضي اليمن الزراعية، وتشتهر حالياً بأنها أكبر منطقة يمنية لإنتاج الفواكه، التي تصدّر إلى السعودية وبلدان أخرى.

تقع صعدة في أقصى شمالي اليمن، وهي محاذية للحدود مع المملكة العربية السعودية، وتبعد عن صنعاء بنحو **245** كيلومتراً، وتعيش على الزراعة،

ودخلت فيها تجارة السلاح والتهريب بين الحدود المتاخمة، ولكن هذه المظاهر خفت شيئاً فشيئاً، مع نمو العلاقات بين اليمن والسعودية، والتي كانت الحدود دائماً أولى مشاكلها ومسائلها الهامة، ومع نمو العلاقات، تما بشكل أسرع، ضبط الحدود السعودية اليمنية، وأخذت شكلها الإداري والحضاري في معابر حدودية منظمة، حدّت من التهريب الكثيف الذي كان قائماً في الماضي.

زرت هذه المدينة سنة 1992م، بعد الوحدة اليمنية، ومكثت فيها ثلاثة أيام، وأكثر ما لفت نظري، طرازها المعماري الذي يشبه الطراز المعماري لمدينة صنعاء القديمة كثيراً، ورأيت فيها حركة معمارية نشطة، ونشاطاً تجارياً متحركاً، كما وجدت فيها حضوراً سياسياً متنوع المعالم، فقد ظهرت بها مدارس دينية شتى للمذهب الزيدي، وكذلك مدارس للمذهب السني، كحركة الوادعي وأتباعه، لذا، يأتيها طالبو العلم من أنحاء مختلفة من اليمن، وبعض هؤلاء يأتون هنا لتلقي العلوم، ومعهم نساؤهم وأولادهم، فينهلون العلوم الدينية برؤية مذهبية، ثم يعودون لنشر ما تعلموه خلال أشهر في الأرجاء اليمنية وخارجها، والبعض الآخر يستقرون في هذه المدينة، ولا يعودون إلى مناطقهم التي قدموا منها، وليس في كل هذا مشكلة، إنما المشكلة في أن بعضهم يعتقد بأنه قد ألمّ خلال وجوده في صعدة لعدة أشهر، بعلوم الفقه والشريعة والسنة، فيشرع بإصدار فتاوى، يكون قسم منها بعيداً عن الدين الإسلامي الحنيف، وتبدو وكأنها فتاوى سياسية حزبية، ما يسبب مشاكل تؤدي إلى العنف والاحتراب بين أبناء الوطن الواحد.

ولا يعكس مثل هؤلاء (الفقهاء المذكورين آنفاً)، الدور العلمي الذي تلعبه المدينة إرشادياً وثقافياً ودينياً، بل يعكسه أشخاص آخرون، ففيها الكثير من رجال الدين المتنورين، وبالذات من علماء شريعة، وفقهاء المذهب الزيدي،

الذين يصعب ذكر أسماء بعضهم وترك الآخرين، كما أن للمدينة والمحافظة مشايخها، ونعرف عدداً منهم، مثل الشيخ فيصل مناع.

والمجال الثالث الذي تتجه نحوه صعدة، بعد مجالي التعليم الديني المذهبي والزراعة، هو مجال الأعمال والتنمية. فالمدينة شهدت نهضة تنموية واسعة في جميع مجالات الحياة. وقد اتجه عدد ليس بقليل من أبناء المدينة/ المحافظة، نحو قطاع الأعمال، من تجارة وتصدير منتجات زراعية وصناعة واستثمار، وذلك في العقود القليلة الماضية، وكثيرون منهم الآن يحتلون مكانة مرموقة بين رجال الأعمال اليمنيين.

ولقد تضاعف اهتمام الدولة بهذه المدينة كثيراً، وبمحافظة صعدة بشكل عام، بعد أن عانت من حروب متقطعة بين الدولة وجماعات الحوثيين منذ عام 2004م، ولكن مثل هذا الاهتمام، ما زال قليلاً، مقارنة مع الخسائر المختلفة التي تتكبدها المنطقة، من خلال ما حصل من معارك حربية، لم تضع أوزارها بصورة نهائية حتى الآن؛ فقد تكررت الحرب خمس مرات حتى اليوم، وما كان لهذا أن يحدث، لو أن هذه المشكلة دُرست وفُهمت، وأُتخذت بشأنها حلول ومعالجات صائبة.

ولعل ما دفعني إلى الحديث عن المشاكل السياسية والأمنية التي تعاني منها صعدة، أو عانت منها في السنوات القليلة الماضية، هو شعور الزائر لهذه المدينة/ المنطقة، بأنها جميلة وبديعة وخيرة، ومن حقها أن تنعم بالهدوء والسكينة. ذلك أنه يكفيها ما حدث لها، وما تكبدته من خسائر إبان الصراع الجمهوري ـ الملكي. وهو ما دمر المنطقة وأعاق نموها وتطورها، ابتداء من اتخاذها كمعقل رئيس للملكيين، واستهدفته قوات الجمهورية، حتى إن المشير عبد الحكيم عامر ـ وزير الدفاع المصري، قام شخصياً بقيادة حملة عسكرية عليها بتاريخ 1963/2/16م استمرت ثلاثة أيام، طردت خلالها الملكيين

وشتتهم في الوديان والقرى المجاورة. ثم، وبإعادة سيطرة الملكيين عليها عام 1967م، بدأ زحفهم القوي منها باتجاه صنعاء العاصمة، وهو الزحف الذي انتهى بحصارها سبعين يوماً، ألا يكفي ما عانته صعدة في الستينيات من القرن العشرين الماضي، حتى تشهد حروباً صغيرة عدة، مع أول عقد في القرن الحالي؟.

بقي أن أقول إنني في زياراتي لعدد من مديريات صعدة، وجدت تماثلاً في أسماء بعض المناطق والقبائل، وتشابهاً كبيراً في العادات والتقاليد والثقافات الموجودة فيها، بالعادات والتقاليد والثقافات الموجودة في المناطق الوسطى، ومنها منطقة سرو حمير، وأنا أحن إلى مدينة صعدة حتى اليوم، لأنني حين مكثت فيها ثلاثة أيام، لم أشعر بالغربة، بل شعرت بأنني أحد أبنائها.

صعدة اليوم، تختلف عن الأمس، وخاصة بعد تمرد عبد الملك الحوثي على السلطة الشرعية في صنعاء، برئاسة عبد ربه منصور هادي، والاستيلاء من قبل جماعته على عمران وصنعاء وتعز وعدن ومأرب، وتدخل التحالف العربي، بقيادة المملكة العربية السعودية ودولة الإمارات العربية المتحدة، إلى جانب إعادة الشرعية.

وحتى طباعة الكتاب، ما زالت المعارك التي تديرها صعدة قائمة، رغم انحسارها في صنعاء وصعدة نفسها، والأيام كفيلة بكشف الخبايا والصور.

جِبْلة

«جبلة»، عاصمة مملكة أروى بنت أحمد الصليحي، زرتها لأول مرة في شهر يونيو **1966**م لحضور مؤتمر «جبلة» للجبهة القومية لتحرير جنوب اليمن المحتل، وهو المؤتمر الثاني للجبهة، والذي انتخبت خلاله قيادة جديدة للجبهة القومية لتحرير جنوب اليمن المحتل،

وفيه أقر بعد نقاشات كثيرة وحادة، الاستمرار في إطار «منظمة التحرير»، التي ضمت، إلى جانب الجبهة القومية «جبهة تحرير جنوب اليمن المحتل»، وهي ثاني فصيل في التنظيمات الوطنية التحريرية في الساحة آنذاك، من حيث الانتشار والقوة، وأيضاً، كانت علاقتها بالقيادة المصرية في اليمن، وبمصر عبد الناصر، أقوى مما هي عليها العلاقة مع الفصيل الأول. ولذا، كانت جبهة التحرير، الطرف المهيمن على «منظمة التحرير»، ما أدى إلى الخلافات مع قيادات الجبهة القومية.

أذكر أن الرحلة إلى جبلة، انطلقت من تعز، التي قدم إليها وتجمع فيها أبناء المناطق المختلفة من الجنوب، للسفر معاً إلى جبلة، من أجل حضور المؤتمر المذكور، كانت الرحلة طويلة وشاقة، خاصة في نصفها الثاني، الذي تم مشياً على الأقدام، لكن ما سهّل المضي فيها وقطع المسافات، هو خضرة الوديان والجبال المغطاة بالحشائش والأشجار الصغيرة المتنوعة على طول الطريق، في مناطق إب، التي تشتهر باسم «اللواء الأخضر»، كانت الطريق عبارة عن مناظر لم أرَ مثلها في حياتي جمالاً، ونفس الانطباع والشعور، كان لدى جميع من كانوا معنا ذاهبين لحضور المؤتمر، فقد أذهلتنا طبيعة إب الرائعة، التي أطلق عليها بعض الكتاب العرب «سويسرا اليمن».

في ذلك الوقت، أذكر أن مدينة إب، لم تكن أكبر بكثير من مدينة جبلة، التي لا تبعد عنها سوى ما يقارب ساعة من السير على الأقدام، وعموماً، نافست خضرة المنطقة وهطول الأمطار معظم الأيام، هموم المؤتمر المتعددة ونقاشاتها، التي كانت أحياناً حامية الوطيس، فطبيعة المنطقة هنا، تجعلك مذهولاً مدهوشاً، وما زلت مدهوشاً حتى اليوم، أتذكر ما دار في المؤتمر، أم أتذكر تلك الطبيعة الساحرة الجميلة التي تحبها وتعجب بها، خاصة إن كنت قادماً من عدن، لأن الخضرة والمطر هما ما ينقصان عدن حقاً.

ليس جمال الطبيعة وحده ما ينطبع في الذاكرة عن جبلة، بل إن زرتها مرة، فلن تنسى أبداً العبق التاريخي والأثري الذي يملأ أرجاءها، ففيها حصون أثرية قديمة جداً، مثل حصن التعكر وحصن المسوار، الذي بُني في عهد الحميريين، أضف إلى ذلك، احتواؤها على آثار إسلامية، إذ كانت عاصمة الدولة الصليحية، وبها جامع الملكة أروى، أشهر ملكات اليمن، وجامع السنة، وقبة الأمير يعقوب، وقصر يدعى قصر السلطنة. وكل هذه المعالم الأثرية المعمارية، تجعلك تحس بما شهدته المدينة من تاريخ مجيد، كمركز لدول وحضارات عريقة، صمدت بقاياها خلال عهود طويلة. وأعود إلى المؤتمر، حيث لم تحضر بعض القيادات، وعلى رأسها قحطان محمد الشعبي، وفيصل عبد اللطيف، ولكني أذكر تلك القيادات الشابة التي حضرت المؤتمر من جميع مناطق جنوب اليمن المحتل، ومن أولئك، الأخت المناضلة نجوى مكاوي، ممثلة القطاع النسائي في المؤتمر، والتي تزوجت من الأخ سعيد الإبي في تلك الأيام، وأذكر أيضاً، الأخ عبد الله الوصابي، وأحمد (أبو صبع)، والوالد مطيع دماج، والأخيران استضافا المؤتمر، وكان لهما الشرف التاريخي في استضافة المشاركين في المؤتمر جميعاً، ولهم ـ أيضاً – الفضل في نجاح المؤتمر التاريخي.

مر وقت طويل حتى زرت المدينة مرة أخرى، وكان ذلك في عام 1989م، عندما زرناها مع عدد من أعضاء لجنة التنظيم السياسي الموحد، وهم الأخوة الدكتور عبد الكريم الإرياني، ويحيى العرشي، وراشد محمد ثابت، والدكتور سيف صائل، وأحمد الحبيشي، وحسين علي حسن وآخرون، كبرت المدينة وتطورت في جميع نواحي الحياة، لكن صور زيارتي الأولى لها، ظلت تخيم على ذهني، فليس رؤية مدينة تتمتع بجمال الطبيعة وروائح التاريخ الزكية ثانية، بقادرة على أن تنسيك دهشة الزيارة الأولى المذهلة، حتى وإن توسعت المدينة كثيراً، فالنظرة الأولى والانطباع الأول الرائع، لهما وقعهما القوي.

وزرنا في هذه الرحلة مدينة إب، التي أصبحت عاصمة حقيقية تحتضنها السهول والمرتفعات والجبال المخضرة من كل جانب، لتعطي شوارعها ومبانيها هيبة جمالاً.. وزرنا أيضاً مناطق أخرى في المحافظة، من ضمنها وادي «الدر» المليء بالأشجار والحشائش والمزارع والينابيع المتدفقة، وقضينا وقتاً طيباً هناك، نسينا خلاله نقاشات السياسة، وما تتركه في النفس من توتر، وأذكر أننا كنا في ضيافة الشيخ الباشا، الذي أكرم ضيافتنا في ذلك الوادي الجميل. وبالمناسبة، فإن كتاب «هدية الزمن في تاريخ ملوك لحج وعدن» لكاتبه الأمير القمندان، قد أشار إلى أن آل الباشا، تعود أصولهم إلى كلد يافع.

كانت هذه الزيارة إلى جبلة وإب، ضمن لقاءات عقدتها لجنة التنظيم السياسي الموحد، التي هي من اللجان الوحدوية الرئيسة، ولم تكن اجتماعاً رسمياً، لأن الاجتماعات الرسمية كانت ثلاثة: الأول في مدينة تعز، والثاني في مدينة صنعاء، والثالث في مدينة عدن، ومن لقاءات اللجنة التحضيرية، أن قامت نفس المجموعات من أعضائها برحلة إلى منطقة كرش على أطراف محافظة لحج المجاورة لمحافظة تعز أيام التشطير، حيث جلسنا نستظل تحت أشجارها الخضراء، ننعم بأجواء المكان وينابيع المياه الساخنة (المعدنية)، ونسمات الهواء

المنعشة، وكرش تقع على وادٍ أخضر، لكن الخضرة هنا ليست بخضرة جبلة، فالوادي شديد الخضرة، لكن الجبال المحيطة به لا يوجد فيها سوى القليل من الأشجار والحشائش، والجو معتدل – هنا – يميل إلى الحَر، والهواء أكثر حركة وهبوباً، وله وقع مرهف على الحس.

وأقول هذا لأنه في اليمن، ومع تنوع المناطق وأجوائها ومناخها، يصعب عليك المقارنة بين مدينة وأخرى، أو منطقة وأخرى، لأن لمكوثك في مدينة معينة طابعه الخاص به، ولأن مكوثك في منطقة معينة، له تأثيراته المميزة، ومذاقه الخاص به، الذي لن تجده في غيرها، وكل هذا التنوع، وكل تلك الاختلافات بين مدن ومناطق اليمن، وفرا للمواطن اليمني بعد قيام الوحدة المباركة، متعة السفر إلى مناطق تتوفر فيها مناخات مختلفة وطبيعية متعددة، وكذلك الحال بالنسبة لتوفر متعة السفر إلى مدن، لكل واحدة منها صفات مميزة، وشخصية معمارية ومناخية وحياتية، قد لا تجدها في عدد كبير من مدن اليمن الأخرى.

إن توسع الوطن بفعل وحدته التي تحققت، وسّع خيارات السفر والترحال والسياحة للموطن اليمني، وبحسب ما يريده وما يشتهيه ويرغب به، ولكن كثيرين لا يستفيدون من هذه الإيجابية الجديدة، ولا نستطيع لومهم، فإذا كانت مدن ومناطق في اليمن، تقارن طبيعتها مع طبيعة أوروبا في الربيع، مثل جبلة وإب، تعاني من شح شديد في المرافق والبنى والخدمات السياحية، فكيف يمكننا لوم هؤلاء؟.

ولا بد من القول إن هذا التنوع في المناخ وفي الطبيعة بين مختلف المناطق اليمنية، لها بُعدها أيضاً في العادات والتقاليد والثقافات، ومن هنا، نستطيع أن ندرك – إن أحسنّا قوة الإدراك والفهم – سر قوة التنوع، باعتباره مصدراً غنياً للعيش والتقدم والرقي، ولكن البعض لا يفهمون هذه المسألة، فهم يحاولون وأد

هذه التنوع وتمزيقه بسيف المركزية الشديدة، التي مزقت الوطن الجديد بحربين، حرب 1994، وحرب 2015، ويعلم الله ما هو المصير القادم؟.

الحديدة

إذا كانت جدة عروس البحر الأحمر السعودية، فإن الحديدة عروس البحر الأحمر اليمنية، وطبعاً هناك فرق كبير، ولكن لكل بلد عرائسه، والحديدة، ميناء صغير منذ القدم،

كانت تؤمه السفن العابرة في البحر الأحمر والسفن المحملة بالبضائع الواردة إلى مناطق اليمن الشمالية والجنوبية الشرقية، وكانت ميناءً رسمياً للممالك والإمارات اليمنية، التي ظهرت قديماً، حتى استولى عليها الأتراك عام 1264هـ. واستخدموها كميناء لجلب العتاد والرجال لغزو مناطق أخرى داخل اليمن. وقبل وأثناء الحرب العالمية الأولى، استولى عليها الإنجليز، وبعيد تلك الحرب، تنازع الإدريسيون والإمامة المتوكلية الهاشمية، وفي الأخير، حسم الإمام يحيى، الصراع لصالحه.

مدينة الحديدة، هي مركز منطقة تهامة الساحلية، التي تمثل امتداداً مشتركاً لمنطقة تهامة السعودية، وهي عاصمة محافظة الحديدة منذ قيام الجمهورية العربية اليمنية عام 1962م، وقد ازدادت أهميتها منذ ذلك الحين، كونها ميناء الجمهورية الرئيس، وانتعشت فعلاً مع مجيء القوات المصرية لمساعدة القوات المسلحة الجمهورية في صد هجمات الملكيين الشرسة في عدة جبهات، وأهمها الهجمات على العاصمة صنعاء، التي رُبطت حينها بطريق للسيارات مع الحديدة لأول مرة (أكثر من 220 كيلومتراً)، بفضل المعونة الصينية المقدمة لتنفيذ هذا المشروع، الذي خدم تدفق القوات المصرية، وكذا، عمليات فك الحصار الملكي عن صنعاء، عاصمة الجمهورية عام 1968م، وأيضاً خدم هذا الطريق اليمن كلها، وأدى إلى بداية نهضة جديدة حديثة لمدينة الحديدة.

وعندما أعود بذاكرتي لأتذكر الحديدة، تأتي واقعة «علقة ساخنة» نلتها من والدي عام 1964م؛ فقد كان حينها يعمل بائعاً وسائقاً لدى أحد التجار الهنود في مدينة كريتر بعدن، وادّخر مبلغاً من المال، واستخدم ذلك المال في جانبين استثماريين: الأول، هو إنشاء مطعم في مدينة الحديدة «مطعم ديلوكس»، على غرار مطاعم ديلوكس الشهيرة الموجودة . آنذاك . في عدن (الشيخ عثمان، كريتر، المعلا)، والتي كان يملكها أحد أصدقاء والدي، فاستوحى والدي الفكرة منه وطبقها في الحديدة، وأرسل عدداً من الأقارب لإدارة المطعم الذي يملكه هناك، أما الجانب الثاني الذي استثمر به والدي، فكان شراء أسهم من أسهم ملكية «بنك الإنشاء والتعمير»، الذي أنشئ آنذاك في صنعاء، وكان كثيرون من أبناء يافع في جنوب اليمن المحتل، وفي الخارج، قد اشتروا أسهماً في البنك المذكور، وهذا ما دفع والدي لشراء 500 سهم من تلك الأسهم.

وقد دفعت قيمة الأسهم بالقرش الفرنسي الفضي (ماريا تريزا)، وهو العملة التي كانت تتعامل بها مناطق يافع مع المناطق المحاذية من شمال اليمن. وكان مثل هذا الاستثمار من قبل أبناء يافع مباشرة بعد ثورة 26 سبتمبر، حين توجه العديد منهم إلى تعز والحديدة للاستثمار هناك، كون صنعاء العاصمة، كانت – حينها – مشتعلة وسط المعارك الحربية بين الجمهوريين القادمين، والملكيين الذين ولوا أدبارهم من الحكم.

عودة إلى موضوع «العلقة الساخنة»، فقد كنت في العام المذكور، أتلقى دراستي في تعز، وفي الإجازة الصيفية، ذهبت إلى عدن، وبعد وصولي بأيام، طلب مني والدي أن أذهب إلى الحديدة، لكي أرى مطعمنا «مطعم ديلوكس»، ومنحني تكاليف السفر، وفي الوقت نفسه، تلقيت توجيهاً من قيادة الجبهة القومية لتحرير جنوب اليمن المحتل في عدن (الأخ فيصل عبد اللطيف

الشعبي)، بالسفر إلى منطقة يافع للتهيئة وحضور افتتاح فرع الجبهة القومية هناك. وبالفعل، توجهت إلى يافع، وهناك تم افتتاح فرع للجبهة القومية، وأذكر من المسؤولين عنه، الإخوة: سالم عبد الله عبد ربه، محمد ناصر جابر، وأحمد حسين الرشيدي، محمد عبد الرب جبر، عبيد عوض، ومجموعة أخرى، كان أغلبهم من قيادة جبهة الإصلاح اليافعية.

بعد ذلك عدت إلى عدن، وما إن رآني والدي، حتى سألني هل ذهبت إلى الحديدة؟، فما كان مني إلاّ أن أجبته بالإيجاب، وعندها سألني، هل قابلت فلاناً وفلاناً وفلاناً، وكنت أجيبه في كل مرة بالنفي، وعندها تملّكه الغضب، ما جعلني أعترف له أخيراً، بأنني لم أذهب إلى الحديدة، وإنما ذهبت إلى يافع، وبيّنت له السبب، وحينها تملّكه الغضب أكثر فأكثر، وإذا به يصرخ بي: الطريق اللّي جابتك ترجعك. أوصيك تشوف المطعم في الحديدة، وتروح تطلع يافع، بدل ما تروح تشوف رزقك، رُحت تشوف كلام فارغ، أنت ومجموعة طلبة ورجال فوق الحيود (الجبال)، تريدوا أن تطردوا بريطانيا العظمى التي تحكم نص العالم.

ومباشرة سافرت إلى تعز، ومنها توجهت إلى الحديدة، وإلى المطعم مباشرة. وجدت الحديدة مدينة مكونة من شارعين صغيرين لبيوت ومحال قليلة الطوابق وصغيرة، أما بقية الأنحاء، فعبارة عن أكواخ. ويكاد أن يكون الميناء المليء بالحركة هو كل شيء في المدينة، كانت المقارنة صعبة بينها وبين مدينة عدن، ولكن ما أثلج صدري وخفف من مشاعري المصدومة، أن «مطعم ديلوكس» الخاص بنا، هو أول مطعم عصري في هذه المدينة، ذلك أنه أضخم وأجمل مطاعم المدينة حجماً وديكوراً، مكثت هناك قرابة الشهر، كانت أغلب أوقاتي في داخل المطعم، لعل أخبار التزامي هذا تصل إلى والدي، فيخفف من غضبه الشديد عليّ.

بعد ذلك، زرت الحديدة عدة مرات، لتفقُّد عمل «مطعم ديلوكس الجديد»، الذي استمر العمل فيه جيداً، لكن وفاة والدي ـ رحمه الله ـ في عام 1965م، كانت بداية تدهور إدارته، الأمر الذي دفعنا إلى إغلاقه بعد سنوات قليلة، وقد استقر كثير من أبناء مناطق يافع في هذه المدينة منذ ذلك الوقت وحتى الآن، وأذكر منهم مثلاً: الأخ محمد عوض اليافعي وإخوانه، الذين أصبحوا من كبار مقاولي مشاريع الطرق والجسور، وكذا، معظم أفراد أسرة العوادي (أولاد عبد الرحمن وزيد وعيدروس العوادي – يرحمهم الله)، والذين أصبحوا من كبار الصناعيين والتجار في الحديدة.

وفي عام 1981م، حين كنت وزيراً للخارجية في جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية، توجهت جواً إلى الحديدة، لمقابلة الرئيس علي عبد الله صالح هناك، وهي المقابلة الثالثة لي معه، إذ كنت قد قابلته مرتين في صنعاء العاصمة في الثلاثة أعوام السابقة، وكان هدف المقابلة هذه المرة، البحث في موضوع إقامة قوة السلام العربية، التي ستكون مهمتها حفظ السلام في لبنان، الذي شهد حرباً أهلية وطائفية عنيفة، وكعادة الرئيس علي عبد الله صالح، كقائد عملي، ولتطابق وجهات النظر التام في ما بيننا، قررنا أن نسافر إلى سوريا مباشرة، فتوجهنا من الحديدة إلى صنعاء إلى دمشق. وهناك قابلنا الرئيس السوري حافظ الأسد، وعدداً من المسؤولين السوريين، وعلى ضوء تلك المباحثات التي جرت في العاصمة السورية، ساهم اليمن بشطريه، بأعداد مناسبة من الوحدات العسكرية، وبفعالية، في قوات «حفظ السلام العربية»، أو كما كانت تُسمى أيضاً «قوات الردع العربية»، وهي القوات التي أدى وجودها في لبنان، إلى إنهاء الحرب الأهلية هناك.

خلال هذه الزيارة المذكورة، رأيت الحديدة، وقد تطورت كثيراً، سواءً من حيث اتساعها كمدينة، أو من حيث نوعية المباني وعدد السيارات في الشوارع.

فهي لم تعد تلك المدينة التي عرفتها زمان، بل تبدو وكأنها مدينة أخرى، خفت فيها مظاهر الفقر والتخلف كثيراً.

وفي عام 2002م، زرت المدينة مجدداً، لحضور مناورات عسكرية ضخمة، أقيمت هناك، ووجدت المدينة وقد نَمَت وتحسنت أكثر من ذي قبل، وفي عام 2005م، زرتها لحضور احتفالات أعياد الوحدة اليمنية في الذكرى الخامسة عشر لقيام الوحدة اليمنية والجمهورية اليمنية، فرأيتها هذه المرة، وهي في أبهى حلة، فعلى طول الشواطئ باتجاه البحر، امتدت الكورنيشات والمنتزهات والاستراحات والشاليهات السياحية، وعلى الجانب الآخر، انتصبت المباني الجديدة من مساكن وفنادق، صارت المدينة كثيرة الشوارع التي عبدت بالأسفلت، وأقيمت وسطها وعلى جوانبها أعمدة النور المضاءة ليلاً، وانتشرت على جوانبها العمارات والمحال التجارية حسنة المظهر، صارت الحديدة، من حيث جوها وسماتها العامة، تتشبه بعدن، وأعتقد أنها اقتربت من هدفها هذا، فعدد سكانها الآن ما بين 250 – 300 ألف نسمة؛ فقد تضاعفت منذ أن زرتها لأول مرة عام 1964م مئة مرة، حتى اليوم.

إن التطور والتقدم المذهلين الذين شهدتهما الحديدة، جاءا نتيجة لجملة من العوامل، كميناء تم تعميقه وتوسيع أرصفته، وتحديث آلياته سابقاً، وبعد قيام الجمهورية اليمنية، كميناء رئيس لها على البحر الأحمر. وكذا، فتح الحدود اليمنية ـ السعودية أمام حركة الأفراد والسيارات والناقلات وشاحنات البضائع عبر معبر حرض، الذي يبعد عن الحديدة بنحو 70 كيلومتراً، وهو المعبر البري الرئيس بين البلدين، إذ إن فتح أبواب التبادل التجاري بين اليمن والسعودية منذ عام 2000م، وبوتائر عالية، قد أنعش وتيرة ميناء الحديدة وجميع الجوانب الاقتصادية في حياة المدينة. وأدى تحسن حال وضع المدينة بشكل عام، إلى جعل المدينة تهتم بمجال السياحة، حيث إنها تستقبل أعداداً لا بأس بها من

السياح المحليين والأجانب، لما تتمتع به من شواطئ جميلة، وجو معتدل ولطيف في فصل الصيف.

وفي عودتي من الزيارة الأخيرة المذكورة للحديدة، فضلت أن أعود براً إلى عدن عبر الشريط الساحلي: الحديدة – المخا – خور عميرة – البريقة – عدن، ذلك أن هذا الطريق الهام قيد الاستخدام من قبل المواطنين، وبالذات من قِبَل القادمين من المملكة العربية السعودية والمسافرين إليها بسياراتهم الخاصة، وكذا المركبات العامة لشركات النقل، التي باتت تعمل بين البلدين، كما أن هذا الطريق يغنيك عن القدوم من عدن إلى الحديدة عن طريق مدينة تعز، مثلما كان الحال قبل شقه كطريق معبد واسع حديث، الذي يعتبر السفر عبره إلى عدن، متعة لمن يعشق النظر إلى السواحل المتعرجة، برمالها الفضية، والبحار التي تبدو بيضاء بفعل الأمواج، وأحياناً زرقاء بسبب العمق، وأحياناً أخرى خليطاً من ذا وذاك؛ فلا شك أن مثل ذلك العاشق، سيشبع من كثرة المناظر الجميلة.

والحديدة، مثلها مثل بعض المدن، لا يكملها سوى ما حولها، خاصة أنها عاصمة محافظة الحديدة، التي تعد عموماً محافظة زراعية، حيث تنتشر فيها العديد من الأودية الزراعية الهامة، وبها شيدت سدود حديثة، أهمها سد «سردد»، وبها مناطق متخصصة بزراعة المواشي، مثل «المراوعة» و«الحسينية»، وبها، أيضاً، مناطق منتجعات سياحية، مثل «الخوخة»، أضف إلى ذلك، أن بها ميناء آخر، هو ميناء الصليف، الذي أقيمت فيه الصوامع للغلال، ويتم إنشاء مصفاة للنفط فيه حالياً.

لعل الطبيعة العملية لزياراتي المذكورة إلى الحديدة، لم تمكنّي من القيام بجولة سياحية، ولو قصيرة؛ فقد تمنيت مثلاً ـ وما زلت ـ أن أزور منطقة الخوخة السياحية، لما سمعته عن جمال الطبيعة فيها، من تداخل بديع بين الخضرة

والبحر، وكذلك الحال بالنسبة لمدينة زبيد التاريخية، التي قرأت عنها الكثير، وبدت لي جذابة، لأنها شهدت نهضة عمرانية طينية، تشبه تلك النهضة في وادي حضرموت، حيث اشتهرت قديماً كعاصمة لدولة بني زياد، وكذا، للدولة الأيوبية، شُيدت فيها أرقى أنماط المباني والمساجد في عهود الدولتين المذكورتين وغيرهما.

وكانت المدينة – أيضاً – من المراكز العلمية والدينية المشهورة تاريخياً في اليمن، واستمدت شهرتها من عشرات المدارس العلمية والدينية التي وُجدت بها، ومن اتصالها بالحضارات الأخرى السائدة – آنذاك – وأخذها من علومها وصناعاتها، وهي اليوم قبلة للباحثين والسياح الأجانب من ذوي الاهتمامات الثقافية.

وتسعى الحكومة اليمنية ودول عربية وأجنبية عدة، ومنظمات دولية، إلى ترميم هذه المدينة المهملة عمرانياً وثقافياً، باعتبارها من أشهر المدن اليمنية التاريخية، التي كانت مركز نور وعلم في العهود القديمة.

تعرفت إلى الكثير من أبناء الحديدة، سواء فيها أو في عدن أو في صنعاء، لا تحضرني ذاكرتي لسرد أسمائهم الآن، وهم جميعاً ودودون بطبعهم، وأخلاقهم مع الآخرين عالية ولطيفة، وعندما تزور الحديدة، تلمس صفاتهم بوضوح؛ فهم لا يحبون المشاكل أو الحدة في الطباع أو المواقف المتوترة، وكذا، تلمس عدم ميلهم إلى السياسة كثيراً، ربما بسبب ما عاناه اليمن قديماً من حكم الأئمة، وما عاناه من صراع في ظل الشطرية، وما عاناه – أيضاً – من تصدعات في بناء الوحدة وبنيان الجمهورية اليمنية، ولكن لا يمكن هنا تجاهل وجود سياسيين كثيرين، منهم وأهمهم، السياسي المحنك، الأستاذ حسن مكي، الذي شغل العديد من المواقع السياسية الهامة، ومنها رئاسة الوزراء، وعدداً من

الوزارات الهامة، وهو الآن من أكثر سفراء اليمن كفاءة في الخارج، وقد تعرفت إليه في عام **1979**م، وتربطني به صداقة حتى اليوم.

وعند الحديث عن أبناء الحديدة، عليك أن تحذر من كل السمات الهادئة الودودة المذكورة التي يتصفون بها، والتي سبق لي ذكرها. لأنهم يمتلكون أيضاً طاقة كبيرة للعناد والقتال والصلابة. وستلاحظ هذا، خاصة عندما يأتي الذكر على قبيلة «الزرانيق» المشهورة، وهي القبيلة اليمنية الوحيدة التي لم يستطع الأتراك العثمانيون إخضاعها طوال فترة احتلالهم لليمن، وهذه القبيلة التي تعد أشهر وأقوى القبائل التهامية، تسكن المناطق ما بين الحديدة وزبيد، ولم يستطع أحد عبر التاريخ، أن يدخل عاصمتهم مدينة «بيت الفقيه»، حتى أثناء أقوى حملات حكم الأئمة الهادفة لإخضاعهم، إثر انتفاضتهم القوية ضد حكم الأئمة عام **1928**م، إذ اكتفى قائد الحملة، الإمام «سيف الإسلام»، بمحاصرة بيت الفقيه ولم يدخلها.

وما زال الزرانيق يكتسبون جاذبية خاصة حتى يومنا هذا، بفعل احتفاظهم بعدد من العادات والتقاليد الإيجابية، مثل ملابس الرجال والنساء المميزة بجمالها وألوانها، وتيجان رؤوسهم المصنوعة من أغصان الشجر والورود والزهور. وفي رقصاتهم البديعة بإيقاعاتها المطربة، وكذا بالرقصات الرجالية المتسمة بالخفة والقوة، وامتشاق الجنابي والسيوف.

ويكتمل هذا المشهد الحالي لحياة أبناء الزرانيق روعة وجاذبية، في احتفاظهم بعدد من الرياضات التي كان يمارسها أجدادهم، مثل سباقات الهجن (الجمال)، ورياضات القفز، فلا تندهش وأنت ترى أحد الزرانيق، وقد نط من فوق ثمانية جمال نطة واحدة، ثم حط في الجانب الآخر منها واقفاً كالأسد، وكم من مرة قلت لنفسي، وأنا أشاهد إحدى مسابقات الأولمبياد العالمية: لماذا لا يستفيد البلد من مثل هؤلاء الشباب في رياضاتهم هذه؟، لو أن اليمن فعلت

ذلك، لحصدت عدداً من الميداليات الذهبية والفضية والأولمبية. والحصول على ميدالية أولمبية، ولو واحدة، من الأمنيات اليمنية الكثيرة، التي بإمكاننا تحقيقها، ولكننا لا نقوم بعمل فعلي من أجل ذلك.

الرياض

«الرياض» جمع روضة، والروضة هي المكان الذي يكثر فيه الماء الدافق والشجر المخضر الكثيف، وأضاف البعض «الوجه الحسن» إلى سماتها.. عندما دخلت الرياض في أول زيارة إليها في منتصف السبعينات من القرن العشرين،

كانت السفارات الأجنبية والعربية ما زالت في مدينة جدة، ميناء البلاد الذي كان حينها يعتبر المدينة الأهم، أما اليوم، فقد أصبحت الرياض أحد أهم المدن والعواصم في منطقة الشرق الأوسط، كما هي عاصمة البلاد وقلبها النابض، ولذا، تحتفل المملكة العربية السعودية في اليوم الذي يوافق تاريخ 5 شوال، الموافق 23 سبتمبر من كل عام، بذكرى الرياض، باعتبارها تجسيداً لميلاد المملكة العربية السعودية، فبعد أن استعاد آل سعود الحكم فيها عام 1240 هـ، على يد الإمام تركي بن عبد الله، جعلوا من الرياض عاصمة لدولتهم بعد دمار «الدرعية»، وبقيت منذ ذلك الحين عاصمة للدولة السعودية الثانية.

ويقال إن سبب اختيارها على مر العهود الحديثة عاصمة للمملكة، كونها تقع تماماً في وسطها على شرق هضبة نجد، حيث تكثر الأودية، وبعد أن فتحها الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل في معركة «فتح الرياض»، أصبحت المدينة عاصمة للدولة السعودية الحديثة «المملكة العربية السعودية»، ويعتبر فتح الرياض عام 1932م، تحولاً رئيساً نحو رقي وازدهار شعب المملكة كلها، وهو الرقي الذي يعلو منذ ذلك اليوم الأول، والازدهار الذي يعم بخيره وتقدُّمه وحداثته كل أرجاء المملكة.

في بداية عهد المغفور له الملك عبد العزيز آل سعود، موحد المملكة (نجد والحجاز)، كانت الرياض عبارة عن قرية كبيرة من البيوت الطينية، يحيطها

سور ترابي، أشهر بواباته بوابة «الحسا»، وكان سكانها لا يزيدون على **25** ألف نسمة، حسبما دونه المستشرقون في بداية القرن التاسع عشر، ثم كبرت المدينة وتوسعت مع مرور كل عام، وخلال نصف قرن من الزمن، تحولت من بلدة صغيرة تحيطها الأسوار، إلى مدينة عصرية، تمثل إحدى أكبر ثلاث مدن في البلاد (إلى جانب جدة ومكة المكرمة)، ومن ناحية التنظيم والكفاءة، فقد أصبحت، كما نراها اليوم، من المدن الحديثة المتطورة، ومن المؤشرات الرقمية على هذا التطور الهائل، هو أن عدد سكان المدينة عند «فتح الرياض» كان في حدود **50** ألفاً، بينما هو اليوم في حدود الـ**10** ملايين.

كانت العلاقات الدبلوماسية مقطوعة بيننا وبين السعودية حتى عام **1974**م، حيث لم يوجد تمثيل دبلوماسي بين البلدين، ولكن روح الأخوة وروح الجوار، كانت أقوى حتى خلال هذه الفترة؛ ففي أحد مؤتمرات القمة العربية (قمة الجزائر نهاية نوفمبر **1973**م)، وحينها كان عمر السقاف وزيراً للخارجية السعودية، وهو رجل يتميز بالعقل والحكمة، وهو الذي تولى ترتيب اللقاء بين وفدينا، وكان خبيراً بطبيعة مزاج اليمني، فنجح في ذلك المسعى – وأثناء إشعاره الوفد اليمني بموافقة الملك فيصل على اللقاء، قال لهم مؤكداً: إذا قابلتم الملك، فلا تكونوا حادين.

التقى الوفدان، برئاسة الملك فيصل بن عبد العزيز آل سعود، والرئيس سالم ربيع علي سالمين، وبعد السلام وعام الكلام، قال الملك مخاطباً إخوته اليمنيين: لسنا ضدكم، فأنتم إخواننا، ولكن هناك مسألتين عليهما الخلاف، الأولى مسألة الشيوعية، والثانية أننا أعداؤكم التاريخيون، هذا هو اعتراضنا، أما مسألة علاقتكم بالاتحاد السوفييتي، فبلادنا كانت ثاني بلد يعترف بالاتحاد السوفييتي، وأرسلني والدي وأنا شاب إلى الاتحاد السوفييتي، وكانت علاقة سفيرهم «حكيموف» بنا ممتازة جداً. دست المخابرات الغربية ما أوغر صدر

ستالين، الذي قرر سحب حكيموف وقتله لأنه مسلم؛ فاستاء والدي لذلك، وقطع علاقته بالاتحاد السوفييتي.

وأضاف الملك فيصل – رحمه الله – في حديثه ذاك: أنعم الله على البشرية بوجود قطبين نوويين، ويعلم الله بالمصير الذي كانت ستؤول إليه البشرية في ظل قطب نووي واحد، وهو بذلك كان يطمئننا إلى أن علاقتنا بالسوفييت لا تقلق المملكة، وما يقلقهم ليس سوى انتشار الفكر الشيوعي، إثر الإعلان عن قيام حزب اشتراكي في دولة عربية وجارة مسلمة، تربطها بالسعودية علاقات تاريخية وجغرافية وصلات ومصالح متشابكة، قد تكون أقرب إليها كثيراً من موسكو، وخصوصاً إذا ما تم النظر إلى المصالح، وليس إلى الإيديولوجيا، وهو ما كان يحكم سياسة النظام في الجنوب داخلياً وخارجياً، وكان لذلك نتائج وخيمة كثيرة، لم نزل ندفع ثمنها، ولا يتسع المجال هنا للإشارة إليها.

إنه – كما يقولون – حديث الملوك؛ فجلالة الملك فيصل، حين ركز في حديثه على العلاقات مع الاتحاد السوفييتي وعن القطبين العالميين – الاشتراكي والرأسمالي – فقد عنى بذلك، وبصورة غير مباشرة، أن المسؤولية الأولى في خراب العلاقات بين اليمن الديمقراطي والمملكة السعودية، تقع على التوازن العالمي السائد بين كتلتين عالميتين، والذي كان العالم كله بدوله ومملكاته رهينة له، كونه الآلية التي تتحكم بأرجاء العالم والعلاقات بين الدول، أما حول الشيوعية، ففي ذلك العام، كان التنظيم السياسي الجبهة القومية كحزب حاكم، واضح في توجهاته العربية والإسلامية، سواء في برنامجه الأول أثناء مرحلة الكفاح المسلح ضد الاستعمار، أو في برنامجه الثاني بعد نيل الاستقلال وقيام الدولة الوطنية، ولعل الملك فيصل – رحمه الله – ذكر الشيوعية في حديثه ذاك، من باب التنبيه لما هو قادم في جمهورية اليمن

الديمقراطية الشعبية، من تحول نحو اليسار آنذاك، وقيام حزب اشتراكي من طراز جديد (يردد حينها)، لأسباب عدة واقعية، ومنها ما كان يطرحه الإخوة السعوديون آنذاك، على شاكلة ما قاله الملك فيصل في الحديث المذكور آنفاً مع الرئيس سالمين، وهو (الملك فيصل)، محق في ما قاله كتوقع، فقد انتصر في عدن الاتجاه الاشتراكي على الاتجاه الديمقراطي الوطني، عندما أطيح بالرئيس سالم ربيع علي عن السلطة عام **1978**م، وأقيم بعدها الحزب الاشتراكي اليمني، برئاسة عبد الفتاح إسماعيل، ولكن حتى هذا الانتصار، لا يمثل انتصاراً لميل شيوعي، فالحزب الاشتراكي اليمني، يرفض مثل هذه الرؤية له ولتجربته منذ قيامه ذلك العام (وخاصة منذ إزاحة عبد الفتاح إسماعيل، ومجيء علي ناصر محمد رئيساً)، وحتى اليوم.

وعودة إلى مدينة الرياض، فقد كانت الزيارة الأولى لي إليها عام **1976**م أثناء بدء الحوار السري لإقامة علاقات دبلوماسية بين البلدين، الذي تم بين كل من جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية والمملكة العربية السعودية، وكان يرأس وفدنا الزائر، الشهيد محمد صالح مطيع، وزير الخارجية وعضو المكتب السياسي لتنظيم الجبهة القومية، الحزب الحاكم في عدن، وتمت جلسات الحوار مع سمو الأمير سعود الفيصل، وزير الخارجية السعودي، وبحضور الشيخ كمال أدهم، مسؤول المخابرات العامة حينها، ونائبه سمو الأمير تركي الفيصل، وقد قابلنا خلال هذه الزيارة، خادم الحرمين الشريفين الملك خالد بن عبد العزيز، وكان حينذاك ولي العهد، الأمير فهد بن عبد العزيز آل سعود. وخرجت الحوارات بنتائج طيبة، تمت صياغتها في نقاط متفق عليها سُمّيت بـ (النقاط الست)، التي تم الاتفاق حولها بين الطرفين، وأُعلن على أساسها بعد ذلك في عاصمتي البلدين، عن إقامة العلاقة الدبلوماسية بين البلدين الشقيقين، وهي العلاقات التي كانت مقطوعة قبل مجيء الوفد المذكور إلى الرياض.

ومن هامش اللقاءات أذكر أن المرحوم الشيخ كمال أدهم، الذي كان قد اهتم بنا خلال الزيارة المذكورة آنفاً أيما اهتمام، وفي إحدى الجلسات، طلب الشيخ كمال من الأخ محمد صالح مطيع، السماح لحضور الأستاذ شيخان الحبشي (أحد كبار قادة حزب رابطة أبناء الجنوب)، الذي غادر عدن بعد الاستقلال الوطني. رحب بذلك، وجاء للقائنا، وكان لطيف المعشر. وأثناء اللقاء قال لمطيع: يبدو أن الكعكة أعجبت من هم في السلطة، ولم يتركوا للآخرين قليلاً منها؛ فرد عليه مطيع بابتسامته الذكية المعروفة: بس كعكة يابسة صعب مضغها يا شيخان.

وأثناء الحديث، سأل الشيخ كمال أدهم مطيع، قائلاً: صحيح يا مطيع، أنت قعيطي يافعي؟، فرد عليه الأخ مطيع: نعم، لكن ذلك في الانتماء القبلي السابق؛ فقال له الشيخ كمال: جارنا السلطان القعيطي، السلطان في حضرموت، كان طيباً، ولكن الإنجليز كانوا يشجعونه، أما يافع فلها علاقة بالملك المغفور له عبد العزيز، أثناء حروبهم مع الإمام في الثلاثينيات، وانتفاضتهم ضد الإنجليز في عامي **1957 - 1958**م، وكان استلام محمد صالح المصلى **402** بندقية وبعض المدافع، مساعدة للسلطان محمد بن عيدروس العفيفي، والشيخ أحمد أبوبكر النقيب والثوار اليوافع، وما إن علم بها الإمام، حتى أمر بمصادرتها، لكنها وصلت إلى يافع، وكان الثوار قد استخدموها لصد الحملة القادمة من «لودر» عبر طريق السيلة البيضاء «سباح».

وأورد الشيخ كمال أدهم، أثناء ذلك الحديث، بعض التفاصيل المتعلقة بالاستقلال الوطني لجنوبي اليمن، وأوضح أن السعودية كانت على وشك الاعتراف بالنظام الجديد في جنوب اليمن لولا نصيحة بعض الضباط الذين حضروا محادثات جنيف، ومنهم «بوزنجبيله» وآخرون؛ فرد عليه وزير الخارجية محمد صالح مطيع: الملك المغفور له عبد العزيز آل سعود، موحد نجد والحجاز،

وما رأيكم بعد أن نوحد اليمن، نعمل على توحيد الجزيرة العربية بنظام ملكي وحكم ديمقراطي؟.

ضحك الجميع لأن الأمنية التي ذكرها مطيع، كخلط ذكي عجيب، كانت يومها بعيدة المنال، وهي أمنية يشوبها الخوف – آنذاك – لكن تحقيقها الآن بعد مرور زمن طويل، وحدوث تبدلات كثيرة، يمكن أن يتم من خلال التكامل الاقتصادي والنظام الكونفدرالي، الذي يحفظ للصغير وضعه ومصالحه وخصائصه، في الإطار الكبير الموحد.

في عام 1980م، عدت إلى هذه المدينة وأنا وزير لخارجية اليمن الديمقراطي، وكانت الزيارة تهدف إلى متابعة تطوير العلاقات الثنائية، ووقّعنا في نهاية الزيارة هذه، محضراً بالمسائل التي تم الاتفاق عليها بين الجانبين أثناء المباحثات، والحقيقة أنني حاولت مواصلة الجهد السابق بهذا الصدد، حيث إنني أسهمت مع الزميل الراحل الشهيد محمد صالح مطيع، الذي كان قبلي وزيراً للخارجية، في إنهاء حالة السخونة السلبية في العلاقات بين ما كان يسمى جمهورية اليمن الجنوبية الشعبية، والمملكة العربية السعودية، بصفتي الرسمية لا الشخصية، حين كنت مسؤولاً عن العلاقات الخارجية بالتنظيم السياسي، الجبهة القومية الحزب الحاكم في عدن، من عام 1975 إلى عام 1979م. وقبلها، حين كنت سكرتيراً عاماً لمجلس السلم والتضامن والصداقة مع الشعوب، وبدأنا معاً – الشهيد مطيع وأنا – بتوجيهات الرئيس سالم ربيع علي، والمكتب السياسي للتنظيم، في إجراء المباحثات السرية التي يترأسها الأخ مطيع – وزير الخارجية، وأنا كسكرتير للعلاقات الدولية في تنظيم الجبهة القومية. وبدأنا المباحثات السرية مع السعوديين من 1974م، وانتهت في 1976م متوجة بإعلان إقامة العلاقات الثنائية، حيث التقينا أثناء تلك الزيارة حوالي 3 مرات بالملك فهد بن عبد العزيز آل سعود – رحمه الله – وكان حينها ما زال

ولي العهد، وهناك لقاءات أخرى مع مسؤولين سعوديين كانت في القاهرة وفي جدة وفي الرياض، وفي كل اللقاءات، كان الإخوة السعوديون مهذبين للغاية.

وبصفتي مسؤولاً أول عن القيام بأدوار طيبة في إيجاد علاقات واسعة مع المحيط العربي والدولي أثناء شغلي لمنصب وزير الخارجية، خلفاً للشهيد مطيع (من عام 1979م وحتى عام 1982م)، واصلت هذا النهج وهذه السياسة، ولكن كان الوضع السياسي العام متشدداً، فأهم أسباب خروجي الحقيقية من وزارة خارجية اليمن الديمقراطي، الصراع بين الاتجاه العربي والاتجاه الأممي المتطرف، الذي حاول تجيير علاقاتنا مع السعودية ودول الخليج الأخرى، لمصلحة النظام الاشتراكي العالمي، وبالذات ما كان يسمى الاتحاد السوفييتي، وكان السبب المباشر الذي أخرجني من وزارة الخارجية، هو ما وصلت إليه الأوضاع الداخلية من صراعات، بلغت حداً مخيفاً في تلك الفترة التي أعدم فيها المناضل محمد صالح مطيع، وبعدها أُبعدت قيادات عليا إلى الخارج، وأُسقطت من عضوية المكتب السياسي أسماء عدد آخر منهم، وطُرد عدد منهم من عضوية مجلس الشعب الأعلى.

وكان إعدام المناضل محمد صالح مطيع، تحت تهمة «العمالة للمملكة العربية السعودية»، بداية أزمة حادة في النظام فقد لحقت هذه الجريمة، التداعيات السلبية في الوضع كافة، ولم تهدأ هذه الأزمة حتى اليوم، لأن كل حدث دموي، أسس لحدث دموي لاحق، أكان في الشمال أو في الجنوب، وما زلنا نعاني من آثار هذا النهج حتى اليوم، لأن لعنة الدم لا تنتهي بالتقادم، والحروب لم تبنِ، بل دمرت وأهلكت الأرض والإنسان، فقد طالت لمدة أعوام، شعرت خلالها وكأننا نعيش على أساس المثل القائل: (خرج ولم يعد).

بعد الحرب اليمنية التي سُمّيت حرب صيف عام 1994م، زرت الرياض مرات كثيرة، بحكم إقامتي في مدينة جدة، التي استقررت بها 8 سنوات، حيث

شعرنا بأننا نعيش كرماء معززين، بين إخواننا الذين نسجل لهم امتناننا وتقديرنا، وعلى رأسهم الملك فهد بن عبد العزيز وولي العهد – آنذاك – الأمير عبد الله بن عبد العزيز.

كانت أهم تلك الزيارات إلى الرياض، زيارة بعد انتهاء عمليات الحرب اليمنية مباشرة، حين التقينا فيها بالمقيمين اليمنيين هناك، لشرح ظروف وملابسات الحرب ومسبباتها، وما آلت إليه الأوضاع ووصلت إليه من نتائج، وأذكر هنا أن الإخوة اليمنيين المقيمين في الرياض، كانوا أكثر ترحيباً بنا، على عكس المقيمين بمدينتي مكة المكرمة والمدينة المنورة، نظراً لكثرة زائريهم من الحجاج والمعتمرين على مدار السنة، بينما الجالية الموجودة في الرياض، لا يأتيها إلا القليل من الزوار، ولهذا، كنا محل أكثر عناية وترحيباً هناك من قبل الإخوة، ومنهم: عبد الرب قاسم العيسائي وفيصل حسن العيسائي والشيخ عبد العزيز المفلحي والشاعر ثابت عوض والفنان علي صالح اليافعي والأخ عبد الله الدرويش وعبد الله الوزير وصالح حليس، وغيرهم من صفوف الأصدقاء والزملاء، الذين أحاطونا بمشاعرهم الطيبة الحارة.

في سنة 1996م، عدت إليها مجدداً مع الأخ قاسم الجانحي، وأخي علي صالح محمد، اللذين قدما لتوهما من اليمن، ولذا، كانت لزيارة الرياض هذه المرة نكهة خاصة، ونالت اهتماماً ذا شجون مع من كانوا هناك، لكونهما (الجانحي وعلي أخي)، يحملان الكثير من أخبار أسر المغتربين البعيدة في اليمن، وأخبار أحوال الأهل هناك، حتى إن قصر الضيافة الذي أقيم فيه حفل العشاء الخاص، لم يتسع للحضور الذين جاؤوا إليه، وفي مشهد هذا الحضور، شكرت الله على روابط الأخوة السعودية اليمنية المتجسدة في هذا المشهد، الذي بدا فيه الجميع وكأنهم في وطنهم.

إن التقلبات السياسية وما ينتج عنها من ظروف معيشية صعبة على مدى عقود، جعلت من المملكة العربية السعودية هدف اغترابهم لتحسين أوضاعهم المعيشية، وهو الأمر الذي يجد ترحيباً مشكوراً من قِبَل قيادة المملكة المتعاقبة، رغم ما نتج عن حرب الخليج في عام **1990**، من انحسار وتقليص الكثير من الامتيازات التي كان يحظى بها أبناء الجالية في المملكة، مع أن الهجرة الى أراضي المملكة لم تتقلص، بل زادت وتضاعفت، وبالذات منذ **1994**م، بالرغم من نظام الكفالة الذي يستغله البعض، وللأسف، للكسب والابتزاز، ليضيف إلى معاناة القادمين، الشيء الكثير، الأمر الذي يسيء مباشرة إلى التوجه الرسمي لقيادة المملكة وموقفها الإيجابي والأخوي تجاه إخوتهم اليمنيين، ومحاولتهم تقديم يد العون اللازم بصور مختلفة للتخفيف من أعباء المعيشة، جراء الظروف الاقتصادية الصعبة لليمن، وهذا يعكس عمق جذور العلاقة بين الشعبين عبر التاريخ، وكذا التطور الذي حدث في العلاقات الرسمية بين البلدين الشقيقين الجارين، خاصة منذ عام **2000**م، الذي بدأ فيه التكامل التجاري والاقتصادي بين البلدين طفرات في النمو.

وقدمت المملكة مساعدات متنوعة للجمهورية اليمنية في عدة مجالات، وخاصة في المجال الطبي (مدينة الملك عبد الله الطبية)، **1000** سرير، ويقدر تكلفته بـ **500** مليون دولار، ومستشفى عدن العام، ومركز القلب، الذي لم يستكمل، ومتبقٍ القليل للبدء في تشغيله وتقديم خدماته للجمهور ولأبناء الشعب اليمني، وكذا الدعم في مجال الطاقة والكهرباء، من حيث تقديم الدعم اللازم لتجهيز المحطة الغازية لكهرباء مأرب المرحلة الأولى والثانية، وكذا تقديم الدعم، وعندما تقتضي الحاجة لذلك، للمشتقات النفطية والبترول، وكذا تقديم المعونات الغذائية للأسر الفقيرة، إلى جانب تقديم «الصندوق السعودي للتنمية»، قروضاً ميسرة لليمن، وأيضاً، قامت السعودية ببناء نحو أكثر من

خمسين معهداً للتدريب الفني والتأهيل المهني في اليمن، ما يؤكد، ليس على اهتمامها باليمنيين الذين يقيمون ويعملون في المملكة، وإنما اهتمامها بأن تتأهل الأيدي العاملة اليمنية، لكي يستطيع قسم منها العمل مستقبلاً في المملكة.

وخلال الزيارة المذكورة أتيحت لي فرصة التجول في مدينة الرياض، فرأيتها وقد اتسعت اتساعاً كبيراً ملحوظاً خلال الفترة ما بين أول زيارة وهذه الزيارة، والممتدة إلى **20** عاماً (**1976**م – **1996**م)، بحيث إنني لم أستطع التمييز أو تذكر بعض المواقع فيها، تلك التي كانت مرسومة بمخيلتي وذاكرتي في الزيارة الأولى عند الذهاب إليها هذه المرة، وتستطيع القول إن معظم المدينة هو جديد الإنشاء بالنسبة لي، هناك مئات الشوارع الجديدة، وعشرات الأحياء السكنية الجديدة، وكم ستجول وتجول، وقلت وأنا أتجول فيها: حقاً، إن ما قرأته عنها بأنها واحدة من أسرع مدن العالم توسعاً، حقيقة واضحة أمامي؛ فمن كثر المباني الكبيرة الجميلة الشاهقة، لم أعد أعرف إلا «برج المملكة» و«برج الفيصلية»، اللذين يعدان من معالمها الحضارية الحديثة، وسرعة نمو مدينة الرياض، لا تقتصر على الجانب المعماري وبناه التحتية من جسور وطرقات وحدائق وغيرها، بل تتعداه الى سرعة النمو السكاني، حيث يقال إن سكانها يتضاعفون كل عشر سنوات منذ نهضتها الحديثة، حيث تعتبر الرياض أكبر عاصمة، لأكبر دولة عضو في مجلس التعاون الخليجي، ما يؤهلها لأن تلعب دوراً ريادياً على صعيد المنطقة.

وأبناء الرياض ميالون إلى التعليم، حيث تحتوي المدينة على ثلث الجامعات والمعاهد العليا في المملكة، وهم يقضون بقية وقتهم في العبادة والتنزه في الحدائق العامة والأماكن السياحية، وصار التلفاز يأخذ قسمه من وقت اليوم لديهم في المساء، وخاصة في ليالي الصيف الحارة، كما أن من اللافت للنظر، أن النشاطات الثقافية، مثل الندوات الفكرية والأدبية (وخاصة الشعرية)،

تستحوذ على حصة جيدة من اهتمامات أبناء الرياض اليومية والعامة، وهي الحصة التي ضعفت أو قلَّت في الكثير من مدننا العربية.

لقد سررت بمقابلة سمو الأمير الوليد بن طلال، عند زيارته الأخيرة لصنعاء في 23 مايو 2009م، والذي فهمت منه ومن أعضاء الوفد، أن المسيرة التنموية تسير بخطوات هائلة، وخاصة فيما يتعلق بالمشاركة الفعالة للمرأة السعودية مع أخيها الرجل.

آخر زيارة لي إلى الرياض، كانت في شهر أغسطس من عام 2015، حيث التقينا بالرئيس الشرعي عبد ربه منصور هادي، الذي لجأ إليها بفعل التمرد على الشرعية في صنعاء، وقرار المملكة ومليكها، سلمان بن عبد العزيز، خوض الحرب لإعادة الشرعية إليها، وإنهاء التمرد الطائفي القادم من صعدة، وهي مستمرة، ونتمنى لأوطاننا التعافي والسلامة.

مكة والمدينة

من نعم الخالق على عبده المؤمن، أن تتزامن أشهر العبادة مع الوجود في أقرب الأمكنة إلى القلوب والمشاعر وأحبها إلى الخالق، إذ صادف شهر رمضان المبارك في آخر أيام القرن العشرين (عام **2000**م)،

وجودنا في أرض الرحمن المباركة، وبالتحديد في ربوع الحرم المكي الشريف، نطوف بالكعبة – بيت الله الحرام – وها نحن نقوم بالعمرة مع عشرات آلاف المسلمين، الذين اكتظت بهم ساحة الحرم المكي، بعد أن تم توسيعها على يد خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز آل سعود – رحمه الله – وأصبحت تستوعب أعداداً هائلة من ضيوف الرحمن المعتمرين، وكذا صارت الأماكن المقدسة بمكة المكرمة، تستقبل أكثر من مليوني شخص سنوياً، يأتون من كل أنحاء العالم لتأدية مناسك الحج.

وفي السنة الماضية، كنا في شهر رمضان المبارك، وتحديداً في أواخره، ضيوفاً على مائدة إفطار سمو الأمير سلطان بن عبد العزيز آل سعود، وقيادة المملكة ملكاً وأمراء وحكومة، وهم حريصون، كالعادة، على الوجود في النصف الأخير من شهر رمضان وموسم الحج، في مكة المكرمة، ليلتقوا بالناس وبضيوف المملكة، وليصرّفوا أمور الدولة، وليقضوا المناسك في هذه الرحاب المقدسة، كواجب من الواجبات الدينية والدنيوية، عزز مكانتهم لدى عموم المسلمين وأبناء الشعب السعودي الشقيق.

كان للعيش في الخارج (جدة)، نفع أيضاً، بأننا بدأنا ننظم أسلوب حياتنا اليومية، بعد أن كنا في اليمن نمنح كل وقتنا للمسؤوليات والقضايا العامة وانشغالاتها، حيث زاد الوقت المخصص للقراءة، وكذا الوقت المخصص

للكتابات الصحافية والإعلامية، كلما أمكن، والأهم، فوق هذا وذاك، وفقنا الله بوجودنا بالقرب من بيت الله الحرام والأماكن المقدسة، نقوم بأداء العمرة والدعاء للأهل والأصدقاء، والتقرب إلى الخالق الواحد الأحد، ونجد الفرصة الكاملة للتأمل والمراجعة مع النفس وللنفس، وفي ما خلق الله، كما وفرت لنا الأيام متعة احتضان الأحفاد وتربيتهم، بعدما تخرج الأبناء في الجامعات وتزوجوا وأنجبوا، وهي متعة لا تساويها متعة أخرى على الإطلاق.

وها نحن منذ حرب **1994**، نزور الكعبة والحرم المكي الشريف شهرياً، بعد إقامتنا في مدينة جدة، وبين شهر وآخر، نسافر في طريق مُعبّد واسع، ولمدة تقارب الخمس ساعات، إلى المدينة المنورة، لنذهب إلى المسجد النبوي ونزور قبر الرسول – صلوات الله عليه وسلامه – ولنصلي هناك في إحدى جنبات المسجد، الذي يخدم في مكان واحد ولحظة واحدة وصلاة واحدة، أكثر من مليوني شخص، دون أن نسمع أن أحد أفراد هذا الحشد الهائل قد أصابه مكروه، أو أن شكوى صدرت عن أحدهم؛ فقد أصبحت مرافقه وتوابعها من ممرات وساحات وغيره متطورة، تفي بكل متطلبات العبادة والارتباط بالخالق، وتجعل الحجاج والمعتمرين يؤدون مناسكهم بسهولة ويسر.

والسفر إلى مكة المكرمة، وإن كان أساساً من أجل العبادة، فإن مكة مدينة تنشرح لها النفس، ويمنح الله ـ جل وعلا ـ شعوراً فياضاً بالسكينة والرضا والإيمان العميق، وهي، وإن أطلقت عليها قديماً عدة أسماء، أهمها اسم «أم القرى»، فإن زرتها، تجد بحق أنه من الإنصاف أن تطلق عليها اليوم اسم «أم المدن»، ذلك أن منظر الكعبة المكرمة والحرم المكي الشريف لا يضاهيه منظر في الدنيا بجميع المقاييس. فمن الناحية العامة، فهذا أقدس مكان، وأول ثلاثة مواقع مقدسة حباها الله قدسية إلهية، وعندما تطل من شرفة عالية في أحد الفنادق العالية (ناطحات سحاب)، وترى الكعبة وقد أحاط بها المصلون

صفوفاً دائرية، تتنابك لحظات خشوع لخالقك لا يمكن وصفها، كما أن منظر مسجد الحرم المكي العام، يعد من أروع ما بناه الإنسان في الكون من بناء، وعموماً، ترى أجزاء من مدينة مكة المكرمة، وهي منطقة جبلية، ينتشر العمران الحديث وأبراج ناطحات السحاب في كل ناحية منها، وعلى امتداد الأودية والجبال المحيطة بها. وفي هذا المنظر العام، ترى الكعبة والحرم، وكأنهما نبع ماء روحي صافٍ متدفق، وقد احتضنته العمارات والأبراج، فبدت وكأنها أشجار عالية متعددة الألوان، يستظل بها ذلك النبع، وتُروى من خيره هي.

ومن مكة، يكمل المرء عمرته أو حجه ويزور المسجد النبوي الشريف بالمدينة المنورة، التي أصبحت هي الأخرى مدينة عصرية شامخة، تخلب الألباب بمبانيها الشاهقة، وبأسواقها العصرية، في نسق عجيب مع المسجد النبوي والمساجد الأخرى العامرة بالمصلين القادمين عبر الجو، وعبر الطرقات البرية والبحرية الحديثة، إنها نعمة الله، فله الحمد وله الشكر، ونحن كنا نسافر إلى المدينة المنورة منطلقين من جدة، وما إن تصل هناك، حتى يتلاشى كل ما علق من طول وقت السفر، فقد وصلت إلى المدينة التي اسمها الثاني «طيبة الطيبة»، وهي أول عاصمة للدولة الإسلامية، حيث عرفت – حينها باسم «يثرب»، وبعد أن تؤدي الصلاة في المسجد النبوي الشريف، وتزور قبر النبي محمد – صلى الله عليه وسلم . يمكنك التجول في المدينة، التي تأتي في المرتبة الرابعة حجماً بالنسبة لمدن المملكة، حيث توجد فيها أهم وأكثر الآثار والشواهد على بدايات انتشار الرسالة النبوية التي جاءت في مكة، بعد أن هبط الوحي على رسول الله – صلى الله عليه وسلم – في «غار حراء»، الواقع في جبل النور شمال شرقي مكة المكرمة، ولكن بدايات انتشار الإسلام الحقيقة، كانت في المدينة المنورة، التي يمكنك فيها أن تزور كثيراً من المعالم الأثرية، ومنها «مسجد البيعة»، الذي أقيم في مكان «بيعة العقبة»، التي تمت بين الرسول – صلى الله

عليه وسلم – والمهاجرين من مكة من جهة، والأنصار في المدينة من جهة أخرى.

في أول زيارة للعمرة وللحرم المكي عام 1980م، وكنت وزيراً للخارجية – آنذاك – حيث فتحت السلطات باب الكعبة، ودخلناها، وأدينا العمرة في ذلك الوقت، وما زالت آثار المعركة التي تمت بين سلطات الأمن ومجموعة المتطرف بقيادة «جهيمان العتيبي»، موجودة، وخاصة في تلة الصفا والمروة، وهنا، عادت بنا الذاكرة إلى عبد الله بن الزبير، وإلى رمي الكعبة بالمنجنيق، من قبل الأمويين، ولعن الله الفتن، التي تحول بيوت الله إلى متاريس، وخاصة بيت الله الحرام، أقدس المقدسات.

وكما أن الشيء بالشيء يذكر، ففي منتصف الثلاثينيات من القرن العشرين، وبعد أن وحد الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود – رحمه الله – نجد والحجاز، جاء إلى عدن السيد أحمد حسن الدباغ، وهو من أشراف مكة، وقام بدعوة التف حولها عدد من الناس، ثم فتح مدرسة في حي الشيخ عثمان بمدينة عدن، الأمر الذي تضايقت منه السلطات البريطانية، وإثر ذلك، ترك عدن وسافر إلى الضالع، وأسس هناك مدرسة، وبعدها ارتحل إلى يافع القريبة من الضالع، والتف حوله ناس كثيرون فيها، وقام، كما هو معروف، بمقاتلة الإمام يحيى بن حميد الدين في منطقة «حمره» من حدود يافع العليا باتجاه «رداع»، ولكنه انكسر في هذه المعركة، وعاد إلى يافع، وعاش فترة من الوقت في وادي «خطهه» ببيت «الجبري»، تحت حماية الشيخ حسن صالح العيسائي، الذي توطدت علاقته مع السيد أحمد الدباغ، والذي بدوره، رأى فيه الشخص المناسب جسداً وعقلاً لإرساله إلى مكة المكرمة في موسم الحج، ليعرف مصير أهله الأشراف في مكة، فما كان من الجد حسن صالح، إلا تلبية ذلك. فسافر إلى مكة المكرمة، وأدى فريضة الحج، وعند مروره على منازل الأشراف

للاطمئنان عليهم، كما وعد صديقة حسن الدباغ، فإذا بالسلطات السعودية تعتقله كمشتبه به، وألقت به في السجن لمدة شهرين كاملين، فلم يجد سوى رفع خطاب يوضح فيه الموضوع بكل صدق، إلى جلالة الملك عبد العزيز – رحمه الله – الذي أمر بالإفراج عنه، وفي نفس الوقت، أكرمه كأحد مشايخ يافع، الذين سبق لهم أن تلقوا مساعدة الملك عبد العزيز في حربهم ضد الإمام في منتصف الثلاثينيات. وما زال الأجداد إلى الآن يذكرون هذه المساعدات بكل اعتزاز، والتي استقبلت عند وصولها بأهازيج النساء التي تقول إحداها:

ذي ركب المدفع جعل له لا يعود   ما قصرت قوم يافع بايوفي بن سعود

رحم الله الأجداد العمالقة، الذين كانوا بهذا المستوى من الوفاء والحكمة والترابط، رغم صعوبة الطرقات بين القوى، وقلة الإمكانات في ذلك الوقت، لكنه الإيمان المعزز بالتضحيات.

وفي هذا العام، ووسط أجواء روحانية ومناخية جميلة، ومن هذا المكان المقدس لدى كل مسلم، عاد شريط الذكريات إلى أول حاج يصل إلى القرية بعد شهرين من السفر الشاق، وقد ذهبنا، نحن الأطفال، نستقبله خارج القرية، وهو ينادي ويقرأ الآيات القرآنية، فيما رجال القرية يطلقون الأعيرة النارية في الهواء، تعبيراً عن فرحتهم بوصوله، وكذا أخذت النساء يزغردن، ابتهاجاً بعودته سالماً، أما نحن الأطفال في تلك السن، فما كان يشغلنا ويهمنا، سوى توزيع حبات التمر أو انتظار عشاء «المولد».

لقد تغيرت الحياة تماماً، وأصبح الوصول إلى مكة ثم العودة منها إلى عدن ومن عدن إلى القرية، كل ذلك يتم في غضون ساعات، وخلال نهار، وبعد أن كبرنا وفقهنا ما جاء في محكم كتابه الكريم: }رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ{ صدق الله العظيم . سورة

إبراهيم آية 36 . استجاب الله لدعاء سيدنا إبراهيم في ذلك الوقت، وأكمل استجابته بمجيء الرسالة المحمدية التي انطلقت من مكة المكرمة، وبفضلها توحد العرب، بعد تشكل وولادة جديدة، وكانوا (خير أمة أخرجت للناس)، وبعد مجيء النبي محمد بن عبد الله، عليه أفضل الصلاة والسلام، ليكون آخر الأنبياء والمرسلين، وبعدما انتصرت راية الإسلام، أصبح استقبال المعتمرين والحجاج بأعداد مطردة الارتفاع، مهمة شاقة، يضطلع بها إخواننا السعوديون، ولكن الله وفق خادم الحرمين الشريفين وأسرته الكريمة وشعبه المعطاء، في أن تكون الأحوال والأوضاع والخدمات في الحرم المكي الشريف، دائماً وأبداً عند المستوى المطلوب.. وفي هذا الوقت الطيب، الذي تيسرت فيه كل الأمور والحاجيات المتعلقة بالعمرة والحج، فإننا نحمد الله – سبحانه وتعالى – الذي أنعم على هذه المدينة والمدن الأخرى في أرض الرحمن الطيبة، بالأمن والاستقرار والخير والعدالة وحكمة القيادة.

جدة

جدة هي بوابة الحرمين الشريفين، كمدخل رئيس إلى مكة المكرمة والمدينة المنورة، بمطارها وميناها الإسلامي، وطرقها البرية التي تربطها باليمن جنوباً، وبالشام وتركيا شمالاً، هي المحطة التي تستقبل ملايين الحجاج والمعتمرين سنوياً.

وتتميز أيضاً بجمال أخاذ، استطاع أن يجذب إليها الكثير من الزوار والسياح على مدار العام، من هواة السياحة الدينية والمشتغلين بالتجارة وكبار الشخصيات العالمية، التي تزورها كعاصمة ثانية للمملكة.

مناخ جدة يشبه مناخ عدن تقريباً، حيث ترتفع درجة الحرارة ودرجة الرطوبة في فصل الصيف، وتنخفض في فصل الشتاء، بحيث يصبح الطقس صحواً والجو جميلاً وممتعاً، والأمطار لا مقياس لها هنا، فهي قليلة في جدة، كما هو الحال في عدن، ويبلغ عدد سكان المدينة اليوم، نحو ثلاثة ملايين نسمة، ستون في المئة منهم سعوديون.

عندما دخلتها أول مرة، لم تكن مدينة جدة بهذا الشكل الراقي، ولا بهذا التوسع العمراني والسكاني الهائل، حيث كانت أول زيارة لي في نهاية **1975**م، جئتها في مهمة رسمية، كعضو في وفد، برئاسة الأخ محمد صالح مطيع وزير الخارجية، آنذاك، وكنت أتحمل مسؤولية قسم العلاقات الخارجية في التنظيم السياسي الحاكم الجبهة القومية، تمت الزيارة بطريقة وصورة سرية غير معلنة إثر وساطة سرية، كان الهدف منها التباحث مع الأشقاء في المملكة العربية السعودية، حول إقامة علاقات ثنائية بين البلدين، تتمثل في إعلان العلاقات الدبلوماسية وتبادل الاعتراف بين الدولتين.

وكانت النقاط الست التي خرجت بها الزيارة، قد أتت كنتاج للحوار الجدي، وكحصيلة عمل تم في إطار محادثات طويلة، عقدت في كل من جدة والرياض والقاهرة، وكانت اللقاءات المكثفة مع خادم الحرمين الشريفين، الملك فهد بن عبد العزيز آل سعود، رحمه الله (الذي كان حينها ولياً للعهد)، ومع سمو الأمير سعود الفيصل، والشيخ كمال أدهم، رحمه الله، ومنسق الجهود المشتركة الأستاذ أحمد باكدم، هي التي ساعدت على تجاوز المواضيع الحساسة التي كانت أكثر إثارة للجدل بين الطرفين، مثل موضوع الجبهة الشعبية لتحرير عمان، ودعمها من قبل عدن، وكذا، العلاقات الحارة مع السوفييت.

ما كان يطرح من قبل إخوتنا السعوديين، ومن جانبنا، كانت المواضيع والقضايا الحساسة المثيرة للجدل بالنسبة لنا، هي وجود «جيش الإنقاذ الوطني» المعادي للحكومة اليمنية الجنوبية على أرض المملكة، والذي كنا نرى فيه تهديداً لأمننا واستقرار دولتنا الناشئة، وكذا، تعشم شعبنا ودولتنا في الحصول على دعم سعودي لاقتصادنا الوطني، الذي تضرر إلى درجة بالغة، خاصة بعد حرب حزيران – يونيو 1967م. التي أدت إلى إغلاق قناة السويس، وتوقف العمل بميناء عدن توقفاً شبه كامل، وأدت – أيضاً – أن أصبحت عدن واحدة من الدول المواجهة مع العدو الصهيوني، التي تحتاج إلى الدعم العربي، الذي لم يقدم لها حتى ذلك العام.

وبالجهود المشتركة والتفاهم المتبادل لدى القيادتين، ورغم التطرف الذي ظهر تارة من هنا، وتارة من هناك، وكذا، انشداد كل طرف من الطرفين إلى الوقوف في جانب صفه العالمي في الحرب الباردة المستعرة بين المعسكرين الشرقي الاشتراكي، والغربي الرأسمالي. في ظل كل الظروف المذكورة، تم الإعلان عن قيام العلاقات بين البلدين الجارين الشقيقين، وفتحت، بعدها، سفارة لدى كل طرف، وتوقفت الحملات الإعلامية المعادية، وأغلقت إذاعة (صوت

الجنوب الحر)، التي كانت تبث برامجها من المملكة السعودية، ونقل «جيش الإنقاذ» من منطقة «الشرورة» جنوباً، المحاذية للحدود إلى مدينة «تبوك» شمالاً، القريبة من الحدود السعودية الأردنية، وقدمت الرياض مساعدات مالية محدودة لعدن، وقامت عدن من جانبها بفرملة نشاط الجبهة الشعبية لتحرير عمان، وتوقيف البرامج الإذاعية الموجهة ضد المملكة، كما أوقفت دعم نشاط بعض العناصر، التي كانت تؤمن بالكفاح المسلح ضد السعودية.

ورعى هذه العلاقات الجديدة بين المملكة السعودية واليمن الديمقراطية، كل من الرئيس سالم ربيع علي، والوزير محمد صالح مطيع، اللذان دفعا حياتهما ثمناً لما اعتُبر اختراقاً حينها، لأنه لم يعجب الرفاق السوفييت ما تم، وكذلك لم يعجب الأمريكان في نفس الوقت، كما هو الحال دائماً في موقفهما الذي يتوحد في عدم إعجابهما بأي تقارب عربي – عربي، رغم أنهما يختلفان على كل شيء في العالم، ولكن هذه المسألة، يتفقان عليها.

وما كان للاتفاقيات المذكورة التي أبرمت بين عدن والرياض أن تتم، لولا حكمة الجانبين السعودي واليمن الديمقراطي أيضاً، وفي مقدمهم، خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز آل سعود، رحمه الله، الذي رعى المفاوضات وإقامة هذه العلاقات، وتجسدت تلك الحكمة في قبول المفاوضات أولاً، والقبول بالحلول الوسط التي تم التوصل إليها، في وقت كان الكثير من العرب ينظرون إلى نظام عدن، على أنه وكيل السوفييت في المنطقة، وفي وقت، كانت توجد فيه ضغوط أمريكية على الرياض، تمنع التقارب مع عدن.

وفيما بعد مقتل الرئيس «سالمين»، زرنا جدة مع الرئيس علي ناصر محمد، وكان الملك خالد بن عبد العزيز، رحمه الله، على رأس مستقبلينا هناك، ولكن نتائج الزيارة، لم تكن عند المستوى المطلوب، خاصة من ناحية المساعدات الاقتصادية، ورغم هذا، استمرت العلاقة الثنائية بين البلدين،

وخلال فترات، تعرضت لبعض الانتكاسات، وفي عدد من المراحل كانت موفقة، وظلت على هذا النحو، حتى تحققت الوحدة اليمنية التي أيدتها المملكة العربية السعودية، ثم بعد فترة وجيزة، حدث الغزو العراقي للكويت الشقيق، وعندها جاء الموقف الرسمي اليمني تجاه هذا الحدث العدواني الكبير، ليغير الكثير من تلك العلاقات، ولكن باتجاهات سلبية، فقد جاء ذلك الموقف الرسمي، ليشكل زلزالاً في أرضية العلاقات الثنائية، ما زلنا نجني توابعه السلبية القائمة حتى اليوم.

لقد تضررت من العدوان العراقي على الكويت، دول الجزيرة العربية وشعوبها والمنطقة العربية كلها، ولكني أعتقد أن أكبر الدول العربية الخاسرة من هذا العدوان، هي اليمن، لأن موقفها الرسمي لم يكن منطقياً، فأثار الحنق الشديد، ومن جهة أخرى، فإن خسائر اليمن الكبيرة، لم تكن الدولة بقادرة على تعويضها أو تجاوزها، وبالذات، بانعكاسها على وضع العمال في اليمن، وعلى الامتيازات التي كانت تتمتع بها قبل الحرب. بل والأدهى والأفظع من ذلك، أن الحرب الأهلية اليمنية، التي بدأتها صنعاء في صيف **1994**م، قضت على البقية الباقية من قدرات وإمكانات اليمن، الذي أصبح بلداً مدمراً.

وإذا واصلنا الحديث عن هذه المدينة؛ فبمرور الزمن، أصبحت جدة مدينة شابة، نتيجة للتوسع العمراني الهائل، والتوسع المذهل في النشاطات الاقتصادية، الذي حدث فيها خلال الثلاثة العقود الماضية، ما جعلها مركزاً للاقتصاد والمال والأعمال في المملكة، وميناءها الرئيس للتصدير والاستيراد، كان النمو كبيراً، وقد أخبرنا أبناء جدة، أن مدينة جدة الأساس القديمة، أصبحت شبه مندثرة، ويقال إنها كانت مكونة من سبع حارات أساسية، سميت إحداها بـ «حارة اليمن»، وقد لفت انتباهي هذا الاسم، ولكن لا غرابة في أن هذه المدينة هي أكثر المدن السعودية علاقة باليمنيين، ليس منذ عهود قريبة،

بل منذ قديم الزمان. واليمنيون أكثر ارتباطاً بها، بفعل قدومهم لأداء الشعائر المقدسة، وللتجارة مع اليمن والأقطار الأفريقية التي تقطنها جاليات يمنية كثيرة وكبيرة، بل إن جدة لها روابط سكانية وتجارية مع اليمن، أكثر من المناطق المتاخمة مباشرة لليمن، مثل نجران وجيزان، وغيرهما.

جمعت هذه المدينة بين الطراز الحديث العصري، والطراز الإسلامي القديم، بمبانيه ومعالمه التاريخية، وكثرة أسواقه الشعبية التي تلتحم هنا وهناك، بالأسواق الحديثة ذات التصاميم الهندسية المعمارية الرائعة، والتي أخذت في أشكالها الخارجية بعضاً من ملامح التراث الإسلامي العريق، وكل هذا أوصلها إلى مصاف المدن الأكثر شهرة في العالم، إضافة إلى شهرتها الأولى، كبوابة للحرمين الشريفين، وشهرتها الثانية، كمدينة تعشق التجارة وتهوى الأعمال، فأنت إن مكثت في جدة مطولاً، فلا بد لك بتأثير من المحيط العام للمدينة والأحاديث اليومية، أن تفكر بمشروعٍ تجاري، ومن المحتمل كثيراً أن تقْدِم على تنفيذ ذلك، وتتميز المدينة أيضاً بجملة من الأسواق والمجمعات التجارية الكبيرة والحديثة، التي تتنافس على الزبائن، من حيث ضخامة بنائها وديكوراته الداخلية التي تبدع بأشكال عدة مثيرة، وأذكر من تلك الأسواق: آية مول، سنترال مول، كورال مول، السليمانية سنتر، الأندلس مول، ذا فيرست مول، اليمامة مول، وهلم جرا على «مول».

وبالنسبة لي؛ فبعد أن كنت آتي إليها مسؤولاً دبلوماسياً في السبعينيات والثمانينيات، جئت إليها مواطناً أو لاجئاً سياسياً، سمِّ ذلك ما شئت؛ فمدينة جدة منذ أغسطس **1994**م، أصبحت المدينة التي احتضنت مجاميع أخرى من الذين نزحوا إليها جراء حرب صيف عام **1994**م بدفئها ورطوبتها وبحرها الجميل، وكنا سعداء، لم نشعر بالغربة فيها، إن إنسانها ومناخها وعلاقاتها بنا لا تختلف عن مدينتنا عدن. ففي جدة، وجدنا الأهل بكثرة، تنسينا الشوق لأهلنا

في الوطن، ومنهم وجدنا العم الشيخ عمر قاسم العيسائي، رحمه الله، وهو من أعلام جدة وشخصياتها، كرجل أعمال معروف، التي استقر فيها الشيخ عمر منذ منتصف الستينيات من القرن العشرين، واتخذها موطناً له لا يبارحه، وكان نموذجاً لرجل الأعمال اليافعي السعودي الناجح، الذي أنشأ عشرات الشركات التجارية العالية التنظيم والفعالية، وبمقاييس عالمية، وانتشرت أعماله في العديد من بلدان العالم، وكان بعد ذلك، قد بدأ في الاستثمار في اليمن منذ نهاية الثمانينيات من القرن الماضي، رغم أنه لم يعد إليها للزيارة أبداً، ومع ذلك، فإن أعماله الخيرية ودعمه للعمل الخيري في اليمن لم ينقطع يوماً، ويواصل أبناؤه: عبد الله وسعيد ومحمد، مشواره البنّاء في قطاع التجارة والصناعة والأعمال، وكذا أعمال الخير، باقتدار حتى اليوم، وقد ربطتني به علاقات مودة واحترام، وخصوصاً أثناء إقامتنا في جدة.

ومن حيث المكانة الاجتماعية لدى الناس في اليمن، فللمرحوم الشيخ عمر قاسم العيسائي، مكانة اجتماعية تاريخية عالية في موطنه، المملكة العربية السعودية، وكذلك في مناطق كثيرة من اليمن، وخاصة مناطق يافع، حيث لا ينازعه على المكانة الاجتماعية التاريخية أحد هناك، ولنا في جدة أصدقاء أجلاء من نفس جيل الشيخ عمر، رحمه الله، منهم العم عبد الحي السيلاني، أطال الله في عمره، والعم محمد عبد الحافظ بن شيهون، رحمه الله، والعم محسن عبد الرب الحريبي، رحمه الله، والأخ محمد صالح الحريبي والشيخ صالح أحمد العيسائي وعيدروس حسن العيسائي ومحمد نصر العيسائي، والإخوة محمد بن محمد الرشيدي وعبد الحكيم السعدي وصالح الصهبي، وآخرون، ولنا غيرهم بالمئات والآلاف من أبناء عدن وحضرموت ويافع وتعز، ومناطق أخرى من اليمن.

ولا تفوتني الإشارة هنا إلى أن بعض هؤلاء التجار، كانوا، ولم يزالوا، يعانون من الألم، لأنهم لم ينسوا تأميم ممتلكاتهم في عدن، ولكنهم احتذوا بمواقف

المملكة السعودية النبيلة لمليكها وولي عهدها وأمرائها وحكومتها وأبناء شعبها، المستمدة من الروح العربية الإسلامية السمحة، كل هؤلاء رحبوا وساعدوا، ليس فقط الذين نزحوا من اليمن أثناء حرب **1994**م، وكانوا بالآلاف من عسكريين ومدنيين، ولكنهم ساعدوا وقدموا العون لكافة النازحين الذين لجأوا من شطري اليمن إلى المملكة منذ الأربعينيات، وكانوا صادقين في معاملتهم للنازحين القدامى والجدد، حتى من كانوا منهم على خلاف معهم ومع المملكة.

كان السعوديون الذين حددت أسماءهم أو قناتهم آنفاً، كباراً جداً في هذه المواقف، لأن: (قدر الكبير أن يظل كبيراً) كما قال الشعراء، لا تستطيع الكلمات أن تعبر عما فعلوه مع القادمين، فقد حولوا غربة هؤلاء إلى وطن، بعد أن تحول الوطن بفعل الحرب والقهر إلى غربة، أضف إلى ذلك، أنه لا يوجد في اليمن، وخاصة من صفوة القوم وكبار الشخصيات السياسية والاجتماعية والشيوخ، من لا يعرف شخصياً الملك عبد الله، أو الأمير سلطان، أو الأمير نايف، أو الأمير أحمد، الذين كانوا وما زالوا أشقاء كراماً في المعاملة الأخوية تجاههم، وتجاه أبناء اليمن المقيمين في المملكة، حتى في ظل المراحل الماضية، حين وجدت قديماً سُحُب الخلاف والاختلاف السياسي بين النظامين في كل من عدن والرياض.

لاحقاً، عولجت أوضاع النازحين الجدد، بعودة بعض العسكريين والعائلات إلى اليمن، بموجب قرار العفو العام الرئاسي اليمني، الذي صدر بعد عامين من الحرب، أما القيادات السياسية والعسكرية، الشريك الثاني في صنع الوحدة اليمنية، فظلت نحو ثمانية أعوام موجودة، وهي أيضاً موزعة بين أبوظبي والقاهرة ودمشق ولندن وواشنطن، وغيرها من مدن العرب والعجم. ثم عاد أكثرهم، وعدد قليل بقوا هناك حتى اليوم، وحتى في ظل وجود نازحين سياسيين يمنيين في جدة، فإن هذا الحال لم يشكل إعاقة لدورها في الروابط مع اليمن؛

فهي قد شهدت حدثاً تاريخياً في هذا السياق التاريخي في عام 2000م بأن تم توقيع «اتفاقية جدة»، اتفاقية الحدود اليمنية - السعودية، كحدث هام في هذه المدينة الخيرة، وكمنجز تاريخي هام في حياة الشعبين الشقيقين، وقد نجحت هذه الخطوة التاريخية الهامة، لأن مصالح البلدين/ الجانبين طبق عليهما في الاتفاقية مبدأ (لا ضرر ولا ضرار)، ومبدأ (لا غالب ولا مغلوب)، حيث تمت التسويات النهائية لنقاط الخلاف بشكل واقعي، في إطار الحل الودي الذي أنهى النزاع الطويل الذي شكل مبعث حساسية وعدم ثقة بين البلدين لفترة طويلة من الزمن، وشخصياً، أرى أن ما يهم الآن، هو تعاملنا في الحاضر والمستقبل، وكيفية إيجاد الآليات الحاضنة لروح المعاهدة والمعاهدات والاتفاقيات السابقة، للدفع بالعلاقات الثنائية بأوجهها المختلفة الإيجابية إلى الأمام.

وكنت قبلها بمدة، وتحديداً في عام 1999م، قد أصبحت متنقلاً بين كل من جدة ودولة الإمارات العربية المتحدة، لأسباب عائلية، خاصة بالدراسة الجامعية لإحدى بناتي، وحينها شعرت بالحزن العميق، لأنني لم أعد أعيش فيها طوال الوقت وطوال السنة، ولكن للحياة مطالبها، وللتواصل مع جدة دوام من الزمن كل عام، يومها، وأنا أسافر إلى الواحة الأخرى، ولها في القلب موقع، المطلة على البحر الأحمر، عروسه الجميلة جدة، قلت: لا نقول لوطنك الثاني إن مدينة أخرى تقاسمها القلب، ولكن قل لها أنا قريب منك قرب الابن إلى أمه، وأنك ستراها مع كل ابتسامة جديدة لها، ومع كل اخضرار أكثر غنى، وعمران أعلى وأبهى، وقل لها: إنك في القلب يا جدة.

ومن الطرائف لنا في جدة، أنه يطالعك على كورنيش جدة، أشعار مخطوطة عن الأبراج الفلكية، كتبت على واجهات زجاجية جميلة، تشيد بمناقب هذه المدينة وتطورها، وأذكر هنا ما كتب في إحداها عن برج الثور، لأنني من مواليد هذا البرج، وتقول كلماته المدونة:

في مطلعي والثور رمزي قد غدا
برجي بجدة للفداء فداها
ثقلت خطايا على المدى لكنني
أصبحت في يومي رفيق خطاها

لا أؤمن بما تقوله الأبراج، وعندي حالة عداء مع المنجمين والمشعوذين والأدعياء، الذين ليست لهم صلة بالفقه أو بالفكر أو بالجهاد الإنساني الحقيقي، لكن توقعات سكني في هذه المدينة، لم أتصورها، ولم يدُر في خلدي يوماً أنني سأستظل بظلها، وبرعاية الدولة السعودية، وقد جاء في القران الكريم (وما تدري نفس بأي أرضٍ تموت) صدق الله العظيم. فعلى عكس التوقعات، عندما قدمنا إليها عام **1994**م، كانت إقامتنا في جدة لست سنوات، جعلتنا نألفها ونستأنس لها، لتغدو المدينة العزيزة على قلوبنا ووجداننا؛ ففيها وجدنا كرم الضيافة، ودفء الرعاية واهتمام الأحبة من السعوديين والأهل والأصدقاء، ومع كل هذا النهر العذب من المعاملات الإنسانية، إلا أن القول القائل: (بلادي وإن جارت علي عزيزة وأهلي وإن جاروا علي كرام)، بقي ساري المفعول، إذ كان علينا العودة إلى اليمن، مهما كانت الظروف والأحوال، فعدنا في عام **2001**م.

بقيت جدة متربعة على العقل والعواطف، حتى عندما عدنا إلى اليمن، بعد غياب عنها لم ينقطع طوال ثمانية أعوام، وقد واصلت زيارتي لها بانتظام، تطول وتقصر مدة كل منها، بحسب ظروف العمل ومشاغلي في اليمن، ولا تنافسها أي مدينة غير يمنية على هذه المكانة، سوى مدينة دبي، في الشاطئ الآخر من شبه الجزيرة العربية – وبالطبع، أن الزيارات الدائمة لمدينة جدة، معظمها شخصية، ما عدا بعضها، كتلك الزيارة التي حضرت فيها فعاليات منتدى جدة الاقتصادي **24 – 26** فبراير **2007**م، والذي انعقدت على

هامشه «ندوة الشراكة الاستراتيجية اليمنية السعودية»، وذلك ضمن نشاطات وجهود التعاون الأخوي بين اليمن والسعودية، وبقية دول مجلس التعاون لدول الخليج العربي.

وعند الحديث عن جهود التنمية والتعاون بين الجانبين، يجب القول إنها ضرورة موضوعية، وهذا ما أوضحته في كلماتي في المنتدى والندوة. ذلك أن 40% من واردات اليمن من دول مجلس التعاون الخليجي، و9% من صادراتها إلى تلك الدول، كما أن المستثمرين الخليجيين، هم المستثمر الأول في اليمن. وإضافة إلى ذلك، فإن دول الخليج مستقبل أساسي للعمالة اليمنية، وداعم دائم للتنمية والاستقرار فيها، وما دام ارتباط اليمن بدول الخليج قد تجسد في الاقتصادات الحديثة، فقد أكدت في المنتدى والندوة، وفي مناسبات أخرى، على أهمية العمل على اندماج اليمن في محيطها الخليجي، وهو نهج يحصل على دعم سياسي كبير، من قبل القيادات الخليجية واليمنية، على حد سواء. ولا شك أن «جدة»، ستلعب دوراً فاعلاً في هذا الاتجاه.

علاقتي بهذه المدينة قائمة، من خلال احتفاظي بالإقامة النظامية، وحبي وامتناني لها دائماً وأبداً.

الطائف

تستقبلك الطائف على الدوام بهذا الترحيب: «يا مرحبا حيا، تراحيب المطر.. يا مرحبا حيا، تراحيب المطر»، فهي عروسة المصايف في المملكة العربية السعودية، طقسها معتدل على مدار العام، صيفاً وشتاءً،

والترحيب المذكور الذي يعبّر عن أقصى درجات الحفاوة عندنا في اليمن، في محله بالنسبة للطائف، حتى من ناحية عدد المداخل المؤدية إليها، حيث تربطها طرق ومداخل أربعة: من الجنوب وادي «لين»، ومن الشمال الخط السريع المرتبطة بـ «الحوية»، ثم طريق «الشفا» وطريق «الهدى»، المؤدي إلى مكة المكرمة، وميناء جدة الإسلامي، وهو الطريق الذي تغنى به الفنان اليمني المعروف «أبو بكر سالم بلفقيه»، في اللحن الجميل المشهور الذي يردده كل أبناء الجزيرة العربية، والذي يقول:

يا مسافر على الطائف طريق الهدى.. شوف قلبي معك ما هنا

تتبع «الطائف» منطقة مكة، وترتبط بها سلسلة جبال من الجنوب الغربي، تمتد من جبل الشيخ سعيد، المطل على باب المندب، مروراً بتلك الجبال التي تسمى «جبال السروات»، وهي الجبال ذاتها التي تمتد تضاريسها وتتداخل في نهاياتها مع جبال وتضاريس مناطق تعز ويافع والعوالق والمناطق الوسطى من اليمن.

وقد قال المؤرخ أبو العباس الميورقي في القرن العاشر الهجري عن الطائف، وفي كتابه (بهجة المهج)، وبصدد سبب تسميتها «الطائف»، من أنها اقتلعت من بلدة الشام، والطواف بها سبعة على البيت العتيق، حتى وضعت في

مكانها اليوم، استجابة لدعوة إبراهيم الخليل (عليه السلام)، ولهذا سميت بهذا الاسم.

وما لفت انتباهي في زيارتي لها، معرفتي بوجود وديان بها وحولها لها أسماء مشابهة لأسماء وديان ومناطق محافظات جنوبية: لحج وشبوة وحضرموت، مثل: وادي الوهط والوهيط (والوهط هي مدينة السادة العلويين في لحج)، ووادي المسيمير، ووادي الخشعة (والخشعة هو مدخل وادي حضرموت بعد العبر) وغيرها.

وتتميز الطائف بطبيعتها الجميلة، من جبال خضراء ومزارع مثمرة وجو عليل بارد معتدل في معظم أشهر السنة، حيث تمتد المدينة على سفوح جبل غزوان، ويجيء إليها المواطنون والوافدون من جميع أنحاء المملكة، وكذلك السياح من دول الخليج واليمن طوال السنة، ويكثرون في فصل الصيف.

ويقال إن سكان الطائف البالغين ما يقارب المليون نسمة اليوم، يتضاعفون خلال أشهر فصل الصيف، لجوها العليل ولمصايفها التي لا تقل جمالاً وخدمات عن المصايف العربية المشهورة في الهلال الخصيب، أو في المغرب العربي، أو في بلاد الرافدين، أو في أرض النيل، كما أنها – ولكيلا يهمل اخضرارها أو ينطفئ – قد حازت على اهتمام الدولة السعودية، في تحويلها إلى منتجع فريد من نوعه، يخفف لهيب الصحراء، ويجتذب السياح السعوديين والخليجيين إليها، علماً بأن «الطائف» من المدن السعودية الأقل وجوداً للعمالة الوافدة (وخاصة الآسيوية)، حيث لا تتعدى نسبة العمالة الوافدة فيها الـ 20% من إجمالي مجموع السكان.

زرتها لأول مرة، حين انعقد مؤتمر القمة الإسلامي عام 1982 في قاعة المؤتمرات بالمدينة، وعلى مستوى الملوك والرؤساء، وكان يرأس وفدنا – حينذاك

– الرئيس علي ناصر محمد، وبصفتي وزيراً للخارجية، كنت قد سبقته بأيام إلى هذا المؤتمر.

كانت القضية الساخنة في المؤتمر، هي القضية الأفغانية، وعضوية أفغانستان في منظمة المؤتمر الإسلامي، وبسبب ذلك، حضر المؤتمر ممثلو المقاومة الأفغانية المسلحة، وليس ممثلو الحكومة الأفغانية المعترف بها في هيئة الأمم المتحدة، ولذا، انقسم المؤتمر ما بين مؤيد لوجود وفد المعارضة الأفغانية في المؤتمر، وهو اتجاه الأغلبية، وما بين معارض لوجود الوفد، وهو اتجاه الأقلية، وبالتحديد دول جبهة الصمود والتصدي للعدوان الإسرائيلي (سوريا واليمن وليبيا والجزائر ومنظمة التحرير الفلسطينية)، التي اعترضت وتحفظت على قرارات المؤتمر، بتسجيل ذلك في محاضر اجتماعات المؤتمر.

وما بدا ظريفاً هنا، هو موقف الرئيس علي ناصر محمد، الذي طلب حق الكلمة، وتحدث حول اعتراض وتحفظ وفدنا على قرار القمة بتأييد المعارضة الأفغانية، وكان قد تحدث على هذا النحو، على أمل أن يتحدث بقية رؤساء وفود جبهة الصمود والتصدي الآخرين، بما يؤدي إلى تعديل القرار، إلا أنه بعد أن أكمل خطابه، انتظرنا كلمات الوفود الثلاثة الأخرى، فلم يتحدث أحد من هؤلاء عن ذلك الاعتراض، وإن كان ولي العهد السعودي يومها – رئيس المؤتمر – الأمير فهد بن عبد العزيز آل سعود، قد رد حينها باقتضاب على كلمة وفدنا قائلاً: «تحفظكم وارد فخامة الرئيس»، ما جعل الأخ الرئيس علي ناصر، يشعر بالحرج والغضب، ويحملني وبقية الوفد نتائج هذه الورطة التي وقع بها، والتي لم ينسها حتى أبعدت من منصب وزير الخارجية، مع أن الموقف من القضية الأفغانية، كان معقداً، بسبب الوجود السوفييتي، ومحنة الصراع الدولي المستمر على الربوع الأفغانية، التي هي باقية حتى الآن.

كان هذا المؤتمر من أهم المؤتمرات الإسلامية التي حضرها معظم الملوك والرؤساء العرب والمسلمين، وأبرزهم، الرئيس السوري حافظ الأسد، والرئيس السوداني جعفر النميري، والرئيس الليبي العقيد معمر القذافي، وملك المغرب الملك الحسن الثاني، رحمه الله، الذي لا تنسى مداخلته الرفيعة في ختام المؤتمر، والتي ارتجلها ارتجالاً كأبيات شعر، فكانت تحفة شعرية لشاعر مقتدر.

زرت الطائف مرات عدة في الفترة من **1996 – 1998**م، أثناء استقراري في المملكة العربية السعودية، وقد أسرتني مناظرها الرائعة، خاصة تلك المناظر من على قمم الجبال، إذ تشعر وكأنك في إحدى الدول الأوروبية، كما أسرني التطور الكبير الذي طرأ على المدينة منذ زيارتي الأولى لها قبل نحو أربعة عشر عاماً ونيف العام، سواء في العمران والبناء أو في البنى التحتية، حيث تعتبر مدينة الطائف من أجمل المدن العربية التي شاهدتها وأكثرها نظافة.

ولعب التشجير لشوارعها ومنتزهاتها، دوره في تحسين مناخها وتطور زراعاتها، إلى جانب تطور تربية الحيوانات والدواجن فيها، فقد شهد مجال الزراعة نمواً كبيراً، من حيث التوسع الأفقي والرأسي، وأصبحت الطائف تنتج كثيراً من أصناف الخضار والفواكه، وبجودة عالية، مثل منتجاتها من الرمان والتوت وغيرهما.

ولا يفوتني هنا أن أقول إن الطائف، إلى جانب ما ذكرته عنها من خصائص وأوصاف، فإنها تحظى أيضاً بمكانة سياسية عربية وعالمية رفيعة، كمدينة سلام، احتلت مكانها في القاموس السياسي للعلاقات السعودية – اليمنية، لأنها المدينة التي تمت فيها اتفاقية الحدود بين الملك عبد العزيز آل سعود، والإمام يحيى حميد الدين، رحمهما الله، عام **1934**م، والتي سميت باتفاقية الطائف، وفيها أيضاً تمت اتفاقية الطائف لإحلال السلام في لبنان في أواخر القرن العشرين المنصرم.

وشهدت الطائف كذلك في عام 2007م، اتفاقية مصالحة بين الفصائل الفلسطينية، وأهمها منظمتا «فتح» و«حماس»، وهنا، أتذكر ما قاله لي صديق من أبناء الطائف، وهو أن جمال المنطقة وخضرة جبالها ووديانها وطيبة أهلها، كلها تشكل بيئة واحدة مناسبة لإنهاء الخلافات، ونجاح مساعي الاتفاقات.

أبوظبي

مدينة أبوظبي جوهرة الخليج العربية، فهذا الخليج العامر بالخير والعطاء، لا يمكنك تخيُّل جانب فيه بدون أبوظبي، فللمدينة تأثيراً شاملاً عليه، وليس تأثيراً جغرافياً فقط، فالمدينة هي جزيرة أبوظبي الصغيرة، التي تمتد إلى اليابسة عبر جسرين، هما:

جسر المقطع وجسر المصفح، ولذا، تتمتع بكثرة الشواطئ والعمران الحديث المطل على البحر في جميع الاتجاهات، لكن مكانتها العالية هنا، تجيء من كونها واحة عصرية، استطاعت مع شقيقاتها (بقية الإمارات)، إجادة التعامل باقتدار وحنكة مع متغيرات الحياة وتحدياتها وتداعياتها أيضاً، ومن نفس الموقع، حافظت على نفس الهوية والأصالة بدون تعصب ولا انعزال، ولا ذوبان، ولا هيجان أو طغيان الغزوات الثقافية والاقتصادية لعصر زاخر بتطورات تكنولوجية وعلمية حضارية هائلة، وبمختلف ظواهر العولمة.

عندما كان النظامان العالميان (الرأسمالي والاشتراكي) قبل عام **1990**م، يتناطحان ويتعاركان ويتحاربان، ويجران معهما عباد الله المساكين في هذا النطاح والعراك والحروب، حينها كان كل واحد منهما يقول إنه الأفضل في تحسين معيشة شعبه، والأفضل في توفير الرفاهية لشعبه، فإذا بالمارد الخليجي منذ مطلع السبعينات ينهض من أبوظبي، ويقف بشموخ، ولا يتظاهر ولا يتكبر ليقول: أنا هنا، وأذكر أنه، وأثناء وجودي في إحدى المرات في مبنى هيئة الأمم المتحدة (بداية الثمانينات)، عندما كنت وزيراً لخارجية اليمن الديمقراطية، إذا بدبلوماسي نيكاراجوي صديق، يقول لي بما يعني بالعربية: (يا صديقي، لقد دوّخ الأمريكان والروس عقولنا، فكل جهة تقول إنها الأفضل، وهناك دول صغيرة

حققت ما هو أفضل منهم بدون دعاية، وبدون ضجيج، وبدون نظريات وكلام كثير)، فقلت له: (مثل من؟) فأجابني: (مثل أبوظبي، وتلك الإمارات الصغيرة التي بجانبها، إنهم يعتمدون على بديهتهم العربية البدوية في إسعاد أبناء شعبهم، ونجحوا في ذلك، وسيقيمون اتحاداً فيما بينهم الآن)، فسررت لهذا الحديث، وشعرت بالفخر حينها، أن دبلوماسياً من بلد بعيد، يضرب المثل الأعلى بدولة عربية، ولا أستطيع أن أصف لكم مدى سعادتي في تلك اللحظات، وما قاله ذاك الرجل النيكاراجوي، حقيقة، أكدتها الثوابت والأرقام منذ ذلك العام وحتى الآن، حيث يُعتَبر أبناء الإمارات العربية المتحدة من أكثر مواطني دول العالم دخلاً سنوياً، وذلك بفضل السياسات الحكيمة التي اتخذتها الدولة، والتي تراعي دائماً مستوى ومعيشة المواطنين، باعتباره الهدف الأول لنشاطها وعملها، كما أن أبناء الإمارات نشيطون في الأعمال التجارية والمالية والاقتصادية.

دائماً يكون للنجاح سر، وأعتقد أن سر نجاح أبوظبي، هو في تجربة العلاقة الرائعة بين الحاكم والمحكوم، منذ أن وطأت أقدامنا هذه الأرض الطيبة بصورة مستقرة في منتصف التسعينيات من القرن الماضي، وحتى غادرناها في السنة الثانية من القرن الحالي – الواحد والعشرين، ونحن نستظل بكرم الأهل والأصدقاء، ووجدنا أن الحب والمودة هما جوهر سلوك أهلها وحكامها، سواء مع المواطنين أو المقيمين، وذلك مثّل انعكاساً طبيعياً لعلاقات قائمة وسائدة في هذا البلد، بين الحاكم والمحكوم، بين الراعي والرعية، وهذا ما مكّن البلاد من تحقيق ما تصبو إليه من تقدم متسارع في كل مجال، فالحكام هنا متواضعون، لا ترى كِبْراً في أحد منهم تجاه مواطنيه أو من يعملون معه، أو حتى مع من يأتون إلى البلد للزيارة، وأذكر هنا أنني التقيت بعدد من أفراد الأسرة الحاكمة، ووجدتهم على درجة عالية من التواضع والخُلُق، وقابلت عدداً منهم بالصدفة على أحد الشواطئ أو لدى أصدقاء، فإذا بي أجد هؤلاء ومعهم حارس واحد

أو حارسان فقط، وهذا ما لا نجده في دول عربية أخرى، حيث يخرج الحكام وبمعيتهم عشرات الحراس والسيارات المدرعة، بل تتبعه السيارات الحاملة للرشاشات (الدوشكا)، وكأنه ذاهب للقتال في الشارع أو الشاطئ، وليس للنزهة أو الترفيه، وكل هذا لأن الحكام هنا في أبوظبي ودولة الإمارات، في وئام مع الناس، بينما الحكام هناك في خلاف مع الناس، لا يهمهم شؤون العامة والمواطنين، لذا، فهم يخشون أن يسيروا بدون أن يكونوا مدججين بالجنود والأسلحة.

كما أن الحكام هنا في (أبوظبي ودولة الإمارات)، يتقاسمون الخير مع شعبهم بنزاهة وشرف، ويبنون الوطن للجميع، فمنذ منتصف السبعينيات، وزيارتنا إلى هذا البلد الكريم المضياف، تتكرر سنوياً، وحين تغيب عنها أشهراً، تجد التغيير نحو الأفضل هو ديدن الحياة، ليس على صعيد الإعمار وحده، والحركة الاقتصادية والتجارية وحدها، ولكن على صعيد بناء الأجيال القادمة، وبالذات، التطور الكبير في مجال التعليم والتعليم العالي، وكذا، في مجال الخدمات الصحية، بل وتجد المساواة والعدالة الاجتماعية في أبهى صورها، وهو ما ارتبط بتحسين الموقف العام من حقوق المرأة التي استطاعت أن تشق طريقها وتكثف حضورها الطبيعي مع الرجل في كل المجالات وقطاعات العمل، بل إننا – ولمدة سنوات – لمسنا سر النجاح المذكور في تعاملهم معنا، فحين اضطررنا إلى مغادرة الوطن، إثر ما آلت إليه حرب عام **1994**م الأهلية اليمنية، جاءت إلى أبوظبي جماعات من النازحين السياسيين اليمنيين، حينها اتسعت صدورهم وترابهم الوطني لمجمل تأوهاتنا، وأصبحنا نجد فيهم ما قاله الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، عن الصداقة والأصدقاء: «خير الأصدقاء، من يُقبِل عليك إذا أدبر الزمان عنك».

هنا، في «أبوظبي»، وجدنا الأخوة والعشيرة والأهل، ونسينا المنفى، حتى وإن غطانا الحنين.. وهزتنا الذكريات، وكما قال الشاعر المحضار:

يا ويح نفسي.. لا ذكرت أوطانها حنت

حتى لو هي في مطرح الخير رغبانه

كان بقاؤنا خارج الوطن – بسبب الحرب في منتصف التسعينيات – حالة استثنائية، لكن ما خفف من وقعه علينا، وأشعرنا بأننا نعيش كرماء في دار أشقائنا الذين نسجل لهم امتناننا وتقديرنا، وهم الإخوة أشقاؤنا في دولة الإمارات العربية المتحدة، وكان على رأسهم المغفور له، الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان، وولي عهده – آنذاك – صاحب السمو خليفة بن زايد، وأشقاؤنا في السعودية ومصر وسوريا العربية، وكل من تعاطف معنا ومع أهلنا في المحنة التي واجهناها، وكنت شخصياً قد نقلت أسرتي في عام 1999م من جدة إلى دبي، وذلك لكي تتمكن ابنتي الصغرى من الالتحاق بدراسة الطب في إحدى الجامعات هنا، وهو الخيار الذي لم يكن متوفراً في جدة أو غيرها من مدن السعودية، وعلى مدى عامين بقيت متنقلاً بين جدة وأبوظبي، حتى عدت إلى الوطن عام 2001م، ولكن الحب لأبوظبي كامن في النفس والروح، حتى بعد العودة إلى الوطن، لذا، لم ولا نفارق أبوظبي طويلاً، إذ ظللنا وما زلنا نتردد على الإمارات دائماً، وفي كل زيارة نجد الجديد، وما إن نقوم بتسجيل انطباعات الزيارات السابقة، حتى نجد في كل مرة جديدة، ما يملي علينا تسجيل خواطر جديدة، حيث نجد في كل زيارة، الجديد في كل مجال، وكذا، نجد الدفء والاهتمام من قِبَل قيادات هذا البلد الكريم، بنفس المستوى الذي عهدناه. ولطالما تجسد الاهتمام والكرم من إنسان وتراب هذه الأرض العربية، ومن سكانها مع الجميع، وخاصة أبناء العروبة، فهي واحة جمعت المصري باليمني

بالسوري بالفلسطيني باللبناني بالسوداني بالأردني بالسعودي، في إطار الأسرة الواحدة، والمحبة لبعضهم، في كنف هذا البلد الطيب.

للإمارات العربية المتحدة ولشقيقاتها في مجلس التعاون، علاقات أزلية باليمن، ليس لأننا نعيش في جزيرة واحدة، تداخل سكانها عبر التاريخ، ولكننا أساساً إخوة الدم والتاريخ واللغة والدين. لذا، فمواقف الحب والخير والعطاء التي تقدمها الإمارات لأشقائها في اليمن، ليست جديدة، فالأفراح واحدة، والأتراح واحدة. وكانت دولة الإمارات من السباقين إلى تأييد وحدة اليمن. كما كانوا، وعلى رأسهم صاحب السمو الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان، رحمه الله، أول من تألم وبذل كافة الجهود لوقف التداعيات التي حصلت في صيف **1994**م من حرب وإعلان انفصال، وبعدها لمّ شتات النازحين، وقدمت المساعدة الأخوية لهم مع أشقائه في سلطنة عمان والمملكة العربية السعودية ومصر وسوريا وغيرها.

من جانب آخر، فإن نصائح الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان، رحمه الله، وتجربته في توحيد الإمارات، وطريقة الحكم النموذجية فيها، هي محل احترام وتقدير، وكان يسرنا أن تكون أبوظبي، بحكم حنكة قائدها المؤسس وحكمته، وحكمة وحنكة رئيس الدولة الحالي، سمو الشيخ خليفة بن زايد (الذي كان ولياً للعهد حينها)، وكذا حنكة وحكمة بقية أشقائه، هي المرجعية لإصلاح أحوالنا في اليمن، خاصة عندما نشبت الخلافات بين كل من عدن وصنعاء في البيت الوحدوي المشترك، ولكن أحد الطرفين لم يستمع إلى حكمة الشيخ زايد. وهكذا، اندلعت الحرب الأهلية اليمنية. وعند اندلاعها في أبريل **1994**م، تجدد الأمل ثانية في أن تكون حكمة وحنكة الشيخ زايد وولي عهده والقيادة الإماراتية، هي المرجعية في وقف الحرب وإنهاء فتيل التفجر، وإصلاح أحوال اليمن، ولكن لم تجد تلك الدعوة صدى لدى صنعاء.

وعندما انتهت الحرب بانتصار طرف وهزيمة طرف آخر، لجأت قيادات الدولة والحزب (من أبناء الشطر الجنوبي من اليمن وشماله)، التي هزمت فيها، إلى بلدان كثيرة – عربية وغير عربية – ولكن العدد الأكبر منهم اختاروا دولة الإمارات العربية المتحدة. فهناك وجدوا التفهم لما دار في اليمن، والتفهم للقيادات التي اتخذت من عدن مقراً خلال تلك الحرب، حيث كان الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان، رحمه الله، قد انتقد حينها تسرُّع القيادات في صنعاء في حسم خلافاتهم مع إخوتهم في الشطر الجنوبي عسكرياً عن طريق الحرب، وإصرارهم على مواصلتها. وكان، رحمه الله، يفضل إعطاء وقت كافٍ للمساعي السلمية والوساطات العربية لحل الأزمة، وهذا الموقف الصائب، كان نتيجة لتجربته الشخصية في إنشاء وبناء دولة الإمارات العربية المتحدة، على أسس اتحادية قائمة على التفاهم الحر، وليس على الضغوط العسكرية أو الضغوط المالية أو غيرها.

عندما تعيش في دولة الإمارات العربية المتحدة، تُحسّ بالهدوء والسكينة والاستقرار في جميع المجالات، ليس على مستوى حياة الأشخاص والأسر والعائلات فحسب؛ ولكن على مستوى المنطقة ودولها أيضاً، فدولة الإمارات عامل استقرار في المنطقة – منطقة الخليج – وفي هذه الأجواء المثالية، كانت هناك – وما زالت – شوكة تجرح المشاعر، وتخالف هذا الوضع العام الإيجابي، إنها قضية احتلال جمهورية إيران الإسلامية للجزر الإماراتية « طنب الصغرى وطنب الكبرى وأبو موسى»، وبرغم أن الحكمة الإماراتية واضحة في التعامل الهادئ مع هذا الاعتداء، إلا أن الحكام في طهران غير متجاوبين مع الجهود الإماراتية لحل المشكلة بطريقة إيجابية، ولطالما قالت كثير من الدول للمسؤولين الإيرانيين: نعم للحوار والتحكيم، ولا للقوة واستعراض العضلات.. فليس منطق القوة واستعراضها الذي يتحدث به المسؤولون الإيرانيون، هو اللغة

الصحيحة التي تخاطب بها دول المنطقة وشعوبها المسالمة، التي تعالج هذه القضية بحكمة وصبر، خاصة بعدما رضيت باللجوء إلى محكمة العدل الدولية أو التحكيم الدولي.

إن هذه القضية لا تشكل عامل اضطراب وسط وضع استقرار عام بالنسبة لدولة الإمارات وبقية دول مجلس التعاون الخليجي وحدها، بل هي عامل اضطراب للجمهورية الإيرانية، ولو أن إيران قبلت بالمعالجات الإماراتية الحكيمة لهذا النزاع/ القضية، لكسبت أكثر بكثير مما تكسبه من عنادها وتصلبها، بل إنها لا تكسب شيئاً من العناد والتصلب والتمسك بالعدوان.

وإذا عدنا للحديث عن مدينة أبوظبي، سنجد أن عدد سكانها الآن يقارب المليون نسمة، بَيْد أن قادة الدولة يعملون الآن وينفذون الخطط التي تجعل من المدينة أن تتسع لأكثر من ثلاثة ملايين نسمة، وذلك من خلال ربط جزيرة أبوظبي بثلاث جزر أخرى، هي: السعديات وياس والشهامة. ويربط بين الجزر الأربع طريق بجسور حديثة، تبلغ تكلفة إنشائها ما يصل إلى مليار ونصف المليار دولار، كما يجري الآن إنشاء مدينة خليفة الجديدة، التي ستكون المقر الجديد لمرافق الدولة ومقراتها، مع توفر كل مقومات المدينة الأخرى، من مساكن ومرافق عامة وخدمات، وغيرها. وفوق هذا وذاك، يجري العمل لإقامة شبكة سكك حديد داخلية، وخط مترو في مدينة أبوظبي، هذا كله، فضلاً عن تجهيز مناطق تجارية حديثة في جزيرتي الصوم والريم.. أليس مثل كل هذه المشاريع الجديدة، التي يتم تنفيذها هذه الأيام في أبوظبي، بدليل قاطع على أن هذه الأرض خيرة بخيرها، وخيرة بالعلاقة بين الحاكم والمواطن، التي تتسم بالمحبة والوفاء والإخلاص من كلا الطرفين.

في عام **2015**، تدخلت الإمارات العربية المتحدة مع أشقائها في دول مجلس التعاون الخليجي، بقيادة المملكة العربية السعودية، لإعادة الشرعية إلى

اليمن، وهزيمة المشروع الطائفي القادم من إيران، وقدمت عشرات الشهداء الأبرار، وكانت العون والساعد الأيمن لعدن، بعد أن خربها الحوثيون وصالح، وجسدوا أروع الملاحم والبطولات.

العين (الإمارات العربية)

مدينة العين بالقرب من الحدود العمانية، وفي الشرق من مدينة أبوظبي، وتبعد عنها مسافة **150** كيلومتراً، وهي رابع أكبر مدن الإمارات من ناحية السكان، حيث يصل عدد سكانها إلى حوالي نصف مليون نسمة،

ويقال إنها كانت موطن الإمارات، إذ كانت السواحل مجرد مواقع عمل للصيادين الإماراتيين، وعندما تغادر مدينة أبوظبي، تمخر الطريق الدولي إلى مدينة العين، التي ما إن تصل إلى حدودها، حتى يلفت نظرك ويسحره الاخضرار، الذي جاء بفعل التشجير الكثيف العميق للمساحات المجاورة، التي تبدو وكأنها بدايات غابات في بلاد مطيرة، وكذلك جماليات المياه المتدفقة من النوافير، فكل ذلك يقهر الطبيعة القاسية.

سافرنا إليها من أبوظبي في زيارة لأحد الأقارب مقيم هناك منذ **23** عاماً، وهو محسن حسن الطلي الظيئاني، وعدد من الأصدقاء، كنت في الرحلة مع زوجتي، يرافقنا أخي علي وزوجته أيضاً، وأمضينا يومين كاملين في ربوع العين، حيث التقينا هناك بالشيخ صالح الخمسي الميسري (الذي ربطته علاقة شخصية بالشيخ زايد بن سلطان)، رحمهما الله، ومحمد علي عاطف ومحمد العنتري، وآخرين، وأحاطنا أولئك الأصدقاء بالحفاوة، كوننا زرناهم بعد فترة طويلة من الغياب عن بعضنا، وكم كانت فرحتنا عندما عرفنا أن قريبنا الذي أتينا أساساً لزيارته، يعمل في بلدية العين، وهي الإدارة نفسها المسؤولة والمشرفة على العناية بجمال المدينة ومحيطها، فأنت تفخر أن يكون قريب لك أو صديق يعمل في مجال له علاقة بشأن هام من شؤون مدينة تزورها، وتجد أن هذه المدينة على خير ما يرام، فما بالك إن كان يعمل مسؤولاً في إدارة بلدية المدينة، وقد

وجدت نظافتها من أفضل ما يكون، ومن أنظف المدن التي رأيتها في حياتك، وأنا حقيقة لا أكتب مبالغة هنا.

ترى في مدينة العين فساحة الشوارع ونظافتها، وكثافة التشجير المنسقة، واتساع طرق المدينة، وعدم ازدحامها، وتتوفر فيها وفي محيطها خدمات عامة متكاملة، وبها مطار دولي وحدائق عامة وحديقة ترفيهية، هي حديقة «الهيلي» وحديقة للحيوانات، كما توجد فيها المجمعات التجارية، مثل: العين مول والجيمي مول، وهناك العديد من الجامعات بالعين، مثل: جامعة الإمارات العربية المتحدة، وهي أكبر جامعة في دولة الإمارات، وجامعة العين، وجامعة أبوظبي، وجامعة عجمان، وغيرها، ومراكز علاج طبية شهيرة، منها مركز علاج السرطان، وعلى مقربة منها تقع واحة العين، التي تستقطب السياح المحليين والأجانب للقيام بالتخييم والرحلات الصحراوية، وتشتهر العين أيضاً برياضة سباق الهجن (الجمال)، وهذا الاهتمام يعكس تمسك المدينة / المنطقة بكثير من العادات والتقاليد الأصيلة.

كل الأصدقاء والمعارف وكل من قابلناهم، كانوا راضين ومرتاحين للحياة وسبلها الميسرة في مدينة العين، ما دفعني للبحث عما إذا كان هنالك ما يعكر صفو المعيشة هنا، فلا يصدق أن تكون المدينة على هذا النحو من النظافة وصفاء أجواء الحياة والخلو من المشاكل، قلت، لأبدأ بسؤال قريبنا، وكما يقول المثل اليمني: (يا موزع المرق أهل بيتك أحق) فإذا به يقول: «لدي همّ ليس هنالك ما يؤلمني ما يؤرقني أكثر منه، وأنا لا أعاني غيره، وهو أنني تقدمت إلى الجهات المختصة في الدولة بطلب التجنس – الجنسية الإماراتية – وكان ذلك منذ فترة طويلة جداً، وحتى الآن لم أحصل على رد، ولا على جنسية تبعث في نفسي الاستقرار وحط الرحال»، فقلت له: «طالما جميع الأمور ميسرة، فلا يوجد هناك داعٍ لذلك التجنس!!»، أجاب: «بل هنالك داعٍ لها،

وضرورة لا بد منها، فقلت له: «وما الداعي.. وما الضرورة؟»، فإذا به يحدثني بصوت أعلى، وكأنه يعاتبني على سؤالي، حين قال: «على الأقل، كي أشعر بالأمان، فأستقر وتهدأ نفسي، ثم حتى يمكنني إدخال أولادي ليتعلموا في مدرسة حكومية تخفف عني أعباء المصاريف المدرسية وتكاليف التطبيب المرهقة».

كان أثناء حديثه، وحسب ما بدا على ملامحه، يشعر بمرارة الاغتراب، خاصة وهو يرى أن هناك إمكانية لتجنيسه، بعد أن مكث أكثر من 25 عاماً، وفي ظل أنه يلقى عناية وتقديراً في مقر عمله، ومن أبناء العين، وحسب قوله، إنه لا ينقصه سوى «الجنسية»، وبمناسبة الحديث عن الجنسية والتجنيس، فهناك نكتة متداولة في منطقتي (مسقط رأسي – يافع) عن «الجنسية»، باعتبارها هماً من هموم أبناء المنطقة، التي لا يقل عدد المغتربين والمهاجرين منها عن نصف مليون شخص، والنكتة تقول إن فلاحاً غير متعلم هاجر قديماً إلى دولة خليجية مجاورة، وأثناء تجواله في شوارعها للتعرف إليها، أوقفه أحد حراس الشرطة وسأل صاحبنا مباشرة: «ما جنسيتك؟»؛ فإذا بصاحبنا يجيب عليه بارتباك: (جنسيتي.. رجل ذكر)، ومن المحتمل أن تكون هذه النكتة قد حدثت فعلاً، لأن ذلك الفلاح تعلم كل شيء، وسأل عن كل شيء سيواجهه في تلك الدولة الخليجية، ولكنه لم يسأل عن «الجنسية»، لأن اليمنيين من حسن تعامل الدول الخليجية معهم، لا يفكرون في نيل جنسية البلد الذي يعملون به.

ومن الطريف هنا، أنني تذكرت ما قاله لي أحد الأقارب، وقد هاجر في الخمسينات من القرن الماضي إلى المملكة العربية السعودية، حيث قال إنهم في السعودية حينها، كانوا يعرضون عليهم الجنسية السعودية بريالين سعودي، ويعرضون عليهم «التابعية اليمنية»، وهي وثيقة المملكة اليمنية المتوكلية الهاشمية آنذاك بثلاثة ريالات؛ فكانوا يأخذون التابعية اليمنية، ويتركون الجنسية السعودية، وعندما سألت قريبي هذا عن سبب عدم أخذه الجنسية السعودية

حينها، قال لي إنه كان يعتقد أنه لو أخذها، فإنهم (السعوديون)، لن يسمحوا له بالعودة إلى اليمن، إلى يافع.

وعودة إلى رحلتنا إلى العين الإماراتية، ففي اليوم التالي، خرجنا نتجول في الأرجاء الأكثر خضرة، واتجهنا إلى جبل «حفيت» المرتفع، والذي شقت إلى قمته الطريق المعبدة، وتزداد الخضرة اتساعاً وجمالاً، كلما مضت السيارة قُدماً على طول الطريق الصاعد إلى قمة جبل حفيت، البالغ ارتفاعه نحو **1300** متر عن سطح البحر، حيث تجد من صنع بفنه ويده طريقاً بديعاً ميسراً طولة **12** كيلومتراً، فهذا الإتقان في العمل الذي تراه في تشييد الطريق، يبين لك أن معايير الجودة هي السائدة في هذا البلد المعطاء، وأن علاقة الاحترام والمحبة هي القانون، وهي الأساس بين الحاكم والمحكوم، وكذلك بين المواطن والوافد الزائر، وعندما وقفنا على قمته، وجدناه يطل على مدينة العين إطلالة رائعة، فتراها ممتدة بهدوء لا يرقى إلى ضجيج مدن الخليج الصاخبة، وحين رأينا المدينة على هذا النحو الجذاب، شعرنا بسعادة وراحة يغمرهما الإعجاب.

كم هي جميلة العين، بجبالها ووديانها ومساحاتها الخضراء، ولا غرابة أن حصلت العين على أكثر من جائزة عالمية، باعتبارها من أجمل المدن من حيث التشجير، وما يسلب لب الزائر، أن هذه الحديقة الإماراتية التي تنقلك من مدن الإمارات الإسمنتية المعانقة للبحر، والتي زينت ووسمت الحدائق والأشجار والحشائش المخضرة في كل شارع ومكان، لا ترقى إلى مستوى هذه الواحة الخضراء، من خضرة الأشجار وعيون وينابيع المياه التي أبدعها الخالق، وخص بها هذه البقعة/ المنطقة وسط الصحراء، وإذا جمعت كل عوامل ومظاهر الطبيعة الجميلة في العين بالمدينة المنسقة مبانيها وأحيائها، وجمعت الاثنين بجهد الإنسان المخلص، الذي يعكس حبه الشديد للبناء وللشجر والزراعة وعناق الخضرة مع الجبال الشاهقة، فلا بد أن يسحرك ما تراه العين من منظر لهذه المدينة الجميلة.

دبـي

«دبي» المدينة الأولى تجارياً والأكثر ازدهاراً بعد أبوظبي، عاصمة دولة الإمارات العربية المتحدة، وتقع إمارة دبي، التي توجد فيها مدينتان أخريان، هما: جبل علي (الميناء) وحتا، بين كل من إمارة الشارقة شمالاً، التي لا تبعد عنها كثيراً، بل هما تكملان بعضهما، كونهما ميناءين تجاريين متقاربين جداً، وإمارة أبوظبي، التي تلاصقها هي أيضاً.

قديماً، كانت دبي ميناء، أو بالأحرى مرفأ صغيراً، تأتيه قوارب الصيد والسفن الشراعية (سواعي)، القادمة من الهند وعدن، ثم تبحر إلى موانئ أخرى، إلى الكويت والبصرة وميناء بوشهر الإيراني، حيث تفرغ البضائع والسلع هناك، وتعود محملة بالتمور وغيرها من البضائع، وها هو مرفأ الأمس الصغير، قد أصبح اليوم الميناء الكبير الذي يعج بحركة السفن الضخمة العملاقة من مختلف بلدان العالم المحملة بأصناف لا تحصى من البضائع والأجهزة والآلات التي تلقيها في الأسواق الحرة لمدينة دبي، ذات الشهرة العالمية العالية، وقد أصبحت مزاراً يأتيه التجار ورجال المال والأعمال من كل حدب وصوب، مسوقين أو مشترين لتلك البضائع، أو عارضين ومروجين لسلع ومنتجات أخرى.

إنها اليوم بحق، لا تقل أهمية عن المناطق الحرة التجارية المنتشرة في العالم مثل «هونج كونج» و«سنغافورة» وغيرها، فقد أصبحت بنيتها التحتية والخدماتية والمالية، تضارع بنى أكبر المناطق الحرة العالمية، إذ صرف على تجهيزها أكثر من مئتين وخمسين مليار دولار أمريكي، صرفت هذه المبالغ من أجل الحاضر والمستقبل، لذا، ستظل «دبي» واعدة في القرن الذي بدأ لتوه، القرن الحادي والعشرين، وأضخم سوق تجارية مستقبلية في الشرق الأوسط،

ونحن نتمنى لها هذا، بالرغم من المشكلات التي سببتها لها الأزمة المالية العالمية عام **2009**، وذلك حسب المثل الذي يقول: (الضربة التي لا تكسرك تقويك).

عرفتها لأول مرة في سنة **1982**م، وأنا في طريقي إلى إيران، مررت بها، فكانت في بدايات العمل والبناء، تتجمل وتخطو خطوات العنفوان، وتكررت زياراتي لها بعد ذلك، لتصبح محل إقامة لي ولأسرتي لسنوات، وأمكن لابنتي الصغرى أن تدرس الطب فيها، وبين كل زيارة وأخرى، أرى فيها جديداً وتغيراً مذهلاً، فقد أصبحت مدينة مليئة بالمفاجآت السارة، إذ ترى أن أحياء جديدة أقيمت، وعمارات وناطحات سحاب جديدة قد شيدت، حتى لا تعرف الجديد من القديم من مراكز التسوق العالمية المنتشرة في الأحياء والشوارع، وانتشرت في المدينة الحدائق والشواطئ الفضية النظيفة، والبحيرات الاصطناعية، وحتى ملاعب الغولف الخضراء الفسيحة، وقد وصفها أحد الفرنسيين بكونها مدينة القرن الواحد والعشرين.

دبي هي الإمارة الثانية حجماً، والإمارة الثانية المؤسِسة لدولة الإمارات العربية المتحدة، إلى جانب الإمارات الأخرى (أبوظبي، الشارقة، عجمان، الفجيرة، أم القيوين ورأس الخيمة)، فشكلت حينها، مع شقيقاتها، اتحاداً فيدرالياً قوياً، بقيادة الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان، رحمه الله، الذي عمل (هو وكل شيوخ الإمارات المذكور)، على إرساء دعائم الاستقرار الذي أدى بطبيعة الحال إلى ذلك الازدهار الملموس، الذي نلمسه في جميع مناحي الحياة.

وفي هذا، كان هناك دور لفارسها وشاعرها المشهود له، الشيخ محمد بن راشد آل مكتوم، الفارس الذي تولع بالشعر وبالجياد العربية وتربيتها، وله صولات وجولات في مضمار سباقات الخيل العالمية، لنا أمل بأن يتصدر هو وأنجاله – الفرسان العرب دائماً، كما تصدرت دبي الموانئ العربية وموانئ

الشرق الأوسط، وهي تسعى إلى العالمية، إنه السباق والتحدي الذي يواجه الأمة في العصر القادم، عصر الاقتصاد الذكي، عصر العولمة والإنترنت والتكنولوجيا، والكل يترقب بأمل، صمود وجهود هذا الفارس الشاعر الحاكم، لعله يملأ فراغ النهوض والتقدم في عالمنا العربي.

إن دبي لا تتعدى مساحتها المئة ألف كيلو متر مربع، ولكنها استطاعت أن تكتسب مكانة اقتصادية رفيعة وفاعلة، كما يبلغ عدد سكانها نحو **350** ألف نسمة، ولكن يقدُم إليها مئات الآلاف من العمالة الوافدة ورجال الأعمال والمستثمرين والسياح من جميع الأنحاء شهرياً، وتقدر نسبة الأجانب فيها ما بين **70 – 80%** من إجمالي السكان والمقيمين والوافدين، بلد صغير مساحة وسكاناً، أصبح خلية نحل عالمية، وورشة عمل لا يتوقف فيها العمل الذي يشكّله ذلك الكوكتيل العجيب، والخليط المتجانس من البشر، المكون من حوالي مئتي جنسية مختلفة، جاؤوا من مختلف أنحاء العالم، يعملون ويعيشون هنا في هناء وهدوء ووئام تام على هذه الأرض الطيبة، الكل يعمل، وليس هناك من يضيع وقته، وكأن المدينة تعمل وفقاً للمثل القائل: (الوقت كالسيف، إن لم تقطعه قطعك)، لذا، لا غرو أن يصل دخل الفرد في هذه المدينة إلى أكثر من **16.500** دولار سنوياً، فموارد التجارة والسياحة فيها تعادلت مع مداخيل البترول.

ولا عجب أن تشهد دبي بناء وتشييد مشاريع كبيرة يصعب حصرها كلها، وأهم ما يتم الآن: أطول برج مبني في العالم (برج خليفة)، مدينة تدور حول نفسها (دبي لاند)، مدينة جزيرة النخلة، فندق برج العرب، وفندق أتلانتيك، ويقال إن ما تحقق لا يتعدى **20%** مما هو مرسوم ومخطط لإنجازه، ومنها المترو (سكك الحديد)، والذي يعتبر واحداً من الإنجازات الكبيرة والعملاقة التي نُفّذت بكفاءة وجودة عالية ومتميزة لحل مشكلة المواصلات

والازدحام المتنامي، وغيرها كثير، فدبي مدينة لا تكف عن النمو، والتطور فيها لا توجد نقطة وقوف له.

حين بدأت أتعرف إلى شوارع مدينة دبي – خلال زياراتي الأولى – شاهدت شعاراً معلقاً بلافتة ضخمة على أحد جسور المدينة، مكتوب عليه: (حيث الدهشة تتجدد باستمرار)، ويقودك هذا الطريق الذي علق عليه الشعار، إلى أجمل وأفخم أسواق الشرق الأوسط لدبي الجديدة، لم يفرحني ويسعدني ما قرأت فقط، وإنما جعلني مع مجموعة من الأصدقاء نواصل ترديد شعارات أخرى، على شاكلة هذا الشعار، أذكر منها ما يقول:

حيث الرؤية تتجدد باستمرار

حيث الحلم يتجدد باستمرار

حيث الأمل يتجدد باستمرار

حيث الثقافة تتجدد باستمرار

حيث الحرية تتجدد باستمرار

وهي أساس نهضة هذا البلد، وهي متجددة، يظللها الأمن والأمان، هذا – هنا – فيما واقع الحال لبعض بلداننا العربية يقول عكس ما نراه هنا.

كانت زياراتي متواصلة إلى دبي، خاصة منذ عام 1994م، ولفترات أطول من سابقاتها، فقد لمست كل معاملة يصعب وصف أصالتها ورقتها وحنانها وشهامتها وكرمها ممن قابلتهم من أبناء دبي وأمرائها وحكامها ومسؤوليها، كما أن هناك أصدقاء كثراً من الإماراتيين، لا أستطيع إيراد أسماء عدد منهم، فلربما جاء الآخرون وعاتبوني، وهناك إماراتيون من أبناء منطقتي في اليمن، الذين قدموا منذ قرون، ولكن منهم من قدموا إلى هنا من 42 عاماً، وهم أيضاً كثيرون، ومنهم الصديق السلطان عبد القادر العفيفي، رحمه الله، والشيخ قاسم عبد الرحمن الشرفي، أمد الله في عمره وأسعده، ومن أولئك من

جاؤوا إلى هنا في تلك المرحلة، ولكنهم لم ينالوا الجنسية، ومنهم الصديق الشاعر والصحافي المشهور فضل النقيب، وكم لي أن أذكر أسماء من أبناء اليمن، فقد كانت دبي والإمارات حضناً أخوياً صادقاً لكل يمني ضاقت به سبل العيش في اليمن، فاختار هذه المنطقة دون غيرها، لأن الروابط التاريخية والقومية والدينية، ظلت متواصلة منذ أبد الآبدين.

أما العامل الثاني الذي جعلني أتعلق بدبي، هو حبي للمدينة نفسها، كنت أعشق المدينة أكثر وأكثر في كل زيارة، فهذه المدينة أعجبتني في حياتها وحركتها وناسها، وأصْدُقكم القول، إنها كانت تبدو لي في أجمل صورها، عند الصباحات الأولى، بعد أن أستيقظ من نومي وأؤدي صلاة الفجر، أقف متأملاً فيها بكل رومانسية، وهي تنتعش ناهضة من نومها صباحاً، كان ذلك إلى حد أقوم خلاله بمناجاتها، وأذكر أنه ذات يوم نظمت لها أبياتاً عند الفجر، وخاطبتها:

صباح الخير يا دبي
أعطني لحظة انتظار من عمر عشقنا
فيها أسدد الخطى نحو تأصيل حبنا
وأجج الشوق بخيوط ضوء الوقت المهدور
أعطني لحظة انتظار من شوقنا المنظور
لأصنع سياجاً ورد الياسمين يحيط بكل الدور
سياج الحب اللا متناهي

عشت **8** أعوام في جدة بالمملكة العربية السعودية، وكنت أتردد فيها كثيراً على دبي، وفي عام **1998**م، انتقلت للعيش في دبي، ذلك أن صغرى بناتي كانت شغوفة بأن تدرس الطب في الجامعة، ولم تتوفر الإمكانية لهذا في السعودية، لذا، انتقلنا للعيش في هذه المدينة، وقد رجحت الصِلات السابقة

بها، التي ذكرتها آنفاً، خيارات هذا الانتقال، وقد أمضيت في دبي سعيداً منتعشاً، مدة رائعة من العمر، حتى عدت إلى صنعاء في بداية عام 2002م، وبقيت ابنتي لاستكمال دراستها الجامعية، ثم عادت إلى اليمن، كما أن آخر أولادي الذكور (خلدون)، أتى إلى دبي بعد أن أنهى دراسته الجامعية في الولايات المتحدة الأمريكية، واستقر فيها، وفي دبي، وبعد سنوات من الإقامة الجميلة في رحابها، وُلِدت الحفيدة ياسمين في دبي، وجدّها يحتفل في عدن بعيد ميلاده الستين، وقلبه على الوردة الجميلة الجديدة التي أضافت الرقم (16) إلى قائمة أحفاده الأحباء.

خلال عقد لاحق من كتابة هذه الخواطر عن دبي المتألقة والمتجددة، عدت لأعيش فيها بعد أحداث وتطورات اليمن، والجنوب تحديداً، والتي سارت فيها حتى أعلنت دول التحالف العربي، بقيادة المملكة العربية السعودية، ودولة الإمارات العربية المتحدة، التدخل العسكري لإعادة الشرعية التي حاول المتمردون سلبها، وإعادة الاعتبار للجنوب، الذي شُنت عليه حرب 1994 وحرب 2015، ترافقنا الآمال والأحلام في عودة الاستقرار إلى ربوع أوطاننا، وإلى عدن الحبيبة، بدعم الأشقاء والأصدقاء، وصمود أهلنا واستبسال رجالنا.

الشارقـة

في طريقي إلى الصين – نوفمبر سنة **1985**م – نزلت في فندق الشارقة المشهور حينذاك (الإنتركونتيننتال)، فاستحوذت المدينة على إعجابي، لأنها كانت عندئذ في بدايات نهضتها وتطورها، وفي عام **1995**م،

عدت إليها مرة أخرى، لأجد تلك المدينة قد قطعت شوطاً شاسعاً في عملية التطور والبناء والتنمية بشكل عام، بل وتحولت مساحاتها الصحراوية الخالية، إلى حدائق غنّاء، فتناسقت مع البناء والمعمار فيها بأشكاله الهندسية البديعة، حتى أضحت لا تقل جمالاً عن دبي أو أبوظبي، وعندما تساءلت عن سر ذلك التطور المفاجئ والقفزة العجيبة، قيل لي إن الشيخ الدكتور سلطان القاسمي، قد أضفى عليها طابعاً خاصاً ومميزاً في الجوانب الاجتماعية والثقافية والعمرانية، فهي الإمارة الوحيدة التي سمحت بتمليك العقارات للعرب والأجانب، وكذا، اتخذت إجراءات اقتصادية حكيمة أخرى، فشهدت المدينة تطوراً هائلاً، لكن ذلك التطور أصيب بكبوة بعد إصدار مرسوم اتحادي – حينها – من المجلس الأعلى للاتحاد، بإلغاء ذلك الحق، انسجاماً مع سياسات وقوانين بقية إمارات الاتحاد.

تكررت زياراتي لها، وارتبطت بصداقات مع عدد من أبنائها، منهم الأخ الأستاذ عبد الرحمن الجروان، وكيل وزارة الخارجية الإماراتية السابق، ومستشار الشيخ القاسمي الحالي، والأستاذ علي الغرباوي وأبناؤه، وآل السعدي وآخرون، الذين كانوا يحتفون بي أيما احتفاء، كلما قدِمت إليها أثناء عملي في وزارة الخارجية (عدن) وما بعدها، وكان هؤلاء الشارقيون الطيبون يصرون على أخذي في جولات ونزهات في أنحائها، أطلع خلالها على معالمها العصرية الجذابة من

أحياء وبنايات جديدة، ونُمضي بعض الأوقات في أسواقها وحدائقها، وكم سعدنا أيضاً باهتمام أبناء الجالية اليمنية الموجودين هناك، والذين كانوا يحيطوننا ببالغ الحفاوة والتقدير كلما زرنا دولة الإمارات العربية الشقيقة، وعرجنا على الشارقة.

إن الشارقة نموذج أوضح عن التكامل الذي تم تدريجياً، ويتم بخطوات سريعة بين إمارات دولة الإمارات العربية المتحدة؛ فإمارة الشارقة يسكنها ما يقارب مليون نسمة (أقل قليلاً من ثلاثة أضعاف سكان إمارة دبي)، تتمتع برخص السكن فيها، مقارنة بأسعار السكن في مدينة دبي، ولهذا، يتوجه المقيمون والعمال الوافدون طلباً للسكن، كونها قريبة جداً من دبي المزدهرة بالأعمال ومختلف النشاطات الاقتصادية، وهذا الوضع الديموغرافي – السكني – الاقتصادي، ساهم في مضاعفة نمو قطاع العمران في الشارقة، وهو يعكس أيضاً أحد مظاهر التكامل بين السبع إمارات التي يحتويها الاتحاد، الذي يبين صحة وسلامة وصواب الأسس التي قام عليها اتحاد الإمارات العربية المتحدة، بأنه لم يقفز على المراحل أو يلجأ إلى التكامل أو الاندماج الفوري، بل اتبع التدريج والتدرج في نمو العوامل المشتركة، حيث تتقوى شبكة الروابط والعلاقات والتكاملات بين تلك الإمارات عاماً بعد عام، بحيث ستصبح جميعها في المستقبل القريب، إن شاء الله، كتلة واحدة متناسقة، ليس من حيث السكان والمعمار والمكان، وإنما في جميع المجالات المختلفة والقطاعات الاقتصادية المتنوعة.

وإلى جانب ما شهدته المدينة من تطور اقتصادي مذهل، فإنها تتربع على قمة الهرم الثقافي من بين مدن الاتحاد، ففيها الجامعات ومراكز دور العلم المختلفة، والإصدارات الصحافية التي ينهل من منابعها من يشاء، سواء من أبناء الإمارات أو من أبناء الوافدين العرب أو الوافدين الأجانب، وهذه سمة

تتسم بها أكثر من أي مدينة خليجية أخرى، فهي تمنح الاهتمام الخاص بالثقافة والفعاليات الثقافية العربية والإسلامية، كما أنها تشهد نهضة علمية، حيث توجد فيها مؤسسات تعليمية وعلمية، أهمها المدينة الجامعية، التي تحتضن عدة جامعات، منها: جامعة الشارقة الأمريكية، وجامعة الشارقة، وأكاديمية العلوم الشرطية، وكلية التقنية العليا، ومركز لمنظمة اليونيسكو، ومركز سلطان القاسمي للدراسات.

وتوجد في الإمارة مكتبة الشارقة، التي تعد من أكبر المكتبات في العالم العربي، ومن الملحوظ أن الشارقة تسابق بيروت في الحصول على مكانة العاصمة الدائمة للثقافة العربية، ويرجع هذا التسابق، إلى اهتمامها الخاص بالنشاطات الثقافية والمطبوعات العربية المتعددة من إصدارات وكتب، وأيضاً للاهتمام الشخصي والدور الذي يلعبه الدكتور سلطان القاسمي، كبير قبيلة القواسم العربية، التي حكمت الشارقة منذ القرن السابع عشر، وظلت كذلك حتى انضمام الإمارة كعضو مؤسس لدولة الإمارات العربية المتحدة في ديسمبر **1971**، وما زالت حتى الآن، منذ أن أصبح سلطان بن محمد القاسمي أول حاكم لها في إطار الاتحاد في عام **1972**م.

إن الشيخ سلطان القاسمي، يقوم بدوره في نهضة إمارة «الشارقة» بثقة وبتواضع، واضعاً لبِنات قوية ثابتة لتطور هذه الإمارة الخيرة، ولكنه أضاف إلى هذا الدور، دوراً خاصاً بمكانة الشارقة ثقافياً، هدفه أن تكون الشارقة المركز الثقافي للمنطقة العربية، ولعله بذلك سيشد المثقفين العرب إليها في القريب العاجل، كما شدنا إليه وإلى الشارقة قبل ذلك بوقت طويل، بأطروحته الجامعية العليا، التي نال عليها درجة الدكتوراه، وهي عن موضوع: «احتلال بريطانيا لعدن»، وتعد من الأعمال البحثية الأولى في تاريخ اليمن الحديث.

والسؤال بشأن ما يقوم به سمو الشيخ الدكتور القاسمي على الصعيد الثقافي، هو: هل لبيروت أن تتخلى عن مكانة مركزها الثقافي – الذي لمع نجمه في الستينات والسبعينات، ثم خفت بريقه في الثمانينيات والتسعينيات – والذي يبدو كأنها تريد استعادته الآن، منذ أن بدأ القرن الحالي (القرن الحادي والعشرين)، أعتقد أن المنافسة بين المدينتين قائمة، ونحن العرب مع التنافس، خاصة في هذه المجالات (المظلومة)، مجالات الثقافة والإبداع والعلوم والآداب، فلا نهضة اقتصادية، ولا نهضة عامة في أي بلد نجحت أو ستنجح، إلا إذا صاحبتها نهضة ثقافية إبداعية وعلمية أدبية، لكل مدينة عوامل ازدهار الثقافة والعلوم فيها تختلف عن غيرها، ويمكن أن تتقدم هذه المدينة وتتأخر تلك لأسباب عديدة، لكن لا يمكن أن تكون بديلاً لها، وهنا، من الأفضل الإشارة إلى الجهود التي تبذل في الشارقة، لتكون عاصمة الثقافة العربية، ليس من باب التنافس، بل من باب الإضافة، بحكم أن هناك توجهاً رسمياً قائماً، يقود هذه العملية، ويشجع عملية الإبداع الثقافي والأدبي والعلمي.

إن عملية التحديث متواصلة ومستمرة في الشارقة، وتبوأت الإمارة عاصمة الثقافة العربية، وأصبح معرضها للكتاب من أهم المعارض العربية وأنجحها على الإطلاق، وأصبحت صحيفة «الخليج»، الصحيفة الآسرة/ الجامعة، الناطقة والداعمة للقضايا العربية العادلة، في مقدم الصحف والإصدارات.

القاهرة

عندما أزور مجدداً القاهرة، وأجد الفرق بين كل فترة وأخرى
كبيراً، بحكم التوسع السكاني المتنامي، أقارن الحال في كل
مرة بسنوات الستينيات، عندما كنا نزورها ونُستقبل فيها
كمناضلين وكمقاتلين،

من أجل الحرية والوحدة العربية، إن التطور متسارع بين ما وصلت إليه القاهرة في كل مرحلة، وبين كل زيارة وأخرى، حيث تجد جديداً من التقدم والتحسن في مختلف القطاعات، من توسعات في البناء، وتطورات في حياة المصريين من سكانها، أسلوباً ومعيشة، لكن بعض الأشياء ظلت بنفس البريق والجذب، دون أن يحدث فيها تغير أساسي.

ما زالت تشدني مناظر الأهرامات في الجيزة، التي تنتصب شامخة وجميلة بعبق التاريخ، تتحدى الزمن، وتؤكد تواصله وعدم انقطاعه، ويأسرني نهر النيل، بحضوره القوي وقدرته على أن ينسيك متاعب الدنيا، مذكراً إياك بحيوية الحياة وعذوبتها اليومية، كلما جلست على أحد جانبية في مقهى أو استراحة، أو تجولت بداخله في قارب صغير أو سفينة سياحية، اعتلى مسرحها مغنٍ يردد أغنية شعبية من صعيد مصر على إيقاع سريع، ويظل أبناء القاهرة البسطاء، عامل جذب إضافي بلطافتهم في المعاملة، وذكاء أحاديثهم، التي تعكس دماثة المصريين وإرادتهم في حب النيل، وحب مصر، وحب الأمة العربية.

وعندما حل عليّ ضيوف مصريون من أبناء الفراعنة، وهم: الشاعر المصري عبد الرحمن الأبنودي والممثلة القديرة سميحة أيوب والكاتبة فتحية العسال ذات ليلة من عام 1987م في منزلي الكائن في مدينة خورمكسر بعدن، حينها، لم أشعر بتكلف أمام ضيوفي، وهم أعزاء، لهم مكانتهم الشخصية

والأدبية والثقافية الخاصة، شعرت حينها وكأنهم وكل مصري أصدقاء منذ زمن بعيد، وهذا الشعور لست الوحيد الذي يشعر به تجاه الإخوة المصريين الذين نعرفهم، وحتى الذين نتعرف إليهم لأول مرة، ولكني أرى أن جميع أبناء اليمن وبقية البلدان العرب، يشعرون به مثلي، وأعتقد أن مرد ذلك، إلى العلاقات الروحية والفكرية والثقافية والتاريخية مع مصر، والدور التنويري الذي لعبته تجاه كل العرب، وكذلك ما خلفته مصر عبد الناصر ـ منذ الخمسينيات وحتى منتصف السبعينيات ـ من تأثير هائل في الأوضاع العربية برمتها، إذ كانت ـ رغم أخطاء الأجهزة الحكومية، وخاصة الأمنية منها ـ هي المحرك لما يجيش في الصدور من توق نحو الحرية والعدالة والتقدم. وكانت مصر أيضاً مرجعية للقرار العربي الرصين، والحاضنة الساهرة على مصالح الأمة. وباختصار، هي التي أيقظت المشاعر والأحلام العربية، في ظل هيمنة الاستعمار البريطاني والفرنسي والإيطالي على معظم البلدان العربية.

وعندما جاء إلى عدن كل من الشاعر أحمد فؤاد نجم والممثل صلاح قابيل ـ رحمهما الله ـ وغنى الفنان العراقي جعفر حسن للشاعر عبد الرحمن الأبنودي وللشاعر أحمد فؤاد نجم، كلمات عن الشموخ العربي والإباء العربي في أعوام المقاطعة العربية للقاهرة، كانت القاهرة هي الحاضرة بيننا، نحن العرب، رغم المقاطعة التي فعلت بنا ما فعلت نفسياً وسياسياً وثقافياً واقتصادياً، بل إن خروج مصر من معادلة الصراع العربي الإسرائيلي – حينها – مكّن إسرائيل من فرض شروط كانت بالأمس تحلم بتحقيق، ولو جزء بسيط منها، وقد عاد الحال إلى نصابه، حين أعاد الرئيس حسني مبارك، توازن الموقف المصري، بإعادة مصر إلى الأمة، وبعودة الأمة إلى مصر. ثم بتعاون القاهرة مع دمشق والرياض، تمت فرملة هرولة أصحاب السلام الضعيف، وأصحاب تداعي الموقف العربي، الذي ساد في العقد الأخير من القرن العشرين.

«أم الدنيا»، هكذا يجيبك من تسأله عن انطباعاته عن القاهرة، التي بناها القائد «جوهر الصقلي» عام 358هـ، وجعلها حاضرة الدولة الفاطمية، وسميت بقاهرة المعز عام 362هـ، نسبة إلى برج «النجم القاهر»، وسميت «المعزية»، نسبة إلى الخليفة الفاطمي (المعز لدين الله). وزاد من شهرتها، بناء مسجد الأزهر الشريف، الذي تحول فيما بعد إلى أشهر جامعة إسلامية علمية، يؤمها طلاب العلم من كل الأقطار العربية وغير العربية، وفي التاريخ الحديث، أصبحت عاصمة العرب، ومنها انطلق الوعي القومي العربي، وشرارات التحرر التي أشعلت الاستعمار في شبه الجزيرة والهلال الخصيب وشمال أفريقيا وضفة البحر الأحمر الغربية، ثم خلقت الأنظمة العربية الوطنية لأول مرة في تلك المناطق. هذه المدينة، أصبحت هي موقع الأمل والطموح العربي الدائم منذ ذلك الحين.

علاقتي بها تمتد منذ مقتبل العمر، سن الشباب اليافع، حملتها في عقلي وروحي، كأي شاب عربي، قبل أن أراها أو أزورها، كانت الأقرب إلى العقل والروح والوجدان، وارتبطت بالنظرة إلى المستقبل، وبقوة عنفوان الشباب، وبالأخص أثناء رحلة استلهام قيم ومعاني النضال السياسي والمسلح، لطرد الاحتلال البريطاني من عدن ومناطق الجنوب اليمني المحتل.. تعرفت إليها عبر الأثير، عندما قدّمت القاهرة دعمها السياسي والمعنوي والإعلامي للثوار في برامج إذاعة «صوت العرب». كما قدمت مساعدتها العسكرية لثورة 26 سبتمبر 1963م، عتاداً حربية وذخيرة ورجالاً تعرفهم جبال ووديان شماليّ اليمن، وشهداء سقطوا في ميدان المعركة، فرووا بدمائهم التربة اليمنية، ويقال إنه مع طلوع شمس كل يوم، كانت القاهرة تقدم لليمن أثناء وجود القوات المصرية هناك 1962 – 1967م، مليون جنيه مصري دعماً لثورة اليمن، وذلك حين كان الجنيه جنيهاً، حين كان الجنيه يومها يساوي مئة جنيه اليوم.

وهنا، أذكر أن المشير عبد الحكيم عامر ـ وزير الدفاع المصري أيامها – قاد هو شخصياً معارك ميدانية في اليمن، وأكبرها كانت معركة استعادت منطقة صعدة من فلول الملكيين المعادين للنظام الجمهوري الجديد، وفي تعز، قام الضباط المصريون بتدريب طلائع الفدائيين الثوار، الذين قدِموا من جميع مناطق جنوبي اليمن المحتل، وأهّلوا أفراد جيش التحرير الشعبي، رغم الخلاف الذي جرى مع المخابرات المصرية في اليمن، والتي أساءت أحياناً إلى الدور المصري التاريخي في اليمن، وعبثت بتأييد الشارع العربي لمصر ولجمال عبد الناصر، كما أرسلت الفرقة تلو الأخرى من طلائع ثوار جنوب اليمن المحتل، للتأهل في المدارس العسكرية المصرية، وبالذات «الكلية العسكرية» بالقاهرة، هذا فضلاً عن الدعم المعنوي والإعلامي الكبير، الذي قدمته القاهرة لثورة وثوار الجنوب، بما في ذلك الزعيم عبد الناصر، الذي قال صرخته المدوية أثناء زيارته لتعز عام 1966م (إن على بريطانيا العجوز، أن تأخذ عصاها وترحل من عدن).

لهذا كله، فإن مصر جمال عبد الناصر، وحتى هذه اللحظة، وبعد مرور 30 عاماً على وفاته ـ تعيش في قلوب وعقول الناس من المحيط إلى الخليج، حتى أولئك الذين ناصبوها العداء من اليمين أو اليسار العربي. وتعيش في قلوب وعقول اليمنيين، الذين لولا مصر ولولا عبد الناصر، لما رأوا الحرية والجمهورية والتقدم.

زرتها لأول مرة عام 1969م، بعد استقلال عدن وإعلان جمهورية اليمن الجنوبية الشعبية، ويومها لم أمكث بها طويلاً، لأنني كنت في طريقي إلى جمهورية ألمانيا الديمقراطية، لكنني عدت إليها مرات كثيرة، وكانت أول زيارة رسمية لي إليها عام 1972م، برفقة الأخ عبد الفتاح إسماعيل أمين عام التنظيم السياسي الجبهة القومية، في طريقنا للذهاب إلى جمهورية كوبا الاشتراكية، وفي زيارة أخرى، كنت مع وفد برئاسة رئيس الوزراء آنذاك، الأخ علي ناصر محمد،

لتوقيع اتفاقية القاهرة بين الشطرين، بعد أن توقفت الحرب الناشبة بين اليمنيين على طول الحدود بين الدولتين الشطريتين، والتي استدعت تدخل الجامعة العربية لإيقافها. وأفضى حوار الأخوة من قيادتيَ الشطرين، إلى عقد اتفاقية القاهرة بتاريخ **21** رمضان **1392**هـ، الموافق **28** أكتوبر **1972**م، وهي أول اتفاقية وحدوية على الإطلاق، نصت على قيام دولة واحدة بين الشطرين، وقد مثل الجانب الشمالي فيها، الأستاذ محسن العيني ـ رئيس الوزراء، ومثّل الأخ علي ناصر محمد رئيس الوزراء، الجانب الجنوبي.

وفي عام **1974**م، زرتها ضمن وفد الرئيس سالم ربيع علي. وكان قد حدث تحول إيجابي كبير في العلاقات بين البلدين، نتيجة للتنسيق بين البلدين إبان حرب **6** أكتوبر **1973**م. وما لعبته «اليمن الديمقراطية» من دور فاعل فيها في باب المندب والبحر الأحمر، كما زرتها رسمياً لحضور قمة الملوك والرؤساء العرب الثامن عام **1976**م، وبرفقة الرئيس سالمين أيضاً، وقابلنا الرئيس محمد أنور السادات في الزيارات الرسمية الثلاث المذكورة، ذلك أنه كان مهتماً بالشؤون اليمنية، منذ أن كان نائباً للرئيس الراحل جمال عبد الناصر، وكان يعرف معظم القيادات اليمنية، ثم على إثر زيارة الرئيس السادات إلى القدس المحتلة، التزمت عدن بقرار المقاطعة العربية لمصر. ورغم المقاطعة والحصار العربي لمصر، إلا أن مصر بنبضها الشعبي، حاولت أن تخفف وقع ذلك، وأن تلطف أجواء العلاقات مع الشعوب العربية، من خلال التواصل الممكن مع الأحزاب المتفقة فكرياً مع أحزابها القومية العربية (الاتحاد الاشتراكي العربي)، أو أحزابها اليسارية، فبعثت القاهرة إلى عدن سنة **1987**م، وفداً حزبياً من قبل «حزب التجمع المصري»، الذي كانت له علاقات مع الحزب الاشتراكي اليمني، وكان الوفد المصري، برئاسة خالد محيي الدين (الذي منحته عدن أعلى وسام وطني حينذاك)، وحسين عبد الرزاق، وزوجته الكاتبة فريدة

النقاش، والدكتور رفعت السعيد، وآخرين، كما أن شخصيات أخرى لها مواقعها الفنية والصحافية، ومنها: الأستاذ عبد الله حمودة، أمين رضوان، يوسف الشريف، سوسن أبو حسين، علي إبراهيم، وآخرين لهم اهتمامهم بالشؤون اليمنية، كانوا يطلون على اليمن بعيون مصر رضية ومحبة. كما أن المدرسين المصريين توافدوا لخدمة التعليم في أرجاء اليمن، وما زال بعضهم يقوم بدوره هذا، وخاصة في الجامعات والمعاهد العليا اليمنية والعربية، تماماً مثلما كانوا منتشرين في كل المدارس الإعدادية والثانوية قبل تأسيس الجامعات في اليمن وبقية الدول العربية.

ظل ترددي على القاهرة دائماً، بل إنها أكثر المدن العربية والعالمية زيارة بالنسبة لي منذ شغلي منصب سكرتير المجلس اليمني للسلم والتضامن والصداقة مع الشعوب عام **1975**م، ثم سكرتيراً للعلاقات الخارجية في التنظيم الحاكم «الجبهة القومية»، ووزيراً للخارجية، وغيرها من المناصب التي شغلتها، ذلك أن القاهرة لم تكن قلب شريان دم علاقة اليمن بالعرب وشريان العلاقات العربية – العربية، بل وقلب أفريقيا العذراء الناهضة نحو الحرية أيضاً؛ فهي على سبيل المثال، مقر منظمة « **APSO** التضامن الآسيوي الأفريقي»، وإحدى عواصم «حركة السلم العالمية»، وهما الحركتان اللتان عرّفتانا (عدن) بأفريقيا ودول أفريقيا والحركات التحررية الأفريقية، وفيها عقدت عشرات المؤتمرات المؤيدة للأفارقة، وتلك صور من دعم الشعوب الأفريقية، ومنها شعب جنوب أفريقيا.

وما دام الشيء بالشيء يذكر، فلي قصة ظريفة مع السيد «الفريد زانو» وزير الخارجية الحالي لجنوب أفريقيا منذ بداية السبعينيات، والذي كان يمثل – في ذلك الوقت – مؤتمر التضامن الآسيوي الأفريقي في القاهرة، وقد حضرت عدة اجتماعات له، وأهمها ذلك الاجتماع الذي حدثت فيه الحكاية التي أسردها هنا، ففي هذا الاجتماع، حضرت شخصيات مهمة، أذكر منها: يوسف

السباعي رحمه الله، والسيد زوخاروف، أمين «منظمة التضامن السوفييتية» حينها، وكانت هذه المنظمة – وهي عضو مراقب في الأمم المتحدة، وحركة عدم الانحياز، وبعض المنظمات الدولية – تلعب دوراً مهماً في دعم البلدان العربية والأفريقية، بفعل دعم الاتحاد السوفييتي وبلدان المعسكر الاشتراكي لها، كنت شخصياً رئيس وفد منظمة التضامن والسلم والصداقة مع الشعوب، ومقرها عدن، إلى المؤتمر، وعندما حان وقت إلقاء كلمة وفدنا، بدأت أقرأ الكلمة، وهي كالمعتاد تبدأ بشرح الأوضاع الداخلية، ثم تهاجم العدو الداخلي والخارجي، وبعدها تتناول السياسة الخارجية، مشيدة بالمنظومة الاشتراكية، وعلى رأسها «الاتحاد السوفييتي»، وتنتهي بتأييد حركات التحرر الوطني، وعلى رأسها القضية الفلسطينية وجنوب أفريقيا، وإدانة الإمبريالية والصهيونية.. إلخ.

وضمن البرنامج المتفق عليه، أن إلقاء الكلمات لا يتجاوز خمس دقائق لكل وفد، ويبدو أنني أطلت، فما كان من رئيس الجلسة ـ وكان السيد زانو، إلا أن قاطعني وطلب مني التوقف، فرفضت وواصلت إلقاء الكلمة، وجاء ذكر دعم نضال شعب جنوب أفريقيا، وهو يطلب مني التوقف، فرفضت، وواصلت إلقاء الكلمة، وبما أنني ألقي الكلمة بالعربية، وهو لا يفهمها، شرح له الأستاذ نوري عبد الرزاق، أمين عام المنظمة، الجالس بجواره، أنني أتحدث عن نضال بلده جنوب أفريقيا وأهمية دعمه.. إلخ. هنا تحدث السيد «زانو» وطلب من القاعة التصفيق، وبهذا أعفاني من إحراج الوقت، وكان هذا الموقف بداية المعرفة الشخصية بيني وبينه.

وعبْر القاهرة، كنا نتعامل مع أفريقيا الثائرة، وعبرها قاطعنا النظام العنصري في جنوب أفريقيا وغيرها، وساندنا الأفارقة في نضالاتهم من أجل التخلص من الاستعمار المباشر من قبل الدولة الغربية، ومن أجل الحصول على الحرية والعدالة، وإقامة دولهم الوطنية الحرة والمستقلة، ومنها دولة زمبابوي

(روديسيا) وموزمبيق وأنجولا وإريتريا وجنوب أفريقيا وغيرها. ولم تكن «القاهرة» عاصمة العرب الأفريقية فحسب، بل وقبلها كانت عاصمة «الوحدة العربية»، فمنها انطلقت جامعة الدول العربية عام 1946م، والتي يوجد مقرها في ميدان التحرير، وهو ميدان المدينة الرئيس، ومنها انطلقت الفكرة، ومنها انطلق نداء الوحدة، في وقت كان فيه موضوع الوحدة العربية يتسم بالعفوية والضبابية، ثم جاءت القاهرة كعاصمة لأول دولة عربية موحدة «الجمهورية العربية المتحدة»، بقيام الوحدة بين سوريا ومصر، وكانت هذه التجربة، إحدى التجارب المريرة التي مرت بها الوحدة العربية، إلا أنها عكست الإرادة العربية القوية في وحدة الأمة، التي كانت عبارة عن مناطق محتلة ومجتمعات بدوية مشتتة.

ورغم فشل التجربة الوحدوية الأولى، إلا أن القاهرة لم تستسلم لليأس، وبقيت حاملة اسم الجمهورية الوحدوية الأولى، وانتقلت إلى مرحلة جديدة من السعي نحو هدف الوحدة العربية، في واقع امتزج فيه الشعور الوطني بالشعور القومي العفوي، المرتبط بحركة التحرر العربية والعمالية، والناتج الأيديولوجي المشوه لانقسام العالم إلى معسكرين، اشتراكي ورأسمالي. أضف إلى ذلك أن الانقلابات والمؤامرات والتدخل في الشؤون الداخلية وتصدير الثورات، هي السمة التي غلبت على العلاقات بين الدول في تلك المراحل التاريخية السابقة. ومع وجود كل هذه العوامل المعيقة للوحدة العربية، إلا أن تيارها تقوى أكثر فأكثر، بوجود عدة اتجاهات وحدوية عربية، يمكن تلخيص أهمها بالاتجاهات التالية:

الاتجاه القومي العسكري ذو العقلية الانقلابية، المعتمدة على إمكانية بناء الوحدة العربية بالقوة والتصدير من خلال الانقلابات، وتصدير الثورات واحتكار الوطنية والثورية وتوجيهها نحو الوحدة.

. الاتجاه العقلاني المتزن: وسار ويسير هذا الاتجاه بخطى ثابته لتحقيق وحدة عربية تدريجية وهادئة، بعمل هادف وعقلاني، ويمثلها . هنا . تجربة مجلس التعاون لدول الخليج العربية، والذي تأسس عام 1981م.

. الاتجاه القومي العاطفي: تمثل في تجربة بناء الوحدة المباشرة بين جهازي دولتين (الجمهورية العربية المتحدة) بين مصر وسوريا، والتي لم تدم سوى عامين أو ثلاثة، ثم فشلت، وأكبر خطأ ارتكبته هذه المدرسة، هو التسرع في قيام الوحدة، وعدم مراعاة العوامل الموضوعية الثانوية، مثل العامل الجغرافي، كمثال هنا، كما هو الحال في الوحدة اليمنية التي تعرضت للتدمير بعد 4 سنوات من قيامها سلمياً بين الشطرين في حرب 1994م، والاتجاهات الوحدوية العربية المذكورة التي بعثتها وأثارتها القاهرة منذ البداية. ثم عمقتها مضموناً، ووسعتها انتشاراً، لا تزال عائشة حتى الآن، رغم ما واجهته وما شهدته من انتكاسات وإحباطات ومحاولات فاشلة. ويمكن لها الاستفادة من تجارب الماضي الكثيرة، والمهم أنها عاشت ولم تمت.

والمشكلة أنه في كل هذا النسيج الوحدوي العربي، لا تمثل جامعة الدول العربية، التي أنشئت عام 1946م، اتجاهاً قائماً منفصلاً بحد ذاته، إذ تعتبر جامعة الدول العربية، مجرد هيئة تنسيق بين الدول العربية حتى الآن، ولذا، يعتبر موقف الجامعة من الوحدة العربية، خليطاً من الاتجاهات الثلاثة المذكورة، وأقول هذا القول عن تجربة عملية، كوني حضرت اجتماعات كثيرة لمجالس الجامعة العربية على مستوى وزراء الخارجية، والتي انعقدت في الفترة 1979 – 1982م.

وبعد تحقيق الوحدة اليمنية في 22 مايو 1990م، وحين أصبحت في سلطة دولة الوحدة عضواً في مجلس رئاسة الدولة، زرت القاهرة مع الرئيس علي عبد الله صالح، وذلك لحضور قمة جامعة الدول العربية المنعقد في حالة

استثناء، لمناقشة غزو العراق للكويت (9 – 10 أغسطس 1990م)، وهو المؤتمر العربي الأخير الذي لم يتعافَ الوضع العربي من بعده حتى الآن.

توجهت إلى القاهرة في مساعٍ دبلوماسية عربية، لمحاولة احتواء تصاعد الأزمة السياسية، بعد فشل الجهود السابقة التي أثمرت توقيع وثيقة العهد والاتفاق بين الأطراف اليمنية في عمان الأردن في نهاية عام 1993م، والتقيت بالرئيس حسني مبارك، والسيد عمرو موسى وزير الخارجية، وتحادثت معهما من أجل حشد المواقف العربية، من أجل وقف نذير الحرب في اليمن، دون جدوى، كما زرت القاهرة أيضاً في منتصف شهر يونيو 1994م، عضواً في مجلس الرئاسة في الجمهورية اليمنية، بهدف إجراء مفاوضات لإنهاء الحرب في اليمن، مع وفد جاء من صنعاء، لكن التفاهم لم يتم بين الوفدين، لأن الوفد الذي جاء من صنعاء، كان يتصرف وفقاً لما حققته صنعاء في ميدان المعارك ضد الأهل والإخوة والأشقاء.

وفي هذه الزيارة، التقيت أيضاً بعدد من المسؤولين المصريين، وبالسيد الأخضر الإبراهيمي، الذي أُوفِد من قبل الأمم المتحدة إلى اليمن أثناء الحرب الأهلية، وكانت لي مشاورات خلال الزيارة مع عدد من الإخوة المسؤولين اليمنيين، الذين قدموا من صنعاء، أو الذين كانوا موجودين في القاهرة من قبل. وقبلها بنحو أربعة أعوام، تعرفنا إلى فخامة الرئيس حسني محمد مبارك، عندما زار صنعاء، مباركاً لليمن وحدته المحققة في هذا الزمن الصعب، وكنت – يومها – مع الرئيس علي عبد الله صالح، مرافقاً لهما في السيارة التي أقلتنا من تعز حتى عدن، وعندما وصلنا إلى دار الضيافة في المعاشيق (كريتر – عدن)، خرج الرئيسان إلى شرفة القصر المطلة على البحر العربي، الذي يبدو من هناك على انخفاض وأخضر وأزرق اللون، وساكناً في جمال يصعب وصفه، فأظهر الرئيس حسني مبارك إعجابه بالمنظر، وكذا إعجابه بطريقة تحقيق الوحدة اليمنية. وكان

رد الرئيس علي عبد الله صالح عليه إن «الفضل يعود إلى جهود الإخوان في عدن، وتفانيهم من أجلها، وإن الجميع آمنوا بما قاله الرئيس جمال عبد الناصر، وما قالته مصر العربية، من أن الوحدة العربية قدر ومصير الأمة، وأن الإلحاق بالقوة هو حامل تدمير الوحدة، كما حصل في تجارب مختلفة»، ذلك القول هو ما كررته في القاهرة رسمياً وإعلامياً وشعبياً في زيارتي تلك (يونيو **1994**م)، وحرب اليمن صيف **1994**م في أيامها الأخيرة، وكنت – يومها – أسعى جاهداً لإيقاف تلك الحرب في الوطن، والتي دمرت تجربة الوحدة اليمنية، وخلقت للوحدة ولليمن مصاعب جديدة إضافية، فوق ما تمتلكه من معضلات ومشاكل جمة. هذا جناه عليّ أبي .. وما جنيتُ على أحد.

إذا أردنا أن نواصل الحديث عن القاهرة كمدينة من زاوية رؤية سياسية، أو حتى زاوية رؤية تاريخية، فإنه لن تكفينا مئات الصفحات، بل إن ذلك سينسينا القاهرة بوصفها مدينة حضرية، وسننسى أيضاً أننا نتحدث في هذا الكتاب عن المدن، فالقاهرة كانت في منتصف القرن الماضي (قبل خروج الاستعمار البريطاني من مصر وبعده)، تعتبر نموذجاً للتمدن العربي الحديث، بعد فترات من التخلف والشتات للأمة العربية، أضف إلى ذلك أنها من أجمل مدن الدنيا من الناحية الطبيعية، فجمال القاهرة كمدينة، وجمال النيل كنهر، صنوان لا ينفصلان، ربما جاء هذا الترابط الجمالي والطبيعي منذ بداية تكوين المدينة، فموقع القاهرة على مقربة من نقطة انقسام نهر النيل إلى فرعين، مشكلاً دلتا النيل.

أصبحت القاهرة في عهد ثورة يوليو وما بعده، قِبلة المصريين أيضاً، كمدينة ناهضة تتوسع باستمرار وبمعدلات من أعلى المعدلات العالمية، بحيث صارت القاهرة القديمة نقطة صغيرة فيها، فهناك توسعات عمرانية مكثفة باتجاه الشرق مثلاً، بعد المدينة القديمة، ومن النماذج للأحياء الجديدة، حي مدينة

نصر وحي مصر الجديدة، اللذان يعتبران من أهم وأكبر وأرقى أحياء القاهرة، والمشكلة الأساسية في هذه المدينة، هي النمو السكاني المتصاعد، ونسبة القادمين إليها من أرياف مصر، والذين تصل نسبتهم إلى حوالي 30% من إجمالي السكان. ولذا، تعرف القاهرة بازدحام الناس فيها، وهي صفة جعلتها تتسم بالحركة وسرعة إيقاع الحياة فيها، ما يجعل الزائر لها يشعر بحيوية الحياة أيضاً. ويبلغ عدد سكان مدينة القاهرة اليوم نحو ثمانية ملايين، وهي أكبر مدن الشرق الأوسط وقارة أفريقيا من حيث حجم السكان، ومع ذلك، فإن القاهرة ونواحيها المكملة لها كمنطقة إدارية، والتي تسمى «القاهرة الكبرى»، تضم نحو عشرين مليون نسمة. وعموماً، الشعب المصري من أكثر شعوب العربية نمواً، فقد كان عدد سكان مصر عندما زرتها لأول مرة في عام 1970م تقريباً 25 مليون نسمة، وهم اليوم يزيدون على سبعين مليون نسمة.

القاهرة هي كذلك مدينة سياحية من الطراز الأول، فلا تضاهيها مدينة عربية من حيث كثر الخيارات السياحية التي تضعها أمامك لتمضية الوقت؛ فإلى جانب السياحة المتنوعة في نهر النيل، فهناك المواقع الأثرية الإسلامية، مثل قلعة صلاح الدين الأيوبي، والأحياء الشعبية التاريخية، مثل خان الخليلي وحي السيدة زينب، ومنها مرافق سياحية بُنيت في عهد جمال عبد الناصر، مثل برج القاهرة، الذي يصل ارتفاعه إلى ما يقارب المئتي متر، والواقع في جزيرة الزمالك داخل نهر النيل، والذي تم بناؤه عام 1960م بشكل زهرة اللوتس المصرية، ومرافق بُنيت في عهد الرئيس محمد حسني مبارك، ومنها «متحف 6 أكتوبر» الدائري الشكل والشاشة، حيث تقف في وسط المبنى لترى ما حولك كله شاشة تعرض لك معارك (بالصورة والصوت) من حرب 6 أكتوبر 1973م، وهي الحرب التي حرر فيها الشعب المصري سيناء، ولعل أجمل ما في هذا العرض السينمائي، هو اقتحام خط «بارليف»، الذي أقامه الإسرائيليون على

الجانب الشرقي من قناة السويس، لكن المصريون دكّوه واقتحموه خلال معارك خالدة، إذ تشعر وأنت داخل معرض 6 أكتوبر السينمائي، أنك أحد هؤلاء الأبطال، تقتحم معهم الخط الترابي المنيع.

ليست القاهرة – بالنسبة لنا – سياسية فقط، أو سياحية فقط، بل هي أيضاً مركز ثقافي عربي، وملتقى للمثقفين العرب، والمركز الوحيد لصناعة السينما في العالم العربي، وفيها مهرجان سينمائي دولي باسمها، ينعقد سنوياً، وكذلك معرض القاهرة الدولي للكتاب، بل وتتعدى كل هذه الصفات كثيراً، لأنها مدينة مؤثرة في عقولنا وقلوبنا، وليس عبد الناصر وحده هو وجه مصر والقاهرة، فلمصر والقاهرة وجوه كثيرة، بل إن أم كلثوم ومحمد عبد الوهاب وعبد الحليم حافظ وفريد الأطرش وفريد شوقي وعمر الشريف ومحمود المليجي ونور الشريف وعادل إمام وفاتن حمامة وسعاد حسني، وعشرات ومئات الوجوه من الممثلين والفنانين المشهورين، دخلوا قلوبنا وحياتنا، وأصبحوا جزءاً من مكوناتنا الثقافية والفكرية.

هذا هو تفاعلنا في القرن العشرين مع القاهرة، وهو ما نأمله لها في القرن الحادي والعشرين، ومع ذلك، فإن القاهرة من أكثر مدن الدنيا احتواء للآثار والمواقع الأثرية – وخاصة ما قبل الإسلامية منها – ففي محيط مدينة القاهرة، تكتمل مواصفات المدينة ووسائل التعلق بها، فعلى بعد أقل من عشرين كيلو متراً، توجد في منطقة الجيزة، الإهرامات الفرعونية الثلاثة، أشهر الآثار العالمية على الإطلاق، هذا إلى جانب عشرات المتاحف، وفي مقدمها، أكبرها: المتحف الوطني، الواقع في ميدان التحرير وسط القاهرة، وعلى بعد مئات الأمتار من مقر جامعة الدول العربية، وتشكل آثار القاهرة هذه أهم عامل يجتذب ملايين السياح من جميع أنحاء العالم، ويدر على البلاد عوائد هائلة من العملات الصعبة، تقدر ما بين 3 – 5 مليارات دولار سنوياً. وهي تستحق هذا وأكثر

منه، لكن بعض الأحيان، يظهر لك طفيليو السياحة، منهم الكبار ومنهم الصغار.

شهدت القاهرة في العقد الأخير من هذا القرن، تغييرات هائلة في جهاز السلطة والدولة، واعتقل الرئيس محمد حسني مبارك، وحاول الإخوان المسلمون الاستيلاء على السلطة، بمجيء الدكتور محمد مرسي رئيساً لمصر لسنة واحدة فقط، وقام الجيش المصري، وهو المؤسسة الوطنية المعروفة، ليعيد السلطة إلى رحاب غير رحاب «السلطة الدينية»، وجاء عبد الفتاح السيسي رئيساً لمصر، نقول الله يعينه ويعين الأمة العربية بكاملها لتجاوز محنها القائمة في أكثر من بقعة فيها.

الكويت

الكويتيون، إلى جانب ما يتصفون به كشعب عربي أصيل، فإنهم يتصفون بالذكاء والثقافة، قابلت أثناء زياراتي لمدينة الكويت منذ عام **1970**م وحتى عام **1998**م، عدداً كبيراً منهم، ابتداء من سمو أمير البلاد،

ومروراً بالأمراء والوزراء والمسؤولين والمفكرين والمثقفين، وانتهاء بالمواطنين العاديين. إن ما يبقى في ذهنك وذاكرتك من عموميات لمثل هذه المقابلات، هو أن أبناء الشعب الكويتي، لديهم مستوى عالٍ من الفهم والإدراك والحكمة. وهذه الخصال ظهرت مبكرة في أن يحافظ هذا البلد الصغير، الواقع على الخليج العربي، على هويته الوطنية المستقلة، في منطقة توجد فيها دول كبيرة، وتتهافت عليها الدول العظمى العالمية، كما أن الكويتيين يجيدون التعامل مع الاقتصاد، فهم قد استفادوا حقاً من ثرواتهم؛ فبعد ظهور النفط واستخراجه عام **1946**م، حدثت نقلة نوعية وكمية كبيرة في اقتصاد البلد، وفي عمران مدينة الكويت، وكل وضعها العام، بما فيه مستوى حياة المواطنين.

والدليل الواضح على ما ذكرناه أعلاه، هو سرعة تعافي الاقتصاد الكويتي بعد الغزو العراقي الصدامي للكويت عام **1990**م، حين دمرت مدن الكويت، والأحمدي، والشويخ، وحولي، وغيرها من المدن والأحياء جزئياً من ناحية المباني والبنى التحتية، ولكنها من حيث الآلات والمعدات والأجهزة ومتطلبات التجهيزات والمخزونات المتنوعة، دمرت تدميراً شبه كامل. وأعتقد أن ذلك – إلى جانب إزاحة العدوان نفسه – كان سيصبح من المستحيل، لولا السياسات التي كانت متبعة قبل حدوث هذه الكارثة، ومن الأمثلة، أن الكويتيين هم من أول المستثمرين العرب في الخارج، حين أقاموا شركاتهم هناك،

وعلى الصعيد الداخلي، مثلاً، فقد كانت التعاونيات الاستهلاكية تجربة في الكويت (وما زالت)، راقية وواسعة، من قبل قيام تجربة مثلها في «اليمن الديمقراطية»، التي انتهجت حينها ما سُمّي بالتوجه الاشتراكي، والتي تعتبر التعاونيات من أساساته.

شتان ما بين الأمس واليوم، ليس فقط على مستوى ما حققته الكويت في نموها ورقيها وتطورها واستقرارها، ولكن أيضاً في مجال علاقاتها مع العالم الخارجي والدول الأخرى، وهو مجال شهد الكثير تارة بالاتجاه الإيجابي، وتارة أخرى بالاتجاه السلبي، وأقصد – هنا – تحديداً، العلاقات اليمنية الكويتية؛ فحين زرت الكويت لأول مرة عام **1970**م، لتوقيع اتفاقية تمويل «صندوق التنمية الكويتي» لـ«مشروع دلتا أبين»، كانت العلاقة بين البلدين، بالرغم من اختلاف طبيعة النظام السياسي والظروف الدولية السائدة آنذاك، أشبه ما تكون بعلاقة خاصة إيجابية، تسودها المحبة والتفاهم، وعدنا إلى الكويت مراراً وتكراراً، إذ كانت الكويت تمثل بالنسبة لنا رئة من رئات التنفس العربي، حيث وجدت عدن نفسها في الكويت، ليس لأن لها جالية كبيرة هناك، ولكن أيضاً، لمواقف الكويت المعتدلة، التي تضع للصلة القومية العربية قيمة فوق كل الاعتبارات؛ فقد كانت العلاقات مع المملكة العربية السعودية وسلطنة عمان مقطوعة حينها.

وكانت الكويت، شعباً وحكومة، أكثر دول الخليج تفهماً لانتهاج عدن للنظام الجمهوري والمواقف المترتبة عليه، كما أنها لعبت أدواراً كبيرة في دعم حركة التحرر العربي، وبالذات دعم القضية الفلسطينية، فمنها خرج أبو عمار وغسان كنفاني، وكان لحركة القوميين العرب والبعثيين والناصريين العرب، فروعهم العلنية النشطة في الكويت، أضف إلى ذلك، أن الدكتور أحمد الخطيب وسامي المنيس وعبد الله المنيباري، وجماعة فرع حركة القوميين العرب في

الكويت، كان لهم الفضل في استقطاب عناصر من أبناء جنوبي اليمن والمناطق الوسطى في اليمن إلى صفوف الحركة، أولئك الذين عاشوا وعملوا وتعلموا في الكويت، ثم عادوا في فترات معينة إلى اليمن، ليسهموا بدورهم النضالي في تحرير عدن من الاستعمار البريطاني. ومن أبرزهم: علي أحمد ناصر عنتر (قائد جبهة الضالع وزير الدفاع في ما بعد الاستقلال)، وحسين محمد قماطة (المسؤول الحزبي لمنطقة يافع السفلى بعد الاستقلال، وقائد المليشيا الوطنية)، ومثنى سالم عسكر (أحد قادة جبهة ردفان ونائب وزير الدفاع لاحقاً)، وحسين عوض اليزيدي، وناجي محسن من المنطقة الوسطى (إب)، ومحمد سالم عكوش من المهرة، وأعضاء اللجنة المركزية للحزب الاشتراكي اليمني، وعشرات القادة الذين يكنون للكويت الحب والتقدير، وكانت الكويت، أيضاً، بصحفها، وخاصة صحيفة «الطليعة»، والديوانيات والأندية المختلفة، تقدم تبرعات سخية لعدن أثناء النضال التحرري من أجل خروج الإنجليز من جنوبي اليمن المحتل.

وبعد الاستقلال الوطني لجنوبي اليمن، كانت الكويت المبادرة في نسج علاقات مع عدن ومع صنعاء، وقدمت لهما هبات المشاريع المجانية، مثل بناء المدارس والمستشفيات العامة، وكذا، قدمت المساعدات والقروض القيمة في مختلف المجالات الأخرى، لذا، فليس من العجب أن تقلد عدن وسام 14 أكتوبر، أعلى وسام رسمي حينها، لسمو الشيخ جابر الأحمد الصباح، وتضعه على صدره، عندما زار عدن في مطلع الثمانينيات، حيث كانت العلاقة اليمنية – الكويتية في أوج ازدهارها ومتانتها، حتى تمت الوحدة اليمنية، التي أيدتها الكويت بكل حب وقوة.. وقبلها، وفي الكويت، وبعد الحرب بين الشطرين عام 1979م، وقعت اتفاقية الوحدة بين رئيسَي شطري اليمن، علي عبد الله صالح وعبد الفتاح إسماعيل، وكانت أساساً لوقف الحرب والتوتر بين الشطرين، والتي

لعبت الكويت، بحكم علاقاتها الجيدة مع جنوبيّ اليمن وشماليّه على حد سواء، دوراً في إخماد أوارها، وتجنب نتائجها الخطيرة على الوطن.

وبعد تحقيق الوحدة اليمنية، وفي وقت لم يمضِ فيه سوى شهرين فقط على هذا الحدث التاريخي السعيد، يمنياً وعربياً، وحين كنا في اليمن ما زلنا نحتفل بهذا العرس المجيد، إذا بالزلزال المؤلم (الغزو العراقي الصدامي للكويت)، يخيم، سوءاً على المنطقة، ويحدث تلك التداعيات الكبيرة والخطيرة التي شهدتها المنطقة العربية، بشكل انقسامات وخلافات وشروخ جسيمة في الصف العربي، بما فيها التداعيات التي حدثت في اليمن ومواقفه، والتي دفع وطننا اليمني – وخاصة عدن – ثمنها، وما زالت تلك التداعيات تسحب نفسها على الوضع والعلاقات الثانوية حتى اليوم، ونحتاج إلى سنوات قادمة لنزيل آثارها السلبية.

وإذا كان تحرير الكويت وعودته إلى أهله وشعبه، قد تم بعون أمريكا ودول الغرب سريعاً؛ فإن الكويت تغيرت سياسياً ومعنوياً نفسياً وفكرياً؛ فالكويت التي كانت كبيرة بكبر مواقفها، وليس بأموالها، جعل منها الغزو وما خلفة من ندوب، تنكفئ على نفسها، فعندما قابلنا سمو الأمير الشيخ جابر الأحمد الصباح في عام **1994**م، لاحظنا مدى تلك الندوب التي خلّفها العدوان، ومدى انفراد الأمريكان بالموقف – نتيجة لدورهم في حرب إعادة سيادة الكويت – وهو الانفراد الذي جعلهم يقدمون على احتلال العراق.. وفي هذا اللقاء، لاحظنا أنه بدا على سمو الشيخ جابر – رحمه الله – الانزعاج – وما هو فوق العتاب – من موقف اليمن الرسمي تجاه غزو العراق لدولة الكويت، ومع كل ما دار وما حصل في الواقع، فقد أوضحنا أن اليمن بعد الوحدة وقبل الوحدة، تُكِنّ لدولة الكويت وشعبها كل الحب والاحترام، وأن ما حصل من مواقف، سببها تداخل وتشابك المسائل داخل كل قطر عربي ودولي، بالإضافة إلى أن العلاقات الشخصية بين القيادات العربية، هي التي

تتحكم بالمواقف السياسية العربية في معظم الأوقات، وبعد ذلك الوقت، عادت العلاقات الدبلوماسية بين اليمن والكويت، ولكن ليس بنفس الوتيرة التي كانت عليها قبل **2** أغسطس **1990**م، أو حتى قريبة من ذلك المستوى.

كانت آخر زيارة لي إلى الكويت، وآخر لقاء لنا مع الشيخ صباح الأحمد وزير خارجية دولة الكويت في عام **1996**م؛ فوجدنا أن ذاكرة الكويت لم تنس ما تعرض له البلد من عدوان، وكذلك كان للقيادة الكويتية موقف واضح مما دار في اليمن في حرب صيف عام **1994**م، الأمر الذي جعل الكويت، التي كانت تصدر أفكار الوحدة العربية وتدعمها، تنظر بحذر وشكّ إلى كل دعوة من الدعوات القومية والقطرية للوحدة، مهما اتخذت من تسميات، وهي ليست لوحدها في ذلك، بل تشاركها جماهير واسعة في المنطقة العربية، أدركت أن الدعوات الخاصة بالوحدة التي تأتي من الأعلى، هي دعوات إلحاقية غير صادقة، تسيء وأساءت إلى الوحدة العربية، التي ينبغي أن تتم من الأسفل إلى الأعلى، عبر تفعيل المؤسسات القائمة الآن، مثل: جامعة الدول العربية، والسوق العربية المشتركة، ومجلس الوحدة الاقتصادية العربية. والتي أصبحت غير فعالة، بعد كل ما حصل للكويت، وما حصل بعدها من حصار للشعب العراقي، وما ترتب على تلك الأحداث من انقسامات حادة في الموقف العربي بشكل عام.

إن ما حدث في التسعينيات من القرن العشرين المنصرم في المنطقة (شبه الجزيرة العربية والعالم العربي) – كمحصلة للغزو العراقي للكويت – كانت نتائجه أليمة ومفجعة لجيل ومرحلة بكاملها. بما فيه نحن القادمون من عدن، والذين آمنا بالوحدة وحققناها فعلاً، ثم أصبنا بارتداد المدافع الخليجية والعربية على مواقف صنعاء المتخاذلة من حرب الخليج الثانية، ثم أصبنا ثانية بمدافع إخوتنا الذين وحّدْنا معهم اليمن، ثم أصبحنا موزعين على مدن الشتات العربي،

بعد كل ما حصل من تداعيات شهدتها اليمن في حرب عام **1994**م. لكن الأمل لم نفقده بعد، وما زال هو الخيط الذي يربطنا بالمستقبل. وإن ما لمسناه عند زياراتنا الأخيرة إلى دولة الكويت الشقيقة في أعوام **1994**م، **1996**م، **1998**م، وسمعناه من إخوة كويتيين كثر – أمراء ومسؤولين ومثقفين – جعلنا ويجعلنا نثق بقدرة الشعوب العربية على تجاوز محنها، والتعلم من أخطائها الكبيرة، والخروج من دائرة العقد النفسية والاجتماعية والسياسية التي خلفتها ندوب حرب الخليج الثانية، وندوب حرب اليمن الأخيرة، لتجد الأمة نفسها بثقة، من خلال القيام بأعمال وإنجازات جديدة كبيرة.

ما أعجبني كثيراً أثناء زياراتي كلها للكويت، هو حب الكويتيين لعدن ولليمن، وعلى مختلف مستوياتهم؛ فعلى الصعيد الرسمي، استعادت العلاقات اليمنية الكويتية عافيتها الآن، إلى حد ما، وتقوم حكومة الكويت بتمويل عدد من المشاريع التنموية في الجمهورية اليمنية، ومنها، بناء كلية عليا ومستشفى في جزيرة سقطرى، كما قدم الصندوق الكويتي للتنمية، عدة قروض ميسرة لليمن، وغيرها من أشكال الدعم الأخوي الكويتي. أيضاً، فإن حب الكويتيين لعدن ولليمن كلها، انعكس وينعكس في أمور كثيرة ومتنوعة أخرى، وعلى سبيل المثال، فقد قابلت الدكتور أحمد الربعي – رحمه الله – مجدداً في الكويت، في إحدى زياراتي لها بعد حرب عام **1994**م، وهو الشخصية المعروفة التي تقلبت به الأزمة من حمل السلاح إلى السجن إلى جامعة هارفرد، إلى المناضل، إلى الوزير، إلى المفكر والفيلسوف، وكنت أعرفه من قبل، عندما حضر مؤتمر الحزب الحاكم في عدن في الثمانينيات، وألقى كلمة في استاد الحبيشي الرياضي بمدينة كريتر عدن، وكان لكلمته يومها أثر كبير في نفوس الكثير من العرب واليمنيين في نضالهم من أجل مستقبل أفضل، وكانت آخر المقابلات معه، تلك المذكورة، وكان معنا الإخوة: عبد الرحمن الجفري وعبد الله الأصنج، والشيخ

محسن بن فريد العولقي، والتي طرح خلالها أفكاراً وتحليلات لها أثر فعال في رؤية المعارضة اليمنية في الخارج في ذلك الوقت، فهي قد قلبت مواقفها، حين أوضح الدكتور الربيعي – رحمه الله أن «الزمن قد تغير، ولم يعد التصريح أو إرسال الفاكسات والكاسيتات والخطابات، هو عمل المعارضة، بل يجب أن تقوم المعارضة بالتعامل مع الواقع والانخراط بين الناس والمواطنين، ومعالجة همومهم وقضاياهم، واستخدام تقنيات العصر، كالفضائيات وغيرها»، ومن وحي ذلك اللقاء، جاءت فكرة عودة المعارضة اليمنية التي خرجت جراء حرب عام **1994**م، إلى الوطن.

ولا يسعني هنا أن أتذكر كل ما شهدته وسمعته وعشته من وفي الكويت، وربما أتمكن من ذلك في مذكراتي التي بدأت أعدها، ولكن، وطالما أني ذكرت رجلاً كويتياً وطنياً واعياً ومبدعاً، كنموذج للرجال الكويتيين الذين وقفوا معنا أو عرفناهم، فلا بد لي من الإشارة أيضاً أن كل ما ذكرته من صفات حميدة ورائعة يتمتع بها الكويتيون، شاملة للنسوة الكويتيات الكريمات، اللاتي حصلن أخيراً – قبل عامين – على حقهن في الترشح في الانتخابات، وهنا، أذكر أنني أثناء إحدى زيارتي الأخيرة إلى الكويت، قابلت واحدة من ألمع النساء الكويتيات اللاتي تعرفت إليهن، وهي المرأة ذات الشخصية القوية، والشاعرة الأميرة الكويتية، الدكتورة سعاد الصباح، التي لها مكانة مرموقة في الحياة السياسية والثقافية، ليس في الكويت فحسب، بل وفي المنطقة العربية ككل، وهي التي قالت بإباء قومي:

صعب على الأحرار أن يستسلموا

قدر الكبير أن يظل كبيرا

ومع كتابة هذه الأبيات، أقول إن الكويت كان في الماضي كبيراً. وهو في الحاضر كبير، وسيظل كذلك إلى الأبد.

الجزائـر

تقع على شاطئ البحر الأبيض المتوسط، في منتصف الطريق الساحلي الذي يربط كلاً من تونس شرقاً، والمغرب غرباً، وتنتشر مبانيها وأحياؤها التي يغلب عليها اللون الأبيض على مساحات الشواطئ المتعرجة هنا وهناك.

وعلى منحدرات مجموعة من التلال المطلة على البحر، وفي المنحدرات الأعلى، تجد مساحات كثيفة مغطاة بالأشجار الخضراء، وفي بعض الأنحاء يتداخل البناء والخضرة، حتى يُحسم ذلك لصالح المباني، التي تواصل انتشارها حتى محاذاة الشواطئ الناعمة الجميلة.

كنا في مطلع الستينات من القرن الماضي، نرى مشاهد من مدينة الجزائر في التلفاز العادي (بلونيه الأبيض والأسود)، شوارع وبيوت وأشجار ومظاهرات صاخبة، وأحياناً مشاهد من معارك حية أو بقايا آثارها بين الثوار الجزائريين والجنود الفرنسيين، كانت ثورة الجزائر تلهب مشاعرنا الوطنية والتحررية، ونحن لا نزال في يفاعة شبابنا في عدن؛ فقد كانت الجزائر ومصر عبد الناصر، باعثين حقيقيين على إثارة أبناء عدن وبقية مناطق جنوبي اليمن المحتل، على بدء النضال الوطني، وكانت صور المناضلين، أمثال أحمد بن بيلا وجميلة بو حريد، معلقة في كل محل تجاري أو معمل أو منزل. هكذا عرفنا الجزائر في البداية، وأحببناها منذ تلك الأيام دون حدود.

ضحت الجزائر بنحو مليون شهيد، وسميت بهؤلاء (ثورة المليون شهيد)، وكان حجم التضحية هذا ناتجاً عن سياسة «فرنسة المجتمع الجزائري»، ومن مظاهرها، سيادة اللغة الفرنسية في البلد، وبعد أن أصبحت الجزائر دولة وطنية مستقلة عام 1962م، نهجها الحرية والعروبة، صارت سنداً قوياً للفصائل

والتنظيمات التي تناضل من أجل الحرية والاستقلال في عالمنا العربي، وفي مقدمها مناضلو جنوبي اليمن المحتل، حيث قدمت الجزائر دعماً للنضال التحرري الذي خاضه شعبنا من أجل إنهاء الاستعمار البريطاني، بدأ بتدريب مجموعات من الفدائيين، ثم بمساعدتنا سياسياً، بتنصيب الأخضر الإبراهيمي ليكون مستشاراً لوفد الثوار المفاوضين القادمين من ساحة المعركة في عدن، برئاسة قحطان محمد الشعبي، لمفاوضة الوفد البريطاني في جنيف، وظل كذلك حتى تم الحصول على الاستقلال الكامل والناجز لشعبنا.

زرت مدينة الجزائر أو «البهجة»، كما يفضل أهلها تسميتها، لأول مرة في بداية السبعينات، وكان ذلك أثناء تولي منصب سكرتير العلاقات الدولية (الخارجية) للتنظيم السياسي الموحد الجبهة القومية (الحزب الحاكم في عدن آنذاك)، وبهدف تقوية العلاقة بين البلدين، وبين جبهة التحرير الجزائرية، وتنظيم الجبهة القومية، وكانت تلك العلاقات منذ عشية الاستقلال وقيام جمهورية اليمن الجنوبية الشعبية قوية ومتينة، وتمثل ذلك في اتخاذ المساعدات الجزائرية أشكالاً متطورة سياسياً واقتصادياً، بل وكانت أول شركة دخلت جنوب الوطن اليمني بعد الاستقلال، للتنقيب عن النفط، هي شركة جزائرية (سنتراك)، أما مساعدات الجزائر للنظام الجمهوري في الشمال، فهي كثيرة ومتنوعة، وستظل محفورة في أذهان الشعب اليمني، فرغم البعد الجغرافي الكبير بين البلدين، إلا أن الجزائر اختصرت هذه المسافات تجاه اليمن، بمواقفها الحميمة المساندة.

وبعد عامين تقريباً، جاءت زيارتي الثانية لمدينة الجزائر، عندما كنت عضواً في الوفد الذي حضر مؤتمر القمة العربية، الذي انعقد هناك في نهاية شهر نوفمبر **1973**م، وكان رئيس الوفد، الرئيس سالم ربيع علي، وفي هذا المؤتمر، ونتيجة للأجواء الطيبة التي وفرها الإخوة الجزائريون للوفود، جرت لقاءات عديدة مع الوفود الأخرى، ما أدى إلى تحسين وتلطيف علاقات اليمن

الديمقراطية مع عدد من الدول العربية، وأذكر أن أهم لقاء كان بين الرئيس سالمين والملك فيصل ملك المملكة العربية السعودية – رحمهما الله – لأنه لم تكن هناك علاقات دبلوماسية بين البلدين حتى ذلك الوقت، ولكن أسهم هذا اللقاء في البدء في العام التالي، في إجراء اتصالات مكثفة بين الجانبين، أدت إلى إيجاد علاقات ثنائية.

وتوالت زيارتي إلى الجزائر عند تقلدي منصب وزارة الخارجية في عام 1980م، حيث تعرفت عن قرب إلى عدد من الإخوة الجزائريين، ومنهم الأخ الرئيس عبد العزيز بوتفليقة، الذي شغل حينها منصب وزير الخارجية الجزائري، وأثناء زيارتنا المتكررة إلى الجزائر خلال الفترة الماضية، كانت أدواره ومناقبه الطيبة، موضع ذكر دائم من قِبَل من خلفوه في رئاسة الخارجية الجزائرية، ومنهم الدكتور أحمد طالب الإبراهيمي، والمغفور له محمد بن يحيى وزير الخارجية الجزائري السابق، الذي استشهد في الحرب العراقية – الإيرانية، عندما أسقطت طائرته وهو يقوم بدور الوساطة بين الطرفين المتحاربين، العراق وإيران، وآخرهم الرئيس الأمين زروال، الذي يشع من عينيه صدق القول والفعل، ولم يخلّ بالوعد الذي قطعه على نفسه في ترك السلطة لتجنيب الجزائر أي محن أو تحديات أو أزمات.

وقد كنت مسروراً بمقابلة فخامة الرئيس الأمين زروال في زيارة للجزائر، التي تمت في منتصف عام 1994م، في مدينة الجزائر، بعد انتخابه مباشرة رئيساً للجمهورية، حيث تبادلنا الآراء في جو من الألفة والتفاهم والود الصادق. فقد شرحت له ما تعانيه الوحدة اليمنية من مأساة، بسبب حرب صيف عام 1994م، التي انقسم فيها الموحدون وحاربوا بعضهم بعضاً بضراوة، وأننا ما زلنا منذ ذلك الوقت، نحصد النتائج السلبية لتلك الحرب الأهلية. وحدثني فخامته عن هموم الجزائر في البناء والتطور، والتي هي أقل بكثير من هموم

اليمن، ولم أكن أتوقع أن يواجه الجزائريون ذلك الكم الكبير من المشكلات في الجزائر من اضطراب سياسي، ونمو ظاهرة الإرهاب، والمشكلات الاقتصادية.

إن مدينة الجزائر بسكانها، البالغ تعدادهم حوالي 4 ملايين نسمة، أي حوالي عُشر سكان الجزائر، تمثل وجه الجزائر البلد، وقلبها الذي لا يكف عن الخفقان، وإن زرتها، ستجدها ورشة عمل دائمة، تصبو كل يوم إلى المزيد والمزيد من التقدم والرخاء، وحقيقة، تتوفر كل مقومات التطور والتقدم لدولة الجزائر، ولكنها أصبحت تعاني من الإرهاب، كعامل أول معيق للاستقرار السياسي والنمو الاقتصادي، بل إن هذه الظاهرة تمس أساس حياة المواطن الجزائري، والبعض يعلل بروز هذه الظاهرة السلبية المدمرة، بعوامل التخلف وعودة الفكر المتخلف، والبعض الآخر يبررها بالتخريب الخارجي القادم من الخارج، بل إن هؤلاء يذهبون إلى حد ربط نشوئها في البدايات بالمخابرات الغربية التي استخدمت التيارات المتطرفة في محاربة المعسكر الاشتراكي السابق، الذي اختفى من ذات نفسه أساساً، بينما نمت تلك التيارات المتطرفة الإرهابية بعد انهياره واختفائه، وما زالت تنمو حالياً.

ضمن سياق الحديث عن الأوضاع الجزائرية وغيرها من الأقطار العربية، لا بد من القول إنك حتماً تجد آراء مخالفة أو معارضة، عندما يدور الحديث عن ظاهرة الإرهاب، وعودة القوى الظلامية، وهي ظاهرة عادت بقوة في الجزائر، ولدى عدد من الإخوة الجزائريين من هم في الخارج، آراء مختلفة عن تأجج ظاهرة الإرهاب وعودة القوى الظلامية، وتقييم الأوضاع في عالمنا العربي، وأذكر هنا أنني التقيت قبل أعوام قليلة في دبي، صديقي الجزائري الصادق بو قطاية، عضو سابق في المجلس الوطني الجزائري، وكان رئيس لجنة العلاقات الخارجية في المجلس، وهو سياسي مخضرم، ناضل طويلاً في صفوف الثورة الجزائرية، وشغل مسؤوليات دبلوماسية عالية، وتجاذبنا أطراف الحديث عن مواضيع قديمة

ومواضيع جديدة، احتوت على ذكريات مشتركة في العمل الدبلوماسي العربي والدولي، وقادتنا الأحاديث المذكورة، إلى الحديث عن سبب ما يعيشه عالمنا العربي من ظاهرة انتشار الإرهاب وعودة القوى الظلامية، وغيرها من أوضاع سيئة وفتن داخلية؛ فقال لي إن السبب في ظهور الإرهاب كظاهرة أوسع بكثير عما كانت عليه في الماضي، والسبب في عودة التطرف اليميني ونفوذ القوى الظلامية، هو الاستبداد الداخلي، ولجم الحرية، وتعميم الفساد، وتدمير الفئات الوسطى والمبدعين والمثقفين؛ فكل هذا قاد ويقود إلى العودة إلى عهود الظلامية السابقة، سواء الإرهاب أو العنف أو الصراع الدموي بين القوى السياسية أو بين الطوائف، كما أن الأسباب المذكورة تسببت أيضاً في العودة إلى عدد من العادات والتقاليد البالية، التي كان الزمن قد عفا عنها. وعندما اختتم الصادق بو قطاية حديثه وشروحاته عن مظاهر توسع الإرهاب والعودة الرجعية إلى عهود الظلامية في المغرب العربي الكبير، إذا به يسألني:

ـ هذه أحوال المغرب العربي. وكيف هي أحوال المشرق العربي الكبير؟.

تنهدت من أعماق صدري، وقلت له: يا صاحبي.. كلنا في الهم شرق.

تغيرت الأحوال في الجزائر خلال حكم الرئيس عبد العزيز بوتفليقة، وتحسنت داخلياً وخارجياً، وانخفضت حدة الإرهاب، وأصبحنا نأمل لأشقائنا في الجزائر كل الخير.

بغـداد

بغداد، هي البوابة الشرقية للعالم العربي، الذي لا ينسى أي عربي أبوابها الأربعة (باب البصرة وباب الكوفة وباب خرسان وباب الشام)، التي شيدها أبو جعفر المنصور، حين بناها كعاصمة للدولة العباسية سنة 145هـ،

والمدينة التي يسكنها الآن نحو ستة ملايين ونصف المليون نسمة، يتكون معظمهم من العرب المسلمين، سنة وشيعة، ومنهم الكرد والتركمان والمسيحيين، وعدد من الطوائف الصغيرة الأخرى، كانت عروس المدن العربية قبل أن تداهمها الهموم الثقيلة والأوجاع التي تفطر القلوب منذ عام 1987.

لله درها من مدينة تحملت كل تلك الآلام والأحزان والدمار، لله درها من مدينة انكفأت على جروحها، ولم تجد سوى نهر دجلة الذي يقسمها إلى قسمين شبه متساويين، وقد وقف بجانبها وداخلها يقبل «الكرخ»، ويزرع ابتسامة على وجه «الرصافة»، بينما إخوته العرب ضاعوا عندما دخل جنود المارينز إلى شوارعها الواسعة الفضفاضة، وتمركزوا في تقاطعاتها الفسيحة، ويا ليتهم ضاعوا فحسب، بل وتمزقوا، مزقتهم الخلافات والمماحكات التي جاءت إليهم قادمة على ظهر الدبابات الغازية.

هكذا تشرذمت وتمزقت أشلاء العاصمة العربية الثالثة تاريخياً وحضارياً، والعاصمة العربية الرابعة سكانياً، وضاعت قدراتها وإمكاناتها الهائلة بسبب عقل بُني على قواعد من جثث، وفكر اختبأ في سرداب ضيق، حفر في حقل ناءٍ بعيد، يا للأسف، مدينة ضاعت حين أوشكت على الوصول إلى نادي القوى النووية، وحين امتطت لتوها حصان التكنولوجيا السريع نحو التقدم، وقد أتى كل هذا بسبب خطأ تاريخي جسيم، ارتكبه نظام صدام في غزوه لدولة

الكويت، وهي الدولة الشقيقة الجارة، وكذلك سبب الاستبداد والظلم الداخليين القائمين آنذاك في ربوع دجلة والفرات، ذلك الخطأ الجسيم، هو ما مكّن الآخرين من فرض حصار طويل أثر في الشعب العراقي ومعنوياته وقدراته، بل وأثر أكثر ما أثر في الحكام البواسل هناك في أرض الرافدين، ثم أدى لاحقاً إلى إخراج العراق من دائرة الصراع العربي الإسرائيلي، وأصبحت لعنة أبو مسلم الخراساني – وهو الذي غدر به أبو جعفر المنصور – تحكم العراق، وذلك حين قال: (أمين على الدماء خائن في الأموال)، ويا ليت الأمين (أمريكا) عمل بهذه اللعنة، فها هو بعد **8** أعوام فرط وأفرط بالدماء، وكعادته ظل خائناً في الأموال.

لست هنا بصدد إضافة موال جديد لمواويل اليأس العربي الكثيرة، ولكن الأفكار تداعت، عندما وصلت إلى بغداد قادماً من مدن عربية وعالمية كثيرة كتبت عنها، ولم أجد واحدة منها تبكي مثلما تبكي «دار السلام»، وهو اسم من جملة أسماء معبرة، عرفت بها بغداد في عهود قديمة.

أبدأ من العلاقة بين كل من عدن وبغداد؛ فحتى مؤتمر القمة العربية التاسع الذي انعقد في بغداد في الأسبوع الأول من شهر نوفمبر عام **1978**م، وكنت عضواً في وفد «ليمن الديمقراطي، الذي حضرته بصفتي مسؤولاً عن العلاقات الخارجية في الحزب الحاكم في عدن، وقد خرج هذا المؤتمر بقرار مقاطعة مصر، نتيجة لتوقيعها اتفاقيات سلام مع إسرائيل، حتى هذا المؤتمر، كانت العلاقة بين عدن وبغداد تعاني من التوتر وعدم الانسجام بين الطرفين، لعدة أسباب، أهمها:

. الخلاف القائم بين فرع حزب البعث العراقي في عدن، والجبهة القومية التنظيم الحاكم، منذ نيل الاستقلال الوطني وبعده.

. تبنّي عدن لأحزاب وشخصيات عراقية خرجت من الجبهة الوطنية العراقية، وأصبحت في إطار المعارضة، وكان هؤلاء يعيشون في عدن، وحاولت بغداد متابعة بعض هذه الشخصيات وتصفيتها جسدياً، وهو ما حصل في عدن بمقتل الأستاذ الجامعي الدكتور توفيق رشدي، من قِبَل عناصر في السفارة العراقية في عدن.

. تشدد النظام العراقي في علاقاته الرسمية، وفقاً لمبدأ «من لم يكن معنا فهو عدونا».

مع ذلك، ظلت العلاقات الدبلوماسية قائمة، ولعبت عناصر خيرة من الجانبين دورها في محاولات تحسين العلاقات الثنائية بين البلدين، وخاصة الدكتور قاسم سلام، والسفير عبد الحافظ قائد، أحد مؤسسي حركة القوميين العربي في اليمن، وكان سفيراً لعدن في بغداد، كما لعب بعدها السفير محمد أحمد سلمان، سفير اليمن الجنوبي في بغداد، دوراً مهماً بهذا الصدد، وكذلك عناصر فلسطينية، وخاصة الدكتور جورج حبش وأبو العباس اللذين أسهما أيضاً في تحسين العلاقات.

كانت زيارتي المذكورة هي الثانية إلى العاصمة العراقية، إذ زرتها زيارة أولى في عام **1975**م، على رأس وفد مكون من التنظيمات الثلاثة التي اندمجت في إطار الحزب الاشتراكي اليمني، وهي: اتحاد الشعب الديمقراطي وحزب الطليعة الشعبية (حزب البعث العربي الاشتراكي سابقاً)، والتنظيم السياسي الموحد الجبهة القومية، وكانت مهمة الزيارة هي توحيد فروع هذه التنظيمات في الخارج، ورافقني في الرحلة الأخ المحامي محمود النجاشي من اتحاد الشعب (تحمَّل بعدها منصب وزير العدل)، وناجي بريك من حزب الطليعة الشعبية (تحمَّل بعدها إدارة صحيفة الثوري الناطقة باسم الحزب الموحد الجديد).

ومن أظرف المواقف التي واجهتنا في هذه الزيارة، ومع كرم الاستقبال والمودة التي قوبلنا بهما من قِبَل المسؤولين العراقيين في القيادة القومية لحزب البعث العربي الاشتراكي، جاء غضبهم في رفاقهم البعثيين في عدن، والذي كان واضحاً وجلياً من خلال ما قاله مسؤول العلاقات الخارجية في حزب البعث العربي الاشتراكي (العراق)، للأخ ناجي بريك، وعلى مائدة العشاء: «رفيق ناجي، من يتجرأ على ترك البعث، مثل من يتجرأ على ترك الإسلام، وأنت عليك الباقي»، وفهم الأخ ناجي بريك الرسالة التي قيلت له، واعتبرها تهديداً، الأمر الذي أدى به إلى الانسحاب من الوفد، وطلب السفر فوراً إلى عدن، خوفاً من أي إجراءات تطاله، أو ما شابه من تصرفات غير محسوبة، اشتهر بها حزب بعث العراق في تلك المرحلة.

وجاءت الزيارة الثالثة بعد نحو ثلاث سنوات (عام 1982م)، وأنا وزير للخارجية، لكي أحضر اجتماع مجلس الجامعة العربية الذي دعت إليه الأمانة العامة بشكل عاجل، لدعم الموقف العراقي إزاء الموقف الإيراني العدواني تجاه العراق، وقبلها بأسبوع واحد فقط، كنت في طهران، وكان كل شيء يخص النظام «الشاهنشاهي»، محطم في الشوارع، وخاصة دبابات الجيش وهياكل آليات النظام الإيراني البائد، ولذا، كنت أرى أن الأجواء تنذر بعدوان وشيك، وفي اجتماع مجلس الجامعة العربية، انقسم الموقف العربي إلى مُعارض للموقف العراقي الذي يدق طبول الحرب، وإلى مؤيد لهذا الموقف، وكنا مع سوريا وليبيا والجزائر في «جبهة الصمود والتصدي»، ضد شن الحرب على إيران، وأذكر أنه في هذا اللقاء، سألني سمو الأمير سعود الفيصل، وزير الخارجية السعودي، عن أهم انطباعاتي عن طهران، فأوضحت له أن كل شيء في الشارع، فأجاب: «إذاً، سيتمكن العراق من هزيمة إيران خلال ستة أيام»، وكان رأيي المتواضع في ذلك الوقت، يتضمن توقعي أن الحرب ستمكّن الإيرانيين من الوحدة

والتماسك، ما يؤدي إلى أنها ستطول، وفعلاً كان التوقع موفقاً، فقد دامت الحرب الإيرانية العراقية 8 سنوات مريرة، أكلت الأخضر واليابس، وكانت بداية التداعيات التي شهدها الخليج، ودفعت ثمنها غالياً كل دوله وشعوبه، بما فيها شعوب البلدان العربية الأخرى، وما زالت تدفعه حتى الآن.

ولعل أهم الزيارات إلى بغداد، تلك التي قمت بها لها بعد أيام قليلة من غزو العراق للكويت، وبالتحديد يوم 20 أغسطس 1990م، كعضو في مجلس الرئاسة اليمني، ويرافقني الدكتور حسن مكي نائب رئيس الوزراء، كانت الزيارة بتكليف من الرئيس علي عبد الله صالح، وكان هدفها إطلاع القيادة العراقية والرئيس صدام حسين على جهود اليمن في حل الخلافات بين العراق والأشقاء العرب، وخاصة السعودية والكويت، وهي الجهود التي تمت خلال ثلاثة أشهر سابقة، بناء على موافقة الرئيس العراقي على ذلك أثناء آخر زيارة قام بها الرئيس علي عبد الله صالح للعراق، ومقابلته للرئيس صدام، وكانت الزيارة بعد توحيد شطري اليمن بأشهر قليلة، لم نكمل خلالها الاستمتاع بفرحنا بهذا العمل التاريخي، والذي أيده العرب والعالم أجمع، وأعجبوا بالطريقة السلمية التي تم بها، بما فيهم الرئيس صدام حسين، الذي التقى بالرئيس علي عبد الله صالح، ونائبه علي سالم البيض، وزار اليمن لتقديم التهنئة. وخلال هذه الزيارة لبغداد، تمكنت من التعرف إلى الرئيس صدام وجهاً لوجه، والجلوس معه، لأنه في زيارة سابقة، سلمت عليه فقط، وكان الرئيس العراقي قد استقبل قبلها بمدة قصيرة في بغداد الرئيس علي سالم البيض، وشجعه على القيام بهذه الخطوة (الوحدة اليمنية)، التي يعتبرها خطوة تصب في خانة الجهود العربية التاريخية من أجل الوحدة العربية، كما أبدى – حسب قول الأخ علي البيض – بعض المحاذير التي ينبغي التنبه منها، وخاصة التفاوت الثقافي والاجتماعي، وطريقة تفكير

القيادتين، ومخاطر ذلك على الوحدة المقبلة، خاصة على الشطر الجنوبي من اليمن.

وعودة إلى زيارتي لبغداد، ولقائي بالرئيس صدام حسين هناك في بداية اللقاء/ الاجتماع مع الرئيس صدام حسين، تحدثت أنا وفقاً لترتيب المناصب الدبلوماسي، حيث نقلت إلى الرئيس صدام رأي القيادة اليمنية، المتضمن النصيحة بضرورة انسحاب العراق من الكويت، حقناً للدماء، ومنعاً لأية ضربة عسكرية محتملة، في حالة استمرار الموقف على ما هو عليه، وكان رده: بلغ الإخوان تحياتي، وقل لهم، سأستخدم ما أعلنته وما لم أعلنه، فبادرته بالسؤال مجدداً: سيادة الرئيس، هل وصل العراق إلى مستوى من القوة، ما يجعل أي عربي يواجه الظلم والاحتلال يصرخ (وا صداماه)، كما صاحت في عمورية (وا معتصماه)، وهنا ابتسم، وقال: لا، اطمئنوا، لقد درسنا حرب الفوكلاند، وعملنا حسابنا أضعافاً مضاعفة لمواجهة التدخل الأمريكي والغربي.

وفي سياق الحديث، وجهت حديثي مجدداً إلى الرئيس صدام، قائلاً، وزير الدفاع إنهم يعتقدون باعتقاد شبه جازم، أن العراق ينفذ مؤامرة ضد المملكة العربية السعودية، تبدأ باحتلال الكويت، وقد اتهموا مملكة الأردن أيضاً بالضلوع في هذه المؤامرة. إن جلالة الملك فهد بن عبد العزيز، يؤمن، وفقاً لهذه المؤامرة، أن المملكة العربية السعودية، هي الدولة الثانية في لائحة الاحتلال من قِبَل العراق، وأن احتلال الكويت ليس إلا الحلقة الأولى في سلسلة عمليات الاحتلال التي سينفذها العراق تباعاً لاحقاً، ونرى أن الانسحاب من الكويت، هو الخطوة الأولى لإنهاء هذه الاعتقادات، ونرى أنه الخطوة الصحيحة لإعادة الثقة بين الأشقاء العرب، وإنهاء الانقسام الحاصل في الصف العربي.

ورد الرئيس صدام حسين – رحمه الله: «إنهم يقولون كلاماً كثيراً»، وأخذ في الحديث عن الحق العراقي التاريخي في الكويت، ومواضيع أخرى بعيدة عما قلته له.

كان واضحاً من حديث الرئيس صدام حسين، الذي دار يومها، أن المحيطين به لا يجرؤون على طرح الحقائق أمامه بصراحة، وعند انتهاء اللقاء، ودّعنا كما استقبلنا بحفاوة بالغة منه، ومنها مرافقتنا سيراً على الأقدام حتى باب القصر، وقد بدا عليه الزهو، وتملكته مشاعر وملامح الثقة المعبرة عن الثقة بالنصر، والقائمة على حسابات لدى القيادة العراقية، أثبتت الأحداث فيما بعد خطأها، ولم أفهم يومها وحتى الآن، كيف بنى الرئيس صدام حساباته الخاطئة تلك، ولكني أعتقد أن هناك أسراراً بخصوص هذه المسألة، لم تنكشف بعد.

الثقة الزائدة المعبرة عن الثقة بالنصر، هي الانطباعات عن اللقاء المذكور، كانت سبباً في أن كل من قابل الرئيس صدام في ذلك الوقت، أو زار بغداد أيامها وحضر مثل تلك الاجتماعات والمؤتمرات، لا بد أن يخرج بقناعة من أن الرئيس صدام والقيادة العراقية، يمتلكان القوة الكافية التي يستطيعان بها حماية عدوانهما على الكويت، بل وحماية أرض العراق من أي عدوان، أما سحب القوات العراقية من الكويت، فلم يأبه به صدام، وهو الأمر الذي كان عليه أن يستجيب له حينها، لأن العالم كله كان ضد هذا الغزو، ولم يقبل المبررات العراقية بشأنه، بما في ذلك الشارع العربي وبعض الأنظمة العربية، حتى تلك الأنظمة المختلفة مع نظام الكويت؛ فكل الجهات في العالم العربي كانت تؤيد الوحدة العربية الطوعية، ولا تؤيد الوحدة الإلحاقية التي تسحق دباباتها وجيوشها حقوق الشعوب الأخرى وكرامتها.

والحقيقة أن ما قلته للرئيس صدام حسين في اللقاء المذكور، جاء متناسقاً مع الموقف العربي العام، ومع الموقف اليمني الرسمي تجاه الوضع القائم آنذاك، والذي كان يؤكد على ضرورة انسحاب القوات العراقية المحتلة من أراضي دولة الكويت الشقيق، بل وحددت رؤيتنا في صنعاء، طريقة الانسحاب المطلوبة، بأن ينسحب العراق من ذات نفسه، وهو ما حدث فعلاً في الواقع عند خروج القوات العراقية من الكويت، وانسحابه بتلك الطريقة التي كنا نتصورها وناقشناها مع المبعوثين العراقيين الذين أتوا إلى اليمن، ومنهم نائب رئيس الوزراء، الأخ طارق عزيز، عندما زار صنعاء في طريقه إلى مسقط، حيث كان يرى اليمن أهمية الانسحاب من الكويت، وعدم التهديد بالقوة أو باستخدام الأسلحة الفعالة التي كان يعلنها العراق بين فينة وأخرى، –بل إن الحوارات في تلك المرحلة الحساسة بين القيادات اليمنية والقيادات العراقية، أصبحت صريحة وحادة التخاطب، ومن الأمثلة هنا، أنني كنت أرافق الرئيس علي عبد الله صالح في زيارة لمحافظة حضرموت. وهناك في (المكلا)، قدم رئيس الوزراء العراقي السابق، السيد محمد الزبيدي، في آخر لقاء مع مسؤول عراقي رفيع قبل احتلال العراق من قبل قوات التحالف الدولي، بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية، وقد نقل هذا المسؤول العراقي للرئيس صالح، بعض ملاحظات للرئيس صدام، التي تخص السياسة الداخلية اليمنية، فإذا بالرئيس علي عبد الله صالح يقول بصوت عالٍ، موجهاً كلامه إلى الأخ محمد الزبيدي: بلغوا الرئيس صدام حسين ما يلي: أن نموت على مذبحة الديمقراطية، أفضل لنا من الموت على مذبحة الدكتاتورية.

وللحقيقة والتاريخ، أنني سمعت شخصياً هذا الحديث، ولم ينقل إليّ من شخص آخر، ولقد استمر التعامل اليمني والخطاب اليمني تجاه مسائل حرب الخليج الثانية بنفس الصورة، وعلى ذاك النحو الواضح، حتى بعد أن تحول

العراق من بلد محتل إلى بلد تم احتلاله؛ فقد أكدت صنعاء مراراً على رفض أي احتلال أجنبي للعراق منذ البداية، ثم أكدت – بعد ذلك – على أهمية إنهاء الاحتلال الأمريكي للعراق الشقيق، موضحين أن هذه مسؤولية الإدارة الأمريكية، التي يجب أن تدرك أن زمن الاحتلال في عالمنا قد ولى عهده إلى غير رجعة، وأن عليها أن تراعي إرادة الشعب العراقي في أن تتولى إدارته وحكمه سلطة وطنية عراقية مستقلة، ولا شك في أن الحديث عن الموقف اليمني خلال حرب الخليج الثانية، يحتاج وحده إلى كتابات مطولة، ونحن هنا بصدد الحديث عن مدينة بغداد، ولا يمكن تناول بغداد دون أن نتطرق إلى تلك الحرب التي انطلقت منها كعدوان، ثم عادت إليها وعليها كعدوان أشد وأقوى.

مع أن اسم بغداد، ارتبط خلال عقدين من الزمن بالعنف والقسوة والتصفيات الجسدية داخلياً، والحروب الكبيرة وترتباتها الاقتصادية والاجتماعية، والمعاناة الناتجة عنها، إلا أن لبغداد وجوهاً أخرى من وجوه الحضارة والثقافة، ومنها وجه أولئك الأماجد من الشعراء القدامى، أمثال: بدر شاكر السياب، ومحمد مهدي الجواهري، وغيرهم، ووجه الشعراء والفنانون من الجيل الحالي، وهناك من عاش في عدن في الثمانينيات وبداية التسعينيات، ومنهم: الصديق الشاعر سعدي يوسف الذي احتضنته عدن لسنوات، وأنتج خلالها عدداً من القصائد الجميلة، خاصة قصيدته (أميرات حمير) و(أرض القمر)، التي سجلت انطباعاته شعراً، عندما زار منطقة يافع الجميلة، كما أن الفنان جعفر حسن، الذي عاش سنوات طويلة في عدن هو وعدد من الفنانين والصحافيين والأساتذة والكتاب العراقيين الآخرين، أولئك كانوا دائماً رغم كل الندوب والجراح والغربة، محل الحب والتقدير والاحترام، ربطتهم بإخوانهم في عدن علاقات إنسانية جميلة ومشاعر من الرفقة الإنسانية، فكانت تعويضاً عن الحنين إلى الوطن – العراق – وتخفيفاً لبعض مشاعر الغربة القاسية.

في المقابل، كانت تذكرنا تلك الروابط التي تتفاعل وتكبر في عدن وربوع اليمن، ببغداد ونهريها الخالدين، دجلة والفرات، ونخيل العراق الشامخ، وصور جميلة عديدة من العراق، كل صورة منها تعكس الصمود والتحدي لكل المصائب التي تصيب بلد الرافدين، وكل صورة منها تدل على أن العراق، رغم كل ما أصابه، سيظل شامخاً منتجاً متحدياً لعواصف محن الزمان ومساوئ الحكام ومظالم الأنظمة القائمة على الجبروت وفرض سياسة اللون الواحد، ومن يعارض ذلك فمصيره الإبادة أو السجن، ولذلك، أصبحت هجرة العقول والكفاءات العراقية، واحدة من الخيارات هروباً من جحيم الواقع هناك.

إن كل ما جرى ويجري في العراق، قد أضعف كثيراً تلك القدرات الهائلة التي امتلكها العراق، والذي كان قاب قوسين أو أدنى من تحقيق الحلم العربي، المتمثل في تحقيق أحسن استفادة عربية من «الثورة التكنولوجية والثروة»، هذا الحلم ضاع، نتيجة للممارسات السياسية الخاطئة لهؤلاء الحكام حين وفروا، وبسذاجة، وبقصد أو من دون قصد، الأرضية المناسبة لدول الغرب الرأسمالي والعدو الصهيوني، الفرص المناسبة والمبررات لوأد العراق وضربه في المهد حتى لا يرى النور لعقود زمنية قادمة، وبما يؤدي إلى إنهاء كل عوامل التهديد القريبة والبعيدة للمصالح الحيوية لأمريكا وإسرائيل، وبقية الدول في هذا الحلف المعادي للدول العربية والمعادي لهذه المنطقة، التي أرادوا لها أن تظل، ولعقود زمنية قادمة، تحت السيطرة والنهب لثرواتها ومقدراتها.

والحديث عن بغداد ينقلنا إلى مسألة أخرى أو جانب آخر خاص بعلاقة بغداد بمدينة عدن؛ فخلال عقود من الزمن، كانت هناك علاقات حزبية مع بعض الأحزاب العراقية، وعلاقات مع شخصيات عراقية، منها مثلاً: عزيز محمد وفخري كريم والسكرتير العام للتضامن الآسيوي الأفريقي، وشخصيات أخرى تداخلت نضالاً وإنسانياً مع الإنسان اليمني، وهناك فئة من المثقفين

والمفكرين العراقيين، ارتبطوا بعدن وجنوب اليمن، ارتباطاً وجدانياً، ليس له أية صفة سياسية، ومثالاً عليه، تلك الإنسانة، الدكتورة المهندسة سلمى الدملوجي، الأستاذ في كلية الفنون الملكية البريطانية، والتي زارت اليمن وعملت فيه عدة مرات، وأصدرت عدداً من المؤلفات والكتب والأبحاث عن المعمار اليمني (الحجري والطيني) في صنعاء ويافع وعدن وحضرموت، المتميز والمعتمد على طرازات قديمة أصيلة، وعلى استخدام المواد المحلية التي تتلاءم والظروف البيئية والمناخية والجغرافية لكل منطقة، معبرة عن إعجابها وحماسها الشديدين لطرق البناء اليمنية وفنونها الفريدة، والدكتورة سلمى أستاذة ومهندسة جامعية، أسهمت مع عدد من زملائها في الإشراف على تصميم وبناء معالم هامة، منها: الحرم المكي الشريف، وجامع الملك الحسن الثاني في المغرب، ومسجد السلطان قابوس في عمان، ويأتي جهدها العلمي في اليمن، ليؤكد عمق العلاقة الأخوية والحضارية والثقافية بين العراق واليمن.

بغداد ستنتصر على «المغول الجدد»، وستخرج من محنة الطائفية والإرهاب، ذلك حتماً يا أولادي.

دمشـق

دمشق مدينة عريقة في جذور التاريخ منذ القدم، وتكاد تكون قد عاشت معظم الحضارات التي قامت في الشرق، وأهم الإمبراطوريات في الغرب، وقد تحولت المدينة في العصر الأموي إلى عاصمة أكبر إمبراطورية إسلامية (الدولة الأموية)، تمتد شرقاً إلى حدود الصين، وإلى الأندلس غرباً.

ولذلك، شهدت نهضة عمرانية يدل عليها أحد الشواهد التاريخية، وهو جامع بني أمية الكبير «الجامع الأموي»، الذي بناه الخليفة الوليد بن عبد الملك، وهو مَعْلَم بالغ الجمال، تأسرك روعته، ما إن تدخل قاعته الكبيرة وترى صحنها الخارجي الواسع وأقواسها وأعمدتها الرخامية البديعة البناء. وإذا نظرت إلى أعلى، ترى ثلاث مآذن أكثر روعة وجمالاً، وفي المدينة أكثر من مئتي مسجد، بعضها تاريخي وأثري يستحق الزيارة، ولكن كم للزائر أن يزور، ولدمشق مآثر تاريخية كثيرة، منها ما يتعلق بالكفاح القومي قديماً وحديثاً، فمن دمشق انطلق صلاح الدين الأيوبي، فوحد المشرق، ومد نفوذه إلى مصر، وحارب الصليبيين وطردهم من فلسطين، وقام بتوحيد البلاد الإسلامية على امتداد الشام ومصر.

وإذا تناولنا المآثر المعاصرة، فسنجد أن دمشق كبيرة الآن، كما كانت دائماً، ومثلما ظلت في الماضي، كبيرة بخلفيتها التاريخية والحضارية والفكرية والسياسية، وكبيرة بموقعها الخاص في قلب كل عربي ومسلم، ولذا، لم يأتِ من فراغ أن يدخلها العرب بدون رخصة مسبقة (فيزا دخول)، كما هو الحال بالنسبة لحق تملك العقارات فيها لأي عربي أراد ذلك، لم تكتسب ريادتها القومية المذكورة، وغيرها كثير، إلا من عمق أصالتها العربية والإسلامية، ابتداء من أنها كانت قديماً، العاصمة الأموية للدولة العربية الإسلامية، ومن إصرارها

الحالي على العروبة. فقد جعل منها الرئيس حافظ الأسد في عصرنا الراهن، عاصمة الصمود العربي، حين قادها بتلك العقلية المتنورة المجربة، التي استطاعت تجنيب سوريا عواصف عدوانية عاتية، هبت وتهب من النواحي الإسرائيلية، ولكنها انكسرت على أبواب دمشق الباسلة.

ودمشق، هي العاصمة الأولى في عالمنا العربي، التي انتصر فيها فكر القومية العربية بيساره الوسط، واعتبرناها، نحن الذين كنا في إطار حركة القوميين العرب، كذلك، بغض النظر عن الخلافات الساخنة السابقة مع حزب البعث العربي الاشتراكي، واحتضنت دمشق بدفئها وبحنكتها، أول تجربة لإقامة «الجبهة الوطنية» في بلد عربي، والتي شكل قيامها بادرة مبكرة – حينها – راعت التعددية الحزبية القائمة في سوريا في ذلك الوقت، الذي طغى فيه بقسوة مفهوم الشمولية للأحزاب الحاكمة.

إن التاريخ يعيد نفسه؛ ففي الماضي، مثلت دمشق والقاهرة وبغداد عواصم للخلافة الإسلامية، كما أنها اليوم عواصم في الحاضر، تتناوب الخلافة العربية فيما بينها، وفقاً للظرف السياسي القائم، والحنكة القيادية لقادة كل منها، ولقد جعل كل من الرئيسين حافظ الأسد وابنه بشار من بعده دمشق عاصمة للاهتمام العربي والدولي، ومرجعية تحتضن فرقاء العرب، عندما تضيق العواصم الأخرى بهم، ومهما كان الخلاف والتباين السياسي والعقائدي معهم.

ولعل كل زمن يمر، يحمل معه امتحاناً أشد، فلقد تعاظمت المؤامرات على سوريا، وتزايدت حين سادت ظروف عامة في المنطقة، جاءت لصالح الكيان الصهيوني، وبالذات، في العقدين الأخيرين من القرن العشرين المنصرم، والتي تجسدت بسقوط الاتحاد السوفييتي، وهرولة المواقف العربية نحو الصلح مع إسرائيل، لإرضاء القطب الأمريكي، الذي صار ينفرد بتسيير دفة سفينة عالمنا، وقبله تجسدت باتفاقية كامب ديفيد بين القاهرة وتل أبيب، التي

أوجدت تشرذماً في العالم العربي، وانقسامات حادة في المواقف العربية. ثم تجسدت أخيراً، بعد احتلال العراق لدولة الكويت، الذي وقفت دمشق ضده بصلابة، ومن ثم، احتلال العراق من قبل أمريكا وحلفائها.

هكذا أصبح العالم العربي بحاجة فعلاً إلى حكمة وصمود دمشق، خاصة في ظروف المد الإسرائيلي في المنطقة، ورفضه لمبادرة السلام العربية. وتتعاظم هذه الحاجة، في ظل الوضع العربي الحالي، الذي لا يستطيع امتلاك القوة الكافية لتحقيق السلام في المنطقة، وتأمين حتى الحد الأدنى من حقوق الشعب الفلسطيني، وعودة الأراضي العربي المحتلة، وأهمها الجولان.

تمت زياراتي الأولى والثانية إلى دمشق عامي **1972**م و**1974**م، لحضور افتتاح المرحلة الأولى لسد الفرات، على رأس وفد زراعي، حين كنت أشغل حينها منصب المدير العام للتعاون والإصلاح الزراعي، وكذا، لإقامة تعاون سوري – يمني (عدن)، في مجالات الزراعة والتطوير الزراعي، ويبدو أن المدينة قد سحرتني وسلبت عقلي، فمنذ عام **1975**م، زرتها مرات ومرات، بحيث لا تمر بضعة أشهر، إلا وتكون قدماي تسيران في شوارع دمشق، حتى صارت العاصمة العربية التي تستحوذ على الزيارة والاهتمام، وفي تلك المرحلة، ومن بوابات دمشق، ساعدنا الأشقاء في لبنان وفلسطين، وعندما كنا نزور بيروت أثناء الحرب الأهلية اللبنانية، كنا نأتي إلى بيروت من طريقها العسكري، وهي – أيضاً – التي أوصلتنا إلى عمان (الأردن) في السبعينيات وفي بداية الثمانينيات، عندما كانت العلاقات الدبلوماسية مقطوعة بين اليمن الديمقراطي والمملكة الأردنية.

قابلت الرئيس حافظ الأسد، بحكم موقعي في الحزب والدولة مرات كثيرة، ووجدته رئيساً عربياً جليلاً، مستمعاً منصتاً، ومتحدثاً لبقاً، وأباً وقائداً يمنحك ساعات من وقته، تمثل بالنسبة لك عاماً بكامله، وأصبحت دمشق

بالنسبة لعدن، وبالذات بعد قطع العلاقات مع القاهرة لتوقيعها اتفاقية كامب ديفيد، هي العاصمة التي كنا نتواصل مع العالم الخارجي من خلالها، وخاصة مع ليبيا والجزائر ودول المغرب العربي، وكذلك بلدان المنظومة الاشتراكية، وجاء إرسال القوات اليمنية للسلام إلى لبنان وسوريا في نهاية الحرب الأهلية اللبنانية، ليعزز هذه العلاقة الخاصة بين عدن ودمشق، فعلى إثرها، زار الرئيس حافظ الأسد، عدن، في الثمانينيات، وأدت الزيارة إلى تطور العلاقات الثنائية، ثم شكلت عدن مع دمشق، ذلك التناغم الجميل في الموقف العربي الدولي، بإقامة جبهة الصمود والتصدي العربية. وغيرها من المواقف المشتركة، التي لم تكن لمصالح ضيقة، بل خدمت متانة وصمود الموقف العربي في صراعه الشرس مع الكيان الإسرائيلي.

وأثناء زياراتي العديدة لدمشق، مسؤولاً عن العلاقات الخارجية في عدن (اليمن الديمقراطي)، تعرفت إلى إخوة سوريين، منهم: السيد عبد الحليم خدام، الذي كان يشغل وزير الخارجية السابق ونائب الرئيس السابق، والسيد فاروق الشرع نائب الرئيس الحالي، وغيرهم، كما تكونت في دمشق صداقات مع عدد من الإخوة المسؤولين السوريين، انصبت كلها في الهموم العربية المشتركة، كما أن الرفيق عبد الله الأحمر – الأمين العام المساعد لحزب البعث، هو أحد الأصدقاء، وهو أيضاً من القادة السوريين الذين زاروا عدن والضالع في عام 1987م، ولهم جميعاً مكانة، ليس في قلبي، بل في قلوب كل أبناء القومية العربية، لأن سوريا، رغم قومية حزب البعث وفروعه القائمة في كل الأقطار العربية تقريباً، ورغم وجود أعضاء قياداته في الأقطار العربية في القيادة القومية، كممثلين لهذه الأقطار، إلا أن السياسة السورية لم تتدخل ولا تتدخل في الشؤون الداخلية للبلدان والأحزاب العربية، مثلما فعل بعث العراق، وسلوكها الشريف هذا أكسبها الاحترام والتقدير.

وضمن زياراتي لدمشق التي لا تنقطع، زرت دمشق في منتصف شهر مارس وحتى بداية شهر أبريل **1994**م، لإطلاع الرئيس حافظ الأسد على تطورات الأزمة اليمنية، التي مر عليها أكثر من عام، وكانت تسير – أيامها – نحو الحرب، كنا حينها نجول العواصم العربية، لعلنا نحول دون حدوث تلك الفاجعة التي وقعت، ثم عدت مجدداً إليها في شهري يوليو وأغسطس عام **1994**م، للتحضير وانعقاد اجتماع اللجنة المركزية للحزب الاشتراكي اليمني، التي كان معظم أعضائها نازحين خارج الوطن، وفي هذا الاجتماع، تم اتخاذ قرار اللجنة المركزية حول مسألة العودة إلى الوطن، كقرار شخصي لكل أعضاء الحزب، على أساس أن يتخذ كل منهم قراره الخاص في حقه في أن يعود إلى الوطن، أو البقاء لاجئاً سياسياً في الخارج. وهناك الكثيرون ممن احتضنتهم لسنوات عديدة، ومنهم من لا يزال يقيم فيها، من هؤلاء، الرئيس علي ناصر محمد، وعبد الله عبد العالم، وقبلهم المرحوم الرئيس القاضي عبد الرحمن الإرياني.

لا أدري، لماذا تدعوني هذه المدينة إلى زيارتها مجدداً وتكراراً، أحياناً أقول إن سبب حبي لها، هو شموخها وإباؤها القومي إنها أيضاً كمدينة، تمتلك جاذبية، تجعلك تحبها ولا تملها. إنها فاتنة، امتدت على سفوح جبل «قاسيون»، الذي عندما تقف فوقه – حيث المطاعم والمقاهي والملاهي – ترى مناطقها الحديثة في أبهى مناظرها، ودياراً اتسعت في كل الأنحاء. وشيدت أحياء ومدن جديدة كثيرة، أذكر منها منطقة المزة ومنطقة الصالحية، وترى أنه لا توجد ناحية من نواحي دمشق، إلا وتشهد نهضة عمرانية.

وتزخر دمشق بالمعالم، ومنها «قلعة دمشق» الحصينة بشموخ وأناقة، والتي كانت مسكناً لمعظم حكامها قديماً، وقبر صلاح الدين الأيوبي، الواقع قرب الجامع الأموي في دمشق القديمة، وإن ذهب قلبك إلى الشاعرية،

فستعرف عندها أن اللقب الذي يطلق على دمشق، هو اسم مدينة الياسمين، لأنها اشتهرت بزراعة زهور الياسمين النضرة الزكية الرائحة.

دمشق ليست مدينة تستحق الحب فقط، وليست عاصمة سياسية أو تاريخية فقط، ولكنها مدينة ثقافة وحضارة وإنسان وجمال، وفي ليلة غراء عشتها في دمشق، صادفت ثلاث مناسبات، هي عيد الجلاء، والعيد الذهبي لتأسيس حزب البعث، وعيد الأضحى المبارك، وكلها مناسبات تصادفت في يوم واحد، ما زلت أتذكر تاريخه، **1997/4/17**م. وفي أجواء الفرحة العارمة والسرور والبهجة، جاءت هذه الكلمات:

عند ليلى الدمشقية
سمعت أنين – حنين وضاح اليماني
وحبه السرمدي لها..
والروح تواقة في عشق أم البنين له
حيث أصبح محملاً بصوت «ابن مروان»
وهو يطارده في الظلام
بعد أن رأى «حافظ» ساهراً عليه
بتلك الصلابة والابتسامة، ويده..
ممدودة للسلام
في ليلة مثل هذه
كانت اللاذقية ودمياط وجدة
هن سيدات الحضور
على شرفة المدعوة الغالية..
جنة عدن
وفي ليلة المسك هذه، عادت لوضاح

خيوط.. وأحلام.. وأشواق.. وآمال..

خيوط بعرض وطول جبال اليمن

بفسحة دمشق.. علو جبل «قاسيون»

يذود «الأسد» عنه.. ومن خلفه

«الفهد» صنديد، و «أبو خليفة»، والمخلصون

الفاجعة هي الحرب القائمة، فالمواقف الداعمة لسوريا من قبل دول الخليج والمملكة تغيرت، وتركيا احتضنت الإخوان المسلمين، والمعركة تدور وتدور، ولا يعرف الشعب من هو يحكم سوريا العربية.

اللاذقية وجبلة

لـ«مهرجان المحبة» الذي يقام عادة كل عام في مدينة اللاذقية والمناطق السياحية من سوريا، الأثر الكبير في الإمتاع الترفيهي والترويج السياحي، فهو عامل إنعاش للشريط الساحلي السوري ومدنه،

وذلك من خلال العروض الفنية والتراثية الشعبية المقدمة لجمهور القادمين من سواح زائرين من شتى بلدان أوروبا، وأرجاء الوطن العربي، وبلدان أخرى؛ فقد صادفت وقت تلك العروض الشيقة في شهر أغسطس 1997م في الوقت الذي كنا نقضي إجازة الصيف أنا والأسرة على رُبى تلك المدينة الخلابة بجمال الطبيعة، وعلى وجه الخصوص، المياه الجارية في الأنهار والينابيع.

كانت هذه الرحلة طويلة إلى حد ما، لأننا جئنا إلى اللاذقية عن طريق البر بسيارتي الخاصة من مدينة جدة في المملكة العربية السعودية، مروراً بمدينة عمّان في المملكة الأردنية الهاشمية، ثم إلى دمشق، ومنها إلى مدينة اللاذقية على البحر الأبيض المتوسط. كنت أنا، وبرفقتي أولادي، وقد وصلناها بعد أن قطعنا أكثر من 2700 كم في خلال 26 ساعة هي من أطول الرحلات التي قمت بها براً، بل ربما كانت أطولها على الإطلاق، ولكن اللاذقية، الميناء الرئيس للبلاد، والذي يبلغ عدد سكانه أكثر من 500 ألف نسمة لا تتميز فقط بساحلها الرائع، بل بغاباتها الخضراء، حيث تجمع البحر مع الجبل، كما أنها ميناء مشهور منذ القدم، وعرفت قديماً باسم الـ«أوديسيا»، ولذا، تجد فيها الكثير من الآثار التاريخية، ومنها ما زرناه، وهي: قوس النصر في وسط اللاذقية، وهو رمز للمدينة، وآثار معبد باخوس، وخان الدخان، وهو منطقة أثرية مطلة على البحر مباشرة. كما زرنا على مقربة منها، منطقة أثرية تدعى «أوغاريت».

قضينا في هذه المدينة خمسة أيام، كانت في غاية المتعة، زرنا خلالها الكثير من القرى والمناطق الساحلية على طول شواطئ البحر الأبيض المتوسط ، مثل: كسب، وصلنفة، ورأس البسيط، وحتى حدود لواء «الإسكندرونة»، ذلك الجزء السوري المحتل من قبل الأتراك، والذي اقتطع من امتداد رائع لأرض جميلة بترت بتراً، ومن المهم القول هنا إن اللاذقية ترتبط عبر طرق حديثة بكل من مدن: حلب، دمشق، حمص، طرطوس، وغيرها من المناطق، وكذا، تمر بها خطوط السكك الحديدية، التي تربطها بالكثير من المدن والمناطق السورية.

وفي سعينا لمتعة السفر خلال هذه الرحلة، تمكنا من مشاهدة جمال الساحل السوري بشطآنه المسترخية عناقاً مع البحر، وجباله المكسوة بالاخضرار، النظر الدائم على المدى شرقاً في «جبال العلويين»، وكنا عندما نعود إلى المدينة من كل جولة أو نزهة طويلة نقوم بها خارجها، نجدها أكثر جمالاً من جمالها حين غادرناها مؤقتاً، كان لاعتدال طقسها وهدوئها، ولنظافة شواطئها، أن تكون محل جذب لأكثر المصطافين من الزائرين من خارج البلاد، ومن السوريين أنفسهم، وقد ساعد على ذلك الازدهار السياحي، منشآت حديثة، تتميز بتكاليف أقل، بإزالة كل المعوقات التي تعيقها، وبتوفير الخدمات اللازمة بمستوى أفضل، وفي هذا السياق، إلغاء قوانين الإعاقة في التعامل النقدي، لو تم كل هذا لقفزت المنطقة قفزة كبيرة، ولأخذت معها السياحة في كل سوريا إلى مستوى أقرب إلى الكمال.

وفي اللاذقية، ومع الأجواء التي شرحتها آنفاً، جاءت حليلة الشعر، إذ نظمت بعض الأبيات، ومنها ما يلي:

نادى المنادي

يا صاحب الشام شامك واليمن يمنك

فهمت أني لازلت زائراً

وأن السفر والترحال هما الصديق المصاحب

وفي مثل حالي وجاهي

والروح تواقة للتلاقي

زادت همومي على هم

لكنه ما منعني

من أخذ قبله.. طويله

من فم تلك الجميلة

سورية، سمحاء أبية

.. واسمها اللاذقية

وعندما غادرنا اللاذقية، لم ننسَ أن نشتري كمية من التبغ المحلي الذي ينتج في المدينة، ويسمى «التبغ اللاذقاني»، كهدايا نأخذها معنا إلى الأصدقاء والأهل في عدن، وقد قمنا بذلك، عملاً بنصيحة عدد من أبناء المدينة، فقد قالوا لنا إن سياح أوروبا حريصون على شرائه عندما يغادرون اللاذقية، فقلت لأسرتي: لماذا لا نكون نحن مثل الأوروبيين؟.

أما عن رحلتنا إلى «جبلة السورية»، فبينما أنا والأسرة في الزيارة التي سبق التحدث عنها لمدينة اللاذقية، سمعت عن مدينة جبلة، التي تبعد نحو **30** كيلومتراً باتجاه جنوب اللاذقية، وهي واقعة على الساحل نفسه، ساحل البحر الأبيض المتوسط، تحدها اللاذقية من الشمال، وطرطوس من الجنوب، كما أنها أيضاً مدينة هامة وميناء سوري، وهي أيضاً مركز إداري تتبعه عدة مناطق وقرى، ويبلغ عدد سكان هذا المركز حوالي **300** ألف نسمة، فقررت حينها أنه لا بد من زيارتها مستقبلاً. ذلك أنه في شهر أغسطس، تعيش المدن الساحلية والجبلية، مثل «كسب» وبعض مدن المناطق الساحلية الغربية لسوريا، أوج

أيامها السياحية، التي تضفي عليها رونقاً خاصاً، يجعلها مناسبة أكثر حينها للزيارة.

سافرنا إليها براً بالسيارة من مدينة جدة على ساحل البحر الأحمر، وعبر طريق الأردن – الشام التي قطعناها خلال يوم كامل بطوله، كانت الرحلة برغبة من ابنتي خلود، أصغر أولادي، في أن نحل معرجين على جبلة، لزيارة صديقتها وزميلتها السورية، التي درست معها في نفس المدرسة الإعدادية في مدينة جدة، وفي مدينة جبلة الصغيرة الهادئة، تعرفنا إلى أسرة صديقة ابنتي، وهي الأسرة الطيبة التي أكرمتنا هناك، كما تعرفنا هناك إلى عائلات جبلاوية عدة، منها عائلة «آل عكرمة»، وهم من العائلات الكريمة المعروفة في «جبلة السورية».

في جبلة، يتعانق أربعة عوامل: البحر والجبل والآثار والسهول الزراعية الخضراء؛ فالبحر عامر بالسفن وقوارب الصيد التي تجلب أنواعاً من السمك، الذي يباع بأسعار رخيصة، والجبال تنطلق من المدينة بقرب الساحل، وتراها هنا وهناك في السهول الخضراء الواسعة، التي تزود المدينة بالخضراوات والفواكه المتعددة، أما الآثار، فجبلة تشتهر بآثارها الفينيقية والرومانية والإسلامية القديمة، ومن أقدم الآثار «المسرح الفينيقي»، الذي يقول المؤرخون إنه بُنِي في القرن الأول الميلادي، وأوضحوا أنه واحد من أهم خمسة مسارح عالمية أثرية قديمة.

ولا يفوتني هنا التذكر، أن هناك أنهاراً في جبلة، استمتعت على ضفاف أحدها «نهر السن». وهناك مناطق توجد فيها ينابيع مياه عذبة، وغابات أشجار جميلة في نواحي جبلة الخضراء، وكل هذا يجعلك تقول إن جبلة تجميع جميل، أبدعه الخالق لكل عوامل الطبيعة الموجودة في لمناطق السياحية والمناطق الجبلية معاً، كما أن جوها معتدل ومنعش وجميل، أضف إلى ذلك ما تتميز به

المدينة من مذاق الأكل؛ فإذا زرت جبلة، فلا بد أن تعجبك وجبات السمك الشهية والحلويات، خاصة حلوة «الكنافة الجبلاوية»، التي لن تنسى مذاقها.

كما صادف أن عرفت عند زيارتي لمدينة جبلة، أنها أنجبت الكثير من الشخصيات العربية الخالدة، أمثال البطل العربي الشهير عز الدين القسام، والأديب والشاعر العربي الشهير «أودنيس»، وغيرهما كثيرين.

وماذا حصل لك أيتها المدينة وضواحيها في سنوات الحرب اللعينة؟ والجواب، بعد الحرب وتوقفها إن شاء الله، وكبح شيطان الحرب.

حلب

هكذا كانت مدينة حلب أو «حلب الشهباء»، كما يُطلَق عليها، أكبر مدن شمالي سوريا، وموقعها بين نهر الفرات والبحر الأبيض المتوسط، وهي مركز محافظة حلب، أكبر المحافظات السورية من حيث حجم السكان، تتوشح حلب ثوب تاريخها القديم العامر في كافة العصور،

والذي بقيت بعض أجزائه كآثار حتى اليوم، مثل قلعة حلب الشهيرة، والمسماة قلعة صلاح الدين الأيوبي، والتي تقع على مرتفع بُنِيت على وجه أرضه طبقة من الأحجار، وهي تشرف على وادٍ صغير يمتد عبره جسر قديم قوي البنيان، كما أنها عالية الجدران، لا يستطيع الغزاة تسلق أسوارها أو اقتحام فتحات أبوابها الأربعة، وهي محصنة تحصيناً حربياً قوياً بأبراجها وأسوارها، كما أنها تزخر من الداخل بالفنون المعمارية المدهشة.

مدينة حلب بشكل عام، منبسطة على سهل كبير المساحة، وتطل عليها تلال عدة، وترى في المدينة عدداً من المساجد، أهمها جامع حلب الكبير، وكذا كنائس قديمة قائمة، وعدداً من الجسور الرومانية الواقعة على نهر «عفرين»، وإذا تجولت في الأحياء والشوارع، فلا بد أن تمعن النظر في أبواب الأحياء القديمة المغطاة بالرخام المشبع بالرسوم والكتابات والنقوش، التي تمثل الفن الإسلامي العريق في أزهى عنفوانه.

زرناها عام 1988م، وحينها كنت الأمين العام المساعد للحزب الاشتراكي اليمني، وكان برفقتي عدد من الإخوة أمناء فروع الحزب في حضرموت وأبين، والسيدة عايدة يافعي، عضو اللجنة المركزية ورئيسة اتحاد نساء اليمن ونائبة وزير الثقافة لاحقاً، استقبلنا في مطارها قادة حزب البعث

العربي الاشتراكي السوري ومحافظ حلب وقادة وحدات الجيش والشرطة في المحافظة، استقبلونا باحتفاء بالغ، وهذه عادة درج عليها الإخوة في سوريا، الذين يحتفلون بضيوفهم ويقومون بإكرامهم.

وفي ليلة حلبية لا تنسى، أقامها أمين حزب البعث العربي السوري ومحافظ حلب الشهباء، احتفاء بالوفد اليمني القادم من عدن، كان الفنان العربي الحلبي صبري المدلل، وهو من أشهر الفنانين العرب حينها، ورغم كبر سنه نجماً، فقد أحيا تلك الليلة بأغاني الطرب العربي الأصيل، موشحات أندلسية تحلق بك في الهواء، وتُهيج عاطفتك، وتجوب بالذاكرة والوجدان عنان السماء.

تعد مدينة حلب العاصمة الاقتصادية لسوريا، وتمتاز بصناعاتها التقليدية العريقة، وجودة صناعاتها بشكل عام، وتشتهر أيضاً بصادرات الفستق المعروف عالمياً، وكذا بصادرات زيت الزيتون وغيرهما، وقد زرنا مصانع النسيج فيها، وهي تنتج النسيج السوري المشهور دولياً، وزرنا أيضاً متحف المدينة، الذي يعكس تاريخها المجيد، التاريخ الحلبي العربي والإسلامي، الذي أقام أول دولة عربية أموية شيدت الإمبراطورية الإسلامية، التي وصلت إلى الأندلس غرباً وحدود الصين شرقاً. وفي العصر الحديث، قاومت حلب الاحتلال العثماني، بعدما تحول إلى حكم استبدادي طاغٍ، ليس له علاقة بالإسلام، وقاومت بعد ذلك أيضاً، الاحتلال الفرنسي، ودحرته، وهي الآن صامدة أمام الاحتلال الإسرائيلي لأرض فلسطين وهضبة الجولان، وستدحره أيضاً إن شاء الله.

وحلب سياحية بطبيعتها وبمرافقها السياحية وبمناطقها الزراعية القريبة منها، حيث توجد العديد من الغابات الغنية بالأشجار، وحيثما ذهبت، تجد المطاعم الحلبية التي تقدم أشهى المأكولات، مثل: المشويات الحلبية، وأهمها

الكباب، والكبة الحلبية، وأنواع من الحلويات اللذيذة، مثل الكنافة والبسبوسة اللذيذة.

عندما ترى جمال حلب، تجده يتسلل في أحاسيسك، وينتشر في مشاعرك، ما يجعلك تتمنى لو أن المدينة فتاة لتعشقها، ولذا، وذات ليلة، كتبت لها قصيدة، من أبياتها:

في ليلة المسك..
قالت البيضاء لوضاح اليمن..
أخرج من صندوقك الأثري..
وكحّل عينيك..
بجمال حلب الشهباء
وسحر دمشق الفيحاء
(التي مت من أجلها بصندوق بلا ثمن..
ولم يمت في حشاها العشق والطرب).

ولعله ليس من المنصف، أن تتحدث عن حلب الشهباء، ولا تذكر أسواقها، فالمدينة التي يسكنها ويسكن أنحاء المحافظة التي تتبعها نحو قرابة أربعة ملايين ونصف المليون نسمة، والذين **70 %** منهم مسلمون، و**20 %** مسيحيون، وكل هؤلاء (من المدينة ومحيطها الواسع)، يتسوقون من أسواقها التي تعتبر من أعرق أسواق سوريا والشام كله، وأكبرها، حيث تلاحظ وأنت تتمشى بها، أنها طويلة جداً، وفي أحد الأيام قضينا النهار بكامله نسير في أحد الشوارع ولم نكمله، فكان ذلك مثار تساؤلنا، وعندما أخبرنا عدد من مرافقينا من أبناء حلب بذلك، قالوا لنا إن لدى مدينتهم أطول الأسواق في العالم، وإن أحدها (لا أذكر اسمه)، وهو ما كنا قد مشينا فيه يومها، يبلغ طوله ما يصل إلى **15**

كيلومتراً، والمشكلة، كما قالوا، ليست في طوله، ولكن في كمّ من البضاعة الجيدة تحتاج محاله حتى تمتلئ، وذلك ضروري لكيلا يفقد جاذبيته.

والآن، كيف الحال يا حلب الشهباء، بعد خمس سنوات من الحروب والصراعات والإرهاب والتدخل الخارجي؟.

بيروت

سبقتنا بيروت.. ربما كان عنفوانها وحيويتها هما السبب، سبقتنا وهي المدينة العربية التي أطلق عليها اسم «باريس الشرق»، لما تتمتع به من شباب دائم، سبقتنا بيروت في الوصول إلينا، فقبل أن نصلها،

وصلت هي إلينا عبر الثقافة والإعلام، حين كانت أيامها منارة العالم العربي الثقافية والإعلامية، وسبقتنا، عندما وصلت إلينا عبر الأفكار القومية واليسارية والاشتراكية، ووصلت إلينا عبر تجربتها الغنية في تعايش الطوائف والفئات والاتجاهات السياسية المتنوعة.

جاءت إلينا عن طريق خريجي «الجامعة الأمريكية – بيروت»، ومعهم خريجو «جامعة القاهرة»، لتؤسس فرعاً لحركة القوميين العرب، ثم فرعاً لحزب البعث العربي الاشتراكي، ثم خلايا الماركسيين العرب في اليمن، جاءت بيروت إلينا من أكثر من اتجاه، ومن مداخل عدة، فقد قدمت منها شركة لتبني مصافي عدن في «البريقة»، هي شركة «سي سي سي – اتحاد المقاولين العرب»، بمؤسسيها حسيب الصباغ والمعلم سعيد خوري، وعدد من المهندسين اللبنانيين والفلسطينيين، وكان ذلك في بداية الخمسينيات من القرن العشرين المنصرم.

ارتسمت في أذهاننا وقلوبنا صورة كبيرة وعظيمة لبيروت، قبل أن نراها أو نزورها، كانت خط التماس والالتزام القومي والنضالي على الصعيد التنظيمي، من خلال ارتباطنا التنظيمي بقادة حركة القوميين العرب، وعدد من المنظمات اللبنانية التقدمية، الذي جاء كحبل علاقة وثيقة، امتد من تلك المدينة التي نشأت فيها هذه الحركة، إلى ردفان وعدن ومناطق الجنوب الثائرة ضد الاستعمار.

أسرتنا بيروت آنذاك من كل جانب، حتى من جهة القضية الفلسطينية، فمنها تعرفنا إلى التنظيمات الفلسطينية التي باشرت المقاومة، والتي تم فيما بعد عبرها تقديم الدعم لنضال الشعب الفلسطيني واللبناني معاً، ثم لكافة الفصائل الفلسطينية واللبنانية، التي فتحت لها مقرات في عدن.

ولم تبخل عدن، رغم فقرها وشح مواردها، في تقديم المال والسلاح والرجال الذين التحقوا بالمنظمات الفلسطينية، وقاتلوا العدو الإسرائيلي، وكتبت الشهادة لعشرات منهم، بل إن طلائع أرسلت من قواتها المسلحة إلى بيروت للحفاظ على الأمن والسلام في لبنان، وفقاً لقرار الجامعة العربية، وقامت تلك القوات النظامية لليمن الديمقراطي، بدورها المشهود له بعدم الانحياز لأحد أطراف النزاع في الحرب الأهلية اللبنانية، رغم وجودها في المناطق الشرقية من المدينة، وعلى خطوط التماس، وقد عكس ذلك السلوك، حب ومكانة الشعب اللبناني في عقل وقلب ووجدان كل يمني.

في سنة 1969م، وحين كنت أشغل منصب مدير عام التعاون والإصلاح الزراعي، ومع الأخ محمد عوض باعامر، وكيل وزارة الزراعة والأسماك، سافرت لأول مرة إلى بيروت، للتشاور مع شركة الهندسة العربية، التي وضعت الخطط الهندسية لمشروع استصلاح «دلتا أبين» الزراعي، الممول من قبل دولة الكويت الشقيقة.

رأتها العين مشرقة، باسمة، فاتنة، كان كل شيء فيها جميلاً وودوداً، كلها ذوق، حتى لون الحجر الذي بنيت منه مبانيها، وتشكلت منه جبالها، فلا ضير أن غزت القلوب والعقول معاً، لأنها جميلة من كل ناحية، فقد حباها الله – عز وجل – بطبيعة تسلب المشاعر والأحاسيس، شوارعها نابضة بالحركة والحب والجمال، وناسها طيبون، جبالها خضرة نضرة، وأشجارها ثمار، ووحي أشعار، تطل عليها، فتطل عليك حنونة وخبيرة في إزاحة الهموم والضجر من نفسك،

تطل على روعة طبيعة بيروت، التي تزيدها جمالاً على جمالها، إطلالتها على البحر، التي تجيء في معظمها من أماكن مرتفعة، بما فيه شريط أرضها المحاذي للأمواج، والمرتفع عن سطح البحر، كما هو الحال في كورنيش «الروشة»، الذي لا تمل الوقوف والجلوس فيه لساعات طوال، تشبع خلالها من الطبيعة، فها هو البحر تحتك وأمامك، وخلفك المدينة تعلو وتزدهر، وحينذاك تحب كل شيء فيها.

وعلى مستوى السياسية، كنا ننظر إلى بيروت، باعتبارها المنار الذي يشع نوره ليرشد السفن والبواخر، فتمخر عباب البحر العاتية، حتى تصل إلى الميناء بأمن وسلام، كانت بيروت، وما زالت، حوضاً خازناً لكافة الاتجاهات الفكرية والسياسية والمذهبية، فهي التي أقرت قبل نصف قرن، مسألة الديمقراطية والتعددية السياسية، ومبدأ قبول الرأي والرأي الآخر، وحينها، هوجمت هذه الواحة الحرة، واستباحتها رياح ورمال الصحارى العربية، وثعالب التجسس الدولي، حتى حولوا ذلك التعايش، وذلك المنار، وتلك الواحات وارفة الظلال، إلى خرائب وخنادق ومليشيات، وشهدت حرباً أهلية استمرت 17 سنة، ورغم مأساة الحرب التي خلفت دماراً هائلاً، مادياً وبشرياً، ظلت بيروت باقية، وها هي قد استعادت عافيتها، بفضل إنسانها المتسم بالثقافة والعلم والانفتاح.

هكذا ننظر إلى بيروت، ولطالما سألت نفسي مراراً، وفي أوقات متفاوتة: تُرى، كيف تنظر عيون بيروت إلينا؟، وفي كل مرة يخطر هذا السؤال، أجيب نفسي: وما همك عن نظرتها إليكم، فهذا هو شأنها، يكفي أنك تحبها.

في عام 1972م، زرتها لعرض برنامج التنظيم السياسي للجبهة القومية، وكان أول برنامج سياسي متكامل للتنظيم الذي يحكم عدن (جنوبي اليمن) منذ

أكثر من أربعة أعوام، وهو البرنامج المقر من قبل «المؤتمر العام الخامس» للتنظيم.

في تلك الزيارة، قابلت، ولأول مرة، الدكتور جورج حبش ونايف حواتمة ومحسن إبراهيم وفواز طرابلسي وياسر عبد ربه وصلاح صلاح وأحمد اليماني وأبو ليلى، وعدداً آخر من القيادات اللبنانية والفلسطينية، التي كانت على صلة تنظيمية بنا، وخلال الزيارة، زرنا بعض المخيمات الفلسطينية، وخاصة مخيم تل الزعتر، الذي حظي بوقت أطول من غيره، وكم كانت دهشتي لموقف الدكتور جورج حبش، الذي وصف البرنامج السياسي للتنظيم السياسي الجبهة القومية بـ «التحريفية»، نظراً لاعترافنا فيه (البرنامج)، بمنظمة التحرير الفلسطينية، بينما كان الدكتور حبش يمثل، حينذاك، قوة جبهة الرفض الدائمة للمشاريع غير اليسارية، لكن الموقف المذكور لم يؤثر في علاقتنا به، فقد تعززت الصلة بهذا القائد العربي الفلسطيني لاحقاً، بحكم ما مثله ويمثله من خط صادق مع النفس ومع الآخرين، سواء أثناء قيادته لحركة القوميين العرب، أو أثناء قيادته للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، وهو بحق كما لقب بـ «حكيم الثورة الفلسطينية»، لما عرف به من حكمة في الشدائد وحنكة قيادية في المصاعب، وهو قائد فذ أيضاً، لأن لديه من الصفات الحميدة ما يؤهله لذلك، وقد خسره الفلسطينيون وخسره العرب حين توفاه الله، في بداية العام المنصرم **2008**م.

توالت زيارتي الرسمية والعملية لهذه المدينة منذ عام **1975**م، وحتى **1994**م، نظراً لتحملي مسؤولية العلاقات الخارجية من عام **1975**م حتى **1979**م، ووزيراً للخارجية حتى نهاية عام **1982**م. قابلت خلال تلك الزيارات، رؤساء لبنانيين، منهم: الرئيس إلياس سركيس، إلياس الهراوي، شفيق الوزان، نبيه بري، الشهيد رفيق الحريري، كما كانت لنا علاقة متميزة مع القائد العربي كمال جنبلاط، الذي زار عدن في بداية السبعينيات، وشاهد وادي

حضرموت، فأعجب كثيراً به، هذا فضلاً عن العلاقات الكفاحية مع القادة الناصريين والبعثيين والشيوعيين، وبالذات الشهيد جورج حاوي ونديم عبد الصمد وكريم مروه وحسين مروه، وغيرهم، وكذا، قادة الحزب الاجتماعي السوري.

وتعرفنا إلى كثير من الساسة والمثقفين اللبنانيين، وعلى وجه الخصوص، ممن كانوا يتابعون التجربة في عدن عن كثب، وكثيرون منهم كانوا يزورون عدن بانتظام، ومن هؤلاء، كمثال، المفكر اللبناني الصديق فواز الطرابلسي، الذي كتب ترانيمه عن تجربة اليمن الجنوبي الثورية، في كتاب كتبه في باريس، وأصدره في لندن قبل بضعة أعوام، وعنوانه: «وعود عدن»، وجاءت ترانيمه من زوايا ورؤى مختلفة فيها من النقد، ومن الحلم، ومن الحب، ومن التقييم ما يحمله كثير من المبدعين والمثقفين والسياسيين اللبنانيين تجاه عدن، وتجاه اليمن الديمقراطي.

ومن فضائل بيروت، أنها مكنتنا من التعرف إلى الرئيس الفلسطيني ياسر عرفات (أبو عمار)، وعدد من رفاقه القادة الفلسطينيين، منهم: أبو أياد، وأبو جهاد، وفاروق قدومي، وغيرهم، وأصبحت عدن منذ منتصف السبعينيات حتى يوم تحقيق الوحدة اليمنية عام 1990م، محطة خلفية للشعب الفلسطيني واللبناني الشقيق. ولعب سفراؤنا في لبنان، الذين كان أولهم المرحوم محمد ناصر محمد، مؤسس صحيفة «الطريق»، التي كانت تصدر في عدن قبل الاستقلال، وأعيد إصدارها في بداية التسعينيات، بعد قيام الجمهورية اليمنية، وهو ذلك المثقف العدني، الذي أسس وكالة أنباء عدن أيضاً، ومحمد عبد القوي، ومحمد أحمد سلمان، ومحمد الشطفة، وآخرهم عبد الله ناصر «الفاصوليا»، أدواراً طيبة في تطوير العلاقات بين الشعبين والبلدين، رغم بعض الندوب التي أملتها المواقف السياسية حينذاك.

لقد تعدى عملنا في بيروت ولبنان، إسهامنا في تشكيل الجبهة الفلسطينية النضالية الواسعة، إلى خلق الخلفية الداعمة والمساندة للثورة الفلسطينية، لتشمل التأثير في عدد من البلدان التي لها علاقة باليمن الديمقراطية، ومنها على سبيل المثال، جمهورية إثيوبيا الاشتراكية، التي أنزلت العلم الإسرائيلي ورفعت العلم الفلسطيني، وفتحت مكاتب للمنظمات الفلسطينية واللبنانية في أديس أبابا، وقام وزير خارجية إثيوبيا في بداية الثمانينيات، بزيارة إلى سوريا وبيروت، وقابل قياداتها لأول مرة في التاريخ المعاصر، مؤكداً دعم أفريقيا التي تحتضن (أديس أبابا) مقر منظمتها القارية، للقضية الفلسطينية، وجاءت هذه الزيارة وجهودنا المماثلة مع دول أخرى، في وقت أضحت فيه لبنان تمثل مع سوريا القاعدة الأمامية في مواجهة الصهيونية العالمية.

استقطبت بيروت الكثير من أبناء العرب المتمردين على الأوضاع في بلدانهم، فكان لها أن أخذت وأعطت، وأصبحت مقاس الزمن العربي في عنفوانه وسكونه، في حروبه وسلمه، وليس أمامك غير القبول بدورها هذا، الذي كان من دواعي بقاء المحبة للأصدقاء في بيروت، ومن أسباب بقاء بيروت في القلب والعقل معاً.

وأظلم بيروت إذا حصرت المحبة والود لها في السياسة وعلاقتها السياسية بأبناء العرب والعالم العربي، لأنها كانت أيضاً قبلة السياح العرب، وخاصة ممن يملكون القدرة على السفر إليها، أو ممن يملكون الثروة للإقامة والاستقرار فيها، أو زيارتها طوال صيف كل عام، وكانت هذه المدينة في الستينات والسبعينات (إلى ما قبل اندلاع الحرب الأهلية)، قبلة أفواج من المثقفين العرب، والكتاب والفنانين العرب، وعشاق الجمال، هذا إلى جانب وجود كل مكونات الاتجاهات القومية والثورية العربية فيها، التي سبق إيرادها، ولهذا، عند زيارتها،

كنا نذهل منها ومن قدرتها على احتضان كل هذا العدد الهائل المتنوع من الشخصيات العربية من جميع الأقطار، والكم الهائل من الاتجاهات الفكرية والسياسية والأدبية والمواطنين العاديين، وعشاق الثقافة والطبيعة والجمال.

وفوق مجمل ما أوضحناه من ميزات وصفات خاصة لمدينة بيروت العظيمة، لا ننسى كونها بوتقة للمذاهب والطوائف الدينية، عندما كنت أزور بيروت في السبعينات والثمانينات من القرن الماضي، كنت – مثل كثيرين غيري – لا نعرف تفاصيل أبنائها طائفياً: كم طائفة كذا، وكم طائفة كذا، بل إننا لم نكن نسأل كم عدد المسلمين وكم عدد المسيحيين في لبنان، ونادراً ما كنا نسأل مسؤولاً أو صديقاً أو شخصاً قابلناه: من أي طائفة مسلمة هو، أو من أي طائفة مسيحية أنت؟، فقط إذا تعمقت المعرفة، حينها يمكننا أن نسأله: هل أنت مسلم أم مسيحي؟.

حقاً، لم أكن أعرف التقسيم الطائفي لأبناء بيروت حتى سنوات قليلة خلت، وتحديداً، عندما سمعت بخلافات الأحزاب والتنظيمات التقسيمات الانتخابية لدوائر بيروت، التي يزيد عدد سكانها اليوم عن المليوني نسمة، وهاكم ما قرأت: السنة **45**%، الشيعة **16**%، الأرمن الأرثوذكس **10**%، الروم الأرثوذكس **9**%، الموارنة **6**%، أقليات مسيحية **5**%، الروم الكاثوليك **4**%، السريان **2**%، الأرمن الكاثوليك **2**%، الدروز **1**%، يا لها من مدينة عظيمة وحنونة، تحتضن كل هذا الكم المتنوع من الطوائف، إنها مدينة تحتضن الثقافة والوعي والتنوع والتعايش السياسي والمذهبي، بجدارة تستحق التقدير.

والمؤسف أن كل الميزات البيروتية الرائعة والمدهشة في النضال الثوري، وفي السياسة والثقافة والسياحة، والطوائف والمذاهب، كانت قد بدأت بالتلاشي في عام **1975**م، مثلما تختفي أسراب الطيور الجميلة مولية في

السماء، وذلك عندما اندلعت الحرب الأهلية بين الطوائف والأحزاب والفصائل، وأصبحت المدينة واقعة في شطرين (شرقي وغربي)، واشتد الصراع، وازداد الخراب والفوضى، حين قام الجيش الإسرائيلي في عام **1978**م، باجتياح لبنان، واحتلال جنوبيّه حتى نهر الليطاني، وتضاعفت كارثة المدينة عند العدوان الإسرائيلي الثاني في عام **1982**م، الذي وصل إلى مشارف العاصمة وحاصرها.

في عام **1990**م، عاد الوضع في لبنان إلى طبيعته، وعادت بيروت إلى مكانتها، من خلال عمليات إعادة بناء واسعة، لتبقى مركزاً ثقافياً وتجارياً وعربياً رائداً، خاصة بعد اتفاقية «الطائف» بين الأطراف اللبنانية، ثم جاءت حرب يوليو عام **2006**م بين لبنان وإسرائيل، لتهدم معظم ما بُني خلال **16** عاماً، ولكنه كان ثمن تحرير الجنوب، وثمن الانتصار لحزب الله، ولكل القوى الوطنية اللبنانية، وهو انتصار ثمين في تاريخ الصراع العربي – الإسرائيلي.

أرمي من هذا السرد التاريخي الموجز، الذي أوردته آنفاً، إلى أن أبين ما عانت منه هذه المدينة من عذابات ومآسٍ، وكذا التأكيد على حقيقة أن الدور الذي لعبته المدينة في الستينيات والسبعينيات، وما كان لها أن تلعبه بعد تلك المرحلة، لولا الحروب الداخلية والخارجية التي عصفت بها، فكل الحوادث التاريخية تؤكد حقيقتين:

ـ الأولى أن بيروت مرآة عاكسة للحالة العربية، هكذا هو قدرها – شاءت أم أبت – فقد شهدت اضطرابات أثناء النزاع حول حلف بغداد عام **1956**م، كما أنها عانت كثيراً بسبب نتائج حرب **1967**م بين إسرائيل والعرب، بأن أصبحت مركزاً أساسياً للفصائل الفلسطينية، ولعل هذا بسبب تعلق العرب الشديد بها.

ـ الحقيقة الثانية تعود إليها، فالمدينة لها دور وتأثير منذ الخمسينيات في العالم العربي والقومية العربية، ولا بد أن يعود عليها تأثيرها بتأثير معاكس، ودورها وتأثيرها المذكوران، لم يفرضا عليها، بل تريدهما هي فعلاً، شاء السياسيون أم أبوا، ولعل هذا بسبب تعلقها الكبير بالعرب وبالعروبة وبالتقدم والحداثة.

تتعافى بيروت الآن تدريجياً من كل ما جرى لها من مآسٍ وصراعات وحروب وخلافات سياسية لا تتوقف عن النمو والصخب، وأرى أن أهم ما تحتاجه المدينة اليوم، هو استعادة الثقة بين مجمل أبنائها بشتى أنواع سجلات ماضيهم، وبمختلف توجهاتهم السياسية والطائفية، ذلك أن المدينة مغطاة بسحابات من شك الريبة والخوف المستمد مما مضى، إلى حد تعتقد فيه أنت أن اللبنانيين يعانون من مرض الارتياب الأمني، فهم مثلاً يعانون من قلق خاص تجاه ظاهرة التصفيات الجسدية الشخصية السياسية، وقد ذكرتني بهذا الصديقة وردة، وهي إحدى الصحافيات، فعند استشهاد الرفيق جار الله عمر، القيادي الاشتراكي في مدينة صنعاء، إذا بها تهاتفني من بيروت فور إعلان الحادث بساعات:

ـ لقد قتلوا جار الله عمر، وأنتم في القائمة القادمة؟.

فقلت لها: كلنا في الهم شرق، عرب، فقد قتلوا رفيق الحريري قبل ذلك، وربما القائمة ستطول عندكم، فإذا بها تقول: الثمن سيكون زلازل جديدة في المنطقة، وليس زلزال العراق وحده.

ثم استمر الحديث معها عن الذكريات، عن أبي عمار وحبش الحكيم ونايف حواتمة وأبو نضال وأبو فراس، إذ إن علاقة وردة بالجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين، متينة، ولم تمل النضال الذي ملّه كثير من الرجال الأشداء.

أعتقد أن اللبنانيين سيتخلصون من الارتياب الأمني قريباً، تماماً مثلما بدأت أنا أتخلص من إهمال مفاتن مدينة بيروت الكثيرة، ذلك أن زياراتي السابقة

والمتعددة إليها، لم تكن سوى للعمل السياسي، ثم للعمل الدبلوماسي الرسمي، ولم تصبح للنزهة أو الاستجمام، إلا بعد عام 1996م، أي بعد نحو 24 عاماً من زيارتي الأولى لها.

كانت الزيارات السابقة لها، وأنا بصفة مسؤول سياسي أو حكومي، وأصبحت أزورها منذ العام المذكور كمواطن (قبل أن أعين مستشاراً لرئيس الجمهورية اليمنية عام 2003م)، وشتان بين أن تزور بيروت مواطناً، وأن تزورها مسؤولاً حكومياً، ففي حالة زرتها مسؤولاً سياسياً أو حكومياً، فإنك تنظر إلى مفاتنها السياسية من بين مجموع مفاتنها الكثيرة، أما في حالة زيارتك لها مواطناً عادياً، فتتوفر لك الفرص والأجواء في أن تنظر وتلمس مفاتنها الطبيعية والحياتية والاجتماعية وغيرها، وهنا، يصعب عليّ الوصف درجات ودرجات عما وصفته في هذا الحيز عن الجوانب السياسية لهذه المدينة.

لذا، أقول إنه من أراد أن يعرف مفاتن بيروت الطبيعية، وسحرها الحياتي، وعذوبة عيشها الاجتماعي، فعلية ألا يقرأ، بل عليه أن يتوجه إلى هناك مباشرة، إلى بيروت.

توقف الحديث عن بيروت ولبنان منذ عقد من الزمن، شهدت خلاله العديد من التطورات والأحداث، بفعل الحرب في سوريا، واحتلال «داعش» لعدد من مناطق سوريا والعراق، وما تشهده منطقة الشرق الأوسط برمتها من زلازل اجتماعية، وحروب وصراعات، أحدثت انقسامات في كل مكان، والمشهد قائم بكوارثه وأزماته، ولا يزال حتى اليوم.

الدوحة

> قال الرئيس علي ناصر محمد لنا ونحن في زيارة رسمية لدولة قطر الشقيقة، بعد أن قابل ولي العهد السابق، سمو الأمير الحالي لدولة قطر، سمو الشيخ حمد بن خليفة آل ثاني، وكان ذلك في بداية الثمانينيات: «لقد وجدت لهجة جديدة ونفساً جديداً لدى هذا الأمير».

تعجب البعض من أعضاء الوفد، وتساءل البعض الآخر منا، فسألوا: «حسناً.. وفي أي اتجاه؟»»، فقال الرئيس علي ناصر: «في اتجاه عروبي، وهو يختلف عن والده كثيراً»، وقد تعزز هذا المفهوم لدى تعرفنا إلى سمو الأمير أثناء زيارته الأخيرة لصنعاء عام **2007**م.

هذه المدينة جميلة، مثلها مثل واحات الخليج العربي، بلدة خيرة، يبلغ عدد سكانها حالياً ما يقارب نصف مليون نسمة، وتسمى «جوهرة» شبه جزيرة قطر، التي تمتد إلى المملكة العربية السعودية برأس من اليابسة، يسمى «سلوى»، وتحيطها المياه من ثلاث جهات، ولهذا سميت بـ «الدوحة»، لشبهها بالإناء الحاوي للماء المصنوع من الفخار الترابي، والذي يسمى باللهجة الشعبية بـ «الدوح». لكنها تعني بالعربية الفصحى، المنطقة الكثيفة الأشجار والوارفة الظلال والعربية الفصحى هي الأجدر بالقياس.

زرتها مرات كثيرة، فوجدت أبناء قطر يتعاملون معنا (حتى ونحن في قوام وفود رسمية)، وكأنهم يعرفوننا من أمد بعيد، هذا ما لمست من أول زيارة لها، ولم لا؟، ونحن أبناء شبه الجزيرة العربية، نشكل نسيج شعب واحد، والإضافة، وجود جالية يمنية كبيرة – هنا – من مناطق شتى من اليمن، وأقدمها وجوداً، أولئك الذين جاؤوا من مناطق يافع، فتأثروا بإخوانهم القطريين، وأثروا فيهم،

وإن قليلاً، والمهم هنا هو انسجام الطبائع، وعلى مدى طويل، وحتى اليوم، تم استيعاب واندماج اليمنيين القادمين في المجتمع القطري، وحصل البعض منهم على الجنسية القطرية، وكثيرون منهم يعملون في مرافق الدولة، بما فيها مؤسستا القوات المسلحة والشرطة القطرية، وتتجسد علاقة قطر باليمن رسمياً الآن، في دعم جيد لعدد من القطاعات الاقتصادية والاجتماعية، وكذا، في تمويل عدد من مشاريع البنى التحتية، وأهمها عدة مشروعات طرق رئيسة، مثل طريق باتيس – رصد الحيوي في محافظة أبين، الذي يجري شقه الآن.

إن أهمية «دوحة قطر» وتأثيرها ومكانتها، تخرج الآن عن نطاق شبه الجزيرة العربية وتخرج عن نطاق المنطقة العربية، وتصل إلى مستوى العالمية، لا من حيث دورها الاقتصادي الهام دولياً، حيث تنعقد فيها العديد من الفعاليات العالمية الاقتصادية، بل من حيث نشاطاتها السياسية والإعلامية، سواء عبر الدور الذي تلعبه في القضايا المثارة في المنطقة العربية والشرق الأوسط وأفريقيا، أو إعلامياً من خلال قناة «الجزيرة» الفضائية، والتي تعد القناة الفضائية العربية الأكثر انفتاحاً وانتشاراً على المستوى العالمي.. وفوق هذا وذاك، فإن مدينة الدوحة، تكاد تكون مدينة أممية، فغالبية السكان فيها من الأجانب، وأغلبية الوافدين إلى قطر، هم من بلدان جنوب آسيا، مثل: الهند وباكستان وبنغلاديش، والبلدان العربية، كبلاد الشام، اليمن، مصر، ودول شمال أفريقيا العربية. وهناك وافدون وعاملون من الولايات المتحدة، كندا، فرنسا، جنوب أفريقيا، المملكة المتحدة، النرويج، وغيرها، كما أن حكومة قطر، سمحت منذ سنوات، للمقيمين والمستثمرين بتملك الأراضي. وأيضاً سمحت منذ عامين ببناء عدة كنائس، وقد افتتح في بداية عام 2008م، أول معبد للمسيحيين الكاثوليك.

طقسها حار جداً في الصيف، إنما وسائل التكييف في المنازل والسيارات وكل مكان، تخفف من حدته، ويعتدل الجو في الفترة من شهر نوفمبر وحتى شهر أبريل من كل عام، وتبذل الدوحة جهودها في أن تتميز بظلال تريح النفوس، ورائحة مميزة بمسك الحداثة في عهد أميرها الشاب، بتلك الأدوار العربية والدولية التي تقوم بها، والتي تعتبر في نظر المتابعين، خط إبداع جديداً في السياسات العربية، عدد قليل يرى فيها امتداداً لسياسة والد الأمير (الأب)، ومجلس التعاون الخليجي، في توزيع للأدوار تقتضيه المرحلة، وعدد أقل يرى فيها أنها تمثل الحاجة إلى خروج الدوحة عن السرب قليلاً، مثلما كانت عليه الكويت في الستينات والسبعينات، ولعل هذا الخروج – الذي يبدو أحياناً – لا يبعد كثيراً عن السرب، خاصة في ظل وجود كواسر لا ترحم من يخرج كثيراً عن سربه، ولعل فتح «قناة الجزيرة» الفضائية منذ سبع سنوات خلت، يدل على شق طريق جديد في العمل الإعلامي العربي، يمثل هذا التميز الذي يحاول أن يحافظ على نقاوته، وعلى التباين القطري الذي يقل شيئاً فشيئاً في ظل الوحدة الخليجية، في إطار «مجلس التعاون لدول الخليج العربية».

وفي هذا السياق، فالأمل معلق على الأمير الشيخ حمد بن خليفة آل ثاني، وجيل القيادات الشابة معه، في أن يستطيع أن يستفيد من الثروات الطيبة التي تتمتع بها قطر الأطيب، وكذا، تنويع الموارد الأخرى، غير موردي النفط والغاز، ما يعزز ضمن تطور هذه الواحة في الأجيال القادمة، وأنا لا أتحدث هنا بنفس الرؤية الروائية التي وصفها الروائي العربي الكبير عبد الرحمن منيف في روايته «مدن الملح»، والتي تنتهي بدول الخليج، بنضوب موردها الأساسي – النفط، ومثل هذا التشاؤم، لم يعد له وجود، حيث إن قطر أصبحت ثالث أكبر مصدر للغاز الطبيعي في العالم، ولكني أتحدث – هنا – برؤية الافتخار، بما حققته قطر من منجزات اقتصادية وتنموية هائلة وجبارة، خاصة في عهد الأمير

الشاب. والحفاظ على تلك المنجزات، التي تعد من أفضل المؤشرات عالمياً، وأقول هذا، خاصة، في ظل الأزمة المالية والاقتصادية العالمية التي بدأت في نهاية عام **2007**م. وما زال أوارها مستعراً.

وأنا أكتب هنا عن الدوحة، لا يفوتني أن أقول إن حب القطريين لليمن كبير، مثل غيرهم من الدول الخليجية، ومن الشخصيات التي تسعى بإخلاص وعروبية إلى التكامل بين اليمن ودول الخليج، الأخ الأستاذ عبد الرحمن العطية، الأمين العام لمجلس التعاون لدول الخليج العربي، فهو، وتحديداً منذ عام **2006**م، حريص على السفر إلى اليمن، وزيادة التواصل بينها وبين مجلس التعاون الخليجي، وإقامة البرامج المنتظمة لإدماج اليمن بالاقتصادات الخليجية ونشاطات المجلس الأخرى.

ومع ذلك، أقول هنا، إن على المسؤولين اليمنيين والحكومة اليمنية، عدم تضييع الوقت أو الارتهان إلى الاتكالية في أن جهد مجلس التعاون الخليجي سيقوم بكل شيء، وسيقدم كل شيء، فمثل هذه الاتكالية، هي التي أضاعت فرصاً تاريخية في السابق، لم يستفد منها اليمن. وأن على اليمن أن يستفيد بأقصى إمكانية وأقصر وقت ممكن، من التوجه الإيجابي لمجلس التعاون الخليجي تجاه اليمن.

قطر لها وعليها، وهي تؤثر وتتأثر، مثل غيرها من البلدان، فبعد أن سلم الأمير حمد السلطة لابنه الشاب تميم، تتجاذب قطر السياسات الدولية فيه، مثلاً في اليمن، وقفت في حرب **1994** مع النظام في صنعاء، وضدنا في الجنوب، وها هي في حرب **2015**، تقف مع الرئيس عبدربه منصور هادي، ضد التمرد الحوثي وصالح، فيما تعادي مصر والقيادة السياسية التي جاءت بعد الإخوان المسلمين، بقيادة الجنرال عبد الفتاح السيسي.

تونس وقرطاج

تُعد تونس، البلد الأكثر انفتاحاً في المغرب العربي، مع أنها الأقل ثروة، مقارنة بجيرانها من دول المغرب العربي، كونها ضعيفة الموارد الطبيعية، ما جعلها تختار التنمية بالوسائل والإمكانات المتاحة؛ فأولت جل اهتمامها للقطاع السياحي بدرجة أساسية، نتيجة لقربها من مواطن السياح الأوروبيين، وتمتعها بسمات سياحية تمكنها من لعب دور سياحي هام. ثم اختارت تنمية الزراعة وصناعة المواد الغذائية، لأن لديها إمكانات زراعية لا بأس بها، أضف إلى ذلك الاعتماد في الزراعة والصناعات الصغيرة، كصناعة الملابس، على العمالة الوطنية المتوفرة محلياً، أما المورد الثالث لتونس، فهو عائدات وموارد العمالة التونسية التي تعمل في الخارج، وخاصة في فرنسا وإيطاليا وإسبانيا وغيرها من الدول الأوروبية، الذي يصب في جميع فروع الاقتصاد الوطني تقريباً.

تونس مدينة غنية، بما تمتلكه من مقومات خاصة بها، فإذا تجولت فيها، ترى مبانيها تعكس النمط العربي الجميل، والنقوش العربية والإسلامية، التي تدل على حب الفن والأصالة وثروة الثقافة، كما تراها مجتمعة في أبرز معالم المدينة «جامع الزيتونة»، الذي يعد تحفة فنية معمارية فريدة، ولكن هذا النمط تأثر ببعض تأثيرات المعمار الفرنسي، نتيجة للاحتلال الفرنسي لتونس منذ عام 1881م، وحتى استقلال البلاد بعد الحرب العالمية الثانية. وأيضاً أثرت وتؤثر الحداثة في كل الأنماط المعمارية القديمة والسابقة، فالتونسيون يقسمون المدينة إلى المدينة القديمة، الواقعة على تلة واسعة، تمتد من «بحيرة تونس» باتجاه سهول ووديان في عمق البلاد، ومدينة حديثة، تمتد بين القديمة والبحيرة.

وتساءلت مع نفسي، وأنا أتنزه في المدينة، فقلت، ها هي تونس، غاية في الجمال والترتيب والمظهر الحسن من كل ناحية، فكيف لو كانت واقعة في دولة تمتلك النفط – ثروة العصر، أو كيف سيكون حالها، لو أن النفط موجود هنا في باطن الأرض، بيد أن المثل يقول: «رب ضارة نافعة»، فالأرضية الاقتصادية غير النفطية، جعلت من تونس بلداً مسالماً، لا يحب المواجهات والأحلاف والصراعات، لأن كثيرين لا يعرفون أن المواجهات بين الدول والأحلاف والصراعات، تحتاج إلى ميزانيات وأموال طائلة، ومع ذلك، فإن الأوضاع السائدة في الشرق الأوسط وفي المغرب العربي، كانت ترغم التونسيين وتجرهم جراً إلى مثل سلوكيات الدول المذكورة، التي لا تجلب خيراً، فتدخلهم في دوامة المقاطعات، والمعارضات، والصراع، أرادوا أم لم يريدوا ذلك.

وأورد هذا الحديث، عودة إلى ما عشناه من ظروف عربية عصيبة، حين كانت تونس المدينة مقراً لجامعة الدول العربية في الفترة من عام **1979**م وحتى عام **1990**م؛ فلقد ظهر ذلك جلياً، عندما قاطعت الدول العربية جميعها، جمهورية مصر العربية «القاهرة»، بسبب زيارة الرئيس أنور السادات إلى «القدس المحتلة»، ووضعه مع العدو الإسرائيلي أساس سلام بين البلدين، دون سواها من الدول العربية المواجهة، ولذا، أجمع العرب على نقل مقر جامعة الدول العربية من هناك إلى تونس، كاحتجاج وعقاب لمصر على تطبيع العلاقات مع إسرائيل. وقد يتساءل المرء: لماذا اختيرت مدينة تونس على وجه التحديد، كمقر للجامعة العربية؟ وما عرفته حينها، أن مدينة تونس اختيرت كمقر بديل للجامعة العربية، كرد اعتبار للرئيس التونسي الحبيب بورقيبة، الذي كان يوصف أو يتهم بأنه صاحب الدعوة إلى المصالحة مع إسرائيل، والاعتراف بها كدولة، إذا ما أعطت للفلسطينيين حقهم في الأرض، بما يتفق

وقرارات الأمم المتحدة بهذا الصدد. ولذا، لم يتوفر للمدينة يد من قبول الدعوة ورد الاعتبار.

في نوفمبر عام **1979**م، كنت في تونس برفقة الرئيس عبد الفتاح إسماعيل، لحضور اجتماعات الملوك والرؤساء العرب – مؤتمر القمة العربي (باستثناء جمهورية مصر العربية)، وفي تلك الاجتماعات، خيمت أحداث طارئة في مكة المكرمة، هي دخول الإرهابي المتطرف «بن طعيمان» إلى الكعبة المشرفة والاستيلاء عليها لبعض الوقت، ما ولّد حزناً عميقاً، ليس لدى الرؤساء والملوك والحكام العرب، بل ولدى كل من حضر المؤتمر، ولدى التونسيين جميعاً، أولاً، لأن مكة مقدسة لدينا جميعاً. وثانياً، لأننا لم نعرف أيامها الإرهاب، كما هو حاصل اليوم، وبرغم متابعة أنباء ذلك الحادث المؤلم، فقد أتيحت لنا فرصة مقابلة الرئيس التونسي الحبيب بورقيبة، والذي كان حينها قد بدأ بفقد جزء من ذاكرته، بحكم التقدم في السن، لكن حاله هذه لم تُعِق سير المقابلة أو تفاهمنا معه.

زرت تونس بعد ذلك مع الأخ الوزير علي لطف الثور، وكانت الوجهة هذه المرة، مدينة قرطاج الفينيقية، التي تبعد عن مدينة تونس العاصمة بمسافة قصيرة، والهدف الأساسي، كان مقر الحكم بقصر قرطاج، وحين دلفنا إلى القصر، ودخلنا إلى ساحته البديعة المنظر، صدحت الموسيقى من آلات الفرق الفنية شبه النظامية، وأخذت تعزف ألحاناً عذبة، لها إيقاعات مطربة، وكنا نعتقد للحظات أن تلك الألحان تعزف لنا، ولكن اتضح أنها وفقاً للعادة، بمثابة تحية للرئيس التونسي، وليست تحية لاستقبالنا، ولكننا اعتبرناها كذلك، وعندما دخلنا وسلمنا على فخامة الرئيس، قال بصوت متهدج: «لو انتظرت الجامعة العربية، لعملت ما عملت بفلسطين، ولكني لم أستسلم له عندما قال لي انتظر حتى نحل قضية فلسطين».

وكان الشخص المقصود بكلام الحبيب بورقيبة، هو عبد الرحمن عزام – أمين عام جامعة الدول العربية في الفترة 1942 – 1952م، ثم حكى لنا قصصاً عن لقاءاته مع الأقطاب العربية وخلافاته الدائمة مع الغرب. ثم انتقل ليحدثنا عن حركة عام 1948م الوطنية ضد حكم الأئمة في اليمن، وذكر لنا أسماء كان يعرف أصحابها فرداً فرداً، لكنه، وعندما تساءل عن المهمة التي أتينا من أجلها، فأجبناه، إذا به ينتقل إلى موضوع آخر أشار بيده نحوي، وقال لي: «أنت الرجعي»، ثم أشار إلى جهة الأخ علي الثور، وقال: «هذا الاشتراكي»، ويبدو أن اعتدال الجسم والسمرة الباديتين على الأخ علي لطف الثور، جعلت الرئيس التونسي يصنفه على أنه يمثل الاشتراكية في اليمن، بينما كان لبنيتي الممتلئة وبياض البشرة، أثر العكس لدى فخامة الرئيس بورقيبة، حين صنفني على أني أمثل الرأسمالية في اليمن.

وكون ذلك التصنيف الرئاسي لي، كان يعتبر بمثابة تهمة في تلك الأيام، كما جرت العادة، فقد قمت مباشرة بإعادة تعريف شخصية كل منا لفخامته ثانية والابتسامة على وجهينا، بالتأكيد أن ذاكرة فخامته، كما سبق وأوضحت، لم تكن تستوعب معظم ما يصله، ولكن، وفي مثل هذه الحالات، فإن المقربين كانوا هم المسيرين للأمور، وفي مقدمهم السيدة وسيلة – رحمها الله.

وبقدر ما لصق اللقاء الأخير مع الرئيس بورقيبة في ذاكرتي؛ فلا أنسى هنا الإشارة إلى مدينة قرطاج، التي سحرتني بخصالها المتعددة والمتنوعة؛ فهي تأتيك من عمق التاريخ، وتسير بك إلى آفاق الجمال الحديث.

سميت بـ «قرطاج الفينيقية» تبعاً للتاريخ، لأن من أسسها هم الفينيقيون القادمون من لبنان، وأصبحت في تلك العهود الغابرة، عاصمة لإمبراطورية كبيرة شاسعة، ويقال إن الفيلسوف اليوناني «أرسطو»، ذكرها في أحد كتبه، ولذا، يكثر الحديث في قرطاج عن التاريخ القديم، وتكثر الآثار الموجودة فيها،

بسبب سجلها القديم الثري بالتجارة والحروب الصقلية والحروب الرومانية، وغيرها من الحروب التي لم تتوقف ولم تنتهِ إلا بدخول الإسلام إلى المدينة عام **698**م.

وفي المدينة الكثير من الشواهد الإسلامية، والكثير من المساجد، ولكن أجملها هو «مسجد العابدين»، الذي رأيته رائع الملامح، بديع البناء من الداخل والخارج، على حد سواء، وفي كل ما رأيناه في قرطاج من تنوع تاريخي ثقافي يتنافس مع بعضه البعض، تجد أيضاً أن الحاضر ينافس الماضي، حيث تتزاحم المباني البيضاء والأشجار الخضراء على احتلال مساحات المدينة، ولم تبقَ سوى مساحات قليلة للآثار القديمة في بعض الأماكن، وفقاً لمبدأ (البقاء للأفضل)، وفي أحد مواضع المدينة، رأيت بعض ما تبقى من أعمدة أثرية، وقصور قديمة، تركت أرضياتها كذكرى وقطع من بقايا أحجار عليها نقوش مبتورة، يفوح منها عبق التاريخ، وكأنها تقول لنا: ما ترونه قطرة من بحر التاريخ في قرطاج.

عودة إلى مدينة تونس، فلم تكن الزيارة المذكورة في الحديث السابق عنها، هي الزيارة الوحيدة؛ فقد زرتها مرات عديدة في العامين التاليين، عندما كنت وزيراً للخارجية في عدن، كما أن الزيارة المذكورة لم تكن الزيارة الأخيرة، فقد كانت الزيارة الأخيرة لها أثناء حرب **1994**م، حيث جرت في اليمن في شهر أبريل من ذلك العام، فقد ذهبت إلى تونس والحرب دائرة، طالباً من أشقائنا العرب هناك مساعدتنا في وقف نزيف الحرب الأهلية اليمنية، الذي كان مؤلماً ودامياً حينها في اليمن.

وعن الشخصيات التي تعرفنا إليها من أبناء تونس، لا يمكن للمرء أن ينسى أشخاصاً كثيرين من رجاله المثقفين، حيث كانت لنا علاقات في البداية ببعض الأحزاب التونسية ذات الميول اليسارية، ولكن من خلال زيارتنا، ومن

خلال الفعاليات العربية المشتركة والفعاليات الدولية، تعرفنا إلى آخرين من أبناء تونس مسؤولين ومواطنين ومثقفين، ومن كل الاتجاهات، فمثلاً، اطلعنا على اجتهادات الشيخ الغنوشي، الذي كان في ذلك الوقت لا يزال يعيش في تونس، ويقود الحركة الإسلامية باعتدال، وهذا الاعتدال هو سمة اتصف بها محمد المزالي، رئيس الوزراء السابق، وهو أيضاً الشخص الذي قرب الشاذلي القليبي، أمين عام جامعة الدول العربية 1979 – 1990م (منذ انتقالها وحتى عودتها إلى القاهرة – مصر)، إلى قلوبنا في عدن وفي اليمن، فقد كان الأخ الشاذلي صديقاً لكثير من القيادية في اليمن، وكذا، صديق لكل الوزراء اليمنيين الذين يزورون تونس، وعند قدومهم، لم يكن يحتضنهم مقر الجامعة العربية في مدينة تونس، بل منزله الجميل الأنيق الأشبه بالتحفة، والذي أشهد له بأنه يعكس بجلاء، عقليته كوزير الثقافة التونسي السابق، ورهافة حسه، ويعكس أيضاً الأفق الذي يتمتع به أمين عام الجامعة العربية – آنذاك – ألا وهو الشاذلي القليبي، الذي استقبلته عدن عدة مرات بقلب كله ارتياح ومحبة، ثائراً وصديقاً ودبلوماسياً محنكاً.

خلال العقد الماضي، حصلت ثورة شعبية عارمة، وجاء حكام جدد، وذهب السابقون، وظهرت حركات متطرفة في تونس، والمخاض لا يزال قائماً، وربنا المعين.

الربـاط

قال الشاعر العربي «هاشم شفيق»، في وصفه لمدينة «الرباط» المغربية:

كنت ملتبساً..
في الجوائح ليل طويل..
وتحت الشغاف جروح..

شغفت بها حين جاءت..
وألقت على مباهجها..
في مساء الرباط..
أقول لها:
سوف أكثر هذا الأصيل..
أشظيه ثم أجمعه..
من مياه البحار..
له ألف لون وكون..
لأصنع منه مرايا صغيرة.

الرباط من أجمل مدن المغرب العربي حقاً؛ ففي زمن المرابطين، وهم من أسسها في القرن الثاني عشر، وفي زمن الفتوحات الإسلامية الأولى، شاع انتشار الأربطة في شمال أفريقيا، وهذه الأربطة نوع من العمارة الحربية والدينية، والتي رابط فيها المجاهدون الإسلاميون لمواجهة الغزاة من الأوروبيون عبر الأزمنة القديمة، آخذين بالحديث النبوي الشريف القائل: (رباط يوم في سبيل الله، خير من الدنيا وما فيها)، وقد بدأت انتعاشة المدينة بعد مرور أكثر من 100 عام على تأسيسها، وعلى مدى 3 قرون، وذلك حين قدم إليها الأندلسيون دفعات

متلاحقة من الأندلس عند طردهم من هناك، وما زال كثير من عاداتهم وملابسهم وصناعاتهم وحرفهم، قائمة حتى اليوم، ضمن النسيج الوطني المغربي.

والرباط من المدن المغربية الأقرب إلى القلب والعقل معاً، إنها تحتضنك كعربي، كما تحتضن الأم وليدها بتلقائية شديدة، كتلقائية الملك الحسن ملك المغرب، وقائدها وإنسانها المثقف، رحمة الله عليه، الذي تشعر أثناء مقابلتك له بهدوئه وعمق تفكيره وبصيرته الثاقبة، وهذا ما حدث معي عند زيارتي الأولى لها عام **1979**م، حين التقيت جلالته لأول مرة، وعندما حضرت مؤتمر القمة العربية الثاني عشر مع الرئيس علي ناصر محمد في نوفمبر **1981**م، وكذا عند حضور مؤتمر القمة غير العادي الثاني، في سبتمبر **1982**م، وكنت حينها وزيراً للخارجية، وكذلك في آخر زيارة رسمية لي إلى المغرب، وكانت برفقة الأخ الرئيس علي عبد الله صالح في عام **1993**م.

آخر زيارة للرباط، جاءت عام **1994**م في وقت كانت تدور فيه الحرب الأهلية اليمنية، وقد قابلت فيها الملك الحسن الثاني – رحمه الله – فوجدت فيه، كعادته دائماً، سعة الصدر، وعشت لحظات بشاشة اللقاء، وكرم الضيافة العربية. استمع إليّ باهتمام بالغ، وأنا أشرح له عن الحرب الدائرة حينها بين صنعاء وعدن، وكان متأثراً شديد التأثُّر لما يحدث في اليمن، وعبّر عن عدم رضاه عن الحرب الدائرة بين الإخوان في الأرض اليمنية، وطرحت عليه – يومها – فكرة قيامه بمحاولة إنهاء الحرب بيننا، بين الطرفين المتحاربين في اليمن، وإيقاف سفك الدماء هناك. كأن يتبنى نوعاً من الحلول أو المقترحات في هذا الاتجاه، فقال لي: «الحل هو بيدكم ويد إخوانكم في الشرق، فلا تطلبوا الحل من أحد غيرهم».

كانت هذه الإجابة كافية، بل ومقنعة بالعودة إلى دول المشرق؛ فكأنما أراد أن يقول عودوا لتنفيذ ما هو متفق عليه بوثيقة العهد والاتفاق بينكم، أنتم

اليمنيين، أولاً، ثم اتركوا الأمر لله سبحانه وتعالى.. تلك العبارة الصائبة التي قالها، تدل على قدرته الفائقة في السياسة وفهم الأبعاد الاستراتيجية.

وفي اللقاء مع جلالته، تكون مسروراً لجلالة الملك وللمحيط، وأقصد به أجواء القصر وملامحه وأثاثه وأرضه وسقوفه، فهي آيات جمالية وفنية رائعة، لكن تأثيرها الجمالي الحسي، يترك لديك انطباعاً نفسياً عميقاً، يقول لك أنت في أرض عربية وإسلامية طيبة، ولدى رجال ونِعْم الرجال، يمثلون خصال العروبة والإسلام. وهذا الإحساس ينتابك منذ قدومك إلى مبنى القصر الملكي ببوابته الكبيرة المليئة بالنقوش والكتابات الرخامية الجميلة، وقد وقف بها الجنود المغاربة وهم يرتدون ملابس جميلة، يغلب عليها اللون الأحمر، وتبدو تلك الملابس رائعة، بل إنها بدت لي أجمل من ملابس الحرس الملكي البريطاني المشهورة. فإذا كانت البوابة هكذا، فكيف لي أن أصف القصر بعد دخوله.

وإذا تجولت في شوارع المدينة، سترى شوارع وأبنية تسير على نفس منوال المنظر والمحتوى والتأثير، وكم أُعجَبت بمباني جامعة محمد الخامس، التي تجمع بين الأصالة والمعاصرة في المعمار المغاربي. كما ترى أبناء الرباط يرتدون الألبسة الجميلة الألوان والجيدة النوعية، وقد صُمّمت بتصاميم بديعة، فهم لم يحافظوا على التراث الثقافي المتمثل في عادات وتقاليد الملبس، بل وحافظوا على صناعات الأقمشة والملبوسات في المدينة، وطوروها وحسنوها وحدثوها، وما زالت المدينة حتى اليوم مركزاً لصناعة النسيج والأقمشة العالية الجودة.

وفي زيارتي الأخيرة إلى الرباط، تمكنت من زيارة الدار البيضاء، المدينة المغربية المشهورة، عندما سافرنا إليها بالسيارة، فهي لا تبعد عن العاصمة سوى حوالي **100** كيلومتر جنوباً، والدار البيضاء أكبر مدينة في المغرب من حيث عدد السكان، ففيها ما يزيد على **6** ملايين نسمة، وتُعد العاصمة الاقتصادية للمملكة، كونها تحتوي على معظم مصانع البلاد، كما أنها لا تقل جمالاً عن

الرباط، وتشدك فيها بعض المعالم الحديثة، وأهمها: مسجد الحسن الثاني، بمنارته الكبرى البديعة الشكل والنقوش، وبنائه الذي حاول أن يعكس فنون المغرب العربي الإسلامية. وكذا، لا بد أن ترى برجي الدار البيضاء، ففيهما ما يسر النظر.

لم تتغير انطباعاتي هذه عن المغرب ومليكه، حتى بعد قراءتي لتلك الرواية التي كتبتها فاطمة اوفقير (السجينة)، بعد معاناة في السجن عمرها **18** عاماً، ولا تلك الرواية الجميلة (الخبز الحافي) للروائي المغربي محمد شكري.

فاس

تأسست مدينة فاس عام 808م، كعاصمة للدولة الإدريسية في المغرب، وكانت يومها مقراً للأدارسة وبقية العرب، بالإضافة إلى الأندلسيين الذين طُردوا من الأندلس، وما زال هناك حي قديم حتى اليوم يسمى باسمهم « حي الأندلسيين »، وتنتشر في فاس الكثير من المساجد،

وأشهرها جامع القرويين، الذي أسس في عام 857م. وكغيرها من مدن المملكة المغربية والمغرب العربي الكبير، توجد بها الكثير من البوابات كمداخل للأحياء والقصور، ولكن فاس، حسب ما رأيت، تحتوي على العدد الأكبر من تلك البوابات، فمعظم الأحياء – وخاصة القديمة منها – تجد على مداخلها أو وسطها بوابات (بدون أبواب)، تتجلى فيها فنون البناء أولاً، من خلال التصميم العام، وتتجلى فيها الفنون الجميلة من نقش ورسم وخط، معظمه يتسم بالتحكم المبدع الخلاق بالرخام والجرانيت.

تقع فاس على تلال منخفضة، ولا يزدحم البناء فيها، فهي تنعم بفساحة المساحات بداخلها، التي تنتشر فيها أشجار النخيل والحدائق والنوافير، كتلك النافورة الجميلة في شارع الحسن الثاني، والماء متوفر هنا، ذلك أن فاس تستأثر دون غيرها من مدن المغرب، بأفضلية ميزة خاصة، هي توفر المياه فيها بفضل مياه نهر فاس، وعدد كبير من الأنهار والينابيع الطبيعية الغزيرة المياه، ويحيط بالمدينة عدد من الغابات الخضراء المليئة بالأشجار، ومنها أشجار البلوط وأشجار الأرز، بالإضافة إلى مختلف أشجار المحاصيل التي تجود بها الأراضي الزراعية الواسعة.. ومن الناحية العمرانية، فهي عموماً – مثل غيرها من أكثر مدن المغرب العربي الرئيسة – تنقسم إلى ثلاثة أقسام: الأول، المدينة القديمة

التاريخية، والثاني، المدينة الجديدة، والتي بنيت منذ عدة قرون، والثالث، المدينة الجديدة التي بناها الاستعمار أو بدأ بناؤها أثناء الاستعمار الفرنسي للمدينة.

وبما أن مناسبة زيارتي لهذه المدينة، كانت لحضور مؤتمر قمة عربي، فما إن وصلت إليها، حتى سألت أحد الإخوة الدبلوماسيين المغاربة عن سبب اتخاذ فاس، وليس مدينة الرباط، كمقر لانعقاد المؤتمر. وما كان منه إلا أخذ يشرح لي بيان تاريخ مطول عن كل من المدينتين، وما بقي في ذاكرتي من ذلك الحديث المطول، هو أن نوعاً من التنافس يوجد بين مدينة فاس ومدينة الرباط العاصمة، لأن الثانية أخذت الصدارة من الأولى، فقد كانت فاس عاصمة للمملكة المغربية حتى عام 1912م، ثم تم نقل مقر العاصمة إلى الرباط، وكان ذلك أثناء الاحتلال الفرنسي، وأعتقد أن انعقاد بعض الفعاليات الهامة في فاس، وليس في العاصمة، ربما كان نوعاً من التصالح التاريخي بين المدينتين، وأذكر أن شخصاً آخر قال لي إن السبب عادي، فـ «فاس» هي الأجمل طبيعة، وهي الأكثر هدوءاً.

هكذا، ارتبط اسمها في العقد ما قبل الأخير للقرن العشرين المنصرم، بانعقاد مؤتمر قمة عربية هام، وحال وصولنا إليها، وبعد البحث خلال الأحاديث الأولى عن أسباب اختيارها كمقر للمؤتمر، انتقلنا للسؤال عن أسباب تسميتها، ومما قيل لنا – وهو كثير ومتنوع – طرفة صحت أم تُدُوِلت وتنوقلت شيوعاً، وهي تقول: إنه، وعند حفر أساسات بناء المدينة أثناء تأسيسها من قبل إدريس الثاني عام 182هـ، وُجِد في جوف التربة العميقة فأس قديمة جميلة، ثم حفظت الكلمة إلى (فاس الأدارسة).

زرتها لأول مرة في نهاية عام 1981م. وزيراً للخارجية، ضمن الوفد الذي ترأسه الرئيس علي ناصر محمد، لحضور مؤتمر قمة الرؤساء والملوك العرب أيضاً، وفي عام 1983م، وفي ظل الأوضاع العربية السيئة للغاية، بعد اجتياح

إسرائيل للبنان للمرة الثانية، وحصارها لبيروت، وطرد الفلسطينيين منها، واحتجاز قادة منظمة التحرير الموجودين هناك. أمام كل هذا، رأت جامعة الدول العربية، أن تدعو إلى اجتماع القمة العربية العاشر، لإعادة ترتيب الأوضاع العربية في مواجهة العدوان الإسرائيلي، ومن أجل تلبية واجبات الصراع العربي – الإسرائيلي، حضرنا إلى هذا الاجتماع المنعقد في مدينة فاس، ومن أهم ما طُرح على جدول المناقشة وجلسات اجتماع القمة، مبادرة العاهل السعودي الملك فهد بن عبد العزيز آل سعود، لحل النزاع العربي الإسرائيلي، وهي شبيهة من حيث مضامينها بـ «مبادرة السلام العربية» الأخيرة التي أقرت عام **2000**م في قمة بيروت العربية، وجاءت مبادرة الملك فهد تلك، باعتبار الظروف السائدة – حينها – بانتهاء الحصار الإسرائيلي على بيروت، وخروج فصائل المقاومة الفلسطينية، وأهمية عودة الفلسطينيين الذين خرجوا من لبنان إلى وطنهم فلسطين، وما مثلته اتفاقية مدريد التي أُبرمت قبل نحو عام من الزمن من بدايات قبلت طرح مقترحات أقرب إلى الواقع عن عملية السلام.

ومع أن تلك الحلول المقترحة كانت مقنعة إلى حد ما، إلا أن أعضاء جبهة الصمود والتصدي العربية (سوريا، اليمن الديمقراطي، الجزائر، ليبيا)، رفضت بعض تلك المقترحات، قياساً على المواقف الإسرائيلية المتشددة، الرافضة لأي مقترحات، وضمن جهود جبهة الصمود والتصدي العربية، التي قامت على مبدأ أنه من الصعب تقديم تنازلات في المطالب العربية، إذا لم يتحد العرب في جبهة عربية قوية، تفرض على إسرائيل قبول السلام.. ولكن المؤتمر تبنى – في الأخير – تلك المبادرة بمضامينها العامة، وصدرت فيها قرارات وتوصيات عن مؤتمر القمة العربية العاشر، لكنها بعد المؤتمر، لم تجد آليات التنفيذ التي تترجمها إلى الواقع. وهذه الحالة كانت العادة القائمة لدى جامعة الدول العربية، وهي عادة باقية حتى الآن.

وبعيداً عن أجواء الصراع المحتدم التي عاشها مؤتمر القمة أيامها، كنا، نحن اليمنيين، نجلس مع بعضنا البعض في أوقات الراحة والاستراحات بين جلسات المؤتمر، وكذا خلال فترة وجبات الغذاء الشهي التي تشتهر بها بلاد المغرب العربي، كنا كيمنيين، بوفدين، نمثل الشطرين، نتبادل الأحاديث والنقاشات بشكل طبيعي، وكأننا نعيش في بلد واحد موحد، ومن الإخوة الذين ضمهم وفد الشمال، وقضينا معهم أيام المؤتمر، فخامة الرئيس علي عبد الله صالح، ومجاهد أبو شوارب، والدكتور حسن مكي وزير الخارجية آنذاك. وآخرين لا أذكر أسماءهم الآن.

طرابلس

عندما تحرك العقيد معمر القذافي وزملاؤه الضباط الأحرار في انقلاب الفاتح من سبتمبر عام **1969**م، انتشى طرباً المعسكر الجمهوري والشارع العربي في المنطقة والعالم الثالث لهذا الانقلاب، الذي يحمل تقدماً في جنباته،

وتعشم الراديكاليون العرب وحلفاؤهم، الشيء الكثير بهذه الإضافة الهامة التي تمتلك الثروة النفطية الهائلة، لتضيف إلى الجزائر والعراق القوة العربية الغنية، التي يمكن لها أن تعزز صمود سوريا ومصر ولبنان تجاه العدو الإسرائيلي وحلفائه. وتساعد الأنظمة الجمهورية الفقيرة على النهوض في مواجهة موروث التخلف، لتلحق بركب التقدم، وبالأخص الأنظمة الجمهورية الفقيرة في اليمن وموريتانيا والسودان.

كانت تلك هي الآمال، عندما قدمت ليبيا نفسها كسند للناصرية، التي وجهت إليها ضربات أليمة، وخاصة في الحرب الخاطفة ـ حرب الأيام الستة **1967**م ـ وسار النظام الليبي الجديد على هدى أفكار الرئيس جمال عبد الناصر سنوات لاحقة. ووصل الأمر بالعقيد القذافي بعد موت الزعيم عبد الناصر، بأن وضع نفسه البديل له، زعيماً ووريثاً للفكر القومي الناصري. وكان من أكثر الزعماء العرب تحمساً للوحدة العربية، وحاول جاهداً تحقيقها بطريقته التي اتخذت وسائل شتى، ولكنه فشل. ليس لأنه لم يأخذ بالقوانين الموضوعية في بناء أسسها فقط. ولكن لأنه لم يبدأ من حيث انتهى الآخرون، مستفيداً من تلك الأخطاء المعروفة، التي من أهم أسبابها، الوحدة المباشرة والدمج، وليس الوحدة القائمة على التنوع في الإطار الواحد، والتكافؤ بين الأطراف المتوحدة. كما أنه لم يأخذ بتجارب الوحدة التي شهدتها أمم أخرى (غير عربية)، قائمة

على النظام الفيدرالي، الذي يوحد في إطار التنوع والتميز، ولا يلغي فيه طرف طرفاً آخر، أو يهيمن فيه كبير على صغير. ولهذا ازدهرت تلك التجارب والدول التي اتبعتها، وخسرت العرب، لأنهم لا ينظرون إلى الوحدة إلا من زاوية ومبدأ الاندماج والضم والإلحاق، كما أن الزعيم الليبي كان بحاجة إلى فترة زمنية، يصبح تأثيره فيها قريباً من مستوى تأثير عبد الناصر وزعامته، ودور مصر الكبير، لأن الثروة البترولية وحدها لا تكفي. ومن جانب آخر، فإن عدم تجاوب الدول العربية مع السعي الليبي أو حتى مناقشته بجدية أو اهتمام، قد أضعف الجهود القذافية الوحدوية.

وكل الأسباب المذكورة، سواء ما يتعلق بها بالزعيم القذافي، أو ما يتعلق بعدم التجاوب العربي، جعلت النظام الليبي في التسعينات، ينطوي على نفسة هارباً إلى الأمام، وجعلت الزعيم القذافي أن يصدر نظريته العالمية الثالثة (الكتاب الأخضر)، التي تمحورت في مبادئ لم يرد أحد تطبيقاتها لأنها جديدة، وأيضاً تمحورت النظرية العالمية الثالثة، في عقد المؤتمرات الشعبية واللجان الشعبية، باعتبارها شكل السلطة الشعبية الأنسب، وكذا، تسمية ليبيا بالجماهيرية الشعبية الاشتراكية العظمى، لتصبح كل هذه الأعمال، مجرد تطبيقات ليبية لا يملك العقيد القذافي الخبرة الكافية لنشرها خارج حدودها.

لا يمكن لأحد أن ينكر ما قدمه العقيد معمر القذافي نحو بلاده، ونحو العالم العربي، ونحو أفريقيا، وهو رجل صادق في نواياه، إذا ما وجد من يحاوره ويفهمه ويتجاوب معه، وقد قدم هو وزملاؤه الدعم لحركة التحرر الوطني الأفريقي والعربي، وبالذات، النضال الوطني الفلسطيني واللبناني، ودعم تعزيز صمود سوريا، وقدم المساعدات لبعض الأنظمة والحركات الوطنية العربية، من خلال مؤتمر الشعب العربي، ومن خلال جبهة الصمود والتصدي، التي

تشكلت بعد اتفاقية كامب ديفيد، وزيارة الرئيس السادات للقدس، وشملت كلاً من: ليبيا ـ سوريا ـ الجزائر ـ اليمن الديمقراطي.

أما بشأن العلاقة اليمنية ـ الليبية. فالتحسن كان الطابع العام لمسارها، وفي بعض الأوقات، عانت من التدهور إلى درجة الحضيض، ولعب دوراً في ذلك، المزاجية وتقلبات المواقف بسرعة مذهلة، وعدم الوفاء باتفاقيات القروض، ومع أن عدن هي التي هرعت منذ أول يوم للقاء قادة حركة الفاتح من سبتمبر، وكان الأخ علي سالم البيض، أول ضحية لهذا التقارب، لأنه أسدى نصيحة للعقيد القذافي بأن «ينتبه من دور الاستخبارات المصرية»، وما حدث أن العقيد القذافي أوصل نصيحة البيض تلك إلى الزعيم جمال عبد الناصر فوراً، ما أدى إلى أزمة سياسية بين عدن والقاهرة، انتهت بنقد وعتاب الرئيس عبد الناصر للقادة الثوار القادمين من عدن في آخر مؤتمر عربي ينعقد في القاهرة عام 1972م، أثناء حكم عبد الناصر ـ رحمه الله ـ وقبيل وفاته بأيام.

ولعل إطار «جبهة الصمود والتصدي العربية»، كان أقوى عامل لتقوية العلاقات الليبية ـ اليمنية الديمقراطية؛ فعندما التحقت عدن بجبهة الصمود والتصدي، كان واحداً من أسباب ذلك، هو اعترافها بجميل ليبيا، التي جعلت شطري اليمن يخرجان باتفاقية طرابلس، التي سميت «بيان طرابلس»، التي وقعها الرئيسان سالم ربيع علي وعبد الرحمن الإرياني، بشأن الوحدة اليمنية في 28 نوفمبر 1972م، والتي شملت تشكيل ثماني لجان وحدوية مشتركة من الشطرين.

لقد اتسعت العلاقات الثنائية بين عدن وطرابلس فيما بعد، وشمل التعاون، تنسيق المواقف الخارجية، وخاصة تجاه قضايا الخليج والقرن الأفريقي، وبالتحديد، بعد ذهاب نظام الإمبراطور هيلا سيلاسي، ورحيل الخبراء الأمريكان والإسرائيليين من أديس بابا، وفي هذا الاتجاه، حاولت طرابلس من خلال العلاقات الحميمة مع عدن ـ خاصة، عندما دعمت الجبهة الوطنية في المناطق

الوسطى في شمالي اليمن، والجبهة الشعبية لتحرير عمان ـ أن يكون لها وجود عسكري في اليمن الديمقراطي، حيث كانت أنظارها متجهة على بعض الموانئ في محافظة المهرة، وعلى جزيرة سقطرى، غير أن عدن كانت عصية، كعادتها، فهي الخارجة لتوها من محنة القواعد العسكرية الأجنبية البريطانية، كان لا بد لها أيضاً من رفض الوجود العسكري الروسي في سقطرى وغيرها من الموانئ اليمنية، كما رفضت الطلب العراقي، الذي اختار جزيرة سقطرى مقابل دعم مالي كبير يقدم لعدن، إلا أنها، رغم فقرها، لم تقبل حتى مناقشة الموضوع مع أحد، فلديها حساسية مفرطة ـ حتى اليوم ـ تجاه أي قواعد أو وجود عسكري في اليمن، حتى ولو كان عربياً، وهذا السبب أدى إلى تعطيل معظم تمويل المشاريع الليبية التي كان قد بدأ العمل بها في اليمن الديمقراطي، وبالذات في عدن، كمشروع كلية الطب، ومشروع عمر المختار السكني، وغيرهما من المشاريع. مع أن العقيد القذافي زار عدن والضالع في منتصف السبعينات، واستقبله الناس بحماس منقطع النظير، حيث عقد له مهرجان كبير في أكبر استاد رياضي في عدن، امتلأ بالحضور، وألقى كلمة حماسية فيه، بينما كانت الطائرات الأمريكية في ذلك الوقت محلقة بالقرب من عدن، تقوم بطلعات وتحركات استفزازية، وأذكر أن نسبة كبيرة من الجماهير التي استقبلته كانت من النساء، إذ إن تشكل حراسة العقيد القذافي جميعها من الجنديات المسلحات، نال إعجاب ورضا النساء اليمنيات، باعتباره من المظاهر الثورية الفعلية في ذلك الوقت، لكن الحماس انتهى مفعوله سريعاً، بمجرد عدم ارتباط الأقوال بالأفعال الملموسة، وهو المسلك الذي أدى إلى جانب الحصار الغربي الذي تعرضت له طرابلس لمدة طويلة، إلى الحد من جهود طرابلس للتأثير في العالم العربي، وضعف المساعي نحو الوحدة العربية.

أصبحت مدينة طرابلس من المدن المؤثرة عربياً، بصفتها عاصمة الثورة الليبية، بعد قيام الثورة في ليبيا في الفاتح من سبتمبر عام 1969م، وقد تطورت وتغيرت تغيراً جذرياً في عهد ثورة الفاتح، على الرغم من وجود اقتراحات حينها بأن تكون مدينة سرت هي العاصمة. وطرابلس هي أكبر مدن البلاد الحديثة وميناؤها البحري الرئيس، ويبلغ عدد سكانها الآن نحو مليون وربع المليون، وتسمى أيضاً «طرابلس الغرب»، وتحتل المدينة موقعاً يقابل الرأس الجنوبي لجزيرة صقلية، التي تعتبر جزءاً من أوروبا ومضيقاً استراتيجياً.

إذا زرت طرابلس، فلا بد أن تزور وسطها، حيث يقع ميدان الشهداء والساحة الخضراء والسراي الحمراء، ولا يفوتك التجول في شارع عمر المختار، أهم شوارعها، والجلوس في أحد مقاهي تقاطعه مع شارع الرشيد، حيث تبدو لك حركة المدينة وروعة مبانيها، وكذا، مشاهدة أجمل مباني المدينة، مثل «قصر الملك» الذي يشبه في إطلالته قصر السلطان في مدينة سيئون بمحافظة حضرموت، ولكنه محاط بأشجار النخيل وجوز الهند، وكأنها فرق من الحراس تحيط به، وفي المدينة عدد من الجوامع التي تعكس الحضارة الإسلامية، ومنها جامع المغاربة، الذي يقع في شارع جميل، تزينه المباني والأشجار على الجانبين، كما لا يفوتك أن ترى أقدم آثار المدينة، وهو قوس «ماركوس أوريليوس»، الواقع في الحي القديم في حديقة صغيرة حسنة الترتيب، وهو أشبه ببوابة، كتلك البوابات الحجرية التاريخية القديمة الصغير الحجم، ولكن النظر إليه يعيدك إلى ما دار هنا قبل آلاف السنين.

كانت طرابلس بالنسبة لعدن حتى عام 1990م، حليفة، مثلها مثل دمشق والجزائر، وكانت طرابلس عاصمة من العواصم العربية التي زرناها في مناسبات مختلفة كثيرة، وربطتنا بها أواصر محبة وعلاقات أخوية مع العقيد القذافي، وعبد السلام جلود، وأبو بكر يونس، وعبد العاطي العبيدي، وأبو زيد

دردوه، والدكتور عبد السلام التريكي، وغيرهم، ولا يمكن في هذا الحيز، ذكر عدد هذه الزيارات واللقاءات التي تمت مع الأشقاء الليبيين، الذين هم شأنهم شأن إخوانهم العرب، الذين عاشوا في مجتمعات بدوية، حذرين منعزلين اجتماعياً، لكنهم ما إن يثقوا بالمرء، حتى تجد سجايا التعاون والإخاء ظاهرة ملموسة في تعاملهم معه، مع أنهم، وهذه العادة اكتسبوها بعد طفرة النفط، وهي عادة عربية عند أغنياء العرب، يعتقدون أن كل من يزورهم أو يطلب مقابلة أي مسؤول منهم، فإن ذلك لغرض الحصول على قسم من أموالهم أو أخذ شيء منه، وربما تعوّد بعضهم على ذلك، أو عوّدوا هم البعض عليه، لكن الثوابت تظل ثوابت، فهذا التعامل . وخاصة مع أحزاب ومنظمات لها أفكارها وبرامجها، ولها قاعدتها الجماهيرية . كان من الأسباب التي أبعدت ليبيا عن أن تلعب دوراً عربياً أفضل وأكبر مما لعبته.

كما أن القيادة الليبية جعلت النظرية العالمية الثالثة في موضع شك في مصداقيتها، نتيجة لبعض سلوكيات الدولة الليبية، وعندما وجدت النظرية العالمية الثالثة نفسها منعزلة ووحيدة، بعد تلك التجريبية الطويلة التي حاول فيها الزعيم القذافي، إذكاء القومية العربية، سارت توجهات ليبيا في اتجاه آخر، وساعد في ذلك أن الزعيم الليبي، هو نفسه سئم هذا التعامل مع العرب، أنظمة ومعارضة، وسئم عدم اهتمام العرب بمبادراته الوحدوية، كل هذا دفعه إلى الاندفاع تارة إلى الأمام باتجاه الغرب الأوروبي، وتارة أخرى باتجاه السود الأمريكيين، لكن يبدو أنه استقر أخيراً على الضفة الأفريقية، قارة أفريقيا.

وظل العقيد، رغم الحصار الأمريكي والأوروبي عليه وعلى ليبيا، يجرب ويجرب، لكنه لم ينسَ، وهو في خضم تجاربه تلك، كلمات قالها له الرئيس الجزائري الراحل هواري بومدين، عندما قال له: (يمكنك أن تجرب بكل شيء، إلا التجربة بالبترول والجيش)، وقد استفاد العقيد معمر من هذه النصيحة، بأن

استقر به الحال في الحديقة الأفريقية، كما أنه، رغم تجاربه الكثيرة الدائمة، لم يجرب قط بثروته النفطية، أو بقواته المسلحة (بحسب نصيحة بو مدين)، وهنا يأتي سر صمود نظامه في ليبيا، وبقائه في الحكم لمدة طويلة من الزمن.

وإنه لمن غير المنطقي، ألا يعترف أي كان، بالدور الذي لعبته طرابلس في نطاق القارة الأفريقية، في التعجيل في خطوات الوحدة الأفريقية؛ فالحقيقة أن الرئيس معمر القذافي، قد قطع أشواطاً في هذا الاتجاه، وله إسهاماته في حل المشاكل الأفريقية هنا وهناك. وكذا، في حل ما يعكر صفو العلاقات الثنائية بين عدد من الدول الأفريقية، والأهم في هذا السياق، ما قام به في تدعيم قيام «الاتحاد الأفريقي»، والذي أصبح أول رئيس له بداية هذا العام **2009**م، ولمدة ستة أشهر، ولكن المشكلة هي في بعض الشطحات التي يقوم بها، فتضعف من جهوده الخيرة والخلاقة والمبدعة، والمثال هنا، لقب «ملك ملوك أفريقيا»، فلم يعد هناك سوى ملك أو ملكين فقط في أفريقيا، ثم ما الداعي لملك ملوك أفريقيا، وهو (الرئيس القذافي)، رئيس الاتحاد الأفريقي، سواء لدورته الحالية أو بعدها، فهو فعلاً مؤسسه ورئيسه الفعلي، وهذا إنجاز تاريخي كبير، سيسجله التاريخ له، لأنه لو أخذنا مقارنة بين ما يتم من خطوات وحدوية عربية، لوجدنا أن الوحدة الأفريقية تسير بسرعة أعلى بكثير مما تسير عليه عجلة الوحدة العربية، والفضل في هذا، يعود إلى الرئيس القذافي.

طرابلس وبنغازي وسرت، كلها مدن عربية أصيلة، زرتها جميعاً، ورأيت الشعب الليبي شعباً أصيلاً في عروبته وانتمائه العربي الإسلامي، وهو يمتلك ثروات هائلة، رغم أن تجربته اعتمدت على فردية الحكم، ولم يتم بناء مؤسسات مدنية سياسية واقتصادية وثقافية، تكون ـ إلى جانب اللجان الشعبية ـ الحاملة للتطور الاقتصادي والاجتماعي، على أساس المشاركة الطوعية الواعية للناس، وفق فئاتهم التي تعكسها أحزاب ومؤسسات مدنية وسياسية واقتصادية. وهذا

ما سيقوي تجربة الزعيم القذافي السابقة؛ فمع وجود العولمة، يصبح من العبث، عدم مراجعة أخطاء تجربة أي بلد، ومثل هذا العمل المطلوب، لا يمثل أو يعكس أي تشكيك أو تقليل للمنجزات والنجاحات التي حققتها ثورة الفاتح من سبتمبر، ولا شك أن بلداً مثل ليبيا، يمتلك الأرض والإنسان والثروة والموقع الفريد بين المشرق والمغرب، سيتمكن من التغلب على ما يواجهه من مصاعب ومشكلات، إذا ما قام بتصحيح الأخطاء السابقة، وبدأ بعقلية جديدة حديثة في تحديث الدولة، التي هي من نتاج الثورة، وأعتقد أن هذا سيطور أيضاً «النظرية العالمية الثالثة»، كمنهج وطني في ليبيا.

استشهد أو قتل القذافي على يد حلف الناتو، وتمزقت ليبيا وتمرغت بالإرهاب يا ولدي، فما هو القادم؟.

المنامة

المنامة، مدينة تاريخية، اسمها قرين اسم البلد «البحرين»، وقد برز اسمها في التاريخ الإسلامي، وتعرضت للاحتلال من قبل البرتغاليين في عام **1521**م. كما احتلها الفرس عام **1602**م، ولفترة قصيرة، وقد حكمتها أسرة آل خليفة منذ عام **1783**م.

واستمر حكمهم حتى أثناء الاحتلال البريطاني، الذي انتهى بقيام دولة البحرين المستقلة في عام **1971**م وعاصمتها المنامة، وفي عام **2002**م، تحولت البحرين إلى مملكة دستورية، وأصبحت المنامة إحدى محافظات المملكة الخمس «محافظة العاصمة».

ومدينة المنامة، مدينة جميلة، يبلغ عدد سكانها نحو مئتي ألف نسمة، وترتبط بمدينة المحرق بثلاثة جسور، ويوجد جسر رابع يربطها بمدينة «سترة»، وأجمل منظر لهذه المدينة، حين تكون على قارب تنظر إليها من البحر المقابل، إذ تبدو بناياتها الحديثة وناطحات سحابها، وكأنها بنيت بثبات على مياه البحر، أما إذا تحدثنا عن الحياة فيها، فهي وفقاً للمؤشرات العالمية، من أفضل المدن المفضلة للعيش في منطقة الشرق الأوسط، لأنها بعيدة عن الضجيج والصخب، كما أن الأسعار فيها هي الأفضل.

وللمنامة مكانة خاصة في قلوبنا وقلوب سكان عدن جميعاً؛ ففي الخمسينيات، كانت عدن والمنامة، المدينتين اللتين حظيتا باهتمام الإمبراطورية البريطانية في البحر العربي والخليج ومنطقة شبه الجزيرة. عزز هذه الوشائج، وجود الجالية اليمنية في البحرين، والعلاقات الثقافية والحضارية المتقاربة، فالبحرين التي عرفت منذ القدم بتسمية (الديلم)، ووجدت بها آثار «الإسكندر

الأكبر»، ما إن حكمتها أسرة آل خليفة منذ حوالي 225 عاماً، حتى استقر حالها، ومن ثم، بدأت نهضتها منذ نحو 50 عاماً، وكان للمرحوم الشيخ عيسى بن سلمان آل خليفة، بصماته الواضحة في نهضتها الحديثة، التي أربكها معنوياً – أحياناً – تدخل إيران الرسمي في شؤونها الداخلية، سواء في نهاية أيام حكم الشاه، أو في السنوات الأولى من الحكم الجمهوري الإسلامي، وهي الآن في عهد سمو الملك حمد بن عيسى آل خليفة – قائدها ومليكها الجديد – الذي جعلها في مصاف الدول المتحضرة، عندما رسخ صرحاً بنيوياً جديداً للحكم، وكذا عندما تخطت صعوبات العلاقة مع المعارضة السياسية، وقد تحققت نجاحات اقتصادية واجتماعية، تهيئ البلاد للتقدم والتطور على كافة المسارات، ولا شك أنها بداية عهد جديد من نهضة حديثة، تعتمد على جهد وعقل وحكمة الإنسان البحريني، الذي شيد بهذا الجهد حضارات سابقة ولاحقة على هذه الجزيرة.

وليس هذا النسق بجديد على المنامة؛ فالبحرين لها تاريخ عريق في التقدم العربي، ففي منتصف الستينيات، كانت عدن والبحرين منارات إشعاع في سماء ومحيط المنطقة، وعندما كبرنا والتقينا بالأهل والإخوة من البحرين، عرفنا في ما بعد، لماذا كانت البحرين هكذا، ولماذا تطورت البحرين ونمت، وهي ليست كشقيقاتها من دول الخليج، غنية جداً بثروة النفط؟. عرفنا أن مرد ذلك، يعود إلى الإنسان البحريني، الذي يربط بين عقله وعمله الذي عرف في كل الأحوال والأوقات كإنسان سماحة ووفاء وأصالة، ويمتاز بالطيبة البيّنة.

مع أن عدن بعد نيل الاستقلال الوطني عام 1967م، كانت تحتضن بعض أفراد المعارضة البحرينية، التي لها اتجاهات قومية ويسارية معارضة للحكم هناك، إلا أن ذلك لم يفسد للود قضية بين قيادات البلدين، لأنهما دولتان عربيتان، ما يجمعهما هو أكثر مما يفرقهما، وهكذا تمت زيارات رسمية إلى المنامة

من قِبَل المسؤولين في عدن، وكنت في إحداها، أرافق الرئيس علي ناصر محمد، وكانت تلك الزيارة الأولى ضمن مساعي تقوية العلاقة الثنائية بين البلدين، ومناقشة القضايا العربية المشتركة، وفي تلك الزيارة، كان سمو الشيخ عيسى بن سلمان – رحمه الله – أميراً للبحرين، وقد استقبلنا كما استقبلنا دائماً بتواضعه الجمّ وحسن خلقه، ومعاملته الكريمة، وحنكته القيادية ودرايته بسرائر الأمور، وهو الذي ظل مبعث تفاهم بين عدد من الدول العربية، وساهمت في ذلك الدبلوماسية الهادئة التي يقودها الشيخ محمد بن مبارك آل خليفة – وزير الخارجية – والتي لعبت أثرها الطيب لاحقاً في إقامة العلاقات الثنائية بين عدن والرياض، في منتصف السبعينيات، بعد انقطاع أو تباعد.

ولا أخفي سراً، إن قلت إن أول من مهد العلاقات اليمنية الجنوبية – السعودية حينها، وطرح الموضوع على وزير الخارجية اليمني الجنوبي آنذاك الشهيد محمد صالح مطيع، هو معالي الشيخ محمد بن مبارك آل خليفة، وزير الخارجية لمملكة البحرين الشقيقة، وبعد جهود معروفة، اشتركت فيها دولة الكويت ودولة الإمارات العربية، تكللت تلك الجهود الخيرة بالنجاح، وقامت العلاقات الدبلوماسية بين المملكة العربية السعودية وجمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية في عام **1976**م، وبها انتهى نزاع مضنٍ بين الأشقاء، لم يقلق الشعبين اليمني والسعودي فحسب، ولكنه كان مصدر إزعاج وإقلاق لدول المنطقة عموماً.

وزرت المنامة بضع مرات، بعد تحملي مسؤولية وزارة الخارجية في اليمن الديمقراطية عام **1981**م، وفي الفترة التي تلتها، كانت لي عدة زيارات، ومنها واحدة في عام **1994**م. وكان آخر لقاء لنا مع سمو الأمير عيسى بن سلمان – رحمه الله – عندما حضرنا احتفالات ذكرى استقلال البحرين عام **1997**م. حيث استقبلنا بحفاوة بالغة خلال حفل الاستقبال الذي أقيم بهذه المناسبة، وقد

أكرمني – يومها – بالوقوف إلى جانبه، وهو يستقبل آلاف المهنئين من أبناء ومشايخ ورجالات البحرين، وغيرهم من الضيوف، وأحاطني بالرعاية خلال وجودي في هذا البلد الشقيق، بل إنه بالإضافة إلى ذلك، أمر بإلحاق أعداد كبيرة ممن وصلوا (النازحين من جراء الحرب الأهلية في اليمن **1994**م) من اليمن إلى البحرين الشقيق، في أعمال حكومية مناسبة، وقد عكست المعاملة الدمثة للشيخ عيسى – رحمه الله – لنا، ما عرفناه دائماً من صدق مشاعر أبناء البحرين تجاه إخوانهم اليمنيين، وهو الأمر الذي لمسناه أيضاً لدى عدد من الشخصيات البحرينية في السلطة والإعلام والمعارضة، التي كانت هي أيضاً الأخرى، لديها من دفء المشاعر وصدق القول ما قربنا إليها، حتى في تلك الفترات القديمة، التي كانت توجد فيها خلافات في وجهات النظر، علماً بأن هناك فترات شهدت تقارباً حيال المواقف الداخلية والخارجية.

ومن خلال زيارتي لمملكة البحرين، تعرفت عن كثب إلى إنجازات البحرين العظيمة، التي انعكست في شتى مجالات حياة مدينة المنامة، ولاحظت كيف أصبحت واحة من واحات الخليج الغنّاء، التي تنعم بالحداثة والحياة العصرية، بحيث لا يمتلك ضيفها غير الإعجاب والانبهار بما حققته جهود أبناء البحرين، بقيادة جلالة الملك حمد بن عيسى بن سلمان آل خليفة، ولقد كتبت عدة مقالات عن البحرين، نشرت في صحف عربية، لكن صحيفة «الأيام» البحرينية، ورئيس تحريرها الأستاذ نبيل الحمر، ونائبه الأستاذ عيسى الشايجي، ومحرري الصحيفة، خصوني دائماً برعايتهم واهتمامهم وجل ضيافتهم، مع أن ما كتبته أو ما قمت به من جهد متواضع بين بعض أطراف المعارضة والسلطة في المملكة، هو واجب يفترضه الانتماء والولاء لهذا الوطن العربي الكبير.

جيبوتي

رأينا هذه المدينة عند استقلال جمهورية جيبوتي عام 1977م. كانت أحياؤها مقسمة بين قبائل العفر والعيسى، وعلى بُعد بضعة شوارع، يبدو الحي العربي الذي يقطنه غالبية من الحضارم والعدنيين وأبناء تعز، وهم ذوو حال من العيش الميسور، على عكس الآخرين الذين يسكنون في أكواخ من الصفيح،

شكلت منها نواحي وضواحي المدينة، أما الجزء الآخر من المدينة، فكان موقع مقر الثكنة العسكرية التابعة للجيش الفرنسي، الذي كان يحتل ويحكم جيبوتي، وما زالت لهم قاعدة عسكرية بحرية هناك حتى الآن.

تقع جيبوتي على الشاطئ الغربي لباب المندب – البحر الأحمر، بين كل من: إريتريا والصومال وإثيوبيا، وأمام اليمن عبر مضيق باب المندب، وكانت تسمى بلاد الصومال الفرنسي، ولموقعها هذا تأثير كبير في أوضاعها عبر التاريخ، كانت إمارات عفرية خلال تاريخ طويل، ثم احتلتها فرنسا منذ عام 1862م، وسميت حينها «بلاد العفر والعيسى»، وهما اسما قبيلتين تنتشران أيضاً في دول القرن الأفريقي، وقد عانت جيبوتي في سعيها للاستقلال الذي نالته عام 1977م، من الاستعمار الفرنسي، بعد توترات عدة؛ فعندما كانت تدور النقاشات عن منح الحرية والاستقلال لهذا البلد العربي الأفريقي، وفي أثناء حدة الصراع على جيبوتي، وخاصة من قِبَل إثيوبيا – التي ترتبط بخط سكة حديد إلى ميناء جيبوتي وموانئ في الصومال – التي تعتبرها جزءاً منها، حينها طلب الفرنسيون من عدن مساعدتهم في كيفية حل هذا الإشكال، فرد عليهم وزير خارجية جمهورية اليمن الجنوبية – حينها – الأخ محمد صالح مطيع،

بالقول: «لا توجد مشكلة لدينا مع إثيوبيا، أو مع الصومال، إذا قررتم إلحاقها بنا».

كانت هذه مزحة، ولكن فيها شيء من الحقائق؛ فجيبوتي هي أقرب من حبل الوريد إلى عدن، إذ لا يفصلها عن عدن إلا مضيق باب المندب (حوالي 37 كيلومتراً)، وتوجد بها أكبر جالية عربية يمنية تعمل بالتجارة والاقتصاد، وحتى سكانها من العفر والعيسى، أغلبهم ينحدرون من أصول يمنية.

قابلنا مراراً فخامة الرئيس الجيبوتي حسن جوليد في جيبوتي، وفي عدن، وفي صنعاء، وأثناء جملة من المؤتمرات العربية، كما قابلنا وزير خارجية «ابتدون»، الذي تزعم المعارضة الجيبوتية بعد بضع سنوات من حكم الرئيس جوليد، والحاج الرئيس حسن جوليد من الجيل العصامي، الذي استفاد من الثقافة الفرنسية، وأفاد وخلق توازناً جيداً في العلاقات الداخلية والخارجية، خاصة أن ثقل إثيوبيا والصومال، يؤثران في التوازن الداخلي في هذا البلد، الذي يعيش على ما يدره له الميناء، الذي ازدهر بعد تدهور ميناء عدن، من جراء التأميمات التي حصلت في تلك الفترة (بداية السبعينيات)، وأدت إلى هروب الوكالات والشركات التجارية إلى جيبوتي كمقر بديل، تلك الشركات والوكالات التي كانت تخدم أسواق القرن الأفريقي من عدن، كما قللت المساعدات الفرنسية (مقابل وجود القاعدة البحرية)، من مشاكل جيبوتي في مجالات الصحة والتعليم والتنمية، التي يندر الحضور العربي فيها.

زرت جيبوتي عدة مرات، وشعرت وكأنني في أحد أحياء ضواحي عدن، كالمنصورة أو الشيخ عثمان أو القاهرة؛ فالمناخ متشابه، والمسلمون يشكلون 95% من سكانها، لأنها من أول المناطق الأفريقية التي دخلها الإسلام، أما بقية السكان فمسيحيون 5%، ومن حيث الأعراق، فإن الكثير من السكان

الحاليين من أصول عربية، كالعمانيين واليمنيين، وغيرهم، وجيبوتي كمدينة، عدد سكانها حوالي نصف مليون نسمة.

وهناك مدن أخرى، أشهرها مدينة «عرتا»، والمدينة منتعشة بأعمالها وحركتها التجارية، ولها محاسن عديدة، ولأهلها محاسن أكثر، وخاصة جمال نسائها الذي لفت نظري من بعيد، وهي مثلها مثل دول القرن الأفريقي، واليمن تعيش مشكلة القات بكل مشاكله وآفاته الاجتماعية والصحية والاقتصادية، ولكن الأخطر هنا، أن ما تمضغه جيبوتي من أغصان القات الخضراء، لا تزرعه، بل تجلبه من إثيوبيا أو الصومال أو من اليمن، ولذا، تصبح المشكلة مشكلتين.

وقد تذكرت مشكلة القات هنا في جيبوتي، لأنني في كل زيارة كنت أقوم بها إلى جيبوتي، أجد أن عدداً من إخوتي الوزراء الجيبوتيين، يعدون لي جلسات عمل عصرية، عبارة عن جلسة قات عملية شبه رسمية، ويقال إنك إذا أردت أن تترشح للانتخابات العامة في جيبوتي، فعليك بالقات، فما إن تصل عربة أو طائرة محملة بالقات، حتى يترك الناس كل شيء ويتوجهون إليها. ولعل ما يخفف مشكلة القات هذه، أن الأوضاع مستقرة في جيبوتي، والحياة السياسية فيها ديمقراطية، حيث تعد الدولة الأفضل استقراراً من بين دول القرن الأفريقي.

وجيبوتي اليوم تحولت إلى منافس كبير لعدن، ففي نهاية التسعينيات، وعندما لم تفلح شركات دبي في الحصول على امتيازات في عدن لاستخدامها كمنطقة حرة، توجهت نحو جيبوتي، حيث بدأت هناك بإنشاء المكونات الأولية لإقامة منطقة حرة تجارية، تستهدف تموين أسواق أفريقيا الكبيرة، كما أنشئت فيها مخازن كبيرة للنفط، ويجري الآن الترويج من قبل مستثمر سعودي كبير، لإقامة جسر بحري يربط بين جزيرة كمران اليمنية، التي تبعد عن عدن بـ9 كيلومترات، بمدينة جيبوتي على الشاطئ الآخر من باب المندب، على بعد ما

يقارب 28 كيلومتراً، وعندما سمعت بهذا الخبر وقرأت عنه، قلت لنفسي: عسى أن هذا الجسر الذي يربط بين عدن وجيبوتي، يكون جسراً للتفاهم بين (المدينتين)، وجسراً لإنهاء التنافس بينهما، ومن يدري، ربما أصبح الجسر المذكور، إذا ما تم بناؤه فعلاً، سبباً في شجارات جديدة بين المدينتين (عدن وجيبوتي)، اللتين ينتظرهما مستقبل يحمل في طياته شراكة اقتصادية بينهما، شئنا ذلك أم أبينا.

هذه الأماني بددتها الحروب اليمنية، سواء حرب 1994 أو حرب 2015، ونزوح آلاف الأسر العدنية واليمنية إلى جيبوتي، وإقامة أسوأ مخيم للنازحين، وهو رد غير ودي وغير أخوي، على استقبال عدن لمئات الآلاف من أبناء الصومال والقرن الأفريقي، مواطنين لا لاجئين.

مقديشو

تقع مقديشو على الساحل الغربي للمحيط الهندي في أقصى السواحل الجنوبية من أراضي الصومال، وبالقرب من طرق الملاحة البحرية بين آسيا وشبه القارة الهندية من جهة، وأوروبا وسواحل أفريقيا من جهة أخرى، ولعل هذا الموقع الهام، هو ما جر وبالاً على الصومال،

إلى جانب مشاكلها السابقة مع الدول المجاورة، وخاصة الحبشة (إثيوبيا)، أضف إلى ذلك، التأثيرات الدولية عليها من جميع الأطراف، والتي تريد الهيمنة على الصومال، حباً في موقعها الهام، وليس خدمة لأوضاع أبناء الصومال، كبشر من حقهم أن يعيشوا عيشاً كريماً آمناً.

كانت زيارتي الأولى لمقديشو في 1976م، عندما قدمت إليها من مدينة نيروبي عاصمة كينيا، ضمن وفد مكون من 3 أشخاص يمثلون منظمة التضامن الأفرو – آسيوي، التي عقدت مؤتمراً في تلك المدينة، وكلفت وفدنا الثلاثي (اليمن – غانا – الجزائر)، بالسفر إلى كل من أديس أبابا ومقديشو لنقل مقترحات المنظمة بشأن وقف الحرب بين البلدين، فسافرنا إلى مقديشو وقابلنا الرئيس سياد بري هناك، وسلمناه مبادرة المنظمة بشأن وقف الحرب بين بلاده وإثيوبيا، ثم استلمنا منه رداً خطياً قمنا بنقله إلى رئيس المنظمة في نيروبي.

وفي هذا السياق، وعندما زار الرئيس الكوبي فيدل كاسترو عدن عام 1977م، كان الهدف المراد تحقيقه من تلك الزيارة – والذي يخدم المعسكر الاشتراكي – هو دعم ملامح النشوء الثوري لدى منجستو هيلا ماريام وزملائه من العسكر الذين وصلوا إلى سدة السلطة في «أديس بابا» عبر الوسائل التالية:

1 – تحسين العلاقة بين اليمن الديمقراطي وإثيوبيا.

2 – تحسين العلاقة بين الصومال وإثيوبيا.

3 – تحسين العلاقة بين إثيوبيا والثوار الإريتريين.

وتقاطرت معه – في هذا الاتجاه – وفود من البلدان الاشتراكية ومن اليسار العربي، وبالتحديد الفلسطيني واللبناني، لدعم هذا البلد الذي سيعزز بلدان التوجه الاشتراكي التي وصلت في منتصف السبعينيات إلى أكثر من 52 دولة، ولعل هذا ما جعل الدعم العربي للصومال المتحررة والمستقلة حديثاً، ضعيفاً، حتى بعد انضمامها إلى جامعة الدول العربية في فبراير 1974م. وبعد أشهر من زيارة كاسترو تلك إلى عدن، اتضح أن عدن وهافانا فشلت في إقناع الصومال بإجراء حوار مع الحكام الجدد في أديس أبابا، وبالذات حول «أوجادين» و«هرر»، وهما المنطقتان الواسعتان اللتان تدّعي بهما الصومال كأراضٍ صومالية احتلتها الإمبراطورية الإثيوبية (إمبراطورية الحبشة)، كما فشلت الجهود المبذولة مع الثوار الإريتريين والحكام الثوريين الجدد في أديس أبابا، الذين ظلوا متمسكين بفرض وبقاء الاحتلال الإثيوبي لإريتريا.

كان الاهتمام السوفييتي بمقديشو، أكثر من الاهتمام السوفييتي بعدن في تقديري، لأن مقديشو أعلنت الحزب الاشتراكي الماركسي الصومالي، بينما تأخرت عدن، وأظهرت ممانعة تجاه قيام مثل هذا الحزب فيها، وكان هذا الموقف أحد الأسباب التي أطاحت الرئيس سالم ربيع علي، رحمه الله، ثم اهتمت موسكو بعد ذلك بأديس أبابا، بعد أن شيد الرئيس منجستو هيلا ماريام تماثيل لماركس وإنجليز ولينين في وسط ساحة العروض بمدينة أديس أبابا العاصمة.

مقديشو تشبه عدن أيام زمان، من حيث شكل المباني والعمران، هي تشبهها بشكل عام، وإلى حد ما، رغم تقدم عدن عليها كثافة ونظافة وتطوراً، ورغم أنها أقرب منها إلى خط الاستواء، فإن جوها مثل جو عدن تقريباً: حار

صيفاً ومعتدل شتاءً، ومقديشو عربية أصيلة وإسلامية عريقة، وأذكر هنا أنني زرت أشهر مساجدها، وهو مسجد «حمروين» الذي بنى عام 630هـ، ووجدته يومها مليئاً إلى آخره بالمصلين، وإذا ما تحدثنا عن الزمن القريب، ففي السبعينيات، تقاربت مقديشو في علاقتها السياسية مع عدن منذ وصول الرئيس الجنرال سياد بري إلى سدة الحكم، وكانت الزيارة الأولى لأول وفد يمني رفيع المستوى، برئاسة الأمين العام للتنظيم السياسي الجبهة القومية، عبد الفتاح إسماعيل، ووزير الخارجية محمد صالح مطيع، وكنت عضواً في ذلك الوفد، كما أنني زرتها مرات عدة، إحداها برفقة الرئيس علي ناصر محمد، وزرتها أيضاً منفرداً في منتصف السبعينيات، كرئيس لوفد منظمة التضامن الآسيوي الأفريقي للتوسط بين مقديشو وأديس أبابا في الخلافات العميقة بينهما، والحرب التي نشبت بينهما بسببها.

تعرفت عن كثب إلى الرئيس سياد بري، الذي لا يجيد اللغة العربية، وعلى محمد علي سمنتر، وزير الدفاع، ومحمد سليمان، وزير الأمن الداخلي، وهذا الأخير درس في عدن وعاش فترة +فيها، كما تعرفت حينها إلى إسماعيل أبو بكر، وكان المسؤول عن بناء التنظيم السياسي هناك، والذي أعلنوا عن هويته كحزب لينيني في مقديشو، في بلد ملايين الرعاة والحفاة والفقراء.

مدينة مقديشو، مثلها مثل عدن وصنعاء وجيبوتي وأسمرا وأديس أبابا ونيروبي، يمضغ أهلها القات، ويكون مقيل القات ملتقى لمناقشة القضايا النظرية والسياسية والاقتصادية، ولهذا تخرج القرارات من وسط الكيف (نشوة مفعول القات)، إلى وسط الواقع المرير متناقضة، ما يعكس الازدواجية والانفصام بين الأقوال والأفعال، ولكن المقيل في الصومال له طابع خاص، إذ توجد أنواع من القات الصومالي تفوق في مفعولها على الأنواع المعروفة في اليمن، وأتذكر هنا مقيل قات مميز في مقديشو مع وزير الدفاع محمد علي سمنتر، وإسماعيل أبكر

وأحمد سليمان وآخرين، تميز بالقات اليافعي، الذي أحضره الوفد معه من عدن، وكذا البخور العدني الذي عطر أجواء المكان روائح جميلة، وكان مقيلاً مميزاً أيضاً، بأن شاركت فيه عدة فتيات صوماليات – موظفات جميلات – وكنا أعضاء الوفد اليمني منزعجين من وجود نساء في المقيل في البداية، لأننا لم نتعود على مثل ذلك في عدن أو الوطن، لكن الإخوة الصوماليين كانوا عاديين ويتجاذبون الحديث معهن، وقد أوضحوا لنا أنه مقيل عمل، وأن مجلس القات من الجنسين في الصومال ظاهرة عادية.

وقد تذكرت ذلك المقيل المشهود، حين زرت نيروبي (كينيا) لحضور مؤتمر مصالحة صومالي، فإذا بفتاة ضمن الوفد الصومالي تناديني باسمي وتقول لي: أتتذكر ذلك المقيل في مقديشو مع محمد علي سمنتر؟ وريا (تعني يا رجل)، أنت ما زلت شاباً، رغم مرور زمن طويل، ولم أجد بُداً من أن أجيبها: وأنت ما زلت فاتنة أيتها الصومالية السمراء.

عرفنا الإخوة الصوماليون في عدن، منذ أن عرفنا أنفسنا، فهم يشكلون جالية من أكبر الجاليات الشقيقة في عدن، ذلك أن الانتقال السكاني بين عدن ومقديشو بدأ منذ أمد بعيد جدا، فهنا يمنيون من أصل صومالي، وهناك صوماليون من أصل يمني، هذا فضلاً عن وجود جالية كبيرة هنا، وجالية كبيرة هناك، وهذه الأواصر السكانية العريقة في القدم، تعود إلى التاريخ العربي والإسلامي المشترك بين البلدين، فقد حكمت مقديشو قديماً من قبل دول وسلطنات عديدة حكمت اليمن، أهمها: دولة حمير القديمة، الدولة الأموية الإسلامية، وفي العصر الحديث، حكمتها الدولة العمانية في «زنجبار» عام 1871م، ثم تعرضت للاحتلال البرتغال، ثم الاحتلال الإيطالي، وفي بداية الخمسينيات، أصبحت مقديشو ذات سيادة وطنية عند وضع الصومال تحت

الوصاية الدولية في الفترة ما بين 1950 – 1960م، وقد أصبحت عاصمة وطنية للصومال في يونيو عام 1960م عند نيل الاستقلال.

ما الذي حل بمقديشو وبالصومال فدمّرهما؟، يوجد سبب قديم، فعندما وصل الرئيس محمد سياد بري إلى قمة الحكم، قدمت موسكو دعماً عسكرياً كبيراً للصومال، وكذلك فعلت البلدان الاشتراكية، وكان جيش الصومال من أقوى الجيوش في القرن الأفريقي، وهذا الأمر أدخل الغرور إلى عقل العسكر الذين كانوا هم حكام البلاد، ما دفعهم إلى أسوأ عمل قاموا به، وهو إعلان الحرب على إثيوبيا واحتلال أجزاء من هرر وأوجادين، بل وزادوا من تطرفهم، برفضهم للحوار ومساعي التسوية، ما دفع حلفاء الأمس أن يكونوا أعداء اليوم، وبالتحديد الاتحاد السوفييتي والبلدان المتحالفة معه، بما فيها عدن، التي تحالفت مع أديس أبابا، وشاركت في المعارك مع الجيش الإثيوبي والجيش الصومالي حتى دحرته إلى الحدود الدولية المعترف بها، وهكذا، ونتيجة لتطرف قادته، خسر الصومال الحرب وخسر السلام وخسر وحدته الوطنية، وبدأ يعيش ذلك المأزق الكبير داخلياً وخارجياً، إذ لم يتعاون معه الحكام العرب حينها، وظل على هذا النحو حتى بعد انتهاء حكامه الماركسيين.

لعل سبب كل ما يعانيه الصومال الشقيق، هو سلوك حكامه السابقين، حيث إن الفقر والجهل والمرض في دول العالم الثالث، يلعب أسوأ الأدوار، فحين يكون العجز عن مواجهة هذا الثالوث، يحاول بعض الحكام رفع الشعارات للمخادعة، وليس للتغيير الحقيقي الفعلي للأمور، والصومال كان واحداً من هذه البلدان التي رفعت الشعارات على أساس النفاق السياسي، الذي ينم عن الحاجة لطلب المساعدات. وعلى سبيل المثال، وعند زيارتنا لمدرسة ابتدائية في مقديشو، قام الطلبة في أحد الصفوف لنا وأنشدوا نشيداً بالخطأ، كان نشيداً وطنياً عربياً، لا تسعفني الذاكرة لتذكر كلماته الآن بعد هذه

المدة الطويلة، وقد فعلوا ذلك لأنهم اعتقدوا أننا من عرب الخليج الذين تجاورهم اليمن، فإذا بالأستاذ يسكتهم، ويطلب منهم أن ينشدوا نشيداً آخر، نشيداً ثورياً حماسياً، وكان الآخر صالح بن عزون مدير مراسيم الخارجية، قد لفت انتباهنا إلى ذلك، لأنه يجيد اللغة الصومالية، بحكم أنه من مواليد الصومال، ومن أبناء الجالية اليمنية في الصومال سابقاً، حيث توجد جالية يمنية كبيرة في مقديشو ومختلف أنحاء البلد، بما فيها أرض الصومال، وهؤلاء من جميع مناطق اليمن، لكن القسم الكبير منهم من أبناء منطقة حضرموت، وبعد نكبة الصومال ومسلسل الحروب والصراعات فيها، رحل عدد كبير من هذه الجالية، مثلما رحل مئات الآلاف من الصوماليين كلاجئين إلى عدن وشبوة وحضرموت وتعز، بعدما رفضت استقبالهم جميع البلدان الأخرى، ويبدو أن المقولة التي تقول «خرجنا منها وإليها نعود»، أصبحت ملازمة لهذه الدراما الإنسانية التي يعاني منها إخواننا في الصومال، الذين يفتخرون بعروبتهم وبأصولهم اليمنية العربية، مع أنهم عند تغيير حروف لغتهم السواحلية الصومالية، اختاروا أن يكون البديل حروف الأبجدية اللاتينية، وليست حروف الأبجدية العربية.

الجانب الثاني في الإجابة عن السؤال: ما الذي حل بمقديشو وبالصومال فدمّرهما، بعد أن غادر الرئيس محمد سياد بري مقديشو في نهاية شهر أبريل 1991م؟، هو أنه، إلى جانب أنه لا يمكن إعفاء محمد سياد بري عما ذكرناه من عوامل مرتبطة بالحكم في عهده، أدت إلى فشل تجربته وانهيارها، فإن ما حدث عندما انهارت تجربته وغادر البلاد، يومها، ظهرت الأسباب الأخرى كالوحش الذي أُوقِظ من سبات منامه، وهنا، جاء السبب الثاني والحديث العهد فيما حدث ويحدث للصومال وعاصمتها مقديشو من دمار ونحس يطارده في حروب انقسامية وحروب قبلية وسياسية، ألا وهو تنامي العصبية القبلية والتطرف الديني وسيادتهما في الواقع الصومالي.

إنّ تمسك إخوتنا الصوماليين بالعصبية القبلية والتطرف الديني، في ظل غياب سلطة الدولة وقوانينها وأجهزتها، من شأنه أن يعيد البلد إلى القرون الوسطى، إن لم تكن قد عادت إليها بالفعل، فالقبيلة في عالمنا الآن موجودة كصلات اجتماعية وإنسانية، وكإطار لحماية الأفراد من غياهب ظلم أو سطوة ظلم، ولكن عندما تتحول القبيلة أو العصبية إلى بديل للدولة، فإن هذا يعني انتشار الفوضى، ومن ثم، الدمار الكامل للمجتمع، كما أن التطرف الديني وتربيته للشباب على أن الجهاد الديني على طريقة «طالبان» في أفغانستان، هو لمشاكل المجتمع الصومالي، لا يقل خطورة وتدميراً عن العصبية القبلية، فكلاهما يقومان على نهج قديم وأساليب ورؤى عفا عليها الزمن، ولم تعد قادرة على البقاء اليوم إلا وسط لعلعة الرصاص وانفجارات القنابل وتدمير الدولة وأجهزتها، وبالتالي، توقف العمل والبناء والتطور الذي يستهدف أمان الناس وتحسين أحوالهم المعيشية وإنهاء الفقر والجوع والمرض.

ولعل الإخوة الصوماليين قد بدأوا يدركون هذه الحقائق، وها هو الصومال الشقيق اليوم، يحاول أن يلملم شمله ويضمد جراحاته، بعد أن أنهكته الحروب والصراعات الداخلية المتنوعة، ولا نملك سوى أن ندعو الله أن يوفق القادة الصوماليين العاليين في مساعيهم الخيرة، لكي يعود هذا الشعب الشقيق إلى الاستقرار والهدوء والتطور.

عمّان (الأردن)

أصبحت مدينة عمّان عاصمة للمملكة الأردنية الهاشمية بعد الاستقلال عن بريطانيا في عام 1946م، وهي أكبر مدن الأردن، إذ يبلغ عدد سكانها حوالي مليونين ونصف المليون نسمة، وتنقسم إلى قسمين: عمّان الشرقية، وهي الجزء الأقدم من المدينة، وعمّان الغربية،

وهي الجزء الأحدث من المدينة، وتقع المدينة في وسط المملكة، ويقال إنها بدأت على امتداد عدة وديان كثيفة الخضرة وسبعة جبال، ثم توسعت شيئاً فشيئاً إلى الجبال المحيطة الكثيرة التي يقدر عددها الآن بأكثر من 20 جبلاً.

زرتها لأول مرة في نوفمبر 1980م، برفقة الرئيس علي ناصر محمد، وزيراً لخارجية اليمن الديمقراطي، لحضور مؤتمر القمة العربية، الذي عُقِد فيها نهاية الشهر المذكور، وزرتها للمرة الثانية في عام 1981م، حين عُقِد مؤتمر وزراء الخارجية والاقتصاد العرب، وحضرته وزيراً لخارجية اليمن الديمقراطي، ومعي الأخ فرج بن غانم وزير التخطيط حينذاك، والسفير غير المقيم محمد أحمد سلمان، وطلبنا مقابلة جلالة الملك حسين بن طلال، وكان لنا ذلك، تم اللقاء بأن استقبلنا جلالته بلباقته المعهودة، وحديثه الودي الذي يبدأه دائماً بكلمة (يا سيدي)، والتي كان لها وقع السحر على ضيوفه، وكما يبدو أن المراسيم تريد أن تتم المقابلة خارج إطار البروتوكول، وذلك تحاشياً لنقلها عبر التلفزيون الأردني، حيث إن العلاقات مع عدن كانت شبه مقطوعة، وفي أحيان كثيرة كانت متوترة، بسبب مواقف عدن الداعمة للفلسطينيين – وبالذات اليسار الفلسطيني – مع أن الأردن، هو البلد الملكي الثاني بعد مملكة المغرب، الذي

سمح للأحزاب والتنظيمات السياسية بحرية العمل السياسي والتنظيمي، بما فيها الحزب الشيوعي الأردني.

ولكن بعد هذه الزيارة التي فتحت نوافذ كثيرة في جدار الفتور والجمود القائمين في العلاقة بين عدن وعمّان، تنشطت العلاقات الدبلوماسية والتجارية بين البلدين، وتم إرسال الطلبة اليمنيين للدراسة في الجامعات الأردنية، وتم السماح للمرضى من عدن بالعلاج في المستشفيات الأردنية.

وكانت مقابلتي الثانية له أثناء حضوري إلى عمّان في بداية الثمانينيات، عندما كنت وزيراً لخارجية جمهورية اليمن الديمقراطية، وذلك لحضور الاجتماع الوزاري لـ«مجلس الجامعة العربية» فيها، ويومها قابلته وسمعت مجدداً تلك الكلمة المحببة إلى النفس، التي سمعتها قبلاً منه: عفواً سيدي؟

كانت تلك الكلمة تعكس تواضع الملوك، إلا أن الملك حسين استخدمها مجدداً على امتداد حديثه، فقد كان على جانب من التهذيب قَلَّ نظيره، وقد استمر حديثه لأكثر من ساعة، شعرت خلالها بصدقه معي، رغم أننا كنا حينها نقف موقفين متعارضين بحساب سياستي البلدين، كانت اليمن الديمقراطية عضواً في «جبهة الصمود والتصدي»، وقدمت مساعدات كبيرة للقضية الفلسطينية كافة، ووجودها الفعلي في عدن، وخاصة المنظمات الرئيسة في «منظمة التحرير»، ومع ذلك تطورت العلاقة الدبلوماسية مع الأردن، وتم تبادل السفراء والوفود الرسمية، أما العلاقات الشعبية، فقد تطورت تطوراً كبيراً، حيث أصبحت الأردن مفتوحة الأبواب أمام مئات الطلبة ومئات المرضى القادمين، بتواصل من اليمن، وأذكر أنه في أحد أحاديثنا ذلك اليوم مع جلالة الملك حسين، رحمه الله، قلت له: أعترف لكم يا صاحب الجلالة، أننا ونحن أعضاء في الحركة القومية العربية واليسارية، قد حرضنا ضدكم أكثر مما حرضنا

ضد إسرائيل، والآن، وبما نشاهده اليوم على أرض الواقع من بناء سياسي واقتصادي وعلمي وحضاري، نشعر أن علينا أن نقدم الاعتذار.

فرد جلالة الملك بالقول: معليش يا سيدي، ولا تهتم، هكذا الحياة، وخاصة في منطقتنا الساخنة.

في المرة الثالثة، وتحديداً، في عام 1992م، وأثناء عضويتي في مجلس الرئاسة لليمن الموحد، زرت عمّان للعلاج، ووجدتها غير تلك التي شاهدتها قبل عشر سنوات وأكثر، تغيرت المدينة من حيث سعتها وانتشار مبانيها على التلال وفي السهول والوديان القريبة، وكذا، من حيث نظافتها ومظهرها العام، كما ظلت هذه المدينة محافظة على تلك الطريقة الجميلة والحضارية، ليس فقط في البناء المعماري الجميل، ولكن أيضاً في بناء الأسوار والحفاظ على التشجير واحترام النسق والفروقات بين المباني، كما هو الحال في تنسيق الشوارع، ولا شك أنها استفادت من تحويلات أبنائها الذين كانوا في دول الخليج والسعودية، أو الذين عادوا بكل ما لديهم أثناء وبعد حرب الخليج الثانية منذ عامين، وهم بعدة مئات الآلاف، ولا شك أنها استفادت من استخدام مطاراتها وموانئها وبنوكها، التي يقودها البنك العربي، وصاحبه ومؤسسه عبد الحميد شومان، رحمه الله، والذي فتح فروعاً له في كل البلدان العربية، التي تسمح للبنوك الخارجية للعمل فيها، ولهذا الرجل وزملائه، من أمثال حسيب الصباغ، رحمه الله، أدوارهم، ليس فقط في العمل البنكي والتجاري، ولكن في الجوانب الثقافية أيضاً، فهناك جائزة ثقافية ومعهد وملتقى لعبد الحميد شومان في عمّان، يستقبل الشعراء والكتاب والساسة العرب، لإلقاء محاضراتهم وتوصيل رؤاهم للمهتمين.

هكذا استفادت عمّان من حرب الخليج الأولى، والتي وقفت الأردن مع العراق في حربه ضد إيران، كما استفادت من تعطل الخدمات في بيروت أثناء الحرب الأهلية اللبنانية، واستفادت من التوجه الاشتراكي لدمشق، الذي لا

يقبل التعامل الرأسمالي المباشر، وخاصة في البنوك والوكالات المالية الأخرى التي وُجِدت في عمّان، عاصمة تستوعب هذه النشاطات، وبحُرية، كما أن بيروت محمية بوضع أمني واجتماعي غير مستقر، خاصة بعد السبعينيات، وخروج المقاتلين الفلسطينيين، كما استفادت لاحقاً، وعلى هذا النحو، من الاحتلال الأمريكي والأجنبي للعراق، وما تلاه من أحداث دموية متواصلة في العراق، جعلت الكثيرين ينتقلون إلى الأردن، مصائب قوم عند قوم فوائد.

وقد عززت عمان كل هذه العوامل التي جاءت في صالحها، سواء في المنطقة أو العالمية منها، من خلال إصلاحات واسعة، بدأتها بإصلاح المجتمع العشائري، ونقلته سلمياً، بتطور البنية التحتية والتنمية الشاملة، إلى مجتمع مدني يخضع الأردني فيه للمواطنة المتساوية، وفقاً للدستور والقانون، وتم كل هذا مع عامل قلة موارد الأردن المعروف، لكن العقل الأردني استطاع أن يشرك كل فئات المجتمع في عمليات الإصلاح والتطور، بما في ذلك قطاع المرأة التي أصبحت الملكة الأم «زين»، وبعدها ملكات الأردن وأميراته، وآخرهن الملكة رانيا، قدوة للمرأة الأردنية والعربية في الإسهام والعمل في البناء، جنباً إلى جنب مع الرجل.

وتعاقبت زياراتي إلى عمّان، إما لأسباب عملية أو لأسباب شخصية أحياناً، ومنها أنه كان لدينا في جامعات عمّان بعض أبنائنا يدرسون هناك، وعدد منهم من أخذ شهادة البورد العربي في الجراحة من الجامعة الأردنية، ومنهم زوج ابنتي، الدكتور محمد عبيد القعيطي، وأيضاً ابنتي ميرفت، التي حصلت على الدبلوم العالي في العلوم الطبية والمختبرات، وكذا أصدقاء كثيرون من أبناء الأردن وفلسطين والعرب الموجودين فيها.

ومن بين زياراتي الكثيرة لها، كانت أهم زيارة إلى عمان، زيارة عام 1993م، تلك التي شهدت حضوري إليها للتمهيد لاتفاق بين طرفي السلطة

في اليمن، الذين اختلفوا بشدة، بعد أن وحدوا اليمن سوياً، وجاءت قبل توقيع وثيقة العهد والاتفاق التي وقعها الرئيس علي عبد الله صالح، ونائبه علي سالم البيض، وقادة الأحزاب في اليمن، كمخرج للأزمة السياسية العصيبة التي عصفت باليمن كلها، واعتكف فيها نائب الرئيس علي سالم البيض في عدن، بدلاً من العاصمة صنعاء، وذلك قبل أن تتفجر الأمور بعد توقيع الوثيقة المعروفة، وقبل أن تعصف رياح الحرب بالأجواء اليمنية صيف **1994**م.، وقد بذل الملك حسين وولي عهده الأمير حسن بن طلال، ورئيس الديوان الملكي الأمير زيد بن شاكر، ومروان القاسم وزير الخارجية السابق، وكذا عبد السلام المجالي رئيس الوزراء، وخالد الكرك مستشار الملك، أدوارهم في تجنب خيار الحرب، سواء أثناء الحوارات في عمّان قبل وبعد توقيع معاهدة الوثيقة، أو في اشتراكهم مع سلطنة عُمَان في اللجنة العسكرية المشتركة أو بعد ذلك.

وكيمني، لا أخفي مشاعري تجاه كل إخواننا العرب، الذين رحبوا بقيام الجمهورية اليمنية، وبها تحققت الوحدة سلمياً وديمقراطياً، ومنهم الملك حسين، وبعدها لا أحد يذكر تلك الجهود الصادقة التي قدمها الملك حسين وولي العهد السابق الأمير الحسن، وحكومة الأردن، بشأن تجنيب اليمن حرب **1994**م، ولقد شعرنا في وقت من الأوقات، أن اليمن بكل أحلامه ومتاعبه، انتقل إلى الأردن الشقيق.

لقد مثّل الأردن محطة من محطات الاهتمام بالشأن اليمني، ولهذا عُقِدت لقاءات القمة اليمنية، وأقرت وثيقة العهد والاتفاق في عمّان، بحضور الملك، وبمتابعة مكثفة من قِبَله شخصياً، حيث أعطى للجميع الحق في الحوار، وأعطى للصحافة حرية البحث والتساؤل والرصد، فكانت الأردن الصدر المفتوح الذي احتضن الهمّ اليمني، واستمع إليه وشارك في تخفيف حدة التوتر بقدر عالٍ من المسؤولية، حتى إن عمّان استقبلت أكثر من **300** شخصية يمنية، من الرئيس

اليمني ونائبه، حتى كتائب الحراسة الشخصية التي جلبها المسؤولون اليمنيون معهم.

كان الملك حسين، رحمه الله، ينظر إلى الوحدة اليمنية وتحقيقها في نهاية هذا القرن، كانتصار عربي، يعوض العرب عن الإخفاقات والخسائر التي ألحقتها إسرائيل بهم منذ قيامها عام 1948م، وهي مكسب ينبغي الحفاظ عليه، وتوفير كل الإمكانات لحماية تطوره، لمسنا ذلك من خلال اللقاءات المكثفة التي قادها جلالته بين الجانبين، ومن خلال اللقاءات التي جمعته بالقيادة اليمنية التي حققت الوحدة، كان صبوراً شجاعاً متواضعاً صادقاً مع كل الأطراف، مدركاً لصعوبات تحقيق ما جاء في الوثيقة، وخاصة البند الأول.

وكانت آخر مقابلة تشرفت فيها بلقائه مع زميلي الدكتور عبد العزيز الدالي في نهاية شهر مارس عام 1994م، والوضع اليمني يسير نحو الحرب بين فرقاء الوحدة، وحضر هذا اللقاء الأخوان مروان القاسم وخالد الكرك، كان الملك قد شعر بأن الأمور لم تعد في يده، أو في يد الرئيس ونائبه، وكان حزيناً لهذا التدهور، وأكد أثناء اللقاء، استعداده لتقديم أي عون يراه إخوانه في اليمن، لتفادي خيار الحرب، وكانت هذه الزيارة الأخيرة لي إلى عمّان على رأس وفد زار كل من المملكة العربية السعودية ومصر وسوريا، لاحتواء تصاعد الأزمة السياسية بعد توقيع وثيقة العهد والاتفاق، وأثناء وجودي في عمّان الأردن كمحطة أخيرة لتلك الجولة، أُصَبت بانزلاق غضروفي في الظهر، نتيجة للوزن الزائد، وزيادة السير وكثافة العمل، وحينها نصحني الأطباء الأردنيون بأن أتوجه إلى لندن للعلاج، وفعلت ذلك، بينما عاد بقية أعضاء الوفد إلى عدن.

وإذا تحدثنا عن عمّان وأجوائها، وما هو جميل فيها، بعيداً عن السياسة، فالطقس في عمّان معتدل بشكل عام، ترتفع درجات الحرارة صيفاً، وتنخفض الحرارة شتاء، وتتساقط الثلوج في هذا الفصل على مرتفعات المدينة وقمم

محيطها، وتوجد في المدينة الكثير من الأماكن السياحية، منها ما شاهدناه، مثل: منتزه عمّان القومي وحدائق البحرين والمدينة المائية، وللمدينة نشاطات ثقافية متعددة، وقد حضرت ذات مرة حفلة موسيقية غنائية في «المدرج الروماني»، وهو مسرح مدرج نصف دائري تقريباً، يجعل الجلوس فيه للنغم والغناء مذاقاً خاصاً يصعب وصفه، أما إذا خرجت من المدينة إلى النواحي من وديان خضراء وقرى ريفية جميلة، فإنك تحس بعذوبة الحياة وانتعاش الروح، ولهذا تجتذب عمّان الكثير من أبناء الجاليات العربية والسياح القادمين بكثرة من أوروبا وأمريكا وآسيا وأستراليا وغيرها، فهي إلى جانب تمتعها بصفات سياحية كثيرة، فإنها أيضاً قريبة من بعض المدن الأردنية الهامة للزوار والسياح، مثل آثار كل من «جرش» و«البتراء»، وآثار مدينة «أريد» على بعد ما يقارب 80 كيلومتراً باتجاه الشمال، وكذلك توجد في المناطق القريبة منها منتجعات للاستشفاء، منها منتجع حمامات «ماعين» ومنتجع البحر الميت، كما أن نهر الأردن على بُعد منها يقارب 50 كيلومتراً إلى الغرب.

وفي عمّان جالية يمنية وعربية، أكثر أفرادها من الطلبة، حيث شهد الأردن طفرة نوعية في مجال التعليم والتعليم العالي منذ أوائل التسعينيات، فعمّان هي رائدة تجربة قطاع التعليم الخاص في العالم العربي، وهي تمتلك أعلى نسبة في عدد الجامعات، نسبة إلى عدد سكان بالمدينة، أما على الصعيد الطبي، ففي مستشفيات عمّان أطباء لامعون، ينافسون بجدارة أطباء الغرب، وخاصة أطباء المدرسة الطبية البريطانية، التي لم تفسدها التجارة بعد، وحسب معلوماتي، فإن هذه الشهرة قد مكنت الأردن في أحد الأعوام الماضية، من استجلاب أكثر من 300 مليون دولار، دفعها القادمون من اليمن فقط لقاء العلاج، وهم يأتون إلى عمّان أيضاً لتوفر التسهيلات التي يجدونها هنا، وعدم وجود تأشيرة دخول عليهم، وكذا احترام الأجهزة والشارع العربي الأردني لإخوانهم

اليمنيين والعرب عموماً، الذين يطلبون العلاج أو العلم أو السياحة في ربوع الأردن، ويحدوهم الأمل جميعاً في أن هذه المجالات (التعليم والصحة والسياحة) في الأردن، ستتطور في عهد الملك الشاب عبد الله الثاني، الذي قام بتحسين العلاقات الخارجية مع سوريا ودول الخليج العربي، وبعض البلدان التي كانت علاقتها جامدة وفاترة مع الأردن، خاصة بعد حرب الخليج الثانية، وهذا التطور المطلوب هام، في ظل وجود عواصم جذب أخرى، كدمشق التي بدأت الانفتاح في عهد بشار الأسد، وبيروت التي خرجت من الحرب الأهلية، محاولة بقوة إعادة دورها وموقعها في المنطقة، هذا لا ينفي أننا كلنا عرب، ولكنه سيعزز التنافس بيننا في تقديم الأفضل للمواطن العربي، سواء في الأردن أو في سوريا أو لبنان أو الخليج أو مصر أو العراق، أو غيرها من البلدان العربية، التي تتلظى آمالها منذ أن قادت الأسرة الهاشمية، الثورة العربية الكبرى، ونجحت في مكان وأخفقت في أماكن أخرى.

ولعمّان همومها العربية المباشرة، كمدينة عربية، وأكبر هذه الهموم، هو اللاجئون العرب القادمون إليها من جراء ما أصاب بلدانهم من أزمات أو حروب؛ فقد استقبلت المدينة، كغيرها من مدن الأردن، الكثير من اللاجئين من دول الجوار، خلال أزمات القرن الماضي، وبالأخص من فلسطين، بسبب قيام الكيان الصهيوني بتشريده المستمر للشعب الفلسطيني، ومن لبنان بسبب الحربة الأهلية والعدوان الإسرائيلي على لبنان، ومن العراق بسبب الحرب العراقية الإيرانية واحتلال أمريكا للعراق منذ ستة أعوام، ويفضل بعض هؤلاء اللاجئين، البقاء للعيش في عمّان، والبعض الآخر (وهم الأكثرية)، عادوا إلى بلدانهم عند انتهاء عوامل خروجهم منها، وما زال عدد كبير من اللاجئين الفلسطينيين يعيشون في المخيمات حتى اليوم.

وفي مدينة عمّان، عاصمة الأردن، كانت أول معرفتي بالرئيس ياسر عرفات (أبو عمار)، وكانت معرفة طويلة، ولكل من عرفه الشرف الكبير، لأنه كان قائداً فلسطينياً معتدلاً، عاش نكبة عام **1948**م بكل معانيها، وانخرط في العمل السياسي والفدائي منذ عام **1965**م، وواصل هذا النهج بثبات، وعبَّر عن أهداف الشعب الفلسطيني، من خلال منظمة التحرير الفلسطينية، التي اعترف بها العالم كممثل شرعي للشعب الفلسطيني، وكوجه للقضية الفلسطينية، التي هي همٌّ كل واحد منا كعرب ومسلمين، منذ أن تخطينا مرحلة الطفولة وبدأنا نتلمس ما حولنا، وكذلك بعد أن أصبحنا شباناً، نطل على العالم الكبير المحيط بنا، ونتأمل في ما يجري فيه، بل ونميل إلى تغييره، وها نحن في مرحلة النضج، أو قل الشباب الناضج، وربما على أعتاب الشيخوخة قريباً، وما زالت هذه القضية في مركز الصدارة في نفس كل عربي ومسلم، شاب أو مسن، امرأة أو رجل، إنها ما زالت في مركز الصدارة في قائمة الهموم القومية والحياتية اليومية على حد سواء.

لم ننسَ يوماً ياسر عرفات، وفي هذه الأيام التي نعيشها، يعود «أبو عمار» إلى الذاكرة مجدداً، وبقوة وتكرار دائم، لأن المشهد في الساحة الفلسطينية الآن، وواقع الحال بين الإخوة في منظمتي «فتح» و«حماس»، لا يسرُّ أي مواطن في العالم العربي والإسلامي، الذي أيدوا احتضان المقاومة الفلسطينية طيلة نصف قرن من قيام الكيان الصهيوني الغاشم على أرض فلسطين، ذلك أن واقع الحال الفلسطيني الآن، لم يكُن ليوجد لو أن أبو عمار ما زال حياً بيننا، فما حدث في غزة عام **2007**م، من خلاف حاد وانقسام بين منظمتي «فتح» و«حماس»، وما يحدث الآن من مفاوضات مطولة ومعقدة حول تشكيل حكومة فلسطينية موحدة، تجابه اليمين الإسرائيلي، الذي وصل إلى السلطة مؤخراً، وما يعيشه شعبنا الفلسطيني في غزة من دمار خلَّفه العدوان،

وحصار وتجويع، كل هذا يجعلنا نتساءل بإصرار، هل آن الأوان للذات الفلسطينية، أن تراجع نفسها، وأن تقيم أوضاعها وفقاً للظرف الموضوعي القائم، وبما يخدم مصلحة الشعب الفلسطيني.

زرت عمّان سنة **2015**م، أثناء الحرب الجديدة المدمرة في اليمن وسوريا والعراق وليبيا، وذلك لزيارة أحفادي وابني الدكتور خلدون، الذي غادر صنعاء تاركاً منزلنا هناك وعمله، كقائم بأعمال المكتب التنفيذي للدول المانحة في صنعاء.

كبرت عمّان، وأصبحت عمّان الكبرى، وكان لا بد أن تدفع ضريبة الغلاء وشح المياه والازدحام.

وبعثنا تحياتنا إلى الملك عبد الله الثاني، الذي يواصل سياسة الاعتدال التي سار عليها والده، والملك عبد الله قابلناه في صنعاء أثناء زيارة له قبل عشر سنوات، وكان ولا يزال يمثل حكمة «الهاشميين» في الحكم والتعايش مع الآخرين، وبالذات الفلسطينيين، سواء من هم داخل الأردن، أو من هم في الأراضي الفلسطينية المحتلة.

موسكو (روسيا)

منذ ثورة البلاشفة وانتصارها على النظام القيصري في عموم روسيا عام 1917م، وحتى نهاية النظام السوفييتي الاشتراكي في نهاية القرن المنصرم (القرن العشرين)، مثلت موسكو العاصمة التي تقود المعسكر الآخر،

المعسكر الاشتراكي، وهو – النظام الاشتراكي – آخر شكل ما وصلت إليه البشرية في سياق بحثها عن أفضل النظم للعدالة الاجتماعية، وتحقيق مبدأ الإنسان أخو الإنسان، بغض النظر عن دينه أو لونه أو جنسه أو قوميته، وذلك الشكل الذي اعتُبر عند قيامه، أنه أحدث أشكال الحياة حاول الإنسان بناءه في أضعف البلدان الرأسمالية اقتصاداً، لكنه فشل بعد سبعين عاماً، عندما تبنت موسكو تطبيق أفكار جديدة، تعتبر تقدمية من وجهة نظر الرأسمالية، ومنسجمة مع تطبيقاتها، وكذلك من وجهة نظر مبدأ تحقيق العدالة في الأرض.

وحصل هذا التبدل العالمي النوعي، لأن النظام الاشتراكي لم يتحقق فيه شيء كثير من طموح الفكر الإنساني الجديد، وتحولت الفكرة والإرادة الجديدة إلى مقيد معيق للإنسان، بتحول الدولة وأجهزتها إلى سيد جديد، ومحتكر وحيد لكل شيء، وهذا القول لا يعني عدم حراك الأوضاع الدولية بظهور شكل الاشتراكية العلمية، فقد استجدت أوضاع جديدة، خاصة بعد الحرب العالمية الثانية، وخروج موسكو منها منتصرة، لها المؤيدون ولها المعارضون، على حد سواء، في جميع أنحاء العالم.

والعلاقة بين عدن وموسكو منذ أن تحصلت عدن وجنوب اليمن على استقلالها الوطني في نهاية النصف الثاني من الستينيات، مرت بمراحل عدة، أولها

بدأت عن طريق القاهرة، وبعدها تدرجت ونمت حتى صارت حميمة، ثم بعد سنوات أصبحت عدن دولة حليفة.

مثلت عدن في نظر موسكو من الناحية النظرية للفكر السياسي لتلك المفاهيم، التي كانت اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفييتي – وتحديداً قسم العلاقات الدولية الذي ترأسه «بوماناريوف» عضو المكتب السياسي المرشح، وأحد مفكري الحزب الشيوعي، ومساعده للشؤون العربية وأفريقيا «بروتنس»، تصدرها كأحكام مطلقة، يحتاج نقضها إلى مؤتمرات وندوات فكرية، تتطلب جهوداً فكرية وسياسية هائلة، لا يقدر عليها غير المختصين في هذه المجالات، وكم ندر وجود مثل أولئك المختصين في اليمن الجنوبي، حينذاك.

على الصعيد السياسي، تعاملت موسكو مع عدد من العواصم العربية من خلال القاهرة، وبعد موت الرئيس عبد الناصر ومجيء الرئيس السادات، وطرد الخبراء الروس، وإلغائه معاهدة الصداقة مع السوفييت، وإبرامه اتفاقية كامب ديفيد، ومحاولته مع آخرين إخراج الاتحاد السوفييتي من المنطقة، دعمت موسكو عواصم أخرى، ومنها عواصم دول جبهة الصمود والتصدي العربية، وبالتحديد، دمشق وطرابلس والجزائر وعدن، والتي أقيمت (الجبهة) من أجل مناهضة اتفاقية كامب ديفيد بين مصر وإسرائيل، ولقد استفادت عدن – مثلها مثل غيرها من العواصم العربية – من هذا التحول في مسار الدعم والتوجه السوفييتي نحو العرب، أما التعامل الأيديولوجي، فلم يتم مباشرة بين عدن وموسكو، إلا بعد موافقة بعض الأحزاب الاشتراكية والشيوعية العربية، ورضاها عن عدن، وجاء هذا التعامل بالذات، بعد تشكيل الحزب الاشتراكي اليمني عام 1978م، وكانت المساعدات الاقتصادية والعسكرية السوفييتية لعدن، تخضع لهذا التقييم بدرجة رئيسة، ويتبعه التقييم السياسي، ثم وضعية خريطة المصالح الاستراتيجية وحالة الصراع بين المعسكرين العالميين.

كان للدعم السوفييتي للعرب، جوانب إيجابية وجوانب سلبية، على حد سواء، وإنه لمن الجحود بعينه، أن تقول الآن إن السد العالي ومجمع حلوان الصناعي وبناء قدرات الجيش المصري والسوري واليمني والعراقي والجزائري والليبي والسوداني خلال نصف قرن، قد تمت بدون هذه المساعدات، وأن بناء الكوادر العربية وتأهيلها لدعم الموقف السياسي العربي، لم تكن له فائدة أبداً، لأن الفائدة في سباق الصراع العربي الإسرائيلي، لم تكن لها قيمة تذكر، وعلى الصعيد الاقتصادي، فالسلب كان مشتركاً: ضعف الاقتصادات الاشتراكية، وقيام العرب وقياداتهم الحاكمة وحدها بتحديد أولويات المساعدات الاقتصادية بعفوية، وباستيعابية رديئة، أدت إلى تحول قروض الدول الاشتراكية إلى ديون، معظمها ديون تم شطبها، أو أنها أصبحت فيما بعد في حكم الميت.

في إطار العلاقات العربية – السوفييتية، كانت هناك أخطاء تاريخية مشتركة من هذا الجانب أو ذاك، وهناك نواقص، وأحياناً نزق وتطرف، ولكن أصحاب القضية (العرب)، هم الذين يتحملون الجزء الأكبر منها، وبعد أن سقط التوازن الدولي القائم آنذاك، وذهب الحليف الاشتراكي، اتضح للعرب وللعالم أجمع، ماذا يعني ذلك التوازن الذي تداعت أركانه؟، وكيف أصبحت تطبيقات ومعاملات القطب الواحد (أمريكا) في الوضع الجديد؟، وخاصة في منطقة الشرق الأوسط، التي يحتل الدعم الإسرائيلي الأهمية القصوى والأولى للقطب الواحد للولايات المتحدة الأمريكية، التي تحكمها نخب وأوساط مالية، تعد هي محركة الأوضاع الاقتصادية والمالية والسياسية، ليس في أمريكا وحدها، وإنما في مجمل الاقتصاد العالمي.

موسكو لها وعليها، وينطبق ذلك علينا كنظم أو دول أو أفراد، ونقول هذا من باب استخلاص الدروس، لأن كل ما جرى معها، أصبح تقريباً في ذمة التاريخ، ومع ذلك، فإن كل دولة أو حزب يقيّم ما جرى من خلال مصالحه

السابقة أو مصالحه الحالية، مصالح اليوم وغداً في عالم كان ينتظر ميلاد نظام دولي جديد، يقوم على الطريق الثالث، طريق إنشاء نظام عالمي موحد متعدد الأقطاب، يستند على العدالة الدولية والمصالح الإنسانية المشتركة، وبما يمكّن من خلق عالم جديد عادل ومستقر، لم يستطع الأنبياء عمل ذلك (وَقُلْنَا اهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ) صدق الله العظيم.

زرت موسكو لأول مرة في عام 1969م، وأذكر أن مسؤول شؤون اليمن في اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفييتي، كان يناقشني ويوجه الأسئلة لي من منطلق: هل أنا مع التيار الصيني أم لا؟، ولم يسألني أحد من المسؤولين السوفييت الذين التقيتهم، هل ميولي رأسمالية، أم برجوازية صغيرة، أم قومية، أم اشتراكية، وهي الأسئلة الشائعة تلك الأيام، واتضح لي من النقاشات والحوارات، أن الكفاح المسلح لحركات التحرر الوطني، يعتبر في نظرهم منحى صينياً، إلا إذا ثبت العكس بعد إثبات البراءة، من خلال تبني أحد الأحزاب الشيوعية لبراءتك، أو تبني إحدى بلدان المنظومة الاشتراكية (وخاصة كوبا) لنهجك وتفهمها لسياساتك.

وتوالت زياراتي لموسكو بحكم مسؤوليتي في مجلس السلم والتضامن والصداقة اليمني، وسكرتير العلاقات الخارجية في الحزب، ثم وزيراً للخارجية، رافقت ثلاثة رؤساء في زيارتهم الرسمية والحزبية لها، وهم: عبد الفتاح إسماعيل وعلي ناصر محمد وعلي سالم البيض، وقابلت من الرؤساء السوفييت: ليونيد بريجنيف، وجريتشكو، وجروميكو، وجورباتشوف. وتعرفت إلى عدد من أعضاء المكتب السياسي، الهيئة العامة الفعلية، أبرزهم: ليجاتشيف، وبوماناريوف في عام 1986م، وحضرت مؤتمر الحزب الشيوعي السوفييتي الخامس والعشرين عام 1981م، والسادس والعشرين عام 1986م، ومؤتمرات عديدة للسلم والتضامن بين الشعوب، وكذلك حضرت دورتين تأهيليتين في مجال البناء

والتنظيم الحزبي، إحداهما كانت مخصصة لأعضاء المكتب السياسي عام **1979**م، وقد استمرت هذه الدورة مدة ثلاثة أشهر متواصلة.

تعرفنا إلى العديد من المفكرين المستشرقين والمهتمين بالشأن العربي والإسلامي، ولم يفُتنا خلال هذه الزيارات الكثيرة التي خصصت بعض أيامها للاستجمام، أن نزور «مسرح البلشوي»، ونشاهد عدداً من عروضه، وسيرك موسكو الرائع، الذي كان محبباً للكل، وبرج موسكو ومترو موسكو الأرضي، ذلك المتحف المنحوت تحت الأرض، الذي تميل لركوب عربات المترو فيه من أجل أن تشاهد جمال أرضيته وجدرانه وسقوفه المغطاة بالرخام والجرانيت البديع الألوان، والصور ونجف الإضاءة، كما أننا زرنا مصانع ومزارع ومرافق كثيرة، يصعب عددها، وأذكر أنه كان من أهم تلك الزيارات، زيارة قمنا بها إلى «معهد الفضاء السوفييتي»، وشاهدنا هناك تدريبات رجال الفضاء الاختبارية، وكان الاطلاع على جوانب المعهد وما يقوم به، محل اهتمامنا، وبالذات، بعد أن فكرت موسكو بتدريب طيار يمني ضمن برنامج إرسال رجال فضاء من البلدان الصديقة والحليفة، ولم يكن الوعد المذكور من باب الدعاية، بل كان عملاً حقيقياً، سبقته دراسات خاصة عن مستوى الطيارين اليمنيين، وأذكر أنه خلال تلك الزيارة، قالت لنا رائدة الفضاء الروسية «فالنتينا»: (لديكم من الطيارين اليمنيين المهرة، ما يمكن لنا تأهيلهم ليصبحوا رواد فضاء، ويمكن إرسالهم إلى الفضاء في الأعوام القادمة)، ولكن جاءت أحداث **13** يناير **1986**م الدموية في عدن، لتأكل معظمهم، لا داعي للاسم، فكل طيار ما زال حياً في وضع مزرٍ، خاصة بعد حرب عام **1994**.

كنا في «عدن»، نحاول أن نجسد علاقاتنا مع الاتحاد السوفييتي بأعمال ملموسة، ومنجزات واقعيه، وألا يغلب على العلاقة الجوانب النظرية والأيديولوجية والدعائية فقط، وهي الجوانب التي كان الرفاق السوفييت

يعطونها أهمية أكبر، وأذكر أنه في إحدى زيارتي إلى موسكو في السبعينيات من القرن الماضي، التقت بي مندوبة إذاعة موسكو (العربية)، وطلبت مني إجراء لقاء إذاعي فسألتها: (حول ماذا؟) فأجابت: (حول التحولات التاريخية لثورة **17** أكتوبر الاشتراكية العظمى)، وعندها لم أعرف بماذا أبدأ، لأن موضوع السؤال كبير جداً، ويحتاج إلى مجلدات مكتوبة للشرح، فتحدثت عن بعض المنجزات الحقيقية في الواقع، وخاصة ما يتعلق منها بالعلاقات بين بلادنا والاتحاد السوفييتي، وإذا بالمخرج للبرنامج الإذاعي بعد الحديث بيني وبين المذيعة، يتقدم نحوي ويناولني مبلغاً من المال قدره **250** روبلاً روسياً، اندهشت وقلت له على الفور: (ما هذه النقود؟)، فإذا به يجيبني (إنها مقابل ما قمت به من جهد)، كانت هذه أحد الحوافز الموجودة في المجتمع الاشتراكي، رغم أن حديثي لم يكن مطولاً أو سياسياً معقداً، وما أعجبهم فيه، إشارتي إلى الطالبة العدنية «سميرة»، كإحدى ثمار العلاقات اليمنية السوفييتية، وهذه الفتاة العدنية، كانت حاضرة بين الجمع الموجود، وقد تخرجت لتوها في كلية الطب بجامعة موسكو.

أثناء زياراتنا المتكررة لموسكو، ومكوثنا فيها طويلاً أحياناً، شاهدنا ما يسر الخاطر، وشاهدنا ما يجرح المشاعر، شاهدنا متاعب بناء الاشتراكية، وتطبيقات بناء الاشتراكية المتطورة، والتمهيد لدخول أعتاب مرحلة جديدة، بدأت بإيصال رغيف الخبز للناس مجاناً، وتوفير سبل المواصلات شبه المجانية، وغيرها من المتطلبات من وسائل التعليم والصحة والثقافة والرياضة، حيث كان الاتحاد السوفييتي يحصد في أي أولمبياد دولي، معظم الميداليات الذهبية، وكان الكتاب يباع – هناك – بأرخص الأسعار في العالم، ويتحصل الكتاب والمؤلفون على أكبر العوائد في العالم، وإلى جانب ذلك، شاهدنا في موسكو، كم كان سعر البنطلون الجينز، أو سعر القميص المصنوع في إحدى دول الغرب، أو علبة

العلكة الأجنبية، ولمسنا كم هي اللهفة، وكم هو التشوق للحصول على مثل هذه السلع، كما عانينا، مثلنا مثل المواطن الموسكوفي، من انعدام خدمات ضرورية، مثل الانتظار لإجراء مكالمة هاتفية خارجية عدة أيام، أو من سوء بعض المنتجات، مثل أنواع من الأجهزة الكهربائية والإلكترونية، وما شابهها في ذلك الوقت.

شاهدنا في موسكو مدى تشددهم الأمني والعسكري، والقائم على نظرية الأمن قبل أي شيء، وعدم إعطاء أولوية للإنتاج الصناعي لبعض السلع، وإلغاء الصناعات الفردية الحرفية والمحال الخاصة، حيث كان يعتبر تشجيعها، تشجيعاً لروح وفكر البرجوازية الصغيرة، ذات الروح والعقلية المتذبذبة، باعتباره يتعارض مع المبدأ الطبقي البروليتاري، القائم على ملكية وسائل الإنتاج الاجتماعية للعمال والفلاحين التعاونيين، في مجتمع قائم على إنتاج القطاع العام والتعاوني فقط، وشطب دور القطاع الخاص، هذا ما كان يوجد لديهم نظرياً، أما في واقع الحال، فإن الوضع خلق فئات بيروقراطية جديدة، لم تكن منظورة في قيادات القطاعات العامة والتعاونية، وأوصلها إلى الاستفادة الكاملة من خيرات وعوائد الاقتصاد، ومن حول الدولة وقطاعاتها، بحيث صارت فئة احتكارية جديدة، أصبحت – في الحقيقة – العدو الأول للعمال والفلاحين والتعاونيين، وسائر أفراد الشعب، وكانت تلك الفئة، وراء إفساد الحياة هناك، وتحويل الشعارات البراقة والنظريات الجميلة إلى دروس جافة، تدرس في المدارس والجامعات والكليات والمعاهد السياسية، ولكن ليس لها أي شفافية أو فعل في ملامسة الحياة والأرض والإنسان، بل إنه توجد هنا فوائد أخرى لا يجدها في وطنه، منها: رخص السكن وحاجات المعيشة الشديد، وكل وسائل المتعة متوفرة، وكذا الأمن والاستقرار المتوفر والملموس للجميع.

وبعد الدرس القاسي لأحداث، يناير الأليمة، حتى بالنسبة للسياسة الخارجية السوفييتية، تبدلت العلاقة الثنائية في مضمونها، ففي زيارتي المذكورة إلى موسكو عام 1988م، كانت الأمور هناك قد أخذت منحى آخر، ووجدنا أنه لا توجد بالنسبة لنا أي ضغوط خارجية تعارض توجهنا نحو خطوات جادة باتجاه الوحدة اليمنية وإعلانها، فقد كانت الظروف الدولية مهيأة لاتخاذ هذا القرار التاريخي، لكن – وفي نفس الوقت – كانت الظروف الدولية تبدلات أخرى معاكسة، وأقصد بهذا القول، ما سمعناه وما تردد في ما بعد، وما اتضحت نتائجه على صعيد الممارسات التي تمت بعد حرب صيف عام 1994م، وهو وجود نصائح قدمها عدد من الدول الغربية (وأهمها أمريكا، حسب ما تردد حينها)، نصحت بالعمل على إقصاء «الحزب الاشتراكي اليمني» قبل قيام الجمهورية اليمنية، ثم بعد قيامها، بل نصحت تلك الدول بإقصاء شريك الوحدة من الساحة، وقد طبق البعض تلك النصائح في حرب عام 1994م، بإقصاء عدن ككل.

وعودة إلى الحديث عن التبدلات الرئيسة التي حدثت في الاتحاد السوفييتي، والتي لمستها بوضوح تام أثناء آخر زيارة رسمية لي إلى موسكو في عام 1988م، فأنا كنت أزور موسكو كل ستة أشهر تقريباً، وعندما كنا نزور مقر اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفييتي مثلاً، أو وزارة الخارجية السوفييتية، نرى ونشعر بهيبة الدولة، وقدرتها ودقتها في العمل، كنا نناقش هناك المسائل الصغيرة والكبيرة، والآراء الفكرية والنظرية والسياسية، ونناقش تصورات الطرفين عن الأمور، سواء الداخلية أو في ما يتعلق باليمن أو بالمنطقة العربية، وفي زيارتي الأخيرة، عندما كنت أميناً عاماً مساعداً ومسؤول الدائرة التنظيمية في الحزب الحاكم في عدن، وجدنا الفوضى العارمة في أهم معقل من معاقل الحزب الشيوعي السوفييتي، وهو مقر اللجنة المركزية، فقد دخلنا إلى المقر، ولم

يعرفنا أحد، ثم قابلْنا مسؤولاً لم يعرف أين تقع اليمن.. وجدنا الأمور قد انقلبت هناك رأساً على عقب، وأولئك المتخصصون والخبراء والمسؤولون عن شؤون اليمن والمنطقة العربية، ليسوا موجودين في مقر اللجنة المركزية، لأن الأحوال في حالة اضطراب وفوضى، الانتقال إلى وضع آخر، وكان ذلك بالنسبة لنا مفاجأة، عكست حقيقة أن هناك تغييراً كبيراً سيتم في حياة الروس والنظام الاشتراكي السوفييتي.

ومنذ يومها، كان لدينا تقييم لما هو حاصل في دول المعسكر الاشتراكي من ضعف وبداية سقوط محتمل، وكان لذلك التقييم أثر في مواقفنا السياسية على الصعيد الداخلي، ومن ذلك فتح ملفات الإصلاح السياسي والاقتصادي والعلاقات اليمنية – اليمنية والعربية، وبالذات مع دول الجوار، وأذكر على سبيل المثال، أنه دار حديث بيني وبين الرئيس علي سالم البيض عام **1989**م، وكان أمين عام الحزب، ونحن مسافران براً من عدن إلى تعز للقاء الرئيس علي عبد الله صالح، قلت له في ذلك الحديث:

لو كان وضع الاتحاد السوفييتي كما كان في السابق، وينظر في تقييمه للنظام في اليمن الشمالي على أنه نظام رجعي، والنظام في اليمن الجنوبي على أنه نظام تقدمي، وجاء إليك السفير السوفييتي، وقال أنتم ذاهبون إلى تعز، ماذا تعملون؟، وتقول له: نحن بدأنا نتفق على تحقيق الوحدة، فإذا به يقول لك: هذا نظام رجعي لا تعملوا كذا. ما احتياجاتكم؟، إذا كنتم تريدون السلاح الذي كنا نطالب به طائرات ودبابات متقدمة ودعم اقتصادي، وكل طلباتكم سنحققها، هل كان مثل هذا الحال سيؤثر في قرارك؟

أجاب الرئيس علي سالم البيض على الفور قائلاً: هذا قرارنا الوطني، وهذه هي الفرصة التاريخية أمامنا كيمنيين، في أن نحقق الوحدة اليمنية.

إن التغييرات التي شهدها الاتحاد السوفييتي منذ عام 1990م، والتي بدأت فعلاً بنهج «البروسترويكا»، الذي قاده الرئيس ميخائيل جورباتشوف منذ عام 1985م، كانت أشبه بمحاولة خروج النظام الاشتراكي الضخم من عنق ضيق لزجاجة كبيرة، ومع أن التغييرات العميقة الجديدة جرت بصورة ديمقراطية، دون تغلبات حادة، ودون سفك دماء كثيرة، لكنها في الحقيقة، كانت مخيفة أحياناً، ومحزنة أحياناً أخرى، لأن لا أحد في قمة السلطات في موسكو في ذلك الوقت استلم الوضع وتحمل مسؤوليته، ولا أحد في قمة السلطات في موسكو في ذلك الوقت، استلم الوضع وتحمل مسؤوليته، ولا أحد في قمة السلطات في موسكو في ذلك الوقت، لديه تصورات عما يمكن وبرامج بديلة لما يتم التنصل منه.. وهكذا، فقد ميز العودة إلى ما قبل 70 عاماً، عودة الرأسمالية بعيوبها ونواقصها وأمراضها، ولبس بفئاتها ذات التقاليد العريقة والأفكار الرصينة والسلوك الاجتماعي للرأسماليين، المعروف كتشكيلة اقتصادية واجتماعية متقدمة. والأدهى من ذلك أن غالبية المواطنين السوفييت، وبالذات المسؤولين، أرادوا أن يحلوا سريعاً محل تلك الفئة، وأن ينالوا بسرعة العضوية فيها، ما أدى إلى ظهور رجالات الفساد الاقتصادي، ومافيا العصابات، وتجار الربح السريع على الطريقة اليهودية، وشبكات السرقة، وخلايا الجريمة المنظمة، ومعاهد تعليم الرشوة.. وهلم جرا.

مع مرور عقد من الزمن على بدء التغييرات الجذرية المعاكسة، وسقوط نظام الحزب الواحد والنظرية الواحدة والطريق الواحد، فما زالت موسكو وعموم روسيا والجمهوريات التي نالت استقلالها، تعيش مخاضاً لا أحد يعرف إلى أين المسار، رغم الإقرار بمبادئ اقتصاد السوق الحر والرأسمالية المالية، والديمقراطية والتعددية السياسية، وحقوق الإنسان، وبعد مرور عقدين من الزمن على بدء التغييرات الجذرية المعاكسة، وسقوط نظام الحزب الواحد

والنظرية الواحدة والطريق الواحد، فما زالت موسكو وعموم روسيا والجمهوريات التي كانت ضمن إطار الاتحاد السوفييتي السابق، تردد السؤال الذي بدأت ترديده منذ عام 1990م، إلى أين المسار؟.

ونقول هذا، لأن هذا السؤال عاد إلى الصدارة حقاً، عندما بدأت الأزمة المالية العالمية الكبرى، التي تعصف بعالمنا، مطلع العام الماضي 2008م.

ما يهمنا أيضاً هنا، هو شؤوننا العربية، فالعرب الذين كانت علاقتهم حميمة مع الاتحاد السوفييتي، هم أشبه بمن وضعوا بيضهم في سلة واحدة، وتكسرت مع تكسر منظومة المعسكر الاشتراكي. الدول العربية الحليفة للاتحاد السوفييتي، كمن وضع نقوده في بنك واحد، وأفلس مع إفلاس البنك، خسروا كل شيء، وتحملوا كافة الخطايا والعيوب، ليس فقط داخل بلدانهم، ولكن أخطاء هذه الدولة العظمى، التي كانت كريمة وعنيفة في آن واحد، كريمة بسبب الطابع الفلاحي الروسي، الذي مثل السلوك والعقلية والخلفية لتصرفات قادتها، فهم كانوا عندما يحبون لا يبخلون ولا يفكرون، وقوية لأنها كانت لا تتسامح في توازنها العسكري والأمني مع أمريكا، ولا تتهاون في ولاء الدول الحليفة لها، كانت مساعداتهم، التي شملت بلدان المنظومة الاشتراكية والأحزاب العمالية والبلدان النامية ذات التوجه الاشتراكي وحركات التحرر الوطني العالمية، على حساب الفرد والمواطن الروسي، الذي لم يصله شيء يذكر من ثروات تلك الشعوب، وكان هذا التصرف أحد أسباب الانهيار.. كما أن الطابع الفلاحي الروسي لسلوك وعقلية وخلفية تصرفات القادة السوفييت، جعلهم يتعاملون مع الفكر الإنساني ومع مشاعر الناس – وبالذات معتقداتهم الدينية – بعجرفة أيديولوجية، اتبع خطاها القرار السياسي المسنود من قبل أجهزة الأمن والاستخبارات، في سياق السياسة الثابتة، ألا وهي، الإرهاب الفكري والجسدي للمعارضين، أو من يحملون اتجاهات فكرية أو سياسية مختلفة

عن أيديولوجية الاشتراكية العلمية، حتى وإن كانت تقدمية جيدة، وهكذا احتقن الفكر واحتقنت النفوس والمشاعر، ولذا، لم يدافع عن تجربة حزب كان عدد أعضائه 37 مليون شخص، غير مجموعة كانت تحكم في السلطة، وعدد قليل جداً من أعضائه فقط، وهكذا بقية بلدان المنظومة، بما فيها اليمن الجنوبي.

ومن أواخر الزيارات لـ «موسكو»، أن عدت إليها في ظروف أخرى مختلفة تماماً في شهر يونيو 1994م، حين كانت حرب صيف 1994م دائرة في اليمن بين القادمين من عدن، والذين عادوا إليها من صنعاء، ومن أمسكوا لوحدهم (دون شركائهم) بالسلطة في صنعاء.. كانت هناك اتصالات ووساطات من قِبل الحكومة الروسية، ممثلة بوساطة وزير خارجية روسيا الاتحادية السيد «أندريه كوزريف»، منذ بدء الحرب نهاية شهر أبريل 1994م، ومنها أن استدعيت إلى موسكو لكي أفاوض باسم القيادة في عدن، إخوة قدموا من صنعاء لهذا الغرض، وقد توجت تلك المفاوضات بـ «اتفاق وقف إطلاق النار في الجمهورية اليمنية (اليمن)»، الموقع بتاريخ 29 يونيو 1994م، من قِبلي، كعضو مجلس الرئاسة وممثل للقيادة في عدن، ووزير الخارجية السوفييتي، ومحمد سالم باسندوه، وزير الخارجية القادم من صنعاء، وقد شمل الاتفاق ثلاث نقاط أساسية، هي: وقف إطلاق النار العام والشامل فوراً، والامتناع عن اللجوء إلى القوة، وفقاً لقرار مجلس الأمن رقم (924)، وضرورة مواصلة المفاوضات حول الحل النهائي، الذي تشكل آليته وفقاً لقرارات مجلس الأمن الدولي الثلاثة، والالتزام من قبل أطراف النزاع بتقديم كل التسهيلات والدعم للجنة الصليب الأحمر الدولية والمنظمات والهيئات الإنسانية.. يومها أحسست أن موسكو ما زالت تريد أن تلعب دوراً دولياً، وأنها ما زالت تهتم لشأن اليمن (جنوباً وشمالاً)،

رغم ما تعانيه هي – في ذلك الوقت – من مصاعب اقتصادية وسياسية واجتماعية كثيرة.

خلال الزيارة الأخيرة المذكورة، ورغم أن الأجواء كانت مؤلمة في الوطن، إلا أنني حاولت أن أتفحص المدينة التي أصبحت عاصمة لروسيا في عهد الملك «إيفان الرابع»، وتعاقب عليها الملوك واحداً تلو آخر، ثم جاءها البلاشفة قبل سبعة وسبعين عاماً، وغادروها من ذات أنفسهم قبل أربعة أعوام فقط.. ها هي موسكو، كما هي، موسكو، وها هو نهر «موسكوفا»، الذي تقع المدينة على ضفافه، جميلاً وهادئاً، مثلما رأيته عشرات المرات من قبل، سألت عن أحوالها، فقيل لي إن عدد السكان قد أصبح يقارب العشرة ملايين نسمة، وتذكرت أن الرقم كان ثلاثة ملايين ونيفاً، عندما زرتها لأول مرة عام 1969م، ذهبت إلى الساحة الحمراء، وبقيت وسطها واقفاً أتأمل أرضية الأحجار الصغيرة، كما هي عليه في السابق، وإن كان عدد المارين قد قل أثناء وقت تأملي، وربما أن البضائع الغربية، أوروبية وأمريكية، وحتى صينية، في المحال القديمة والحديثة المجاورة، قد جذبت كثيراً منهم إلى داخل أبنيتها، نظرت إلى أبراج قصر الكرملين، فوجدتها قد لبست ثوباً مليئاً بالألوان الزاهية المبهرجة، التي حلت محل اللونين الأحمر والأبيض، تذكرت أن قبر / ضريح الزعيم لينين، على مقربة من هنا، ولكنني عندما مررت بالمكان، لم أرَ طوابير انتظار، غادرت الساحة الحمراء وأنا أقول: يذهب حكام ويأتي حكام بديلاً عنهم، تسقط أنظمة وتُبنى أنظمة أخرى، ولكن المدن والناس يظلون خالدين.

هنا، أنظر في إعلان كبير كتب بالروسية والإنجليزية، معلق في موضع عند أبواب الساحة الحمراء، يعلن أن سيمفونية «بحيرة البجع» ستعرض في مسرح «البلشوي»، ولا أدري، لماذا أثار ذلك الإعلان دهشتي وأيقظ مشاعري، إذ أخذت أتساءل وأفكر.. أما زال مسرح البلشوي بقاعته الحمراء

الداكنة اللون وبلكوناته الدائرية المحاطة بالأعمدة الرخامية قائماً ونشطاً؟، هل حقاً ستعرض سيمفونية «بحيرة البجع» والراقصة بفتياتها النضرات، الجميلات الشكل، الرشيقات الحركة، يا لها من سيمفونية رائعة خالدة، شاهدتها عشرات المرات ولم أملها. بما يؤكد أن الحياة تستمر، وإن تبدلت الأنظمة الحاكمة، ووجدت في ذلك مؤشراً لتعافي الحال الاقتصادي والسياسي أيضاً، بعد تعرضها لهزات التحول والانفتاح، جراء سياستي الجلاسنوست والبروسترويكا.

خلال العقد الأخير، تعافى الوضع في موسكو، بقدوم الرئيس فلاديمير بوتين، وعادت روسيا الاتحادية إلى المسرح الدولي بقوة، لكن هذه المرة، بعقلية رأسمالية متطورة.

سان بطرسبورج (لينينجراد)

منذ ولادتها في عام 1703م، سميت «سان بطرسبورج» و«بيتروجراد» و«مدينة القديس بطرس»، وكانت تسمى «لينينجراد»، إبان الحكم السوفييتي، وقد استعادت اسمها القديم الأول مع انهياره، وقيام جمهورية روسيا الاتحادية عام 1991م، والتي أصبح رئيسها بعد 8 أعوام من قيامها، أحد أبناء هذه المدينة، ألا وهو رئيس الوزراء الروسي الحالي «فلاديمير بوتين».

كانت لينينجراد، أو بالأصح سان بطرسبورج، وعلى مدى قرنين من الزمن، منطلقاً للثورات ضد الحكم القيصري، وآخر تلك الثورات، ثورة أكتوبر الاشتراكية العظمى 1917م، وهذا الإرث الكفاحي تجلى مجدداً أثناء الحرب العالمية الثانية، حين ضربت هذه المدينة أروع البطولات في الحرب العالمية الثانية، عندما قَدِمت إليها القوات النازية الهتلرية أثناء الحرب العالمية الثانية في منتصف عام 1941م، ثم حاصرتها لمدة 900 يوم، لتواجه مقاومة شعبية بطولية، من شعب يعاني من الجوع وصقيع الثلوج، واستمرت المقاومة البطولية حتى عام 1944م، حين تحقق الانتصار، وأضحت شهرتها بعد صمود أبنائها والجيش السوفييتي المحاصر بداخلها، أشهر من نار على علم، حتى اليوم، وبعد أن تم تدميرها في تلك السنوات العصيبة خلال الحرب العالمية الثانية، وبعد هزيمة ألمانيا، أعيد بناء ما دمرته الحرب من مبانٍ وجسور، ورممت الآثار والقصور الإمبراطورية القيصرية الكثيرة التي تُعرف بها المدينة، وتمت إعادتها إلى حالة أجمل مما كانت عليه قبلاً، ورغم تغيير بعض تلك المعالم التاريخية من قِبَل الثورة البلشفية، إلا أنها حرصت على إبقاء طابعها الاستعراضي المميز.

زرتها في 1971/6/16م، برفقة الزميل وزير الزراعة، محمد سليمان ناصر، عائدين لتونا من منغوليا، نزلنا بمطار موسكو، وكان في استقبالنا أول سفير لنا فيها، وهو الأستاذ أحمد صالح الشاعر، رحمه الله، والذي أخذنا في اليوم التالي إلى مدينة ليننجراد، لننفذ برنامجاً للزيارة أعد لنا سلفاً من قِبَله، ومن قِبَل الرفاق السوفييت، كانت المسافة بين العاصمة السوفييتية موسكو وليننجراد 12 ساعة، ستقطع بالقطار الذي يسير بالفحم الحجري، وبدأنا السفر ليلاً، لننام في القطار الذي كان صوته هادراً، وحركته إلى الأمام مصحوبة بارتجاج يمنة ويسرة.. تارة نام، وتارة نصحو، وتارة ثالثة نكون بين النوم والصحو، حتى وصلنا إلى ليننجراد صباحاً.

وفي ذلك اليوم، يوم وصولنا، صادف أنه يوم مشهود في هذه المدينة، لأنه اليوم الذي لا تغيب عنه الشمس «بليننجراد»، وكانت الشمس مائلة في الأفق الشمالي، ترسل أشعتها، لم نكن نتصور، نحن القادمين من بلد الشمس المحرقة، أننا سنرى ذلك الوضع الغريب، فلو حدث ذلك في بلاد الشرق، لقلنا إنها من علامات الساعة، ولكن مرافقنا الروسي أسعفنا حينها، وشرح لنا تلك الظاهرة، فأزال بعض ما أصابنا – حينها – من حيرة وتساؤل.

عشنا بها أياماً جميلة، نتنقل ما بين قصورها ومتاحفها الشهيرة وحدائقها الغنّاء، وكلها آيات في الجمال والإبداع الهندسي، إذ اشتركت في بنائها – قديماً – عقول أوروبية عديدة: فرنسية وروسية وإيطالية وألمانية.. وكذا قضينا أوقاتاً طيبة مع أبنائها الدمثي الخلق والهادئي الطباع، وعرفنا منهم أنه يقال إن أهالي ليننجراد – بطرسبورج – يتميزون بالطيبة والسماحة أكثر من سكان روسيا الآخرين، مع أنهم المشهورون وفق الأعراف الغربية بأنهم «الفلاحون الطيبون».

وإذا تجولت مثلنا في أرجاء مدينة «سان بطرسبورج»، فستجد أن شوارعها وقصورها ومبانيها العريقة وجسورها البديعة، تعكس تقنيات البناء

والتخطيط العمراني القديم، الذي يهتم بالجماليات وتناسقها مع الطبيعة، من أنهار وحدائق، ويعد متحف «الأرميتاج» أكبر متاحف روسيا وأكثرها شهرة وأقدمها تاريخاً، أحد معالم المدينة، فأنت إن لم تزُر «الأرميتاج»، فإنك لم تزُر سان بطرسبورج، وهو المتحف المحتوي على آلاف المعروضات الجذابة، التي تبيّن لمحات من تاريخ الإبداع الفني المعماري، وكذا، المستويات العالية تقنياً وجمالياً، التي وصلت إليها فنون الرسم وفنون النحت القديمة، والتي تفوق فنون الرسم والنحت المعاصرة، من وجهة نظري، هذا إلى جانب مبنى المتحف نفسه، المكوّن من مجموعة قصور، يغلب على مظهرها الخارجي الأعمدة والنوافذ الكبيرة المحاطة بالنقوش البديعة، وتلحق بالقصور عدة حدائق، بُنِيت ممراتها بالرخام، وانتصبت التماثيل الفائقة الدقة على جانبيها، وتنتشر هنا وهناك نوافير مائية، وخاصة في المنحدرات، حيث أقيمت في خطوط واحدة، وكأنها صف من حراس الجمال، وكل هذه المظاهر المُسِرة للنفس، تشكل في مجموعها تحفة فنية تاريخية متناسقة قائمة بحد ذاتها، قلما تراها في أماكن أخرى من عالمنا، وقد لا ترى مثلها أبداً.

كما زرتها مراراً أثناء مكوثي للدراسة في موسكو، أو في الزيارات التي كنا نقوم بها منذ **1969**م حتى عام **1994**م.

سوتشي (روسيا)

تقع سوتشي على البحر الأسود، وهي جزء من الأراضي الروسية الجنوبية، تشتهر بينابيع المياه الصحية المعدنية والكبريتية، التي تعد مصدراً للعلاج الطبيعي والاستحمام الطبيعي، وتلك المياه سبب رئيس في شهرتها والإقبال عليها، ونموها كأحد أهم المصايف في منطقة «القوقاز»،

وذلك منذ زمن بعيد جداً، وقد أصبحت مدينة حديثة، ابتداء من نهاية القرن الثامن عشر، فتردد عليها الحكام القياصرة، ومكث فيها لمدة من الوقت، آخر القياصرة الروس، عندما بدأت الثورة البلشفية عام **1916**م، وبعد قيام النظام السوفييتي، استمر الاهتمام بمنطقة سوتشي، ولكنه تعاظم في عهد الرئيس جوزيف ستالين، الذي أمر في عام **1934**م، بوضع خطط لتحويل سوتشي إلى مدينة سياحية، ومدينة للاستجمام والعلاج الطبيعي، وتم تنفيذ تلك الخطط، بالرغم من توقف العمل بها لفترة، بسبب الحرب العالمية الثانية، وبحيث أصبحت المدينة/ المنطقة في الستينيات، مدينة سياحية بالفعل، وأحد المراكز العالمية للعلاج الطبيعي بالمياه المعدنية.

وعندما خصصها الاتحاد السوفييتي بعد «القرم»، عاصمة لصناعة السياحة (الاشتراكية)، كان أهم ضيوف الاتحاد السوفييتي، ومعظمهم من الرؤساء وقادة الأحزاب والحركات العمالية والاشتراكية وقادة حركات التحرر في العالم، ينزلون عليها ضيوفاً في منتجعاتها، ومن التقاليد المتبعة آنذاك، أن يقوم الضيف الكبير بغرس شجرة في حديقتها الشهيرة، التابعة للدولة، حيث تجد هناك للرئيس جمال عبد الناصر، رحمه الله، شجرة سميت باسمه، وشجرة باسقة أخرى باسم الرئيس السوري حافظ الأسد، وللكثير من الرؤساء العرب

والأفارقة، ورؤساء بلدان العالم الثالث الذين زاروها للاستجمام، على نفس الشاكلة أشجار، معظمها نما وكبر، وبعضها شاخ مبكراً وذبل ومات.

ومع أن برامج الاستجمام كانت نادرة لدينا في عدن، إلا أنني زرت سوتشي مرتين، ضيفاً على اللجنة المركزية للحزب الشيوعي والحكومة السوفييتية، وفي كل مرة، كانت هناك خاصية تميزت بها سوتشي عن الزيارة الأخرى، ذلك أن خضرة الأشجار والحشائش وبياض الثلوج، تتناوب سنوياً على ربوع سوتشي، زرتها في المرة الأولى ضيفاً، واتصفت المنطقة حينها بحلة خضراء، فكان ذلك حظاً حسناً، إذ بدت والمناطق المجاورة لها في أبهى حللها، وهي تنحدر لترى شواطئ البحر الأسود، غاية في الجمال، وقيل لنا إنه لا توجد بقعة مثل هذه على جميع شواطئ البحر الأسود، يمكن أن ترى منها هذا البحر بهذه الروعة.

وفي زيارتي الثانية لها، نزلت في «داشا ستالين»، وهي فيلا خضراء اللون وسط جبل منتصب بسكون منيف، ومطل على البحر الأسود، برفق مهيب، ومن وسط هذا الجبل، حفر نفق صغير يؤدي آخره إلى سطح البحر، الذي تتداعى عليه الأمواج مستسلمة صاغرة، وينتقل الضيوف عبر النفق المذكور بواسطة مصعد (أسانسير) مخصص لهذا الغرض، من وسط الجبل حتى مستوى يوازي مستوى سطح البحر، ثم يسيرون عشرات الخطوات، فإذا بهم على الشاطئ تماماً، وتوجد في الموقع محال صغيرة قليلة (دكاكين)، فيها بضائع مستوردة أو للتصدير، تقوم بالبيع للأجانب الذين يملكون النقود الأجنبية، كالدولار أو الروبل الذهبي فقط، وهو غير الروبل العادي من العملة الروسية، لأنه يمنح للأجانب وكبار المسؤولين للشراء من مثل تلك المحال المخصصة للأجانب والبضائع الأجنبية، ولا يسمح للأهالي (المواطنون السوفييت)،

بدخولها أو شراء شيء منها، لأن حمل العملة الصعبة (بصورة غير رسمية)، كان يعاقب عليه القانون في ذلك العهد.

كانت سوتشي حينها تحت رعاية واهتمام قطاع الدولة، وبعد سقوط الاتحاد السوفييتي، أصبحت كغيرها من المدن والمواقع السياحية الهامة، ضحية عدم اهتمام قطاع الدولة، الذي كان يسيطر على كل شيء، وعدم مجيء الرأسمال الخاص للاستثمار بالسرعة اللازمة، التي كانت متوقعة، وهذا الحال أفقدها مزايا كانت تتصف بها، وتحتفظ بها أثناء اهتمام القطاع العام بها، على أساس انتظار تحقق وعود جنة الاشتراكية، التي ستوفر لكل العمال والفلاحين، مثل هذه الأماكن السياحية المكلفة. والآن، لا يختلف الأمر كثيراً؛ فالناس ينتظرون جنة الرأسمالية التي تجعل الجميع مليونيرات، ولكن يظهر في الواقع، أنها لن تحقق ذلك، فهو يبدو بعيد المنال على وجه الأرض، مهما كان نسج الأحلام والأماني.

ما نحتفظ به من ذكرى جميلة لسوتشي، هو تعليم ابني خلدون لعبة الشطرنج ولعبة البليياردو، اللتان لم يكن يجيدهما من قبل. وكان الفضل في ذلك، يعود لحارس الفيلا الخضراء، الضابط العجوز المتقاعد من خدمته الطويلة في الجيش الأحمر، والذي يحب ستالين، إلى درجة أنه شرح لنا – ربما بمبالغة – كيف كان ستالين يقضي إجازته هنا في هذه الفيلا، ويتنقل في عدة غرف منها، حتى لا يعلم أحد في أي غرفة منها ينام ليلته، وقد شمل هذا التعتيم الليلي، حتى زوجته، في أيامه الأخيرة، فربما أنه أصيب بمرض جنون الارتياب قبل مماته.

ومما يزيد من جمال «سوتشي»، وجود مزارع لزراعة الشاي في المناطق المجاورة لها، تكتسب زيارتها لذة خاصة، وكذلك رعاية وكرم العاملين في هذا المنتجع للضيوف والزوار، والذي يعكسون من خلاله عادات العقلية الشرقية الفلاحية في الترحيب والكرم والتواضع الإنساني.

القرم (أوكرانيا)

مثلها مثل مناطق صناعة الاستجمام العالمية، يوجد بها عدد كبير من الزائرين، خاصة أولئك الأجانب الميسورين، أو كبار المسؤولين أو المواطنين الذين لديهم العملات الصعبة، مع بيع البضائع المستوردة، وبأسعار خيالية في القرم، وغيرها من هذه المدن.

كانت اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفييتي، تستضيف المئات من كبار المسؤولين من بلدان صديقة وحليفة، بالإضافة إلى قيادات الأحزاب الشيوعية والعمالية والاشتراكية، وحركات التحرر الوطني من مختلف أنحاء العالم، وترسلهم إلى مصايف شتى، منها وأهمها «القرم»، وكان من نصيبي وأسرتي في عام **1983**م، أن زرت القرم، ونزلت في دار الضيافة التابع للجنة المركزية، الذي تم بناؤه في وقت واحد مع بناء مبنى اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفييتي في موسكو، وكذا فندق أكتوبر هناك، وشيدت هذه المنشآت شركة نمساوية، وكانت (المنشآت المذكور) محل نقد لاذع لسياسة الرئيس السوفييتي ليونيد بريجنيف في أيامه الأخيرة قبل وفاته في ذلك العام، باعتبارها تتميز بالترف وأحد مظاهر الإسراف البرجوازي الصغير.

والقرم منطقة تُسمّى غالباً «شبه جزيرة القرم» في البحر الأسود، ويبلغ طول مساحة شبه الجزيرة وعرضها ما بين **200** إلى **300** كيلومتر، وهي حالياً تقع في جنوبي أوكرانيا، ويفصل البحر بين القرم وكل من روسيا ورومانيا وبلغاريا وتركيا وجورجيا لما تتمتع به القرم من جمع بين فضائل الله في الطبيعة، من بحر وسواحل وخضرة عامرة، فقد كانت القرم أحد المواقع المخصصة لاستجمام

الأسرة القيصرية والنبلاء الروس، وانتقل هذا الدور إلى كبار القادة السوفييت بعد ذلك أثناء حكم الاتحاد السوفييتي.

كان موقع دار الضيافة الذي سكنا فيه على تلة جبل مرتفعة، ويطل على البحر الأسود، ويضم عيادة طبية من أرقى العيادات الطبية في العالم، تقدم خدماتها مجاناً للضيوف، وأيضاً يضم، بالإضافة إلى ما ذُكر، مجمعاً سكنياً ورياضياً ترفيهياً، وهذا المجمع السياحي بكامله، يبدو من جماله وفخامته، وكأنه مصنوع من خيال، وفي الخيال.

ويمكن القول إن القرم من أجمل بلدان الأرض خصوبة وطبيعة وجمالاً، تعرضت لعملية واسعة من تهجير سكانها إلى مناطق روسية أخرى بعيدة، وهذا العمل ظل يفعل فعله ويعتمل في نفوس الشعوب، ليس على صعيد القرم، ولكن على صعيد الاتحاد السوفييتي كله، فكان واحداً من جملة أسباب كثيرة، أدت إلى انهيار الاتحاد السوفييتي، ويرى البعض أن ذلك العمل الشنيع الذي قام به ستالين، سببه الظروف التي يحتمها موقع القرم الجغرافي وأهميته الاستراتيجية، وهو العامل الذي أثر في تاريخ المنطقة، وتأثير الأحداث العالمية عليها، فعقب قيام الثورة البلشفية عام **1917**م، احتلت كل من فرنسا وبريطانيا القرم حتى منتصف عام **1919**م، وبعد مغادرتها، احتل الجيش الأبيض المعادي للسلطة البلشفية المنطقة، وبدأت حرب أهلية فيها، وفي عام **1921**م، أصبحت المنطقة جمهورية (جمهورية القرم ذاتية الحكم)، ضمن جمهورية روسيا السوفييتية الفيدرالية الاشتراكية، التي هي جزء من اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفييتية.

وأثناء الحرب العالمية الثانية، عُقِدت في شبه جزيرة القرم، قمة عالمية/ الحلفاء في الحرب ضد النازية، وشارك فيها كل من رؤساء روسيا وأمريكا وبريطانيا، ستالين، روزفلت، تشرشل، وذلك قبل ثلاثة أشهر من انتهاء الحرب

العالمية الثانية (فبراير 1945م)، واستمر حظ القرم بالتأثر بمحيطها؛ ففي أغسطس 1991م، تم عزل آخر رؤساء الاتحاد السوفييتي، ميخائيل غورباتشوف، أثناء وجوده فيها للاستجمام، وبعد سنوات من سياسة الانفتاح، أصبحت القرم مكاناً عاماً ذا أهمية، إذ إن الروس وغيرهم من جميع مناطق الاتحاد السوفييتي، يقدمون بأعداد كبيرة إلى القرم للسياحة، ولتلقي العلاج الطبيعي وللاستجمام، ولم يعد ذلك محصوراً أو مقيداً، بل خاضع لاقتصادات السوق.

ولكن المشكلة الكبيرة، هي أن القرم عند انهيار الاتحاد السوفييتي في بداية التسعينيات، أصبح نقطة خلاف رئيس بين كل من روسيا وأوكرانيا، وانتهى التوتر والخلاف بينهما بتبعية المنطقة لأوكرانيا، وباتفاق بين الدولتين، بأن يبقى الأسطول الروسي في مدينة «سيفاستوبل» بالقرم حتى عام 2017م، ولكن المشكلة لم تنتهِ بعد، وعلينا الانتظار خلال الثماني السنوات الباقية، ذلك أن من جوانب المشكلة، أن المواطنين الروس في القرم يشكلون نحو 58% من السكان، في حين يشكل الأوكرانيون ما نسبته 25%، والتتار القرم نسبة 12%، أما الـ 5% المتبقية، فهي قوميات أخرى. ومن هذه النسب والأرقام، نرى كيف استطاعت عملية التهجير للسكان المحليين (التي سبق لنا تناولها)، أن تخلق مشاكل عميقة، ظلت طوال الزمن الماضي الطويل، وستظل أيضاً على مدى المستقبل.

إن القرم لا تستحق عناء التهجير الذي تم لأهلها قبل نحو 5 عقود من الزمن، لأنها جميلة، إلى حد أننا غنينا فيها، ففي ليلة من ليالي الاستجمام، دعتنا إدارة المجمع إلى حضور حفل فني، وعندما حضرناه، طلبوا من كل وفد أن يغني أغنية من بلده، حينها أصابني الإحراج مقتلاً، باعتباري لا أجيد الغناء، وكان لا بد أن أفكر سريعاً بحيلة، تمثلت في إرسال الزوجة لإحضار مسجلنا الصغير

وشريط كاسيت فيه أغنية حددتها لها، ويا لها من امرأة قوية في وقت الشدائد، فما هي إلا لحظات، حتى عادت بالمنقذ المطلوب، وحين جاء دورنا، دور اليمن، إذا بالأغنية التالية تصدح في أرجاء القاعة الكبيرة، ومن الفنان؟ المسجلة طبعاً:

يا هاجري

شل بالباكري

شل تغريد الحمام

وأنا أحبك يا سلام

وعلى أنغام وألحان الأمير الفنان أحمد فضل القمندان، قمنا نحن والأولاد نرقص برقصة الشرح اللحجي المعروفة، وبحماس، وإذا بمن في القاعة قد توافدوا على مسرح القاعة دفعات دفعات، يشاركوننا الرقصة التي نالت جائزة الليلة، وهي عبارة عن لوحة مرسومة حفراً لأحد أنحاء منطقة «القرم» الخلابة.

كلنا سمعنا عن آخر الأحداث في هذا البلد، الذي ضمه إليه الكرملين، بعدما تحولت أوكرانيا إلى بلد معادٍ لروسيا.

لندن (بريطانيا)

«لندن» اسم مدينة يعشقها الكثير من البشر في جميع أنحاء العالم، ويتمنون العيش فيها، بالنسبة لي، فالمشاعر والأحاسيس تجاه هذه المدينة، شهدت تقلبات شديدة ومتنوعة، أذكر أن هذا الاسم كان يثير الرعب والخوف والكره في نفوسنا ونحن شباب في مقتبل العمر، أثناء بدايات مشاركتنا في صفوف النضال التحرري ضد الاستعمار البريطاني لجنوبي اليمن.

عندما زرت المدينة فعلاً لأول مرة في عام **1972**م، بصفتي رئيس وفد يزور الجالية اليمنية في بريطانيا، وأحد قيادات الجمهورية الوطنية الوليدة، وجدت أن تلك المشاعر السابقة القديمة، قد تشتتت أو تلاشت، إذ وجدت لندن هادئة عاقلة تحب السلام، ولا تحمل ضغينة لأحد، وعندما زرت المدينة في المرة الثانية – في بداية الثمانينيات – كأحد مسؤولي العلاقات الخارجية لليمن الديمقراطية، رأيت المدينة مارداً من الدهاء الدبلوماسي، وبحراً من السكون الدفين، وعندما اضطررت للبقاء والعيش لمدة في هذه المدينة، نتيجة لما أصابنا بعد حرب صيف عام **1994**م في اليمن، وجدتها حضناً دافئاً وأماً حنوناً، ومدينة تعشقك بمقدار عشقك لها.. ولطالما قلت لنفسي وأنا فيها: كم هو الفرق شاسع بين النظرة لهذه المدينة من بعيد قبل أكثر من **30** عاماً، والنظرة الحالية الفعلية تجاهها الآن، هل هو درس بليغ المعاني تعطيه مدينة كبيرة لشاب يافعي كان يكرهها، ثم شاب قبلها، وعندما أصبح رجلاً وشاخ، أحبها؟. أم أن نظرتنا إلى المدن لا تقبل الضغائن والأحقاد، كما هو الحال بالنسبة لنظرتنا إلى الأشخاص.

زرت لندن لأول مرة في عام 1972م، أثناء عملي مديراً عاماً للتعاون والإصلاح الزراعي، ولكن رئيساً للجنة رسمية، جاءت لكي نزور الجالية اليمنية في كل من: برمنجهام وليفربول وشيفيلد، ونحثها على مواصلة تحويلاتها المالية إلى اليمن الديمقراطي، لأن تلك التحويلات انخفضت تماماً عما كانت عليه في السنوات السابقة، بسبب عدم رضا الجاليات اليمنية عن بعض الإجراءات التي اتخذتها الحكومة في عدن، وفي مقدمها التأمينات ومصادرة أراضي السلاطين وكبار الملاك.

ها أنا في أول لقاء مع لندن، وجدت نفسي مسلوب الأحاسيس والمشاعر وأنا أنظر إلى أهم معالم المدينة، مبنى البرلمان وساعة بيغ بِن الشهيرة، فلطالما رأيت هذين المعلمين في الصور، وها أنا أراهما أمام عينيّ حقيقة من جمال الإبداع وهندسة البناء وكل أنواع الفنون الجميلة، فهما رمز مادي قائم بشموخ للمدينة، التي تمتد بهدوء منبسطة على ضفتي نهر التايمز. إذا ذهبت إلى مركز المدينة وحيها التجاري الواقعين على الضفة الشمالية للنهر، تجد هيبة لندن كعاصمة تجارية ومالية للعالم، إذا تجولت في بقية أنحاء المدينة المترامية الأطراف في كل الاتجاهات، ستجد المباني والشوارع والجسور والحدائق والمطاعم والمقاهي والمصانع، كلها تقول لك: أهلاً.. أنت في خير طبيعة، وفي العالم المنظم العالي الترتيب، أضف إلى ذلك أنه يوجد في المدينة عدد كبير من المتاحف والمسارح والمباني التاريخية، بحيث تشعر بأن تاريخ العالم وثقافاته المتعددة موجودة هنا، بين ثنايا المدينة، التي يتخذها كثير من المنظمات الدولية والأحزاب والتنظيمات من مختلف بلدان العالم، مقراً لها.

لندن، كانت حقاً عاصمة الإمبراطورية البريطانية، التي استولت على معظم بقاع الأرض، وسُمّيت «الإمبراطورية التي لا تغيب عنها الشمس»، ولها تأثيرها المتساوي والاهتمام المتساوي لدى مختلف رجال الإعمال من جميع

الجنسيات، ولدى المثقفين والساسة، أما السياحة، فلها شأن آخر، إذ يزورها أكثر من 17 مليون سائح سنوياً، كل واحد منهم يجد مبتغاه فيها، أما نحن القادمون إليها من جنوب الجزيرة العربية، مع أننا من الجيل الذي قاوم الإنجليز بالسلاح، لأنهم احتلوا بلادنا بالقوة، ومن دخل بالقوة يخرج بالقوة، ولو بعد حين، فإن ذلك لم يمنعنا من التواصل معها أو حتى محبتها كمدينة، فالشعوب تكره الاحتلال والاستبداد، لكن الوشائج الإنسانية والثقافية والاقتصادية تفعل فعلها بين الناس، وخاصة بعد أن تتم التسويات للكره والحقد بين الشعوب، ويعود المحتلون إلى بلدانهم، ويحكم أبناء البلد أوطانهم.

منذ عام 1972م وحتى اليوم، ونحن نحرص على زيارة هذه المدينة سنوياً، سواء أثناء تحملنا لمسؤوليتنا في حكم عدن الحرة المستقلة عن بريطانيا (جمهورية اليمن الجنوبية الشعبية)، التي استدعت أحياناً زيارة لندن، أو أثناء مرورنا عبرها إلى مدينة نيويورك، لتمثيل بلادنا في اجتماعات الجمعية العامة للأمم المتحدة، حيث كانت وزارة الخارجية البريطانية، حريصة – في كل مرة – على ترتيب لقاء لنا مع وزير الدولة للشؤون الخارجية البريطانية، وتحديداً في الأعوام 1980 – 1982م.

منذ الاستقلال الوطني في نهاية شهر نوفمبر 1967م، كانت العلاقات الدبلوماسية بين عدن ولندن متوترة في البداية، ثم فاترة ضعيفة بعد ذلك، لكن لندن تجاه ذلك الحال، لم تتخلَ عن وجودها الدبلوماسي أو القنصلي أو التجاري في عدن لحظة واحدة، ربما يعود السبب إلى المصالح التجارية، فقد كانت وكالة التاج البريطانية، هي الوسيط بين شركات القطاع العام في عدن، والشركات البريطانية والعالمية الأخرى، وكانت الوكالة تمنح منحاً دراسية وتدريبية لأبناء الدولة الوطنية الجديدة، تقدم بين الحين والآخر، مع أن الإنجليز جمدوا تقديم المساعدات التي تم الاتفاق عليها في محادثات جنيف، الخاصة

باستقلال جنوبي اليمن المحتل، والتي حدد سقفها بستين مليون جنيه إسترليني في ذلك الوقت، ولم تفِ المملكة بوعودها، سوى تقديم معاشات لبعض الذين عملوا في الإدارة البريطانية في عدن من المتقاعدين اليمنيين، وكانت بريطانيا قد وجدت فرصة ثمينة للتخلص من تلك الالتزامات المالية المتفق عليها، عندما قام الأخ علي سالم البيض، وزير الدفاع في أول حكومة بعد الاستقلال، بطرد الطيارين والمستشارين البريطانيين الذين أبقتهم بريطانيا، بناءً على طلب حكومة الاستقلال الوطنية من أجل طائرات السلاح الجوي، التابعة للدولة الحديثة العدد، وهي لا تتعدى عدد أصابع اليد.

ومع أن الإنجليز قد غادروا إلى غير رجعة، إلا أن لندن ظلت قريبة من عقول ونفوس سكان عدن، وبالذات العدنيي الأصل، بحكم الوشائج الثقافية والتعليمية والتجارية التي استمرت أكثر من قرن ونصف من الزمن، ولذلك، حاولت لندن أن تنصحنا وتقدم المشورة لنا عبر أبنائها الطيبين؛ فعندما زارنا المستشرق البريطاني ألفريد هولداي عام **1977**م، وكانت زيارته بمناسبة الذكرى العاشرة لاستقلالنا الوطني، وهو شخصية متعاطفة مع الثوار التقدميين، الذين صاروا حكاماً، وله كتابات حول تجربتنا التحررية في النضال التحرري وبناء الدولة الجديدة، وبعض التجارب المماثلة في بلدان الشرق الأوسط، كان رأيه أن الأفكار الثورية القائمة في اليمن الديمقراطي، ليست لها علاقة بالماركسية اللينينية، وإنما هي أفكار ثورية ذات منشأ فلاحي، يبحث عن العدالة الاجتماعية، وأن مثل هذه الأفكار واتجاهها شهدتها اليمن في الماضي البعيد والوسيط، وبالتحديد، ما قام به علي بن الفضل القرمطي، الذي وقف إلى جانب الفلاحين الفقراء، فشكّلوا عماد جيشه الحربي، الذي حكم به اليمن لأكثر من **23** عاماً.

وفي الندوة الفكرية التي أقيمت في عدن بالمناسبة (احتفالات الذكرى العاشرة للاستقلال الوطني)، اختلف معه عدد من المفكرين والمنظّرين الروس، وكذا عدد من القيادات اليمنيين، وخاصة رفاقنا الذين كانوا يعتقدون أنهم يمتلكون الحقيقة، وأن الآخرين لا يمتلكون شيئاً منها، ولقد أثبتت الأيام والتجارب التي عاشتها تجربة الحكم في جنوبيّ اليمن، صحة آراء وتقييمات الأستاذ الصديق ألفريد هولداي، مع أن البعض من المثقفين العرب ظلوا طوال الفترات الماضية، وما زال بعضهم حتى اليوم، أسرى تصنيفات الماضي، التي كانت أساس أعلام أيديولوجية الحرب الباردة.

ومن مظاهر بقاء لندن قريبة من العقل والروح لدينا، ووسائل ذلك، وجود أعداد كبيرة من المغتربين اليمنيين والبريطانيين من أصول يمنية في المدينة (مثلما هو الحال في برمنجهام وشيفيلد وليفربول)، حيث توجد جالية يمنية كبيرة تسهل القوانين القائمة في بريطانيا لأفرادها، والعيش بكرامة، في ظل احتفاظهم بأواصر أطيب العلاقات مع بلدهم الأصلي، خاصة أن الجيل المسن منهم جاء من مناطق الأرياف في اليمن، وأهمها: يافع والضالع والمنطقة الوسطى، ولم أتوقع في يوم من الأيام أنني سأكون في وضع أقرب إلى وضع واحد منهم، كلاجئ أو مغترب أو مهاجر مقيم، ولكن ذلك حدث فعلاً.

كان الوضع السياسي في اليمن، قد بدأ التأزم بشدة في عام 1993م، فيما أشار إلى صراع حاد بين الموحدين: الحزب الاشتراكي اليمني والمؤتمر الشعبي العام، الرئيس علي عبد الله صالح، ونائبه علي سالم البيض، القيادات الإدارية والعسكرية التي قدمت من عدن عند الوحدة عام 1990، والقيادات الإدارية والعسكرية الموجودة في صنعاء، وكنت قد وجّهت رسالة إلى الرئيس ونائبه قبل مغادرتي لليمن في نهاية 1993م، طالبتهم بوضع حد للأزمة السياسية القائمة، ثم توجهت إلى ألمانيا للعلاج، وأثناء اشتداد الأزمة على جميع

الصعد والمستويات، قمت منذ شهر مارس 1994م، بصفتي عضو مجلس رئاسة الجمهورية اليمنية، برئاسة وفد من عدن، بجولة عملية في مجموعة من الدول، استهدفت إيجاد حشد عربي ضاغط من أجل إنهاء التوتر العسكري بين الأطراف في اليمن، وشملت جولة الوفد تلك كلاً من السعودية ومصر وسوريا والأردن، وأثناء وجودي في مدينة عمّان الأردنية، كمحطة أخيرة للجولة، أُصَبت بانزلاق غضروفي، فتوجهت إلى لندن بناء على نصائح الأطباء الأردنيين. وفيها بدأ العلاج بتاريخ 5 - 4 - 1994م في مصحة وعيادة «الشامبنيز»، حيث أقر أطباء المستشفى أنني بحاجة إلى علاج إلزامي لمدة أسبوعين على الأقل.

وعندما تفجرت الحرب الأهلية اليمنية بين صنعاء وعدن في يوم الأربعاء 1994/4/27م، قررت السفر إلى عدن في 29 - 4 - 1994م، وكان الأخ صالح أبو بكر بن حسينون معنا حينها في لندن، وقد نوى هو أيضاً أن يسافر إلى عدن بتاريخ 26/ 4/ 1994م، وحاولت أن أقنعه بأن نسافر معاً يوم الجمعة (4/29)، لكنه أصر على السفر في موعده المحدد سلفاً، وكان هذا آخر لقاء لي مع الشهيد بن حسينون، وعندما تصاعد انفجار الوضع في الوطن اليمني، بانتشار رقعة الحرب وأتونها، وانتصار جماعة صنعاء بدأت مآسي الحرب، غربة وتشرداً بالنسبة لي ولأمثالي، وهكذا بقيت في لندن لمتابعة الوضع والحرب في الوطن، وكنت حريصاً على إجراء اتصالات بالوطن بقيادات في صنعاء، وقيادات في عدن، على حد سواء، محاولاً دفعها نحو إيقاف الحرب المشتعلة هناك، ولكن اتضح أن الأطراف التي تسعى لتأجيج الحرب (خاصة في صنعاء) داخل السلطة وخارجها، كانت أقوى بكثير مما توقعنا.

كان بقائي في الخارج ووجودي في لندن، كمقر أساسي لإقامتي (كنت أتنقل في عدة عواصم حينها)، بمثابة موقف رافض لإصرار صنعاء، على المضي

قدماً بالعمليات الحربية وعدم توقيفها، وقد عاتبني الرئيس علي عبد الله صالح بعد سنوات، على موقفي الرافض للحرب وتواصلها، ووقوفي إلى جانب الإخوة في عدن، رغم أنني كنت متحفظاً على قرار الانفصال ولم أؤيده، حيث إنني اتصلت من لندن بنائب الرئيس علي سالم البيض، قبل أسبوع من إعلان الانفصال، وقلت له أثناء الحديث الهاتفي: (انتبه يا أخ علي من دعوات الانفصال، إنه المطلب الكبير لهم، لأنه سيبرر استمرار الحرب القائمة، وسيضعف موقفنا الثابت من مسألة الوحدة اليمنية، وبالتالي، ستتحول الحرب من حرب ضد الحزب الاشتراكي، إلى حرب ضد الجنوب»، وقد أكدت هذا الموقف في عدد من المقابلات الصحافية حينها، مشيراً إلى أنه في حالة التخلي عن الوحدة اليمنية التي ضحينا من أجلها طويلاً، ومنذ أربعة عقود، بالغالي والنفيس، والعمل، واستبدال ذلك التوجه بتوجه الانفصال، فإن الوحدة اليمنية ستكون بمثابة «قنبلة نووية»، ستعصف بنا إذا ما تخلينا عنها.

وعن عتاب الرئيس علي عبد الله صالح، السابق الذكر، والذي جاء بعد سنوات، وكان عن عدم عودتي إلى صنعاء أثناء الحرب، ووقوفي مع الإخوة في عدن يوماً، أذكر أنني أجبت فخامة الرئيس بالقول: «لو تقاتلت قبيلة مع قبليتك أيها الأخ الرئيس.. فمع من ستقف؟»، فأجابني الرئيس «مع قبيلتي»، فقلت له: «وأنا وقفت في حرب عام 1994م مع ناسي وأهلي».

عند وصولي إلى لندن قادماً من عمّان الأردن (حسب ما سبق ذكره)، سكنت في فندق «إنتركونتينتال» في حي «الهايد بارك»، ثم انتقلت بعد شهر إلى شقة في حي «البارك لاين» – وبعد ذلك انتقلت للعيش في شقة يملكها الأخ الكريم أحمد فريد الصريمة، وكانت واقعة بجوار «الشيراتون تاور»، وكان التنقل المذكور من سكن إلى آخر، بسبب عدم القدرة على الإيفاء بتكاليف إيجار السكن، لأن سفارة الجمهورية اليمنية في لندن، أوقفت دفع تكاليف المعيشة

والسكن والعلاج وغيره لي كعضو في مجلس رئاسة الجمهورية اليمنية، بل وأوقفت صرف المخصصات الخاصة بالمرافقين الذين كانوا معي، والذين كانوا غير قادرين على البقاء في لندن أو غيرها من المدن العربية والعالمية، وتحمل تكاليف المعيشة فيها، لولا مساعدة عدد من الأشخاص النبلاء من أهلنا ورجالنا وإخواننا الكرام الموجودين في بريطانيا وكندا والولايات المتحدة الأمريكية والسعودية والإمارات وقطر والبحرين والكويت، وغيرها من بلدان الهجرة والاغتراب لليمنيين.

بقيت لندن بمثابة المقر الأول لي في الخارج حتى عام **1996**م، وفيها كانت الأجواء المناسبة للمعارضة اليمنية التي مُنِيت بالهزيمة في حرب عام **1994**م، ومنها انطلق إعلان تشكيل جبهة «موج»، المكونة من مجاميع الحزب الاشتراكي اليمني، ورابطة أبناء اليمن وعدد من المستقلين، وكنت أحد مؤسسيها وقادتها، وقد جاء هذا الشكل من العمل السياسي، لأن الأوضاع ساءت في المناطق الجنوبية من اليمن بعد الحرب، كذلك جاء إعلانها من لندن، احتراماً لرغبة المملكة السعودية، التي قدمت الإعانة الإنسانية لأغلب النازحين، التي اشترطت عدم ممارسة أي نشاطات سياسية انطلاقاً من أراضيها، حفاظاً على صفاء العلاقات الثنائية مع الجمهورية اليمنية، وقد كانت أهداف هذه المنظمة إنسانية بإيواء من اضطروا للخروج من الوطن جراء الحرب، وسياسية في العودة إلى تطبيق وثيقة العهد والاتفاق، ولكن وبعد فترة من تشكيلها، كثرت الاتجاهات السياسية فيها، وما ولدته من تناقضات، وتباينت المواقف بين مؤسسيها وقادتها، فضعفت شيئاً فشيئاً، بحيث لم تعد «موج»، بل أصبحت ينابيع صغيرة قليلة المياه، وبعضها جف فعلاً.

هنا، من المهم القول إن لندن تتسم بصفة الحرية السياسية والحرية الكاملة في أن تُعبّر عن آرائك ومواقفك السياسية، وهذه الأجواء لا تتوفر في

المدن العربية التي عشنا بها كمعارضين للحكم في صنعاء، أو كنا ننوي العيش فيها على هذا النحو، ومن خصال الإنجليز المعترف بها، أنهم من خلال الحرية والديمقراطية التي يمنحونك إياها أثناء عيشك معهم أو عندهم، أنهم يحاولون إدراك همومك ومشاكلك، ومدى صحة مواقفك السياسية، وأذكر هنا، أنه بعد عام وأكثر من حرب صيف عام 1994م، عقدت ندوة في «كلية الدراسات الشرقية والأفريقية» بجامعة لندن، حول مشاكل اليمن والوحدة اليمنية (نوفمبر 1995م)، وقد قدمت مداخلة صادقة وهادئة في تلك الندوة، التي أسهمت في جعلنا نبدأ بتفكير وتأمل علمي لما جرى ويجري في الوطن.

انتقلت عام 1995م من مدينة لندن إلى السعودية، وكنت أنتقل دائماً إلى دولة الإمارات العربية، وتقريباً ظللت أتردد على هذه المناطق الثلاث، ولأسباب ظروف المعيشة أو لأسباب عملية، لكن لو كانت الخيارات بيدي، فربما كنت سأختار البقاء دائماً في لندن، وأعتقد أن كثيرين يوافقونني هذا الخيار، فلندن مدينة جذابة حقاً، وللعيش فيها مذاق خاص، لا أدري كيف أصف هذا المذاق، لأن كثيرين من الميسورين العرب الذين أعرفهم، اختاروها كمدينة ثانية للعيش بعد مدنهم الأصلية، من بين كل مدن أوروبا وأمريكا، ربما كانت هادئة أفضل من غيرها، ربما كان فيها مواطنون لندنيون من مشارب قومية أكثر تنوعاً، ربما كان تميز المدينة بأجواء مناخية معتدلة هو السبب، ففيها تكون الأجواء دافئة في فصل الصيف، وفي فصل الشتاء تكون باردة، ولكن ليس بشدة، ربما يعشقها الكثيرون لأنها على تواصل أوسع مع عالمنا العربي، وفوق كل هذا وذاك، فإنني رأيت ولمست صفة رائعة للندن، تتجسد في أن المدينة تقوم بتزيين نفسها لكل الفصول، في كل فصل من فصول السنة، تخلع المدينة حلتها التي كانت تلبسها مظاهر وإعلاناً وتجارة وخدمات وملابس، وتستبدلها بمظاهر وإعلانات وتجارة وخدمات وملابس جديدة مختلفة عن

سابقتها، وملائمة للفصل الجديد الذي حل، وكأنك في مدينة أخرى جديدة، والحقيقة أنني استغربت قبل أيام (بداية مايو 2009م)، عندما قرأت أن استطلاعاً قامت به شركة الاستشارات السياحية الأوروبية (تريب أدفايزرز)، أشار إلى أن لندن من أسوأ مدن أوروبا من ناحية الأطعمة، وأنها أغلى مدينة أوروبية، وغيره عدد من المؤشرات السلبية التي جعلتني أقلق على هذه المدينة الجميلة، على الرغم من أن نتائج الاستطلاع أعطتها حقها في جوانب أخرى، إذ بيّنت مثلاً أنها تمتلك أفضل الحدائق العامة والأندية الليلية وأماكن اجتذاب السياحة المجانية.

ولم لا أقلق على لندن، وأنا منذ عام 1994م لم أنقطع عاماً عن زيارتها، وهي المدينة التي أصبح سكانها اليوم حوالي ثلاثة عشر مليون نسمة، لكن مثل هذا العدد الضخم، لا يشكل لك أي إزعاج أو صخب عندما تمكث فيها، إنها من صنف مدن قلة موجودة في عالمنا، تجعلك كل واحدة منها تحس بأنها تراعي مشاعرك وأحاسيسك، وتعرف تماماً ماذا تريد؟ وماذا تحب؟ وماذا تكره؟، وتُعاملك على هذا الأساس، فلندن إن عاملتها مثلما تعاملك، ستجد أنها أجمل المدن على وجه الأرض وأرقها معاملة وعيشة.

بالنسبة لنا نحن في اليمن. فمدن «برمنهجام» و«شيفيلد» و«ليفربول»، هي مدن الحركة العمالية للجالية اليمنية في بريطانيا، وأبناؤها مؤثرون في بقية أنحاء المملكة المتحدة، ومؤثرون أيضاً داخل الوطن،

وكان يوجد من بين هذه الجالية من شارك في مرحلة النضال التحرري ضد الاستعمار البريطاني، ومنهم من ساهم بالدعم والمال، وكانوا من جميع مناطق جنوبي اليمن المحتل. ومنهم الأخ سالم حميد كشميم، والد البطل العالمي في الملاكمة «نسيم»، والذي كان من أنصار الجبهة الوطنية، وغيره من أبناء المناطق الوسطى والسفلى من اليمن، الذين هاجروا إلى هذه المدن. ومن ليفربول كان الشيخ عبد الله الحكيمي ـ رحمه الله ـ الذي كان يصدر مجلة «الحكمة»، التي كان لها دور ريادي في ذلك الوقت.

وفي «برمنجهام»، التي تقع في مقاطعة «ويست ميدلاندز» وسط إنجلترا، وهي ثاني أكبر مدن المملكة المتحدة، ويبلغ عدد سكانها الآن حوالي مليون نسمة. تتركز الجالية اليمنية ـ هناك ـ منذ أعوام الاحتلال البريطاني لعدن. وهي مدينة تعد مركزاً لصناعات الحديد والصلب، ووُجِد فيها عدد كبير من العمال الأجانب من جنسيات مختلفة من بلدان العالم، حيث وصلت نسبة الآسيويين في المدينة العام الماضي إلى ما يقارب الـ **20%**، هذه الجالية اليمنية هناك، استطاعت أن تشكل لها مواقع استقرار وتنظيمات سياسية واجتماعية نشطة؛ فعلى المستوى العمالي، شكل هناك «اتحاد العمال اليمنيين» (فرع برمنجهام وشيفليد)، وأوجدت الجالية أيضاً اتحاداً طلابياً، كان رئيسه الدكتور أمين ناشر ـ الطبيب المشهور، الذي وصل إلى منصب نائب وزير الصحة العامة

بعدن، وبعد وفاته سُمّي معهد صحي في عدن ـ خور مكسر، باسمه. وهناك جمعيات خيرية في برمنجهام، والكثير من المدارس، كان أولها من أسسها (الأستاذ الخلاقي)، وتشترك فيها الجالية اليمنية، جنباً إلى جنب مع السفارة اليمنية الجنوبية آنذاك. وبإشراف السفارة اليمنية (عدن) بعد الاستقلال، التي كانت تمتلك إمكانات قليلة، ولكنها نشطة في أعمالها، تعزز دعم بعض المقررات لهذه المدارس، ودعم بقية النشاطات قدر الإمكان.

أيضاً، الجالية اليمنية في مدينة ليفربول ـ وهي ميناء عالمي معروف يقع في شمال غربي إنجلترا باتجاه إيرلندا، ويبلغ عدد سكانه اليوم حوالي نصف مليون نسمة ـ كانت تمارس نفس النشاطات، ولكن عدد أفرادها كان أقل مما هو في برمنجهام، والقسم الكبير منهم يعملون في الميناء، أما الجالية في مدينة شيفيلد ـ وهو اسم المقاطعة أيضاً، الواقعة على نهر «الشيف» بإنجلترا وسط اليابسة البريطانية ـ فهي لا تقل حجماً عن جالية برمنجهام، إن لم تفُقها عدداً. والعمال اليمنيون يعملون هنا في مجالات عدة، أهمها مصانع الصلب والحديد، والصناعات الحديدية، وتجارة التجزئة وغيرها، ويقولون إنهم أول من قدِم إلى بريطانيا، وهذا قول تقوله أيضاً الجاليتان الأخريان، وجودهم منذ ما قبل الحرب العالمية الأولى.

وفي نطاق علاقة الجالية اليمنية مع الوطن، فقد تقوت هذه العلاقة منذ بداية الستينيات من القرن المنصرم، عندما انضم بعض أفرادها إلى الحركات المقاومة للاستعمار، والمناهضة للإنجليز ووجودهم في جنوبي اليمن، ودخلوا حينه في أحزابها وتنظيماتها، مثل حركة القوميون العرب، والبعث العربي الاشتراكي، والتنظيمات الناصرية، وجبهة التحرير لجنوب اليمن المحتل، وكان للجبهة القومية وجبهة التحرير، اللتان قارعتا الإنجليز في أرض المستعمرة عدن والمحميات، وجودهم بين هذه الجالية، ما جعل البعض يقررون العودة للمشاركة في الكفاح

المسلح، الذي اتُبع كوسيلة للنضال، وبالفعل، عادت مجموعات منهم، ومنها أعضاء بارزون ساهموا واشتركوا في النضال المسلح، نذكر منهم: حيدرة مطلق صالح (كان الرجل القيادي الثاني في قيادة الجبهة القومية بحالمين)، ومحمد عبد اللاه البشع (كان من مؤسسي جبهة الإصلاح اليافعية، وعضو قيادة الجبهة القومية بجبهة يافع)، ومحمد بن محمد المفلحي، وأحمد صالح القعيطي، وعبد الرحمن جعران، وزين بن محمد هرهره، وغيرهم عديدون من أبناء يافع والضالع والمنطقة الوسطى.

كانت زيارتي تلك إلى كل من برمنجهام وشيفيلد وليفربول، في بداية عام **1972**م، وجاءت بهدف إقناع أفراد الجالية اليمنية هناك، باستمرار إرسال تحويلاتهم المالية بعد انقطاعها، لرفضهم وعدم رضاهم عن قانون التأميم والإصلاح الزراعي بواسطة الانتفاضات الفلاحية التي صادرت بعض الأراضي الزراعية الخاصة. ففي العام المذكور، وصلت التحويلات المالية المرسلة إلى عدن إلى الصفر تقريباً، وعبّر ذلك بوضوح عن أنه ردة فعل غير مباشرة على الإجراءات التأميمية ومصادرة الأراضي من كبار الملاك في اليمن الجنوبي، ما دفع بالرئيس سالم ربيع علي، أن يشكل لجنة خاصة برئاستي، وتضم الأخ مهدي عبد الله سعيد رئيس الاتحاد العام لنقابات عمال الجمهورية، والأخ أحمد عبيد الفضلي مدير عام البنك الأهلي اليمني. مهمتها كوفد، السفر إلى المملكة المتحدة، والذهاب إلى مناطق وجود المغتربين اليمنيين، وأهمها: برمنجهام وشيفيلد وليفربول، حيث توجد أعداد كبيرة منهم هناك، على الوفد مقابلتهم والنقاش معهم، بما يؤدي إلى استئناف التحويلات المالية التي كان مستواها من بريطانيا، أعلى من أي بلد أوروبي أو غربي آخر، ذلك أن الجالية اليمنية في الولايات المتحدة الأمريكية، لم تكن بالحجم الذي أصبحت عليه الآن، إلا منذ الثمانينيات، كما أن الولايات المتحدة الأمريكية، أكثر تشدداً في

سياساتها تجاه (عدن) في ذلك الوقت، ولكن لم يكن حجم الجالية اليمنية في بريطانيا هو سبب تحديد وجهة سفر الوفد، بل إن السبب هو أن الإخوة اليمنيين في بريطانيا، كان لهم ولمواقفهم تأثير كبير في الجاليات اليمنية في بقية البلدان، وخاصة في الولايات المتحدة الأمريكية والسعودية ودول الخليج العربي.

ووفقاً للأهداف المحددة، قمنا بجولة في المناطق الثلاث، وبذل كل ما نستطيع من أجل تطمين العمال اليمنيين والتجار وغيرهم من تكوينات الجالية، بأن الإجراءات التي تمت في عدن وجنوبي اليمن، لا تستهدفهم أو ممتلكاتهم هناك، وإنما شملت فقط كبار الملاك الذين يملكون عمارات سكنية كثيرة، وكبار ملاك الأراضي من سلاطين وإقطاعيين، والحقيقة أنه اتضح لنا من الزيارة الميدانية، أن الأجهزة المسؤولة في (جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية)، لم تكن تقوم بتقديم الرعاية والاهتمام الكافيين تجاه أفراد الجالية وغيرها من الجاليات. خاصة أننا وجدنا أن كثيراً منهم في برمنجهام وشيفيلد وليفربول، قد قلّت مداخيلهم عما كانت عليه سابقاً، وشاخ البعض من الجيل الأول، الذي صلاته راسخة دائمة مع الوطن. ومع ذلك، فقد كانت الجالية تنجب دائماً خيرة الرجال المكافحين في عملهم ومعيشتهم في المهجر، وكذلك في وطنيتهم وإخلاصهم لوطنهم الأم.

برلين (ألمانيا)

زرت مدينة برلين مراراً وتكراراً، قديماً، وهي بسورها السابق، الذي يفصلها إلى مدينة شرقية ومدينة غربية، وزرتها قبل سنوات عدة، وهي بدون سور، بل بما تبقّى من أطلاله التي بقيت للذكرى، وشتان بين هذا وذاك،

ففي الحالة الأولى، كنت تحس بمدينة برلين الشرقية، تمثل الحاجز القوي الرهيب بين النظامين العالميين، الاشتراكي والرأسمالي، مدينة هادئة جميلة مرتبة ووديعة خالية من الصخب، وتجعلك تتخيل عكس كل هذه الأوصاف، موجوداً في الجانب الآخر «برلين الغربية»، التي لم تكن حينها تتخيل وصولك إليها على الأقل للسياحة ليوم واحد، فقد بدا أيامها أن الوصول إلى القمر أسهل من الوصول إلى الجانب الغربي من المدينة.

وفي زيارتي الأخيرة لها في عام **2004**م، وجدت برلين بحلة جديدة – شرقها وغربها – بل إنني لم أعرف شرقها من غربها، سوى ما بينته بعض الآثار التاريخية أو القصور التاريخية المعروفة، والحقيقة أنني أردت أن أسال أحياناً: هل نحن في برلين الشرقية سابقاً، أم أننا في برلين الغربية سابقاً؟ ولكنني خجلت من توجيه السؤال إلى أحد الألمان، وقلت لنفسي: ما الفائدة من نبش الماضي، وقد صارت برلين في حاضر جميل؟، بيد أني، وأنا أكتب هذا الجزء من الكتاب الخاص بمدينة برلين، لم أجد بُداً من الحديث عن الماضي، لأنني زرت هذه المدينة عشرات المرات منذ بداية السبعينيات، وحتى آخر سنة في التسعينيات، قبل عام تقريباً من إعادة توحيد ألمانيا، بينما لم أزُرها وهي موحدة سوى مرة واحدة.

عندما اعترفت الدولة في عدن عام **1969**م بـ «جمهورية ألمانيا الديمقراطية»، وأن مدينة برلين عاصمة لها، وهو موضوع كان أيضاً – آنذاك –

مثار خلاف عالمي. كنا في عدن، نعتبر ذلك خطوة تقدمية، استحقت عليها تقدير البلدان الاشتراكية، وبالذات موسكو، كونها جاءت في ذلك الوقت، في حدة الحرب الباردة بين ما كان يسمى المعسكرين (المعسكر الاشتراكي والمعسكر الرأسمالي)، إذ كان ذلك الاعتراف خطوة جريئة، قابلتها دولة ألمانيا الاتحادية (الغربية) وحلفاؤها بغضب شديد، نالت عليه عدن فيما بعد، عقاباً شديداً، باعتبار أن ما أقدمت عليه، يعد تطاولاً لم تسبقه إليه أحد من البلدان العربية، باستثناء مصر جمال عبد الناصر، وسوريا حافظ الأسد.

والعلاقة بين كل من عدن وبرلين (الشرقية)، التي استمرت من عام 1969م حتى أكتوبر 1990م، كانت علاقة متميزة فكرياً وسياسياً وأمنياً، لأسباب عدة، منها أن هناك تشابهاً في التوجه السياسي العام، كما أن النظامين / الدولتين، ينتسبان إلى وضعيه واحدة، ينتسب كل منهما فيها إلى شعب واحد، مقسم سياسياً إلى شطرين/ دولتين، ولذا، كانت بصمات الألمان الشرقيين على جنوب اليمن واضحة، وخاصة في بناء الحزب الاشتراكي اليمني، وفي مجال بناء التعاونيات الزراعية ومحطات التأجير الزراعي، وكذا، في بناء أجهزة الشرطة والأمن، ففي هذه المجالات، قدّم الألمان دعمهم الكامل لعدن، وعندما كان المرحوم محمد صالح مطيع، وزيراً للداخلية، ثم وزيراً للخارجية، وكان عبد العزيز عبد الولي وكيلاً له، ثم وزيراً للصناعة والتخطيط، وكذلك محمد سعيد عبد الله (محسن)، كمدير لجهاز أمن الثورة، ثم وزير أمن الدولة، وهذه التسميات للوزارة الأخيرة، هي نفس التسميات في ألمانيا الديمقراطية، حينها لعب هذا الثلاثي دوراً هاماً في تطوير العلاقات بين البلدين، وفي الاستفادة القصوى منها لصالح تعزيز التجربة الثورية الناشئة في جنوبي الجزيرة العربية.

زار برلين، رسمياً، كل أمناء التنظيم السياسي الجبهة القومية، التي أصبحت في ما بعد، مع تنظيمات أخرى، الحزب الاشتراكي اليمني، وفي

مقدمهم عبد الفتاح إسماعيل، باعتبار أن التجربة يقودها التنظيم / الحزب، وكذلك زارها الرؤساء الذين تعاقبوا على كرسي الرئاسة، ابتداء بسالم ربيع علي في عام **1974**م، وعلي ناصر محمد، وعلي سالم البيض من بعده، كما زار هذه المدينة معظم الوزراء والمسؤولين، وتخرجت في جامعاتها أعداد كبيرة من الكوادر المؤهلة في المجالات الطبية والاقتصادية والحزبية والأمنية والسياسية، حيث فتحت ألمانيا الديمقراطية، جامعاتها ومعاهدها وكلياتها لاستقبال المبعوثين من أبناء اليمن وسوريا، وتخرج فيها آلاف الكوادر اليمنية، وعلى سبيل المثال لا الحصر، تخرج فيها الإخوة: علي صالح عباد (أمين عام الحزب الاشتراكي بعد حرب صيف عام **1994**م، هو خريج المدرسة الحزبية العليا في برلين)، صالح عبد الله مثنى، أحمد صلاح السلامي، حسن السلامي، محمد محسن العمري، محمد عبد الله البطاني، وغيرهم كثيرون من قادة الحزب والدولة، وقد كنت واحداً منهم، إذ نلت قسطي من الدورات التأهيلية والتدريبية المتوسطة والقصيرة في مجال بناء التعاونيات الزراعية، في معهد اتحاد الفلاحين الألماني في بداية السبعينيات، بمدينة هالا، وبعد ذلك في عدة معاهد أخرى، كما تخرج في جامعاتها أخي علي صالح، وابني البكر صلاح، والدكتور الجراح محمد عبيد القعيطي، زوج ابنتي.

في تلك الفترة، أذكر أن وفاة الزعيم العربي جمال عبد الناصر – رحمه الله – جاءت عندما كنت في دورة تأهيلية في المعهد المذكور آنفاً، وكان معنا هناك مبعوثون من مصر العربية وسوريا وبعض البلدان الأفريقية والآسيوية، وعندها جمعنا المسؤولون الألمان في قاعة المحاضرات الرئيسة، وإذا بهم يبلغونا بتعازيهم، أذكر يوماً، أن الجميع بكوا، بما فيهم الألمان الموجودون، حزناً لوفاة عبد الناصر، وبقينا نحن العرب أسابيع عدة حزينين على فقدان هذه الشخصية، التي

مهما اتفقنا أو اختلفنا معها، تظل تحتل موقعها في العقل والوجدان، وهي كذلك حتى اليوم.

زرنا برلين مراراً وتكراراً في مناسبات عدة، منها، مناسبة انعقاد مؤتمرات الحزب الاشتراكي الألماني الموحد، وانعقاد المؤتمر التاسع للشباب العالمي هناك، كما رافقت رؤساء اليمن الديمقراطية في زياراتهم الرسمية لها، ابتداءً من عام 1974م، ومكنتني هذه الزيارات من التعرف إلى المدينة الواقعة على نهر «الشبرية»، الذي يمر هادئاً وسط القسم التاريخي منها، ولأن المدينة من أكثر مدن ألمانيا ملكة للمعالم التاريخية والإرث الثقافي، فقد كنت أزور قسماً من تلك المعالم في كل زيارة، ومنها: ميدان «الكساندر بلاز»، وبرج برلين التلفزيوني المشهور، وبوابة براندنبورج (براندريوم)، وكاتدرائية برلين، وعمود النصر الألماني المشهور، وقصر المؤتمرات، وسور برلين المبني عام 1961م، الذي يفصل جزأي المدينة التي قسمت إلى شرقية وغربية، بفعل نتائج الحرب العالمية الثانية، بعد هزيمة ألمانيا النازية المنكرة، وسقوط أدولف هتلر عام 1945م. وأذكر أنه عندما كنا نقف بقرب سور برلين، ومن علو بناية حددت للضيوف والزوار الرسميين لمشاهدته منها، كان منظره وكأنه سور لسجن كبير فظيع، كان منظر المدينة المقسمة يحزننا، ويذكرنا أحياناً بمدينة القدس، التي قسّمها اليهود المعتدون، وكانت هذه الرؤية تلقائية، رغم شرح الألمان الشرقيين لنا في كل زيارة للسور، عن أهمية بناء هذا الجدار، ووجوده للحفاظ على تجربتهم الاشتراكية في القطاع الشرقي، وعدم السماح بتلوث مدينتهم (الشرقية) وبيئتها ونقاوتها، مما ينتقل إليها من أوساخ وآثام الرأسمالية الموجودة في غرب المدينة.

لعل زيارتي في 1988م، هي الزيارة الرسمية الأخيرة لي، حيث ترأست وفداً فيها، مكوناً من بعض أمناء الحزب الاشتراكي اليمني من المحافظات، وممثلي النقابات والصحافيين وجمعية الصداقة اليمنية الألمانية، وكان الهدف

الرئيس من زيارة الوفد، هو تلطيف التوتر الذي ساد العلاقات بين كل من عدن وبرلين، إثر أحداث 1986م الداخلية المشؤومة، وخاصة اعتقال رئيس جمعية الصداقة اليمنية الألمانية، الأخ حسن السلامي، الذي لجأ إلى سفارتهم في مدينة عدن، وكان يشغل – حينها – وزير التربية والتعليم، وقد تلقى دراسته الجامعية في ألمانيا الديمقراطية، وكانت علاقته جيدة بوزيرة التربية والتعليم الألمانية، وهي زوجه «ايريش هونيكر» الأمين العام للحزب الاشتراكي الألماني ورئيس الدولة هناك، وخلال الزيارة الرسمية التي استمرت أسبوعاً، رافقني خلالها من الجانب الألماني، رئيس الرقابة الحزبية العليا بالحزب الحاكم، الذي اتضح لي من خلال الأحاديث معه، أنه ضد أفكار الرئيس السوفييتي ميخائيل جورباتشوف، وقد عكس لي ذلك مسؤولون ألمان شرقيون لهم نفس موقفه، وربما كان ذلك بفعل معرفتهم المسبقة بالمصير الذي سيواجهونه جميعاً في كل من برلين وموسكو، من جراء تنازل جورباتشوف وبيعه بثمن رخيص للتجربة، حسبما سمعته من الشخص المذكور، إذ كان في آرائهم واعتقاداتهم، أنه كان يمكن الوصول في إطار النظام العالمي الجديد، إلى تسويات، تأخذ بعين الاعتبار، أفضليات النظام الاشتراكي والرأسمالي، لتدخل البشرية بدون عناء أو حروب، طريقها الجديد، الطريق الثالث، الأكثر إيجابية للعالم وللبشرية.

بعدها بفترة وجيزة (عدة أشهر)، جئنا إلى برلين في زيارة أخرى، كعضو في وفد لحضور المؤتمر الدولي، الذي انعقد في برلين في تلك الفترة، وحضرته وفود من أكثر من مئة دولة في هذه الزيارة لبرلين، أجريت مباحثات مع عضو المكتب السياسي، سكرتير الدائرة الحزبية، والذي تحمّل مسؤولية أمانة الحزب لاحقاً، بعد سقوط ايريش هونيكر، أذكر أنه في حفل الاستقبال الكبير لوفود المؤتمر الدولي، كان الرئيس هونيكر، ما زال غاضباً من اليمن الديمقراطية، بسبب الموضوع المشار إليه سابقاً، ورفض حينها التحدث معنا، مع أن المراسيم

هم الذين طلبوا منا التوجه للحديث معه، وعندما لم يوجد لدينا سوى الانسحاب من حفل الاستقبال، فما كان من فيلي شتوف رئيس الوزراء، إلا أن لحق بنا وقام بالاعتذار لنا عن تصرفات رئيسهم غير المألوف لدى الألمان، المعروفين بدقتهم وبضبط عواطفهم والتحكم بأعصابهم، لكن من ضمن أسباب تلك الواقعة الإضافية، أن الأمور يبدو لمن يعرف خفاياها، أنها وصلت إلى مرحلة انتهاء وجودهم كنظام، ولهذا، أتذكر ما قاله لي فيلي شتوف يومها، من أن «الألمان وقعوا ضحية لأفكار النازية، ودفعوا ثمنها بتقسيم ألمانيا، وأن الروس عندما ساعدوهم على بناء ألمانيا الديمقراطية، كان ثمن ذلك باهظاً للغاية، من هذا الثمن، أكثر من عشرين مليون قتيل، قدمهم الروس لوحدهم، من أجل حرية ألمانيا، وأنهم بتخليهم الآن عن ألمانيا، وبهذه البيعة التي تتم، والرخيصة للغاية، بين سمسار اسمه جورباتشوف والوكالات الغربية، سيكون لها تأثيرها السلبي على الصعيد الدولي بالكامل»، لم أتخيل عندها، بحكم حماسي في ذلك الوقت لأفكار جورباتشوف، أن السوفييت سوف يتنازلون بهذه السهولة عن كل شيء، وبدون مقابل، ويتركون وجودهم في ألمانيا بهذه الطريقة، وبهذا الشكل، لقد سقطت هذه المنظومة كسلطة وكنظام دولة، وكنت أرى – آنذاك – أن أفكارها ستظل جزءاً من منظومة الأفكار الإنسانية، بقضها وقضيضها، ولكن كأفكار، مع أنه لو تمت الإصلاحات الاقتصادية والديمقراطية، في إطار ما كان يسمى الأنظمة الاشتراكية، لأفضت إلى تشكيل النظام الدولي العادل، الذي يحافظ على التوازن في العلاقات الدولية، وعدم عودة البشرية إلى جحيم الرأسمالية مجدداً، كنظام واحد وحيد.

كان هذا اعتقادي، بعد ما سمعته من فيلي شتوف، ولكن ما حدث بعد ذلك، فاق الاعتقادات وكل التوقعات، وما أثار عجبي هنا، أنه بالرغم من الكلام الذي قاله لي رئيس وزراء ألمانيا الشرقية الذي سبق وأوضحته، أنني

قرأت بعد ذلك ما يشير إلى أن أريش هونيكر، رئيس ألمانيا الديمقراطية حينها، لم يكن يتوقع ما حدث في موسكو؛ فقد نشر المستشار الألماني الغربي هيلموت شميت، مذكراته قبل مدة قصيرة، وهو رئيس ألمانيا الغربية في الفترة 1974م – 1996م،، وجاء في تلك المذكرات، أنه لم يحزنه (شميث) من بين قادة الدول الشمولية، سوى ايريش هونيكر، زعيم ألمانيا الشرقية، لأن سياسته كانت مرتبطة ومعلقة بموسكو، في الوقت الذي لم يكن يعلم فيه حقيقة ما يجري وراء الستار في العاصمة السوفييتية، وأنه، أي شميت، التقى هونيكر في بون (عاصمة ألمانيا الغربية سابقاً) عام 1987م، وكان الرئيس السوفييتي جورباتشوف حينها، يحاول إجراء تعديلات جوهرية في السياسة الداخلية السوفييتية، في إطار ما عرف أيامها بـ «الجلاسنوست» و«البريسترويكا»، وأن هوينكر أثناء اللقاء، أبدى تحفظه على هذا الخط الجديد، الذي ينتهجه جورباتشوف، لأن الاتحاد السوفييتي في حاجة إلى عملية إصلاح أكبر وأشمل، ويضيف شميت: «قال لي هونيكر، إن تغيير سجاجيد البيت لا يؤدي لتغيير المبنى وإن طلاء المنزل من الخارج لا يغير أساساته».

جاءت هذه الزيارة إلى برلين (1988م)، وعرفنا ما الجديد فيها، وهو الذي سبق إيراده، وذلك بعدما كنا في عدن، قمنا بمجموعة إصلاحات جديدة، بدأت منذ منتصف عام 1986م، وتوجت بإقرار برنامج الإصلاح السياسي والاقتصادي، الذي تبناه الحزب الحاكم في بداية عام 1988م، والذي شمل سياسات منفتحة جديدة، وبالذات، إقرار التعددية الحزبية السياسية، والسماح للقطاع الخاص بأخذ دوره الاقتصادي الهام، وحرية التعبير، وإن كان مثل هذه التوجهات والإجراءات، قد جاءت متأخرة بعض الشيء.

كان لهذه الزيارة، وهي الأخيرة إلى جمهورية ألمانيا الديمقراطية، تأثيرها الإيجابي الإضافي، في منحى عملنا اللاحق منذ عام 1988م، وخاصة في ما

يتعلق بتسريع الإصلاحات في عدن، وجاءت آخر زيارة لي للمدينة في شهر ديسمبر **2004**م، أي بعد نحو **15** عاماً من الأخيرة، وكانت بمرافقة الرئيس علي عبد الله صالح، وقد كانت زيارة رسمية مكثفة الفعاليات، مقارنة بالزيارات السابقة، والتي يتخللها وقت كافٍ للراحة والتنزه والتجول، وقد حضر كافة اللقاءات الرسمية التي أجراها فخامة الرئيس مع المسؤولين الحكوميين، والوزراء ومديري الشركات وممثلي الصحافة والإعلام في ألمانيا، ما مكنني من الاطلاع على الجوانب الإيجابية للوحدة الألمانية، التي تحققت بعد قرابة عام من تحقيق وحدتنا اليمنية، رغم أن هذا الموضوع لم يكن هدف الزيارة، التي كانت عملية، أكثر من أن تكون استطلاعية أو سياسية، ولقد أعجبني خطاب الرئيس علي عبد الله صالح أثناء اللقاءات المذكورة، حيث كانت الصراحة والوضوح وعدم المجاملة أو التلاعب بالألفاظ، وتسمية الأمور بمسمياتها، هي السائدة في الوصول إلى نقاط الالتقاء من قِبَل الخطاب السياسي اليمني، سواء مع فكر الاشتراكية الديمقراطية، أو الفكر الليبرالي المعاصر، أو الفكر المسيحي الديمقراطي، وتداخلت المواقف والأطروحات للقضايا، بحسب مهام وظيفة كل شخصية قيادية تم لقاؤها، بما فيها القضايا الوطنية، وعلى رأسها، وفي مقدمها، مسائل الديمقراطية الناشئة في اليمن، والتنمية الاقتصادية والاستثمارية، والانفراج، ووصولاً إلى دعم الشراكة الاقتصادية بين دول العالم، ودول كل منطقة في ما بينها على وجه الخصوص، دعم الشراكة الاقتصادية بين اليمن وألمانيا، حيث تُعتبر ألمانيا من ضمن الدول الخمس الأولى الداعمة للتنمية في اليمن، كما تطرقت تلك اللقاءات للقضايا الهامة للشعوب العربية، وبنفس الوضوح والصراحة.

وقد كان التفاعل مع جميع الأطروحات والمواقف الصادقة والمسؤولة والطموحة، التي طرحها فخامة الرئيس فورياً وسريعاً، ولم يحتَجْ إلى وقت، إذ أكد

الجانبان على تطابق وجهات النظر في كافة المسائل المطروحة، بل وأكدوا ارتياحهم البالغ للتطورات التي يشهدها اليمن، وأثنوا عليها بكل وضوح لفخامة الرئيس علي عبد الله صالح شخصياً، على الصعيد الوطني، والصعيدين الإقليمي والدولي.

إن زيارتي هذه لبرلين، وزيارتَيّ اللتين لحقتاها إلى كل من الفاتيكان وروما، بينت لي بجلاء، الأهمية الراهنة للتوجهات الأوروبية، التي تتطلع إلى توثيق علاقاتها مع العالم العربي والشرق عموماً، حيث تسعى أوروبا إلى تفعيل موقعها وقوتها الاقتصادية عالمياً، خاصة بعد قيام «الاتحاد الأوروبي»، وتحقيقه نجاحات تليق بوحدة دول أوروبا، وبدورها في الماضي والحاضر، وطموحاتها المستقبلية في مواكبة متحفزة لمجريات العصر ومتطلباته.

لقد زرت برلين لأول مرة قبل ثلاثين عاماً، وبالتحديد في شهر يوليو عام **1974**م، برفقة الرئيس المغفور له، سالم ربيع علي، وآخرها برفقة الرئيس علي عبد الله صالح في **2004**، وخلال الثلاثين عاماً، حصلت تغيرات هامة وهائلة في حياة وتقدم الشعب الألماني ومعيشته، وتوسعت بناه التحتية، وازدهرت مدنه بكل أرجاء البلد، كما حصلت تغيرات هامة على الصعيد الوطني والدولي، أجملها بالنسبة لليمن وألمانيا، هي إعادة تحقيق الوحدة، ففي حين تعتبر الوحدة الألمانية تواصلاً للتقدم، فإن الوحدة اليمنية انتكست، بفعل المصاعب والمتاعب التي أوجدتها لها حرب صيف عام **1994**م، وفي هذا السياق، لا بد من القول إن الوحدة الألمانية قد جاءت عام **1991**م، ولادة جديدة لمدينة برلين، حيث استثمرت مليارات الدولارات لإنشاء مبنى ومقرات الدولة الموحدة ومؤسساتها، وكذا، جرى توسيع طاقتها السكنية، وتجديد بناها التحتية والخدمية، بما يتناسب ودورها الجديد في ألمانيا الموحدة، هذا فضلاً عما

أُنفق من مال، وما بُذل من جهد لتجديد صناعة القسم الشرقي من البلاد، وإلحاقه بمستوى الاقتصاد الرأسمالي السائد في ما كان يسمى «ألمانيا الغربية».

أيضاً، من ضمن الانطباعات التي خرجت بها في هذه الزيارة الأخيرة، أن برلين شهدت تطورات وتغيرات عميقة، منذ آخر زيارة قديمة لي إلى المدينة عام **1988**م، فقد رأيت المدينة واحدة موحدة، كعاصمة لجمهورية ألمانيا الاتحادية، وتأكدت من ذلك تماماً، عندما شاهدت أقساماً متبقية هنا وهناك من سور برلين، وقد رسمت عليها رسومات متنوعة متداخلة الألوان، وكتبت هنا وهناك تعابير لا تعيرها اهتماماً، لأن منظر أطلال السور هذه، يشتت أفكارك باتجاهات شتى، وقد توسعت المدينة بما لا يقاس، وعرفت أنها صارت ثاني أكبر مدن الاتحاد الأوروبي، بعد لندن، ورأيت ذلك جلياً، عندما شاهدت أحياء جديدة شُيّدت بعد الوحدة الألمانية منذ عام **1990**م، غاية في الروعة والانتظام، بما تحتويه من مبانٍ تغلب عليها الأشكال الهندسية المبدعة، والواجهات الزجاجية اللامعة، وتحيط بها الميادين العامة التي أتخفت بأعمدة النور الفنية التكوين، ومواضع الزهور والورود وكراسي استراحات الجمهور المنسقة، وغيرها، وغيرها من التحسينات في شوارع المدينة، وترميم القديم منها، وإشارات السيارات وموديلات جديدة الطراز وكثرة المحال التجارية والمعارض، التي احتوت ملابس وأجهزة وسلعاً أخرى، تصيبك بشهوة الرأسمالي لاقتناء الحاجيات، وغيرها كثير، يجعلك تسأل نفسك: هل هذه حقاً مدينة برلين، التي زرتها لأول مرة وعمري **27** سنة؟، أم أنني الآن أتجول – وعمري قد اقترب من الستة عقود – في برلين أخرى.

وبعد أن عدت من تلك الزيارة إلى الوطن، وحدثت عدداً من الأصدقاء عن السؤال المذكور :» هل هذه حقاً مدينة برلين، أم أنني في برلين أخرى؟»، قال أحدهم: «دعك من هذا السؤال الرومانسي، وقل لنا ماذا وجدت هناك

من أشياء تبقت من العهد الاشتراكي الشيوعي لألمانيا؟»، وعندها، سرحت شارداً أبحث وأبحث، وبعد عناء، لم أجد سوى شيئين قرأت عنهما هناك في برلين، ثم أسرعت وأخبرت أصدقائي بهما، وهما: الأول، أن نسبة البطالة في المدينة تبلغ حالياً حوالي **17 %** من إجمالي القوى العاملة في المدينة، وهي نسبة مرتفعة كثيراً، مقارنة مع مدن غربي ألمانيا، وذلك نتيجة للعمال الفائضين من الدولة السابقة، ولتدفق الأيدي العاملة من المناطق الأخرى، ما كان يُسمّى شرق ألمانيا، أما الثاني، فهو أن نسبة الذين ليس لهم ديانة محددة من أبناء المدينة، تصل إلى **59 %** من سكانها، البالغ عددها **3.4** ملايين نسمة، أما البقية فهم مسيحيون، باستثناء **6 %**، وهي نسبة المسلمين، والعجيب هنا، أن نسبة الذين ليس لهم ديانة، عالية، ومن أعلى النسب في مدن العالم، وربما يدل هذا على أن «كارل ماركس» – وهو ألماني يهودي – لم يمت بعد تماماً، ولكن، وحتى هذه المسألة لم تحسم بعد، ففي **26** أبريل **2009**م، نُظّم في مدينة برلين، استفتاء شعبي عام حول مسألة تدريس المواد الدينية في مدارس المدينة، يختار فيه المواطنون بين أن تدرس المواد الدينية في المدارس العامة، كما هو الحال في أغلبية المدارس الألمانية، بإعطاء مبادئ عامة عن الديانات الرئيسة، أو أن تدرس المواد الدراسية الدينية في مدارس خاصة، وليس في المدارس العامة في المدينة.

وكان قد تدارك الحزب الاشتراكي الديمقراطي الألماني هذا الوضع الشاذ للمدارس العامة في برلين، وهو وريث الحزب الاشتراكي الألماني السابق، والمهيمن حالياً على أغلبية المجالس المحلية في المدينة في عام **2006**م، حين فرض مادة دراسية جديدة في مدارس برلين، هي «مادة الأخلاق»، ويقول المعارضون لهذا الحزب، إن «مادة الأخلاق» لا تعوِّض عن دراسة الأديان، فيما يقول مؤيدوها، إن مدينة برلين بحاجة ماسة إلى «مادة الأخلاق»، من أجل أن

تصبح أفضل مدينة في العالم، والمهم هنا، أن هذا الصراع أو الخلاف يدور حول: ما هو الأفضل؟، وما هو الأكثر مصلحة لأجيالهم القادمة؟، وبالطبع، إن هذا الصراع الذي لم نجد نتيجته (نتيجة الاستفتاء)، رغم تتبعنا لها، لا تخص الموقف من الدين الإسلامي الحنيف، لأن برلين قد منعت الحجاب في المدارس والجامعات، وفرضت اللغة الألمانية لغةً للتدريس العام، بل وأنشأت مدرسة خاصة لتعليم الخطباء والفقهاء والمسلمين اللغة الألمانية، بحيث لم يعد باستطاعة الخطيب أو الفقيه الذي لا يجيد اللغة الألمانية، أن يعتلي منبر مسجد في برلين.

عدت إلى برلين مجدداً عام 2012، وهذه المرة، جئت إليها لإجراء عملية جراحية للقولون، قضيت فيها ستة أشهر في المستشفى وخارجه، والتنقل بين بعض المدن الألمانية، كان لمساعدة شقيقي علي صالح محمد، الذي يعرفها كما يعرف مدن الوطن اليمني، بحكم دراسته وصداقته لأشخاص قدّموا لنا المساعدة الإنسانية، قلّما تجدها هذه الأيام في وطنك.

وحقاً يا هونيكر، الحياة مستمرة بوجودك أو بعدمه، وعاشت الصداقة بين الشعوب.

لايبزج (ألمانيا)

مدينة المعارض الدولية، وباريس الصغرى، كما يسموها، ومدينة الشاعر الألماني «جوتيه»، كانت تأتي بعد برلين أهمية لجمهورية ألمانيا الديمقراطية السابقة، وهي ثاني أكبر مدن ولاية ساكسونيا في ألمانيا الموحدة، ويبلغ عدد سكان المدينة اليوم، حوالي نصف مليون نسمة، بينما كان في السبعينيات عندما زرتها لعدة مرات، لا يتجاوز ربع مليون نسمة.

لايبزغ كانت وما زالت هي قلب منطقة لايبزغ – هالا الصناعية، وهي أهم المناطق الصناعية والتجارية في شرقي ألمانيا، وتعد الآن – ثاني مركز تجاري ألماني بعد مدينة فرانكفورت، كما أنها تشتهر تاريخياً بكثرة المعارض التجارية والصناعية التي يجري تنظيمها فيها، ويعد معرض لايبزج التجاري، أقدم المعارض التجارية الأوروبية، ويعود تاريخ انطلاقه إلى العصور الوسطى، وهو اليوم من أهم المعارض التجارية الدولية، خاصة بالنسبة لأهميته للتجارة في دول أوروبا الشرقية.

كان معرض لايبزج الدولي (اجرا) الزراعي، الذي يقام سنوياً في هذه المدينة، مناسبة لزيارة المدينة التي يقدُم إليها الزوار من جميع أنحاء العالم، وقد زرتها لحضور المعرض برفقة وزير الزراعة – آنذاك – الأخ محمد سليمان ناصر، وعضوية الأستاذ حسين سالم باصديق – وكيل وزارة الزراعة (وهو الكاتب القصصي المعروف)، والأستاذ حسين الجابري، وهناك التقينا، ولأول مرة، بوفود على مستوى عالٍ، وخاصة وزراء الزراعة في عدد من البلدان الاشتراكية والعربية والأفريقية، وكان ذلك في ظل التسابق بين النظامين الاشتراكي والرأسمالي، ما جعل الألمان الشرقيين يبذلون جهوداً مكثفة في دقة تنظيمهم

لإظهار الإنجازات الزراعية، وما حققته تجربة بناء التعاونيات الزراعية، ومزارع الدولة، ومحطات تأجير الآلات الزراعية، وهذه التجربة، كانت ألمانيا الديمقراطية سباقة فيها، وناجحة حقاً.

كما أنه أطلق على لايبزج لقب «مدينة الكتاب»، لما تشتهر به من طباعة للكتب وتنظيم معارض عالمية خاصة بالكتب، وهي تتمتع بمكانة تاريخية، كمدينة لطباعة الكتب والمطبوعات منذ أمد بعيد، أضف إلى ذلك، وجود أقدم الجامعات الألمانية، والعديد من الكليات العلمية التخصصية والمعاهد العليا، وقد درس في جامعة لايبزج، التي كانت تُسمَّى في عهد النظام الاشتراكي «جامعة كارل ماركس»، أعداد كبيرة من أبناء اليمن – شماله وجنوبه – وتخرج في جامعاتها العديدة، الكثير من المتخصصين والكوادر المؤهلة، حيث تعد جامعاتها من أكبر الجامعات الألمانية، التي تشمل كافة التخصصات في العلوم التطبيقية والإنسانية، الذين تحملوا مسؤوليات قيادية في عدن وصنعاء، وفي المدينة أيضاً معاهد شتى، منها معهد (هاردر **HARDER**) للغة الألمانية، والذي يعتبر المصفاة التي من خلالها يتم تحضير الطلاب الأجانب القادمين للدراسات الجامعية العليا في التخصصات المختلفة، وله أهمية علمية، لأنه المختبر الذي يقيس قدرة الطلاب على المضي في الدراسة الجامعية أو العودة إلى أوطانهم.

كانت زيارتي للمدينة، نتيجة لوجود مجموعة من الأقارب والأصدقاء، خاصة الأستاذ حسن السلامي، وكان حينها وزير التربية والتعليم، وعلي صالح محمد (شقيقي الثاني)، وابني صلاح، وهؤلاء وآخرون كانوا يدعونني لزيارة هذه المدينة كلما وجدت الفرصة أثناء زياراتي المتكررة إلى ألمانيا الديمقراطية، كما أنني التحقت بدورتين تأهيليتين في مجال الزراعة والتخطيط الزراعي في مدينة أخرى على مقربة من هذه المدينة، ولا تبعد عنها بأكثر من خمسين كيلومتراً،

وكان الأخ أحمد مساعد حسين، وهو حالياً وزير شؤون المغتربين، أحد أعضاء الدورة، وعندما زرنا معاً مدينة لايبزج، أطربه ما رآه، فجاءت حليلة الشعر، وقال شيئاً من الشعر الشعبي الذي يجيده:

لايبزج في هواها كل عاشق يهيم

حد من الناس في الجنة وحد في الجحيم

حد من الناس جالس وحد يضرب وهو مستقيم

ولعل الأبيات أعلاه، تعكس حالنا، نحن القادمين من صحراء العرب، عطشاً وفقراً وتخلفاً، وهو حال يزداد بؤساً وغرابة، عندما يكون الشخص في مدينة يصعب وصفها مثل لايبزج، التي تقع على نهرين، هما «بلايسا» و«بارتا»، وليس على نهر واحد جميل، كما هو حال معظم المدن الأوروبية، بل نهرين، وهذا ما زاد جمالها جمالاً، وما زاد خضرتها رواء، وفي المدينة قصور كثيرة ومتاحف وكنائس، وكلها معمار هندسي بديع، زُيِّنت جدرانه الخارجية بالأعمدة والنقوش والمنحوتات، وعندما تسأل، أو حتى عندما لا تسأل، يقال لك هذا المبنى من القرن الخامس عشر، وهذا المبنى من القرن السادس عشر، فتقول لنفسك، كيف حافظا على هذا الإبداع المعماري طوال دهور من الزمن، بل وكيف حافظوا عليه أثناء الحربين العالميتين الأولى والثانية، وتجد أنهم رمموا كل شيء كما كان قبلها وأفضل، وتركوا فقط حياً صغيراً في المدينة كما هو، لذكرى الحرب العالمية الثانية.

هذا بالإضافة إلى أن ضواحي لايبزج زينت بحدائق وساحات عامة فسيحة ورائعة الأجواء، بُنِيت حديثاً، كما هو الحال في ساحة «أوغوست» الواقعة شرقي المدينة، والتي كنا نذهب إليها في عطلات نهاية الأسبوع، أما المناطق المحيطة بلايبزج، فكلها مناظر تسلب الألباب، فلا تنظر في مكان منها، إلا وتجد مشهداً من أروع ما تحتويه الطبيعة، لذا، ليس كثيراً على هذه المدينة

أن تسمى بـ «مدينة الموسيقى»، لأن عدداً كبيراً من الموسيقيين الأوروبيين عشقوها طوال الخمسة قرون الماضية، وعدد من أكبر مشاهير الموسيقى الأوروبية عاشوا في هذه المدينة، وبداخلها، أبدعوا أعذب الألحان.

تجددت زيارتي للمدينة عام **2012**، عندما أجريت عملية جراحية في إحدى مدن ألمانيا القريبة من لايبزج، والتقينا بالإخوة قاسم الشرفي وفضل الضالعي ومحمد حاجب وجلال كليب، برفقة شقيقي علي صالح محمد، والأصدقاء الألمان، أعادت لنا روح الشباب وذكرياته الجميلة.

فرانكفورت (ألمانيا)

تعتبر المركز المالي للقارة الأوروبية، وهي عاصمة المصارف الأوروبية، حيث تكثر فيها المصارف المالية التي تستوعب نشاط المؤسسات المالية والتنموية والإنتاجية للاقتصاد الألماني المتسارع النمو، وحين زرتها في نهاية عام **1993**م، كان فيها مقر «الاتحادي الألماني»، وقد وجد حديثاً إلى جانبه البنك المركزي الأوروبي، تقع إلى الجنوب من بون، العاصمة الألمانية السابقة، تراها مدينة صناعية، وسياحية، أضفت عليها مظاهر العصر بمستحدثاتها من طرق حديثة، وبنيان منسق شاهق، جمالاً خلاباً، تطل على نهر الراين، الذي يتعرج داخلها يمنة ويسرة، وكأنه حبيب وسيم أتى متسللاً، ليزيد رونقها رونقاً لا يضاهى، وهذه المدينة هي الموطن الأصلي للكاتب والمفكر وعملاق الأدب الألماني جوتيه، الذي عُرف بميوله نحو الشرق، وجعل هذه المدينة أكثر شهرة من مدينة دراسته لايبزج.

قادتنا الظروف الصحية إلى زيارتها بقصد العلاج، ثم الاستجمام بحماماتها المنتشرة بشكل لا يتصوره أي عربي قادم من الشرق، ذهبت إليها في نهاية فصل الصيف، في الوقت الذي يغادر الأوروبيون ويهربون من ضجيج المدن الصناعية الكبرى، إلى فساحة المناطق الريفية، وهذه عادة درج عليها الأوروبيون، وخاصة الألمان، الذين يُعدون أكثرهم ولعاً في الترحال، كانت الرحلة في بداية شهر أكتوبر **1993**م، وتزامنت في الوطن مع بداية الأزمة اليمنية، والتي أدت بنائب الرئيس علي سالم البيض، إلى الاعتكاف في عدن، وبعدها تطورت الأزمة حتى صارت حرباً، عُرفت في ما بعد بحرب صيف **1994**م.

ومن حسن الحظ، أن وجدت هناك الدكتور سالم حسين، وهو طبيب اختصاصي مقيم، عرّفنا بمستشفيات المدينة التخصصية التي تناسب حالتنا المرضية، كما أن مرافقة ولدي صلاح، الذي درس في لايبزج، وتخرّج في إحدى جامعاتها، وصالح عبد الله مثنى وزير المواصلات، ومحمد سعيد عبد الله، وولده خلدون، كان له تأثيره في جعل هذه الزيارة من أمتع الزيارات التي قمت بها إلى ألمانيا بعد التوحيد / الوحدة؛ فبعد أن استكملت العلاج، قمنا بالتعرف إلى المدينة التي رأيتها من قبل فقط من نافذة الطائرة، وعرفت مطارها الذي يُعد من أكبر وأحدث المطارات الأوروبية، حيث نزلت فيه عدة مرات، ولعدة ساعات أو أكثر كترانزيت، أثناء سفراتي ورحلاتي الكثيرة.

بدأنا بالسير في شوارع المدينة الرئيسة، متفرجين على مبانيها ومطاعمها ومحلاتها التجارية، ومما يلفت انتباهك هنا، كثرة تعدد اللغات بين سكان المدينة، نظراً لكثرة زوارها وسواحها الذين يأتون من بلدان كثيرة، وهم من قوميات وأعراق أكثر، ثم انتقلنا إلى تفحص أدق لمعالم المدينة، بأن بحثنا وزرنا أهمها وأشهرها، ومنها كنائس كنا نقف للنظر فيها، ونجد ما يمتع النظر من مبانٍ، ولكن كنيسة صغيرة في أحد الشوارع، حازت من بينها جميعاً على اهتمامي أكثر من غيرها، وهي كنيسة القديس «بولس»، ومبناها دائري الشكل أحمر اللون، اعتلت سقفه كاملاً قبة، وعلى جانبين من المبنى الدائري، التصق به برجان صغيران (هما من ضمنه)، لهما قبتان صغيرتان في سقف كل واحد منهما، كما زرنا مبنى جوته، الذي يؤرخ حياة وأعمال أحد أعمدة الأدب العالمي وأكثرهم شهرة، وكذا، عدداً كبيراً من المتاحف، لا تسعفني ذاكرتي الآن لتذكرها، وأثارت إعجابنا مباني البنوك، فكلها قلاع حديثة الطراز، تتنافس على جمال الشكل والمظهر في ما بينها، كما أثارت جامعات المدينة إعجابنا، بما تحتله من مرافق ومساحات، وخاصة «جامعة يوهان فولفجانج جوته»، التي

أطلنا الوقوف لمشاهدتها، فوجدنا أن مبانيها ومساحاتها تعادل مباني ومساحات عشر جامعات عربية كبيرة على الأقل.

وما أذهلنا في هذه الجولات، هدوء الألمان من أبناء فرانكفورت وذوقهم الرفيع في كل شيء، والتأكيد هنا على الهدوء، لأن المدينة مليئة بالحركة الدائبة في سير السيارات والشاحنات الكثيرة على الطرق، وفي حركة الطائرات التي تظهر بين فينة وأخرى في السماء، حيث إن في المدينة اثنان من أكبر مطارات أوروبا، كما أن المدينة ملتقى عدد كبير من خطوط سكك الحديد، وباختصار، فإن ما عرفناه، أن فرانكفورت من أكثر مدن ألمانيا لالتقاء الطرق البرية وحركة الطيران وسكك الحديد، وحتى شبكة الاتصالات الهاتفية واللاسلكية، وكذلك السفن النهرية لنقل الركاب ونقل البضائع التي تراها تمخر نهر الراين بدون توقف، وقد صدّقنا ذلك، لأننا نرى المدينة كثيفة ودائبة الحركة، ولكن الأروع، أنك لا تسمع ضجيجاً ولا تُحس إزعاجاً، وهذه الظاهرة التي تبدو بسيطة وعادية، هي ظاهرة عامة جداً، لأنها تعكس أحد أهم مظاهر الحضارة الراقية: الحركة الفائقة الفاعلة، المصحوبة بالهدوء وعدم الصخب، ولماذا يعتبر هذا أحد أهم مظاهر الحضارة الراقية؟، والجواب هو: لأنه يعكس مدى هندسة التناسق، ومدى دقة التنظيم في حياة المدينة.

هالا (سكسونيا)

«هالا» مدينة في محافظة «سكسونيا»، التي هي منطقة تاريخية، وتقع على نهر «سال» طولاً، وتبعد حوالي **40** كيلومتراً من مدينة «لايبزج» الألمانية، وعدد سكانها اليوم نحو ربع مليون نسمة، وقد كانت عندما زرتها في العام الأول من السبعينيات، محافظة سابقة من محافظات ما كانت تسمى جمهورية ألمانيا الديمقراطية، اشتهرت بالزراعة وبناء التعاونيات الزراعية.

في أواخر عام **1970**م، قدم اتحاد الفلاحين الألمان إلينا عدة منح تأهيلية قصيرة، وتم اختياري رئيساً لعدد من قيادات وزارة الزراعة والمحافظات لأخذ دورة في شؤون بناء التعاونيات ومزارع الدولة، وكنت آنذاك في منصب المدير العام للتعاون والإصلاح الزراعي، سافرنا إلى هناك والتحقنا في معهد تابع لاتحاد الفلاحين الألمان، الذي كانت تلتحق به أيضاً بعثات عربية من مصر وسوريا والعراق، وكذلك من عدة بلدان أخرى، منها فيتنام، كان الدارسون يلتحقون في هذا المعهد لأخذ دورات قصيرة وطويلة، ومعظمهم من القيادات العاملة في مجال الزراعة والتعاونيات، وأذكر أننا أقمنا أوثق العلاقات مع البعثات السورية والمصرية، حيث كانت تربطنا بهم علاقات الدراسة وعلاقات شخصية بين الافراد، أقوى مما هي عليه مع الدارسين الآخرين، ذلك أن التفاهم اللغوي ميسر، بالإضافة إلى أن العادات والسلوكيات العربية والإسلامية واحدة.

وجدنا مدينة هالا جنة من جنات الله في الارض، خضرة وسهول ومروج ووديان وأنهار، مع أن البرد والثلوج أتعبني قليلاً في البداية، ولكن روعة المدينة بكل ملامحها، جعلتنا ننسى قرس البرودة وصقيع الثلوج، خاصة عندما نذهب

إلى ساحة وسط المدينة، التي تنتشر فيها المحال، وتحيط بها مجموعة من أبراج الكنائس والقصور التاريخية، أو إلى أحد القصور التاريخية، مثل قلعة «جيبتشنستين» الواقعة على تلة تطل على نهر سال، وقصر «مورتيزبورج»، أو عندما نذهب إلى المجمع الإداري الحكومي السكني المسمى «هالا نيوستادت»، الواقع على مسافة غربي المدينة، وهو عبارة عن مجموعة كبيرة من المباني الحديثة، بُنيَت قبل أعوام قليلة من وصولنا إلى المدينة.

كانت الدورات مثل هذه الدورة التي نتلقاها في هالا، تتم في3 اتجاهات: الأول نظري اقتصادي، وكان مهماً بالنسبة لكل واحد منا، لأننا تحملنا مسؤوليات كبيرة، دون أن يكون لدينا الإلمام الكافي نظرياً، والثاني كان سياسياً، إذ يخصص جزء من وقت السياسية لتدريس مبادئ الاشتراكية العلمية، وأحياناً كانوا يناقشون الطلبة بشأن صلاحية هذه المبادئ بالنسبة لبلدانهم، أما الاتجاه الثالث لطبيعة هذه الدورة وكمثيلاتها، فهي الزيارات الميدانية، حيث يؤخذ الدارسون إلى التعاونيات والمزارع الإنتاجية، بما ينسجم وما يدرسونه نظرياً واقتصادياً، حسب ما شرحته في الاتجاه الأول.

وكان الألمان الديمقراطيون كرماء جداً معنا، فبالإضافة إلى التدريس والأكل والمشرب والمواصلات المجانية، كانت تُعطَى لنا «مصروفات الجيب»، لكن تلك المصروفات للجيب، كانت ضئيلة آنذاك، بالمقارنة مع مصروفات الجيب التي كانت تُمنح للدارسين في منح البعثات الأخرى، وبالذات بعثات الأمنيين والعسكريين، حيث كانت توجد مجموعة 20 ضابطاً في منطقة شرس ليبن، وهي مدينة صغيرة، يدرس فيها الضباط المنتسبون لوزارة الداخلية، وأذكر منهم: محمد البطاني وعبد الرب علي مصطفى ومحمد محسن محمد وسالم عبد الله ياسين وأحمد سالم، كانوا يحصلون على مصروفات جيب مضاعف لما نتسلمه نحن (لا أتذكر المبالغ بالضبط، لكني أعتقد أنها في حدود 330 ماركاً شهرياً)،

وهذا التمايز في مصروفات الجيب (البوكت ماني – بالإنجليزية)، كان يغيظنا، حتى إن بعضنا كان يصرخ (أي اشتراكية هذه)، كان واقع الحال يدفعنا إلى طلب المساعدة من إخوتنا الضباط أحياناً، والاستدانة منهم في أحيان أخرى.

وأثناء الدورة التأهيلية هذه، عاد إليّ المرض الذي عانيت منه قبل عام ونصف (حصى في الكلى)، وأُجريت لي عملية جراحية في الكلى في مستشفى «هالا»، وعلى نفقة الدولة الألمانية، مع بعض العون من السفارة اليمنية، وحينها كان السفير هو الأستاذ علي عبد الرزاق باذيب، والسكرتير الأول في السفارة محمد أحمد اليافعي، وكانت سفارة عدن في العاصمة برلين، وفتحت بعد حركة 22 يونيو 1969م، وكان الألمان الديمقراطيون يقدمون المباني والسيارات والكهرباء والمياه، كمنحة لليمن الديمقراطي، بل إنهم يقدمون جزءاً من الصرفيات الإدارية للسفارة.

الآن، كيف الحال يا (هالا) بعد الوحدة والنظام الرأسمالي والديمقراطية القائمة؟.

أولتن بورج (ألمانيا)

في منطقة أولتن بورج معهد زراعي لتدريب الكوادر الزراعية، ودرس فيها عدد من الطلبة اليمنيين القادمين من عدن وصنعاء، وهي مدينة زراعية في شرق «لايبزج»، أخذت فيها دورة في القيادة الإدارية، وهو مجال كنت أتوق لتلقي تأهيل به،

كونه يرتبط بالإدارة التي هي عمليات علمية تنظيمية في جميع القطاعات الاقتصادية المختلفة، وفي تنظيم الدولة بكل أجهزتها، وحتى تدخل الإدارة أيضاً في السياسة، وعلى الرغم من أن دورة القيادة الإدارية هذه تركز على إدارة المؤسسات الزراعية والتعاونية، إلا أننا تعلمنا فيها القواعد والأسس العامة للإدارة، بما فيها تاريخ نظرية الإدارة، التي لها مدارس عدة، كل مدرسة لها رؤيتها الخاصة بها إلى الهياكل الإدارية، والصلات والعلاقات بين مجمل أقسامها ومكوناتها، وكذلك تجاه كيفية التعامل مع الناس العاملين ومحيطهم العام.

عندما وصلنا إلى أولتن بورج، التي تقع إلى جنوبي مدينة لايبزج عاصمة الولاية، وعلى بعد حوالي 45 كيلومتراً منها. وجدناها مدينة صغيرة لا يتجاوز عدد سكانها 25 ألف نسمة، وكان أن أنزلوني بغرفة في الفندق، وأنزلوا زميلي المترجم محمد فدعق في غرفة أخرى، والغريب هنا، أننا وجدنا الفندق الذي ننزل فيه خالي الوفاض، لا يوجد به أحد من النزلاء غيرنا.

ولهذه الزيارة ذكرى خاصة، لأن فترتها صادفت احتفالات ما يُسمّى «الكريسماس» و«رأس السنة»، والتي تبدأ باحتفالات الكريسماس بتاريخ 24 ديسمبر من كل عام، وتنتهي باحتفالات رأس السنة، التي تصل أوجها في آخر يوم من شهر ديسمبر، للاحتفال بمقدم العام الجديد، كتقليد سنوي لكل

المسيحيين في العالم، وكانت الاحتفالات،التي صادفناها بوجودنا، هي الاحتفال الخاص بنهاية السنة الميلادية **1972**م؛ فقد أقيم في الفندق (الخالي من النزلاء) حفل كبير، وكان الألمان، مثلهم مثل غيرهم في مثل هذه المناسبة، يحتفلون بأريحية به، حيث يقومون بالرقص وتبادل التهاني في ما بينهم، وبرفع الأنخاب بمناسبة انتهاء عام وقدوم عام، ويتناولون أطايب المأكولات، ومع مرور الوقت واقتراب ساعة الانتقال إلى العام الجديد، وهي **12** ليلاً، يزداد الصخب بين الحضور، وفي اللحظة المنتظرة، تُطفأ الأنوار للحظات، إيذاناً بانتهاء عام وقدوم عام، وعندها تكثر تبادل القبل بين الأزواج والعناق بين الأهل والأصدقاء بين الحضور، وتبادل أجمل التهاني، ويتواصل الاحتفاء بهذه المناسبة حتى ساعات الصباح الأولى، كنت وزميلي ننظر باندهاش إلى ما حولنا، فلم نكن قد ألفنا مثل هكذا وضع، وحين أُطفئت الأنوار، وجدناها فرصة للهروب إلى غرف نومنا لننعم ببعض منه، بعيداً عن الضجيج والضوضاء التي لم نألفها من قبل.

ومع ذلك، فإن أبناء هذه المدينة أكثر هدوءاً من أهالي المدن الألمانية التي زرتها، وهي كثيرة، ربما لأنهم قليلون من حيث العدد، وربما لأن مدينتهم تمتاز عن بقية المدن الساكسونية (مثل لايبزج وهالا)، بكثرة روابيها وتلالها المنخفضة، حيث تجد هنا أو هناك قلعة أثرية قديمة، ولكنها ليست بحجم القلاع التاريخية التي تراها في المدن الألمانية الكبيرة، مثل لايبزج التي مررنا بها عند قدومنا إلى هنا، وأشهر المعالم في أولتن بورج، هي «القلعة الحمراء»، وهي عبارة عن برجين مربعين متقاربين، يتصلان في أسفلهما بمبنى، ولكل منهما سقف حديدي مدبب بحدة وأسود اللون، ولكنه مختلف الشكل عن الآخر.

إذا هناك خاتمة للحديث عن هذه المدينة الصغيرة، التي كلما تذكرتها، تذكرت في نفس الوقت الدروس والمحاضرات التي تلقيتها فيها؛ فهي خاتمة لا بد من التطرق إليها، وهي أن لها تاريخ عريق، يمتد إلى أكثر من **500** عام في

صناعة ورق اللعب (الكوتشينة)، وأول مصنع حديث بني عام **1832**م، وفي عام**1923**م، أنشئ في المدينة أكبر متحف في العالم عن تاريخ الورق اللعب (الكوتشينة)، والعجيب أنني لم أرَ أبناء أولتن بورج يلعبون الورق (الكوتشينة) سوى مرة واحدة فقط، وذلك طوال مدة الدورة التأهيلية التي استغرقت شهراً كاملاً، كما أنني شخصياً لا أجيد لعبها ولا أحبه، ولذا، لم أهتم بشراء علبة واحدة منها، ولكن انظروا إلى تخصص العمل والإنتاج في أوروبا، فأبناء أولتن بورج حافظوا على صناعة ورق اللعب (الكوتشينة) منذ **500** عام، ولم يبنوا لها أكبر متحف في العالم فحسب، بل وطوروها وحسنوها باستمرار، ولعل هذه الميزة العريقة لأولتن بور»، جعلت الألمان يختارونها لعقد دورة عن القيادة الإدارية، هذا بالإضافة إلى قلة عدد سكانها، وجمالها الطبيعي، ما يخلق جواً عاماً مناسباً للإدراك والفهم.

جمعتنا في هذه المدينة صداقات مع بعض الكوادر العربية القادمة من الاتحاد الزراعي السوري، ومن مصر العربية وأفريقيا، وكان هناك طلبة من عدن وصنعاء، من أبرزهم التعاوني الكبير عبد الحافظ الحكيمي وغيره، أصبحت لهم مكانة مرموقة في بلدانهم وفي إدارة شؤونها.

صوفيا (بلغاريا)

صوفيا، هي عاصمة بلغاريا، التي كانت الدولة الأقرب إلى
موسكو، في إطار المنظومة الاشتراكية، نزلت بها في زيارات
رسمية عدة، كما شاركت في بضعة مؤتمرات عامة لحزبها
الحاكم، ولقاءات أحزاب اشتراكية عقدت هناك،

وكانت إحدى الزيارات مع الأمين العام للتنظيم السياسي الجبهة القومية، الأخ عبد الفتاح إسماعيل، وأخرى كانت برفقة رئيس الجمهورية علي ناصر محمد.

مذهل للعين والعقل، جمالها الطبيعي، الذي جمع بين شموخ الجبل من الشمال، وامتداد سهل الدانوب من الغرب، ومجرى هذا النهر المائي البديع، باخضرار الأرض، تبدو صوفيا كأنها لوحة رسمها أمهر الفنانين، امتدت المدينة في بون (حوض)، تحيط به الجبال من كل ناحية تقريباً، كما أنها هي نفسها مبنية على سطح جبل منخفض نسبياً عن سلسلة جبال «فيتوشا»، التي ترتفع في أقصاها لتطل شاهقة من إحدى النواحي على المدينة نفسها، وقد بدأ الثلج ناصع البياض في أعلاها، وفي منحدراتها الفوقية، التي تنحدر نحو الأسفل شيئاً فشيئاً، حتى تصل إلى ضواحي المدينة.

صوفيا أكبر مدن جمهورية بلغاريا مساحة وسكاناً، عندما زرتها لأول مرة، كان عدد سكانها ما يقارب ثلثي المليون، أما الآن، فيقال إنه تجاوز المليون ونصف المليون نسمة، والبلغار قوم نشطون في العمل، ولديهم خبرات عالية قديمة وحديثة في مجالي الزراعة والري، فهم من قام بأعمال استصلاح أراضي دلتا أبين (خنفر وجعار) بعد الاستقلال، وترميم وتحديث شبكات الري فيها، وقد درس وتخرج في جامعات صوفيا العليا، وفي مختلف التخصصات، الكثير من الطلاب اليمنيين، فشغلوا وظائف قيادية متعددة، منهم: الأستاذ علي صالح

أبو شامة، محمد حيدرة مسدوس، حسين محمد قماطة، والدكتور علي الأحمدي (محافظ محافظة شبوة)، والدكتور محمد سالم من أبناء الحواشب (قتل بأحداث 13 يناير 1986م)، ولو كتبت له الحياة، لكان من الشخصيات الهامة كشاعر وكاتب، والدكتور عبد الله عبد الرحمن (وكيل وزارة الصحة السابق)، والدكتور عوض بامطرف (نائب وزير الصحة السابق)، وآخرون كثيرون.

دخلتها الاشتراكية، بقيادة القائد الأممي جورجي ديمتروف، والذي سعى إلى الأخذ بالخصائص البلغارية في تجربته الخاصة، حين حاول تطبيقها على الطريقة البلغارية، وأسس نظامها وفقاً لهذه الرؤية، وبعد وفاته، أراد الاتحاد السوفييتي تعميم تجربته في بناء الاشتراكية على كل البلدان الحليفة له، فدفع بتيودور جيفكوف إلى قمة السلطة، ومن ثم، أمسك جيفكوف برئاسة الدولة وأمانة الحزب الحاكم معاً، وبلغت ديكتاتوريته حد وصول أقربائه إلى المناصب العليا، وعلى رأسهم ابنته (جيفكوفا)، التي وصلت إلى منصب وزير الثقافة، ينسب إليها في ذلك العهد، أنها أضفت مسحة تغيير في العاصمة صوفيا، كان من أبرز معالمه، الاهتمام بالمؤسسات الثقافية، وأهم ما قامت به، بناء «دار الثقافة» الحديث الجميل في وسط العاصمة، وكذلك قدمت الدعم إلى فرق التراث الفلكلوري الشعبي، وتحديث فرقة البالية الوطنية، وفرقة الأكروبات الوطنية، التي أصبحت من أشهر الفرق العالمية، والفرقة الأولى في تمثل التراث الشعبي البلغاري العريق القادم من أسلاف البلقان.

آنذاك، كان لا يغيب عن الزائر العربي لبلغاريا، كسائح أو كطالب أو كدبلوماسي أو كمسؤول في زيارة رسمية، قرار السلطات البلغارية الخاص بتغيير أسماء المواطنين البلغار المسلمين، من أسمائهم الأصلية العربية، إلى أسماء بلغارية جديدة، باللغة البلغارية، وكان هذا التصرف المتطرف، يخالف ما اتبع في بعض

البلدان الاشتراكية، التي يوجد بها مسلمون من أبناء البلد، وهو الإبقاء على أسماء مواطنيها المسلمين على ما هي عليه، عند مجيء النظام الاشتراكي.

لا شك أن تغيير أسماء المسلمين البلغار، كان يستفزنا كعرب، عند وجودنا هناك، ولكن لدى المسؤولين البلغار، كان الأمر مختلفاً، فهم كانوا يبررونه على أنه وسيلة لحماية المسلمين الأتراك من المواطنين البلغار، الذين قد يقومون بأعمال عدائية ضدهم، كونهم يشكلون الأغلبية البلقانية من سكان البلاد.

وكان البعض من المسؤولين البلغار، يبرر هذه الخطوة، بأن تعديل أسماء المسلمين البلغار، كان إجراء ضرورياً، من أجل دمجهم في المجتمع البلغاري، وبعد زمن طويل، وبعد انهيار الأنظمة الشيوعية في أوروبا، ومنها النظام في بلغاريا، اتضح من خلال مشكلة كوسوفو والبوسنة والهرسك، وأيضاً مشكلة القوقاز، أن طمس هوية المواطنين والأقليات العرقية، لا تجدي، مهما طال أمدها، وأن العدالة هي السبيل الوحيدة والأنسب إلى تحقيق اندماج الأقليات العرقية والدينية في مجتمعاتها الكبيرة، وليس عن طريق الاضطهاد وتغيير الأسماء.

كانت آخر زيارة لي إلى صوفيا، في منتصف الثمانينيات، وخلالها وجدت ظاهرة سلبية، قد توسعت كثيراً، فقد ظلت العلاقة مع بلغاريا طيبة وجيدة إلى حد ما، لكن وجدت بعض التصرفات التي عكرتها أحياناً، أو شوهت قسماً من وجهها الإيجابي، نتيجة للنشاطات التي كان يقوم بها السماسرة، وخاصة في مجال بيع السلاح، ومن هنا وهناك، والأدهى أن تلك الظاهرة السلبية، لم تشمل اليمنيين والبلغار فحسب، وإنما شملت أيضاً، بعض قيادات المنظمات الفلسطينية واللبنانية، والذين كانوا يستغلون التسهيلات المقدمة بسخاء الأيديولوجية، من قبل البلغار إلى عدن، من أجل تحقيق المكاسب والأرباح السريعة والفاحشة على حساب مصالح شعبي البلدين. وبينما كان هؤلاء

السماسرة يقومون بأفعالهم السوداء، كانوا يتظاهرون بعكس ذلك، بأن يتمادوا في المزايدة في دفع الصادقين السذج الذين آمنوا بالأيديولوجية الاشتراكية نحو مزيد من التطرف والمزايدة الثورية، وظل هؤلاء المخدوعون، الذين خدعوا من قبل السماسرة المزايدين، على هذا النحو، حتى سقطت تلك الأيديولوجية كسلطة في بلغاريا، وفي الاتحاد السوفييتي، وبقية المنظومة الاشتراكية، وهكذا، كسب السماسرة ودفع المواطنون الأبرياء ثمن سلبيات هذه الأيديولوجية.

صوفيا من المدن القليلة التي إذا زرتها تريد، وبرغبة عامرة، أن تزورها مرة أخرى، وعلى الرغم من أنني زرت المدينة عشرات المرات، إلا أنني ما زلت حتى الآن أتوق إلى زيارتها مجدداً، فالمدينة، التي يفيد التاريخيون أن عمرها يصل إلى أكثر من ألفي عام، إلى جانب طبيعتها الجذابة، وسحر نهر الدانوب، الذي تحتضنه ويحتضنها، عصية على أن تطلع على كل ما فيها، لأنها مليئة بالمتاحف رائعة المباني، وكثيرة المعروضات، وأهمها: متحف الآثار الوطني الواقع وسط المدينة، والذي لم أكمل تفحصي لمحتوياته، رغم أنني دخلته عدة مرات، وهذا الحال يتعدى نطاق مقتنيات المتاحف، إلى مباني المدينة نفسها، فكل شارع يحتوي على كذا مبنى، يبدو كل واحد منها كتحفة، وهناك مبنى جذبني كثيراً، بما يجمع من جمال التصميم القديم، وإبداع الترميم الحديث، ألا وهو مبنى «المسرح الوطني»، وهذا ما يميز البلغاريين عند صيانتهم لقصورهم التاريخية، ففي ساحة وسط المدينة، تشعر وكأنك في ساحة وضعت وسط غابة حجرية أسمنتية من القصور التاريخية المهيبة، بأعمدتها المتناسقة مع شكل المبنى، وبجمال النقوش التي تزينها، وبألوانها التي تسلب النظر، وبمنظرها العام، الذي يجعلك على يقين بأن أبناء هذا البلد يتقنون صنع الجمال.

ثمة تغييرات هائلة حصلت خلال العقد الماضي، عندما انهار النظام الاشتراكي في بلغاريا، ليأتي نظام الديمقراطية الرأسمالية، وهي تغييرات أثرت في العديد من نمط الحياة التي كان يعيشها البلغار خلال العهد الماضي.

فارنا (بلغاريا)

تُعد فارنا المدينة الثانية بعد صوفيا، العاصمة، وهي المنتجع السياحي الأول في بلغاريا، تقع شمالي جبال البلقان، وتطل على البحر الأسود، الممتد حتى طريق البسفور جنوباً، وطقسها جميل، وخاصة في أيام الصيف.

جئتها قادماً من نيويورك، بعد أن حضرت اجتماعاً للجمعية العامة للأمم المتحدة، وكان ذلك عام 1981م، لم تكن الزيارة ذات طابع سياسي يذكر، بل كانت لقضاء إجازة استجمامية للنقاهة في ربوع بلغاريا الخلابة الخضراء، وبرفقة الرئيس علي ناصر محمد، وعدد من الوزراء، أذكر منهم: الأخ علي شايع هادي، وزير الداخلية آنذاك.

تم استقبالنا في المطار بعيداً عن المراسيم المتبعة، واتجهنا من المطار إلى دار ضيافة تابع للدولة خارج المدينة، بمستوى خمس نجوم، وهو يطل على شاطئ البحر الأسود، لكن البقاء فيه لم يدُم سوى بضعة أيام، إذ إنه، وبناء على رغبة الرئيس علي ناصر، نقلنا إلى قصر آخر في وسط إحدى الغابات، ليتمكن الرئيس من ممارسة رياضة الصيد التي يحبها.

كان مرافقاً لنا في تلك الرحلة، سفير بلغاريا في عدن، السيد سمساريف، وكان يجيد اللغة العربية كأحد أبنائها، وكان معنا بمثابة المستشار للرئيس، وظل قريباً منه، بحكم خبرته بطبائعنا العربية، التي تتطلب وجود أحد أبناء البلد المضيف مع زعيم القوم، وهي الخبرة التي اكتسبها سعادة السفير من مكوثه في مدينة بغداد، التي درس اللغة العربية في إحدى جامعاتها، وعمل بعد ذلك في السفارة البلغارية في بغداد، وبعد سنوات، انتقل للعمل في سفارة بلغاريا في بيروت، وكانت له هناك علاقة واسعة مع القادة والمسؤولين اللبنانيين والمنظمات

والأحزاب اللبنانية، كما أن زوجته هي الأخرى أستاذة في اللغة العربية في جامعة صوفيا.

وللسيد سمساريف سوابق في التدخل البريء للسفراء في الشؤون الداخلية الخاصة بالبلد الذي يعملون به، ومن تلك التدخلات، على سبيل المثال، أنه كان واحداً من سفراء الدول الاشتراكية في عدن، الذين تحمسوا، وخاصة السفير الروسي السوفييتي والسفير الألماني الديمقراطي، لإعدام وزير الخارجية حينها، محمد صالح مطيع، بناء على تهم ملفقة وكاذبة، وبدون محاكمة.

وأذكر أن السفير سمساريف، وعند زيارة رئيس الوزراء البلغاري إلى عدن، لحضور أعياد الاستقلال الوطني عام 1982م، رفع بعد الزيارة، رسالة احتجاج رسمية إلى الحكومة، عن عدم وضع صورة رئيس وزرائهم في يمين الصفحة الأولى لصحيفة 14 أكتوبر الحكومية، والتي خصصت ذلك الموقع يومها لرئيس الوزراء اليمني الشمالي، الأخ عبد العزيز عبد الغني، القادم من صنعاء في نفس الوقت، ولذا، وضعت صورة رئيس وزراء بلغاريا في يسار الصفحة الأولى من صحيفة 14 أكتوبر اليومية، وقد طلب في رسالته تلك، محاسبتي شخصياً على هذه الإهانة (الأيديولوجية)، باعتبار أنني كنت وراء ذلك الترتيب للصور.

وعلى الرغم من تصرفات سمساريف المذكورة، وما شابهها، فقد كانت العلاقة اليمنية البلغارية متحسنة، نتيجة لثمار اللقاءات بين قادة الدولة والرئيس البلغاري حينها، تيودور جيفكوف، وقدمت بلغاريا مشاريع زراعية وصفقات تجارية بقروض ميسرة، منها إقامة فندق الساحل الذهبي في (جولد مور) بمنطقة التواهي، وإقامة بعض المحطات الزراعية في المحافظات، كما أسهم البلغار في إعداد وتأهيل كوادر يمنية في مجالات مختلفة، وخاصة في مجال الطب.

ربما أن الحديث عن السيد السفير سمساريف وتدخلاته المزعجة في شؤون حكم عدن قديماً، قد أنساني الحديث بما يكفي عن جمال فارنا وسحرها الطبيعي الأخاذ، وأول ما يميز طبيعة المدينة، هو شواطئ متعرجة جميلة، تفصل بين مساحات، منها المنحدرات الجبلية الخضراء، وهي مدينة سياحية من الطراز الأول، كونها تتمتع بمقومات عديدة، مما وهبه لها الله من طبيعة خلابة، ولكن أهمها، ذاك التداخل المرسوم بيد الخالق بإبداع بين الشواطئ الجميلة والجبال الخضراء المحيطة، كما أن الجو فيها معتدل عموماً، يسمح بالتجول ليلاً ونهاراً، وتتوفر في المدينة الكثير من المنتجعات السياحية المتكاملة، المتناثرة هنا وهناك في أطراف المدينة، ومنها: منتج «البينا»، أضف إلى ذلك، أنه توجد في وسط فارنا مواقع سياحية شتى، وبنايات تاريخية ومتاحف وملاهٍ، وغيرها الكثير من المعالم السياحية والتاريخية.

ولعل ما جعل فارنا قبلة للسياح من كل مكان، ما وهبها الله من تنوع طبيعي، يتمثل في جمعها بين السياحة البحرية والسياحة الجبلية، وكذلك السياحة النهرية، حيث يمر على بعد عدة كيلومترات من المدينة، نهر الدانوب، أكبر أنهار بلغاريا، والذي تقع عليه العاصمة صوفيا أيضاً، فإذا انتقلت من فارنا، ولحوالي نصف ساعة، تراه وقد شيدت على امتداد ضفتيه العديد من القرى الترفيهية ومراكز الترفيه العامة والخاصة بالعائلات، وكذا، الاستراحات والمطاعم، وعدد من مراكز السباحة ومراكز الزوارق السياحية والرياضية.

أضف إلى ذلك كله، أن المدينة تحتوي على منتجعات ومصحات علاجية كثيرة، أصبحت ذات شهرة عالمية، وقد أقيم أغلبها، حيث توجد الينابيع الجوفية المعدنية الحارة، التي توفر إمكانات واسعة وكبيرة للعلاج الطبيعي لجملة من الأمراض، وللوقاية الصحية، ولذا، تجد أن أعداداً كبيرة من السياح والمرضى، يقبلون إلى فارنا من أجل هذا الغرض، ليس من أنحاء البلد فقط،

وإنما أيضاً من بقية الدول الاشتراكية، وبالذات روسيا والأوروبية منها، ولا شك أن تلك الأعداد تزايدت، بل تضاعفت مئات المرات، مع الانفتاح الاقتصادي للبلد، الذي بدأ مع مطلع التسعينيات من القرن العشرين الماضي، ذلك أن الاستثمار الرأسمالي الذكي، لن يفوته الاهتمام بمثل هذه المواقع السياحية الفريدة، التي تجمع بين البحر والجبل والأشجار والنهر وينبوع مياه معدنية حارة، ووجوه بلغارية لا تقل جمالاً عن جمال الطبيعة حولها.

باريس (فرنسا)

عندما زار الرئيس الفرنسي فرانسوا ميتران، صنعاء بعد تحقيق الوحدة اليمنية في مطلع التسعينيات. وفي حفل العشاء الذي أقيم على شرفه، سألني: هل زرت باريس؟، فكان ردي عليه:
ـ نعم زرتها مرات، والتقيت بالسيد «جوسبان» في الحزب الاشتراكي الفرنسي عام 1976م، كما التقيت بوزير خارجيتكم «كلود سيشون»؛ فرد علي:

ـ إذن أنت تتكلم الفرنسية؟

فقلت له: ـ كنا نتطلع إلى أن نتعلمها في المركز الثقافي لـ «رامبو» في عدن، الذي تم افتتاحه العام الماضي، ولكننا جئنا الآن إلى صنعاء مع تحقيق الوحدة اليمنية، ووجدنا سفيركم يجيد الحديث باللغة العربية، ولهذا لا توجد دواعٍ الآن لتعلمها.

ابتسم الرئيس الفرنسي، ولكن الابتسامة الأحلى، كانت ابتسامة المترجمة الفرنسية اللبنانية الأصل ومن عائلة «اليافي».

وعندما ودّع العالم القرن الماضي، ودعته باريس بطريقتها ومذاقها الخاص، حين انتصب برج إيفل كعملاق يزيد طوله على 300 متر، وانطلقت منه سيول الألعاب النارية، فتحول في لحظة الوداع إلى شعلة التحفت بها ألوان الألعاب النارية التي انطلقت من ثنايا ضلوعه وأعضاء هيكله، وكأنه يريد أن يتخلص من ثقل الحديد الذي يحمله لأكثر من قرن من الزمن، لكي ينطلق ويجوب ربوع العالم، ليراه الناس كلهم، بعد أن كان عدد قليل منهم يدفعون آلاف الدولارات لكي يأتوا إلى باريس ليشاهدوه هنا، وكنت واحداً من هؤلاء في زيارتي الأخيرة لهذه المدينة، فقد عرجت على هذا البرج، وصعدت أدراجه

المتعبة، ووجدت بنية البرج كما كانت دائماً شامخة، لم تنَل من شموخها عوامل التعرية الطبيعية أو العوامل السياسية أو الحروب المدمرة السابقة، وخاصة الحرب العالمية الثانية، وأدركت وأنا على قمته، كم كانت عظمة الشعب الفرنسي، وكم كانت قدراته العلمية والصناعية في إنشاء كهذا المعلم.

عند زيارتي لباريس الأخيرة في عام 1999م، وجدت وقتاً كافياً لتفحصها، تفحصها مقارنة بزيارتي الأولى لها قبل نحو 23 عاماً، لاحظت توسع شوارع المدينة وامتدادها المترامي بعيداً من بداياتها على ضفتي نهر «السين»، الذي تقع عليه، وهو الذي جعلها من أهم الموانئ النهرية في فرنسا، لقد توسعت المدينة التي أصبح عدد سكانها يقارب نحو مليونين وربع مليون نسمة وفي جميع الاتجاهات، كما سمح لي الوقت هذه المرة لزيارة أماكن أثرية وعامة عدة، ربما ضاع بعض من ملامحها في سفر الحياة، ومنها ساحة «الكونكورد» وكنيسة «نوتردام» في موقعها البديع على ضفة نهر السين، وتجولت في صالات عدة من متحف «اللوفر»، ورأيت أيضاً مسلة «كليوباترا»، والجديد الذي رأيته عن بُعد، قسماً من مرافقه هذا العام (1999م)، هو محطة النفق البحري الذي يربط بين كل من باريس ولندن عبر بحر المانش، والذي بدأ العمل به (بداية الرحلات عبره) في عام 1994م، وقد عبرته برفقة أخي علي إلى لندن في عام 1996 بواسطة القطار.

كانت أول زيارة لي إلى مدينة العلوم والفنون، بدعوة تلقيتها من حزبَي فرنسا اليساريين (الحزب الاشتراكي – الحزب الشيوعي) عام 1976م، وكانت لتوثيق الصلات والروابط الحزبية بين التنظيم السياسي الجبهة القومية (حزب اليمن الحاكم – عدن)، وحزبَي اليسار في ذلك البلد الرأسمالي، قابلت خلالها السيد جان كاتيا، عضو المكتب السياسي للحزب الشيوعي الفرنسي، والسيد جوسبان، سكرتير العلاقات الخارجية للحزب الاشتراكي الفرنسي. واللذين

نظما لي برنامج نزول وزيارة مناطق نفوذهما في مناطق العاصمة باريس، كي أتلمس عن كثب قدرتهما على خوض الانتخابات القادمة. كان الحزبان الفرنسيان – الشيوعي والاشتراكي – على خلاف مع السياسة السوفييتية والحزب الشيوعي السوفييتي ذات التوجه المتشدد، من وجهة نظر الفرنسيين؛ فاعتقدت أن هذا الموقف مستمد من روح المدينة التي تميزت في كل تاريخها بروحها الثورية المتحررة، وظهرت هذه الروح في كثير من الأحداث التاريخية، وخاصة ثورات **1789** و**1830** و**1848**م، ولكن موقفهم هذا كان أوسع مما تخيلته، فحتى نحن كنا في نظرهم من الأحزاب الواقعة تحت تأثير السياسة السوفييتية المتسلطة، ولهذا كله تحدث معي جان كاتيا حديثاً صريحاً حول هذه المسألة، وبدأه بالقول:

. أي عقل لدى هؤلاء الروس، يملكون القنبلة الذرية والصواريخ العابرة للقارات، والسفن الفضائية، غزوا الفضاء كأول دولة، وفشلوا في إقناع المنشق سيولجستين، وقدّموا للإعلام الرأسمالي أفضل سلاح فهاجمنا عندما طردوه، نحن لا نملك مثل تلك القوة، وليس لدينا هذه الصواريخ، ولا أجهزة مرئية ولا مسموعة، لكننا نقارع البرجوازية الفرنسية في عقر دارها، وتضطر إلى قبول التعايش معنا، والتسليم بمطالب الطبقة العاملة الفرنسية العمالية.

عقدنا لقاءات عديدة في مقر الحزبين، وهو من أجمل البنايات في باريس، وصممه أبرع المهندسين المعماريين المكسيكيين، وفقاً لأحدث الطرازات العصرية، وما لفت انتباهي في المقر، هو أنه رغم حرية المرأة ومساواة المرأة بالرجل في فرنسا، إلا أن الحزبين يمنعان دخول النساء إلى المقر أثناء الليل، وكان معي في الرحلة الأستاذ صالح حسن، عضو المكتب السياسي (المرشح) للتنظيم السياسي الجبهة القومية، وهو أصلاً من حزب «اتحاد الشعب»، الذي انضم

إلى الجبهة القومية، وكنت حينها سكرتير العلاقات الخارجية في تنظيم الجبهة القومية.

أما الزيارة الثانية إلى باريس، فكانت عام 1977م، وجاءت بدعوة من صحيفة الـ«لومانتيه» الفرنسية المشهورة، وفي ذكرى عيدها السنوي الذي اعتادت على إقامة مهرجان سنوي عالمي فيها، يحضره أكثر من مليون فرنسي، إضافة إلى المدعوين من أقطار كثيرة، وكانت هذه الصحيفة تقيم معرضاً مفتوحاً للمشاركة مع صحف كثيرة، تُعرض فيه أنواع الفنون الثقافية والتراث للبلدان المشاركة، وقد شاركنا – نحن اليمنيين – بفتح جناح معرض لـ «صحيفة الثوري» لسان حال التنظيم السياسي الموحد الجبهة القومية، وقمنا فيه بعرض المنتجات الفضية والخزفية، وبعض الحلي المنقوشة ذات الإرث القديم.

وكان يعود الفضل في تلك المشاركة لسفيرنا هناك، الأخ محمد عبد القادر بافقيه (أول وزير للتربية والتعليم بعد الاستقلال)، ويرجع اهتمامه إلى عشق متأصل في نفسه، وتخصصه العالي في علم الآثار والنقوش والتراث اليمني القديم، وقد أصدر أكثر من كتاب عن هذا المجال، ونُشرت له دراسات كثيرة، وأسهم في ذلك أيضاً الأستاذ محمد البيحي مدير دائرة الإعلام الخارجي في وزارة الخارجية، الذي كان مرافقاً معي في هذه الزيارة.

وفي سنة 1981م، توجهت إلى نيويورك لحضور اجتماع الدورة العامة للأمم المتحدة، فمررت بباريس، وقابلت وزير الخارجية الفرنسي السيد كليود سيشون، ولمدة نصف ساعة، وعلى الفطور فقط. كانت المقابلة غير كافية لشرح الأوضاع في كل من جيبوتي وإثيوبيا والصومال، التي تنال الاهتمام الفرنسي، والتي كانت أوضاعها حينها في حال سيئ متفاقم جداً، لأن الترجمة لما يدور بيننا أخذت جُل وقت الحديث المتفق عليه، كما أن القضية الفلسطينية واللبنانية أخذت جزءاً من الحديث المقتضب حينها.

وعموماً، كان الموقف الفرنسي يسوده الفتور في علاقاته باليمن الديمقراطي قبل دخول شركة «ألف» الفرنسية للتنقيب عن النفط، لكن الاهتمام الثقافي والتاريخي – وبالتحديد البحث في آثار شبوة ودراسة حركة القرامطة – هو ما يعطونه جُل اهتمامهم، فعلى سبيل المثال، وفي بداية السبعينيات، قام السفير الفرنسي في تونس وزوجته بزيارة منطقة يافع للبحث عن تاريخ القرامطة، والتقطا خلال زيارتهما كثيراً من الصور الفوتوغرافية، وصور فيلماً تلفزيونياً عن ذلك، والفيلم صور بعنوان «الاشتراكية قبل ألف عام»، ويشرح فيه دور القرامطة وبقاياهم، وأيضاً العادات والتقاليد القائمة في المنطقة، ومترجم الى اللغة الألمانية. وعن الاهتمام الثقافي الفرنسي باليمن الديمقراطي، فقد كان ذلك جزءاً من الرؤية السياسية ذات الأبعاد التاريخية عند الفرنسيين. ومثلما كانوا حريصين على تنمية العلاقة بين اليمن وفرنسا، من خلال تواصلهم في كل المجالات ذات الاهتمام المشترك، كانوا (إلى جانب الثقافة)، يرون القضية الفلسطينية بأبعادها القومية، نظرة تختلف عن دول أوروبا، لذا، فقد اختاروا الصحافي السابق في الـ«لوموند» سفيراً لهم في تونس.

وباريس بسحرها الخلاب، وبعراقتها التاريخية والثقافية، تجعلك تتمنى العيش فيها، لأنها تسلبك الوقت، حيث لا تشعر فيها بالملل أو الحيرة، من أنه ليس هناك مكان للذهاب إليه، فحتى لو لم تجد مكاناً، فإن شوارعها كفيلة بإمتاعك، وأذكر هنا أنها المدينة التي أغلب شوارعها مرصوفة بالحجارة، بما في ذلك شوارع رئيسة، وهذا كان ممتعاً لي أثناء السير، إذ كنت أقول لنفسي: كم لدينا من الحجارة بأنواعها المختلفة في اليمن، ولكننا لم نستفد منها في رصف شوارعنا، وفي المنطقة الجبلية التي ولدت فيها، يقولون إن بقاء الطريق كما هي بالحجارة والصخور المتناثرة، أكثر فائدة للماشي ولصحته، والحقيقة أنني استغربت قبل أيام (بداية مايو **2009**م)، عندما قرأت أن استطلاعاً قامت به

شركة الاستشارات السياحية الأوروبية (تريب أدفايزرز)، إذ أشار ذلك الاستطلاع إلى أن باريس أفضل مدن أوروبا من ناحية الأطعمة، بينما لندن أسوأها، وأنا أعترف أن الفرنسيين يهتمون بمظهر الأكل أمام الآكل، ويضعون الأطباق وكأنها رسوم فنية، ولا يهتمون بتوفير الطبخات من البلدان الأخرى، وربما كان هذا ما منحها الأفضلية من بين مدن أوروبا من ناحية الأطعمة، ولكنها تأتي بعد لندن مباشرة من ناحية توفر الحدائق، وذلك كثاني مدينة أوروبية بهذا الصدد، ولكني لا أرى صحة كاملة في مثل هذه الاستطلاعات، لأنه في رأيي، أن لكل مدينة شخصيتها الخاصة، نكهتها الخاصة، أشياء تميزها عن غيرها من المدن، من الصعب وصفها.

ومن تلك الأشياء التي تميز باريس عن غيرها من المدن، هي نكهة الحرية الإنسانية التي تفوح هنا أكثر من أي مكان آخر، وأعتقد أن هذه النكهة هي التي جعلت من هذه المدينة، وما زالت، منجى الكثير من العقول المفكرة العربية الهاربة من التعسف الجسدي والفكري في الوطن العربي، عرفت منهم: محمود أمين العالم، المفكر العربي المصري، وميشيل كامل، وفواز طرابلسي، ثم الشاعر العراقي، والذي عمل في سفارتنا هناك: شوقي عبد الأمير، وبشير البكر، وغيرهم من الكتاب والمفكرين العرب.

باريس رئة للحرية الإنسانية في عالمنا العربي، فمنها تصدر الكثير من المطبوعات والصحف والمجلات العربية، بحيث يصعب حصرها، وفيها كثير من السياسيين الذين جاءوا إليها، طمعاً في تنفُّس الحرية التي لا تتوفر في بلدانهم، وهذا الدور أقل خطورة مما كانت تلعبه المدينة في الماضي؛ ففي تلك الأيام، أصدرت العديد من الصحف والمجلات العربية، مثل اليوم السابع، اليسار العربي، الوطن العربي، وغيرها، وعلى سبيل المثال، كان لذلك الوجود الإعلامي والثقافي العربي، تأثيره البالغ في توجيه أنظار الفرنسيين نحو القضية الفلسطينية

والقضايا العربية، وكسب تعاطفها في كثير من المواقف التي ما كانت لترضي المخابرات الإسرائيلية، وكانت سفارتنا في باريس من أنشط السفارات العربية في دعم مثل تلك الاتجاهات المناهضة لإسرائيل، ولذا، لم تسلم من صواريخ (آر – بي – جي) الموجهة، والتي أصابتها، فاخترقت الدور الرابع من مبنى مكاتب السفارة، وسلمت الأسر التي كانت تسكن في الأدوار الأخرى من أذى الشظايا التي دمرت المكاتب بكاملها، وأحرقت محتوياتها. وكان معلوماً للجميع، أن مخابرات «الموساد» الإسرائيلية في ليلة من ليالي باريس الدهماء، ويومها قال أحدهم: ليت فلسطين على حدودنا.. ليتهم قريبون منا.

كان ذلك ما كتبته عن باريس قبل عقدين من الزمن، التي تعيش هذه الأيام تحت تهديد الإرهاب والعمليات التي جرت وقتلت عشرات الأبرياء.

مع ذلك، تظل باريس هي باريس.

بـرن (سويسرا)

زرت برن عاصمة سويسرا، بعد أن توليت وزارة الخارجية في عدن عام 1980م بعدة أشهر، لحضور فعالية دولية هناك، لا تسعفني الذاكرة لتذكرها الآن، وقد حرصت شخصياً على السفر إلى هذه الفعالية لأهميتها،

أولاً، لأنني كنت أرغب دائماً في زيارتها، لما سمعت من أحاديث جميلة عنها، وثانياً، لأن سويسرا تعد أحد المحافل الدولية، التي يوجد فيها بعض مقرات منظمات دولية، وتعقد فيها لقاءات دولية متعددة، إذ كانت إحدى نقاط التواصل بين الشرق الذي يميل إلى الاشتراكية، والغرب الرأسمالي.

والمشاهدات في سويسرا، أو بالأصح في مدينة برن عاصمتها، لأنني لم أخرج عن نطاق المدينة وضواحيها، كثيرة جداً، التي تبقى في الذاكرة لها كمدينة، فبرن العاصمة رابع أكبر مدن البلاد من حيث عدد السكان، بعد كل من زيورخ وجنيف وبازل، وكنت أسمع أيضاً عن المدينتين الأولى والثانية قبل زيارتي، ولكنني لم أسمع باسم المدينة الثالثة، إلا إثناء زيارتي تلك، وقد صارت هذه المدينة مشهورة، لأنها أصبحت واضعة قواعد وأسس عمل البنوك، والتي صارت تسمى «بازل – 1» و«بازل – 2» وهكذا.

وتقع «برن»، التي هي أيضاً عاصمة مقاطعة من مقاطعات الاتحاد السويسري تحمل نفس الاسم – على نهر جميل، اسمه نهر «الآر»، حيث تنتشر وسطه بداخل جزره وعلى ضفافه، وتمتد إلى السهول والمنحدرات. وما زلت أذكر أنه تكثر فيها الجسور الحديثة والقديمة، والحدائق الخضراء خضرة لم أرَها في مدينة غيرها قط من قبل، مع أن المدينة تعتبر كلها حديقة، حيث لا ترى بقعة تراب هنا، أو حتى شجرة صفراء أو ما شابه. وعندما رأيت كل هذه الخضرة،

عرفت لماذا أطلق أحد الأدباء العرب، على أكثر المناطق اليمنية خضرة (محافظة إب)، تشبيهاً بأنها «سويسرا اليمن»، والحقيقة هي أنه يمكن التشبيه هنا، ولكن من الصعب المقارنة.

والإنسان السويسري هادئ، وهو أهدأ من الإنجليزي، الذي يبدو هادئاً، ولكنه عصبي جداً إذا غضب، وتقريباً كل أبناء المدينة من ذوي التعليم العالي، ومحبون للثقافة والفن، كما أنهم عمليون جداً، وتجد انضباطهم بما يبرمجونه من أعمال، وقد رأيت تلك الدقة في الفعالية الدولية التي حضرتها، فحتى كراسي أعضاء المؤتمر، دونت عليها الأسماء، بينما تجد في كثير من المؤتمرات والفعاليات الدولية، أنهم يكتفون بوضع اسم البلد أمام مجموعة من الكراسي، وما شابه، من تنظيم يجعلك تأخذ انطباعاً بأن أبناء برن وسويسرا، لا يتركون صغيرة أو هيئة إلا ورتبوها ونظموها، وربما كان السبب في ذلك، خبرتهم الغنية في عقد المؤتمرات والمعارض والمهرجانات الدولية، وربما كان هذا مرتبطاً بهدوء المدينة التي تخلو من الضجيج والفوضى حيثما ذهبت، وربما ساعد على ذلك حجم سكانها؛ فحين زرتها، كان عدد سكانها لا يتجاوز المئة وخمسين ألف نسمة، يتحدثون عدة لغات، وعندما كنت أتجول في المدينة، قيل لي إن اللغة الأساسية هنا هي الألمانية، ولكن جميع اللغات الأوروبية متداولة هنا، وبالذات الألمانية والإيطالية والفرنسية، لأن فرنسا احتلت هذه البلد لفترة من الزمن.

هذا البلد كان دائماً محط احترام جميع الناس، لأنه يمتلك مقومات وقيماً خاصة به، فهو مثلاً دولة محايدة أثناء الحرب العالمية الثانية، وفيها نظام حكم ديمقراطي ناجح، وخالٍ من الأزمات التي كانت تشهدها دول الديمقراطية الأوروبية الأخرى، إضافة إلى ذلك، فإن من أسرار قوتها، التناغم والتفاهم بين أبنائها، كبلد متعدد ومتداخل القوميات. وكذلك فاعلية الحكم فيها كنظام

ديمقراطي قائم على الفيدرالية الصحيحة والسليمة بين عدد من المقاطعات السويسرية، والتي يسمونها هنا «كانتونات».

هذا البلد يهتم بالثقافة والأصالة والتراث، فقد زرنا في برن أحد المسارح، وزرنا أحد المتاحف، والحقيقة أن المدينة كلها متاحف، حيث يقال لك هذا المبنى قبل ألف وكذا سنة، وهذا المبنى بني قبل خمسمئة سنة، وهكذا، ولكنك ترى وكأن تلك المباني بنيت قبل سنوات قليلة جداً، فكلها متينة وجميلة الشكل، وأجملها، تلك الكاتدرائيات القديمة، أيضاً زرنا برج «زيتجلوج» بساعته الأثرية الرائعة، التي تعكس إتقان السويسريين لصناعة الساعات منذ قديم الزمان، ولكنني لم أرَ مصنعاً للساعات أثناء وجودي في المدينة، بل إنني لم أنتهز الفرصة لشراء ساعة سويسرية، وربما أنني خشيت إن ارتديتها في عدن، فيقال عني: ها هو يرتدي ساعة بورجوازية فاخرة، ولكنني اغتنمت الفرصة في برن، وزرت «بيت أينشتاين»، ذلك العالم العبقري، الذي أتحف العالم بعدة اختراعات عظيمة، وهو قد مكث سنوات في هذه المدينة، فلم تنسَه هي، بل كرمته بإقامة بيت خاص لذكراه، وهذا ما جعلني أفكر كيف أنهم في سويسرا وأوروبا، يحترمون ويقدرون أصحاب العقول من أبنائهم، بينما لا نجد مثل هذه المعاملة لأصحاب العقول في عالمنا العربي، فهناك نصفهم يصابون بالجنون من جراء الإهمال، والنصف الآخر يهاجرون إلى أمريكا وأوروبا من جراء الأذى.

لشبونة (البرتغال)

قيل لنا، ونحن نقف على تلة، إن مدينة لشبونة، تقع على 7 تلال متلاصقة تقريباً، ولم نلحظ ذلك أثناء تجوالنا فيها، أو حتى أثناء وقوفنا على أحدها، وهو الموقع/ التل الذي توجد عليه الصومعة التاريخية المسماة «بيليم»،

التي شيدت قبل 1500 عام، للدفاع عن ميناء لشبونة، وقد تذكرت «بيليم»، لأن المترجم قال لنا إن أصل هذه الكلمة بالعربية معناها «بيت لحم»، وهي المنطقة التي انطلق منها الرحالة المشهور «فاسكو دي جاما» في رحلته البحرية، التي اكتشف في نهايتها رأس الرجاء الصالح.

حضرت إليها عدة مرات، تلبية لدعوات لحضور مؤتمرات لأحزاب صديقة، وفي كل مرة، كنت أتذكر الأندلس وماضي البرتغال القريب، وأقول قدمنا إلى البرتغال من عدن، ولم تجئ إلينا هي، بعد انحسار حقبة الغزو الاستعماري الأوروبي لبلداننا، فليس بيننا وبين البرتغال من علاقات سوى ذكريات تلك الغزوات التي قاموا بها على بلادنا، وبالذات، على الشحر وعدن وجزيرة سقطرى، ومن لشبونة العاصمة البرتغالية، وهي الميناء الذي انطلقت منه السفن الحربية البرتغالية، لغزو الكثير من بلدان العالم، بما فيها اليمن، التي هزمت هذه السفن في معركة «الشحر»، وما زالت آثار الأحداث التاريخية وضريح الشهداء السبعة في مدينة الشحر في ساحل حضرموت، شاهداً على ذلك.

ها نحن قادمون إليها في زيارة مطولة من بوابة التضامن والتعايش بين الشعوب، والتعاون بين حركة التحرر الوطني، والحركة العمالية العالمية في ذلك الوقت، جئنا لها هذه المرة، بدعوة من يسارها، الذي كاد أن يصل إلى سدة

الحكم بعد سقوط الديكتاتورية فيها، وقبلها في إسبانيا واليونان، ولولا الفيتو الأمريكي، الذي زال واختفى بمجرد سقوط النظام الاشتراكي في أوروبا الشرقية، لوصلت هذه الأحزاب إلى سدة السلطة في بلدانها، فها هو نفس اليسار يصل إلى سدة الحكم في إيطاليا وفرنسا وإسبانيا وألمانيا، وها هي تتشكل أبعاد الطريق الثالث، الذي تحاول أن ترسمه أحزاب الاشتراكية الديمقراطية، وبالصدارة حزب العمال البريطاني، بعد التغييرات البرنامجية التي أجراها توني بلير حينها، والحزب الاشتراكي الفرنسي، والحزب الألماني الديمقراطي، والحزب الديمقراطي الأمريكي، والتي تم بناؤها على نقيض الأممية الثالثة، التي كانت بعض الأحزاب الشيوعية والعمالية الأوروبية منضوية تحت راياتها.

كان الحزب الشيوعي البرتغالي، وأمينه العام الذي قضى في السجن 18 عاماً، هو الأقرب في ذلك الوقت إلى موسكو، وكذلك الأقرب إلى السلطة في البرتغال، التي شهدت تحولات لصالح اليسار، الذي مد أيضاً شبكة علاقات واسعة بالأحزاب والحركات التقدمية في آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية.

في عام 1979م، وفي أواخر عملي سكرتيراً للعلاقات الخارجية للحزب الاشتراكي اليمني، زرت البرتغال على رأس وفد ضم في عضويته، الأستاذ صالح حسن محمد، عضو المكتب السياسي المرشح ورئيس الرقابة الحزبية، وكانت الرحلة إليها، في إطار جولة أوروبية شملت فرنسا وإيطاليا وبريطانيا والبرتغال، أجرينا خلال الرحلة عدداً من اللقاءات مع قادة الأحزاب الاشتراكية والشيوعية في هذه البلدان، وما أثار دهشتنا آنذاك، أن معظم هذه الأحزاب، وخاصة الحزبين الشيوعيين الفرنسي والإيطالي، تعارض سياسة الاتحاد السوفييتي والحزب الشيوعي السوفييتي، وترفض منطلقاته النظرية التي اعتبروها نسخة مكررة من القمع الستاليني، الذي مورس في حق شعوب الاتحاد

السوفييتي، وما أثار دهشتنا أكثر، أن الحزب الشيوعي البرتغالي، كان على العكس تماماً من تلك الأحزاب، وبالأخص موقف أمينه العام المؤيد لموسكو.

كان العرب يسمون لشبونة بـ«الأشبونة»، وأعتقد أن اسم المدينة جاء من تلك التسمية، ولكن ما أثار الدهشة في نفسي، أنني عند إحدى زياراتي لها، سمعت أن البرتغال تسمى بـ (يمن أوروبا)، كيف جاءت هذه التسمية؟ لا أدري، هل لدخول العرب إلى الأندلس وبعض أجزاء أوروبا علاقة بذلك؟، أم لأن البرتغال فقيرة، مقارنة بدول الاتحاد الأوروبي، كما هو حال اليمن في الجزيرة العربية؟، لا أدري، ربما هذا وربما ذاك، وربما كان سبب التسمية شيئاً آخر. ما أعلمه، هو أن التاريخ متداخل، وموسى بن نصير وجيشه، اعتمد في دخوله الأندلس على اليمنيين الأشداء!، والتسمية المذكورة، وغيرها أسماء كثيرة وآثار لا تحصى في لشبونة والبرتغال ككل، لا بد أن تجعلك تفكر بالماضي البعيد للوجود الإسلامي، فلإسم الأندلس وقع السحر على كل عربي، وعندما كنت أتجول في لشبونة، كنت أبحث في كل لحظة عما يشير إلى صلتها بذلك العصر الأندلسي على هذه الأرض، ولكن لم يعد في لشبونة الكثير مما يشير إلى تاريخها الإسلامي القديم، وهي التي فتحها القائد الإسلامي موسى بن نصير عام 714م، وأصبحت واحدة من المدن الإسلامية الهامة في الأندلس، وفي فترة تاريخية ما، استعادها «النورمانديون»، وجعلوها منطلقاً لشن الهجمات على الحكام المسلمين، ثم طُردوا منها بعد مدة، وفي نهاية الصراع بين المسلمين والمسيحيين في الأندلس وسقوط قرطبة، وتشتت الأندلس في إمارة ودويلات وطوائف صغيرة، استولى البرتغاليون على لشبونة، التي كانت تحت حكم أحد الأمراء المسلمين الصغار، ويدعى «المتوكل بن الأفطس».

ومن المهم القول هنا، إن تاريخ لشبونة، التي يصل عدد سكانها اليوم إلى حوالي 600 ألف نسمة، لا ينحصر في تلك الحقبة الإسلامية – القصيرة

نسبياً – فهي مدينة لها دورها وصفاتها الخاصة عبر التاريخ الأوروبي العريق، وتعلم بذلك وتراه من خلال زيارة عدد مما تضمه المدينة من الآثار والمتاحف والساحات التاريخية والكاتدرائيات، وغيرها من شواهد التاريخ الجميلة المعبرة، بما فيها بقايا من بقاياه، إلا وهو ما يتعلق بالحقبة الإسلامية للمدينة.

ولا يفوتني في الأخير، أن أذكر حدثاً ظل في الذاكرة منذ تلك الزيارة، حيث كان من اللافت لنظرنا، وما نال قسطاً من إعجابنا في لشبونة، هو تنظيم مهرجان جماهيري حاشد في إحدى الحدائق العامة، خصص كفعالية شعبية لدعم القضايا العربية، وبالذات القضية الفلسطينية، إنه دعم بالمجان، وبدون تكاليف ندفعها نحن العرب، والأدهى أن الإخوة العرب لم يشعروا أو يحسوا بهذا الدعم حينذاك، وربما أنهم عرفوا ولكن لم يهتموا، وبعد انهيار المعسكر الاشتراكي ومجمل التطورات والتغيرات السياسية، انتهى مثل هذا التضامن المجاني، وحل محله التضامن مع القضايا العربية المشترى عداً ونقداً، أو المشروط مسبقاً؛ فهل أنسى فرح انهيار الاشتراكية بعضنا، ما كانت تقدمه دول المنظومة الاشتراكية من دعم للقضايا العربية، وخصوصاً للقضية الفلسطينية، وفي الحقيقة أن العرب خسروا دعماً مهماً عند انهيار هذه المنظومة الاشتراكية، بعضهم فرحوا حقاً عند انهيار النظام الشيوعي، العدو اللدود، ولم يجدوا تعويضاً بعد لهذه الخسارة، وآخرون فهموا الخسارة التي ستقع، ولكنهم تظاهروا بالفرح خوفاً من أمريكا، وفقاً للمثل القائل «إذا حلقوا لجارك بلل شعرك»، أما إسرائيل، فقد استفادت، لأن حليفتها أمريكا انفردت بالساحة الدولية، وصارت القوة الوحيدة المهيمنة في العالم، وفقاً للمثل القائل «مصائب قوم عند قوم فوائد».

مرت 3 عقود من زيارتنا إلى البرتغال، وحصلت فيها تغيرات هامة، وخاصة بعد إقامة الاتحاد الأوروبي، بمزاياه وسلبياته، ودخول البرتغال عضواً فيه، وأصبحت ظاهرة الإرهاب والهجرة، ما يؤرق البرتغال ودول الاتحاد الأوروبي، بل والعالم بأسره.

رومـا (إيطاليا)

كانت إيطاليا عبارة عن مقاطعات متعددة، يحكمها النبلاء والدوقات، استطاع أن يوحدها القائد العسكري (الكونت كاميلوكافور)، لتكون روما عاصمة لتلك المقاطعات المتوحدة، ولتبدأ من يومها سجلاً تاريخياً مليئاً بالحروب والبطولات، ومثخناً بالدماء، ولكن كل مملكة وكل ملك، حمل إليها ذكرى أو صرحاً شامخاً أو تمثالاً، ما تبقى منه إلا القليل.. إنها روما، ومن لا يعرف روما، فهي أشهر المدن القديمة على الإطلاق، وهي اليوم من أشهر وأجمل مدن العالم، وهل هناك مدينة أشهر منها على مدى كل العصور المتعاقبة؟، إن الجواب يقول إن روما هي الشابة الجميلة التي لم تشِخ منذ آلاف السنين، مناخها مناخ دول البحر المتوسط، معتدل مائل للبرودة، وتقع على سبعة تلال بركانية، وفي الحوض الأدنى لوادي ونهر «التيفيرا» وعلى ضفته اليسرى.

هذه المدينة ذات التاريخ العريق، ومدينة العصر والتطور الحديث، التي يزيد سكانها على **3** ملايين ونصف المليون نسمة، مدينة تعج بالحركة، وتزخر بكل ما هو جديد، ولا تقل منافسة لأشهر العواصم الأوروبية، مثل لندن وباريس، إن لم تكن تزاحمها بمتاحفها العريقة، وبسباقها المحموم في الموضة. تلقيت دعوة من حزبيها اليساريين (الحزب الشيوعي الإيطالي والحزب الاشتراكي الإيطالي) في عام **1979**م، فزرتها بناءً على دعوتيهما، وقضيت بها **6** أيام، مقسمة بالتساوي وبالعدالة، **3** أيام على ضيافة الحزب الاشتراكي، ومثلها على ضيافة الحزب الشيوعي، قبل أن نتعرف إلى المدينة التي يتمنى أي شخص في العالم أن يتعرف إليها، تعرفنا إلى أوضاع الحزبين اللذين استضافانا،

وما حققاه من نجاحات متوازية مع الأحزاب اليمينية الحاكمة في محيطهما، والتي كانت تتربع على كراسي الحكم في أغلب بلدان أوروبا الغربية.

ولمست أثناء الحديث والمناقشة حول تجربة الحزبين، إصرار الحزبين على الوصول إلى الحكم في إيطاليا، نظراً لشعبيتهما بين أوساط الناس في البلد، والتي كانت تظهر واضحة في الانتخابات، لكنهما، وفي ظل وجود الاتحاد السوفييتي والمنظومة العالمية التي يتحكم بها، وسياسته المتشددة، قبل ظهور رؤية التجديد (البروسترويكا)، ورؤية العلانية (الجلاسنوت)، لم يتمكن هذان الحزبان من الوصول إلى السلطة بسبب ذلك، ولسبب آخر لا يقل عنه أهمية، وهو وجود الفيتو الأمريكي ضدهما من تحقيق هذا الهدف، حتى وإن كان عن طريق الانتخابات.. إنما، وفي منتصف التسعينيات، تمكن الحزبان المذكوران، من الفوز في العملية الانتخابية، وبدأت الأحزاب اليسارية الأوروبية تظهر وتتقدم، وتحوز على كثير من المواقع السياسية في معظم دول أوروبا الغربية، بل وتصل إلى سدة السلطة في عدد من الدول، ولكن هذا لم يتحقق، إلا بعد أن قامت تلك الأحزاب بتعديل برامجها السياسية الحزبية، بما يتلاءم واتجاه الشعوب المتحضرة، وأقول هذا، لأن الاتجاه السابق الذي كان يهيمن على برامجها، وهو اتجاه الصراع الطبقي، كان هو المعيق الأول لها، وخاصة بعد فشل التجربة في دول الاتحاد السوفييتي وتفككه، وتفككها.

قابلت في هذه الرحلة، مسؤولي الحزبين، ومنهم سكرتير اللجنة المركزية للحزب الاشتراكي الإيطالي، والذي حاول إكرامنا على الطريقة الإيطالية بشراب يدعى (صامبوكا)، وهو مشروب إيطالي مع حبة (البن)، وقال إن ذلك عرفاناً ورمزاً للضيافة «العربية – الإيطالية»، ففصلنا حبة (البن) القادمة من الجبال اليمنية بأريجها ونكهتها، وتجنبنا (الكحول) المعتق ببلدانهم.

ولا بد من القول إن علاقتنا مع مثل تلك الأحزاب كانت شكلية ومظهرية، وقد حاولت هذه الأحزاب (ومنها الحزبان المذكوران)، تقديم مساعدات طبية لنا عبر منظمات محلية ودولية غير حكومية، ولم تنجح في ذلك، ولكنها نجحت في تقديم مساعدات طبية للصومال آنذاك، لكن كان من نتائج مثل هذه العلاقات، بعض الفعاليات الثقافية، وأهمها زيارة الكاتب والمفكر العالمي الإيطالي ألبرتو مورافيا إلى عدن في منتصف الثمانينيات، حيث استُقبل هناك استقبالاً لائقاً، عكس تعلق اليمنيين بالقراءة وفنون الأدب، وقد قام ألبرتو مورافيا في زيارته تلك، بزيارة معالم عدن، مثل صهاريج الطويلة التاريخية، وتجول في أحياء عدن، وتحدث مع أبنائها، كما قام بزيارة إلى محافظة حضرموت (الوادي)، وزار مدن الوادي، ومنها تريم وشبام وناطحات السحاب الطينية فيها، وأذكر أنه عندما سئل عن أهداف زيارته ، قال إنه جاء من أجل أن يشم رائحة البن، ويذوق القهوة اليمنية، إلى جانب التأمل في ثقافة اليمن، ورؤية ملامح من حضاراتها القديمة، بالإضافة إلى أنه قدِم إلى عدن، ليتعرف مباشرة إلى الإنسان في اليمن.

وبعد انتهاء اللقاءات والاجتماعات والزيارات الحزبية والخطابات، وبعد أن كثُر الاستماع لأشياء في معظمها معروفة، أو من باب المجاملات والحديث عن المستقبل الذي ستوفر فيه الاشتراكية كل ما يريده الكادحون من مأكل وملبس وسكن وسياحة وتعليم وصحة ونزهة، وغيرها وغيرها، وبعد هذا كله، استطعنا أن نرى المدينة في جولات خاطفة، وفقاً لبرنامج مكثف أيضاً، أعده الرفاق الإيطاليون، تجولنا في روما، وأهم معالم المدينة التي زرناها كانت المدرج الرياضي الروماني القديم «الكولسيوم»، وهو من أشهر الآثار العالمية، وقال لنا أحد مرافقينا يومها مازحاً: «لا يسمحون لأحد بمغادرة مطار روما إذا لم يزُر هذا المدرج»، أما الكنائس في روما، فحدث ولا حرج، فهي كثيرة جداً، ولذا، كنا

نكتفي بمشاهدتها عابرين، والمتاحف الكثيرة من الأشياء التي تتفرد بها روما، ويذهلك مستوى اللوحات / الرسومات الذي وُجِد قديماً، والمهم أن روما باعتقادي، هي المدينة الحديثة الأكثر احتواء على الآثار والأبنية الأثرية القديمة.

ورأينا في روما الكثير والكثير من الأحياء الحديثة والمباني الجديدة الجميلة الشكل مظهراً، والعالية ارتفاعاً، وأيضاً توجد فيها كل من مقرات المنظمات الدولية: منظمة الأغذية والزراعة (الفاو)، والصندوق الدولي للتنمية الزراعية، وبرنامج الغذاء العالمي، وقد كنت تواقاً لرؤية هذه المقرات منذ بداية عملي في مجال الزراعة والإصلاح الزراعي عام **1969**م.

بعد نحو **25** عاماً، جاءت زياراتي الثانية لمدينة روما، مع الرئيس علي عبد الله صالح، في شهر ديسمبر من عام **2004**م، وقد حضرت جميع اللقاءات التي أجراها مع المسؤولين والوزراء الإيطاليين وغيرهم.

وأذكر أنه أثناء اللقاء مع رئيس الوزراء الإيطالي، السيد سيلفيو برلسكوني، كان متوتراً بعض الشيء، بسبب تزامن اللقاء مع الزلزال الذي تعرضت له منطقة إيطالية يومها، وكذلك تزامُن اللقاء مع مناقشة البرلمان الإيطالي لميزانية العام المقبل المالية، والتي تتضمن بنودها لأول مرة، تخفيضاً للضرائب تقوم به حكومة إيطالية، لكن ما إن بدأ فخامة الرئيس حديثه مع رئيس الوزراء الإيطالي، حتى بدأت أجواء التوتر بالتبدد والتلاشي، وقد أعرب رئيس الوزراء الإيطالي عن سروره بهذا اللقاء، وارتياحه للحديث الصادق والشيق، الذي خلا من الشكليات أو التصنع الدبلوماسي، مؤكداً على أهمية تطوير العلاقات اليمنية الإيطالية، والدفع بها إلى الأمام، معطياً أوامره الفورية بالإسراع في تنفيذ الاتفاقيات المشتركة، وتقديم كل ما يلزم تقديمه لليمن.

ومن الجدير القول هنا، إنه بالرغم من هذه الزيارة الأخيرة القصيرة لروما (يوم واحد)، إلا أنه من الصعب المقارنة بين روما التي زرتها قبل ربع قرن (**6**

أيام)، وبين روما التي رأيتها هذه المرة، تطور كل شيء، وبشكل مذهل، بحيث إنني عندها عجزت عن إجراء أي مقارنات بين حالها زمان وحالها الآن، وعندها تذكرت تلك الأحاديث القديمة التي سمعتها من الحزبين اليساريين اللذين استضافاني عام 1983م، ولو وجدت أحدهم اليوم وأنا أزور روما، وقد وجدتها تطورت كثيراً جداً، بحيث لا مقارنة جدية مع ما كانت عليه في العام المذكور، لقلت له: (انظر ماذا تحقق في روما منذ أن كنا معاً – هنا – من زمن بعيد.. إنها الرأسمالية التي تأخذ المدن إلى الانتعاش وطفرات النمو والتقدم الهندسي والتكنولوجي الهائل، إنها الرأسمالية التي لا يستطيع أحد مسابقتها، صحيح أنها تكبو أحياناً. وصحيح أنها تأخذنا إلى شفير الهاوية أحياناً أخرى، ولكن العجيب فيها، أنها إذا كبت تنهض من جديد، وإذا أخذتنا إلى شفير الهاوية، تقف فجأة وتهدأ، وتتخلى قليلاً عن جشعها وقسوتها، لتعاود السير في اتجاه آخر جديد).

مع هذا وذاك، يظل الإنسان يبحث عن العدالة والسعادة، وعن الحقيقة، لعله يجدها في أي نظام.

أثينا (اليونان)

عام 1980م، كنت قادماً من نيويورك، بعد حضور أحد اجتماعات الجمعية العامة لهيئة الأمم المتحدة، فمررت بها (ترانزيت)، حسب ما أملته تذاكر السفر، وأمضيت فيها يوماً واحداً في طريقي إلى عدن، وأول انطباع عنها، هو دقة عمل الحكومة اليونانية، فقد علمت وزارة الخارجية اليونانية بوجودي، فأرسلت من يقابلني؛ فقابلتني مسؤولة العلاقات العامة بالوزارة في صالة الفندق الذي نزلت فيه، وعرضت عليّ برنامجاً للتعرف إلى المدينة، وهل هناك عرض أفضل من هذا، في أن تتعرف إلى أثينا، عاصمة الحضارات الرومانية واليونانية القديمة؟.

استضافتني تلك المديرة الدبلوماسية اليونانية، وتُهْنا ونحن نتنقل في المدينة، فكل ما كنا نراه كان جميلاً، وعندما كنا نتناول الغداء، تهت في منظر أسماك الدولفين في البركة المجاورة للمطعم اليوناني، وبين جمال المديرة اليونانية وأناقتها ولطفها، ويومها خجلت من معاملتها الرقيقة والمؤدبة لي، فما كان مني، وبدون تفكير، إلا أن أقدّم لها هدية، هي السوار الذي اشتريته لزوجتي كهدية من أحد أسواق نيويورك، وقد أخفيت ما حدث عن «أم صلاح» لعدة أيام بعد عودتي إلى عدن، لكنني لم أصمد، فحكيت لها ما جرى، وبعد أن أكملت لها القصة، قالت لي مباشرة، إن الأمر عادي جداً، إذا كان ما جرى دبلوماسياً، وإذا لم يتعد الأمر حدود الدبلوماسية، فأوضحت لها أن المرأة في أوروبا تقدس العمل قبل العاطفة دائماً، وأسهبت في شرح ذلك، وشعرت عند الانتهاء، بأن «أم صلاح» قد اقتنعت، إلى حد ما!.

لا أنسى منظر المديرة اليونانية وهي تقود بنا سيارتها في أرجاء مدينة أثينا، بتلك الأناقة والثقافة والدلال. كنا أربعة، أنا وهي وسكرتيري وسكرتيرها، كانت تتحدث معي والسكرتير يترجم: مدينة أثينا أكبر مدن اليونان، يبلغ عدد سكان المدينة مليوني نسمة تقريباً (يبلغ عدد سكان المدينة اليوم حوالي **750** ألف نسمة، ويقارب الأربعة ملايين مع سكان ضواحيها). المدينة على مقربة من البحر الأبيض المتوسط، وهي بين نهري اليسوس وكيفيسوس، وقد حفظت اسميهما حتى اليوم، لتشابههما في اللفظ ولسلاسة نطقهما.

والمدينة محاطة بعدد من الجبال على بُعد منها تطوقها، فلا تجد منفذاً إلا من جهة واحدة تسير باتجاه البحر، كنت أتنقل بنظري وبانتباهي بين ما نراه، أو تشير إليه هي، وبين وجهها الجميل، الذي لا يقل جاذبية عن جمال أثينا، وحقيقة، لم أعد أذكر إلا ملامح وجهها، أما ما رأيته من المدينة، فقد نسيت معظمه، لأن أثينا، وبالذات أثينا القديمة، كثيرة المباني التاريخية، وكثيرة المواقع الأثرية، بما فيها آثارها الرياضية، وكل هذا يُكسب المدينة نكهة خاصة بها، لا تجدها في أي مدينة أوروبية أخرى.. منظر واحد من أثينا لم أنسَه أبداً، وهو جبل أبيض منخفض يُسمّى «الأكروبولس»، بُنِيت حوله المدينة منذ القدم، وامتدت إلى الوديان والسفوح القريبة. وعلى سفح ذلك الجبل، بُنِي المعبد اليوناني القديم، وهو بأعمدته وطراز بنائه وإطلالته على باقي المدينة، أروع القصور اليونانية التي رأيتها على الإطلاق.

كانت اليونان في وقت زيارتنا لها، تمر بمرحلة مخاض واستعدادات حزبية وجماهيرية من جميع الأحزاب اليونانية لخوض الانتخابات القادمة، والتي أوصلت حركة (باتنبلنيك) الاشتراكية (الباسوك) – التي هي أقوى من بقية الأحزاب – إلى المشاركة السياسية من خلال انتخابات عام **1981**م. وهو ما مهّد لظهور عهد باباندريو، الذي ظل في قيادة البلاد، على الرغم من المصاعب المالية

والفساد الإداري ومشاكل أخرى متفرقة، منها الصراع الحزبي التعددي المحتدم، ومشكلة قبرص، والصراع التركي اليوناني الشامل، وهو أهم ما واجهه الرئيس الذي أتى بعد تلك الانتخابات.

جاءت الزيارة الثانية لأثينا في عام 1995م، وكنت برفقة أسرتي قادمين من لندن، ونزلنا بمطار أثينا الدولي كمحطة عبور (ترانزيت)، فقلت: ما حظي هذا مع أثينا، في الزيارة السابقة ترانزيت، وهذه المرة ترانزيت، ومع ذلك أخذنا – أنا وأسرتي – نتجول في سوق المطار، أو بالأصح أسواق المطار، ونتنقل بين محالّها التجارية، نحدق بالمعروضات والسلع، دونما رغبة بالشراء، إنما ابنتي الصغيرة خلود، شدتني عندما رأت فتاة جميلة وكأنها تمثال من الشمع، وقالت لي: (يا أبي لماذا لا نشتري منها شيئاً؟)؛ فاشتريت لها تلك اللعبة، ثم مررنا بمحال تبيع الفضة من قلادات وأسورة وخواتم، وغيرها من الفضة اليونانية العالية الجودة، فدخلنا أحدها لنرى. وإذا بخلود تشير إلى سوار جميل من بين معروضات المحل، وهي تقول: (اشترِ لي هذا السوار يا أبي.. إنه جميل)، وهنا تذكرت السوار الجذاب الذي كنت قد اشتريته من نيويورك هدية لأمها، وأضعته هنا في أثينا المرة السابقة، والذي راح ضحية إغراء الجمال الإغريقي المجنون؛ فخشيت أن أكرر الخطأ، إذ رأيت فتاة يونانية جميلة في صالات المطار. عندها قلت لابنتي: هذه الأسورة للنساء الكبيرات، وليست للبنات الصغيرة، وحينها تذكرت وجه المديرة الدبلوماسية اليونانية، وقلت لنفسي: سبحانه خالق الجمال، فمن دخل أثينا، فعليه أن يمسك عقله، لعل مكتب أخي وصديقي المهندس الشيخ سعيد خوري، رحمه الله، رئيس مجلس إدارة شركة (سي سي) الهندسية الدولية، التي لها أعمال كثيرة في اليمن، هو ما يجعلنا نرتبط ونتذكر هذه المدينة الجميلة. العاصمة اليونانية.

رحم الله الشيخ سعيد خوري وحسيب الصباغ، ويا ليت الشباب يعود يوماً.

براغ (التشيك)

الرحلة إلى كوبا أو العودة منها – في تلك الأيام الغابرة – أشبه بالسفر إلى القمر. خط رحلتنا هذه المرة: هافانا – مدريد – براغ – القاهرة، قدمنا إلى «براغ» بعد رحلة طويلة شاقة، قدمناها من كوبا برفقة الأمين العام للجبهة القومية عبد الفتاح إسماعيل،

والأستاذ عبد الله عبد الرزاق باذيب، ومنصور الصراري، إلا أن طلبنا بالخروج من مطار براغ والنزول إليها رُفِض. لم يُرفَض فحسب، بل وقوبل بعدم اللياقة الدبلوماسية. ها هم الرفاق التشيكوسلوفاكيين يمنعوننا من الخروج إلى أحد الفنادق للراحة حتى موعد الرحلة القادمة، فاضطررنا للبقاء بالمطار حتى الإقلاع المتأخر.. ما السبب؟.

بداية السبعينيات، لم تكن في تلك الأيام قد توثقت بعد علاقتنا الحزبية مع الحزب الحاكم في جمهورية تشيكوسلوفاكيا، وعاصمتها مدينة براغ، والتي يحكمها الشيوعيون منذ عام **1984**م، إضافة إلى عدم استقرار المدينة، لأن أجواء الخوف مخيّمة عليها من كل ما هو خارجي، وذلك نتيجة للخلاف الناشب بين المعارضة والحكومة منذ سنوات عدة، إثر التدخل الروسي لسحق المعارضة للنظام الشيوعي والانتفاضة العالمية سنة **1968**م، والتي ترتبت على ضوئها أوضاع سياسية في البلاد مؤيدة لموسكو، ولكن كان الوضع العام – يوم زيارتنا تلك – كان ما زال مضطرباً وغير آمن، من وجهة نظر سلطات وزارة الداخلية في المطار، بيد أنه بعد تلك الحادثة التي عوملنا بها بدون لياقة بسنوات، اختلف الأمر، وانعكست طريقة المعاملة، فقد أصبحت براغ تستقبلنا

بصدر مفتوح، وتحتضننا بحرارة الأصدقاء، وعلى جميع المستويات، الرسمي والجماهيري والشعبي.

في سنة **1987**م، زرتها مرة أخرى، أقلتنا إليها طائرة البوينج الكويتية المريحة، وتصادف وجودنا على متن الطائرة الكويتية، مع أولاد سمو الأمير جابر الصباح على نفس الرحلة، وعندما وصلنا، استقبلنا سفيرنا، الأخ سيف محسن – وهو من الأشخاص المتهمين بمحاولة اغتيال الأخ محمد علي هيثم في القاهرة، وواحد من الذين تابعتهم أجهزة الأمن المصرية، ولهذا، كان حذراً جداً في تعامله مع الآخرين، وهو متزوج من امرأة إدارية من الطراز الأول، وكانت سكرتيرة عبد الفتاح إسماعيل (حياة محسن)، وهي من أكثر الوجوه النسائية كفاءة ومقدرة في تحمُّل المسؤوليات الإدارية.

وجدنا براغ من أجمل المدن الأوروبية، مدينة تتداخل مع نهر «فلتافا»، الذي يقسمها إلى جانبين متصلين بجسور قديمة تاريخية، وجسور حديثة أكثر انسيابية، وعلى أحد الجانبين، توجد جبال أو مرتفعات صغيرة، بُنِيت عليها مقرات كبرى رائعة الملامح لرئاسة الدولة والبرلمان. ولمدينة براغ، التي يبلغ عدد سكانها الآن نحو **1.2** مليون نسمة، ألقاباً قديمة، تستخدم حتى الآن، ومنها أنها تُسمّى «قلب أوروبا»، كونها وسط أوروبا موقعاً، وتُسمّى أيضاً بـ «المدينة ذات المئة برج»، بسبب كثرة الأبراج فوق كنائسها وقصورها القديمة. وتاريخياً، ازدهرت المدينة خلال القرن الرابع عشر الميلادي، إبان حكم الملك الروماني تشارلز الرابع، الذي أمر ببناء البلدة الجديدة، وجسر تشارلز، وكاتدرائية القديس فيتوس، وجامعة تشارلز، أقدم جامعة في أوروبا الوسطى. وما زال الجسر، وما زال البناءان المذكوران من أهم معالم المدينة حتى اليوم، ويُعتبر موقعهما من أكثر مواقع المدينة وجوداً للزوار والسياح الأجانب، خاصة الجسر

الذي خُصّص للتنزه ولقاء الأحبة والأصدقاء، ولوحات «البورتريه»، التي يقوم الرسامون برسمها لمن أراد ممن يجيئون إلى الجسر الشهير.

وعموماً، فإن براغ، أو كما تنطق بالتشيكية «براها»، مدينة شاعرية مرهفة الأحاسيس، بتقارب نهرها وتلالها وشوارعها المائلة أحياناً، وبناسها الذين يحبون الزوار، ومقاهيها التي أقيمت داخل قصور تاريخية محدثة بكل إتقان (من أكبرها وأجملها مقهى ومطعم يتجمع به اليمنيون)، لذا كله، فهي ليست قبلة السياح فقط، بل وقبلة للرسامين والفنانين الموسيقيين والشعراء، ومن الشعراء الذين عاشوا في المدينة، الشاعر العربي الكبير، محمد مهدي الجواهري، الذي عاش فيها مدة طويلة، حتى وافته المنية قبل أعوام، كما عاش فيها الكاتب الأدبي الإسباني المعروف عالمياً فرانز كافكا.

وعودة إلى الهدف الذي جئنا من أجله هذه المرة، وهو العلاج. فقد كان الدكتور حسين الكاف، عميد كلية الطب في جامعة عدن، أحد الذين كانوا برفقتي في هذه الرحلة العلاجية الخاصة بعلاج والدتي وعلاجي أيضاً، واستطاع الدكتور الكاف، اللقاء مع عمداء الكليات والاختصاصيات، وحثهم على ضرورة دعم اليمن صحياً، خاصة أن للشيك وحدة صحية في عدن، معززة بطبيب وممرضتين، عملوا في مصح تابع للرئاسة اليمنية.

ومن المسائل الطريفة التي حدثت في هذه الرحلة، أنه، وعندما كنا في براغ لمعالجة الوالدة، كان الأخ قاسم الجانحي، وكان عقيداً في الأمن، وتربطه صلة قرابة بوالدتي، يعالج أحد أبنائه المصاب بالشلل، وكانت ترافقه زوجته آنذاك. وعندما زار والدتي سألها:

(كيف تشوفي هذه البلاد؟).

فردت عليه:(الله راضي عليهم، وكل واحد يعطيه من طبعه).

كانت مدينة براغ مدهشة بالنسبة لنا ولغيرنا، ولذا، ليس المثقفون العرب وحدهم كانوا يعشقونها، ولكن كل كُتّاب العالم، وفي أجراسها التي تشدك إليها، تشعرك بنبضات الحياة، وقوة سيرها، وهي المدينة مفتوحة الأسارير، حتى إنها لم تكن تخفي مشاعرها العدائية لموسكو وللروس، فثارت في انتفاضة شعبية ضدهما، أدت إلى دخول الدبابات السوفييتية إلى شوارع المدينة وأحيائها عام 1968م، وواصلت «براها» مقاومتها هذه، ولكن بأسلوب راقٍ وفعال، حتى أصبحت تلك المشاعر ثورة شعبية عارمة في عام 1989م، قاومت النظام الاشتراكي، وتخلصت منه، وبعد سقوط الاتحاد السوفييتي، تنفس التشيك الصعداء، بعد أن أزيح ثقل موسكو من على كاهلهم، وجاء الرئيس الشاعر هافل، المنتخب من وسط الشعب التشيكي، إلى سدة الحكم، يحمل قلمه ودفاتره وأوراق شعره، ليحكم جمهورية التشيك التي أصبحت بلاداً لوحدها، وأصبح سلوفاكيا جمهورية مستقلة أخرى ثانية، وتم ذلك الفصل بكل هدوء وبدون مشاكل معيقة.

وقد انتهجت المدينة نهج الرأسمالية والسوق الحرة بعد ذلك، لتحقق نتائج فعلية، إذ إن التشيكيين منظمون، واقتصادهم منظم ومتقدم حتى في عهد النظام السابق. وقد خطوا خطوات ناجحة في العهد الجديد، وحققوا دخلاً وطنياً جيداً، إضافة إلى أن موقع البلاد كوسط أوروبا، يُكسِبها دوراً تجارياً، وقد قرأت في استطلاعات أوروبية أخيرة (2009م)، صُنّفت فيها هذه المدينة، على المدينة الأولى أوروبياً في مجال المساومات التجارية وعمليات البيع والشراء. وبالطبع أن جمال المدينة وطبيعتها، أسهما في جذب الوفود إليها، فلا تكتمل المساومات والصفقات التجارية، إلا في مدن رائعة، مسكناً وطبيعة ومحيطاً وبشراً.

إذا رأيت براغ، فلن تنساها أبداً، لأنها مدينة تمتاز بالسحر المعماري للمباني المُشيّدة وفق مختلف مدارس المعمار التي شهدتها أوروبا في عصور النهضة، ومن أهم معالم براغ السياحية التي شاهدناها، ولم نذكرها سابقاً، قلعة براغ، وقلعة فيشي، والساعة الفلكية في ساحة الحي القديم، والتي يصطف أمامها الناس مع اكتمال كل ساعة، ليسمعوا رنين أجراسها، وليشاهدوا نافذة تطل منها أشكال كثيرة مثيرة من طيور وبشر وغيرها، تظهر بالتزامن مع دقاتها، وكل المناطق المحيطة بالمدينة، من أجمل بقاع الأرض، غابات أشجار، ينابيع، منحدرات ووديان بديعة المنظر، ولكن أجمل ما رأت عيناي من بين تلك المناطق على الإطلاق، منطقة تبعد بنحو ساعة بالسيارة، وهي مصحة «كيفوفاري»، حيث تبدأ الرحلة خروجاً من براغ، قاطعاً المساحات بين الحقول الخضراء المزروعة والمنحدرات الجبلية المغطاة بالأشجار، ثم تبدأ نزولاً عبر وديان منخفضة شيئاً فشيئاً، حتى تصل إلى وادي كيفوفاري، الأشد انخفاضاً، وقد غطّته الأشجار الكثيفة على الجانبين وفي المجرى، حتى تصل إلى مدينة كيفوفاري الممتدة وسط الوادي، وفي المنحدرات السفلى، لترى مدينة مزدحمة بالسكان والزائرين، الذين يصل عددهم أحياناً إلى أكثر من عدد سكان المدينة أنفسهم، ويوجد في كيفوفاري عدد من أكبر ينابيع المياه الطبيعية الصحية في أوروبا، وقد شُيّدت لها المرافق الخاصة بها، والمصحات والمسابح، وعلى مقربة منها، توجد المطاعم والفنادق والاستراحات؛ فترى هذا جاء من أجل العلاج بالمياه الطبيعية، وذاك جاء للنقاهة، وثالث تكلّف عناء السفر من أجل جمال الطبيعة والجمال التشيكي، الذي يقال إنه يحتل مكانة متقدمة في ماراثون سباق الجمال الأوروبي.

لم يعد يربطنا بهذه المدينة الآن، سوى وجود الأخ والصديق السفير أحمد الوحيشي، وأخيه عبد القادر، ومزرعته المنتجة للكباش، وأحاديث شيخنا

وصديقنا الأخ قاسم عبد الرحمن الشرفي، عن جمال هذا البلد، وتملّك مزرعة على مجرى النهر وسكن، يا ليت ننقله إلى هنا كما هو.

هنا.. هنا.. نعم لنعيش فيه.

بوخارست (رومانيا)

زرتها مرة واحدة فقط، كانت عاصمة جمهورية رومانيا الاشتراكية، هذه العاصمة كانت تتعامل مع الآخرين بشتى الوجوه المتقلبة، لا شيء يعيقها أو يمنعها، فتارة تجدها شيوعية، وتارة أخرى تجدها رأسمالية..

هكذا جعل تشاوتشيسكو، المدينة العريقة المسكينة، وكأنها مجنونة بلهاء تتخبط هنا وهناك، وكأنها لا تمت بصلة للإيديولوجيات المتبعة ببعض دول المنظومة الاشتراكية، أو حتى الرأسمالية، فلا هي هذا ولا هي ذاك.

هذه الحقيقة، على الرغم من أن حكام رومانيا من بعد الحرب العالمية الثانية، اتصفوا بالاشتراكية والشيوعية، فالشعوب طيبة دائماً، وتتعايش مع السلام وتحبه، وتميل إلى تبادل المصالح، ولكن السياسة وما يمثله من بيدهم قراراتها من نوعيات قيادية، هي التي تفسد الأحوال، خاصة حين يعم الفساد والاستبداد أوساط هؤلاء الحكام، فيتحولون جميعاً إلى عصابات مافيا ناهبة لكل شيء، تتحكم في كل شيء في أوطانهم، وتصبح الدولة التي يحكمونها عبارة عن هيكل ضخم منخور من الداخل بكل أمراضهم والأمراض التي خلقوها لغيرهم من عامة الشعب. وهنا، تضيع المقاييس والأخلاق والأسس، وتسقط تلك الدولة مع هبوب أول رياح التغيير.

وعندما هبت رياح التغيير في رومانيا سنة 1989م، تأكدت هذه الحقائق التاريخية، وذلك حين هبّ الشعب للتغيير، ودارت معارك محددة بين مافيا وعصابات الرئيس تشاوتشيسكو وفرقه الخاصة التي كونها من شباب ليس لهم أهل، رباهم منذ نعومة أظفارهم على الولاء له، من جهة، وجماهير الشعب تساندها القوات المسلحة، من جهة أخرى، وظهر جلياً في تلك الأحداث، أن

ولاء معظم المواطنين للوطن الروماني، وليس للزعيم الأوحد، الذي صار الجميع يكرهونه، ويومها لم يجد تشاوتشيسكو وزوجته ملاذاً لهما يؤويهما، وفي ساحة أحد المعسكرات التي نقلهم إليها أفراد جيش الشعب، أعدما هناك، وكم هو منظر الزوجين العجوزين مؤلماً – الذي عرضته وسائل الإعلام العالمية – وهما يعدمان رمياً بالرصاص. ولكن، لم يجد الألم لمنظرهما ذاك مكاناً وسط الجرائم التي ارتكباها، وهي لا تُحصَى.

لقد كان تشاوتشيسكو حاكماً متسلطاً، بكل ما تحتويه الكلمة من معنى، ربما أكثر من ملوك القرون الوسطى، الذين اشتهروا بالقسوة، وعندما زرت بوخارست، وهمست بهذا الكلام همساً في أذن المترجم الذي يرافقني، متصنعاً أن هذه مزحة، إذ به يقول لي: «حسناً.. ولكنه أنهى الديون الخارجية لهذا البلد»، وعندما قلت له إن ما ذكره لا يكفي. قال لي: «هذا الرجل رئيسنا، يعتبر كالـ «العراب» بينكم أنتم العرب، وبين عدوكم إسرائيل، لأن بلادنا، رومانيا، هي أول دولة أقامت علاقات دبلوماسية مباشرة مع إسرائيل، ومع العرب قبلها».

فقلت له مرة ثانية: وهذا أيضاً لا يكفي. فقال «إنه أيضاً أداة وصل وتواصل بين المعسكر الغربي ومعسكرنا الشرقي، وهو ينسق مساعي السلام هذه مع مختلف أجهزة الاستخبارات، فقلت له: «أجل، يحدث هذا، وبعض الأدوار التي يقوم بها تصنعها له عقول الاستخبارات الخفية، وعندها أخذ يشرح لي عن إنجازاته الداخلية، داخل رومانيا، وبعد أن أكمل شرحه الطويل، نظر إليّ فوجدني صامتاً، ثم قال: «حسناً.. ما رأيك؟»»، فأجبته بالقول للمرة الثالثة: «وحتى هذا لا يكفي»، وعندها ضحك بصوت عالٍ، ثم واصلنا الضحك معاً.

رأيت بوخارست في زيارتي الوحيدة لها في مطلع السبعينات من القرن العشرين، مدينة جميلة بشكل عام، فيها الكثير من البنايات التي تبدو كالقصور

الضخمة، ولكن لم يهتم بمظهرها الخارجي، كونها بُنِيت قديماً، كما رأيت بعض البنايات وسط المدينة، وبعض الأحياء الجديدة الصغيرة التي بُنَيت في عهد النظام الاشتراكي، وأجمل المواقع تلك التي تقع على ضفاف نهر «ديمبوفيتا»، فعلى هذه الضفاف، يمكنك قضاء وقت ألطف مما تقضيه في وسط المدينة، وما أتذكره عن تلك العشرة أيام التي أمضيتها في بوخارست، هو أنني وجدت أبناءها، مثلهم مثل مواطني بقية البلدان الاشتراكية الأخرى آنذاك، حيث تتوفر لهم المواد الغذائية والشراب الرخيص أيضاً، ولكن ملابسهم ومنظرها لم يكونا بالمستوى نفسه الذي رأيته في عواصم البلدان الاشتراكية الأخرى.

وعموماً، فمكانة المدينة أوروبياً في التاريخ القديم الأوسط، بأنها من المدن المشتهرة بالفنون، فنون الموسيقى والرسم والنحت، ولكن هذا الدور ربما ضعف، بسبب تأثر مجالات الفنون بالنظام الاشتراكي الذي يقحمها في السياسة إقحاماً مباشراً، ويفرض عليها ملامح الصراع الطبقي فرضاً، ولا أدري ما إذا كان سكان المدينة، الذين قيل لي في تلك الأيام، إن عددهم ثلاثة أرباع المليون، وعلمت أنهم يصلون الآن إلى مليوني نسمة، بعد أن تحسن وضعها الاقتصادي خلال 25 عاماً، قد عادوا لتطوير الفنون المختلفة في المدينة.

وإذا انتقلنا للحديث عن علاقة عدن الثنائية مع بوخارست، فقد كانت تجربة فاشلة، وكانت بداية فشلها فشل أول مناقصة / اتفاقية مع الرومان، خاصة ببناء مصنع للإسمنت في منطقة باتيس بخنفر بمحافظة أبين، حين جلب الرومان معدات متواضعة، وبعضها قديم، ولم يستطيعوا تنفيذ شيء في عامي 74 – 1975م، ومنذ ذلك الوقت، تعرقل المشروع، بسبب رفض الرومان تقديم قرض بشروط مناسبة، كما كان متبعاً في التعامل حينها مع بلدان المنظومة الاشتراكية، كما تعرقل تنفيذ المشروع بعد ذلك، نتيجة لما تركه الرومانيون من فكرة سيئة عن العمل في المنطقة المذكورة، في الموقع المذكور،

سيستكمل مشروع آخر في منتصف عام **2009**م. وسيبدأ إنتاجه في الأشهر الأخيرة من هذا العام، وتقوم به «شركة باتيس للإسمنت»، والتي تجمع بين مستثمرين يمنيين وسعوديين، وتقوم بتنفيذه بكل يُسْر وجدارة شركة صينية.

ولكيلا تنحصر ذكريات الشخص فيما هو سيئ فقط، فإنني أذكر أن بوخارست قدمت لعدن عدة منح دراسية، فقد درس العديد من الطلبة اليمنيين في كلياتها، وفي اليمن اليوم أسماء لامعة منهم، وخاصة في مجال الطب، منهم الدكتور محمد علي بن هرهرة، والدكتور علي السلفي، والدكتور صالح محسن الحاج، والمرحوم الوزير عبد القوي مثنى وزير الإنشاءات الأسبق، وكذا وكيل وزارة الصناعة والتجارة الشهير، حازم ناشر، وغيرهم عدد من الأطباء والطبيبات، وكذا عدد من الخريجين الجامعيين في مجالات أخرى، من بينهم الدكتور عمر عبدالعزيز.

بودابست (المجر)

عاصمة المجر، تقع على ضفتي نهر الدانوب، وبعد أن كانت قبل قرن ونصف تقريباً مدينتين: مدينة «بودا» القديمة على الضفة الغربية منه، ومدينة «بست» على الضفة الشرقية منه، أصبحت مدينة واحدة «بودا بست»،

وهي مدينة من أجمل مدن أوروبا؛ فنهرها من أجمل الأنهار، وطبيعة المنطقة لا تضاهيها منطقة أوروبية، من حيث كثرة الأشجار وأماكن السياحة، وكذا المباني القديمة والمتاحف والآثار، فهي عاصمة البلاد منذ تأسيس مملكة هنغاريا عام 1000م، ولكن يقال إن هناك شبهاً بينها وبين فيينا عاصمة النمسا، لأن البلدين (النمسا والمجر)، كانتا مملكة واحدة في حقبة زمنية قديمة.

ويقال إن جمال المدينة يأسر أبناءها وزائريها، إلى حد أن من رآها لا بد أن يحبها، فما بالك لو كان عمدتها، حيث يُروى، أنه عندما دخلتها الجيوش الهتلرية الفاشية، كان أمام عمدتها خياران إما تدمير المدينة أو الموت شخصياً، فاختار الموت شارباً من نبيذها حتى سقط، ليفديها بنفسه وبروحه، كي تسلم المدينة بدون دماء وبدون تدمير ودمار.

زرتها مع زوجتي وأطفالي في أغسطس عام 1978م، بدعوة من اللجنة المركزية للحزب الشيوعي المجري، التي وفرت لنا سبل الراحة والاستجمام لقضاء إجازة صيفية في ربوعها الخلابة والممتعة، تعرفنا إلى بحيرة «البلاتون» على نهر الدانوب، التي قضينا على ضفافها أياماً عديدة جميلة لا تُنسى، كان الوقت يمر خلالها مثل أوقات الأعياد الفرحة، كنا نقضي جزءاً من النهار نتنزه ونمشي ونرى، ثم نعود إلى فندق إقامتنا لنأخذ قسطاً من الراحة بعد يوم ممتع ومليء بالحركة والسير والمناظر، حتى إن العيون تعبت من كثرة ما رأت، تعرفنا إلى نخبة

من الوجوه المجرية المسؤولة، ذات العلاقة بقيادات السلطة، وبقيادات الحزب المجري الحاكم، وإذا بنا ذات يوم، وبينما كنا نتناول وجبة العشاء المعتادة في مطعم فندق اللجنة المركزية للحزب الحاكم لضيوفه من الخارج، نجد أنفسنا نلتقي صدفة بالأمين العام للحزب الاشتراكي المجري، والذي بدأ تحيتنا بمداعبة ابني بدر، الذي كان طفلاً صغيراً حينها، أخذ يمازحه ببعض الكلمات والعبارات باللغة المجرية التي لم يفهمها بدر، ثم سلّم علينا وجلس معنا للحظات قليلة، ودّعنا بعدها.

كان الأمين العام، الشخصية الأولى في هذا النظام، وفي هذه البلاد الجميلة التي يقصدها السواح بأعداد كبيرة، أكثر من أي بلد اشتراكي آخر، ولقد كان معروفاً هنا بتواضعه ودماثة خلقه، على عكس تشاوتشيسكو في رومانيا، ولم يكن يكترث بتعظيم الشخصية أو عبادة الفرد، كما كان يتمتع بها بعض نظرائه في بعض البلدان، ومن ذلك، أنك لا ترى له صوراً في الشوارع أو المواقع العامة، حتى إنه يمكن أن يسير في الأماكن العامة ولا يعرفه أحد، لصفاته ولتواضعه الجم.

بعد ذلك زرتها مرة أخرى، وزيراً للخارجية، في مهمة عمل، وكان سفيرنا في بودابست حينذاك، الأخ محمد سعيد عبد الله (محسن)، الذي تحمّل لسنوات طويلة منصب وزير أمن الدولة في عدن، والذي عُيّن هنا لمدة سنة واحدة 1981 – 1982م، ثم طُلب منه العودة إلى عدن، ومن الأحداث المؤسفة والأليمة التي ينبغي عدم تكرارها عند عودته، وُجّهت له تهمة سياسية خطيرة، وهي إنشاء حزب جديد، بالتعاون مع عبد الفتاح إسماعيل، الموجود/ المنفي حينها في موسكو، وعبد العزيز عبد الولي الموجود/ المنفي حينها في ألمانيا الشرقية، وحسين محمد قماطة الموجود/ المنفي حينها في جمهورية بلغاريا، وهذه التهمة الموجهة لهم، كانت من ضمن التهم الملفقة بعناية، والتي عاشتها تجربة

اليمن الديمقراطي في تلك المرحلة، 1980م – 1985م، فالأول من المذكورين (محسن)، عاد إلى عدن بناء على الطلب، وتم اقتياده من المطار إلى السجن، والثاني من المذكورين عاد إلى عدن لاحقاً، وقتل بعد عودته بأشهر قليلة أثناء أحداث 13 يناير 1986م، أما الثالث فمات في ظروف غامضة ومشكوك بها في ألمانيا، وهو في منتصف العمر، فبعد عودته إلى عدن، سُجِن مباشرة، وتم إعدامه بعد أشهر، دون أن ترى أسرته جثمانه.

مدينتنا «بودابست» عاصمة المجر، فقد كانوا يسمون هنغاريا (المجر) بلد الرعاة والغجر (بدو مرتحلون دائماً، لا يحبذون الإقامة في مكان واحد)، إذا بها في عقدين من الزمن، تتقدم وتتطور وتتحول من مجتمع زراعي إلى مجتمع صناعي، لولا بيروقراطية الأجهزة، واعتماد نظرية الأمن الشامل في الحكم المجري، لوصلت العدالة الاجتماعية التي شهدها هذا البلد، وتوصلت إلى تحقيق معدلات هائلة من التطور الاقتصادي والاجتماعي، ولحققت مستوى معيشة للمواطنين أفضل من بلدان أوروبا الرأسمالية.

ولعل هذا ما سبب أحداث بودابست عام 1956م، حين انتفضت المدينة في انتفاضة جماهيرية، بدأها طلبة الجامعات على الحكم الشيوعي وعلى التبعية للاتحاد السوفييتي، مطالبين بخروج القوات السوفييتية، والتعددية الحزبية، ومطالب شتى، سميت بـ «إعلان الحرية 1956م»، فما كان من موسكو، إلا أن تعيد الأمور إلى قبضتها بالسلاح والدبابات، وأن تسلم مقاليد الحكم إلى الأمين العام الجديد لحزب العمال المجري «يانوش كادار»، الذي تمتع بشعبية كبيرة، بسبب أصوله العمالية، وبساطة وتواضع تعاملاته، وشخصيته القوية في الوقت نفسه، وعندما توفي بعد ذلك بعامين، ورغم أنه كان أداة السوفييت عام 1956م، إلا أن المجريين ودّعوه بحفاوة بالغة وجماهيرية واسعة، ويعلل كثير من المحللين روح التسامح لدى المجريين، إلى طبيعتهم القبلية، حيث يقال إن أصولهم

تعود أساساً إلى 7 قبائل أوروبية، استوطنت هذا الجزء من أوروبا، ويقول المحللون إن هذه الصفة الطيبة للشعب المجري، هي السبب أيضاً في عودة حزب العمال المجري إلى السلطة في البلد، بعد أن انهار المعسكر الاشتراكي بسنوات، فعند بدايات مؤشرات انهيار دول المنظومة الاشتراكية، قام حزب العمال المجري عام 1989م، بحل نفسه، وقام بتسليم السلطة للمعارضة المجرية، دون أن تراق قطرة دم أو يُعتقل مواطن، وبعد سنوات، غيّر حزب العمال المجري اسمه الى الحزب الاشتراكي العمالي المجري، وأصبح جيولا هورن الأمين العام له، وهو آخر وزير للخارجية في الحكومة الاشتراكية السابقة، التي انهارت مع انهيار النظام، ودخل الحزب الجديد الاسم، الانتخابات النيابة، وفاز فيها، ليعود الى السلطة مجدداً برئيس الوزراء «جيولا هورن» أمينه العام، الذي أصبح من ضمن سياساته، الانضمام الى حلف الناتو والاتحاد الأوروبي وغيرها، وهكذا سارت الأمور.

وربما كانت بودابست قد نالت مطلب التخلص من النفوذ الأجنبي، حتى وإن كانت انضمت بداية هذا العام إلى «حلف الناتو»، وقد تكون تقترب الآن من تحقيق حلمها القديم، في أن تحقق أعلى معدلات النمو الاقتصادي في أوروبا، فاليوم، ونتيجة للانفتاح الاقتصادي، بعد انهيار النظام الاشتراكي فيها عام 1990م، حققت المدينة تطوراً حثيثاً في جميع المجالات، وخاصة في الصناعة والزراعة والسياحة والعمران، وعلى سبيل المثال، فإن متوسط عدد السياح الذين يزورونها سنوياً، يفوق عشرة ملايين سائح، معظمهم من أوروبا، والسياحة كانت مزدهرة فيها أثناء النظام الاشتراكي، وكانت تمثل أهم الموارد الاقتصادية فيها، وفي مجال العمران، فالمدينة حققت نجاحاً كبيراً في توسع عدد المساكن فيها، وفي الطاقة الاستيعابية لفنادقها ومرافقها السياحية، ولذا، فهي

تحتل اليوم المرتبة السادسة في قائمة مدن الاتحاد الأوروبي، من حيث الحجم والسكان.

إنني أثني على الصداقة مع هذا البلد، الذي أرسل إلينا الأطباء والمساعدات المختلفة، ومنها الحافلات المجرية، وكانت مكائنها في الخلف، وأصبحت محل تعليق أبناء عدن (الدريول قدام والماكينة وراء ـ باص مجري).

الفاتيـكان

لعل من يشاهد ويسمع، أفضل مئة مرة ممن يقرأ عن بُعْد. تذكرت هذه المقولة عندما زرت «الفاتيكان»، عضواً في وفد الجمهورية اليمنية، برئاسة الرئيس علي عبد الله صالح، والذي قابل قداسة البابا بينديكوس السادس عشر (البابا بولس السادس)، في ختام جولة خارجية في الشهر الأخير من عام 2004م، شملت قبل الفاتيكان، زيارة كل من برلين وروما.

كانت زيارة الوفد اليمني الرفيع المستوى للفاتيكان، ولقاؤه بالبابا بولس السادس في ظل التطورات العالمية – وبخاصة السلبية منها، تلك التي ولدتها ظاهرة الإرهاب والعنف، بما فيها ظهور متطرفين في أمريكا وأوروبا، كما هو الحال في البلدان العربية والإسلامية – في إطار تعزيز الاتجاه العقلاني الحكيم لحوار الثقافات والحضارات المختلفة، وتعايش الديانات الإسلامية والمسيحية واليهودية، ومساهمة الأديان المذكورة في ذلك. وكذا، ضرورة الحوار والتعايش وتبادل المصالح بين مختلف شعوب العالم وطوائفها.

لربما زار المرء معظم دول العالم، ووجد بينها فوارق واختلافات يصعب إحصاؤها وعدها وشرحها، لكن دولة الفاتيكان مختلفة تماماً عن كل ذلك؛ فهي أصغر دولة في الدنيا، إذ تبلغ مساحتها ما يقارب نصف كيلو متر مربع فقط، وتقع في قلب العاصمة الإيطالية روما، وقد كانت جزءاً من الدولة الإيطالية حتى عام 1929م حين تم الاتفاق على أن تكون الفاتيكان دولة مستقلة، يرأسها بابا الفاتيكان، وهو الرمز الروحي للكاثوليك في جميع أنحاء العالم. وعدد سكان الفاتيكان لا يتجاوز الألف نسمة، وهناك عدة آلاف من السكان الإضافيين، وهم العاملون في الفاتيكان، الذين يضطرون للسكن خارج

الفاتيكان في مدينة روما، ومن الطريف هنا، أن الفاتيكان تعد الدولة الوحيدة في العالم، التي لا يوجد ضمن سكانها الرسميين أي أطفال. أما جيشها، أو ما يسمى «الحرس الفاتيكاني»، فقوامه 100 جندي فقط، وجميعهم من الكاثوليك، وهم رجال سويسريون.

وهنا وفي هذه الحالة فقط، لا يغرنك حجم المساحة، ولا يخدعنك عدد السكان؛ فهذه المدينة / الدولة، التي تعتمد في عائداتها على التبرعات المالية التي يدفعها الكاثوليك من جميع أنحاء العالم، لها تأثير روحي كبير في المسيحيين في أغلب بلدان المعمورة، وإحدى المظاهر على هذا، هو وجود الآلاف من البشر الذين يحتشدون يومياً في ساحة المدينة الرئيسة، ساحة القديس بطرس، التي تقع أمام مبنى كنيسة القديس بطرس، الذي يطل منه البابا في أيام محددة، لتجد تلك الحشود قد تضاعفت أعدادها فيها. كما أن المدينة وكنائسها ومبانيها ومتاحفها ومكتباتها، كلها مواقع يأتي إليها ملايين السواح سنوياً من مختلف بقاع الأرض.

هناك، وفي حضرة الفاتيكان وأجوائها الخاصة، جرى الحديث أثناء زيارة الوفد اليمني الرفيع المستوى عن إحلال الأمن والسلام والاستقرار في أرجاء كوكبنا، من خلال تشجيع الاتجاهات المعتدلة والمسؤولة والناضجة داخل هذه الديانات، وتحمل هذه الاتجاهات مسؤولياتها لإنجاح الحوار بين الديانات والحضارات والثقافات، بما يعزز الإخاء الإنساني المتطلع إلى الأمن والسلام والعدالة.

كان حديث الرئيس علي عبد الله صالح المباشر مع قداسة البابا، ومع وزير خارجية الفاتيكان واضحاً، حيث بيّن أن الدين الإسلامي الحنيف، يحترم جميع الأديان والرسل والأنبياء، إن أعمال التطرف والعنف التي تقوم بها منظمات وجماعات متطرفة، تدّعي أنها تمثل الإسلام والمسلمين، هي إساءة

للإسلام والمسلمين، ودعواتها مشبوهة ومرفوضة تماماً، مبيناً أنه يحمل في حديثة رسالة سلام من قِبَل إخوانه جميع المسلمين، وقد قوبل حديثه هذا بالارتياح والترحيب من قبل قداسة البابا، الذي يرتبط به ملايين المسيحيين الكاثوليك في كل أرجاء الأرض، الذي أكد من جانبه، أنه والمجمع الرسولي لقداسة البابا، ضد أعمال التطرف التي يقوم بها بعض المسيحيين ضد بعض الجاليات الإسلامية في أوروبا وأمريكا ومناطق أخرى في العالم، لقد تم منحنا الميدالية البرونزية لسماحة البابا، ونعتز بحملها، والعمل بأهدافها الإنسانية.

حقاً، السياسة هي فن الممكن، كرر هذه المقولة أمامنا وزير خارجية الفاتيكان، لذا، فتضافر الجهود في وضع تتردى فيه الأوضاع الدولية إلى مهاوٍ سحيقة، هو عمل يقوم به الحكماء من قادة دول العالم في لحظات تاريخية سانحة، يلتقطها هؤلاء للتغلب على روح الشر والحرب والظلم، التي يقوم بها إنسان جاهل تجاه أخيه الإنسان.

للأسف، ما جرى في الواقع، وخاصة لدينا، هو إذكاء الصراعات والحروب الطائفية والمذهبية والمناطقية والقهر والاستبداد، وخاصة من قبل المركز المقدس لحكام صنعاء بعد تحقيق الوحدة، بشن حروب على الجنوب في عام **1994**، وعام **2015**، ويا ليت كلمة من هذا اللقاء الذي تم مع بابا الفاتيكان، علقت في رؤوس من حضروه.

بكين

بكين عاصمة جمهورية الصين الشعبية، وتأتي بعد مدينة شنغهاي من حيث حجم السكان في بلد المليار ونصف المليار نسمة، وبالرغم من أن مدينة بكين كانت مزدهرة دائماً، لأنها ظلت عاصمة للعائلات الصينية الحاكمة عبر التاريخ، إلا أنها ازدهرت وتطورت وتوسعت بعد قيام الثورة الصينية عام 1949م،

حين أصبحت عاصمة لجمهورية الصين الشعبية، هذه حقيقة لا تتجاهل أن المدينة عانت من الخمول والرتابة أحياناً، في ظل العهد الجديد، إلا أن قفزة التطور الحديث التي ما زالت تعيشها المدينة حتى الآن، بدأت في ثمانينيات القرن العشرين المنصرم، بعد نحو عقد من الزمان من وفاة الزعيم ماو تسي تونغ، ثم بدأ اللحاق الحثيث بركب التكنولوجيا المتقدمة منذ التسعينيات، حيث سارت خطوات النهوض والتحديث بسرعات كبيرة جداً، حين جددت مصانع الصين ومعاملها تكنولوجياً، وحدّثت الإدارة، فإذا ببكين تعلو وتتسع، وظهرت فيها الأبراج الشاهقة والمباني الحديثة، وشيدت الطرقات الحديثة والجسور المعلقة، وتناقصت أعداد الدراجات الهوائية، وازدادت السيارات وعربات النقل الحديثة التي تراها في شوارعها.

طرقنا أبواب بكين أثناء النضال التحرري من أجل طرد المستعمرين الأجانب من عدن جنوبي اليمن، لأن تجربتنا التي انتهجت الكفاح المسلح، كأسلوب من أجل نيل الحرية، كان لا بد لها من البحث عن حليف ثوري، وعن أفكار وتجارب جديدة لتحقق العدالة الاجتماعية المفقودة، وللبحث عن دعم أممي يساعدها في بناء الدولة الوطنية، وذلك بعد أن توفر الدعم الوطني،

المتمثل بالالتفاف الشعبي الداخلي، وبقيام النظام الجمهوري في صنعاء، بالإضافة إلى الدعم القومي المتمثل بمصر عبد الناصر، وسوريا والجزائر والعراق والكويت، وبعدها ليبيا، ومن خلال دعم التنظيمات القومية العربية، وبالأخص حركة القوميين العرب والحركة الناصرية، كان لا بد من التوجه إلى الصين لتوفير الدعم الأممي، حيث كانت الصين في ذلك الوقت تؤيد علناً حركات التحرر الوطني ضد الاستعمار، والتي تؤمن بالكفاح المسلح.

كان أول وفد يدق أبواب الصين قبل الاستقلال، هو من الجبهة القومية لتحرير جنوب اليمن المحتل، من عبد الله الخامري وعلي سالم البيض، وإثر تلك البداية، وبعد الاستقلال الوطني عام **1967**م، أرسلت عدن عدداً من الكوادر لدراسة التجربة الصينية، ولكن هؤلاء الذين ذهبوا إلى بكين، تحولوا في ما بعد إلى كارهين ومناقضين لتلك التجربة، نظراً لقسوتها في تطبيق مبادئ الاشتراكية والمساواة بين الناس، ولعدم واقعية بعض سياساتها، وباستثناء بعض القيادات في الدولة، التي كانت تنظر إلى أهمية المساعدات الصينية بالنسبة للدولة الوطنية الشحيحة الموارد، فليس هناك تنظيم في اليمن أو المنطقة العربية، تأثر بالفكر – الماوي – أو ارتبط أيديولوجياً بالصين الشعبية بشكل جدي.

منذ أن انتصرت ثورتها بقيادة الزعيم ماو تسي تونغ، كانت العاصمة الشرقية الثانية بعد موسكو، وأصبحت بكين من حينها، مزاراً يطلب منه المساعدة ثوار العالم الثالث، من أجل التخلص من الاستعمار القديم لبلدانهم، ومن أجل عدم الوقوع تحت الهيمنة الاستعمارية الجديدة، ومنذ أن أصدر الزعيم الصيني ماو تسي تونغ، أفكاره ونشرها، بدا أنها اختلفت عن أفكار ثورة أكتوبر العظمى، والدولة الشيوعية الأولى (الاتحاد السوفييتي)، التي وقفت كحليف أممي إلى جانب انتصار الثورة الصينية، وقد جاء هذا الاختلاف النظري الفكري، بحكم ما سُمّي بالمسيرة الكبرى للثوار الصينيين، والطبيعة الفلاحية لهذه

الثورة، وكذا، ما سُمّي بالثورة الثقافية، التي كان هدفها الرئيس، الترويج لأفكار الزعيم ماو تسي تونغ.

أصبح الصراع الصيني – السوفييتي في المجال الأيديولوجي والسياسي، والتسابق على النفوذ، وخاصة في البلدان النامية، ولدى الأحزاب الشيوعية والعمالية، أكثر احتداماً من الصراع بين كل من المعسكرين الشرقي والغربي، أثناء ما سُمّيت بمرحلة الحرب الباردة، وكان من يحمل البندقية في نظر موسكو، يُعتبر موالياً للصين، إلى أن يثبت العكس، وهو ما حصل مع ثورتنا التي قاتلت الاحتلال البريطاني، كانت الصين المحطة الثالثة التي طرق بابها ثوار جنوبي اليمن في ذلك الوقت، وعند نيل الاستقلال الوطني، ذهب الأخ عبد الله الخامري إلى بكين، على رأس وفد لزيارة الصين، وعاد إلينا بعد الزيارة محملاً بالآمال والوعود بتقديم المساعدات الصينية السخية، من الإبرة وحتى الطائرة، وهذا ما دفع الأخ علي سالم البيض . عندما كان وزيراً للدفاع في أول حكومة للاستقلال . إلى طرد الطيارين والخبراء الإنجليز الذين بقوا في عدن بعد الاستقلال، حتى إنه تم إعلام ذلك في الإذاعة المركزية بعدن، وبدون علم أحد من القيادة، وهو الأمر الذي تسبب في قطع المعونة البريطانية المقررة للبلد، بموجب محادثات واتفاقية الاستقلال بمدينة جنيف.

وفي بداية السبعينيات، زار بكين، الرئيس سالم ربيع علي، ومعه الأخ علي سالم البيض (وزير الدفاع)، ومحمد صالح مطيع (وزير الخارجية)، وأثناء الزيارة قابلوا حينها الرئيس الصيني الزعيم ماو تسي تونغ، الذي أعرب في حديثه معهم عن استغرابه من: كيف وافق الثوار على قبول استقلال الجنوب، ولم يواصلوا الزحف حتى منابع النفط في الجزيرة والخليج، ما دامت السلطة تنبع من (فوهة البندقية)، حسب الأفكار الثورية آنذاك، وكانت أحاديث الزعيم الصيني هذه، التي دارت أثناء تلك المقابلة، هي الخلفية الفكرية والسياسية التي

خلقت الأرضية لفكرة دعم ثوار (الخليج العربي) والعمل على أساسها، وكذلك رفض كل التسويات التي قدمت في ذلك الوقت من قبل أطراف وساطة مع دول الخليج، كما كانت أيضاً، السبب في انقسام الصف الداخلي بين القيادة السياسية في عدن، وحتى إن هذا الانقسام انعكس أسفل القاعدة، حين خرجت المظاهرات في عدد من المناسبات، وهي تقول: (سالمين قود المسيرة، سالمين نحو الجزيرة).

ذلك الموقف السياسي المتطرف، دفعت التجربة الجديدة للحكم الوطني في اليمن الديمقراطي، ثمنه كاملاً في ما بعد، ليس في توتير العلاقات على جميع المستويات مع الجيران الأشقاء من دول الخليج فقط، ولكن حتى على الصعيد الداخلي، فيما كان يسمى «جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية»، والذي تجسد في الصراعات الداخلية بين قيادات الدولة والتنظيم الحاكم نفسه من جهة، وكذا الخلافات بين النظام والقيادات مع الحلفاء من دول ما كان يسمى «المنظومة الاشتراكية» من جهة أخرى، والمشكلة الكبرى، أنه لم تقدم الصين – حينها – مقابلاً يذكر لقاء الأخذ بفكرتها تلك، صحيح أن الصين قدمت قروضاً ميسرة لشق طريق عدن – المكلا، وبناء مصنع الغزل والنسيج في المنصورة – عدن، وأرسلت بعثات طبية قامت بدور مشهود له، وما زالت تقوم به حتى اليوم، لكن الوعود الصينية السخية الكبيرة تبخرت، بعد ما جرى في بكين من تغير سياسي، تمثل في الإطاحة بما سُمّي بـ»عصابة الأربعة «، وهم المجموعة التي خلفت الرئيس ماو تسي تونغ في الحكم بعد وفاته، ومنهم زوجته، وهكذا أدارت الصين ظهرها منذ منتصف السبعينيات لحركات التحرر الوطني، وللبلدان المستقلة حديثاً في العالم الثالث، بما فيها اليمن الديمقراطية، وأعطت اهتمامها منكبة على برنامجها الداخلي الجديد، الذي كان الزعيم لـ(شنج بنج)، وهو أحد القيادات الصينية التي عاقبتها الثورة الثقافية بتجريدها من كل

مناصبها، وإرسالها إلى الريف لإعادة تأهيل نفسها ولمساعدة الفلاحين، دوره في هذا البرنامج / التوجه الداخلي، والذي أثبت صحته في الصين حتى اليوم، وسُمّي (البرنامج المركّب) مدته 60 عاماً، 20 عاماً مرحلة التجميع، 20 عاماً للإنتاج، 20 عاماً غزو الأسواق العالمية، وتحسين النوعية بدءاً في عام 1970م.

في طريقي إلى كوريا الديمقراطية، كان لا بد أن أمرّ على بكين لبضعة أيام، في زيارة غير رسمية، وهي أول زيارة لي إلى هذه المدينة العظيمة، التي كنت أتطلع للتعرف إليها، لأنني لم أزرها من قبل، نظراً لعدم وجود علاقات حزبية أو فكرية منذ منتصف السبعينيات، حسبما ذكرت آنفاً، وجدت المدينة مترامية الأطراف، لا تستطيع رؤية أطراف ضواحيها، وإنما يمكنك رؤية أعلى الجبال البعيدة في غربيها وشمالها وشرقها، أما في جنوبها، فتنبسط السهول بلا نهاية، وقد تناثرت البيوت والأكواخ على مساحاتها، تجولت في المدينة وشوارعها الفسيحة، التي يمخر بها مئات الآلاف من المواطنين وهم يركبون دراجاتهم الهوائية، ولكنهم ليسوا مثل القلة القليلة من أصحاب الدراجات الهوائية في عدن (آنذاك)، الذين هم معروفون بمخالفة قواعد المرور وإرباك حركة السيارات، فمناظر حركة راكبي الدراجات الهوائية التي تراها في بكين، هي واحدة من جملة مظاهر كثيرة، تجعلك مستغرباً من الانضباطية العالية التي يتمتع بها الصينيون، وفي المدينة تكثر الساحات العامة، فقد زرت ساحة الرئيس ماو وتجولت بها، لكن زيارتي لساحة «تيان – آن – من»، كانت أفضل، لأن هذه الساحة كانت مفتوحة في هواء طلق رحيب، وبدون أسوار قريبة، ويتوسطها بناء صيني مهيب، تحيط به ميادين وساحات خضراء من كل جانب.

وتكثر في المدينة المعابد التي ينظر إليها الصينيون على أنها متاحف، وزرت منها معبد السماء، وهو معبد يقع على قمة مرتفعة، صُفّت عليه أماكن

الجلوس الخشبية من أسفله إلى أعلاه، وما إن تصل إلى القمة، حتى ترى المعبد الدائري الشكل، الذي يتكون سقفه من ثلاث مظلات (سقوف) صينية سوداء اللون، رائعة الشكل، وكانت هي الزيارة الوحيدة.

وفي الحقيقة أن أي زيارة لأي مسؤول إلى هذا البلد (الصين)، كانت تفسر في تلك الأيام، في موسكو وعواصم بلدان المنظومة الاشتراكية والأحزاب الاشتراكية والثورية في العالم العربية أيضاً، بأنها حنين إلى التطرف، وميل إلى معاداة السوفييت، وكانت مثل هذه التفسيرات، تهمة لا يتحملها ظهر أحد من المسؤولين، غير أنني وجدتها فرصة في أثناء تقلبات أيديولوجية وسياسية واقتصادية، مرت بها الصين، ومر بها الاتحاد السوفييتي، حيث وصل الرئيس جورباتشوف إلى سدة الحكم في الكرملين، واتخذ مواقف وسياسات جديدة غير مألوفة، منها أن أسقط حالة العداء والخلاف الأيديولوجي مع الصين، وذلك قبل أن يسقط حالة العداء والخلاف الأيديولوجي مع الدول الرأسمالية والمعسكر الغربي عموماً.

كان برنامج الزيارة المذكورة عملياً جداً، فلم تكن هناك بنود كثيرة خاصة بالتنزه والجولات السياحية، وعن برنامج الزيارة الرسمي، استُقبِلنا من قِبل الأمين العام للحزب الشيوعي الصيني، وسكرتير اللجنة المركزية للعلاقات الخارجية، وقابلنا وزير الإنشاءات الصيني، الذي تشرف وزارته وتمول مشروع شق طريق العسكرية – لبعوس في محافظة لحج، وهو أول طريق حديث يشق إلى منطقة يافع الجبلية الواسعة.

ومن ذكريات الزيارة، أذكر تلك الحيوية التي كان يتمتع بها الأمين العام للحزب الشيوعي الصيني، وهو الذي شغل في الخمسينيات منصب سكرتير اتحاد الشبيبة العالمية، عندما كانت الصين على وفاق مع الأممية الثانية «الكومنترن»، بقيادة الاتحاد السوفييتي، وهي حيوية لم تكن موجودة في الزعماء

والمسؤولين الصينيين السابقين، الذين وُصِفوا دائماً بالتثاقل والحركة الرتيبة، نتيجة لتقدمهم الشديد في السن، فلقد استمر لقاؤنا معه لأكثر من ساعتين وربع الساعة، ودارت خلاله الكثير من الأحاديث عن مواضيع شتى، وأذكر أنه كان هناك نقد للموقف الصيني تجاه القضية الفلسطينية – حينذاك – وكذا عدد من المواقف الصينية في هيئة الأمم المتحدة تجاه بعض القضايا العربية، حيث أخذت الشؤون الخارجية الوقت الأكثر من زمن هذا اللقاء، ولا شك أن العلاقات الصينية السوفييتية، كانت ضمن ما نوقش، لأنها كانت مسألة محل اهتمام هذا القائد الصيني، الذي أقيل بعد عامين من مقابلتنا له، وظهر الزعيم شنج بنج كقائد صيني واحد لا ينافسه شخص آخر في السلطة الصينية العليا، التي قامت بإحداث تغييرات أساسية كثيرة في الصين منذ ظهوره وحتى وفاته.

في إطار الخلاف الذي كان بيننا (قيادة الدولة والحزب الحاكم في عدن)، والذي سبق تفجر أحداث **13** يناير **1986**م بعد شهرين من الزيارة، ناقش المكتب السياسي للحزب الاشتراكي اليمني، هذه الزيارة، واستعرض اهتمام الصينيين بنا، نحن الذين قمنا بها، وكنا حينها محسوبين على الطرف الذي يتزعمه عبد الفتاح إسماعيل، وفي الاجتماع، حاول الطرف الآخر الذي يتزعمه الرئيس علي ناصر محمد، إلصاق تهمة «الماوية» و«العداء للسوفييت» بنا، لكن ذلك، ومن حسن الحظ، جاء متأخراً للغاية، لأن الأجهزة السوفييتية وأصدقاءها كانوا أيامها منشغلين كثيراً بأفكار وسياسة الرئيس السوفييتي ميخائيل جورباتشوف في التجديد والعلنية (البروسترويكا)، ولم يعد السوفييت – حينها – يحصون دبيب النمل، كما أنني، بحكم خبرتي في العلاقات الخارجية، قد وضعت الحيطة لمثل هذا الموقف، بأن ضمنت برنامج الجولة الخارجية للوفد الذي أرأسه، بقيامي بالمرور على موسكو، في زيارة بعد انتهاء زيارتي إلى كل من الصين وكوريا الديمقراطية، والحرص على مقابلة قيادات سوفييتية، ومنها أهم

وأطول مقابلة مع البروفسور «بروتنس»، مساعد رئيس قسم العلاقات الدولية للشؤون العربية باللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفييتي، وذلك أثناء حفل في سفارتنا في موسكو، بمناسبة ذكرى الاستقلال الوطني 30 نوفمبر، وجلوسنا أنا وهو أثناء الحفل في إحدى غرف مبنى السفارة وحدنا.

وزيارة موسكو، وعقد مثل تلك اللقاءات، هو ما خفف إمكانية القبول بتوجيه تهمة «الماوية» ومعاداة السوفييت لنا، في اجتماع المكتب السياسي المذكور، ولكنه في نفس الوقت، أضفى حدةً وجدلاً في مناقشات المكتب السياسي لموضوع الزيارة، من خلال ما طرحه الأخ الرئيس/ الأمين العام للحزب، وفقاً لتقارير القائمين بالأعمال في كل من بكين وموسكو، وخاصة القائم بالأعمال في موسكو، الذي أظهر امتعاضه الشديد من لقائي مع البروفسور بروتنس، بل حتى إنه أظهر في تقاريره، امتعاضه من زيارتنا ووجودنا في موسكو، وربما كان ذلك بسبب توقيت الزيارة المناسب من قِبلي، بعد زيارات بيونج يانج وبكين، أو ربما كان ذلك بسبب الخوف من أنني قد أوضحت للمسؤولين، حقيقة ما كان يدور من صراع حاد وعنيف بين قيادات الدولة والحزب في عدن.

وبعد ذلك، تغير كل شيء، تغير الاتحاد السوفييتي، نظراً لسياسات داخلية وخارجية خاطئة، وانصرف الرفاق والدول الرفيقة كل في طريقه، موسكو سارت في اتجاه، وعدن سارت في اتجاه، وبكين سارت في اتجاه، هكذا مثلما عبّر الدكتور تركي الحمد، في مقال له في جريدة الشرق الأوسط، عن تلك الظروف (بعد أن كانت الوصاية على الإنسان من خلال الفكرة ودوامها، تؤدي في النهاية إلى انهيار الكيان القائم عليها أو بها، فالإنسان ولد حراً، ليعيش حراً) 1999/11/28م.

كانت بكين الأكثر صواباً في نهجها أو مسارها الجديد، فقد وهبت عقلها وقلبها للتطور الاقتصادي، والتطور التكنولوجي والتقدم العلمي، وإن ما يحسب لبكين بعناية، قدرتها على التغلب على رتابة وخمول الاقتصاد الاشتراكي وعقمه تكنولوجياً، وعدم قدرته على التجديد والتحديث والمنافسة والمسابقة، فقد أصبحت الصناعات ذات التكنولوجيا العالية والتقنيات العالمية الحديثة المستخدمة في الصناعة الآن، من المكونات الأساسية لاقتصاد بكين والصين كلها، كما أن بكين العاصمة، نمت اقتصادياً بمعدلات عالية فاقت الـ **10%** سنوياً، ما أدى إلى نمو المدينة نفسها، حيث أصبح عدد سكانها يقدر بنحو **15** مليون نسمة. لم تعد منغلقة على نفسها – كما كانت في الماضي – بل صارت منفتحة كاملاً على الاقتصاد العالمي. فقد أقامت السلطات في بكين، منطقة حرة صناعية وتكنولوجية وتجارية، تعمل فيها الكثير من الشركات العالمية والشركات المتعددة الجنسيات بكل حرية، كما أن بكين تُعَد الآن مركزاً عالمياً فعالاً للعلوم والتكنولوجيا، بوجود أكثر من مئتي جامعة متطورة ومركز أبحاث حديث فيها، كما أنها المركز الاقتصادي للبلد المترامي الأطراف، والذي أصبحت هونج كونج وماكاو جزءاً منه، وهي القناة الاقتصادية الرسمية والخاصة، التي تربط آليات الاقتصاد الصيني الضخم مع العالم، حيث توجد بالمدينة مقرات لآلاف الشركات المحلية والأجنبية.

ومن الناحية السياسية، فيبدو أن بكين تبني طريقاً ثالثاً بين الاشتراكية، التي كانت قائمة على الصراع الطبقي والأممية البروليتارية، وبين الرأسمالية المتطورة، وبقاء بكين كقطب واحد اشتراكي، خفف أو أنهى ذلك التطاحن الأيديولوجي العقائدي، الذي كان متأججاً بين قطبي الاشتراكية الكبيرين، بالفعل، أصبحت بكين القطب الواحد الاشتراكي الآن، مثلما هي أمريكا صارت القطب الرأسمالي الواحد، وأيضاً القطب العالمي الواحد، ولكن الفوارق

بين هذين القطبين الجديدين بعد انهيار الاتحاد السوفييتي، كبيرة، والإيجابي منها لصالح بكين، لأنها صاحبة مبدأ (نظامان في دولة واحدة)، ولأنها أدركت أن «كعب أخيل» بالنسبة لموسكو، كان الاقتصاد، ولأنها عاقلة رزينة، لا تحب التسرع، وتميل إلى السير بتأنٍ، رويداً رويداً، على العكس من واشنطن، عاصمة القطب الآخر الأقوى عالمياً، والتي لم تتخلَ بعد عن طيش عقلها في حب الهيمنة، وعن تسرعها في كشف نواياها في أن تصبح سيدة العالم، هذا مع أنني سمعت ورأيت برنامجاً في قناة الـ«سي. إن. إن» الأمريكية هذا الشهر (أبريل 2009م)، استعرض كتاباً صينياً نزل الأسواق حديثاً، وهو عن موضوع «أماكن وجود الصينيين في العالم»، وبالرغم من أن الصينيين الموجودين في الولايات المتحدة الأمريكية وأوروبا، الذين ظهروا في البرنامج، قد قالوا بوضوح، إنهم لا يهتمون بأمر الكتاب، ولا يهتمون بما جاء فيه عنهم، إلا أن مؤلف الكتب ظهر في البرنامج، وقال بصراحة: «نحن الصينيون، القوم الأنسب لحكم العالم».

الصين الآن حاضرة بقوة في المشهد الدولي، وبقوة أكثر في الاقتصاد الدولي، ولنا عجب فيما يأتي من هذا البلد العريق.

بيونـــغ يانـــغ

القول المأثور «اطلب العلم ولو بالصين»، تجاوزناه، تاركين الصين إلى كوريا الشمالية، فمن بوابة الصين، وبعد أن أمضينا عدة أيام في بكين، وصلنا إلى بيونغ يانغ، الواقعة في شمال كوريا الشمالية، لكن مع تغير بسيط في شكل معنى الحكمة، وفي الموقع أيضاً، فها نحن نطلب العلم في كوريا.

مدينة بيونغ يانغ، عاصمة جمهورية كوريا الديمقراطية (كوريا الشمالية)، تقع على مقربة من بلاد أو مقاطعة منشوريا الصينية، التي تحدها من الشمال، ويحتضنها البحر الياباني من الشرق، والبحر الأصفر من الغرب، وهذان البحران أثرا بمناخهما على مناخ المدينة، وجعلاه معتدلاً، وأقل برودة في مواسم الشتاء، أما عن الأجواء السياسية، فمن هذه الناحية، أدركنا أن النفوذ الصيني، وخاصة بعد الحرب الكورية، هو الأكثر وضوحاً، وإن كان للسوفييت بعض البصمات والآثار هنا، لكنها لا تصل إلى مستوى النفوذ الصيني البتة.

منذ اليوم الأول، تشعر في بيونغ يانغ، بتداخل ثلاثة عناصر، جميعها مهمة: التاريخ الحديث، فالمدينة عاصمة لجمهورية كوريا الديمقراطية الشعبية (كوريا الشمالية)، التي لا يزيد عمرها على ستين عاماً، والتاريخ القديم، لأنها عاصمة كوريا كأمة (شمالها وجنوبها)، منذ أكثر من خمسين قرناً من الزمان، حين أنشأتها العائلة الأم، عائلة «دانكون»، أما العنصر الثالث، فهو فعل الأفكار والنظريات القوي هنا على الناس، فالمدينة كما يطلق عليها اسم «عاصمة كوريا زوتشه».

كوريا الشمالية، كانت أول بلد شرقي يزوره الرئيس قحطان محمد الشعبي في عام 1968م، وتعززت تلك العلاقة من خلال المد الصيني في بداية

السبعينيات، ما سهّل انتشار الأفكار الثورية الماوية والكورية الفلسفية، إلى جانب أفكار الاشتراكية العلمية، التي كانت تعيش أيامها عصرها الذهبي، وعممت إصداراتها النظرية في كتب على نطاق واسع، بل وفي كل المراكز الثقافية التي أنشئ الكثير منها، لهذا الغرض تحديداً، إلا أن تلك الأفكار الفلسفية الماوية والكورية، أصيبت بنكسة، بالذات بعد نجاح المؤتمر العام الخامس للتنظيم السياسي الجبهة القومية، الذي انحاز إلى موسكو، عوضاً عن محور بكين/ بيونغ يانغ الفكري.

وتلقت «الأفكار الثورية الماوية والكورية الفلسفية»، ضربة قاصمة، بعد إقصاء الرئيس سالم ربيع علي، ومقتله عام **1978**م، وفي فترة حكم الرئيس علي ناصر محمد، أعيد تنشيط العلاقات مع كوريا الديمقراطية والصين الشعبية، تزامناً مع تقوية العلاقة مع بقية دول المنظومة الاشتراكية، وظلت تلك العلاقات في تحسن مطرد طوال الثمانينيات، وحينها، رأت كوريا إزاء ذلك، أن تجدد العلاقة الثقافية مع اليمن، لتصدير أفكارها (أفكار زوتشه)، أفكار الرئيس الكوري كيم إيل سونج.

وفي شهر نوفمبر **1984**م، تقرر أن نقوم بزيارة كوريا الديمقراطية، وكنت حينها عضواً في المكتب السياسي، وسكرتير اللجنة المركزية لدائرة الإعلام والثقافة في الحزب الاشتراكي اليمني، ترأست الوفد الذي تم تشكيله من الإخوة: ناجي عثمان أحمد (محافظ محافظة لحج)، عبد الملك محمد علي شمبره عضو اللجنة المركزية، نائب سكرتير الدائرة الاقتصادية، وكان قد درس هناك، ضمن **16** طالباً يمنياً، وهو يعرف البلاد ويتقن لغتها، كما أنه الوحيد الذي أكمل دراسته هناك، وعاد سليماً معافى إلى اليمن، لأن بقية الطلبة الآخرين قطع بعضهم دراسته عائداً، والبعض الآخر أصيب بحالة نفسية سيئة هناك، لاختلاف السلوك وعادات المعيشة في كوريا، ولهذه الوقائع، جاءت المزحة التي

كانت تتردد حينها، أن الرئيس الكوري كيم إيل سونج، هو زعيم الأربعين مليون كوري، وستة عشر طالباً يمنياً.

الزيارة المذكورة، جاءت بعد مسعى وجهد حثيثين، بذلتهما السفارة الكورية في عدن، ورأت حينها، أنه بما أنني مسؤول للإعلام والثقافة في اللجنة المركزية للحزب القائد، فإنني بلا شك، أتحمل المسؤولية الإعلامية، وأفضل المرشحين الافتراضيين للقيام بالترويج الأيديولوجي والثقافي لأفكار كوريا زوتشه، ولعل هذا هو ما دفع السفارة الكورية إلى ترتيب رحلتي إلى كوريا، وكذا، إقناع الرئيس علي ناصر محمد، بجدوى إقامة برج مصغر في ساحة خليج صيرة بمدينة كريتر – عدن، يشبه إلى حد ما برج (زوتشه) المطل على مدينة بيونغ يانغ.

وكان الكوريون، وكبادرة حسن نية، قد قاموا قبل ذلك ببناء مجسم شبيه بصورة الرئيس علي ناصر محمد، بساحة مدينة خور مكسر بعدن، ما أثار خلافاً في قيادة الدولة والحزب الحاكم، امتد على مستوى الشارع، الذي أبى ويأبى تمجيد الأشخاص، في ظل قيادة جماعية للبلد، وخلفية ثقافية ودينية لا تحبذ المجسمات البشرية للأشخاص، مهما كانوا.

تم تحديد موعد الزيارة إلى مدينة بيونغ يانغ، على الرغم من توجس السفارة الكورية بعدن، بعدم مقابلة الزعيم الكوري كيم إيل سونغ، إذ إنهم يرون أن مقابلة الرئيس الكوري أمر هام، تقرره العاصمة بيونغ يانغ، وليس وزارة الخارجية الكورية.

استقللنا الطائرة من مطار الشارقة، ومن الشارقة سافرنا حتى مطار بكين، حيث استغرقت مدة الرحلة ثلاث عشرة ساعة، وصلنا بكين الساعة الواحدة ظهراً، وهناك مكثنا عدة أيام، وبعدها سافرنا في رحلة جوية من بكين حتى بيونغ يانغ، استغرقت ساعتين من الزمن، كان المستقبلون المكلفون من

الحزب الكوري الحاكم، ينتظروننا في المطار، وكذا، كان السفير السوفييتي في استقبالنا هناك، وهو الأمر الذي أثار انتباهي ودهشتي.

انتقلنا بسيارتين إلى دار الضيافة، ومن العجيب أنه يبعد عن المدينة حوالي الساعة، وما زاد العجب، أننا اكتشفنا بعدها أن ذلك مقصود، ومكان دار الضيافة، عبارة عن استراحة تضم عدداً من الفلل والقصور الجميلة، ومما زادها جمالاً، إطلالتها على بحيرة هادئة، تكسو الخضرة جوانبها من كل ناحية، ظننا في بداية الأمر، أننا في أحد المنتجعات أو دور الضيافة السياحية، إلا أننا عرفنا في ما بعد، من المترجم، أن هذا الموقع يقع ضمن أراضي مقر الرئاسة، ومكان (ناحية) إقامة الزعيم كيم إيل سونج، وقد خصص لإقامتنا حتى نتمكن من مقابلة الزعيم، وهو شيء جميل، ولكننا عندما كنا نخرج قاصدين المدينة، كنا نضطر إلى قطع مسافات طويلة، تستغرق زهاء الساعة ذهاباً وأخرى إياباً، وتساءلنا مع الزميل الدكتور عبد الملك، عن سر بعد المسافة عن مدينة بيونغ يانغ، فقال لنا إنه جزء من التكتيك، لكي يتمكن المرافقون لنا والمتخصصون من ذوي الكفاءة العالية في الفكر الثوري الكوري، من الحديث معنا طوال الرحلة، لإقناعنا بجدوى فكرة زوتشه، وذلك قبل المقابلة الموعودة مع الزعيم كيم إيل سونغ.

إذن، ما هي الفكرة المراد إيصالها لنا تلك، التي سخّروا لها متخصصين أكفاء، وكلفوهم بالمرافقة والتجول معنا، يحدوهم أمل إقناعنا بمحتواها وتبنيها منهجاً، آملين بذره في اليمن؟.

إنها خليط من الفكر الماوي والسوفييتي، ويعتقد منظرو حزب العمل الكوري، أنها أفكار المنظّر الفيلسوف والملهم الثوري للشعب الكوري كله، كيم إيل سونغ، التي صرف عليها الكوريون مليارات الدولارات في أنحاء العالم، ولم يقبل بها أحد، حتى في عدن الثائرة، وحدث هذا، على الرغم من تشكيل

الملحق الثقافي بالسفارة الكورية في عدن، في منتصف السبعينيات، خلايا سميت «خلايا الزعيم كيم إيل سونغ»، إلا أن تلك الأفكار ماتت بمجرد ظهورها، مثلما تموت النبتة غير الصالحة للزراعة في تربة غير تربتها، وفي مناخ غير مناخها، وما زال الأخ محسن عز الدين، النقابي العمالي في مصفاة الزيت بعدن الصغرى (البريقة)، يضحك ضحكات عالية مجلجلة، كلما ذكرنا له ذلك التشكيل «خلايا الزعيم كيم إيل سونغ».

في الأربعة الأيام الأولى من الزيارة، تجولنا في بيونغ يانغ، التي كان عدد سكانها، بحسب ما قيل لنا عند زيارتها، قرابة مليون وربع المليون نسمة، وسكانها اليوم، كما علمت، يقاربون الثلاثة ملايين نسمة، والمدينة واقعة على ضفاف نهر «دايدونغ»، وقد وجدناها مدينة حدائق، كونها تمتاز بمساحاتها الخضراء المنتشرة في كل الأنحاء والأحياء، بحيث يصبح إجمالي المساحات التي تشغلها تلك المساحات، أكثر بكثير من المساحات التي بنيت عليها المباني والطرقات، ولكن ليست جميع الأشجار حدائق، فعندما تدخل حديقة العاصمة، تحس بأهمية تنظيم وترتيب الخضرة والأشجار والزهور، التي منحنا إياها خالقنا، كما تحيط بالمدينة التلال والمنحدرات التي يكسوها الاخضرار وألوان الزهور والورود المتعددة.

زرنا مواقع كثيرة في المدينة، منها ضريح فكرة (زوتشه) للزعيم الكوري كيم إيل سونج، وهو أساساً تمثال عملاق له، منتصب فوق تلة صغيرة، وهو يرفع يده اليمنى نحو الأفق البعيد، ويعطي الموقع ككل، فكرة عن حضارة الإنسان الشرق آسيوي، الذي يقدس الزعامة على مدى التاريخ، كما قمنا بزيارة مترو «بيونغ يانغ» وأنفاقه الحسنة الهندام، ثم زرنا مصنعاً، وشاهدنا هناك دبابة موديل «تي 52»، تم صنعها في كوريا، وقد وضعت على قاعدة أسمنتية خاصة، وقيل لنا ونحن نشاهدها في المصنع، إن صناعة تلك الدبابة، مستلهمة

من أفكار الزعيم العظيم (كيم إيل سونغ)، فأخذتنا الحمية نتيجة لكثر ما سمعناه من كلام مشابه من قبل، حتى أصبح مبالغة حول دور الزعيم وفعل أفكاره في كل شيء، وقلنا لهم: لا، إنها نسخة من الدبابة السوفييتية تي 52، وأيضاً ذلك المترو الأرضي، يبدو وكأنه نسخة مصغرة لمترو موسكو، وعندما سمعوا كلماتنا تلك، احمرت وجوههم، لم يعجبهم ما قلناه لهم، وبدا عليهم الامتعاض والانزعاج واضحين.

وفي اليوم الخامس من زيارتنا، قدموا إلينا صباحاً، وأشعرونا بأن موعد المقابلة مع الزعيم كيم إيل سونغ قد حددت لنا، خرجنا من دار الضيافة الساعة التاسعة صباحاً، حيث أقلتنا سيارة الوفد المخصصة برفقة عضو المكتب السياسي، سكرتير الدائرة الأيدلوجية لحزب العمل الكوري، وقضينا نحو ساعتين كاملتين ونحن نلف وندور في طرق مختلفة لمنطقة تبدو أنها واحدة في شكلها، وشوارعها وأشجارها، بل بجغرافيتها وطبيعتها، وبعد حين، اقتربنا من مبانٍ أكثر ضخامة، فاعتقدنا أننا وصلنا إلى المكان المحدد لمقابلة الرئيس، فإذا بنا نجد أنفسنا في دار ضيافة جديدة، دخلنا إليها لأخذ راحتنا، قبل أن نواصل البحث عن المقابلة، حيث طلب منا المترجم أن نخلد للراحة وشرب الشاي الساخن، استعداداً لمقابلة الزعيم، لم نرتحْ في هذه السويعات التي ذهبت هدراً، ولم ينسنا طولها ورتابتها، انهماكنا في ترتيب الأفكار وكيفية التخاطب، وما العبارات التي يمكننا قولها للزعيم الكوري.

بعد ساعتين من زمن الانتظار، وما أطول لحظات الانتظار، طلب منا التحرك، فتحركنا، وإذا بنا في مكان آخر، حيث بدا وكأنه في منطقة البحيرة ذاتها التي نسكن على ضفتها، ولكن المرافقين أنهوا حيرتنا، عندما قالوا لنا، إننا وصلنا المحطة الأخيرة، فقلنا لبعضنا (الحمد لله، استعدوا يا جماعة، لقد وصلنا!).

دخلنا المكان، فإذا بالمرافقين والمترجم يطلبون منا التوجه إلى مبنى صغير، وهو عبارة عن مرسى في الجزيرة، صعدنا زورقاً تابعاً للضيافة، انطلق بنا إلى المكان المحدد للقاء الزعيم المبجل عند الكوريين، وبينما كان القارب يمخر النهر (البحيرة)، رأينا المدينة بمعظم أنحائها، وكان أن رأينا المنطقة التي نقيم بأحد أطرافها، ضمن هذا المشهد العام، ولكن العجيب أنها كانت من أقرب المناطق إلى وجهة القارب، حيث سنقابل الزعيم، فلماذا كل هذا الدوران الذي دام ما يقارب الأربع ساعات، تخللتها رتابة الوقت، رغم جمال المحيط الذي نرى، وهذا التداخل المتناقض، لم نشهد مثله من قبل أبداً.

عند الساعة الواحدة إلا ربع، وصلنا بحفظ الله ورعايته الجانب الآخر من المرسى، وكانت في انتظارنا سيارة خاصة بالرئاسة، فخمة وحديثة، تحركت بنا إلى أحد القصور الضخمة الجميلة، ثم ترجلنا منها ودخلنا ردهة واسعة، فيها مساحات بديعة واضحة من الجمال الكوري المستوحى من تقاليد الشعب الكوري العظيم، خففت من حلقة الانتظار الجديدة التي عشناها فيها، متأملين شمعدانات الإضاءة، ومناظر الطبيعة المرسومة بلوحات ضخمة الحجم على الجدران، وبعد انتظار دام نحو ربع ساعة أخرى من الزمن، جاء أحد المسؤولين ليأخذنا، نحن القادمين من عدن فقط، للمقابلة، فقد كان في القاعدة أشخاص من جنسيات عدة، وإذا بنا وجهاً لوجه أمام الزعيم المبجل كيم إيل سونغ، زعيم الأربعين مليون نسمة، و«شمس الشموس وبدر البدور»، كما يحلو للمترجمين الكوريين وصفه بلغة الضاد، استقبلنا في صالة واسعة مثل السابقة، بود جم، وبابتسامة عريضة، مُرحّباً بقدومنا، وبدا لنا شخصاً ظريفاً إلى حد كبير، ودائم الابتسامة، واتسعت تلك الابتسامة، حين التقطت لنا صورية تذكارية معه.

ثم انتقلنا إلى مكتبه الفسيح المساحة، جلسنا أمام طاولته الخشبية الأنيقة، حيث تحدثنا نحن أولاً عن همومنا وآمالنا، ثم علّق على ما قلناه، وشرح لنا أن اليمن والرئيس اليمني (علي ناصر محمد) حينها، لهما مكانة خاصة لديه، وأنه سيكون شخصياً صديقاً لليمن، وأنه لولا بُعد كوريا عن اليمن، لأرسل مزيداً من المساعدات إلى الشعب اليمني، وبالمناسبة، فإن كوريا الشمالية قدمت من قبل إلى اليمن الديمقراطية مساعدات في مجال الزراعة، وخاصة في وادي ميفع حجر بحضرموت الساحل.

استمر الحديث في الجلسة مع الزعيم الكوري بصورة اعتيادية، وإذا بعضو المكتب السياسي لحزب العمل الكوري، يطلب مني أن أُسمع فخامة الزعيم ما سجلته في دفتر الزيارات لمشروع كنا قد زرناه قبل أيام، وهو مشروع تحويل مجرى نهر من وادٍ إلى أودية أخرى، تقام في موقع منشآت سدود ومنشآت تصريف مياه ضخمة، وقيل لنا هناك، إن المشروع يعد من أكبر المشاريع التنموية في كوريا الشمالية، وقد شاهدنا ذلك في الموقع الذي ينفذ العمل فيه عشرات الآلاف من جنود الجيش الوطني الكوري.

ورداً على طلب المسؤول الكوري المذكور، وفي حضرة القائد الكوري، كررت قول ما كتبت وسجلت في دفتر ملاحظات زوار المشروع، وهو أن «العظماء هم الذين يقومون بمثل هذه الأعمال العظيمة»، حينها، إذا بالزعيم يبتسم ويقول لي: «حقاً إنك صديقي»، شعرت حينها بالسرور تجاه هذه الكلمات الصادرة عن قائد كوريا وأبيها الروحي، بل ومعبودها البشري، ولكني تذكرت حينها، أننا فقدنا الرئيس قحطان الشعبي، لمجرد أنه قال في الطائرة وهو عائد من هنا، أي من بيونغ يانغ، مخاطباً من رافقوه «أنتم لا تحترمون قادتكم، كما يحترم الكوريون رئيسهم».

مهما يكن الحال، فإن ما تقوم به كوريا من بناء وتنمية شاهدناهما، يستحق الثناء والإعجاب، أما عن الجمال الذي يناولونك إياه دائماً، وحيثما ذهبت في بيونغ يانغ، فهو الزهور والورود، ذلك أن المدينة تمتاز بكثرة الورود والزهور، كماً ونوعاً، فهي تُهدى إليك في كل مكان، وقيل لنا إنها رخيصة جداً عندما تباع، ويحب أبناء بيونغ يانغ الورود والزهور كثيراً، وفي مرات عديدة، حاول أفراد منهم أن يعلمونا أسماء هذا النوع من الزهور أو ذاك النوع من الورود، إلا أننا لم نحفظ أياً منها، لأنها كثيرة، وكونها جميعاً في نظرنا متشابهة، كما هو الحال في تشابه وجوههم، فقد كنا دائماً نخلط بين هذا الشخص وذاك.

بالنسبة لتمجيد وتأليه الزعيم القائد العظيم، فقد كنت أقول دوماً، إن الشعب الكوري حُر فيما يراه ويفعله، ولكن من تأثير ما رأيناه هناك، أن رؤيتنا له أصبحت سلبية، حين عرفنا أن ابن الزعيم القائد العظيم، أصبح خليفة لوالده (ولي العهد) عام 1974م، حين كان عمره 32 عاماً، وكان ذلك بدون شك، عندما توفي كيم إيل سونغ بعد عمر طويل عام 1994م، ليخلفه ابنه في حكم الدولة والمجتمع، وجاء هذا الحدث، كأول بادرة حكم وراثية لتوريث نظام جمهوري اشتراكي أو شيوعي.

وبمناسبة الحديث عن الزعيم والقائد الكوري وابنه الذي ورثه في قيادة البلد، فلا يفوتني التذكير أن الزميل المرحوم عبد الملك محمد علي، كان زميل دراسة للزعيم الكوري الجديد (الابن) في منتصف السبعينيات، وقد قال لي إن الزعيم الكوري الحالي «جونغ إيل»، كان في الجامعة متواضعاً وعادياً أثناء الدراسة، فقلت له يومها (أثناء زيارتنا إلى بيونغ يانغ): «انتظر حتى يحل محل أبيه، فعندها سترى المخبَّأ، وسينكشف المستور».

عودة إلى زيارتنا تلك، كان من العجيب أنه، وبعد انتهاء لقائنا مع الزعيم كيم إيل سونج، أن أصبح المرافقون الكوريون لنا يتحدثون معنا بلطف أكثر من ذي قبل، وحصل تبدل في مضمون أحاديثهم، فهم لم يعودوا يتحدثون عن تجربتهم الخاصة في بناء الاشتراكية، بل صاروا يتحدثون أكثر عن أهمية العلاقة الحميمة بين الشعبين، ومثل هذه الأحاديث، كانت تصدر حتى على مستوى عاملي دار الضيافة وسائقي السيارات الكوريين.

وعند مغادرة بيونغ يانغ، تم توديعنا بحفاوة منقطعة النظير من قبل المسؤولين الكوريين، وبدا وكأنه يحدوهم الأمل بأنهم قد بذروا بذور أفكار (زوتشه) في اليمن، ومنها سوف تنتشر إلى بقية المنطقة العربية، والحقيقة، أنهم لم يكونوا يفهمون واقع تجربة الحكم الماركسية في عدن وجنوبي اليمن، ولم يضعوا في حساباتهم، أننا كنا أثناء الزيارة مثقلين بأفكار وهموم أخرى، وعلاقات مستعصية وصراعات داخلية مشينة، إذ جاءت أحداث يناير **1986**م في عدن، التي فقدت خلالها آلافاً من القيادات المجربة والمؤهلة، بعد شهر واحد فقط من هذه الزيارة الوحيدة إلى بيونغ يانغ وإلى كوريا، ومثلت تلك الأحداث تشوهاً عميقاً لفكر الاشتراكية العلمية في اليمن، بل إنها كانت السبب في بداية تخلينا عنه، لقد أحسن الرفاق الكوريون الشماليون ضيافتنا خلال تلك الزيارة، وكانوا دائماً صادقين في علاقتهم بنا، وكانوا طيبين، ولكن كنا في وادٍ، وكانوا في وادٍ آخر.

حفيد كيم إيل سونج، هو الحاكم الفعلي الآن، الذي ورث السلطة والثروة، وأصبحت كوريا الشمالية دولة نووية، تصارع الأقطاب، وخاصة الأمريكي، وفقاً لأفكار وواقع «زوتشه».

نيودلهي

علمتني نيودلهي، الصبر والتأمل، لأنها تجمع بين حكمة غاندي (الصبر)، وحكمة بوذا (التأمل)، إذا قدر لك وزرت الهند، فأنت تزور عالماً قائماً بذاته، فيه كل المتناقضات، من الثراء الفاحش إلى الفقر المدقع، إلى البؤساء والمتسولين الذين هم بالآلاف على كل الأرصفة،

إلى صناعة الذرّة وعلم الفضاء، إلى الطب الحديث وطب الخزعبلات والأعشاب، كل ذلك يعيش بشكل متجانس ومتآلف، في خضم هائل من الأجناس البشرية المتنوعة الأعراق، كالدرافيين، القوقازيين، الهندوس، البنجابيين، البنغال، وغيرهم. كل أولئك من ذوي الديانات المتعددة من عبدة البقرة إلى عبدة نهر الجانج، إلى البوذيين، والمسيحيين، والمسلمين، وقلة قليلة من اليهود، مقارنة بالديانات والعبادات الموجودة. ويتعامل هؤلاء، أو بالأحرى، يجمعهم نحو **225** لساناً ولغة في الحديث، من أهمها اللغة الإنجليزية واللغة الأردية، الماراثية، البنغالية، البنجابية، الأسامية، التبتية.. إلخ، ومع كل تلك النقائض والغرائب والمزج العجيب، فقد ضمتهم دولة واحدة مترامية الأطراف، تشكل شبه القارة الهندية. إنها جمهورية الهند، التي أسسها زعماء عصاميون، هم: المهاتما غاندي، جواهر لال نهرو، ومن بعدهم أنديرا غاندي.

بعد أن نالت الهند استقلالها سنة **1947**م من بريطانيا، نهجت نهجاً ديمقراطياً فيه التعددية السياسية والحزبية، وجمهورية قائمة على نظام اللامركزي، ولها سياسة خارجية متوازنة بين المعسكرين العالميين، الاشتراكي والرأسمالي، وهي أحد مؤسسي حركة «عدم الانحياز»، مع أنها أقحمت في صراعات شتى مع الصين، ومع باكستان جارتها اللدود، التي اقتطعت منها، إلا أن أهم مشاكلها،

هو كيفية إطعام عشرات ملايين الأفواه البشرية، وهذا الهدف غايتها وهمها الأول، منذ إعلانها جمهورية مستقلة، وحتى اللحظة.

وتقع مدينة نيودلهي العاصمة في شمالي الهند، على ضفاف نهر . يامونا . وهي ثاني مدينة بعد بومباي من حيث عدد السكان، وفي المدينة أماكن كثيرة تستحق المشاهدة، وتعد «القلعة الحمراء»، أشهر معالمها، بجدارها الحديدي وشرفاته التي تطل على معظم أنحاء الجزء القديم من المدينة. وعلى مقربة من القلعة الحمراء، يقع (مسجد جاما)، الذي بناه الإمبراطور شاه جاهان في عام 1656م، وهو أكبر مسجد في الهند، ويحتوي منارتين عاليتين، وأربعة أبراج، وثلاث بوابات مقوسة، وجدرانه مكسوة بأحجار حمراء ورخام أبيض، وتعلوه قبب جميلة كثيرة، وفي المدينة جملة من نصب البوابات، منها: بوابة «دلهي»، وشكلها العام يشبه قوس النصر الباريسي المشهور، ولكنها أقل حجماً منه بكثير، أما بوابة «لاهور»، فهي رمز للنضال والقتال من أجل الاستقلال، وفي وسط المدينة، يوجد ضريح الإمبراطور هومايون، الذي يشبه من الناحية المعمارية مبنى «تاج محل» بمدينة بومباي، كما يقع في وسط دلهي قوس ضخم مرتفع، بُني لذكرى الجنود الهنود الذين استشهدوا في الحرب العالمية الأولى، وتوجد أسفل بوابة القوس شعلة خالدة لذكراهم.

والشعب الهندي شعب عظيم، وهو شعب عاطفي بطبعه، رقيق الأحاسيس، ويمتاز أبناؤه بالذكاء ومشاعر فياضة جياشة، ولعل هذه الصفات العامة للأكثرية، هي التي أوجدت شخصية عالمية كبيرة، ارتبط اسم الهند الحديثة بها، وهي الزعيم «المهاتما غاندي»، الذي اختط منهجاً جديداً في النضال من أجل الحرية وكرامة الإنسان، وهو منهج النضال السلمي المناهض للعنف، ومع ذلك، فقد قتل «المهاتما غاندي» برصاص التعصب الهندوسي، مع أن الهند خرجت لتوها من ضنك الاستعمار والاحتلال البريطاني الأجنبي؛ فهل

كان «غاندي» يعرف أن نهاية مصيره ستكون على يد أحد المهووسين المتعصبين الهندوس، وهو الذي قضى حياته ودفعها ثمناً لحياة الهند، ويكاد الهند، بفضل تقدمه وتقدم الديمقراطية فيه، أن يتخلص نهائياً من الصراع الهندوسي ـ البوذي. لكن المشكلة أنك عندما تزور الهند وتناقش أحوال الناس، تحس بأن هناك صراعاً بوذياً ـ إسلاميً، وينبغي أن يتم تجاوز هذا الصراع الذي ظهر على السطح في العقود القريبة الماضية، كشرط لتحقيق التقدم الكبير للهند. وأقول هذا، لأنك عندما تقابل مواطنين من الهنود المسلمين، تحس من أحاديثهم بعمق هذه المشكلة، ولا بد أن أشير هنا إلى وجود كثير من المواطنين الهنود المسلمين من أصول يمنية، خاصة في مدينة حيدر أباد، التي يوجد فيها وحدها نحو سبعة ملايين مسلم، وكذلك يوجد مواطنون هنود مسلمون من أصول يمنية في مناطق أخرى من الهند، أهمها بومباي.

ارتبطت اليمن بالهند بعلاقات تاريخية قديمة؛ فكما كانت حيدر أباد، وكلكتا، ومدراس، وغيرها من مناطق الهند، أرضاً للوجود اليمني، كانت اليمن بالمقابل أيضاً ـ وبالذات عدن ـ أرضاً للوجود الهندي منذ أيام احتلال الإنجليز لعدن عام 1839م، فقد كان الهنود يشكلون نسبة وكتلة منفصلة من سكان عدن، ومع مرور الزمن، انصهروا في المجتمع العدني، وصاروا خيوطها في نسيجه، ومن الجدير بالقول، إن عدن، كمستعمرة، كانت تتبع الإدارة الهندية في بومباي (شركة الهند الشرقية)، وكانت تستخدم العملة الهندية «الروبية» حتى نهاية الخمسينيات من القرن المنصرم.

لذا كله، كنت مسروراً عندما زرت الهند، وتعرفت إلى أنديرا غاندي، وقابلتها ثلاث مرات، الأولى عندما كنت عضو الوفد الرسمي مع الرئيس علي ناصر محمد، ورافقتني في هذه المرحلة زوجتي، وكان سفرها معي في محله، إذ دعيت مع زوجة الأخ عبد الله الخامري إلى مأدبة العشاء الرسمية، وإذا بها

جلست في الحفل إلى جوار رئيسة الوزراء أنديرا غاندي، كانت المائدة ـ ليلتها ـ من أكثر الموائد الرسمية التي شهدتها في حياتي تواضعاً، قدموا خلالها وجبات هندية خفيفة بسيطة، تتفق مع بساطة الهنود في مأكلهم وملبسهم وحياتهم عموماً، ولقد اتضح لي من الحديث الدائر بين رئيسة الوزراء أنديرا غاندي وبين زوجتينا، أنه كان يدور حول أصناف الطعام وطريقة الطبخ وطرق إعدادها في كل من اليمن والهند، وعلى أي حال، فقد بين لي ذلك، أن هموم حواء متساوية، أكانت رئيسة وزراء أو مدرسة أو طبيبة، أو حتى ربة بيت. ولقد علمت أن أنديرا غاندي كانت زوجة مثالية، مثلما كانت سياسية وحاكمة من الطراز الأول.

وفي المرة الثانية، قابلتها أثناء زيارتي لنيودلهي في بداية الثمانينيات من القرن العشرين المنصرم (عام 1982م)، عند عقد مؤتمر دول عدم الانحياز، وكنت عندئذ وزيراً للخارجية، أما المرة الثالثة، فقابلتها فيها مع وزير الدفاع الأخ الشهيد علي عنتر، وحينها تمكن الأخ علي عنتر من مصافحتها يداً بيد، ولا أدري كيف ولماذا حدث ذلك: هل بدلة علي عنتر العسكرية كانت هي السبب؟، أم أن المصافحة كانت واجبة، بعد أن أدى لها التحية العسكرية، ومد يده لها للمصافحة، وأقول هذا، لأن العرف الهندي والمراسم الدبلوماسية المتبعة في الهند، لا يحبذان أن يقوم الرجل الضيف بمصافحة المرأة المسؤولة الهندية، وإنما يكتفي الزائر بالانحناء، والمرأة ترفع يديها أمام وجهها إشارة بالتحية، وبعد انقضاء المؤتمر، دُعينا إلى مأدبة عشاء أقامها الرئيس الهندي ورئيسة الوزراء على شرف المؤتمرين، وكان الأخ عبد الله الأشطل ممثلنا الدائم بالأمم المتحدة، أكثر لباقة، بحكم إجادته اللغة الإنجليزية، مع رشاقة مظهره وشبابه القادم من حياة نيويورك، وإذا بنا وجهاً لوجه أمام «إيميلدا ماركوس»، القادمة من الفلبين، وهي زوجة الرئيس السابق ماركوس، ومن أشهر النساء في العالم، وأكثرهن إثارة

وجمالاً ومالاً، إذ قيل مثلاً إنها تملك من الأحذية فقط خمسة آلاف زوج. وكانت مقابلتنا لها في وقت كانت تحكم فيه البلاد باسم زوجها العجوز، وبدعم أمريكي انقلب عليهم بعد سنوات، فأطاح بزوجها وبها من عرش السلطة الفلبينية، وفي تلك الأيام، كان ما جرى للسيدة الجميلة، عادة مألوفة للموقف الأمريكي تجاه عملائه الكرام.

حضرت أنديرا غاندي وهي ترتدي الزي الهندي، يكسو محياها وجه امرأة حاكمة عالمة وحكيمة، فقد كانت زعيمة استثنائية، بعد أن رحلت عن الدنيا، حين اغتالها ـ بعد فترة قصيرة من لقائنا بها ـ أحد حراسها من المتطرفين السيخ، لتحرق جثتها ويذر رمادها في نهر الجانج، الذي تقع مدينة نيودلهي على ضفافه، وكم كان مؤلماً أن نشاهد مأساة الاغتيال هذه على شاشات التلفاز، والأكثر إيلاماً، هو فقدان هذه المرأة العظيمة، التي لم يفقدها الهند وحزب المؤتمر الهندي وحدهما، وإنما خسرها العالم بأسره، أما السيدة الفلبينية الجميلة، فبعد بضعة أعوام من مغادرة كرسي الحكم، أصبحت مطاردة من قبل المحاكم الفلبينية، بسبب الديون المتراكمة عليها من جراء التكاليف الكبيرة لطريقتها في العيش، بما فيها حبها الشديد للملابس والأحذية والأكسسوارات، الذي يدفعها إلى شراء كميات كبيرة منها، وبرغم هذا، إلا أنها حتى اليوم لم تترك عادتها السيئة تلك.

تلاحظ في الهند، أن كل شيء جميل، الطبيعة الرائعة، والأمطار التي تهطل موسمياً، والحضارة الإنسانية المتنوعة في أشكالها ومضامينها، لكن ما لفت نظري في أول زيارة لي إلى الهند، ذلك الإنسان العاطل والمشرد في حارات وشوارع نيودلهي وبومباي، وغيرهما من مناطق الهند التي تنتج من البشر أضعاف ما تنتجه من المآكل لهم ومن حاجياتهم، وهذه مشكلة تعصف بالمجتمع الهندي، فأنت إن تمتعت بجمال الهند والأشياء الكثيرة التي بها، فإن ما يزعجك حيثما

ذهبت، وجود عشرات الفقراء الهنود يطلبون المساعدة منك، وبإلحاح، وقد تذكرت تلك المشاهد في شهر فبراير الماضي (2009م)، عندما فاز فيلم هندي لمخرج بريطاني (فيلم: مليونير الأحياء الفقيرة)، بسبع جوائز أوسكار (منها جائزة التصوير والإخراج.. إلخ)، وموضوع الفيلم عن شاب من تلك الأحياء الفقيرة، يشترك في برنامج «من يربح المليون؟»، ويفوز وينال المليون، فهو فيلم يقدم لنا كيف يمكن أن تقفز من أدنى سلم الفقر إلى أعلى سلم الغنى، ولكن يبقى أبناء أحيائك الفقيرة كما هم، لا يتبدل في أحوالهم شيء. فكم لدينا من برامج الجوائز، حتى يشترك هؤلاء ويفوزون بملايين الدولارات؟. إننا في عالم، كل يفكر في نفسه فقط، ولم يعد أحد يفكر بعامة الناس، أو كما يقول المثل الشعبي اليمني: (من لقى العافية دق بها صدره).

وما أريد قوله هنا، على وجه التحديد، أن الهند صارت اليوم من أقوى دول العالم اقتصادياً، من حيث الإنتاج الصناعي والزراعي والتقدم التكنولوجي، ومن أكثر أسواق الاستهلاك العالمية اتساعاً، إلا أن مشكلة النمو السكاني العالي جداً، ما زالت مشكلتها الرئيسة، التي تجعل كل الجهود هباءً منثوراً، فلولا هذه المشكلة المعقدة، لكانت الهند أقوى دولة في العالم. ذلك أن الهند من أغنى أرض الله الواسعة، حسبما نعرفه ويصفه الكثيرون، وكذا، حسب ما وصفها لنا أجدادنا العرب، الذين كانوا يشكلون نسبة كبيرة في حيدر أباد «الدكن» أيام زمان. وقد قال لي أحد الإخوة من منطقة يافع، إن خاله الأكبر، عاش في تلك المنطقة من الهند، وعاد منها في الخمسينيات، وأنه كان يصفها بأنها (حيدر أباد الدكن)، غنية بجواهرها وذهبها وفضتها وثمارها وأشجارها وأنهارها، فهي وحدها قادرة على أن تطعم نصف سكان الهند.

ومن الطرائف التي قالها لي هذا الصديق، أن خاله ذاك قد اشترك في الحروب والمعارك بين الهند وباكستان (بين المسلمين والهندوس)، عندما استقلت

باكستان عن الهند وبريطانيا عام **1948**م، وأن الهنود لم يكونوا يسمحون لهم بالمرور إلى باكستان، بما لديهم من متاع ومال، فما كان منهم (بما فيهم خال صاحبنا)، إلا أن يبيعوا كل شيء ويشتروا ذهباً، وكانوا يصهرون الذهب ويجعلونه حبيبات صغيرة قابلة للبلع، ثم يبلعونها قرب الحدود الهندية الباكستانية، وعندما يصلون باكستان، يصبح برازهم باهظ الثمن، إذ يفتشون فيه ويخرجون حبيبات الذهب الذي جلبوه من الهند. وهذا ليس بغريب، إذا ما عرفنا أن أكبر جواهر الألماس في العالم الموجودة في بريطانيا وعدد من الدول الأوروبية، جلبت من حيدر أباد ـ الهند.

لعل المرور السابق، لا يقدم صورة نموذجية عما تم في الهند خلال العقد الأخير، حيث أصبحت الهند دولة نووية وصناعية وزراعية، تسابق الزمن بوتائر عالية.

كراتشي

عندما تزور هذه المدينة، لا بد أن تذكر مؤسسها الشهير و«الزعيم القائد»، كما يطلق عليه في باكستان – السياسي المحامي محمد علي جناح – الذي أسسها عند استقلال باكستان عن الهند وبريطانيا سنة 1947م. كعاصمة لباكستان الحديثة، التي لم يكن لها إرث دولة من قبل، واتخذها عاصمة لحكمه، رئيساً للدولة الذي لم يدم أكثر من عام واحد، فقد توفي القائد الرئيس – رحمه الله– وعندما انتقل مقر العاصمة إلى إسلام أباد، بقيت كميناء رئيس لباكستان، يقع على ساحل البحر العربي باتجاه الهند.

ومحمد علي جناح، بالرغم من فترة حكمه القصيرة جداً، إلا أنه أسس دولة بالاتفاق مع الإنجليز، أثناء مفاوضات الاستقلال، وأنشأ العاصمة كراتشي، التي أصبحت أكبر مدن البلاد، حيث يصل عدد سكانها الآن إلى حوالي 14 مليون نسمة، هذا المؤسس العظيم، تراه باكستان وأبناؤها، كما ترى الهند المهاتما غاندي، قائدها ومحررها من الاستعمار البريطاني. وهو من أبرز قادة العالم الذين ظهروا في القرن الماضي – العشرين.

أول مرة زرتها، كانت عند سفري لحضور مؤتمر قمة دول عدم الانحياز عام 1976م، الذي انعقد في سيرلانكا، كانت زيارة عبور (ترانزيت) ليوم، أو بالأصح، لليلة واحدة، وواجهنا حينها المثل القائل: (دخل ليل وخرج ليل)، كان ذلك في فترة حكم الرئيس ذو الفقار علي بوتو، وكان برفقتي الأخ عبد الله الأشطل، السفير الدائم لليمن الديمقراطي في نيويورك، والأخ محمد البيحي، وبعض من العاملين في السكرتارية بوزارة الخارجية. وكنا قد قدِمنا إليها بالطائرة

عن طريق جدة، حيث استضافنا – هناك – آل الصانبي اليوافع الكرام، وعلى رأسهم الشيخ فضل الصانبي – رحمه الله– والذين احتفوا بنا أيما احتفاء يومها.

ثم تكررت زياراتي لمدينة كراتشي، ولمطارها فقط أحياناً، من خلال رحلات السفر إلى الاتحاد السوفييتي إلى موسكو وغيرها؛ فآنذاك، لم يكن يسمح لطائرات عدد من الدول، بما فيها طائراتنا (طيران اليمن الديمقراطي – اليمدا)، بالعبور ببعض الأجواء، لأسباب الحساسية السياسية، وأحياناً كان ذلك يحدث لأسباب أمنية من قبلنا، تتخذ بسبب أهمية الزيارة إلى موسكو، مثل تلك الزيارة التي تم خلالها توقيع معاهدة الصداقة بين جمهورية اليمن الديمقراطية والاتحاد السوفييتي، وإذا كان هذا الحال يؤدي حتماً إلى طول أوقات الرحلات الجوية، فقد كان من محاسن العبور عن طريق كراتشي، توفر فرص عديدة – أحياناً – لزيارة الجمهوريات السوفييتية الإسلامية في آسيا الوسطى، مثل: أوزبكستان، كازاخستان، طاجيكستان، وغيرها.

كراتشي هي مدينة وميناء، وجوها في الشتاء معتدل إلى حد ما، وحار بشدة صيفاً. ولذا، يقول البعض إن لجوها تأثيره في أمزجة سكانها، الذين تلازمهم حالات التوتر والصراع العرقي الدائم، وكذا التعصبات المذهبية، بينما يقول البعض الآخر (خاصة من المحللين الغربيين)، إن نشوء باكستان كقومية دينية، هو سبب الصراع العرقي والتيارات الدينية المتطرفة. ولكني أعتقد أن أساس تلك المشاكل، هو منابع الفقر الكامنة في الاقتصاد، والفساد القائم في عدد من نواحي المجتمع، وأقول هذا لأن نسبة المتعلمين عالية في المدينة، التي تشكل «لغة الأوردو»، اللغة الرسمية للبلاد، ولكن هناك كثرة من أبناء كراتشي يتحدثون اللغة الإنجليزية، وثقافة السكان كانت جيدة، عندما كنت أزورها في السبعينيات والثمانينيات. ولكن لا أدري ماذا حدث بعد ذلك، فقد أصبحت

باكستان من أكثر دول العالم لانتشار مفاهيم الإرهاب وسلوكياته، بشتى أنواعها واتجاهاتها.

أثناء زياراتي الكثيرة القديمة لكراتشي، لم أسمع عن شيء اسمه الإرهاب، وإنما سمعت عن صراعات عرقية وتعصبات مذهبية دائمة، لكنها كانت فعلاً قليلة ومحدودة، لم يكن أسلوب القيام بتفجيرات الأماكن العامة، وقتل العشرات من المواطنين في المرافق والشوارع العامة موجوداً، بل لم يكن ليخطر على بالي آنذاك، أو بال أي شخص آخر.. ومن المؤلم أن نسمع اليوم، ومنذ عقد أو عقدين من الزمن تقريباً، ونرى أن باكستان قد أصبحت من أكثر بلدان العالم انتشاراً للمفاهيم الإرهابية المتطرفة، وصارت مدنها، مثل كراتشي وإسلام آباد وبيشاور، من أكثر مدن العالم تعرضاً للعمليات الإرهابية البشعة.

الاغتيال السياسي، ظاهرة وجدت منذ الستينيات، وراح ضحيتها حتى رؤساء دول، مثل محمد بو ضياف، وعدد من رؤساء لبنان، والرئيس أنور السادات، والرئيس جون كينيدي، لكن المشكلة، أن باكستان تعتبر الآن ثاني دولة في العالم من حيث وجود الإرهاب، لأن أمريكا والغرب جعلوا من باكستان محطة رئيسة كبرى لمحاربة الوجود السوفييتي في أفغانستان، الأمر الذي جعلها إحدى أهم قواعد الإرهاب في العالم، ومع تغير المصالح والعلاقات، تغيرت وتنوعت مصالح القوى المعتمدة على الإرهاب، كوسيلة لتحقيق مصالحها، بالاعتماد على موضوع الدين بدرجة أساسية، الأمر الذي انتشر لأكثر من عامل، في أكثر من بلد آسيوي وأفريقي وعربي.

طهران

كان شاه إيران محمد رضا بهلوي، ليس إمبراطور إيران وحدها، ولكنه كان (الشرطي الأمريكي) للخليج، الذي هدد دول المنطقة، بما فيها دولة البحرين، وكان يعتبر أجزاء من دول الخليج، جزءاً من إيران،

مثل جزر طنب الكبرى وطنب الصغرى وأبو موسى، التابعة لدولة الإمارات العربية المتحدة، والمحتلة من قبل إيران حتى الآن، وضمن هذا الدور الذي لعبه، أرسل قواته إلى ظفار (سلطنة عمان)، واخترقت طائراته العسكرية سماء جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية، لتضرب في مناطق في عاصمة محافظة المهرة (الغيضة)، ولكنها انسحبت بعد أن أسقطت إحداها، وأيضاً هدد جهاز أمنه المشهور «السافاك»، بالتنسيق مع جهاز «الموساد» الإسرائيلي، حركات سياسية ومنظمات إيرانية وعربية، وبالذات الفلسطينية واللبنانية منها، ووصل طموح الشاه إلى محاولة إيصال إيران إلى الدولة الرابعة عسكرياً، والدولة الخامسة عشر صناعياً في العالم، وكان ذلك بحلول الثمانينيات.

لذا، كانت عدن في وقت عهد الشاه محمد رضا، تدعم بقوة منظمة «فدائيي الشعب» ومنظمة «مجاهدي الشعب،» وكانت لهما مكاتبهما في مدينة عدن، كما زار عدن العاصمة حينها، الأخ طارق نوري، أمين عام الحزب الشيوعي الإيراني، وتواصلت عدن مع قوى أخرى معارضة للشاه، وضمن ذلك، أرسلت وفداً خاصاً إلى باريس لمقابلة الإمام الإيراني الإمام آية الله الخميني، الشخصية الأكثر نفوذاً في المقاومة الشعبية لنظام الشاهنشاه، مبدية استعدادها لاستقباله في اليمن الديمقراطي، وهناك في باريس، قابل الوفد ابن الإمام الخميني أحمد الخميني، الذي شكر لليمن هذه اللفتة الطيبة، وأوضح أن

تلبية الدعوة من قبل الإمام الخميني، ستتم عند الحاجة لذلك، كانت عدن في ذلك الوقت تنظر إلى شاه إيران نفس نظرتها إلى الإمبراطور هيلاسلاسي في أديس أبابا، باعتبارهما كنظامين دكتاتوريين، شكَّلا كماشة على المنطقة العربية من الجنوب والشرق، وهما بهذا يكملان دور إسرائيل وتركيا في الشمال.

ومن أظرف المواقف التي عشتها في حياتي، وله صلة بإيران في ذلك الزمن، وحدث عند زيارة وفد من قيادة منظمة فدائيي «خلق» إلى عدن وتحديداً عند لقاء الوفد المذكور بالرئيس سالم ربيع علي، وكان ذلك في عام 1976م، وبحضوري سكرتيراً للعلاقات الخارجية في التنظيم السياسي للجبهة القومية (الحزب الحاكم في عدن)، فبعد أن عرض رئيس وفد «خلق» لفخامة الرئيس، أساليب كفاحهم في إيران، إذا به، في وسط الحديث والشرح، يخرج من جيبه قنبلة يدوية حقيقية، وعندما رأينا، نحن الموجودين، القنبلة اليدوية بيده، قفزنا جميعاً في نطة واحدة باتجاه الرئيس لحمايته، بأن وضعنا أنفسنا حول قائدنا كدرع بشرية، وعندها ارتبك الموقف، لكن سرعان ما أخذ رئيس وفد «خلق» يضحك، ولكن الخجل بادٍ عليه، وأخذ يقول لنا ليطمئننا: «هذه عينة.. هذه عينة نصنعها محلياً»، ثم أخذ يقول ويكرر «هذه عينة.. هذه عينة نصنعها محلياً، ونريد فقط أن نؤكد للرئيس قدراتنا واعتمادنا على الذات في مواجهة «السافاك» والبطش الشاهنشاهي)، ولكن في حقيقة الموقف، أنه أربكنا، وحتى الرئيس سالم ربيع علي، المعروف بشجاعته الكبيرة، اعتقدنا أن عرض القنبلة له هدف آخر، ففي تلك اللحظة، ذهب تفكيرنا بسرعة إلى أبعد من ذلك، حيث اعتقد معظمنا أو تصورنا أن جهاز «السافاك» الاستخباراتي الإيراني، وراء عمل ما سيحدث هنا، وقد وصل هذا الجهاز إلى هذا المستوى من التدبير المحنك، خاصة أن وفد «خلق» لم يشرح لنا قبلها أنه يحمل هذه الهدية (الجميلة) أيضاً، لم يكن لدى أجهزة أمننا من الوسائل التكنيكية المتطورة،

ما يكشف عن محتويات أعضاء الوفود القادمة لمقابلة الرئيس، وخاصة أن تلك القنبلة التي لا تُنسى، كانت بدون صاعق.

عندما قامت الثورة في إيران، وجدت صدى هائلاً في المنطقة العربية، بل وفي أنحاء العالم، ورحبت بها عدن، مثلما رحّبت بها دمشق وطرابلس والجزائر والثورة الفلسطينية، وعلى الفور، فتحت السفارات في كل من عدن وطهران، وشخصياً، زرت طهران في مطلع الثمانينيات (عام 1982م)، وزير خارجية لجمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية حينذاك، وقابلت شخصياً الإمام علي خامنئي، وكان حينها رئيساً للجمهورية، كما قابلت السيد هاشمي رفسنجاني، ووزير الخارجية، الدكتور على أكبر ولايتي، وكانت الأوضاع وزمام أمورها – حينها – ما زالت (في الشارع)، بعد تلك الانتفاضة الشعبية الهائلة، ومع ذلك، طلبنا مساعدة إيران في تشغيل مصفاة عدن بتكرير النفط الإيراني فيها، وأيضاً طلبنا مساعدتهم في إعادة ما خربته السيول والفيضانات، وبالذات، في ترميم الطرقات والجسور والأراضي التي تهدمت، وكان الرئيس خامنئي في غاية اللطف والوداعة، ووعد بتقديم 5 ملايين دولار من جيبه الشخصي لضحايا هذه الفيضانات التي حدثت عام 1982م، ولكن جاءت الحرب الإيرانية العراقية، وحالت دون وصولها إلى من نُكبوا في عدن وأرياف البلاد، ولكن تم تكرير بعض النفط الإيراني في مصفاة عدن (البريقة)، نظراً لحاجتهم لذلك، بسبب قدرة الطيران العراقي على الوصول إلى مصافي «بندر عباس» وضربها أكثر من مرة.

إن أول ما خبت نيران تلك الثورة الشعبية الإيرانية العارمة وآثارها خارج إيران، هو التشدد والتزمت لدى بعض الأجنحة في حكم (الفقيه)، ومحاولة تصدير أفكارها إلى دور الجوار، وإلى معظم الجاليات الإسلامية في بلدان شتى، فقد أفقدها ذلك البريق والتأثير الإيجابي الذي بدأت به، وكان الجميع

يتوقعون لها مساراً سليماً وهادئاً، ولكن ما حدث كان عكس التوقعات، جاءت الحرب الإيرانية العراقية بسنواتها الثماني، ثم جاء الحصار الأمريكي والغربي، ليُرجع إيران سنوات إلى الخلف، ويجعلها تقبل بوقف الحرب مع العراق، التي أكلت الأخضر واليابس في إيران والعراق معاً، ودول الخليج أيضاً، واستفادت من هذه الحرب، إسرائيل، أكثر من غيرها، ووُجدت الأساطيل الأجنبية في المنطقة، تحت حجج حماية منابع النفط ودولة إسرائيل من هذا البعبع القادم من إيران.

في زيارتي تلك إلى طهران، التي سبق لي الحديث عنها، شاهدت ما أحدثته الثورة الإسلامية التي قاد انطلاقتها الإمام الخميني، من تدمير بنية وهياكل ومظاهر الحكم السابق، حتى إن فندق «هيلتون طهران»، وهو من أشهر فنادق العالم قبل سقوط الشاه، تحول إلى مبنى شبه مهجور، بعد مضي أشهر فقط على قيام الثورة الإسلامية الإيرانية، وما لصق بذهني بعد تلك الزيارة، مسألتان، الأولى: حوار تم مع وكيل وزارة الخارجية الإيرانية حينها، لأنه قال خلاله كلمات هامة، لم أسمع بها من قبل، رغم اطلاعاتي الكثيرة، إذ قال: «عشنا كشيعة مضطهدين خلال أربعة عشر قرناً من الزمن، ومن حقنا الآن أن نحكم»، أما المسألة الثانية الهامة في زيارتي تلك لطهران، فهي ما رأيته من عشق الثورة الشعبي الجماهيري القائم على أفكار دينية مذهبية ثورية مندمجة (تدمج الثورية بالمذهبية الدينية – الشيعة).

وهناك انطباعات ثانوية من الزيارة، منها على الصعيد الاجتماعي، فما أثار الانتباه حينها الملصقات والشعارات والشباب الذين يستشيطون صراخاً وحماساً ثورياً، وبانفعال فاق ذلك الانفعال الذي كنا نراه في عدن في مطلع السبعينيات، وهو ما سبب لنا هناك مشاكل لا تُحصى ولا تُعد، كما لفت نظري أثناء التجول في طهران في تلك الزيارة الحجاب المتشدد حينها، وهو

ظاهرة لم تنتشر في الشرق الأوسط كثيراً في ذلك الوقت، كما أن كثيراً من الطهرانيات لم يكنّ حينها يكشفن عن وجوههن، كما هو الحال الآن، ولفت نظري أيضاً، استعمال الكثير من أبناء طهران، الدراجات الهوائية، وهذه الظاهرة خفّت الآن، حيث أشاهد في التلفاز أن طهران مليئة بالسيارات الحسنة الشكل، وبعضها فارهة.

بعد الزيارة لطهران بأسابيع، بدأت العلاقات العراقية – الإيرانية بالتدهور، وبدأت تباشير الحرب بين البلدين، ودعا العراق مجلس الجامعة العربية إلى اجتماع عاجل في بغداد، وعلى مستوى وزاري، وحضرت شخصياً هذا الاجتماع، الذي كنت أتذكر خلاله ما رأيته في طهران قبل نحو شهرين، وخلال جلسة ثنائية جمعتني بأحد وزراء الخارجية العرب من إحدى دول مجلس التعاون الخليجي، وهو شخص من الذين أُكِن لهم كل حب وتقدير، قال لي:

ـ كيف وجدت طهران؟

وكأن السؤال لامس ما يجول في ذهني من مقارنة، فأجبت:

ـ رأيت كل شيء في الشارع، حتى الدبابات.

فكان رده سريعاً ومباشراً:

ـ لقد سقط الجيش، وسينتصر العراق على إيران خلال ستة أيام.

فعقبت على رده بتواضع قائلاً: لا أعتقد ذلك، فإيران تعيش حالة أخرى، إنها حالة نهوض (الفكرة)، التي استحوذت على أذهان الناس، والتفوا حولها بحماس جياش.

وكان ما قلته حقيقة أكدتها الأيام، فبالالتفاف والنهوض الفكري والتأييد الشعبي الجماهيري الذي ذكرته يومها (أثناء الزيارة وبعدها مباشرة)، صمدت إيران **8** سنوات شاقة وعصيبة ومؤلمة في الحرب الإيرانية – العراقية، أضف إلى ذلك، الجانب السيكولوجي للجهاد الذي لمسته أثناء زيارتي تلك إلى طهران،

فعندما زرنا مقبرة فاطمة الزهراء في قلب طهران المقلوبة على بعضها، كانت أول مرة تتاح لي فيها مشاهدة مثل هذه المقابر، التي يعظم فيها أتباع المذهب الشيعي شهداءهم وأمواتهم، بوضع صورهم في تلك الأضرحة الجميلة والنظيفة والمحاطة بالورود والزهور، والتي يزورونها في كل مناسبة للدعاء والتذكر، حينها أدركت مدى استعداد تقبل الموت عندهم، وعند مقاتليهم، لما يلقونه من احترام قبل وبعد الموت – الاستشهاد، ومع أنني جئت من منطقة ثقافتها تقول (رحم الله قبراً لا يعرف مولاه)، وحقاً، إنني لا أعرف موقع قبر والدي، رحمه الله، أو قبر أحد أقربائي في مقابر المدينة أو القرية، ولن أجد أحدها اليوم إذا أردت زيارة قبورهم للدعاء لهم.

ونتيجة لما سبق شرحه، فإن الثورة الإيرانية لم تتجاوز اختبار الحرب العراقية الإيرانية فقط، بل واصلت سيرها، رغم حالة العزلة التي فرضتها على نفسها، عندما تعصبت للفكرة وتقوقعت مذهبياً، وحاولت تصدير تعصبها إلى أرجاء المنطقة المحيطة، وأرجاء العالم الإسلامي.. إنها حركة تاريخية رومانسية، فهذه الرومانسية التي خيمت على إيران، يصاب بها كل قادة الثورات العارمة عند بداياتها، وخاصة عندما تواجه ثوراتهم العداوات والكراهية من دول أخرى، وتواجه بلدانهم الانحصار والانعزال.

لقد تغيرت الأمور في طهران في منتصف العقد الأخير من القرن العشرين، حين جاء الاعتدال الذي يمثله الرئيس محمد خاتمي، ووجد من يتعامل ويتعاطى معه من القادة العرب، وخاصة دول الخليج، رغم عدم إعادة جزر الإمارات العربية التي احتلتها إيران حتى الآن، ورغم الصراع الداخلي في إيران بين المتشددين والمعتدلين، ولأن إيران قوة إقليمية، وكبلد إسلامي شقيق للدول العربية، فلا يمكن تجاهلها وتجاهل أهمية التعايش والتعاون المثمر معها، وخلق بيئة جديدة، أساسها تعزيز الثقة وطي صفحات الماضي، وخاصة التخلي عما

كانت تقوم به إيران (وقد تكون تقوم به الآن)، من تصدير الأفكار والتدخل في الشؤون الداخلية للبلدان الأخرى، فإن التخلي عن مثل هذه السلوكيات، هو المطلوب، لأن التجارب والواقع الصعب، أثبتا أن الحروب، بكل المقاييس، مدمرة، ولا تأتي بنتائج طيبة، ذلك أن العراق أو إيران أو دول الخليج، لم تستفد من هذه الحروب غير تدمير إمكانات هائلة تملكها، وكذا تدمير الإمكانات البشرية منها، التي لا تعوض لكل من العراق وإيران، وإن الحوار والسلام والتعايش وقبول الآخر وعدم احتكار الحقيقة، أو الادعاء باحتكار تفسير الشريعة والسنة، تلك وحدها لا غيرها، طريق الخير والمحبة والتنمية والسلام في المنطقة.

واليوم، أصبح الحديث عن مشاكل الثورة الإيرانية صعباً وواسعاً، فعلى الصعيد الداخلي، تنمو حاجة المجتمع الإيراني إلى مزيد من الديمقراطية، وضمان حقوق الأقليات، وإذا أراد الشخص أن يتحدث عن تأثيرها في المنطقة، فذلك سيكون أصعب بكثير من خلال وضع الأمن في الخليج، ودور إيران في العراق والمنطقة العربية، ولكني أقول إنه من أولى المهام، هو تأكيد النهج الديمقراطي للثورة الإيرانية ومصداقيته، فعلى سبيل المثال لا الحصر، فإذا كان الرئيس الإيراني السابق محمد خاتمي، الذي يمثل هو والرئيس رفسنجاني، التيار المعتدل (يسمى رسمياً بالتيار الإصلاحي)، قد أعلن ترشحه لانتخابات الرئاسة لهذا عام 2009م، ثم انسحب نتيجة لضغوط متنوعه عليه، فإن وجود هيمنة التيار المتشدد على السلطة في إيران، يجعل وضع الثورة الإيرانية في الداخل وتأثيراتها في الخارج كذلك (المنطقة والعالم)، خارج نطاق التقديرات والتوقعات.

إن مدينة طهران، التي هي شبه منبسطة تماماً على سفوح جبال شمران الواسعة، والتي يصل عدد سكانها اليوم إلى 9 ملايين نسمة، تبدو كمدينة يساور القلق أحياءها الكثيرة، التي بُنى أغلبها منذ خرج الشاه، ويخيم على

شوارعها تجاذب بين التوق لأن تكون عاصمة دولة عظمى، والخوف من الدمار، الذي يسمى إسرائيلياً وأمريكياً، بالانتصار على الشر، وهي ليست خائفة من ركود مصانعها ومعاملها التي تمثل نصف صناعات إيران، بل خائفة من حصار شديد قد يفرض عليها من الدول الغربية.

هكذا تتشتت المدينة بين الأمل والحماسة والخوف، فإن نزلت إلى شبكة مترو الأنفاق الخاصة بالمدينة، والتي افتتحت عام 2001م، لا بد أن تقول لنفسك، يا له من مكان آمن، سآتي إليه عندما تقع الواقعة / الحرب، وإن ذهبت إلى ساحة «ازداي» التي يتوسطها نصب هندسي معاصر عملاق بشكل ثلاثي القاعدة، يتوحد بعد عشرات الأمتار في الأعلى، فستجد هناك خليطاً من الناس: أناس متحمسون لمضي الثورة قدماً إلى النهاية، وأناس ساكتون، وأناس خائفون، وأناس تواقون للشهادة والموت، وأناس كُثْر يريدون أن يعيشوا بهدوء وسلام.

جاء إلى سدة السلطة خلال العقدين الأخيرين، رئيسان منتخبان، وأصبح السيد علي خامنئي آية الله العظمى، وحصلت انفراجات في المشهد السياسي بين إيران وأمريكا (الشيطان الأكبر)، والاتحاد الأوروبي، بعد اتفاقات، على رأسها «الاتفاق النووي»، والتطورات الداخلية والخارجية حبلى بالمفاجآت، والقادم مجهول.

بانكوك

بانكوك عاصمة مملكة تايلاند، وهي مدينة جميلة، تقع على إحدى ضفتي نهر اسمه نهر «تشاو برايا» في جنوب البلاد، وعلى مقربة من خليج تايلاند، عدد سكانها حوالي 6 ملايين ونصف المليون نسمة،

وتعتبر من أكثر مدن آسيا حظوة لدى السياح، خاصة القادمين من البلدان العربية والبلدان الأوروبية وأستراليا، وغيرها، حيث يأتي إلى هذه المملكة الشاسعة الأطراف، الجميلة الطبيعة، ومناخاً وإنساناً، سنوياً، نحو 16 مليون سائح من مشارق الأرض ومغاربها، وهؤلاء ينفقون هنا ما يشكل نحو 6 % من الدخل القومي التايلاندي، وهو دخل البلد من السياحة.

زرتها حتى الآن مرتين، آخرها عام 2008م، ومن أهم الانطباعات التي كونتها عن هذا البلد السياحي – الصناعي، بساطة وعظمة الإنسان، واحترام المرأة ودورها في الحياة، والتعامل والتكاتف الإنساني الصادق بين جميع أفراد المجتمع، كما لفت انتباهي في مكانة الملك الذي يعتلي العرش منذ 60 عاماً، كونه يحتل مكانة شبه مقدسة، يمنحه إياها السكان، حسب التعاليم البوذية، ومما زاد من المكانة المذكورة واحترام الملك الحالي وتبجيله، أنه يرأس «الجمعية الدولية للعلماء المخترعين»، ولم ينل تلك الرئاسة للجمعية الدولية بسبب كونه ملك تايلاند، ولكنه نالها عن جدارة، فهو أول من اخترع إنزال الأمطار عن طريق تكثيف السحب وتعطيلها، عندما يسود الجفاف على الأرض، وأيضاً لحبه وممارسته لأكثر من مهنة وهواية بلا ترفع أو تأفف.

كانت زيارتي الثانية إلى بانكوك للسياحة والعلاج، برفقة الأخ الشاعر الكاتب فضل النقيب، يرحمه الله، وأخي علي صالح محمد، وفيها زرنا عدة

مواقع سياحية ومسارح ومعابد، وزرنا القصر الملكي وحدائقه، وعدداً من حدائق المدينة، وخاصة حديقة الحيوانات في ضواحي المدينة، كما تجولنا في أحياء وشوارع بانكوك الحديثة والشعبية، ولعل من أهم سماتها، كثرة المطاعم فيها بمختلف مستوياتها، الراقية والعادية، ولكن ما تمتاز به جميعها، هو أنها كلها توفر لك المأكولات السمكية التي لا تُحصى ولا تُعد، وأقصد هنا، أنه يمكنك طلب أي سمك أو أي نوع آخر من الأحياء البحرية، فكل ما يعيش في البحر متوفر للطباخة وللأكل هنا، ويمكن القول إن بانكوك صاخبة ليلاً ونهاراً؛ فعلى الرغم من الحركة الدؤوبة التي تراها في ساعات النهار، إلا أنك تشعر أثناء الليل، أن الحركة أفضل مما هي في النهار، أو أكثر منها، ربما كان هذا حقيقة، وربما كان بسبب بقاء معظم السكان في المعامل والمصانع والمدارس، وغيرها من أماكن العمل طوال النهار، ثم خروجهم ليلاً للتنزه والتسوق، وما شابه، وربما كان ذلك حقيقة بفعل الأضواء والأنوار التي تضيء المباني والمتاجر والشوارع والساحات والحدائق، وكذا أضواء الإعلانات واللوحات المنتشرة في كل مكان، أضف إلى ذلك، أضواء السيارات والعربات التي لا تكف عن الحركة ليلاً.

ويمتاز محيط بانكوك بطبيعة بحرية وأرضية خلابة، وقد قمنا برحلة، اكتشفنا فيها هذا الجمال الساحر، حين استقللنا أحد القوارب الصغيرة والسفن الكبيرة التي تؤجر للسواح، وبعدها توجهنا إلى جزيرة / مدينة «باتايا / بوتنج»، التي نصحنا الكثير من أبناء المدينة بزيارتها، إذا أردنا أن نرى جمال تايلاند الحقيقي، التي تحتار فيها العينان من تعدد الألوان الجميلة الباهية فيها، وتعدد أشكال الأحياء البحرية والشعب المرجانية التي تمتلئ بها، وكذا مجموعات الأسماك التي تظهر أسرابها بين فينة وأخرى، وعموماً، فإن مدينة باتايا / بوتنج، الواقعة على الخليج الشمالي الشرقي لبانكوك، ومثلها جزيرة بوكيت الخلابة، التي تقع في الجزء الجنوبي من تايلاند، وفيها من المناظر وجمال الطبيعة ما يخلب

الخاطر ويبهر العين، وفيها الكثير من الجزر الخلابة، الجميلة الأشكال والكسوة بالأشجار والخضرة، إلى درجة يصعب وصفها، فمن روعة تلك الجزر، لا تملك سوى أن تردد الحديث عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ، مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ، ذُخْرًا بَلْهَ مَا أُطْلِعْتُمْ عَلَيْهِ).

إضافة إلى ما تمتلكه تايلاند من طبيعة معطاءة ومساحة شاسعة، فإنها من الدول الصناعية الآسيوية الناهضة منذ 3 عقود من الزمن، حيث توجد فيها، وبالذات في بانكوك، صناعات كثيرة جداً، فالبلد تصنع كل شيء من الصناعات المتوسطة والصغيرة، وعدداً من الصناعات الثقيلة، ويعتبر التايلانديون أن بانكوك مدينة تجارية مزدحمة بالعمران، أيضاً لا تقل شأناً عن المدن الآسيوية المشهورة بهذا الصدد، مثل: هونغ كونغ وشنغهاي وماليزيا وسنغافورة، وغيرها، هذا بالإضافة إلى أن تايلاند بمساحتها الكبيرة، تمتلك زراعة متطورة إلى حد ما، وتعتبر من أكبر دول العالم في زراعة وإنتاج الأرز التايلاندي، الذي ازدادت أهميته مع ارتفاع أسعاره، في ظل الأزمة المالية العالمية، التي يشهدها عالمنا اليوم للعام الثاني على التوالي.

خلال هذه الزيارة الأخيرة إلى بانكوك، قابلنا وصادفنا كثيراً من إخوتنا العرب، وهناك من مختلف الدول العربية، وخاصة من دول الخليج، وكان معظم هؤلاء قد قدموا من أجل العلاج في مستشفيات المدينة الكثيرة، التي تعمل في جميع التخصصات الطبية العلاجية، وإنني هنا لأتمنى أن تصل مستشفيات العرب (وبالذات مستشفيات الأغنياء منهم)، إلى مستوى تطور المستشفيات التي حصلت على أحسن الدرجات لأفضل المستشفيات في شرق آسيا، وأصبحت مصدراً كبيراً للعلاج، ومنافساً من حيث الأسعار والتطبيب، واستخدامه التقنية العالمية، وذلك من حيث الخبرة العملية، والتمريض الجيد،

وتكنولوجيا الأجهزة الطبية المتقدمة، وكذلك رخص الأسعار، مقارنة بدول عربية.

وإذا تحدثنا عن صحة الجسم هنا في بانكوك أو تايلاند، فإنه يقال عن هذه الأرض، إنها بلاد الابتسامة و«المساج»، لكثرة محال ومواقع التدليك الطبيعي المنتشرة فيها (حتى في المطار)، وهذه الظاهرة من مكونات الثقافة التايلاندية الصحية الروحية، فهي تُعَد اختصاراً لهذه الثقافة، وتمثل لغة ترفُّع عن نظرة بعض الجهلة في عالمنا العربي إلى «المساج» التدليك الطبيعي، رافضين محاسنه الصحية ومحاسنه الروحية الأخرى، والتي تقوم على الثقافة البوذية السائدة فيها.

لذا، دعني – أيها القارئ الكريم – هنا، أوضح عدداً من سمات الثقافة التايلاندية والجوانب الروحية الجسدية للبوذية، والتواضع والعطاء الإنساني القائم في هذا البلد، وذلك من خلال بعض ما قرأته في كتاب «بوذا»، الذي أهداني إياه أحد الإخوة السوريين هناك في بانكوك؛ فقد جاء في الكتاب، أن مجمل تعاليم وكتابات بوذا، التي وضعها طوال عمره، يمكن تلخيصها في ما يُسمَّى بـ «الصراط الثماني للبوذية»، والذي يمكن تلخيصه بالتالي:

1 – الكلام الصحيح: الامتناع عن الكذب والنميمة، وما يسبب الكراهية، واللهجة القاسية والثرثرة.

2 – العمل الصحيح: القيام بالأعمال المشرفة والهادئة، والامتناع عن الأعمال المشينة، مثل السرقة والزنا.

3 – وسائل الحياة الصحيحة: كسب العيش من مهنة غير ضارة بالمجتمع، بما فيها الامتناع عن تجارة الأسلحة والحروب.

4 – المجهود الصحيح: أعمال الوقاية للعقل والجسم، وصحتهما وسلامتهما الكاملة.

5 – الانتباه الصحيح: اليقظة في نشاطات الجسد والأحاسيس والانفعالات ونشاطات العقل والأفكار والنوايا والمدارك.

6 – التركيز الصحيح: التركيز في العقل والحواس. والتركيز في الجسم، مثل التركيز على عملية التنفس من خلال التمارين.

7 و**8** – الحكمة.

وتُسمَّى الثلاثة عوامل الأولى بـ «السلوك الأخلاقي»، فيما تسمى الثلاثة عوامل التالية بـ «الترويض العقلي»، أما العاملان الأخيران، فهما خاصان بالحكمة بطابعها الفلسفي، والرؤية للعالم المحيط (بوذا – تأليف الراهب البولا راهولا – ترجمة يوسف شلب – سوريا – صفحات: **60** – **62**)، ولعل الاطلاع على الشيء، أفضل من تجاهله، فقد كان السائد حتى عقد من الزمن مضى، أن يتجاهل الناس الاطلاع على معتقدات وديانات غيرهم، حتى وإن كانوا داخل بلد يزورونه، مثلما هو الحال الآن في هذه البلاد، وأنا أرى فيه مستوى من الهدوء في حياة الناس، ومستوى جيداً من الصحة الجسدية والنفسية، وقد دفعني التأمل في ما أراه من حياة المجتمع حولي، إلى التساؤل عن الفارق بين معتقداتهم ومعتقداتنا، التي فيها الكثير من الاتفاق، والقليل من الاختلاف.

ولعل ما قمت به هنا، من اطلاع على بعض جوانب الديانة البوذية، جعلني أشعر بإيجابية الدعوات القوية والمؤتمرات الفعلية التي ظهرت في العشر سنوات الأخيرة، سواء الخاصة بالاطلاع على الديانات والمعتقدات الأخرى وفهمها، بدلاً من العداء لها، أو الخاصة بالتقارب والتفاهم بين الديانات السماوية، وضرورة حوار الحضارات والأديان، إلا أن ما ذكرته آنفاً عن مستوى الهدوء في حياة التايلانديين ومستواهم الجيد صحياً وجسدياً ونفسياً، لا يعني أن المجتمع التايلاندي – البالغ سكانه نحو **62** مليون نسمة – لا يعاني من

المشكلات التي تعاني منها المجتمعات الآسيوية المنفتحة، مثل مشكلات الفقر والبطالة، وغيرها، ما ينتج عنها من الاضطرابات السياسية التي ظهرت مؤخراً، رغم استقرار نظام تايلاند الملكي الدستوري، ذلك أن نفوذ العسكر وقادة الجيش والمؤسسة العسكرية ككل، جعل أجهزة الدولة وحكومة البلاد، تحت نفوذهم منذ 3 عقود من الزمن، ما جعل الوضع السياسي يعاني من الاضطرابات مؤخراً في هذا البلد، الذي يعتنق معظم سكانه الديانة البوذية، والذي توجد فيه ديانات ثانوية أخرى، كالإسلام والمسيحية، وأقلية يهودية قليلة.

ومن الطريف هنا، أن مملكة تايلاند، هي أول دولة آسيوية ديانتها الرسمية «البوذية»، تشهد تمرد «القساوسة البوذيين»، وخروجهم إلى شوارع بانكوك جماعات جماعات، للاعتصام والتظاهر، حين كنا نشاهد في القنوات الفضائية فرقاً منهم، بلباسهم المكون من اللون البرتقالي، ورؤوسهم الخالية من الشعر، وهم يقاومون رجال الأمن ووحدات قمع التظاهر، وقد استمرت تلك المظاهرات (البوذية الخالصة)، في شوارع بانكوك، لعدة أسابيع في نهاية عام (2008م).

لكن حركة «القساوسة البوذيين التايلانديين»، لم تفلح في تغيير الوضع السياسي في البلاد، الذي لم يحدث تغيير فيه، سوى تبديل وجه رئيس الوزراء، حيث تتواصل المظاهرات الشعبية في أنحاء المدينة حتى الآن، ولكن بدون القساوسة البوذيين هذه المرة، فربما أنهم أوصلوا رسالتهم وعادوا إلى معابدهم، ومن الطريف، ما حصل في (أبريل 2009م)، عندما حاصر المتظاهرون مقر انعقاد مؤتمر «منظمة آسيان» في أحد فنادق بانكوك الفاخرة، ومحاصرة مطار بانكوك الدولي لأكثر من أسبوع، الأمر الذي منع أكثر من 100 ألف سائح من السفر أو القدوم إلى بانكوك، ما اضطر سلطات المدينة إلى نقل وفود دول

المنظمة، على متن طائرات هليكوبتر مروحية، حين اقتحم المتظاهرون مقر المؤتمر، ووصلوا إلى قاعات اجتماعاته، فانتقموا مما بها من أثاث، وما زال الوضع السياسي في تايلاند عصياً على الهدوء والاستقرار حتى الآن، وهو يؤثر في حجم السياحة في البلاد، وبالذات في عاصمتها بانكوك، لأنها مركز الاضطرابات والتظاهرات اليومية المناهضة لحكم العسكر، والتي يقال إنها قللت كثيراً من مجموعات الزوار والسياح القادمة إليها، خاصة في الأعوام القليلة الماضية، حيث سمعنا هناك أن أعداد السياح الوافدين الآن، على الرغم من كثرتها (16 مليون سنوياً، كما سبق وذكرنا)، فإنها قليلة جداً، مقارنة بما كانت عليه في الثمانينيات والتسعينيات، وما قبلهما. وقد لا يصدق هذا كثيرون، ولكن من زار مدينة بانكوك وجزر بتايا / بوتنج، وتجول في أنحاء أخرى من تايلاند، سيصدق تلك المقارنة، وسيقول إن 16 مليون سائح سنوياً، قليل على هذا الجمال الطبيعي، الذي لا نراه إلا في أحلامنا.

الانطباعات عن تايلاند، لا يمكن اختزالها بعدد من الصفحات، فهي كثيرة، وبالذات عن سحر وجمال وتنوع الطبيعة، وعن بساطة الإنسان وعمق الحياة فيها، أو التطبيب والعلاج ومقوماته، الأمر الذي يشجع على تكرار زيارتها لمرات ومرات.

ولعل من المفيد، الإشارة هنا إلى أننا صادفنا أثناء وجودنا، عدداً من الإخوة المغتربين المقيمين فيها منذ سنوات عديدة، وفيها مطعم يملكه أحد أبناء يافع، يقدم الوجبة اليمنية بكل مكوناتها، بما في ذلك موقع الإقامة وسط الحي العربي، وحتى القات الهرري الطازج، القادم من الحبشة، يصل إلى هناك أسبوعياً، ويباع لمتعاطيه، الذين لا تخلو منهم بانكوك، وهذا الأمر بحد ذاته، كان مثار دهشتنا واستغرابنا.

أولان باتور (منغوليا)

عندما تقوَّت دولة المغول في الشرق، اجتاحت بلاد فارس في القرن الثاني عشر ونيف الميلادي، ثم أرسلت رسلها إلى العراق لـ «المستعصم» في بغداد، تأمره بالاعتراف بدولة المغول والاستسلام بإعلان الطاعة لها،

لكن المستعصم قتل الرسول الذي بعثه المغول إليه وتحدى، فما كان من هولاكو، إلا أن جاء بجيوشه الجرارة، وحاصر بغداد وقتل أهلها شر قِتْلة، لم يُشهد لها مثيل في التاريخ، ثم توغل نحو مصر فهُزم هناك على أيدي المماليك وقائدهم (قطز)، ومن بعدها، لم تقم للمغول قائمة حتى في العصر الحديث، حيث استعمرها الصينيون عام 1691م وحتى عام 1911م، ثم خضعت لحكم الاتحاد السوفييتي بين عامي 1919م – 1921م، حتى ظهرت المغول (ونقصد هنا منغوليا)، كدولة شيوعية نالت استقلالها عام 1921م، لكنها ظلت مرتبطة بالاتحاد السوفييتي، ويحكمها رعاة منغوليا الشعبية، وحكمها حزب فلاحي، اتخذ من الماركسية اللينينية فلسفة ونهجاً، وتم ذلك نتيجة لارتباط هذه البلاد الشاسعة بالاتحاد السوفييتي أرضاً واقتصاداً، ثم سياسة، مع أن لينين تحفّظ على ذلك الحزب الفلاحي ونهجه العمالي، وهناك جدل واسع دار بين المنظّرين الاشتراكيين، ودوّن في قواميس الحركة الشيوعية والعمالية حول التجربة الفلاحية في منغوليا وغيرها، ومدى ما حققته من نجاح، وما أصابها من فشل في سباق البحث الإنساني عن العدالة الاجتماعية التي كانت شعار التوجه الاشتراكي.

حضرنا إلى «أولان باتور»، عاصمة منغوليا، للمشاركة في المؤتمر الذي عُقد هنالك عام 1971م، وكانت أغلب دول المنظومة الاشتراكية في العالم، قد أرسلت وفودها إلى موسكو، لأن منغوليا تقع في شرق وسط آسيا، بين الصين

وروسيا، ويصعب الوصول إليها حتى عن طريق البحر، لأنه ليس لديها منفذ على البحر، وهكذا قامت موسكو بدورها هي الأخرى بتوفير وسائل النقل الجوي للوفود إلى مدينة أولان باتور. انتقلنا من موسكو إلى مدينة مورنسك في شماليّ روسيا، وهي في شبه جزيرة روسية تُسمّى «كولا»، ثم انتقلنا جواً منها إلى العاصمة «أولان باتور»، وقد استغرقت الرحلة 13 ساعة.

كانت الرحلة طويلة حقاً أحدثت في النفس بعض الضجر والملل الرتيب، مع ثقل مرور الوقت، إنما خففنا الضجر والملل ببعض اللقاءات التعارفية مع بعض الوفود المرافقة على متن الطائرة معنا.. وأذكر أنني في سياق ذلك، تعرفت إلى شخص لم أنسَه حتى ساعة كتابة هذه السطور.. جلس إلى جوارنا رجل بدت سحنته سمراء، وملامح وجهه عربية، سألته:

ما اسمك أيها الأخ؟

قال مجيباً:

. اسمي.. صليبا خميس.

قلت له:

. ومن أي قُطْر أنت؟!

أجاب:

. أنا الذي لا وطن له!!

ثم أردف بقوله: أنا من إسرائيل.. عربي وعضو في المكتب السياسي للحزب الشيوعي الإسرائيلي.

والحقيقة أن رده نزل علينا كنزول الصاعقة، بدا علينا الاستغراب والارتباك، لكننا تلافينا الانزعاج الظاهر، أو ما يشير له، تلك الدربكة النفسية التي أصابتنا، كانت وليدة تعبئة فكرية وسياسية ونفسية طويلة ضد إسرائيل، ولم نفهم أننا مع شخص جاء من إسرائيل – ولكنه كان ضد إسرائيل – وأنه

من سكان عرب 1948م، الذين لم يهاجروا، وسمح لهم العمل السياسي، في إطار الحزب الشيوعي الإسرائيلي فقط.

ومثل تلك الحادثة، وقعت لي في موسكو، عندما حاولت التعرف إلى الشاعر الكبير سميح القاسم، بحكم إعجابي بقصائده، وبالذات قصيدته «جميلة عدن»، إلا أنني وكثير من أعضاء الوفد الرسمي الذي كان معي، ما كنا لنتقبل أن يكون هذا الإنسان قد جاء من إسرائيل، وأن يعيش مع اليهود في نفس الحي، ويتحادث معهم، ويسكن بالقرب منهم، ويعمل معهم طوال النهار، قد لا يستوعب المرء الآن هذه المشاعر، ولكن في ذلك الوقت، كان التعامل مع شخص كهذا أمراً لا يطاق، ولا يُقبل نفسياً، وإذا حكّمت عقلك (كما هو الحال بالنسبة للشاعر سميح القاسم)، فإن تلك التساؤلات لا تبارح أعماقك، إذ تطفو إلى السطح بين فينة وأخرى.

وصلنا مطار أولان باتور بعد تلك الرحلة المتعبة، لم يكن مطاراً بمعنى الكلمة، بل شبه مطار إحدى القرى اليمنية (كمطار مكيراس مثلاً)، وأقول هذا، لأن ما رأيناه كان عبارة عن غرفتين يدخلهما القادمون فتعطى لهم تأشيرة الدخول فيها ثم يغادرون، فليس للمطار أي سور، ومساحته مكشوفة بلا حواجز أو أي شيء آخر، حينها تجهّم وجهي، وقلت: (إنه فال خير)، وفي طريقنا إلى المدينة لم نلاحظ شيئاً يذكر كمبانٍ أو استراحات، بل مزيد من المراعي وقطعان الخيول منتشرة هنا وهناك، فسألنا أحد المرافقين عن تلك الخيول الكثيرة التي تسرح وتمرح وحدها، فقال لنا إننا لم نرَ سوى القليل، وأن أعدادها في البلاد قاطبة، يفوق عدد سكان البلاد، ويزيد على 16 مليون خيل منتشرة في المزارع الممتدة على الجنبات والطرق وفي السهول والوديان، وكل مكان، وأن معدل نصيب كل فرد واحد من سكان منغوليا منها، يصل إلى ثمانية خيول.

أولان باتور، مدينة متواضعة وقديمة المظهر، وفيها بضعة شوارع حديثة، بُنِيت على الطراز الروسي في العمارة الحديثة المصنوعة من (البلوكات)، هكذا كانت عندما زرناها، أما اليوم، فعلمت أنها تطورت وتحسنت كثيراً، وأن عدد سكانها قد أصبح نحو مليون نسمة، أي حوالي ثلث سكان منغوليا كلها، المهم أنه بعد أن نزلنا في مبنى لا بأس به، حُدّد كسكن لنا، حضرنا المؤتمر الذي اتضح لنا أنه نسخة من المؤتمرات الحزبية السابقة لعدد من بلدان المنظومة الاشتراكية التي سبق لنا حضورها.

كان عدد من الوفود العربية حاضرة ومشاركة، منهم: عزيز محمد سكرتير الحزب الشيوعي العراقي، وصليبا خميس من الحزب الشيوعي الإسرائيلي، ونديم عبد الصمد من الحزب الشيوعي اللبناني، وهو الذي شرح لنا مأساة العرب داخل إسرائيل، عندما عرف سر اندهاشنا أثناء حديثنا الأول مع صليبا، الذي لم أمنحه ثقتي الكاملة بعد الشرح الذي قام به الأخ نديم، وذلك بسبب اسمه، فلديّ شك أن هذا الاسم ربما كان اسماً يهودياً.

بعد اختتام المؤتمر الذي دام يومين أو ثلاثة، أخذ وفدنا لزيارة «جمعية تربية الخيول»، وهناك شاهدناها مجدداً، وما أكثرها!، ورأينا كيف من حليبها يصنع شراب (الجميز)، وهو شراب يتم تناوله مع اللحوم المطبوخة التي يأكلها الناس صباحاً ومساء هنا، ما جعل المنغوليين يبدون ضخام الأجسام، وطبعاً المقصود باللحوم هنا، لحوم الخيول أيضاً، وفي الأيام التالية خرجنا إلى أسواقهم للتجول فيها، فلم يكن هناك أي شيء يمكننا شراؤه غير الأقمشة الحريرية، وهي الأقمشة الوحيدة والجميلة بتعدد ألوانها، التي يمكنك شراؤها هنا، ذلك أن الاقتصاد المنغولي معقد بطبيعته، بسبب موقع البلاد المعزول عن خطوط الملاحة الجوية والبحرية.. حيث تعتبر مهنة الرعي هي المهنة الأساسية، ولعل هذه الوضعية هي التي جعلت كثيراً من المنغوليين يهاجرون إلى دول العالم الأخرى،

وخاصة روسيا والصين والولايات المتحدة الأمريكية، إذ تُعتبر الهجرة هنا ظاهرة عادية، بسبب بدائية الاقتصاد المنغولي في الفترات الماضية.

ومع ذلك، وكما جرت العادة، فأثناء مقابلاتنا الرسمية مع عدد من المسؤولين المنغوليين، تقدمنا بطلب المساعدة لليمن الديمقراطي، وبلّغوا رئيس وفدنا وزير الزراعة محمد سليمان ناصر، بأنهم على استعداد لتقديم مئات الخيول هدية من الشعب المنغولي، لكن على اليمن أن تتكفل بنقل تلك الخيول، لعدم استطاعة الحكومة المنغولية نقلها، وبناء عليه، سألنا عن تكاليف النقل من هنا إلى عدن أو إلى حضرموت، وحسبنا كم ستكلف نفقات تربية هذه الخيول في جنوب اليمن؟. وعندما عرفنا كم هذا وكم ذاك، لم نجد بُداً من تقديم اعتذارنا، وحينها فكرنا بالطريقة السائدة، طريقة القطاع العام، ولم نفكر بالبيع والشراء على الطريقة الرأسمالية، أو طريقة اقتصاد السوق وطرق الاستثمار، وإلا لكنا نقلناها وبعناها في أقرب دولة راغبة في ذلك؛ فعلى الأقل، سيكون مضموناً 100% بيعها لإخوتنا في السعودية ودول الخليج، وبأسعار عالية، لأن أسعار الخيول هناك باهظة الثمن.

والحقيقة أن مثل هذه الفكرة راودتني حينها في أولان باتور، ولكنني قلت لنفسي: «ا تخلق لنفسك مشكلة، فربما قال لك الرفاق في عدن: كيف تأخذ خيولاً اشتراكية وتبيعها لدول رأسمالية ورجعية»، وستكون الإجابة صعبة عن مثل هذا السؤال حينها، والأهم من ذلك، أنه ربما وُجّه إليك هذا السؤال في أولان باتور قبل أن تسمعه في عدن، لأن بيعك للخيول المنغولية في الأسواق الخليجية، قد لا يعلم به المنغوليون، ولكن بالتأكيد أنه لن يفلت من أعين الاستخبارات الروسية.

كنت أتمنى أن آخذ معي عند مغادرة «أولان باتور»، خيلاً أحتفظ به لذكرى هذه الزيارة، وكان تحقيق الأمنية مستحيلاً بسبب مشكلة النقل، ولكن

الأمين العام للحزب المنغولي الحاكم، رئيس الدولة، منحنا بمناسبة الزيارة، وساماً رفيعاً «الميدالية الذهبية»، وما زلنا نحتفظ بها حتى الآن، بالإضافة إلى هذه الذكريات الطيبة التي أدونها هنا، والتي تشكّل مع أخرى مثلها لدى يمنيين آخرين زاروا «أولان باتور»، مكونات جسر للصداقة مع الشعب المنغولي.

كولومبو (سيرلانكا)

وصلنا إلى سيرلانكا عن طريق مطار كراتشي، وكنا جئنا إلى كراتشي عن طريق مطار جدة القديم، حيث مكثنا في جدة أربع ساعات، استضافنا فيها الشيخ فضل الصانبي، رحمه الله. وسيرلانكا، كما يسميها العرب «سيلان»،

جزيرة تقع في الجنوب من شبه جزيرة الهند، ويفصلها عن الهند مضيق صغير، هو مضيق «بالك»، حرارتها لا بأس بها، ورطوبتها شديدة على مدار السنة، لقربها من خط الاستواء، الذي تفصلها عنه سبع درجات، ولكن كثرة أشجارها وخضرتها وبحيراتها تلطف الجو وتجعله مقبولاً، تركيبتها السكانية (سنهالية – تاميلية) والقومية الأخيرة، كانت تطالب بالاستقلال السياسي والانفصال عن البلاد، ما جعل الدولة في دوامة الصراع والحرب الأهلية، وقد اشتد ذلك الصراع منذ بداية العام الحالي (2009م)، بين القوات الحكومية وثوار التاميل، وحوصر مئات الآلاف في مناطق القتال، وقدرت أعداد القتلى خلال الأشهر الثلاثة الأولى من العام بنحو 6500 قتيل، والحمد لله، أن مثل هذا القتال لم يكن دائراً عندما زرتها قبل 32 عاماً.

شهرة سيريلانكا، التي تقع في الجانب الغربي من المحيط الهندي، ترجع أساساً إلى شهرة الشاي السيلاني، ذي النكهة الراقية، والتأثير المنبه بذوق، كما أن شهرتها تعود أيضاً إلى مواقف رئيستها، آنذاك، السيدة (بندرا نايكا)، التي يطلق عليها أيضاً اسم أو لقب (الأم) هنا، وتستمد العاصمة «كولومبو» شهرتها من شهرة البلد، فهي عاصمة الشاي العريق المطلوبة عالمياً، كما أن السيدة «بندرا نايكا»، شخصية عالمية، ورئيسة البلاد التي تقيم فيها.

زرت كولومبو مرة واحدة في عام **1976**م، وذلك لحضور مؤتمر دول عدم الانحياز، وكنت أشغل – آنذاك – سكرتير العلاقات الخارجية للتنظيم السياسي الجبهة القومية، وقد سبقنا يومها الوفد الرئاسي في السفر إلى هناك، وذلك كوفد تمهيدي، مكون مني ومن الأخ عبد الله الأشطل – سفيرنا الدائم لدى هيئة الأمم المتحدة بنيويورك، وعدد من السفراء في دول أخرى، ومديري دوائر في وزارة الخارجية، وعند وصولنا، نزلنا بأجمل فنادقها المتوفرة، وكان فندقاً متواضعاً، حالته وفقاً للمعايير والمقاييس السياحية العالمية، لا تتعدى الثلاث نجوم، وكم كانت فرحتنا، أن الوفد الجيبوتي نزل ليقيم في نفس الطابق من الفندق، إذ إنه خصص غرفة لديه للمقيل (لمضغ القات)، وما كان منا، من أبو يمن، سوى سرعة الذهاب إلى جيرانهم، ومشاركة إخوانهم الجيبوتيين في مضغ القات، الذي جلبوه معهم من جيبوتي، وعندما التأم شمل الجانبين/ الوفدين في جلسة قاتية، وبدأ فحص أغصان القات، وتحديد ما يصلح منها للمضغ، ورمي ما لا يصلح، وعندما بدأت الأحاديث السريعة المتنقلة من موضوع إلى آخر، بدا وكأننا لسنا في كولومبو عاصمة سيريلانكا، وإنما نحن في ضاحية من ضواحي مدينة جيبوتي، أو في حي من أحياء مدينة «عدن»، ولكن الشراكة الجيبوتية اليمنية القاتية، أدت إلى نفاد مخزون القات القادم من جيبوتي في اليوم الأول، وبينما كان هناك متسع من الوقت، وعدة أيام حتى تحضر الوفود الرئاسية التي ستشارك في مؤتمر القمة لدول عدم الانحياز، وعليه، لم يكن هناك بد من التجوال منذ ظهيرة اليوم الثاني في أنحاء العاصمة، بل والخروج للتمتع بالطبيعة الخلابة في مناطق قريبة وبعيدة خارجها، وذلك بعد إمضاء ساعات قليلة في الصباح الباكر في أعمال التحضير على مستوى الخبراء.

إذا ما تجولت في جزيرة سيريلانكا، أو كما يسميها العرب «سيلان»، فإنها تجتذبك بكل أنحائها وشواطئها الساحرة، التي تمتاز بالصفاء وتعدد الألوان،

أي أن العاصمة كولومبو، لن تستحوذ عليك وحدها، كما هو الحال في بقية عواصم بلدان العالم الأخرى، التي تميل فيها العاصمة إلى الاستيلاء على وقت الزائر، ولا تدعه يزور مناطق أخرى مجاورة لها، أو بعيدة عنها، شوارع كولومبو قليلة، ومظهرها العمراني يشبه مظهر المدن الهندية الصغيرة إلى حد ما، وما من شارع تمر فيه، إلا وتجد تلك السيارة الصغيرة جداً، ذات الثلاث عجلات أو الأربع عجلات، والمخصصة لوجود راكب واحد فقط، على أن يكون متوسط الحجم، لأنه إن كان ضخماً، فقد لا تستوعبه، وأبناء كولومبو طيبون، وأحوالهم المعيشية عادية، ومتقاربة تقريباً مع مستوى المعيشة في عدن. وقد وجدنا بعض الأفراد يتحدثون اللغة العربية، فلما سألنا عن ذلك، قيل لنا إن المسلمين يشكلون نحو 10% من سكان سيريلانكا، أما البقية، فهم من البوذيين، أغلبية سكان البلاد.

وكما هو معروف، تشتهر سيرلانكا بجودة زراعة الشاي السيلاني، الذي يصدر إلى جميع أنحاء العالم، وهو الصنف الأول المستهلك في اليمن، وقد زرت مع عدد من أعضاء الوفود القادمة، أحد أطراف الأنحاء الجبلية التي تزرع الشاي (منطقة نوراليا)، حيث تكسو جبالها أشجار الشاي القصيرة الخضراء، في لون بهيج، ينصحك بعدم العودة إلى العاصمة، والبقاء هناك في أحد مصانع أو معامل تجفيف وتعبئة الشاي.

ومن الانطباعات الأساسية عن سيريلانكا، طبيعتها الخلابة الجميلة، فهي بلد لا يوجد فيه بقعة من التراب، لأنها كثيرة وكثيفة الأشجار والحشائش، وفي كل بقعة منها توجد البحيرات والأنهار وأشجار جوز الهند، وأنواع أخرى من الأشجار العالية الارتفاع والواسعة الانبساط.

بضعة أيام انتعشت فيها أرواحنا، وبعدها وصل الوفد اليمني الديمقراطي، الذي انضم إلينا، برئاسة الرئيس سالم ربيع علي ومحمد صالح مطيع وزير

الخارجية، وأحمد عبيد الفضلي، وعدد من السفراء. سكن الرئيس «سالمين» ومن معه من الواصلين حديثاً بنفس الفندق الذي نقيم به، وفي صبيحة اليوم التالي، عقدت الجلسة الافتتاحية لمؤتمر قمة دول عدم الانحياز، التي كانت تمثل دولاً كثيرة جداً، وتشكل تجمعاً من أهم التجمعات السياسية العالمية القائمة آنذاك.

انعقد المؤتمر الذي حضره الكثير من الرؤساء والملوك لدول عدم الانحياز، وكان منهم الرئيس إبراهيم الحمدي، الذي كان قريباً دائماً من الرئيس سالم ربيع علي، لا ينفك عن مصاحبته والحديث المتواصل معه، كرئيسين وكصديقين، وأحياناً كان يشاركهم الجلسات والأحاديث، عدد من أعضاء وفدي شمال اليمن وجنوبه، وأذكر أنه خلال تلك الجلسات والأحاديث، كان من أهم النقاط التي تم مناقشتها والحوار بشأنها بين الرئيسين، سالمين والحمدي، أهمية اتخاذ خطوات وحدوية جادة نحو تحقيق الوحدة اليمنية، وبالرغم من أن فعاليات مؤتمر قمة عدم الانحياز كانت كثيرة، كما أنه جرت لقاءات للرئيسين اليمنيين مع عدد من الرؤساء والملوك الذين حضروا المؤتمر، وبالرغم من أجواء الصيف التي كانت حارة أيامها، إلا أن الرئيسين اليمنيين، حرصا على ما أشرنا إليه من لقاءات ونقاشات، فقد كان هذا المؤتمر فرصة مواتية للتفاهم بينهما، سادها حقاً جو أخوي من الود والصفاء والتفاهم، وتجلى واضحاً أيامها، أن الرئيسين قد أبديا رغبة جامحة للعمل من أجل إقامة الوحدة اليمنية، وقد صدقا في ما اتفقا عليه في كولومبو، فمنذ ذلك الوقت، مضى الاثنان قدماً في الاتصالات الثنائية المكثفة، والبدء بالتفاهم المتزامن، بخصوص الخطوات التنفيذية للهدف المنشود.

ولكن الظروف في اليمن بشطريه – آنذاك – لم تكن متجاوبة مع ما أراد الزعيمان القيام به وتنفيذه، وأعتقد أنهما دفعا حياتهما ثمناً لمثل تلك الخطوات

التي أرادوا القيام بها، والتي كانت مبكرة، وبدون مقدمات كافية، وخاصة أنه في ذلك الوقت، كان العالم منقسماً إلى معسكرين دوليين، المعسكر الرأسمالي والمعسكر الاشتراكي، ولم يكن تأثير حركة عدم الانحياز الدولية يرقى قوة إلى مستوى يمكّنه فعلاً من إضعاف التقاسم العالمي القائم بقوة بين المعسكرين المذكورين، واللذين كانا يؤججان التسابق في ما بينهما على مناطق النفوذ والتسلح والسلاح والتأثير في الدول الأخرى، وحتى التسابق في ارتياد الفضاء، وكانت هذه السمة، من السمات الواضحة التي لا يمكن تجاهلها في ذلك الوقت من سبعينيات القرن العشرين المنصرم، لهذا كله، كان بإمكان أي سياسي أن يرى بوضوح تام، أن عدن كانت – آنذاك – في مواجهة صنعاء، يدعمها الشرق (المعسكر الاشتراكي)، كما كانت صنعاء في نفس الوقت في مواجهة عدن، يدعمها الغرب (المعسكر الرأسمالي).

من هنا، فقد كنت أقول لنفسي خلال مؤتمر قمة دول عدم الانحياز، وخاصة عندما أشاهد الرئيسين اليمنيين – سالمين والحمدي – معاً دائماً، إنه إذا كتبت الوحدة لليمن على أيديهما، فإن التاريخ سيكتب لكولومبو وسيريلانكا، أنهما أسهمتا في صنع الوحدة اليمنية، ولكن، ومثلما يقول المثل «تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن»، ودفع كل منهما حياته ثمناً لهذا الحلم، الذي كان سبباً لحالة الصراع المستمر في اليمن.

أسمرا

لأول زيارة خارجية يقوم بها الشخص خارج وطنه، ذكرى خاصة في النفس، فالمثل اليمني يقول «الأولة زهرة»، وها أنا بعد أن تنقلت في مناطق عدة من ربوع اليمن، جنوبيّه وشماليّه أيام التشطير، كنت أتوقع أن تكون أول سفرة لي إلى خارج اليمن،

إما للدراسة الجامعية في مدينة القاهرة المصرية، أو إلى بلد آخر، مثل الجزائر، الذي ساند نضال شعبنا التحرري من أجل نيل الاستقلال الوطني، ضمن وفد طلابي لتنظيم الجبهة القومية، بحكم مسؤوليتي في القطاع الطلابي لها، وهو التنظيم الذي كان أيامها (نوفمبر 1967م)، يتهيأ لاستلام الحكم في عدن، عندما يغادرها آخر جندي بريطاني في اليوم الأخير من هذا الشهر.

لكن الأقدار لها مسارها الخاص، ولم يصدق المثل الذي ذكرته آنفاً، ففي الأسبوع الأخير من شهر نوفمبر، ونحن نتهيأ للأفراح والليالي الملاح، بدأت أعاني من آلام شديدة في الكلى، وصلت ذروتها مع قرب يوم الاستقلال، ونتيجة لذلك، قررت القيادة التنظيمية للجبهة القومية، ترتيب سفري مع عدد من الجرحى المصابين من جراء حرب التحرير إلى مدينة أسمرا، لكون جميع الخدمات، بما فيها الخدمات الصحية المتواضعة، شبه مشلولة في مدينة عدن، سواء بسبب آثار الحرب الأهلية التي دارت في بعض أحياء عدن قبل أسابيع، أو بسبب الإرباك الناتج عن الانسحاب الكامل للإدارة البريطانية من عدن.

وهكذا، كانت أول زيارة لي إلى خارج حدود اليمن، إلى أسمرا، التي كانت حينها تابعة لإثيوبيا (إمبراطورية الحبشة التي يحكمها الإمبراطور هيلا

سيلاسي)، وصلتها جواً من عدن في يوم 29 نوفمبر 1967، أي ليلة جلاء الإنجليز من عدن والجنوب ككل، بهدف العلاج.

لم تكن «الأولة زهرة»، لأن آلام المرض جعلتني لا أرى شيئاً، ولا أهتم بشيء، ولم أشعر بنفسي إلا وأنا داخل «المستشفى الإيطالي» بمدينة أسمرا، وفيه أجريت لي عملية جراحية في مجرى الكلية اليمنى بعد أيام قليلة، ولم يلتئم الجرح في العملية الجراحية الأولى، فقام الدكتور الجراح الإيطالي، بإجراء عملية جراحية ثانية، كانت ناجحة، بحيث شفيت بعد شهر من المكوث في المستشفى، واستعدت صحتي كاملة.

كان عليّ أن أمضي وقتاً للنقاهة قبل العودة، وقد أمضيته في التجول في المدينة وأنحائها، وجدت أسمرا مدينة جبلية ترتفع عن سطح البحر كثيراً (نحو 2400 متر)، ولذا، فهي باردة في الشتاء، مثلما كانت تلك الأيام.

تكثر في أسمرا وحولها المزارع والأشجار الخضراء، التي تغطي الجبال والوديان، ذلك أن اقتصادها يعتمد على الزراعة، ولم أرَ فيها مصانع، لكنني عرفت أنها تعد من أهم ممولي البلاد (إثيوبيا) بالأقمشة التي تصنع محلياً فيها، وكذلك تصنع فيها العديد من المنتجات الغذائية، وتكتسب المدينة أهميتها أيضاً، من أنها أقرب المدن إلى ميناء «مصوع» الهام بالنسبة للبلاد كلها (إثيوبيا حينها)، والذي ترتبط به بطريق للسيارات، وما لفت انتباهي عند التجول في شوارعها أن مبانيها تشبه مباني مدينة عدن إلى حد ما، من حيث الحجم والارتفاع، وكذلك من ناحية الشكل أيضاً.

أثناء وجودي في أسمرا، تعرفت إلى بعض قيادات العمل الوطني التحرري المعارض للسلطة الوطنية الجديدة، التي قامت في عدن (جمهورية اليمن الجنوبية الشعبية)، والذين رحلوا بعد توقف الحرب الأهلية بين الفصيلين الوطنيين

الرئيسيين (الجبهة القومية) و(جبهة التحرير)، وبعد وصول الجبهة القومية إلى سدة السلطة والحكم قبل شهر.

كان ممن التقيتهم، الأخ الصديق المرحوم أحمد عبد الله اليافعي، العضو البارز في قيادة تنظيم «رابطة أبناء الجنوب»، وعناصر قيادية من «جبهة تحرير جنوب اليمن المحتل»، وقد التقينا وتحادثنا كأصدقاء، رغم اختلاف مشاربنا الفكرية والسياسية، وبرغم الأوضاع السياسية المعقدة والمثيرة للخلافات الحادة، وهذا الحال الذي اتسم بعدم العدائية بيننا في أسمرا، والتعامل كأصدقاء، هو حال وسلوك كل اليمنيين، عندما يكونون في بلدان أخرى خارج الوطن.

ومدينة أسمرا موطن خصب لأبناء اليمن منذ عهود قديمة، حيث توجد هناك جالية يمنية كبيرة، ولهم دور في الجانب الاقتصادي على وجه الخصوص، فهم من فئات الأغنياء، بعد التجار الإيطاليين، ولهذا حظينا، نحن القادمين الجدد من عدن، بحفاوة بالغة من قبلهم، فقد أكرمونا أثناء وجودنا هناك، وخاصة أبناء يافع وحضرموت وتعز، المقيمين هنالك منذ أمد بعيد، والذين اعتبرونا من ذات المناطق في اليمن، والجنوب خاصة، وجدناهم سعداء كمواطنين إثيوبيين كاملي الحقوق والواجبات، لكننا أحسسنا خلال جلساتنا وأحاديثنا معهم، بقلقهم الشديد من الأمور القادمة في إثيوبيا، التي كانوا يتوقعونها، في حال قيام ثورة شعبية هناك، مثلما حدث في عدد من الدول الأفريقية، وأدى إلى القيام بتأميمات.

وقد صدقت توقعاتهم، ففي سنة **1974**م، أممت الحكومة الإثيوبية الثورية، برئاسة منجستو هيلا ماريام، كل شيء تقريباً، وخاصة الأراضي الزراعية والمصانع، وصادرت معظم ممتلكات كبار الملاك والتجار، بما فيهم مَنْ هم من أصول أجنبية، بل وطلبت من بعضهم الرحيل إلى بلدانهم التي تعود إليها أصولهم، ومنها اليمن، إن لم تكن في مقدمها، وهكذا ما حدث لهم، ما حصل

لغيرهم من العرب والأجانب في زنجبار وتنزانيا وكينيا وأوغندا، وغيرها من البلدان الأفريقية والآسيوية التي تحررت من ربقة الاحتلال الاستعماري الأجنبي، فتحول الأحرار إلى مضطهِدين لإخوانهم.

شخصياً، لم أتوقع ما حدث، رغم سماعي لأحاديث القلق المذكورة، ففي ذات يوم، وأنا أتجول في أسمرا، بعد خروجي من المستشفى، رأيت موكباً إمبراطورياً مهيباً لإمبراطور الحبشة (هيلا سلاسي)، يشق الطريق، والجماهير الحاشدة مصطفة على جانبي الطريق تصفق وتهتف له، وعندما تقترب عربة الإمبراطور، تركع حشود الجماهير ساجدة له، رأيت الإمبراطور العجوز واثقاً من نفسه بإباء، كان قصير القامة، نحيف الجسم، يحيّي الجماهير المصطفة على طول الطريق بيد ملوحاً، ويربت باليد الأخرى على كلبه الصغير المدلل الجالس إلى جواره، حين رأيت تلك المناظر، لم أتوقع أن يسقط هذا الإمبراطور قريباً، لكنني شعرت حينها بالاشمئزاز والمرارة تجاه تلك المناظر، وتعجبت لمشاهد هذا الإذلال لشعب طيب وديع، لكنه إلى جانب كونه مذلاً مثل سائر الإثيوبيين، فإن إذلاله مضاعف، لأنه محتل من قبل (إثيوبيا)، ولم يدر بخلدي – يومها – أن هذا الشعب سيبدأ الثورة، بل إنني لم أكن أتخيل أن عدن ستكون قاعدة خلفية للثورة الإريترية، حيث تحولت عدن مقراً رئيساً للجبهة الشعبية لتحرير إريتريا، وغيرها من الفصائل الثورية الإريترية، ولم أتخيل أيضاً أن جزيرة حنيش، الواقعة في البحر الأحمر، ستكون إحدى الجزر التي تنطلق منها قوارب الثوار نحو أريتريا، ثم تصبح بعد تحررهم مثار صراع حاد بين إريتريا واليمن، كاد أن يقود إلى الحرب، حتى تم حلها لصالح اليمن في محكمة العدل الدولية.

لم أتخيل أنني شخصياً سأكون لاحقاً، مسؤولاً للعلاقات الخارجية لتنظيم الجبهة القومية، الذي يقدم الدعم والمساعدة للثورة الإريترية، فقد التقيت أسياسي أفورقي ومحمد رمضان، وغيرهم من قادة الجبهة الشعبية، كما التقيت

لاحقاً بعبد الله إدريس، وغيره من قادة «جبهة التحرير الإريتري»، وقد أصبحت أسمرا الواقعة في وسط أريتريا بعد ذلك، عاصمة لدولة إريتريا الوطنية، حين استقلت إريتريا عن إثيوبيا، وأصبحت جمهورية مستقلة في **20** مايو من عام **1991**م، ما أدى إلى انتعاش حياة المدينة التي صارت عاصمة لدولة، هي أكبر مدنها مساحة وسكاناً، حيث يبلغ عدد سكانها عند زيارتي لها، في حدود ربع مليون نسمة، معظمهم من المسلمين، وهم الآن حوالي **600** ألف نسمة، نصفهم في أحياء المدينة، والنصف الآخر في القرى الصغيرة المحيطة بالمدينة.

كانت هذه هي الرحلة الأولى والأخيرة إلى أسمرا، التي شهدت استقلالها في بدايات التسعينيات، والتي لم تقتصر على المدينة، بل شملت عدداً من المناطق المجاورة لها.

بعد الاستشفاء والنقاهة من العملية الجراحية التي أجريت لي تماماً، عدت إلى عدن، وأذكر أنه قبل مغادرتي أسمرا، واجهتني مشكلة دفع مصاريف العلاج، والتي وصلت جملتها إلى **13** ألف شلن، وهو العملة السائدة آنذاك في عدن، وكان الدولار يومها يساوي **7** شلنات، لذا، كان المبلغ في ذلك الوقت باهظاً جداً، ولولا الاستدانة من رجل الأعمال في مصوع وأسمرا، الحاج عبد القادر الوالي، وبضمانة من الحاج عبد الرب عبد الرحمن، والد الكابتن عبده عبد الرب اليافعي، لما وصل مدد العلاج (تكاليفه)، حسب ما وعد به الأخ فيصل عبد اللطيف الشعبي، رحمه الله، الذي لم يسعفه الوقت لتذكر الموضوع في البداية، كونه أصبح رئيساً لحكومة جمهورية اليمن الجنوبية الشعبية، وأصبحت مشاغله كثيرة جداً منذ اليوم التالي لسفري، وأيضاً، لم يهتم بإعطاء الأوامر بتسديد المبلغ، نظراً لانقسام الموقف السياسي لقيادة الجبهة القومية الحاكمة في عدن بعد **5** أشهر من الاستقلال.

تزاملت في رحلة العودة من أسمرا، وعلى نفس الطائرة المصرية، مع الأستاذ صالح الزوقري، المربي العدني القدير، والذي تحمل مسؤوليات تربوية كبيرة في عدن، وفي مطار أسمرا، كانت في وداع الأستاذ الزوقري امرأة شابة جميلة ممشوقة القوام قمحية اللون، ذات قوام طويل، وقد رأيتها تقول له وهي تبكي: يا عم صالح سلم لي على الأهل، فأنا مشتاقة لشارع الزعفران (شارع رئيس بحي كريتر بعدن)، ومشتاقة لريحته (تقصد روائح التوابل والفل والعطور الصادرة من محالّه).

لم آبه بهذا الكلام عندما سمعته، لكنني عرفت من الأستاذ صالح سر بكائها فيما بعد، فقد كانت الفنانة (فانوسة)، التي كان كبار رجالات عدن المشهورين يطلبون ودها، ليس بسبب فنها أو شخصها أو جمالها، ولكن بحكم علاقتها مع الأجهزة الإدارية العدنية التابعة للإدارة البريطانية، آنذاك، لكنها كإنسانة، وبعد أن غادرت الوطن (عدن)، مع رحيل الإنجليز، ها هي قد عرفت ماذا يعني فراق الوطن بالنسبة للإنسان.

أديس أبابا

كان آخر وفد يقابل الرئيس الإثيوبي منجستو هيلا مريام قبل رحيله من أديس أبابا، ورحيله من حكمها بأربعة أيام، هو الوفد اليمني برئاستي كعضو مجلس رئاسة الدولة اليمنية الموحدة «الجمهورية اليمنية»،

وكان ذلك في نهاية عام **1991**م، وفي هذا اللقاء، أبدى الرئيس الإثيوبي اهتمامه الشخصي بالزيارة خارج إطار البرتوكول، حيث أقام لي ولمن كان معي مأدبة عشاء رسمية عالية المستوى، حرص على أن يحضرها شخصياً، وقبلها كنت قد التقيته في النهار، وتحدث معي حديثاً مطولاً دام زهاء ساعتين.

كان الوضع العربي والأفريقي يومها منقسماً تجاه حرب الخليج الثانية، التي كان الغزو العراقي للأراضي الكويتية سبباً لها، وقد أخذ هذا الموضوع جزءاً من الحديث، إلى جانب مواضيع شتى تناولناها، وما أثار استغرابي حينها، هو أن الرئيس الإثيوبي لم يُشِر من قريب أو بعيد إلى المصاعب الداخلية الخطيرة التي يواجهها، وإنني أجزم هنا بأنه كان غير مُلِم بخطورة وضعه الداخلي، وغير مدرك تماماً، أن رفاقه وكبار ضباط جيشه والقادة في الدولة، قد تخلوا عنه، وفي نهاية اللقاء، طلب مني أن أبقى يوماً آخر ليواصل الحوار معي، ولكن ذلك الموعد ألغي، ولا أدري ما السبب ومن الذي ألغاه، خاصة أنه كانت لدينا معلومات مسبقة في عدن عن إسقاط نظامه عن طريق تحالف إرتيري مع جبهة أوروموا الإثيوبية.

ربما كانت مصادفة أن أقابل الرئيس منجستو هيلا ماريام قبل تنحيته عن السلطة بأربعة أيام فقط، ومن المصادفات العجيبة أنني كنت أول مسؤول يمني يتعرف على منجستو هيلا مريام، حين كان لا يزال بعيداً عن قمة الحكم

قابعاً في الظل بعد الانقلاب الذي حصل ضد الإمبراطور هيلا سيلاسي وأطاح به، ومجيء الجنرال «عندوم» ليرأس المجلس العسكري، الحاكم البديل للإمبراطور، وبالمناسبة، فإن الجنرال عندوم من أصل إريتري، وتولى هذه المكانة لأن إريتريا كانت حينها أرضاً إثيوبية.

كانت واقعة تعرفي المبكر على الرئيس منجستو في الثمانينات، عندما جاءت إلى عدن نصيحة من بيروت، تفيد بأهمية استقبال أحد الإثيوبيين المنضوين في إطار الثورة الفلسطينية، وهو عضو قيادي في (المنظمة الثورية الإثيوبية)، وكان له صلة بالمقدم منجستو هيلا مريام، وهو الرجل الفعلي الرئيس في انقلاب أديس أبابا، أخذ الأخ محمد صالح مطيع، وزير الخارجية، والأخ الرئيس سالم ربيع علي، الطلب الذي وصل مأخذ الجد، وطلبا مني – بحكم وجودي في منظمة التضامن الآسيوي الأفريقي، أن أستدعي ذلك الرجل إلى عدن، وأن نسافر إلى أديس أبابا للتعرف إلى المقدم منجستو، جاء الرجل إلى عدن، وقمنا بالزيارة إلى أديس أبابا، حيث نزلنا للإقامة في فندق، ولكن المقابلة مع منجستو تمت في شقة كائنة في عمارة وسط العاصمة أديس أبابا، كان اللقاء بشكل سري تماماً، فقد كان منجستو حريصاً على ألا تعرف الجهات الرسمية الإثيوبية حينها بهذا الأمر، وجدنا منجستو حينها بمنتهى الجدية في توجهاته السياسية، وكان متواضعاً في سلوكه ولديه سعة في التفكير.

وعند العودة من أديس أبابا، نقلنا رسالة منجستو إلى الرئيس سالم ربيع علي، الذي بادرني بالقول، صِفْ لي الرجل، وهذا ذكرني بقول معاوية بن أبي سفيان لـ «صعصعة بن صوحان»:

صِفْ لي عمر؛فقال: كان عالماً برعيته، عادلاً في قضيته، عارياً من الكبر، مقبولاً للعذر، سهل الحجاب، مصون الباب، متحرياً للصواب، رفيقاً بالضعيف غير محابٍ للقريب، ولا مجابٍ للغريب.

وكنت قد زرت أديس أبابا مرة ثانية في عام 1976م، قادماً إليها من نيروبي بكينيا، ضمن وفد مكون من ثلاثة أشخاص، يمثلون منظمة التضامن الأفرو – آسيوي، التي عقدت مؤتمراً في تلك المدينة، وكلفت وفدنا بالسفر إلى كل من أديس أبابا ومقديشو لنقل مقترحات المنظمة بشأن وقف الحرب بين البلدين. فسافرنا وقابلنا الرئيس منجستو في أديس، الذي بدوره أضاف مقترحات جديدة لوقف حرب بلاده مع الصومال، قمنا بنقلها إلى رئيس المنظمة في نيروبي.

وبعد كل ما حصل، سواء في أديس أبابا أو عدن، وخاصة ما تناهى إلى علمي أثناء آخر زيارة لي لأديس أبابا، عام 1991م، من أن الرئيس منجستو هيلا ماريام، لا يعلم بما يدور حوله قبل إزاحته أو هربه، وما شابهها من حالات وأحداث في عدد من عواصم بلدان العالم الثالث، أجدني أقول اليوم: شتان ما بين عمر وبين حكام هذه الأيام، الذين يأتون من المؤسسة العسكرية تحت دعاوى التخلص من الظلم والقهر، الذي تمارسه السلطة البائدة، وإذا بهم جاءوا من الأوساط الفقيرة ليخدموها، ثم تحولوا إلى جلادين جدد لها، أسوأ بكثير من الحكام السابقين، إلا ما ندر ذكره. ولذلك أصبحوا – هم أنفسهم – بعد حكم قصير أو حكم طويل، ضحايا انقلاب من أقرب الناس لهم، وأحياناً من أبعدهم.

وبعيداً عن السياسة، فإن أديس أبابا، أعلى عاصمة في أفريقيا من حيث الارتفاع، لأنها تقع على ارتفاع نحو 2500 متر عن سطح البحر، وموقعها هذا جعلها تمتاز باعتدال طقسها وجماله طوال فصول السنة، كما أنها دائمة الأمطار التي تزداد هطولاً في منتصف السنة، وهذا ما يجعل أراضيها وجبالها مكسوة بالخضرة دائماً بتشبع الحشائش والأعشاب ورواء الأشجار، وأهمها أشجار السرو وأشجار الكافور، وغيرها.

وأديس أبابا كلمة إثيوبية تعني (الزهرة الجديدة)، لأنها مدينة ساحرة، تتفتح على قمم الجبال كزهرة نضرة زكية الروائح، دخل إليها اليمنيون في العصور القديمة والوسيطة، وحتى إلى ما قبل عقود مضت، عبر هجرات متعاقبة، ولم يعودا إلى أوطانهم، لأنهم سكنوا في أرض قال عنها أحد الذين هاجروا إليها من أصحاب الرسول – عليه أفضل الصلاة والسلام – والذين رفضوا العودة إلى الحجاز في الجزيرة العربية «لقد وجدنا الجنة التي وعدنا بها الرسول»، أما موسولوني ديكتاتور إيطاليا، فقد برر استعماره لهذه الأرض الطيبة وناسها الطيبين، بـ» أنها الجنة التي يسكنها القرود، والأخ سعيد صالح، أحد قادة جبهة ردفان ووزير أمن دولة لاحقاً ، قال عندما زار المزرعة التي قدمتها الحكومة الإثيوبية منحة للشعب اليمني، منحة تزرعها وتبيع منتجاتها «مثل هذه الأرض، هي التي تستحق أن يقاتل المرء من أجلها».

في عهد الرئيس سالم ربيع علي، بدأت خطوات هامة في تعزيز العلاقات بين عدن وأديس أبابا، حتى وصلت إلى عقد معاهدة الصداقة بين البلدين في عهد الرئيس علي ناصر محمد، وفي إطار هذه العلاقات، رفعت أديس أبابا العلم الفلسطيني، وأنزلت العلم الإسرائيلي، وزار منجستو هيلا مريام، عدن وعدداً من العواصم العربية، وزار وزير خارجية أديس أبابا، دمشق وبيروت وطرابلس، مقدماً الدعم الإثيوبي والأفريقي لجبهة الصمود والتصدي ضد الاحتلال الصهيوني، حاملاً بذلك صداقة جديدة مع العرب الذين يخوضون حرباً قاسية مع إسرائيل وحلفائها.

ولا بد من الإشارة هنا، إلى أن إثيوبيا وبقية دول القرن الأفريقي، تكتسب أهمية خاصة بالنسبة للعرب جميعاً، وليس فقط بالنسبة لنا نحن أبناء اليمن؛ فالسودان ومصر وليبيا، ترتبط بعلاقات جغرافية وسياسية ومائية واقتصادية بهذا العمق، الذي ينبغي أن نحافظ عليه كعمق صديق، وألّا نخسره

ليتحول إلى عدو، سيسبب الكثير من المتاعب، وخاصة المائية والدينية منها للسودان ومصر، وذلك من خلال مساعدة بلدان القرن الأفريقي على سد منابع الفقر، وإيجاد حالة من الاستقرار السياسي والأمني فيها، وخلق حالة تنموية تقضي على التشوهات الإنتاجية التي خلقت حالة بائسة من الفوارق الاجتماعية والقومية في مجتمعات تلك البلدان.

كانت علاقة عدن بأديس أبابا مثالية، إلى حد ما، بسبب التجانس السياسي بين النظامين، وكونهما في إطار ما كان يسمى المعسكر الاشتراكي العالمي. هذا على الرغم من أن كثيراً من الإثيوبيين، بما فيهم الذين هم من أصول يمنية قد تضرروا من الإجراءات الاشتراكية التي اتبعها النظام الثوري الحاكم بعد الإطاحة بالإمبراطورية، من مصادرة للأراضي الزراعية الخاصة بكبار الملاك، وتأميم بعض الأملاك العقارية والصناعية، بالإضافة إلى المضايقات والملاحقات لأبناء الأسر المالكة والتجار والأسر الحاكمة سابقاً، وأذكر هنا واقعة حدثت لأميرة إثيوبية من سلالة هيلا سلاسي، هربت من دارها نتيجة للمضايقات والتعسف إلى فندق «هيلتون» في أديس أبابا، أثناء حكم الرئيس الماركسي منجستو هيلا ماريام، الذي حظر سفر من تبقى من سلالة الملك السابق، والتحقت الأميرة الهاربة بوفد دولة صديقة، أخذها معه على متن طائرة نقل عسكرية إلى خارج إثيوبيا، وبعد سقوط نظام منجستو ردت الأميرة على ذلك الموقف الإنساني القديم، بأن عرضت على الشخص اليمني الذي ساعدها (قديماً) أن تساعده في الحصول على الجنسية الأمريكية، وعندما أخبرني بذلك، أعربت له عن استغرابي من إخلاصها الجميل بعد وقت طويل؛ فقال لي إنه بحكم تواصله الدائم مع إثيوبيا وناسها، وجد أن النساء الإثيوبيات يتسمن بالإخلاص والوفاء العميقين، ولم أجد بداً من القول له إن النساء عموماً أكثر امتناناً ووفاء من الرجال، وهذه الحقيقة علينا الاعتراف بها دون خجل.

والحقيقة أن منجستو هو نفسه قد أثبت أن الرجال ليسوا أوفياء مثل النساء الإثيوبيات، إذ إن تلك العلاقة المميزة بين عدن وأديس أبابا توترت في ما بعد، بسبب تدخل أديس أبابا في الصراعات الداخلية بين أجنحة السلطة في عدن، فأثناء نشوب صراع 13 يناير 1986م، كانت هناك محاولة تدخل إثيوبي لصالح الرئيس علي ناصر محمد، لكن السوفييت أوقفوا هذا التحرك البحري لمنجستو الذي كانت طلائعه قد وصلت إلى باب المندب، ومن جانب الجناح الذي كان منتصراً في عدن، فقد أعطى قادته تعليمات للحامية المرابطة في باب المندب، بقصف هذه السفن إذا ما اقتربت فعلاً من حدود مياهنا الإقليمية، والمهم أن توتر العلاقات لم يؤدِ إلى حرب بين البلدين.

وإذا انتقلنا للحديث عن أديس أبابا كزائرين، وليس كسياسيين، فهي بالنسبة للزائر أو السائح، مقصد يُشعره بمعنى تذوق الحياة والمحاكاة العذبة مع جمال الطبيعة، فهي تقع في وسط الحبشة تماماً، ما يتيح للشخص أن يرى معظم أنحاء البلد من جبال ووديان وأنهار، ولا أستطيع هنا شرح ما رأيته وما زرته من مواقع سياحية رائعة، ولكن بقائي ليوم في الحمامات المعدنية لمدينة «نزرات»، ظل في الذاكرة، كرحلة تمتع فيها نظري، وطابت خواطري وتجلت أساريري واستراح فيها جسدي، بحيث تمنيت لو أنني بقيت في ذلك الموضع شهوراً، وألا أعود إلى أديس أبابا، التي هي أصلاً غاية في الجمال، جمال الطبيعة وجمال الإنسان، أضف إلى ذلك أنها تجمع بين سجايا المدينة القديمة والمدينة الحديثة. فقد تم بناء قسمها الجديد الحديث في عام 1986م، كما أن أبناءها ودودو المعاشرة، وكريمو الخلق، وهادئو الطباع، ويبلغ عدد سكان المدينة حالياً ما يقارب 4 ملايين نسمة، أي 3 أضعاف ما كانوا عليه عند زيارتي الأولى لها قبل نحو أربعين عاماً، وهم فعلاً كما ذكرت، ودودو المعاشرة، وكريمو الخلق، وهادئو الطباع، وتتأكد من صحة وصفي هذا، إذا عرفت أنهم يتكونون من 70 جماعة

عرقية، ويتكلمون عشرات اللغات، وتتقاسم الديانتان الإسلامية والمسيحية معتقداتهم؛ فهذا التنوع العرقي الثقافي الديني، تراه في أديس أبابا، تآخياً وألفة ومحبة بين أبنائها، على عكس كثير من المدن التي يكون سكانها من عرق واحد وديانة واحدة ومنابع ثقافية واحدة، ولكنك عندما تزور إحدى تلك المدن وتختلط بأهلها، لا يخفى عليك ما يدور بينهم بداخلها من خلافات وصراعات ومشاكل وتبادل للسب والشتم والذم بمختلف العبارات الرديئة

تذكرت هذا، لأنه حدث ذات زيارة لمدينة عربية، أن وجدت شابين في أحد فنادقها يتبادلان عبارات شتم وسب، كل واحد منهما يشتم ويسب الطائفة التي ينتمي إليها الآخر وهما يضحكان ويمرحان؛ فصرخت فيهما: «لماذا تتبادلان السب والشتم بهذه العبارات الرديئة؟»، وإذا بهما يجيبانني: «نحن نهزر، إنها ليست حقيقية، فهي تعبير عن زوال الكلفة بين الأصدقاء»؛ فقلت لهما: «هل هذا هو الأسلوب المتبع في هذه المدينة لإزالة الكلفة بين الأصدقاء؟»، فضحكا وقالا: «لا، ولكنه متبع بيننا كصحبة، إنه نوع من المزاح»، ويا له من مزاح.

ما زالت الذاكرة تختزن زيارات عدة قمنا بها، ومنها زيارة الرئيس علي ناصر محمد، والرائد عبد السلام جلود، الرجل الثاني في ليبيا، قبل إزاحة القذافي وقتله، وذهابنا مع السفير المرحوم صالح أبو بكر بن حسينون إلى بنزرت، تلك الحمامات الساخنة الجميلة وذات الفائدة، مع وزير الخارجية الإثيوبي حينها، فمن هذه المنابع، تسقى روافد نهر «هواش»، أحد أنهار الحياة في هذا البلد الجميل.

نيروبي

أصبحت كينيا عام **1924**م، إحدى مستعمرات التاج البريطاني، حتى حصلت على استقلالها الوطني عام **1963**م.

وأبناؤها يتحدثون لغتهم المحلية، التي تُسمّى «السواحلية»، وهي لغة تنتشر في كثير من البلدان الأفريقية، وهي خليط من البانتو والعربية، ويوجد عدد كبير في نيروبي ممن يتحدثون العربية، ذلك أن نسبة المسلمين في كينيا كبيرة، إضافة إلى وجود جاليات عربية عدة، وهناك عدة لغات أخرى، وكلمة «نيروبي» تعني بإحدى اللغات المحلية المياه الباردة، وهي كذلك باردة، كونها مرتفعة عن سطح البحر **2650** متراً تقريباً، بنفس ارتفاع مدينة صنعاء عن سطح البحر.

للجنوب علاقات قديمة بهذه المدينة (البلد الأفريقي)، جاءوا من عدن وحضرموت والمهرة، وغيرها من المناطق إلى هذه المدينة، التي تعد مدينة حديثة، ليس لها تراث قديم، لأنها تأسست عام **1899**م، كموقع لتموين إقامة سكة حديد عملاقة تربط بين كينيا ومدينة مومباسا بأوغندا، ويقال إن اليمنيين جاءوا ليعملوا في هذا المشروع الكبير، وآخرون يقولون إنهم قدموا واستوطنوا في كينيا مع دخول الاستعمار الإنجليزي إليها، ولكن أصحاب الشأن يقولون إنهم قدموا إلى هذا البلد الطيب قبل هذا التاريخ بزمن بعيد جداً. المهم أن أمورهم تيسرت – هنا – في التجارة، وتركزوا في عدة مدن، ومع أن هذا البلد الأفريقي فيه خير، إلا أنهم ظلوا على علاقة متواصلة مع أهاليهم في اليمن دونما انقطاع، وتعرضوا لهزة في بداية السبعينيات، عندما عمّت الكثير من بلدان أفريقيا موجة العداء للأجانب، فطالت أعداداً منهم، اضطروا إلى العودة إلى الوطن، وبعضهم إلى دول أفريقية أخرى، ولكن أكثرهم بقوا هناك، لأنهم في حقيقة الأمر أصبحوا

كينيين، فالجالية اليمنية هناك، على وئام تام مع مجتمعها، وأفرادها يتسمون بحب العمل والإخلاص فيه.

وأذكر أن من أفراد تلك الجالية، الكابتن فؤاد صالح – ابن عدن المعروف، والمتزوج على ابنة المقاول العم سعيد يافعي، أحد أبناء الشيخ عثمان المعروفين، عاش الكابتن فؤاد في نيروبي، ووصل إلى موقع مرموق في الطيران الكيني، وكان يطلق عليه (كابتن الرئيس الكيني)، لأنه كان يقود طائرة الرئيس الكيني قبل تقاعده وتوقفه عن الطيران، وهو من أبرز الشخصيات المعروفة بين اليمنيين هناك، عندما حدثت الحرب بين الصومال وإثيوبيا سنة **1976**م، دعت المنظمة الآسيوية – الأفريقية في اجتماع لها في نيروبي، إلى تشكيل وفد يضم ممثلين عن بلدان ثلاث، هي (غانا – الجزائر – اليمن)، وكنت ممثلاً لليمن الديمقراطي في ذلك الوفد، كوني حضرت الاجتماع المذكور. وكان الهدف من تشكيل الوفد، هو إيقاف الحرب المستمرة بين البلدين المذكورين، ودعوتهما إلى طاولة المفاوضات. وفعلاً، زرنا مقديشو عاصمة الصومال، التقينا بالرئيس محمد سياد بري، ونائبه محمد علي سمنتر، وناقشنا معهما موضوع إيقاف الحرب مع إثيوبيا، ثم عدنا إلى نيروبي كي نصل عبرها إلى أديس أبابا، وكان لنا ذلك حين وصلناها حاملين بعض المقترحات للرئيس منجستو هيلا مريام، الذي بعد نقاشنا معه، أضاف مقترحات جديدة من أجل وقف الحرب؛ فعدنا مجدداً إلى عاصمة كينيا لنعرض حصيلة مقترحات الجانبين إلى رئيس وقادة منظمة التضامن الآسيوية الأفريقية، وبعدها عاد ممثلو الدول الثلاث، كل إلى بلاده، وقد رافقني في هذه الرحلة الأستاذ نجيب قدار، وكيل وزارة الزراعة والإصلاح الزراعي السابق.

نيروبي مركز من المراكز الأفريقية الهامة في التجارة والسياسة، ووجود مراكز الاستخبارات الأجنبية، وهي من أكبر المدن الأفريقية، إذ يبلغ عدد

سكانها نحو 3 ملايين نسمة، ويوجد قسم حديث من المدينة بُنِي بتقنيات عصرية، حيث ترتفع فيها عدد من ناطحات السحاب الجميلة الأشكال. ولذا، كانوا يسمونها (London half) حيث شبّهوا وسط المدينة بمدينة لندن، ولكن هناك فرق، فعلى مقربة من وسط المدينة الجميلة، تقبع أحياء أكواخ الفقراء، ومنظرها شديد البؤس.

زرت نيروبي مرة أخرى في عام 2004م، لحضور مؤتمر المصالحة الوطنية الصومالية الذي عقد هناك، وحضرته فصائل وتنظيمات صومالية عديدة، وانتُخب خلال المؤتمر رئيس للصومال، لأنه لم يكن لديها رئيس آنذاك، ومنذ اثني عشر عاماً من توهان مقديشو وضياعها، وكان الرئيس المنتخب هو الرئيس عبد الله يوسف أحمد، الذي مثّل انتخابه انفراجاً صومالياً كبيراً بعد أزمة طويلة وحرب ضروس، عانت منها الصومال من الولايات ما عانت، وبالرغم من أن هذه الزيارة عاجلة وقصيرة، وأيضاً رسمية، زرتها مع الرئيس علي عبد الله صالح، إلا أنني شاهدت المدينة بعض الشيء، ووجدتها قد تأخرت وتأخر تطورها، مقارنة بما كانت عليه في الزيارة السابقة لها قبل نحو 28 عاماً.

نيروبي الآن وكينيا، تذكرنا بمن جاء إلى سدة الرئاسة الأمريكية، الرئيس باراك حسين أوباما، ولها أن تفتخر بذلك، كما تفتخر أفريقيا بإنجاب رئيسين لها، هما نيلسون مانديلا، وباراك أوباما، من لحم ودم أفريقيا الحرة.

بعد هذه الفترة الذهبية، انتهت أعجوبة العصر باراك أوباما، فلا هو قدم لأجداده الأفارقة شيئاً يذكر، ولا هو استطاع إفادة المواطن الأمريكي بشيء، وتبخرت الوعود، وتوحشت صقور أمريكا، وازدهر اليمين بفعل الإرهاب الدولي، الذي تقوده أجهزة استخباراتية معروفة، مرتبطة بهذه التيارات اليمينية المتطرفة في أمريكا والغرب على السواء.

نيويورك

منذ عام **1979**م وحتى **1982**م، زرتها كثيراً، وزيراً للخارجية، قدمت إليها لحضور انعقاد الجمعية العامة للأمم المتحدة، لإلقاء كلمات جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية في هذه الدورات في مقر هيئة الأمم المتحدة،

الذي يُعَد أحد معالم المدينة الحديثة، وكانت تلك الزيارات ما بين قصيرة سريعة وطويلة أحياناً، وخاصة عندما يستدعي العمل هناك إجراء مقابلات وحوارات مع وزراء الخارجية للدول العربية والإسلامية الشقيقة والدول الصديقة.

وفي أحد المواقف التي لا تُنسَى – وفيما كنا نبحث عن مقاعد لنا في باحة اللوبي للجلوس مع وزير خارجية جمهورية فيتنام، وإذا بنا وجهاً لوجه مع الجنرال الإسرائيلي موشى ديان، وزير الخارجية الإسرائيلي ووزير الدفاع السابق، والذي أربكنا ومن معه، عند جلوسهم بالقرب من مقاعدنا تماماً، وسادت لحظات جو من التوتر والسكوت والشك، كما هو حال ميدان الصراع العربي الإسرائيلي في ذلك الوقت؛ فهذا هو الرجل صاحب الأيام الست، الذي سحق فيها مطاراتنا وبيوتنا وطرقنا وجسورنا وموانئنا، وهذا هو الرجل الذي قتل جنودنا وشبابنا ونساءنا وأطفالنا وشيوخنا، وفوق هذا وذاك، احتل أراضينا الواسعة في فلسطين، وجعلنا، كعرب، نتوشح خزياً وعاراً، بقي بعضه حتى اليوم، ولكن الثواني اللاحقة من التفكير، أعادتنا إلى واقع وجودنا في مبنى الأمم المتحدة، القائم على مبدأ التعايش السلمي بين الأمم.

قبلها، كانت الزيارة الأولى لنيويورك سنة **1976**م، برفقة الرئيس سالم ربيع علي، الذي حضر اجتماع الدورة العامة للأمم المتحدة، وكان الوفد يضم حينذاك: وزير الخارجية – محمد صالح مطيع، ووزير التخطيط والصناعة – عبد

العزيز عبد الولي، وأنا، سكرتيراً للعلاقات الخارجية في الحزب الحاكم، ومجموعة من الفنيين ذوي التخصصات. أتينا إليها قادمين من هافانا بعد زيارة رسمية لكوبا، كانت أول زيارة لي إلى المدينة، وأهم ما في تلك الزيارة، إلقاء أول خطاب لرئيس لجمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية، في الاجتماع الأممي المذكور، والتقاء الرئيس سالم ربيع علي بالسناتور الأمريكي «فرانكلي»، الذي حاول إعادة ترميم ما فسد من العلاقة بين الولايات المتحدة الأمريكية وعدن، بعد طرد السفير الأمريكي منها عام **1969**م، وإغلاق السفارة هناك.

كان لتلك البادرة – المقابلة، ردود فعل عنيفة لدى الأحزاب الاشتراكية والشيوعية، وعلى مستوى التنظيم السياسي الموحد الجبهة القومية (الحزب الحاكم في عدن)، والتي أضحت بعد ذلك من الأسباب التي دفع ثمنها وراح ضحيتها الرئيس سالمين، ووزير الخارجية محمد صالح مطيع، ولم يتسنَ لي في هذه الزيارة، مشاهدة المدينة، لأن برنامج الزيارة كان مزدحماً كثيراً، ولكن أتيح لي ذلك في زياراتي التالية، وخاصة في زيارتي إليها عام **1996**م، إذ ذهبت إليها واستقبلني الصديق عبد الله الأشطل، الممثل الدائم والثابت لليمن، وعميد السلك الدبلوماسي العربي حتى ذلك الوقت، يومها، أحاطني برعايته الشخصية، وأخذني في نزهة بسيارته، ليريني مدينة ناطحات السحاب، التي تعد أيضاً عاصمة أمريكا الاقتصادية، فهي تأتي في المرتبة الثالثة – بعد لوس أنجلوس وشيكاغو – من حيث حجم النشاط الصناعي، وحجم القوى العاملة، تجولنا في أحياء المدينة الواسعة، ومنها «ميدان تايمز»، وأخذني إلى شارع «بردواي» ذي الطابع المميز، كونه يعد شارعاً متخصصاً بالثقافة، ويحتوي على الكثير من المتطلبات والنشاطات الثقافية، وخاصة عند تقاطعه مع الشارع (**42**)، شارع العروض والمسارح ودور السينما، ثم دخلنا إلى شارع «وول ستريت»، شارع الثروات وبيوت المال والبورصات؟ وأراني من بعد حي منهاتن الشهير بناطحات

السحاب الشاهقة، الذي يجعلك ترى نفسك كنملة صغيرة (مثلما قال أحد مرافقينا).

مدينة نيويورك مثيرة للاندهاش، بما هو بديع وغريب وعجيب ومتنوع، وخاطفة للزمن، ترى الناس فيها، الكل يسيرون ويلهثون ويعملون على عجل، حتى يخيل إليك أن بعضهم يكاد أن يطير، شوارعها فسيحة مكتظة بكل شيء بها من سبل الإمتاع، ما يجعلك تصرف كل ما أوتيت من نقود لتلبية إغراء متعة التسوق، أو إشباع رغبة الاستهلاك ولذاتها، وبها أيضاً، من الخوف، ما يجعلك تفكر في المغادرة، حتى وإن كنت تسمع عن تلك الأشياء: مخدرات، جريمة، جنس، مافيا ولم ترها، إنها مدينة التناقضات التي لا تقيدها، بل تجعلها تعمل بحرية كخلية نحل لا تهدأ.

في اليوم التالي، أراني صديقي السفير الأشطل، تمثال الحرية، الذي أهدته الثورة الفرنسية، كرمز لاستقلال أمريكا عن بريطانيا، ثم ذهبنا إلى الحديقة المركزية، وقرية (سوهو)، وتناولنا وجبة طعام الغداء في أحد المطاعم اللبنانية الحافلة بشتى أصناف الوجبات اللبنانية والأكلات الشرقية اللذيذة، وحيثما ذهبت، تجد أن هذه المدينة هي أكثف المدن الأمريكية سكاناً، وأكثرها حركة يومية، حيث توجد في المدينة شبكة هائلة من وسائل النقل، تخدم نحو 3 ملايين ونصف المليون شخص يومياً، وسكان نيويورك خليط من العرب والإيطاليين والهنود والأفارقة والمكسيكيين، جنباً إلى جنب مع الأوروبيين، وخاصة الإيرلنديين، الذين يرون أنفسهم يمثلون أصولاً أمريكية، لذا، لا غرو إن قلنا إنها مدينة أممية، لأنها أيضاً، من أكثر مدن أمريكا والعالم استقبالاً للهجرة الوافدة منذ أمد بعيد، وبعد أن كانت الهجرة قادمة من أوروبا بشكل عام، بدأت دفعات المهاجرين منذ الستينيات من القرن العشرين، تأتي من جنوب شرقي آسيا ودول الكاريبي وأفريقيا وأمريكا الجنوبية، وغيرها.

وكان لا بد من أن أزور حي الزنوج الشهير، حي «هارلم»، لاعتباري أن مثل هذه الزيارة لهذا الحي تحديداً، ارتباط ذلك بتوجهنا النضالي ضد العنصرية (الأبارثيد) منذ كنا بالسلطة، وبالفعل، زرنا حي هارلم، وهناك يشاهد المرء فظاعة التفرقة والتمييز العنصريين في أكبر بلد رأسمالي في العالم، وفي المدينة التي تجمع مشاورات العالم، حيث يرى الزائر مظاهر وظواهر تبيّن عبث وقساوة الرأسمالية بالإنسان، حيث تجعله في مهب رياحها، لأنها التي لا ترحم.

وفي اليوم الثالث، انتقلنا إلى حي بروكلين، وفيه توجد جالية يمنية كبيرة، أغلبها من مناطق يافع والضالع وحالمين والمنطقة الوسطى، وفي أحد الأيام التالية، زرنا «نيويورك بافلو»، والتقينا هناك إخوة أعزاء، وفي مقدمهم علي عبد الرحمن البري (رحمه الله) – رئيس المركز الأمريكي العدني، وعدد من الإخوة الذين ما زالوا مع جميع إخواننا هناك، مرتبطين بالوطن الأم، بالرغم من حصولهم على الجنسية الأمريكية، التي لا يتعارض الحصول عليها مع ارتباط المغترب بوطنه الأم.

قابلت العشرات من أبناء اليمن الأمريكيين أثناء زياراتي المتكررة إلى نيويورك، حيث تُعَد هذه المدينة من أكبر 3 تجمعات كبيرة للجالية اليمنية في أمريكا (إلى جانب ميتشجن وشيكاغو)، ووجدت الأحاديث عن النجاحات العديدة والمتنوعة التي حققها اليمنيون هنا على الصعيد الاقتصادي، كما أنهم لم يقعوا فريسة الأمراض والظواهر الاجتماعية السيئة المنتشرة في نيويورك، التي، برغم كل مظاهر تقدمها الهائل في جميع جوانب الحياة، إلا أنها كانت المدينة الأعلى نسبة في الظواهر الاجتماعية السلبية، مثل الفقر وانتشار الجريمة والمخدرات، ومقارنة مع بقية المدن الكبرى الأمريكية، ومع ذلك، كانت تواجههم (أبناء نيويورك من اليمنيين)، مشاكل كثيرة جداً على الصعيد الاجتماعي، نتيجة لاختلاف العادات والتقاليد الاجتماعية، خاصة الجانب

السلبي منها، الذي لا يستطيعون تقبله والتعايش معه. ولهذا، فإن قصص الحب والزواج والطلاق كثيرة بين أبناء العرب واليمنيين في أمريكا، إنها محاولات الجمع بين المتناقضات والاندماج مع الثقافات والعادات المختلفة، وما زلت أذكر هنا أروى اليافعية، التي تحصلت على الجنسية الأمريكية؛ فهي قابعة هناك في أمريكا، ولكن قلبها هنا في اليمن لدى من تحب (خطيبها)، أحد أبناء عمومتها، الذي لا يستطيع القدوم إلى أمريكا لتعقد إجراءات الدخول حينها. وقد أرتني – أنا وعدد من أقاربها – بعض الخواطر الشعرية، تقول فيها:

يا اللي بعيد الدار امسيك بالخير عساك تسلم في مساء كل يومي

أرسل لك أشواقي مع النجم والطير وعين تتمنى شوفتك لو مستحيله

أضحك مع الناس لكن ضحكي معك غير الروح تنتشي وتطيب لو هي عليله

وتتنقل «أروى» بين أمريكا وبريطانيا، حيث يوجد هناك عدد أكبر من أفراد أسرتها – عائلتها الكبيرة، وهنا يتحول الشوق والحنين من حنين للحبيب في اليمن، إلى شوق وحنين لكل الأهل والأقارب والأصدقاء في اليمن وبريطانيا، وهذا ما جعلها تنظم المزيد من الخواطر، اطلعت على واحدة منها، تقول فيها:

يا كثر منهو على العين غايب ويا كثر منهو اتعبنا غيابه

البعض له الشوق غلاب والبعض متى ماجا، يا هلا به

إلا أنت غيابك مثل جرح لاحباب نتعب كيف نلقى علاجه

ما ينساك القلب يا عز الأحباب حتى يحضنه القبر بترابه

وإذا كنت ممن زاروا مدينة نيويورك وشاهدت برجي التجارة الشاهقين فيها، فلا بد أن يتملكك الحزن والألم الشديد بعد أحداث 11 سبتمبر 2001م الإرهابية، التي أدت ذاك اليوم إلى تدمير هذين المعلمين البارزين، ومقتل نحو ثلاثة آلاف مواطن أمريكي، يقال إن بينهم نحو عشرين يمني الأصل؛

فلا يمكن للمرء أن يصدق أن مبنيي التجارة العالميين، المبنيين الأشد ارتفاعاً في المدينة، قد اختفيا تماماً، إن وصف أثر هذا العمل الإرهابي الكبير على نفسية من رأى نيويورك وأحبها، صعب، لشدة الألم الذي أوجده، ولتحطم نفسية هذا الإنسان، هذا بالنسبة لي ولغيري من الزوار، فما بالك للتأثير في أبناء المدينة أنفسهم، الذين يعيشون فيها، ويتذكرون العمل الإرهابي المدمر الذي جرى هناك، والذي يفوق ما نراه في أفلام الرعب الأمريكية، التي ما من بشاعة وإجرام إلا وصورتهما.

إن أهمية التفكير في أحداث 11 سبتمبر 2001م الإرهابية وتذكرها، تكبر لدينا في عالمنا العربي، وبالنسبة لنا كعرب وكدول عربية، خاصة بعد أن تحول العنف والإرهاب إلى ظاهرة عالمية، تؤثر بفعالية في العلاقات بين الدول، وخاصة إذا ما راعينا أننا كعرب ومسلمين، كنا المتهم الأول من وجهة نظر البعض في وجود هذه الظاهرة، من أننا ضحايا هذه الظاهرة، ورفضناها وحاربناها قبل أن يحاربها الآخرون. فقد كان منشأ هذه الظاهرة التي مولتها ورعتها الأجهزة الأمنية الغربية والأمريكية، وبعض الأجهزة العربية في أغلب البلدان (في البدايات)، على أساس أنها موجهة ضد الأنظمة الشيوعية والاشتراكية، وعلى وجه الخصوص، الوجود السوفييتي في أفغانستان.

اليوم، عندما ترى نيويورك في وسائل الإعلام المتنوعة أو تزورها، تحس بهول ما حدث يوم 11 سبتمبر 2001م، وآثاره الباقية – خاصة النفسية منها – ولكنك تحس أيضاً، وفعلاً، بأهمية محاربة الإرهاب عالمياً، وفي بلداننا العربية على وجه الخصوص؛ فرغم أن حياتنا في الماضي البعيد، كانت دائماً مليئة بالعنف السياسي، الذي ولّت مقوماته القديمة البالية، ومظاهره السابقة، المتمثلة بالانقلابات العسكرية المسلحة، والصراعات العنيفة على السلطة بين أطرافها، والفتن القبلية، وغيرها، إلا أن الإرهاب والعنف السياسيين، عادت بقوة إلى

حياتنا وهمومنا من جديد، كضيف ثقيل جداً، تارة يرتدي ثوب النضال السياسي، وفي أكثر الأحيان يرتدي ثوب الجهاد الديني، وتزداد أهمية مواجهة هذا الإرهاب، خاصة مع تبديله لأشكاله وأساليبه في السنوات القليلة الماضية، التي برزت فيها أشكال جديدة، وأساليب خادعة، وحلل مبتكرة للعنف والإرهاب السياسيين، وغيرها من المظاهر الإرهابية المستحدثة، التي ما كنا نتخيلها أو نتوقع ظهورها يوماً.

إن الإرهاب لا مستقبل له، ولا أمل؛ فما حدث من عملية إرهابية كبيرة في نيويورك، لم يعد لها أثر تقريباً، نيويورك لا تزال هي نيويورك، أكبر مدن الولايات المتحدة الأمريكية سكاناً، ونيويورك لا تزال هي نيويورك، أهم مراكز التجارة والمال في العالم، حيث يوجد بها ما يقارب 500 بنك ومصرف ومؤسسة مالية وسوق البورصة الأكبر عالمياً، وآلاف الشراكات التجارية والصناعية العالمية. إنها ماضية في نشاطها المالي والتجاري والاقتصادي الذي تقوم به، وهي التي تمتلك ربع القوة المالية العالمية بأسرها، إنها ماضية في حياتها وحركتها وحيويتها وعواطفها. فسلام على مانهاتن وبرونكس وبروكلين وسنترال بارك، وغيرها من الأحياء.. سلام على البحيرة وعلى الميناء، سلام على مدينة نيويورك كلها، وأهلها ومحبيها.

واشنطن

ليس لي حظ مع واشنطن، على عكس الحال مع نيويورك، التي جعلتني أحب أمريكا في ذلك الزمان البعيد، الذي كنا نخاف فيه أن نفصح عن حبنا لهذا البلد، لذا، يبدو لي أن المدن مثل النساء، يتحكم في تفاهمنا معهن القَدَر، والحظ أحياناً. أقول هذا لأنني تعرفت إلى نيويورك منذ عام 1976م، وترددت عليها كثيراً، فأحببتها،

كما لو كانت عدن أو جدة، بل إنها المدينة الأمريكية التي أشعر أثناء وجودي بها براحة نفسية طيبة، وهي التي أثرت في تفكيري منذ السبعينات من القرن الماضي، فحين كنت أتجول بها سعيداً، كنت أحس وكأنها تحادثني، وتقول لي: انظر لي، هل تجدني سأنهار يوماً، لا تصدقهم، لن تنهار الرأسمالية، عد إليّ بعد 10 أعوام، عد إليّ بعد 50 عاماً، عد إليّ بعد 100 عام، ستجدني هنا شابة مفعمة بالحيوية، كما أحببتني الآن.

كانت واشنطن مدينة لم أفهمها، وربما هي لم تفهمني منذ الوهلة الأولى، حتى إنني لم أفهم اسمها إلا بعد حين، فطوال مدة كنت أرى الحرفين C.D، ولم أكن أفهم ماذا تعني، إلا أنني أثناء الزيارة الثانية للمدينة، سألت وعرفت أنهما يرمزان إلى الأحرف الأولى من «قطاع كولومبيا»، بما يعني أن المدينة ليست خاضعة لأي ولاية من الولايات الأمريكية الـ 51، وإنما هي منطقة اتحادية فيدرالية خاضعة لسلطة الحكومة الفيدرالية، ولهذا، عرفت لماذا لا يوجد للمدينة ممثلون في مجلس الكونجرس، وقد يكون سبب عدم الانسجام بيني وبينها، سبباً عاماً متعلقاً بطبيعتها؛ فواشنطن مدينة وجدت لتكون عاصمة سياسية لأمريكا، عاصمة سياسية، ولا شيء غير ذلك، فهي ليست مدينة سياحية أو مدينة

اقتصادية، إنها عاصمة تحتضنك، مثيرة في عقلك التفكير للسياسة الأمريكية ودور أمريكا العالمي، ويبدو أنها تصور نفسها، عن عمد – بما تضفيه على زائريها ومن فيها من أجواء سياسية، كمدينة حكم – على أنها سيدة العالم، وقلعة الديمقراطية العالمية، وحصن النظام الاقتصادي العالمي المنيع، والراعي الأول لحقوق الإنسان، وقلعة محاربة «الشر»، وغرفة عمليات الحرب العالمية على الإرهاب.

حاولنا في عدن أن نغازل واشنطن في الفترة **1970** م **1978**م، ولكنها من ذلك النوع الذي لديه كبرياء عالٍ، ولا يُقدِم على تنازل سوى بأثمان باهظة، لذا، دفعنا قيمة ذاك الغزل غالياً، فإثنان من خيرة القادة وخيرة الرجال، رئيساً ووزيراً للخارجية، دفعا حياتهما ثمناً لذلك، ومن بعدهم عشرات المؤيدين لهم، ولم تكن هي آبهة حينها بما جرى، بل ربما أنها ضحكت يومها، ثم تغيرت الدنيا بعد زمن طويل، فتركنا موسكو، وأحببناها هي منذ **11** عاماً خلت، وأصبحنا منذ ذلك الحين من المناصرين لها، نعم، صرنا الآن نؤيد التعاون مع واشنطن في ما تتبعه من سياسات، تأييداً شبه كامل، ربما يصبح ولاء، خاصة بعد وصول الرئيس الأمريكي الجديد باراك أوباما إلى البيت الأبيض، ولكن لدينا تحفظات، فنحن لا نريد أن نؤيدها تأييداً أعمى، لأننا كنا في عدن، قديماً، قد خبرنا التأييد الأعمى لموسكو، فوقعنا في صنوف من البلاء، وذقنا الويل والحبور، وعشنا شدائد الأمور.

للمدن تأثير ساحر قوي على الأشخاص، ويقال إن الرئيس السوفييتي ميخائيل جورباتشوف، لم يتخلَ عن خطته في إصلاح النظام الاشتراكي (البيروسترويكا)، والارتماء كاملاً في حضن الرأسمالية الحنون، إلا بعد أن تجول في واشنطن ونيويورك، ورأى المدينتين وشوارعهما وبريق الرأسمالية اللامع، الذي لن تصل إليه موسكو وبرلين، حينها، حتى بعد ألف عام، كما أن نائب الرئيس

علي سالم البيض، تخلى عن نصائحنا في عام **1989**م بالكونفدرالية، واتفق مع الرئيس علي عبد الله صالح على الوحدة الاندماجية الفورية بين شطري اليمن، عندما كانا في نفق جولد مور (الساحل الذهبي) في منطقة التواهي بعدن، وهي من أجمل المناطق السياحية الساحلية في العالم، وعندما اندلعت حرب صيف **1994**م بين الطرفين الموحدين، كنت حينها في لندن، مع عدد من الأصدقاء، نتابع الموقف في الوطن. قال أحدهم: «هذه المصيبة بسبب اتفاق جولد مور» فأجابه صديق آخر: «لو كنت في جولد مور، ذاك المكان البديع، لوقعت على أي اتفاق وأي ورق)».

تذكرت حديث الصديق هذا، بعد حوالي عامين ونيف العام، وأنا في واشنطن، في طريقي لمقابلة وكيل وزارة الخارجية الأمريكية المساعد لشؤون الشرق الأوسط، السفير آرثر هيوز في مكتبه بوزارة الخارجية الأمريكية، وكان ذلك في شهر أغسطس من عام **1996**م. وعندما جلسنا في مكتبه، بدأت أشرح له الأوضاع السائدة في بلدي اليمن، بعد نتائج الحرب التي دارت في صيف **1994**م، وكان يفهم كل ما يدور، لأنه عمل سفيراً للولايات المتحدة الأمريكية في اليمن، وبعد أن استكملت كلامي، إذ به يقول: «كان ملف اليمن أثناء حرب صيف **1994**م، هو الملف رقم (**74**) أمام السيد الرئيس، أما اليوم، فإن الملف هو في التجميد (**frizer**).

اندهشت من كلامه هذا، وسألته مباشرة: وما هو رقم الملف الخاص بالإرهاب والتطرف؟

كان صريحاً معي، على غير عادته الدبلوماسية التي يتبعها، إذ قال: «إننا نولي الاهتمام الأول لهذا الموضوع!!».

أثناء ذلك الحديث، وفي لقاءات مع عدد من المسؤولين الأمريكيين، كان ملفا حرب **1994**م والإرهاب في المنطقة «تلقائياً»، هما المسألتان اللتان

نالتا قسطاً وافراً من الحديث؛ فالملف الأول يمثل أولوية في الشأن اليمني واستقرار اليمن ونموه، أما الملف الثاني، فهو الأساس في استقرار المنطقة العربية والقرن الأفريقي القريب منها، وبخصوص هذا الملف (الثاني – الإرهاب)، كان موضوع الديمقراطية وسد منابع الفقر وتجفيف منابع الإرهاب، ومساعدة أمريكا بأوساطها الليبرالية لهذه التوجهات في العالم العربي، هو الهاجس الأول آنذاك، ولكن ما اتضح لي من خلال إجراء مزيد من النقاشات، وعقد مزيد من اللقاءات في واشنطن العاصمة، هو أن ملف الإرهاب، ليس الهاجس الأول لواشنطن.

لقد تبين لي أن هواجسها وأولوياتها، تتمثل في: أولاً، حماية إسرائيل. وثانياً: حماية مصالح الولايات المتحدة الأمريكية النفطية في المنطقة، وبعدها، وكما أشار المسؤول الأمريكي المذكور، تأتي المسائل الأخرى، وفق أهميتها، وترتيب ملفاتها، وقد ذكرني قوله هذا بوضوح، بإحدى الروايات الخيالية بمملكة الحيوانات، التي هي قصص حكمة تروى على طريقة «كليلة ودمنة»، حيث تقول الحكمة هنا: «الفيل الذي لا يخشى أحداً غير النملة»، ومعناه: كيف لأمريكا، هذا العملاق الذي يهيمن بنفوذه على منطقتنا النفطية، وحليفة إسرائيل التي تحتل الأراضي العربية، وتمارس شتى أساليب العدوان على الشعب الفلسطيني، أن تخاف على النفط وعلى أمن إسرائيل، بينما النفط تحت يدها، والأراضي العربية تحت يد إسرائيل.. «يا له من عالم سياسة عجيب»، هذا ما قلته لنفسي حين هممت بالخروج من مكتب وكيل وزارة الخارجية الأمريكية، وكم تمنيت في تلك اللحظات، أن أغادر واشنطن، هذه المدينة القاسية القلب، في أسرع وقت ممكن.

حين دخلت مبنى وزارة الخارجية الأمريكية، كنت أفكر في تأثير المدن في قادة العالم وقراراتهم الكبيرة، وحين خرجت من ذلك المبنى، وأنا أفكر في

موضوع آخر، لا يقل غرابة عن سابقه؛ فبعد كل ذلك الزمن الطويل، ها أنا أقول لنفسي: هل حقاً أنا الآن خارج من مبنى وزارة الخارجية الأمريكية، التي كنا في عدن نرفض حتى الاتصال الهاتفي بهم، وظلت علاقاتنا بها مقطوعة منذ عام **1967**م وحتى عام **1990**م، ثم ما ألبث أن أهمس مع نفسي: لو أننا أقمنا معهم علاقات في تلك السنوات، لكانوا نفعونا الآن في محنتنا هذه، التي أصبحنا فيها مشردين خارج الوطن، لا سلطة ولا اعتبار ولا ديار، ولكنني سرعان ما تداركت الأمر، وراجعت تهوري في التفكير، فمحمد صالح مطيع (وزير الخارجية حينها)، وسالم ربيع علي (رئيس البلاد كلها حينها)، اقترحا ذلك أو لمحا إليه، فكان الجواب عليهما، تهم موجهة إليهما، وصار مصيرهما الإعدام في النهاية.. وأنا جئت إلى وزارة الخارجية بعدهما، فماذا كان في يدي آنذاك؟، لم يكن في يدي شيء، فهما كانتا على رقبتي، خوفاً من أن ينال منها أحد.

كانت علاقة عدن بواشنطن في ذلك العهد، مقطوعة وعسرة للغاية على أن تصبح طبيعية؛ فعدن كانت من العواصم التي تعتبرها واشنطن مدعمة للإرهاب، فهي التي قدمت دعمها لحركات التحرر الوطني العربي والعالمية، واحتضنت الحركات والمنظمات الفلسطينية واللبنانية، بما فيها المنظمات المعترف بها، والتنظيمات الموضوعة على رأس قائمة الإرهاب الأمريكية والأوروبية. وعدن أيضاً أصبحت – آنذاك – معقلاً جديداً لليسار العربي المدعوم من قبل الاتحاد السوفييتي وكوبا وألمانيا الشرقية، وبقية دول المنظومة الاشتراكية، بل إن عدن تمادت أكثر من ذلك، حين استضافت وفداً من الحزب الشيوعي الأمريكي، برئاسة عضو في قيادته العليا، جاء إليها حين حل عليها ضيوفاً، رفاق «أنجيلا دانيز»، تلك الفتاة السمراء المناهضة للتمييز والتفرقة العنصرية، والمعارضة للنظام الرأسمالي في عقر داره، لذا كله، كان ملف عدن حينها يوازي ملفات أكثر الأنظمة غير المتصالحة مع أمريكا والمصالح الأمريكية

في المنطقة، وهذا ما جعل واشنطن حينها، تكون غير مرتاحة لهذا النظام في عدن، ويقيناً، أنها كانت تكرهه كرهاً شديداً، وتم دفع ثمن ذلك بالكامل، كما أظهرت الأحداث منذ عام **1990** وحرب **1994**م.

لقد حاولت واشنطن، بما تملكه من خبرة أثناء عهد الرئيس سالم ربيع علي، ووزير الخارجية، محمد صالح مطيع، تلطيف الجو بين البلدين، ولم تفلح الجهود، ما أعقب ذلك خطوات حصار وعقوبات لحقت بعدن، حينها، ولكن بعض السياسيين يرون أن مسلسل ذلك الحصار وتلك العقوبات، لم يتوقف أبداً، وواصل عمله حتى بعد تحقيق الوحدة اليمنية، وقيام الجمهورية اليمنية. وبناء عليه، فهؤلاء يقولون أيضاً، إنه ليس من المستبعد أن تكون واشنطن وراء حملة الإرهاب التي تعرض لها أعضاء الحزب الاشتراكي اليمني في السنوات الأولى من قيام الجمهورية اليمنية، ولكنهم يؤكدون أن واشنطن، أعطت الموافقة بالتهام أداة النظام «الحزب الاشتراكي اليمني» قبل وأثناء حرب صيف عام **1994**م، التي كان ملفها – حسب قول السيد – آرثر هيوز – رقم (**74**) أمام الرئيس الأمريكي، ولكنه جُمِّد، وإذا كان السياسيون وتوقعاتهم عن موقف واشنطن من عدن، التي أوضحتها آنفاً، تميل يوماً عن يوم نحو التصديق، فإنني عندما خرجت يومها من مكتب السيد آرثر هيوز بوزارة الخارجية الأمريكية، لم أصدق ما قاله من أن ملف حرب صيف **1994**م، أمام الرئيس الأمريكي رقم (**74**) قد جُمِّد، فأنا أعتقد أنه لم يجمد، ولكنه أصبح الملف رقم (**740**).

تغيرت أشياء كثيرة في عالمنا، وبعد الوحدة اليمنية وقيام الجمهورية اليمنية عام **1990**، أصبحنا نحن قيادات جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية، ومنذ قبل الوحدة، وتحديداً منذ عام **1988**م، تخلينا عن تبعية موسكو العمياء، وأصبحنا نؤيد أمريكا من أجل الديمقراطية الحقيقية والحرية الحقة، ونؤيدها في مكافحة كل أشكال العنف والتدمير والتطرف واستعباد الشعوب ونهب

الثروات بالقوة أو بالاحتلال. أضحينا مع أمريكا ضد قتل النفس البشرية التي حرم الله قتلها، وضد الإضرار بمصالح الناس، في أي موقع على كوكبنا، ومع حق الإنسان الطبيعي في أن يعيش بسلام وحرية، وبمستوى معيشي وصحي وتعليمي وثقافي يليق بوجوده الإنساني، وبما يحقق للناس جميعاً الرفاهية المنشودة والعدل المطلوب، من غير تمييز أو استغلال أو اضطهاد أو ظلم أو مصادرة للحريات.

لو أن أمريكا تمسكت بالمبادئ التي أوردتها آنفاً، لكان العالم كله بخير حال. وهذا لا يعني أنني أقصد أن أمريكا تتخلى عن تلك المبادئ الرنانة، ولكن مشكلتها دائماً، هي أن «واشنطن» تعطي الأولوية لمصالحها الخاصة، قبل المبادئ العالمية والإنسانية، وقبل مصالح الآخرين، مهما كانت عادلة، تعطي أولوية لمصالحها قبل كل شيء وأي شيء. مشكلة أمريكا الكبرى، أن عاصمتها واشنطن، وجدت منذ إنشائها كمدينة أنانية، وكانت طوال الفترة الماضية أنانية، وهي الآن أنانية، وستظل في المستقبل أنانية أيضاً، ولعل هذه الأنانية المفرطة، هي التي دفعت عدن في منتصف الستينيات من القرن الماضي، باتجاه المعسكر الاشتراكي، وكثير من البلدان والدول الجديدة – آنذاك – توجهت على هذا النحو.

وكثير من المحللين العالميين، يرون – بصورة مباشرة أو غير مباشرة – أن واشنطن انتصرت على ما كان يُسمَّى المنظومة الاشتراكية، لأنها كانت تركز كل جهودها وإمكاناتها نحو موسكو، التي كانت أيامها بمثابة رأس الأفعى المراد تحطيمه، تاركة البلدان الصغيرة وراءها غير آبهة بها، وغير مهتمة بكسبها؛ فإن هي (الدول الصغيرة) سارت معها، فأهلاً وسهلاً، وإن هي لم تتبعها، سخرت لها من أعدائها الموجودين الذين يريدون النيل منها، أو سخرت جيرانها ليناصبوها العداء، ويوجهون إليها الأذى لكيلا ينجح التوجه الاشتراكي فيها، ولكي تنهك

قواها، لتسقط في النهاية، أما واشنطن، فلها مهمة أخرى، هي إسقاط رأس الأفعى.

وعلى الجانب الآخر كان السوفييت والاشتراكيون يرسخون في أذهان من يتبعهم، أن الرأسمالية ستسقط حتماً، وأن هذه العملاق الهائل (أمريكا)، سينهار مثلما تضمر الشجرة وتنكمش وتذوي، ثم تموت ظمأً، فتصبح خشباً يابساً يمكن تقطيعه بسهولة واستخدامه في مبنى الاشتراكية الجديد، هؤلاء كانوا في الخمسينات يقولون إن الرأسمالية ستنهار في السبعينات، وأولادهم في الستينات كانوا يقولون ستنهار الرأسمالية في الثمانينات، ولكن مع نهاية الثمانينات، انهار الاتحاد السوفييتي ودول المنظومة الاشتراكية تماماً، كتلك الشجرة، أو ربما أسرع وأفظع، وحلت نهاية القرن العشرين، والرأسمالية في أوج عنفوانها، ومن دلائل العنفوان، أن أورد مكتب الإحصاء الأمريكي، أن الدخل القومي الفيدرالي الأمريكي لعام **1999**م، هو **600** تريليون دولار، وأن موازنة وزارة الدفاع السنوية هي **300** مليار دولار. ألا يدل هذا على أن الرأسمالية في عنفوان شبابها؟، ليت لينين كان حياً، ليرى كيف سقطت تنبؤاته، وقد قال نبينا العظيم محمد – صلوات الله عليه – (كذب المنجمون ولو صدقوا).

وإذا كان التفوق الاقتصادي، أحد العوامل التي مكنت واشنطن من الانتصار العالمي الذي تحقق لها على موسكو، فإن السبب الثاني، هو الجودة العالية العالمية لكذبها على الدول، مثل دول أمريكا اللاتينية والدول الأفريقية والدول العربية، وعلى سبيل المثال لا الحصر، وهنا المثال من كذبات نهاية القرن العشرين أيضاً (عام **1999**م)، ففي أثناء مفاوضات السلام الأخيرة بين سوريا وإسرائيل، التي ترعاها الولايات المتحدة الأمريكية، صرح الصحافي الإسرائيلي موش شارؤول من التلفزيون الإسرائيلي إن «الولايات المتحدة الأمريكية ستتكفل لوحدها بدفع ما مقداره **100** مليار دولار لإنجاح عملية

السلام في الشرق الأوسط»، والمقصود هنا، المفاوضات بين دمشق وتل أبيب. وها نحن اليوم، وبعد عشر **10** سنوات كاملة، لا نجد تقدماً في المفاوضات السورية – الإسرائيلية، والحال كذلك بالنسبة لـ «حل الدولتين»، الذي تحدث عنه الرئيس جورج بوش عند دخوله البيت الأبيض قبل **8** أعوام، وها هو قد خرج منه في يناير الماضي، دون أن يحقق شيئاً في حله هذا للقضية الفلسطينية.

أما الأسلوب الثالث الذي اتبعته واشنطن، فهو أسلوب الإنهاك للعدو أو الإنهاك للمنافس، بل وحتى الإنهاك للحليف أحياناً، وهذا الشكل الأخير لمبدأ «الإنهاك»، تستخدمه واشنطن حتى مع حليفاتها العربية، ففي مصر، يظهر هذا الأسلوب من خلال تشجيع معارضة ليس لها فعل في الواقع مثلاً، وفي السعودية ودول الخليج، أقوى حلفائها عالمياً، بدأته بدفع العراق إلى محاربة إيران، ثم بالضحك لصدام عندما شرع في احتلال الكويت، وما تلاه من إنهاك شديد للمنطقة النفطية كلها، ثم الآن، بمغازلة طهران تارة، والحنق منها تارة أخرى، وانتهاج حرب أسعار النفط، التي بدأت في سبتمبر **2008**م، وما زال أوارها مشتعلاً حتى اليوم.

وأسلوب الإنهاك هذا، هو الأسلوب الرئيس الذي استطاعت به أمريكا أن تحطم الاتحاد السوفييتي ودول المنظومة الاشتراكية، عن طريق حرص واشنطن الدائم على تفوق أمريكا في المجال النووي والفضائي والصناعي التكنولوجي وغيره، فكان أن حاولت إحدى الدول الكبيرة الأخرى – وخاصة الاتحاد السوفييتي – أن تسبقها، أو حتى تجاريها في تقدمها في ذلك المجال. إذا بأمريكا لا تقبل ذلك، فتحشد كل إمكاناتها للتقدم أكثر، بحيث تترك فارقاً بين مستواها ومستوى تلك الدولة، فيما توصل إليه الإنسان في المجال المعني، والهدف هنا ليس الريادة، وإنما إنهاك الطرف الآخر، المقصود تحطيمه؛ فمثلاً، حين حاول الاتحاد السوفييتي السابق، فتح سباق الفضاء مع أمريكا، قرر

الرئيس رونالد ريجان، إدخال الروس في حرب جديدة، سماها «حرب النجوم»، من أجل كسر شوكة الروس، وأهلكهم بنفقات هائلة لا يتحملها الاقتصاد السوفييتي، الذي يرى كثيرون أن من مسببات انهياره الكثيرة، هو أسلوب الإنهاك بالإنفاق الهائل، الناتج عن التسابق والتنافس مع الأمريكان، الذين اتبعوا هذا الأسلوب معه، وأدى ذلك أيضاً إلى خلل في النظام الاقتصادي السوفييتي، تمثل في تفوق شديد لقطاعات معينة من الاقتصاد السوفييتي (مثل التسلح والفضاء)، وتخلف شديد في قطاعات أخرى (مثل صناعات المواد الاستهلاكية والإلكترونية)، الأمر الذي أثمر في الأخير سقوط الاقتصاد السوفييتي وتحوله السريع من نظام الملكية الاجتماعية لوسائل الإنتاج، إلى الملكية الخاصة، ومن سوق الاستهلاك الموجه، إلى اقتصاد السوق.

حسناً، لقد كانت واشنطن الأكفأ والأسرع والأجدر بالانتصار، ولكن ما يهمنا اليوم في أمريكا، وبعد كل ما حصل من تغير إيجابي في العالم، هو: كيف تنظر واشنطن إلى حرية وتقدم الشعوب الأخرى؟، مثل خيارات البلدان التي تحتلها أمريكا، كالعراق وأفغانستان، وكخيارات الشعوب في دول أمريكا اللاتينية، ومثل حقوق الشعب الفلسطيني، وما شابه، نحن نرى أن نظرة وتعامل أمريكا مع تلك الخيارات، تضرر كثيراً في عهد الرئيس الأمريكي السابق جورج بوش، إذ إنهما قاما وبنيا على أساس الاستعلاء وإخضاع العالم، وسياسة الهيمنة الغربية السابقة؛ فهل يمكن أن تبرهن السنوات القادمة على قدرة الرئيس الأمريكي الجديد باراك أوباما، على تصحيح نظرة واشنطن هذه، وتعاملها مع حقوق الشعوب الأخرى في مختلف أنحاء العالم، وهذا شرط أساسي – أيضاً – لتحول إيجابي لنظرة العالم إلى أمريكا، وخاصة نظرة عالمنا العربي وشعوبنا العربية تجاهها.

لقد شهد العالم تبدلات عديدة، وبالرغم من هذه التبدلات مع مرور الزمن، إلا أن الفلسطينيين المضطهدين، ظلوا كما هم مضطهدين، والإسرائيليون المحتلون المتعجرفون، ظلوا كما هم محتلين متعجرفين، وما زالت الإدارة الأمريكية، وفية للظلم الإنساني والإرهاب الوحشي في هذا الجزء من العالم، على الأقل حتى الآن، بعد ما يقارب **60** عاماً، لماذا؟. تصعب الإجابة عن هذا السؤال في بعض الأحيان، خاصة عند ساعة الألم، ذلك أنه لا يوجد مبرر بعد سقوط نظرية الحرب الباردة، ونهاية حالة انقسام العالم إلى معسكرين، أن تنحاز أمريكا بكل ثقلها إلى جانب إسرائيل، فالمبرر السياسي أو الأيديولوجي أو الاقتصادي السابق، فقد أسباب وجوده ومبرراته، من هنا، فإن الأنظمة الصديقة لأمريكا، بل الشعوب التي تطلعت إلى السلام العادل، الذي تلعب الولايات المتحدة الأمريكية دورها الهام فيه، أصيبت بالإحباط، بل أضعف موقف الإدارة الأمريكية الدائم تجاه إسرائيل، أدى إلى تشجيع الطرف الإسرائيلي على استمرار العدوان، وفشل جهود السلام السابقة، بل وأدى إلى تجميد عملية السلام الحالية، وإلى عودة أجواء الحرب في المنطقة بوصول حزب الليكود ونتنياهو إلى السلطة في إسرائيل بداية هذا العام **2009**م.

وعندما نتحدث عن الحقوق الواضحة للشعوب الأخرى، والتزام واشنطن بها وإنصافها، فإننا لا نقصد التغاضي عن مكافحة الإرهاب كظاهرة عالمية؛ فنحن نؤيد أمريكا في مكافحة الإرهاب بشتى أشكاله وصوره (إرهاب الجماعات وإرهاب الدول)، فأمريكا هي الوحيدة القادرة على معالجة هذا المرض، ووضع حد لألمه، لأنها تملك النفوذ والإمكانات لذلك، وهناك تعاون بين مختلف بلدان العالم وواشنطن في مكافحة الإرهاب، ولكن عليها هي أيضاً أن تقف مع شعوب العالم في القضايا العادلة، وقضية الشعب الفلسطيني مثالاً عليها؛ فمن غرائب وعجائب مدينة واشنطن، أنك (كعربي)، ما إن تدخلها،

حتى تتذكر فلسطين، لماذا؟ لا أدري، وهنا أسأل: ما هذه الحالة النفسية العربية التي خلقها لنا الأمريكان؟ وما سر تجاهلهم لمشاعرنا العادلة تجاه قضية فلسطين؟.

كنت قد أمضيت وقت جميلاً في ساحة البيت الأبيض، تأملت خلاله البحيرة الصناعية المستطيلة، وسكون الماء فيها والأشجار العتيقة الطويلة المصطفة على الجانبين، وتجولت بنظري متفحصاً في جموع الأطفال والنساء والرجال الفرحين بنزهتهم في قرب سكن الحاكم – الرئيس صاحب النفوذ الأقوى في العالم، وكذا، أمعنت النظر في مسلة الحرية، التي إذا ما شاهدتها ودققت فيها، تشعر أن عمود شكل المسلة العريضة، له تأثير معنوي عاصف في النفس، حتى إنك تحس وكأن طرفه الأعلى المدبب، قد التصق بالسماء، ليرسل نبضات عاطفية إلى أرجاء الكوكب ومحيطه، ثم ذهبت بعد ذلك إلى منطقة مبنى الكونجرس الأمريكي، ولكنني لم آبه به، وقصدت مكان نصب الرئيس إبراهام لينكولن، الواقع في منطقة مقابلة على ضفاف نهر جميل.

كان عليّ صعود درجات كثيرة تؤدي إلى المبنى المكون من طابق واحد، والذي يقع على تلة صغيرة خضراء بالحشائش، لا أشجار حوله، وقد زينت واجهته كاملة بالأعمدة الضخمة، التي تزين بها عادة مداخل وبوابات المقرات الرسمية الأمريكية، ولكن الفرق هنا، كما عرفت، أن المبنى كاملاً محاط بـ 36 عموداً، كتب على كل منها اسم ولاية أمريكية، وهو عدد الولايات التي كانت ضمن الاتحاد في عهد الرئيس لنكولن، الذي توفي مقتولاً في عام 1865م، دلفت إلى داخل النصب، وسرت القشعريرة في بدني وأنا أواجه تمثاله البرونزي، رأيته جالساً على ذلك الكرسي، وكأنه ينظر إليّ، ويسألني عما أريد معرفته في تلك اللحظة؟، ولكنني ظللت أتفحص فيه وأنا فاغر الفاه، مشتت التفكير، كنت أريد أن أساله، لماذا هو أكثر حظوة بالزيارة من قِبَل الأمريكيين؟، هل هو

كفاحه الحياتي من أجل التعلم الذي كان يصعب على الفقراء، أم هو وفاة والدته وعمره 9 أعوام، ووفاة حبيبته وزوجته بعد وقت قصير من ارتباطهما، أم هو سعيه الحثيث للعدالة، وهو الذي سخر عمله وحياته من أجل هدفين: وحدة أمريكا وتحرير العبيد، أم حبه للعدالة والحق عامة بدون كلل، حتى آخر يوم من حياته؟

أجل، إن تعلق الأمريكيين به حتى اليوم استقرت هواجسي وأفكاري على هذا الاتجاه، فالرئيس الأمريكي إبرهام لنكولن، أكثر الرؤساء الأمريكيين حباً للعدالة والحق، وما زلت أحتفظ بعد ثلاثة عشر عاماً من زيارتي تلك لنصبه، بمطبوعة عنه، جاء فيها نص رسالة كتبها لأحد أصدقائه، ومن ضمن ما كتبه الرئيس «لنكولن» في رسالته تلك، ما يلي:

" إنني أؤمن بوجود الله، وأعرف أن الله لا يقبل الظلم، ولا يرضى بأن يستعبد الإنسان أخاه الإنسان، وإني أرى أن العاصفة قادمة لا محالة، وأعرف أن الله معي، وأنا مستعد أن أبذل كل جهدي وحياتي لتحقيق الحق، فأنا لا شيء على الإطلاق، إنما الحق والعدل هما كل شيء».

أتمنى على واشنطن أن تقرأ هذه الكلمات دائماً، إن هي فعلت ذلك، فإننا مقبلون على عالم جديد، تسوده العدالة، وتعلوه رايات الحق، وتحتضنه القلوب المفعمة بالمشاعر الإنسانية الجميلة. لأن الكلمات التي قالها الرئيس لينكولن أعلاه، هي الطريق الوحيدة إلى عالم يسوده السلام والوئام، وأن مضامينها هي السبيل الوحيد لينعم كل الناس على هذه الأرض بالسعادة والهناء.

وبعد، فهناك أمنية أرجو من الله – جل وعلا – أن يجعل الرؤساء الأمريكيين الحاليين أن يسلكوا ما سلكه أجدادهم المؤسسون الأوائل، من وضع أسس العدالة الاجتماعية والمساواة الإنسانية والحرية والديمقراطية، وببعد نظر

ثاقب للزمن، وأدى تقيدهم بها، إلى جعل أمريكا أقوى دول العالم اقتصادياً وعسكرياً وتكنولوجياً، إن هذه الكلمات، هي رسالتي الأخيرة لواشنطن، التي يرى أغلب السياسيين الأمريكيين، أن دفة سفينة عالمنا موقعها فيها، وقد يصدقون في ذلك، إذا اتبعوا مبادئ المؤسسين الأمريكيين الأوائل، وقد يخفقون إذا هم تخلوا عنها أو تحايلوا عليها. فدفة سفينة العالم، ليس لها مدينة محددة بعينها، بل تعتمد على الأهلية والجدارة في وضع نفسها في المدينة المناسبة، كانت قديماً في روما، وكانت مثار منازعة عدة مدن في العالم في حقب تاريخية لاحقة، وكانت ذات وقت قريب في لندن، ثم تنازعت عليها مع برلين، ثم تنافست عليها موسكو وواشنطن 70 عاماً، وها هي اليوم واشنطن، تمسك بها، ومن يدري، هل تبقى فيها أم تولي أدبارها إلى مدينة قوية أخرى؟، ومتى: بعد عقد أو بعد قرن من الزمان؟.. الله وحده يعرف ما سيحدث في المستقبل، أما نحن، فنجهل هذا، فلو كان الناس يستطيعون معرفة ما سيحدث في المستقبل بدقة، لسارت الأمور على نحو أفضل وأجمل وأطيب.

وفي حالتي، لو أنني كنت أرى ما سيحدث في المستقبل، لجئت إلى واشنطن قبل أن أزور نيويورك الحبيبة، ولتصنّعت اللين معها منذ وقت مبكر، ولكنت ودوداً مع لندن منذ أول مقابلة لها عام 1972م، وليس بعدها، ولكنت متشدداً مع موسكو، التي زرتها 100 مرة، ولبقيت في مدينة جدة ولم أبارحها، أو بقيت في ولان باتور، أرعى قطيعاً من الخيول هناك، أو أصبحت صائد أسماك في سيريلانكا، ربما كان كل هذا أفضل من تقلب المشاعر وتضارب الأحاسيس تجاه المدن الكثيرة التي زرتها دبلوماسياً ومسؤولاً سياسياً، حيث تحكمت السياسة بعلاقتي بها، بينما كان يفترض أن تكون علاقاتي بتلك المدن علاقات حميمة، بين إنسان عاشق ومدن تستحق الحب. ذلك الحب الذي لا تتدخل به السياسة.

يقول الله لنبيه في محكم كتابه: }قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ{ صدق الله العظيم.

لوس أنـجلوس

إذا وجدت الفرصة لزيارتها، فلا تفوتها أو تتركها تضيع منك؛
فكل شخص، ولكثرة ما شاهد الإنسان من أفلامها
السينمائية، فلا شك أنها تستهويه زيارتها،

وهي المدينة التي طغى اسمها عالمياً، وغزت أفلامها جميع بقاع العالم، وأصبح ممثلوها رموزاً لجبروت الإعلام الأمريكي المؤثر في جميع الناس في أنحاء المعمورة، مسيطرة على قلوبهم وعقولهم، لا ينافسها أحد في هذا المجال، فقد قضت سينماؤهم على السينما الإيطالية والسينما الفرنسية والسينما البريطانية، اللاتي كن حتى السبعينيات متقدمات عنها، ثم تراجعن إلى الوراء

حقاً، إنها عاصمة «البهجة الفاتنة»، رأيتها سائحاً، عندما طلب ولدي الأصغر خلدون مني زيارته في كاليفورنيا، وبصحبتي والدته، قد أتينا إليها تلبية لدعوته، علنا نرى أيضاً كيف يعيش هناك، كيف يدرس ويسكن؟، وماذا يأكل، وكيف يمضي أوقاته وأيامه ولياليه؟، فهو لم يتعود قبل سفره إلى لوس أنجلوس، أن يعيش وحيداً بدون أسرته الكبيرة، ولكن مثل هذه الظروف، فرضت عليه عندما أتى إلى هنا ليتلقى تعليمه الجامعي.

كان ذلك عام 1996م، وهي الزيارة الأولى لي إلى ولاية كاليفورنيا وعاصمتها، مدينة لوس أنجلوس، التي يعني اسمها باللغة الإسبانية «الملائكة»، تمتد شواطئ المدينة، التي يبلغ عدد سكانها اليوم حوالي أربعة ملايين نسمة على ساحل المحيط الهادي، وتوجد سلسلة جبال شرقها. ومناخ المدينة معتدل شبيه بمناخ مدن البحر الأبيض المتوسط.

مدينة كبيرة زاخرة الحركة نهاراً وليلاً، وفي الليل، تجعلك تشعر وكأنك تسبح في بحر من الأضواء الكبيرة والصغيرة، والعالية والمنخفضة، التي تخطف

الأبصار بسحر أشكال وجودها العشوائية. كل شيء جميل في لوس أنجلوس، شوارعها المنتظمة، مبانيها الأنيقة، وقصورها الفارهة، مثل تلك القصور في حي «بيفرلي هيلز»، الذي يسكنه كبار الممثلين، أسواقها التجارية، حدائقها، وأجمل ما فيها مدينة «هوليوود»، التي هي بمثابة ضاحية منها، اشتهرت أكثر منها، لأنها رائدة السينما وصناعة الأفلام العالمية المنتجة في مئات الاستوديوهات، ومنها مثلاً استوديوهات «يونيفرسال» الشهيرة، التي تقع في حي له نفس الاسم، وبه حي سكني إلى جانبها اسمه الـ«سيتي ووك». وتعج المدينة بدور السينما والمسارح التي لا يخلو شارع منها، ومنها مسرح «مان الصيني». أضف إلى ذلك أنها توصف بأنها عاصمة الألعاب النارية، لأنها تتفوق بالألعاب النارية التي تشتهر بها مدينة «ديزني لاند» الموجودة بها.

إنها أكبر مدن ولاية كاليفورنيا، وثاني أكثر مدن الولايات المتحدة اكتظاظاً بالسكان بعد مدينة نيويورك، وتعتبر أحد أهم المراكز الثقافية والاقتصادية والعلمية في الولايات المتحدة الأمريكية، ولكنني لست بصدد إعطاء مادة دراسية عنها، بل أسجل هنا انطباعاتي الشخصية من رحلتي تلك.

وإلى جانب ما سبق إيراده، فإن المدينة تتميز أيضاً باستراحاتها الرائعة المقامة على طول شواطئها الجميلة، مثل شواطئ منطقة «سانتا مونيكا»، وشواطئ منطقة «رينبو هاربر»، وغيرها من الشواطئ المترامية الأطراف، بأمواجها الساحرة، والتي تمتد عبر شريط ساحلي طويل: سان دييغو – لوس أنجلوس – سان فرانسيسكو، وفي «لوس أنجلوس» شوارع كثيرة، لكل شارع ملامحه الخاصة، فمثلاً، هناك شارع لا تدخله السيارات، ويتجول به الأفراد في المحال والمطاعم والمقاهي المتنوعة على جانبيه، وهناك شارع آخر، توجد به مطاعم تقدم وجبات عربية وشرق أوسطية أخرى، وهناك حي من المدينة يسمى «المدينة الصينية»، وفيه كل شيء صيني، إلى حد أنك عندما تتجول فيه

طويلاً، تنسى أنك في أمريكا، وتعتقد أنك قد سافرت منها إلى الصين في اليوم السابق.

بإمكانك استكشاف كل المعالم المذكورة في «لوس أنجلوس»، بركوب وسائل النقل المتطورة، التي تسهل لك ذلك، ولكنني تنقلت فيها بالسيارة، وبواسطتها كان الانتقال من مكان إلى آخر، خاضعاً لما نقرره – أنا والأسرة طبعاً – من خيارات الترحال والمشاهدة، حتى إننا ذهبنا إلى أماكن بعيدة متعددة بين سان فرانسيسكو ولوس أنجلوس عبر «البوابة الذهبية»، وكل هذا جعلنا نُمضي أياماً لا تنسى من العمر.

ولن ننسى زيارتنا وتجولنا في الاستوديو العالمي (هوليوود)، وتلك العجائب والخدع السينمائية التي نشاهدها في الأفلام كحقائق لا تقبل النقاش (إنها هوليوود.. إنها أمريكا).

هافانـــــا

من المفارقات العجيبة في العاصمة الكوبية، التي رأيتها عند زيارتي لها لأول مرة، هو خلوها من أي تمثال أو صورة رسمية للزعيم الكوبي – أبو الثورة الكوبية – «فيدل كاسترو». وباستثناء ضريح ضخم أقيم لرمز الثورة الكوبية «خوسي مارتيه»، في ساحة وسط العاصمة،

وكذا صورة مجسمة للشهيد «تشي جيفارا»، أحد قادة الثورة الكوبية، والمناضل الأمريكي اللاتيني الأصل، رفعت في الشارع المقابل للمساحة المذكورة؛ فلم توجد أي مظاهر إعلانية أو إعلامية أخرى تشير إلى كاسترو أو رفاقه الآخرين، وهذا الأسلوب، كان نتاجاً لقرار من قيادة الثورة الكوبية وجمهورية كوبا الاشتراكية، اتخذته، ونص على عدم وضع صور أو تماثيل لأي من القادة والزعماء الكوبيين الأحياء.

ما رأيته وشرحته آنفاً، أثار دهشتي واستغرابي، لأنه يتناقض تماماً مع ما هو في الشرق، وبالذات في البلدان التي سلكت النهج والتوجه الاشتراكي في تطورها، والتي ترى في كل منها، تعظيم رئيس البلد أو زعيم البلد أو أمين عام الحزب الحاكم (الشيوعي أو الاشتراكي، أو العمالي)، أو من يجمع بين منصبين من هذه المناصب أو جميعها، من خلال وضع صوره في كل مكان حكومي وعام، لذا، فالإجراء الكوبي المذكور، يتناقض أيضاً مع عبادة الشخصية (إن صح التعبير)، ويفسر مرد ذلك، البروفسور الكوبي المنشق «إدواردو سانشير»، في مقال نشره في مجلة «فوكتس» السويسرية، وجاء فيه: (إن التوتاليتارية الكوبية أقوى، لأنها من طراز استوائي، والناس يتمتعون بحياتهم، رغم الاشتراكية، نحن نعيش حياة مسلية أكثر مما يعيشها الرومانيون أو الكوريون،

النظام هنا مزيج من الماركسية اللينينية، والنموذج المعروف بالدكتاتورية الأمريكية اللاتينية، الذي طبقة موسوليني وفرانكو، وخليط من هذا النوع، يتميز بنشوء نظام قوي، يرتكز إلى جهاز أمني واسع، يراقب فيه نصف الشعب نصفه الآخر.

بغض النظر عن رأي الإعلام الرأسمالي المعارض (بل والمعادي) لهذه التجربة الفريدة، التي جاءت من رحم ظلم واستبداد النظام الديكتاتوري السابق للدكتاتور «باتيستا»، فلا بد من الاعتراف أن فيدل كاسترو، هو الذي قاد عملية نقل كوبا من عصر التخلف والدكتاتورية الشخصية، إلى عصر العدالة والتقدم، كما أنه الزعيم الذي ساند الحريات والنضال من أجل التحرر في أمريكا اللاتينية، وعدد من البلدان في العالم الثالث، فقد أصبحت كوبا منذ انتصار الثورة عام 1959م، وعلى مدار خمسة عقود من الزمن، تشكل بؤرة ثوار أمريكا اللاتينية المناضلين في وجه هيمنة الدول الكبرى الرأسمالية، وتدخُّلها الفظ في شؤون بلدانهم الداخلية، ودعمهم للأنظمة الدكتاتورية الفاشية فيها، ولذا، لا يمتلك المرء مهما كان خلافه الفكري والنظري مع سياسات فيدل كاسترو ورفاقه القادة الكوبيين، سوى مبادلته الاحترام، فهو بحق، أحد قادة البلدان الاشتراكية في القرن العشرين كرازيمياً، وقوة إرادة وثقافة وصلابة، تحدى أقوى دولة إمبريالية، تبعد شواطئها الجنوبية (ساحل فلوريدا)، عن شواطئ كوبا بمسافة 145 كم، وهو بذلك شكّل شوكة سببت آلاماً مبرحة لهذه الدولة العظمى، أهمها ما كان سيؤدي إلى وصول القوتين العظميين (روسيا وأمريكا)، إلى مشارف حرب عالمية ثالثة، لولا تراجع الروس وسحب صواريخهم من هذه الجزيرة، مقابل التزام الأمريكان بعدم شن هجوم على كوبا، مع أنهم فرضوا حصاراً عليها وعلى سكانها، حصار غير إنساني تحت ذرائع عدة، منها عدم

قدرتهم على التخلص من زعامة فيدل كاسترو، الذي يرفض الديمقراطية وحقوق الإنسان، حسب زعمهم.

يفسر كثيرون أن النهج المقاوم لأمريكا، الذي ينتهجه كاسترو، بأنه إرث ورثه هذا القائد من تراث كوبا وتاريخها المقاوم للاحتلال الأجنبي، فالجزيرة التي اكتشفها كريستوفر كولومبس عام 1492م، استعمرها الإسبان لما يقرب من 400 عام، قضى خلالها الإسبان على سدس سكانها، وشُنت ضدهم، وعلى مدى عشر سنوات (1868– 1878م)، حرب وطنية تحررية لم تتكلل بالنجاح، ثم انتفض الكوبيون ضدهم ثانية عام 1895م، تحت قيادة «خوسية مارتيه» و«أنطونيو ماسيو»، وكانت تلك الانتفاضة قاب قوسين أو أدنى من الانتصار، لولا اندلاع الحرب الأمريكية الإسبانية عام 1898م، والتي أدت إلى احتلال كوبا من قِبَل الأمريكيين، الذين منحوها استقلالاً صورياً عام 1902م، لتصبح شبه مستعمرة أمريكية، وفي عام 1950م، ظهر الدكتاتور «فولهنسيو باتيستا»، والذي قاومه الثوار الكوبيون، وعندما اقتحم فيدل كاسترو ورفاقه الثوار على رأس حركة 26 يوليو، ثكنة «مونكادا» في مدينة «سنتياغو دي كوبا»، شكّل بهذا الاقتحام، بداية الكفاح المسلح ضد ديكتاتورية باتيستا، الذي هرب إلى جمهورية الدومنيك عام 1959م، ما عزز مواقع الثوار بقيادة فيدل كاسترو، وجعلهم يحتلون العاصمة، وأصبح كاسترو رئيساً للوزراء، ورفيقة تشي جيفارا وزيراً للاقتصاد والصناعة، وكان شباب العالم الثالث – حينها – وخاصة الشباب في البلدان المستعمرة في آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية، مفتونين بهذا المقاتل، وبرفيقه تشي جيفارا، طوال ثورة كوبا المسلحة، وظل هذا الافتتان بعد قيام جمهورية كوبا الاشتراكية، بل إنه زاد واتسع، خاصة تجاه تشي جيفارا، حين ترك كوبا، ليبدأ مسيرة ثورة جديدة في بوليفيا، حتى استشهد، وحتى اليوم.

من يزور هافانا، يرى بحق ما حققته جمهورية كوبا الاشتراكية على الصعيد الداخلي، فقد تحولت من بلد فقير في عهد باتيستا، إلى بلد زراعي صناعي، يصدّر كميات كبيرة من السكر والتبغ والحديد والأخشاب والبن وغيرها، وتشتهر هافانا بتصنيع السيجار الفاخر الأجود عالمياً. وفي ظرف مدة زمنية قصيرة جداً، حُدّثت الزراعة، واستخرجت المعادن، وباختصار، نال المواطن الكوبي حق العمل، وحق التعليم، وحق التطبيب المجاني، وهذا بحد ذاته عمل جبار، وبالمناسبة، فإن جزيرة كوبا العائمة وسط أرخبيل الانتيل، هي أكبر جزره على الإطلاق، ويصل طولها إلى **1200** كيلومتر، ومتوسط عرضها **150** كيلومتراً، وهي بمجملها أرض زراعية، وتنتشر فيها الغابات الكثيفة والجبال الخضراء الغنية بالمعادن، وتتمتع بجمال طبيعة خلاب.

تعد هافانا العاصمة، قلب البلاد النابض، ويقارب عدد سكانها الآن المليونين ونصف المليون نسمة، وصحيح أنك ترى في هافانا شوارع قديمة هدمت منازلها، ولكنك تجد أضعافها من الأحياء حديثة البناء، والمدارس والمستشفيات ومرافق الرياضة والسياحة، ويمكن القول إن وضعية كوبا، ربما تعكس الحال التي وصلت إليها تجربة الاشتراكية عالمياً،هناك وفرة جيدة في الجوانب الرئيسة، مثل الغذاء والتطبيب والتعليم وكل وسائل العيش، ولكن هناك شح شديد في السيارات مثلاً، إذ إن أغلب السيارات التي تراها في المدينة قديمة وبالية، ويوجد شح أيضاً في الأجهزة الكهربائية والإلكترونية الحديثة المتطورة.

في هذا السياق – سياق المنجزات الكوبية – تجد أن التطور في الجوانب الثقافية وانتشار الكتاب ووسائل التثقيف الأخرى، وكذا المستوى في الحياة الاجتماعية، ومنها الرياضة والسياحة الداخلية، ومن الأهمية بمكان، الإشارة إلى إنجاز كبير في كوبا، وهو دور المرأة الكوبية الذي تلعبه في المجتمع،

والذي يكاد أن يساوي دور الرجل في جميع مجالات الحياة، وما لفت نظري – هنا – هو حماس المرأة الكوبية الثوري والوطني، وحبها للعمل، وأذكر هنا طرفة حدثت أثناء إحدى الزيارات الكثيرة لي، التي تكررت إلى هافانا، في تلك الزيارة، كانت مترجمة كوبية اسمها «روزا»، هي المترجمة المرافقة لنا كوفد عربي (من عدة دول عربية)، وقد عملت لمدة كمترجمة للرئيس فيديل كاسترو، وتعمل – حينها – في مدرسة للغة العربية في جامعة هافانا، كانت «روزا» تتحدث دوماً مع مرافقيها من أعضاء الوفود العربية، عن النضال ضد الإمبريالية وبناء الاشتراكية، فقلت لها ذات مرة: روزا، إنك تتحدثين دائماً عن السياسة، فلماذا لا تتحدثين قليلاً عن الشباب وجزيرة الشباب وجمال الطبيعة عندكم، ألا تهتم النسوة عندكم بالحديث عن العاطفة والحب؟ فأجابت: وهل يهتم النساء العربيات بالحديث عن العاطفة والحب، فأجبتها ب»لا»، وإنني أنصحك بقراءة كتاب الروائية الجزائرية أحلام مستغانمي (ذاكرة بلا جسد)، ودفع هذا الحديث المرح، الرفيق نايف حواتمة، الأمين العام للجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين، إلى أن يكلمها بمزاح أكثر اتساعاً، بأن طلب منها الاهتمام بالشباب اليافعين من العرب الموجودين، فما كان منها إلا أن أجابته قائلة: ليس لدينا تعليمات، وعندها صمت الكل، وإذا بي أحدث نفسي: حتى في البلدان الاشتراكية، كل نساء العالم يتشاركن في الابتسامة والحنان وحب المظاهر والجواهر والمودة والحياة، إلا نساء أجهزة المخابرات والاستخبارات، فلديهن مهمات وتعليمات محددة، لا خروج عنها.

كانت أول زيارة لي إلى هافانا في عام **1972**م، مع أول وفد يذهب إلى جمهورية كوبا الاشتراكية، وكان يرأسه عبد الفتاح إسماعيل، الأمين العام لتنظيم لجبهة القومية الحاكم في عدن، والذي اهتم به فيدل كاسترو أيما اهتمام، وجد فيه القائد الثوري الرومانسي، لأنه من نفس نمط هذا الزعيم كاسترو، والذي

كان يراهن على عبد الفتاح، ليس في بناء التجربة الوطنية الديمقراطية في جنوب اليمن، ولكن كان يراهن عليه أيضاً في مساعدة البلدان التي تخضع للهيمنة الاستعمارية، ومن هنا، نجح هذا الاتجاه اليمني الكوبي في دعم الثورة الفلسطينية والثورة الإريترية، وقبلها، كان قد نجح ذلك الاتجاه في دعم التحولات في الصومال، ثم في تغيير الحكم الإمبراطوري في إثيوبيا.

وإذا ما انتقلنا للحديث عن علاقات هافانا بعدن، فعندما زار فيدل كاسترو عدن في عام 1977م، في محاولة لحل الخلاف الصومالي – الإثيوبي، وكذا الخلاف الإثيوبي – الإريتري، كانت علاقة عدن مع هافانا قد قطعت أشواطاً كبيرة، سياسياً وعسكرياً وأمنياً، رغم بُعد المسافات بين البلدين، إلا أن تشابه قيام الثورتين، وانتهاج أسلوب الكفاح المسلح، وسمة التمرد على طقوس الأحزاب الشيوعية – وخاصة الصين – كانت من العوامل النفسية والفكرية، التي أدت إلى وجود علاقة حميمة بين القيادات الشابة في البلدان، التي وجدت نفسها تدير دفة السلطة، بعد حرب التحرير التي أدت إلى قيام نظام وطني مستقل في كل من البلدين، كما زار الرئيس سالم ربيع علي، كوبا عام 1976م، وكان من ضمن نتائج الزيارة، أن صار للتعاون اليمني الكوبي الروسي، أثره في صد ودحر هجمات الصومال على إثيوبيا، بعد أن استطاع الجيش الصومالي احتلال «هرر» وبعض مناطق «أوجادين»، وفي العام نفسه، زار الرئيس سالم ربيع علي، مدينة نيويورك، ليلقي كلمته في هيئة الأمم المتحدة، وهو الرئيس الوحيد لجمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية، الذي ألقى كلمة في ذلك المحفل الدولي، حدث هذا بناء على نصيحة للرئيس سالمين من الرئيس فيدل كاسترو، أثناء الزيارة المذكورة، التي قام بها سالمين إلى هافانا.

قابلت القائد الكوبي كاسترو مرات كثيرة، بعضها أثناء زيارات الرؤساء إلى كوبا، واحدة منها أثناء انعقاد مؤتمر قمة عدم الانحياز في هافانا عام

1979م، وكان الوفد برئاسة عبد الفتاح إسماعيل (الأمين العام للحزب الحاكم)، الذي زارها يومها للمرة الثانية، وقد أصبح الرجل الأول في اليمن الديمقراطية، مثلما كان يتمنى له فيدل كاسترو أن يكون، وكذلك زرت هافانا خلال مؤتمر للشباب العالمي، الذي انعقد هناك، وتكررت زياراتي المتعددة لهافانا، لحضور عدد من المؤتمرات الحزبية العالمية والمحلية، ومنها حضور المؤتمر الأول للحزب الشيوعي الكوبي، وفي كل مرة كنت أشعر أكثر فأكثر، بالشخصية القوية لفيدل كاسترو، وعبقريته في الحوار، فهو محاور جيد، قادر على إيصال ما يريده إلى من يسمعه، وسعة ثقافته ومعلوماته الكثيفة، فهو لديه الكثير مما يقوله عن الموضوع، وحبه للأدب والفن، فقد عرفت أنه يقرأ كثيراً، بما في ذلك الروايات والأشعار، وإذا أنت قابلته، تشعر أن هناك تنافساً بين الشجاعة والثقة داخله في شخصيته، وقبل هذا وذاك، فإن مظهره الخارجي وطول قامته وطريقته الرائعة في الكلام، تجعلك منجذباً إليه طوال الوقت.

وأشير هنا، إلى أن هذا القائد، الذي يعد واحداً من أكثر رؤساء العالم الذين تعرضوا لمحاولة اغتيال – التي أشرف على تدبيرها 9 رؤساء أمريكيين حتى الآن – شخصية ثورية استثنائية، جسدت معاني النضال الإنساني، مهما كانت نواقصه، فقد كان جَسوراً في وقوفه الدائم مع شعوبنا العربية، وبالأخص في مواجهة الصهيونية العالمية المدعومة من الغرب والأمريكان، وكان صادقاً في وقوفه مع تحرر واستقلال الشعوب، حتى في تلك البلدان التي كان لها نهج آخر مختلف عن نهج كوبا، فقد أقام معها كاسترو أواصر العلاقات وأمتنها.

ومن الطريف، ونحن نتحدث عن علاقات كوبا بكثير من الدول الأخرى، أن نذكر أن فيدل كاسترو، كان يرسل هدايا السيجار الكوبي الفاخر إلى معظم الملوك والرؤساء والوزراء العرب، وغيرهم من رؤساء البلدان، إن لم يكن لهم جميعاً، ذلك أن السيجار الكوبي محبوب ومفضل عالمياً، وما زلت

أتذكر تلك الصورة التي لا تُمحى من الذاكرة، عن طريقة صناعة السيجار الكوبي المشهور (كوهيبا)، الذي زرنا أحد مصانعه الكثيرة في مدينة هافانا، حيث يقوم العمل في ذلك المصنع على العمل اليدوي في **90%** منه، وكذلك الحال بالنسبة لمزارع التبغ التي تزود المصنع، ولعل إتقان الأيادي الكوبية لهذه الصنعة، وخبرتهم الطبيعية بهذه المهنة، هي ما جعلت السيجار الكوبي أشهر وأجود أنواع السيجار عالمياً، وهو الأمر الذي جعلني أدخن بعضاً منه كلما زرت هافانا (أحياناً)، وكنت أقول لنفسي حينها (حسناً، لتتذوق السلعة الاشتراكية الوحيدة التي يحبها الرأسماليون، الذين لا يستطيعون منافسة مثلها).

الشيء الذي يعتبر حقاً لكوبا أن نورده، هو عدم ربطها المساعدات التعليمية والطبية والزراعية والشبابية وغيرها، باشتراطات أخرى أيديولوجية أو سياسية أو دعائية، ويقول البعض إن ذلك قد حدث فعلاً بصورة غير مباشرة، من خلال كتابات تشي جيفارا، التي انتشرت، ليس في جنوب اليمن فحسب، بل وفي مناطق شماله أيضاً، في الستينات والسبعينات، ولكن هذا الاستنتاج ليس له أساس من الصحة، فقد عكست تلك الظواهر البسيطة والمحدودة، تأثير شخصية تشي جيفارا أيامها، ليس في اليمن، وإنما لدى الجميع في البلدان التحررية الأخرى، وهو تأثير للشخصية، لأن «الجيفارية» ليست نظرية، وإنما بعض أفكار رومانسية ثورية، وأسلوب في العمل، شكّل ذلك الإعجاب بشخصية تشي جيفارا الأسطورية لدى قطاع الشباب في البلدان التي قاتلت، وكانت تقاتل الأنظمة الديكتاتورية الاستبدادية في أمريكا اللاتينية، والمدعومة من قبل الإدارة الأمريكية حينها، وكان ذلك الإعجاب، وما زال، هو الأساس بين أوساط الشباب في جميع بقاع العالم، والذين يعلقون صور جيفارا أو يطبعونها على ملابسهم وسياراتهم.

على الصعيد الرسمي أيضاً، فعند زيارة الرئيس الكوبي فيدل كاسترو إلى عدن عام 1977م، والتي سبق لنا أن تحدثنا عن أهدافها العامة، قام بزيارات عامة لعدد من المحافظات، ومنها عدن وأبين ولحج، وزار مصنع الطماطم في الفيوش، وحشد الرئيس سالمين الجماهير الواسعة لاستقباله في كل مكان ذهب إليه، وحقيقة، فد استمتع بالزيارات، وأعجبته شواطئ اليمن الجنوبية كثيراً، ويقال إنه بعد عودته إلى هافانا، سأله السوفييت عن انطباعاته، وبالذات السياسية منها، وكانت انطباعاته جيدة عموماً، ويقال إنه سئل عن شخص الرئيس سالمين، فقال لهم إن للرئيس سالم ربيع علي شعبية كبيرة، وعليكم أن تختاروا ما بينه وبين إقامة الحزب الاشتراكي، أي أنه لم يبدِ رأياً قاطعاً تجاه هذه المسألة، رغم أنه كان قبلها يميل إلى شخصية عبد الفتاح إسماعيل، الأمين العام للتنظيم السياسي الحاكم، الذي بدأ قبل أشهر من تلك الزيارة، الترويج لفكرة إقامة حزب اشتراكي من طراز جديد.

إذا أردنا تناول العلاقة بين عدن بهافانا بصورة واقعية وموضوعية، سنجد أنها كانت علاقة سليمة، لا تشوبها الشوائب التي كانت تشوب العلاقات مع عواصم الدول الاشتراكية الأخرى، كان الكوبيون مختلفين في تعاملهم، فقد كانت كوبا من الدول الشريفة والنزيهة في تعاملها، والكوبيون الذين وُجِدوا في عدن، كانوا من الأطباء الذين تحمّلوا مهمة تدريس طلبة كلية الطب، وبعضهم عملوا في مستشفى الجمهورية بعدن، ومستشفى لحج، ومستشفيات أخرى. ووجد بعض الخبراء في المليشيا الشعبية، وهؤلاء جميعاً لم يتدخلوا في أي حدث من الأحداث، أي أن الكوبيين قدموا دعماً لليمن الجنوبي – في ذلك الوقت – لم يكن هدفه التأثير الأيديولوجي علينا، مع أنه كان لديهم تيار تأثر بالجيفارية حينها، وتأثر بالخلاف الذي حصل بين جيفارا، الذي آثر أن يواصل الثورة،

وفيدل كاسترو، الذي آثر بناء الدولة الجديدة، وحتى هذا الخلاف الأخير، لم يكن له تأثير يذكر في عدن وجنوب اليمن.

والحقيقة، أنه لم تكن هدايا السيجار الكوبي المشهور عالمياً، هي وحدها التي كان يرسلها الرئيس فيدل كاسترو إلى الملوك والرؤساء والمسؤولين العرب وأمثالهم، ولكن كوبا قدمت وأرسلت الكثير من المساعدات إلى بلدان العالم الثالث، وعلى سبيل المثال لا الحصر، قدمت وأرسلت إلى تلك البلدان من المساعدات الطبية والأطباء، أكثر مما قدمته منظمة الصحة العالمية من المساعدات الطبية والأطباء إليها في ذلك الوقت حقيقة.

دار الزمن، وتقاعد الزعيم فيدل كاسترو، ليسلم السلطة إلى أخيه راؤول، وحصلت تغييرات هامة في السياسة الخارجية الأمريكية تجاه هذا البلد، وخاصة رفع الحصار، وإعادة العلاقات، بفعل تقارب الرئيس الأمريكي، الأفريقي الأصل، باراك أوباما، مع الرئيس الحالي لكوبا راؤول كاسترو.. ومن عاش يشاهد مآلات أخرى.

ماناجـوا (نيكاراجـوا)

عندما انتصرت إرادة المقاتلين الساندينيين، وأنهوا عهد الطاغية الدكتاتور ساموزا، جاء القائد الشاب دانيل أورتيغا إلى الحكم، مستخدماً أسلوباً في الحكم غير أسلوب الحكم الذي حكم ويحكم به فيدل كاسترو كوبا،

وهو الأب الروحي لمقاتلي أمريكا اللاتينية وأفريقيا وآسيا. كما أن أورتيغا أبقى على التسليح السابق، ولم يرتبط باتفاقية تسليح مع أي من دول المعسكر الاشتراكي، مراعاة لموقف الولايات المتحدة الأمريكية، التي كانت حليفاً للنظام السابق، وجندت قوات «الكونترا» للقيام بحرب عصابات ضد النظام الجديد، الذي يشفع له لدى أمريكا، أنه كان يختلف عن بقية الأنظمة ذات التوجه الاشتراكي، وهي دول نامية، في أنه يؤمن بالديمقراطية كوسيلة للوصول إلى السلطة وتداولها. ومن المضحك المبكي في سياق التغيرات التي حدثت في نيكاراجوا، أن أحد القادة الأساسيين للجبهة الساندينية، وهو الكابتن «زيرو»، قد التحق بعد الانتصار على النظام السابق بقوات الكونترا المعادية، وأصبح أحد قادتها، ومن المعروف أن هذا القائد الشجاع لا يعرف القراءة والكتابة.

الذكريات عن نيكاراجوا كثيرة، ولكن ما تتصف به من بين بقية البلدان التي رأيتها في أمريكا اللاتينية، هو كثرة البراكين والشلالات والبحيرات التي توجد فيها، والتي تلتقي ذكرياتها بنهر «هواش» الجميل، الذي لا يبارح الذاكرة، وقد زرنا ماناجوا في عام **1983**م، برفقة الرئيس علي ناصر محمد، قادمين إليها من كوبا، وأثناء برنامج الزيارة، التقينا بالرئيس أورتيغا، وهو شاب في مقتبل العمر، يمتلئ حماساً وحيوية، وكان قد تأثر بالزعيم الكوبي فيدل كاسترو وشقيقه راؤول وزير الدفاع، وزير الداخلية، وتركزت زيارتنا لماناجوا حول مسألة تعزيز

العلاقة بين البلدين، والتأكيد على الروابط الفكرية، المتمثلة في التوجه الاشتراكي لكل من البلدين، حيث إن مثل هذه الزيارات، تلقى ثناءً في موسكو وبقية الدول الاشتراكية في شرق أوروبا. وأذكر حينها أن الشيء العملي الوحيد في مباحثات الجانبين، كان أن طلب منا النيكاراجويون، تزويدهم بطائرات ميغ 17 الروسية الصنع، التي لم يعد يستخدمها سلاح الطيران اليمني لأسباب عدة، منها فنية، وذلك كمساعدة من اليمن الديمقراطي (طلب متواضع وعجيب).

من الملاحظ واللافت للانتباه، هو مشاركة النساء، ليس في المعارك السابقة ضد الدكتاتور ساموزا، ولكن في المسؤوليات اللاحقة عند الوصول إلى الحكم وبناء الدولة الوطنية الديمقراطية، وأيضاً شارك النساء في فعاليات المعارضة النيكاراجوية في مرحلة لاحقة، بعد أن قبلت الجبهة الساندينية إجراء انتخابات عامة حرة في نيكاراجوا، تشترك فيها جميع الأحزاب التنظيمات السياسية، وبعد أن استطاعت امرأة من حزب اليمين المدعوم من الولايات المتحدة الأمريكية في تلك الانتخابات العامة من هزيمة الرئيس أورتيغا، بالحصول على أصوات أكثر، ووصولها إلى سدة الرئاسة، وبذلك أصبحت الجبهة الساندينية في صفوف المعارضة السلمية في هذا البلد، وبعد 15 عاماً تقريباً من تلك الهزيمة الديمقراطية، عاد أورتيغا إلى سدة السلطة، وبنفس الوسيلة التي خرج بها منها، ألا وهي الديمقراطية والانتخابات العامة. وها هو اليوم رئيساً لجمهورية نيكاراجوا، وكأن شيئاً لم يتغير منذ أن قابلناه قبل ربع قرن من الزمن.

مشاكل نيكاراجوا كثيرة، تلك التي اطلعنا عليها عند زيارتنا تلك لماناجوا، وهذه حالة طبيعية، مثلها مثل غيرها من بلدان أمريكا اللاتينية، التي لا تستكين ولا تقبل هيمنة قوى عظمى عليها، ولكن من أكبر المشاكل التي

تواجهها ماناجوا، هي مشكلة حدوث الزلازل في مناطقها، والتي تسبب لها الكوارث بين وقت وآخر منذ قديم الزمان، وعندما زرناها في ذلك عام **1983**م، كان الزلزال الأخير هو الزلزال الذي حدث في عام **1972**م، وخلَّف دماراً هائلاً في أغلب أنحاء المدينة، ولكن سكان المدينة استطاعوا لتوهم (قبل الزيارة بعام)، أن يكملوا إعادة بناء المدينة بهمة عالية ونشاط منقطع النظير.

وفي تلك الزيارة، تعرفنا إلى ماناجوا، العاصمة الجميلة، الواقعة على ساحل بحيرة ماناجوا الكبيرة، ويحدها من الجهة الأخرى جبال ماناجوا، وهي في منطقة تكثر فيها المياه والبحيرات، وقيل لنا أن اسمها يعني بلغة محلية «منطقة وجود المياه»، كما أن جوها كان أثناء الزيارة لطيفاً، وقيل لنا إن مناخها معتدل طوال العام، فلا هي بالحارة ولا هي بالباردة. وقد قرأت أن عدد سكانها يقارب المليون الآن، بينما قيل لنا حينها إن عدد سكانها لا يزيد على ثلاثمئة ألف نسمة، كما زرنا مناطق عدة من نيكاراجوا، هذا البلد الجميل، الذي تكثر فيه البحيرات الجميلة، بحكم الأمطار الاستوائية الغزيرة والدائمة التي منحها الله إياها، وفي هذا البلد ما هو مضر من الطبيعة، ألا وهو أشهر براكين العالم، والتي كان بعضها ثائراً عند زيارتنا تلك، وقد زرنا أحد البراكين القريبة، ورأينا فوهته والحمم تصطلي بداخلها، وحينها تملّكنا الذعر، فقد قال لنا المرافقون إن ساموزا الطاغية قد رمى ببعض خصومه السياسيين من مناضلي الجبهة الساندينية وغيرهم إلى وسط هذا البركان الهائج، وبعد لحظات من الذعر، ابتسمت وقلت لنفسي مازحاً: الحمد لله أن براكين عدن خامدة تماماً، فلو كانت متأججة النار مثل هذا الذي نراه، لأخذت نصيبها من المناضلين والرفاق، أكثر مما أخذته صراعاتهم في ما بينهم.

المؤلف في سطور

– وُلد عام **1947**م في قرية «ضيئان» منطقة «الحضارم» يافع . اليمن.

. تلقّى تعليمه الابتدائي والإعدادي والثانوية في مدينة عدن، وفي مدينة تعز (**1964 . 1966**م).

– التحق بحركة القوميين العرب في يفاعته المبكرة، وكان أحد مؤسسي «منظمة جنوب اليمن الثورية» في عام **1961**م، والتي تحول اسمها في العام التالي «المنظمة الثورية لأحرار جنوب اليمن المحتل»، وهي إحدى المنظمات السبع المكونة لـ «الجبهة القومية لتحرير جنوب اليمن المحتل» (**1963**م).

– شارك في النضال الوطني التحرري ضد الاستعمار البريطاني في عدن والمحميات اليمنية الجنوبية، حيث تولى مسؤولية القطاع الطلابي في عدن وأبين عام **1964**م، ورُقّي إلى عضو خلية قيادية تنظيمية لعدن عام **1965**م.

– شارك في التحضير لقيام السلطة المحلية الوطنية فيها **1967**م، في أرياف جنوبي اليمن، وخاصة منطقة خنفر (يافع الساحل) – محافظة أبين.

– بعد نيل الاستقلال الوطني في **30** نوفمبر **1967**م كُلف بمهام سياسية، منها دعم فك الحصار عن صنعاء، الذي فرضه الملكيون فيما كان يسمى شمال الوطن، ثم عُيّن كأول مأمور للمديرية الغربية (جميع مناطق يافع في أبين ولحج)، التابعة للمحافظة الثالثة (مناطق أبين) **1969–197**م، وكان عضواً في الهيئة التنفيذية المركزية للتنظيم السياسي الجبهة القومية.

– في عام **1970**م مديراً عاماً للإدارة العامة للتعاونيات والإصلاح الزراعي.

- 1970–1975م سكرتير اللجنة السياسية للزراعة والإصلاح الزراعي، التي كان يرأسها رئيس الدولة (عدن).
- انتخب في المؤتمر الخامس للتنظيم السياسي الجبهة القومية عام 1972م، عضواً في اللجنة المركزية، وكان قد شارك إبان النضال التحريري في المؤتمرات العامة للجبهة القومية (تعز 1965م، جبلة 1966م، وكذلك مؤتمر زنجبار 1968م بعد الاستقلال).
- 1973 . 1975م سكرتيراً عاماً للمجلس اليمني للسلم والتضامن والصداقة مع الشعوب.
- 1975 . 1979م سكرتيراً للعلاقات الدولية (الخارجية) للتنظيم السياسي الموحد الجبهة القومية.
- عضواً في اللجنة المركزية للحزب الاشتراكي اليمني، منذ تأسيسه عام 1978م، وعضواً في مكتبه السياسي منذ عام 1979م.
- 1979–1982م وزيراً للخارجية.
- 1982 – 1986م سكرتيراً لدائرة الثقافة والإعلام باللجنة المركزية للحزب الاشتراكي اليمني، وعضواً في مكتبه السياسي.
- 1986 – 1994م أميناً عاماً مساعداً للحزب الاشتراكي اليمني.
- رأس جانب (دولة الشطر الجنوبي) في لجنة التنظيم السياسي الموحد، الوحدوية اليمنية، عامي 1989م ـ 1990م.
- انتخب في عام 1990م عضواً في أول مجلس رئاسي لليمن الموحد «الجمهورية اليمنية»، وأعيد انتخابه عضواً في مجلس الرئاسة بعد الانتخابات النيابية العامة عام 1993م.
- كان خارج اليمن للعلاج عند اندلاع حرب عام 1994م، وبذل مساعي لوقفها، ثم اضطر للبقاء خارج الوطن بعدها.

– عاد إلى اليمن في يناير 2002م.

– عُيِّنَ في شهر مايو 2003م مستشاراً لرئيس الجمهورية اليمنية، وحتى الآن.

– كُرِّمَ بالأوسمة التالية: وسام 14 أكتوبر، وسام الاستقلال 30 نوفمبر، ميدالية مناضلي حرب التحرير، وأوسمة خارجية.

– له الكثير من الكتابات السياسية، وإسهامات ثقافية وأدبية، وقد صدرت له عدة كتب، هي:

حول بعض قضايا العمل الإعلامي والأيديولوجي 1985م.

ذكريات وأحاديث عن النضال الوطني والوحدوي 2004م.

متى يبدأ التعافي العربي؟ 2004م.

الغربة ليست وطناً 2007م.

الفهرس